AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



حميد صالح الدقم
للفرن ٩٢٢٩٧٧

عصر سلاطين المماليك

ونتاجه العلمي والأدبي

892.709
S163aA
v.3
pt.1
c.1

تأليف

محمود رزق سليم

ماجستير في الآداب
أستاذ مساعد بكلية اللغة العربية

المجلد الخامس

وهو القسم الأول من الجزء الثالث

في النثر الفني

١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م

الناشر — مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت : ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية ٦ سكة الشابوري بالحلمية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الكريم ، وبعد فهذا هو المجلد الخامس من كتاب « عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى » . ويتألف منه ومن المجلد السادس ، الجزء الثالث من هذه الموسوعة التى تؤرخ العصر المذكور وبخاصة ناحيتاه العلمية والأدبية .

وفى هذا الجزء الثالث بمجلديه ، أتحدث عن « النثر الفنى » أى الكتابة الإنشائية وما يتصل بها من ألوان النثر .

وقد كانت النية متجهة عند البدء فى طبع هذه الموسوعة ، إلى أن يكون الحديث فى الجزء الثالث منها عن الشعر والشعراء ، وفى الجزء الرابع عن النثر الفنى . ولكن ظروف التأليف والطبع معا قد أرادت عكس ذلك .

وقد تقدمت بالجزء الثالث المذكور إلى كلية دار العلوم — جامعة القاهرة — لنيل درجة الماجستير ، فنلتها بتقدير ممتاز . وكانت لجنة المناقشة برئاسة الاستاذ الجليل عبد الحميد حسن وعضوية الأستاذين الفاضلين على الجندى وعمر الدسوقى .

وقد اقتضى هذا التقدم أن أصب هذا الجزء فى قالب جامعى فيه دقة وعمق واستقصاء وشمول ، وتحليل وتدليل وحسن ربط ، إلى غير ذلك ، مع استيفاء شكلياته ، مما جعل له منهجاً قد يخالف المنهج الذى اتبعته فى المجلدات السابقة من بعض الوجوه .

وقسمت الحديث فيه ستة أبواب ، يتقدمها جميعا باب تمهيدى ذو ثلاثة فصول :

فى الفصل الأول منه عرفت بعصر المماليك من الناحية التاريخية ، وتكلمت عن اصلهم وتربيتهم ونظام الحكم فى عهدهم وعن عنايتهم بالعلوم والآداب — وهذه الموضوعات طرقتها فى المجلدات السابقة . ولكننى ، وأنا بصدد بحث جامعى مستقل ، رأيت من الضرورى أن أتحدث عنها استكمالا له . أما هنا فلا ضرورة إلى إثبات هذه

الموضوعات ، لذلك حذفت هذا الفصل. وفى الفصل الثانى بينت معنى النثر الفنى ، فأثبته هنا لجدته وطرافته .

والفصل الثالث ذو خلاصتين : الأولى فى النثر الفنى منذ الجاهلية إلى انتهاء الدولة العباسية ، فى الحجاز والشام والعراق ، والثانية فى النثر الفنى بمصر منذ الفتح العربى إلى أول عصر المماليك .

والخلاصتان طويلتان وبهما كثير من النصوص . واضطرتنى إليهما ضرورة الربط بين نثر المماليك وما قبله . وقد رأيت هنا أن أكتفى منهما بصفوة وجيزة من سطورهما تفى بالغرض ، وحذفت منهما كثيرا من النصوص . وحولت كل خلاصة إلى فصل مستقل ، وبهذا كله تحول الباب التمهيدى إلى ثلاثة فصول .

أما أبواب البحث الستة فهى على الترتيب : باب الرسائل ، والوصف ، والقصص والخطب وما يتصل بها ، والنقد الأدبى ، ثم باب الخصائص . وكل باب منها مستوفى فى موضوعه ، دقيق فى ترتيبه ونظامه وتقسيمه .

ولا أرتاب فى أن القارىء سيقدر الجهد والزمن اللذين صرفا فى إتمام هذا البحث ، وسيشعر بمقدار الضوء الكاشف الذى ألقاه على نثر المماليك ، وعلى الناحية الأدبية فى عصرهم . وبقيمة الإضافات العلمية التى استفيدت منه ، وبصدق النتائج التى أجملتها فى أعقابه ، وفى مقدمتها أن النثر الفنى فى عصر المماليك حفظ أمانته وأدى رسالته وشارك فى شتى نواحى الحياة .

وقد يكون من المفيد أن أنوه بالمنهج الذى أنتهجته فى تأليف هذا الجزء . فقد رأيت أمامى منهجين اصطنعهما بعض الباحثين المحدثين :

أما المنهج الأول فأن أتخذ من كتاب العصر عماداً للبحث ، وبيان ما فى النثر من فنون وخصائص ، فأتحدث عنهم كاتباً كاتباً مع ترتيب الحديث عنهم ترتيبا زمنياً ، أو تبعا للفنون التى برع فيها كل منهم . فأتحدث مثلا عن كتاب المقامات ، ثم عن كتاب الرسائل ، ثم عن كتاب المذهبيات ، وهلم جرا ، وأبين عند الحديث عن كل واحد منهم خصائصه ومميزاته وألوان فنه .

وهذا المنهج هو الذى اتبعه المرحوم الدكتور زكى مبارك فى كتابه القيم « النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى » . وقد عاونه على سلوكه أنه كان يتحدث عن النثر فى قرن

واحد وذلك أعون على حصر كتابه ، وأدعى إلى تقسيمهم طوائف بحسب الفنون التى برزت فيهـــا كل طائفة .

ولكننى عدلت عن سلوك هذا المنهج فى بحثى . لأننى رأيته يؤدى إلى إبراز خصائص كل كاتب على حدة ، فتضيع فى ثنايا ذلك خصائص النثر فى العصر كله باعتباره وحدة . أو على الأقل تتبعثر هذه الخصائص دون أن تجمعها جامعة قوية تركزها وتلون العصر كله .

واعتقادى أن كل عصر أدبى له خصائصه ومميزاته ، وله توجيهاته لأدبائه وتأثيراته فيهم ، فهم يخضعون لها ، وإن لم تنس ما لكل منهم من خصوصيات فردية . ومن أهم ما رميت إليه فى هـــذا البحث إبراز خصائص العصر ومميزاته الفنية وبيان موحياته وتأثيراته فى أدبائه ، مما لون أدبهم جميعا بألوان مشتركة . وإن لم أنس خصوصياتهم الفردية .

لهذا وجدت سلوك المنهج المذكور لا يعينى على بلوغ ما أهدف إليه .

أما المنهج الثانى فأن أتخذ النثر نفسه بفنونه وخصائصه مداراً للدراسة ، وأن تكون الدراسة ذات مراحل زمنية مرتبة من أول العصر إلى آخره ، مع إبراز هذه الخصائص فى كل مرحلة منها ، وتعليل ذلك ، وربطه بالمرحلة السابقة ، وهلم جرا .

وهذا المنهج منهج جامعى محبوب ، ولا أنكر أنه نافع وقيم فى مثل هذا البحث ، وأنه يساعد على بيان تطور أحوال النثر فى خلال العصر .

غير أننى وجدته لا يسعفنى أيضاً على الوصول إلى ما أرمى إليه ، لأنه يظهر العصر مفككك الأواصر متباعد الأوصال مشعث الروابط ، وهذا لا يعين على إبراز خصائصه إبرازا كاملا .

وقد يكون هذا المنهج منتجا إذا كانت مؤثرات العصر الأدبية ومقتضياته ، قد أصابها التغير من فترة إلى أخرى . ولكننى نظرت فى العصر الذى أنا بصدده ، فوجدت مؤثراته ومقتضياته ، واحدة من أوله إلى آخره على وجه التقريب . وقد بينت ذلك فى بحثى فى أكثر من مكان . ولا سيما عند الحديث عن البيئات المختلفة التى عاش فيها النثر الفنى فى مصر طول هذا العصر ، فاصطناع هذا المنهج يوقعنا حتما فى تكرار ممل ، عند ذكر الأسباب والنتائج والأمثلة ، ورأيت أن لا طائل من بذل المجهود فى سبيله . لهذا عدلت عن سلوكه .

أما منهجى ، فهو أننى اتخذت فنون النثر دعائم للحديث عنه ، باعتبار العصر كله وحدة متماسكة متشابهة الأجزاء ، إلا لماما لماما ، كما بينته أيضاً فى أكثر من موضع فى بحثى .

ثم أعقبت الحديث عن الفنون بالحديث عن الخصائص . ورأيت أن أمهد للبحث كله بهذا الباب التمهيدى الذى أشرت إليه . والذى تحول هنا إلى فصول ثلاثة .

هذا . على أنى كنت أنتهز المناسبات فأعرف ببعض الكتاب فى صلب البحث ، أو الهامش ، استيفاء لما تتطلبه . وتحدثت عن بعض المخطوطات ونشرت شيئا من نصوصها وأثبت المراجع بالهامش عندما تعن حاجة إلى هذا الإثبات .

ولا زلت عند عقيدتى التى رددتها فى أكثر من مناسبة ، وهى أن أدب هذا العصر — عصر المماليك — لا يزال مجهولا مغموراً . ولا تزال مخطوطاته مغتربة ، أو مجفوة فى دور الكتب ، ولو أتيح لها النشر لتغير وجه الحكم على أدب العصر المذكور .

وقد وضعت نصب عينى وأنا أطبع هـــذه الرسالة الطويلة توصيات حضرات الأساتذة الأجلاء أعضاء لجنة المناقشة ، فصححت الخطأ وشرحت الغامض وبسطت المجمل حسبما أشارت إليه ورأيت صوابه .

والله سبحانه وتعالى هو الموفق للسداد ، الهادى إلى سبيل الخير . المعين على العمل الصالح ، أرجوه عوناً لى ولغيرى من كرام الباحثين على خدمة هذا الوطن العزيز مصر المجيدة ، فى ظل جمهوريتها الفتية الرشيدة إنه سميع مجيب ؟

المؤلف

فصل
فى بيان معنى النثر الفنى

لكل أمة من الأمم فى شتى عصورها الأدبية ، ألوان من الكلام ، تستخدمها فى شئونها المختلفة . وكل لون منها يناسب مايؤديه من شئون . فمنها المحادثة ، ومنها الشعر ، ومنها النثر العلمى ، ومنها النثر الفنى .

والنثر الفنى — بين أنواع النثر — هو مايقابل الشعر ويماثله ، إذ الشعر بطبيعته عمل فنى ، حتى ولو بدا فى أردأ صوره ، وأخس حالاته — فله من قيود الوزن والقافية موسيقى خاصة تدخله فى حظيرة الفن .

أما النثر فقد يمسه الفن فيصبح نثرا فنيا أولا يمسه ويناى بجانبه عنه ، فيصبح للنثر حينئذ صفات أخرى غير الفنية التى نقصدها هنا .

فالنثر العلمى ، مثلا ، الخالص للعلم ، لايعنى إلا بحقائق العلوم ونظرياتها . ويعرض الفكرة عرضا سافرا غير مشوب بنزعة نفسية خاصة ، فإذا تساوى عدد من العلماء فى هذا العرض بحيث لم تبد خلاله « شخصية » أحدهم ، بل تساووا جميعا فيه كأنهم نقلة آثار ، ورواة نصوص وحملة أخبار ، كان هذا النثر علميا محضا . ومن الأمثلة لذلك ، منطوق النظريات الهندسية وحلولها التقليدية ، ومثل درس فى تشريح الجسم الإنسانى . وكوصف مجموعة نباتية وبيان فصائلها وأجزائها الطبيعية . وكوصف ظاهرة كيميائية كتكوين صدأ النحاس . أو تركيب الماء من عنصريه .

ويقول بعضهم إن الأسلوب العلمى الخالص ، يندر وجوده ، ذلك لأنه مامن شخص كائنا من كان ، يستطيع أن يبرىء حديثه وأسلوبه من مظنة عاطفته ، ومن شائبة شعوره ، حتى الكيميائى الذى يتصدى لتحليل العناصر أو تكوينها أو

اختبارها ، فإن لابد له بين آونة وأخرى أن يلون حديثه بلون عاطفى ، معبرا عن ذوقه وإحساسه إزاء مايقوم به من تجارب ، وربما نقد غيره من المجربين وآخذه ببعض هناته ، ووازن بينه وبين سواه . . . إلى غير ذلك مما يجعل له «شخصية» فى أحاديثه . وبهذا تبدو الألوان الفنية على أسلوبه .

ومما سبق يتبين لنا معنى النثر الفنى . فهو نثر تلونه العاطفة والذوق الشخصى ، ويثب فيه الشعور ، مع سمو فى معانيه وروعة فى أخيلته . وهذه الألوان العاطفية الذوقية تتخذ لها مسالك أسلوبية تصبح خصائص للنثر تكسبه فنيته .

وليس النثر الفنى كالحديث المتبادل بين الناس فى شتى شئونهم اليومية المعتادة المكرورة الرتيبة . وإنما يبدو فيه عمق التفكير ولطف التعبير ودقة التصوير ، وصبغ الذوق . سواء أكان من عمل البديهة والارتجال ، أم من صنع الروية والتهذيب . وبهذه المناسبة نذكر أن الطبائع مختلفة . والاستعداد الفطرى أنواع . ومن الناس من لابديهة له ، وله روية . ومن لا روية له ، وله بديهة .

وأنت قد تسمع شيئا من النثر العلمى ، فتتابعه بذهنك وتسايره بعقلك . أما شعورك وعاطفتك ففى واد آخر . ولو لم يكن لك من جميل الصبر وسعة الحلم نصيب ، لقطعت بينك وبينه الصلة . أما النثر الفنى فتتابعه بنفسك وتسايره بوجدانك ، فتزداد بينك وبينه الصلة وتطلب منه المزيد ، دون حاجة إلى صبر جميل أو حلم واسع . وما ذلك إلا لطرافة موضوعه وروعة تصويره .

ألا ترى إلى كثير من الطلاب فى فصولهم ، وصوت المعلم يشق أجواز الفضاء ، ينصرفون عنه إلى رواية ساقطة فى يدهم يقرءونها ، أو مجلة تافهة يتصفحونها . . . ذلك لأنهم يجدون فيها — على تفاهتها — غـــذاء نفسيا وروحيا حبيبا إليهم أثيرا عندهم .

فالنثر الفنى يطن فى أذنك ، ولكن لا كالطبل ، ويسمن فى ذوقك ولكن لا كالورم . إنه النغم المتناسق المحبوب . والطعام الشهى المطلوب : يغريك بالعود إليه بين آن وآن ، لتستعيد به اللذة النفسية التى متعك بها أول مرة . لقد انتهيت

منه ، ونفسك لم تنته . إنها تراودك على معاودته . وكلما عاودته بدا لك فى أثواب جديدة ، ومعان وليدة .

والنثر الفنى تتوافق فواصله ، وتنسجم قرائنه ، وتوافى عباراته كما تتوقعها الآذان الموسيقية السليمة الحساسة . فإذا بلغ إليها ، أصابت ببلوغه ، طمأنينة وراحة فيهما لها اللذة والمتعة ، غير شاعرة منه بنبو ولا قلق . وهذه ميزة فنية ، وخصوصية ذوقية ، لا يؤتاها إلا الراسخون فى النثر .

وأحيانا يكون منطقيا متصل الحلقات متعاقب الأجزاء يبدأ بالأهم فالمهم ، ويستعين بالمقدمة وحسن العرض الوصول إلى النتيجة ، ويقرن بعض الأشباه إلى بعض . وهكذا تبدو عليه سمة العقل والنظام .

وهذه فى الواقع صفات النثر العلمى . فإذا سكبت عليه العاطفة من صوبها ، والنفس من ذوبها ، ولونه الذوق بأصباغه كان فنيا . وكلما زاد نصيبه من هذه الأصباغ ، كان أدخل فى باب الفن ، وكان أروع فى مجال الصناعة . لأنه يكون بذلك قد جمع بين الحسنيين . حسنى المعرفة ، وحسنى الذوق .

ومن هنـــا نشعر أن النثر الفنى من خير الأدوات لعرض حقائق العلوم واضحة ، كما هو من أفضل الوسائل لعرض خلجات النفس قوية . وإن كان العمل الأخير هو وظيفته الأولى .

فالعالم مؤرخا أو اجتماعيا أو فيلسوفا ، أو أى صنف آخر ، إذا عرض معلوماته على طريقته الخاصة محاولا أن يؤثر بها فى السامع ، ويصل إلى مرحلة الاقتناع ، كان رجل فن ، بجانب أنه رجل علم . ويكون قد اتخذ النثر الفنى وسيلة إلى ذيوع معلوماته ، وضمان الثقة بها .

ولهذا يتبين أن الناثر الفنى ينبغى أن يكون ممتزجا بموضوعه مؤمنا به ، مقدرا لنفسية سامعه أو قارئه . ممتلكا ناصية العبارة . لإخراج موضوعه مخرجا كلاميا شائقا شاملا لتصوره له ، حتى يحل من نفس مخاطبه محله من نفس قائله .

وقد أشرنا إلى أن الوظيفة الأولى للنثر الفنى هى عرض خلجات النفس قوية، وتصويرها كما طفرت إلى صفحة الشعور . وليس معنى ذلك أنه يصور انفعالات وعواطف وجدانيات فحسب . لا . وإنما لابد للنثر الفنى من حقائق إنسانية يعتمد عليها ويتخذها وسيلة إلى غايته . لايكتفى بأن يضعها أمام مخاطبه سافرة عارية ، بل يخاطب بها نفسه وشعوره ليوقظه ، وخياله ليحركه . وعاطفته لتنفعل بها [١] والنثر الفنى فيه مرونة تسمح له بتنوع مسالكه ودعائمه ، وتسوغ له قبول خصائص الشعر — فيما عدا الوزن — ولهذا تجمل فيه الأخيلة والتشابيه . ويحلو التعبير العاطفى المشبوب وتزدان الزخارف المعنوية وغير المعنوية [٢] .

وترى من هذا كله مبلغ دلالة هذا النثر على حضارة الأمة ونضجها العقلى وسموها النفسى .

ومن هذا وذاك ترى أن للنثر الفنى صفات وسمات ، هى بمثابة القيود التى ينبغى رعايتها ، كل منها على حسب المقام والمقتضى .

وقد التزم بعض الكتاب — مثلا — شيئا من هذه القيود ، فأصبحت صبغا دائما من أصباغ أسلوبه فى كل مقام . وتابعه بعض الأدباء فى ذلك . كالتزام الصاحب ابن عباد للسجع ، وميل القاضى الفاضل للفقرات الطويلة . وابن نباته للتورية مثلا ... وهذا الالتزام هو موضع المؤاخذة . ولكن ليس معناه أن نخرج نثرهم من دائرة الفن ، بل لعل ذلك أدخل إليه وأكثر إمعانا .

هـــذه الصفات والسمات تجعل من النثر الفنى ، مجالا واسعا للدراسات البلاغية ، وعناية علماء البلاغة .

---

١ — الأسلوب ص ١٣ — للأستاذ الشايب .

٢ — يفرق الاستاذ عبد الحميد حسن فى كتابه « الأصول الفنية للأدب » ص١٨٦ تحت عنوان « الأسلوب » بين النثر الفنى والأسلوب الشعرى ، ويقصر الأخير على الاسلوب الذى تتغلب فيه العاطفه وتبرز . على أنه يجعل للأول النصيب الأوفى من الخيال وجمال العبارة وما يتطلبه من الإبانه من تشبيه وتمثيل ومجاز .

وإن أبلغ أمثلة النثر الفنى أساليب القرآن الكريم، لأنه يتخير لموضوعه القالب التعبيرى الذى يناسبه.

فالدعوة إلى الجديد وتسفيه القديم، ومس العقائد التى ألفتها النفس وآمنت بها القلوب، تحتاج إلى أسلوب خطابى تتوافق فيه الفواصل، وتقصر الفقرات، وتتلاحق النغمات، وتختار ألفاظه وتراكيبه من ذات الدوى والجلبة.

أما تقرير المبدأ وتقنينه وتفصيل تشريعه، فيحتاج إلى أسلوب مرسل تطول عباراته وتكثر إشاراته، وتختار ألفاظه محدودة المعانى واضحة المرامى، لاتحتمل تفصيلا جديدا، ولا تأويلا... وهكذا

والقرآن الكريم له مختلف هذه الأغراض. فاختلفت لذلك أساليبه. وهذه إحدى مظاهر إعجازه.

ومن أفضل الأمثلة كذلك، حديث الرسول عليه السلام، الذى أوتى جوامع الكلم وفصل الخطاب. وكان أبلغ العرب، شرفا فى المعنى ودقة فى الأداء بغير نقص أوزيادة، دون غاية بلاغية. ورعاية تامة للمناسبة. فى عبارة طلية عذبة خفيفة فى السمع واللسان، سهلة فى الحفظ. — وكثيرا ما يسترسل الرسول عند التشريع ويسجع عند النصيحة والدعوة إلى الفضائل الخلقية والآداب الاجتماعية، ويوازن عند الرغبة فى التأثير، ويجنح إلى الخيال والتمثيل حينما يريد الإيضاح والتوكيد، مع رعاية دقيقة للنظير، وميل لطيف إلى المجانسة أوالمطابقة أوالمقابلة، انسيابا مع المعنى، وبذلك يكسب الحديث رونقا وحسن قبول.

وللنثر الفنى ألوان متعددة. فهو يحتوى أحيانا على النادرة الطريفة والفكاهة الخفيفة والتورية الظريفة، فى لفظ وجيز وعبارة قصيرة سهلة المئونة. تتوافد من ورائها على خيال السامع، شتى المعانى والصور الممتعة. حتى ليشعر كأن أصواتاً تهمس فى أذنه، وأطيافا تتحرك أمام عينيه، ونفوساً تتخالج مع نفسه. وهو بمرقبه يكشف خلجاتها، وعواطف تتماوج مع عواطفه، وهو يُتابع موجاتها. كل ذلك

من حوادث الحياة التى تبدو فيها فوارق عجيبة تبعث على الضحك أو العظة ، أو تغرى بالسرور وترسم العبرة . ولاتنى تتواثب معانيها وأخيلتها هذه، كلما وثبت إلى بؤرة الشعور . .

ومن ألوان النثر الفنى : المقالة والوصف والقصة والنادرة والرسالة والخطبة والعظة ، والمناظرة والجدل ، والنقد والتاريخ . ولكل صنف منها مسلك أسلوبى خاص يناسب عمله ويختلف كثيرا أو قليلا عن أسلوب سواه . وليس من الضرورى أن توجد كلها فى عصر واحد ، بل كل صنف منها رهن بعوامله ومولداته . فمنها مايظفر إلى الوجود ، ومنها ما يفتر ، ومنها ما يموت . فالمقالة لم يكن لها وجود فى العصر الجاهلى ونشطت فى العصر العباسى والعصر الحاضر . والخطبة أهملت فى العصر العثمانى ، وكانت مزدهرة فى صدر الإسلام وعصر بنى أمية . والرسائل الديوانية أينعت فى العصور الوسطى ، وضعفت شوكتها فى العصر الحديث ، ومثلها أيضا الإخوانيات والمقامات . فقد اختفى هذان المظهران الأدبيان الجميلان فى العصر الحديث إلا لماما . وهلم جرا . .

وفى العصر الحديث ، لما انتعشت الحالة الفكرية . وتيقظت النفوس إلى حقوق الوطن المسلوبة ، ونشطت الحركات الثورية ، برز الأسلوب الخطابى الحماسى ، وطغى على غيره من الأساليب الهادئة المتزنة . وكانت خطابة سعد زغلول مثلا رائعا لهذا المنهج الأسلوبى الجديد . وأخذ هذا المنهج الخطابى بتلابيب الناس وسرى بين الأدباء — خطباء وغير خطباء — مسرى الكهرباء ، حتى اصطنعه الجميع فيما يتكلمون . حتى العوام فى باطن الريف . .

وكنا — منذ أكثر من ربع قرن ، والثورة المصرية على أشدها — نسمع أحد الخطباء يدوى صوته فى الأرجاء ويطن فى الآذان . ونحن فى عجب به . نحييه بين آونة وأخرى بالتصفيق والهتاف المتواصل . . عند بعض مقاطعه الرائعة المؤثرة . . وكنا — فى الحق — لا نفهم شيئا مما يقول ! . وأغلب الظن أنه هو أيضاً لا يدرى ماذا يقول ! ولكنها حمى الخطابة رفعت حرارة حماسته ، وأطلقت

عقال لسانه فراح يهدر كما يهدر البعير . ونحن يروعنا منه جرس صوته واتساق مقاطعه ، وتوافق فواصله ، ورنين سجعه ، وترديده المثير لكلمات : الحرية والاستقلال ، والدماء والجلاء . . .

وهكذا ترى أن سياق الحوادث ، ومنطق العصر ، يوحيان بلون خاص — أو ألوان — من الأسلوب تظفر فيه مسالك أسلوبية خاصة ، توافق مزاج العصر وذوقه ، وتمسك بزمام الأسلوب

وعلى هذا نستطيع ترديد القول : إن لكل عصر نثرا فنيا خاصاً به ؛ تتركز فيه خصائص ، هي من فعل هذا العصر وبيئاته ومؤثراته المختلفة ، اجتماعية وثقافية وغيرها ، يخضع لها كتاب العصر على الإطلاق ، بحكم اتحادهم فى الاتصال بهذه المؤثرات. وقد تبدو لكل واحد منهم على حدة ، خصائص ذاتية ، تلون نثره أيضا ، مع تلك الخصائص العامة ، نتيجة لاختلافه الضرورى عن غيره ، فى الطبيعة والاستعداد والذوق والمزاج ومقدار التأثر .

فالحياة الأدبية بالأندلس ، وما اكتنفها حينا من جمال طبيعة ، وكثرة خير ، ورغد حياة ، وطمأنينة بال ، وترف فى تناول العيش ، وانتشار غناء ، وسعة أنس ، وإقبال على اللهو ، واختلاف إلى الرياض والبساتين ، إلى غير ذلك ، قد تأثرت بذلك كله أساليب الأدباء فيها ، ووثبت إليها سمات وصفات أسلوبية ، وليدة لتلك الملابسات ، ومنها حسن التخلص والتعليل ، وروعة الوصف والاندماج مع الطبيعة بوصفها أو استمداد الوصف منها .

وفى العصر العباسى ، لما تلاقحت الثقافات ، وأقبل الناس على حياض العلم ظمأى ينهلون . وتعمقوا فى فهم حقائق الكون على نسق فلسفى معلل ، وانتشرت المترجمات ، من كتب الحكماء والمناطقة ، أخذ الأدباء يعللون الأشياء والحوادث والأخلاق بعلل عقلية منظمة ، حتى القضايا الشعرية كانوا يعللونها ويدعمونها بأمثلة ملموسة قوية ، ويقيسونها قياسا منطقيا بارزا .

وفى العصر المملوكى ، كان الشعب محروما خيرات بلاده وثمرات أرضه . وفى

مقدمته أدباؤه الذين حرموا طيب العيش وسعة الجاه ونفوذ المنصب ، واستأثر بذلك ذوو الحول والطول من الترك والجركس المستبدين الطغاة ؛ ومن يلوذ بر حابهم ويتمسح بأعتابهم . فذاعت بين النفوس حالة من الحقد والمرارة ، والخوف والصبر معا ، أنتجت يأسا يشوبه الأمل ، ونقدا لم يخل من اللذع والسخرية . ودعاهم ذلك إلى التماس السلوى والعزاء . فانبعثت حينئذ جملة مناهج أدبية لطيفة مناسبة ، احتلت مكانة مرموقة فى عالم أدبهم منها : التورية والإبهام والإلغاز . وصبغته بصبغتها اللامعة . ـ وقد تكون هذه المناهج سابقة فى وجودها على هذا العصر . ولكن ظروفه مكنت لها فى أدبه ، بما لم تمكن لها ظروف من قبل .

وهكذا . ترى لكل عصر منهجا أسلوبيا تسوده صفات خاصة ، يخضع لها أكثر أدبائه ، إن لم يكن جميعهم .

وقد ساد فى القرن الثالث الهجرى ، أسلوب نثرى مرسل ـ غالبا ـ لغوى مدرسى استطرادى ، فيه طرف من النزعة الموسوعية ومنه كلام الجاحظ والمبرد وابن قتيبة . وساد فى القرن الرابع أسلوب بديعى يهتم بالسجع والازدواج والترصيع ، والفقرات القصيرة ، والاقتباس والتوجيه ، ومنه كلام ابن العميد والخوارزمى والبديع وابن عباد . وساد فى القرن الثامن أسلوب بديعى يلتزم السجع ويطيل الفقرات ويكلف بالتورية والاستخدام والتضمين ، وغيرها ، ومنه كلام ابن نباته وابن فضل الله العمرى ، والصفدى . وهلم جرا . . .

فهكذا ترى أن لكل عصر ـ أو قرن ـ منهجا وأسلوبا ، واتجاها أدبيا ، وأن الظروف الاجتماعية التى تمر بها الأمة ، وما فيها من ثقافيات واقتصاديات وغيرها ، تتفاعل وتلد هذا المنهج والاتجاه وتكسبه ألوانه ، ومن هنا تحكم أن النثر الفنى وليد الحضارة الفكرية ، وثمرة اليقظة النفسية وأنه لا يد لأدباء عصر ، فى وضع أصباغها ، واختيار ألوانها ـ غالبا ـ من تلقاء أنفسهم .

هذه مسألة جديرة بالدراسة الجديدة المستفيضة . وقد تناول بعض الأدباء قديما وحديثا الكلام عن المؤثرات الموجهة للأدب ، كالبيئة والثقافة والحكم

والاقتصاديات والأديان وصلات الأمم بعضها ببعض ، إلى غير ذلك . ولكنى أحسب أن أحدا منهم لم يعن بها العناية الكافية ، ولم يبحث البحث المستقل عن أثر هذه العوامل فى «الأسلوب» وحده وفيما يتنابه من أعراض . . . مثل هذا البحث يكون نافعا جدا ، لو اتجهت إليه عناية الأدباء . ونشير إلى ذلك مرة أخرى فى مناسبة ثانية .

* * *

والناشىء المتأدب ، فى حاجة قصوى إلى معرفة مسالك المتقدمين فى أساليبهم ، وإلى حفظ كثير من نصوصهم لأن ذلك يبسط أمامه أمثلة لا تعد ، لطرق الكلام وفنون الحديث العربى ويشجع خاطره ، ولسانه ، ويفصح منطقه ، ويجرئه على القول ، ويعوده حسن العبارة ولطف الإشارة .

وإذا هو أكبر من القراءة لأحد الأدباء ، وأدمن حفظ نثره مثلا لمصادفة ، أو التئام هوى . فانسجمت نفساهما . وتوافى ذوقاهما ، لا يلبث أن يتخرج بهذا الأديب فى فن القول ، فيلحب لحبه ، ويسلك طريقه ، ويكون له نعم المعين على الإنشاء . وكلما كبر واشتد ساعده ، أخذت مؤثرات بيئته ، وخصوصياته تلون هذا الإنشاء بأصباغها .

وقد نبه كثير من النقاد السابقين على ضرورة اطلاع الناشىء المنشىء . على القرآن مع العناية بحفظه ، وعلى حديث الرسول ، وأدب العرب ، وشعر الفحول منهم . نص على ذلك ابن خلدون ، وضياء الدين بن الأثير والشهاب محمد الحلبى وتقى الدين بن حجة الحموى — وسنشير إلى ذلك فى مناسبة أخرى — .

وكذلك أول ما ينبغى للناثر أن يتأهل به ، ويتكمل ، أن يكون ذا حظ محمود من متن اللغة ونحوها وصرفها . وتلك أدواته الأولية ووسائله البدائية التى لاغنى له عنها : والتى ينبغى له رعايتها . وإلا خرج عن أن يكون أديبا عربيا .

والناثر الفنى — حقا — ليس نحوياً ولا صرفيا ولا بلاغيا ولا لغوياً . ولكنه ينبغى أن يكون ذا حظ محمود من ذلك كله — كما أشرنا — ثم هو حين يعرض

لعمله الفنى ينطلق حرا لا يلوى على شىء — عدا ما استقر فى نفسه من هذه الدعائم الأولية . . وهو فى انطلاقه يطيع حافزه ويستجيب لذات نفسه ، إثر انفعالاته العاطفية الثائرة وكأنما يريد بذلك أن يضع عن كاهل خاطره ما يثقله من تصوراته الوليدة ، كما تضع المنجبة جنينها عند اكتماله .

هذه الحرية والانطلاق يدفعانه إلى التجديد دون وعى منه ، التجديد فى التصور وفى التصوير وفى التعبير . وبمقدار حظه من دقة الملاحظة وقوة الإدراك وسعة المعرفة وصدق العاطفة وشرف الانفعال وسمو الشعور وجمال التصوير ودقة التعبير ، يكون نصيبه من الأدب ، وحظه من الفن ، ودنوه من الكمال .

وإذا اكتملت الفنية الناثرة فى ذوق أديب ، رأيته ينظم المعانى الثائرة من نفسه إلى صفحة ذهنه ، فى قوالب تعبيرية يصبها فيها ، تتسق معها وتنم عنها ، مراعيا فيها قوانين البلاغة ، بأوسع حدودها وأدقها ، دون عمد أو تعمل . بل ينطلق انطلاق الجواد المطبع . والسيف المعود ، ويجود لسانه جود الغريزة . فيفصل فى مواضع الفصل ، ويصل فى مواضع الوصل . ويوجز إذا استدعى المقام إيجازاً ، ويطنب إذا اقتضى إطنابا ، ويؤكد فى مقام الإنكار : ويبهم فى مواطن السخرية ، ويكنى للتدليل ، ويشبه للتوضيح . . وهلم جرا . . .

والحق أن الناثر الفنى المكتمل الأداة والوسيلة ، تستقر فى نفسه ومزاجه — بعد الدأب والممارسة — خصائص تلون نتاجه ، وتكون «شخصيته» — وقد نوهنا بذلك — وتستقر فى لسانه وقلمه . وقلما يحيد عنها إلا لمؤثرات جديدة . وتصبح رأنها «قيود» له لا يستطيع الفكاك منها ، وهو عنها راض كل الرضا . وقد يعجب كيف يستطيع أحد النقاد أن يرى فيها عيوبا وسيئات يكشف عنها — ولكن الناقد — على كل حال — أوسع منه حرية ، وأطلق منه نظرا ، وأكثر منه تصرفا فى معرفة خصائص الأساليب ، وفيما ينبغى منها ومالا ينبغى .

والناثر كلما كان أحرص على أن يهيىء لأسلوبه عناصر الكمال ، كان أفضل وأبلغ . وليس جميع الناثرين متساوين فى نصيبهم منها بل هم متفاوتون . وهذا التفاوت

والنقص هو الذى يغرى الناقد بنقده ، ويشق أمامه السبيل لبيان الحسنات والسيئات.

بقيت كلمة نحب أن نبديها . وهى أن فنية الأديب إنما تكتمل وتنضج بمقدار قدرته على الاندماج فى قومه وعشيرته ، واستمداد إحساساته من إحساساتهم . والانفعال لهم ، والتعبير بعواطفه عن عواطفهم . واصطناع خصائصهم الأسلوبية فى عباراته تأثرا بهم ، ودلالة على قوة صلته بهم . — وعلى الرغم من أنه يكون — عادة — فى مستوى ثقافى ونفسى أرفع من مستوى عامتهم ودهمائهم ، تنضح خصائصهم الأسلوبية على أسلوبه ، وهى التى تقدره على دقة تصويرهم فى أدبه ، وتعينه على توضيح غامضهم وتفسير متشابه إحساساتهم . وهذه هى إحدى سمات الفن الأصيلة — فى رأينا —

هذا وإنما نرسم هنا ، المثل الأعلى للناثر الفنى ، أو نحاول أن نرسمه . ولكل ناثر منه حظ ونصيب ، وبمقداره يوزن أدبه وتعرف قيمته .

وبعد . فهل كان للعصر المملوكى نثر فنى ، كما كان لغيره من عصور العربية . ؟ وما ألوانه وأصباغه وفنونه ؟ وما مبلغها من القوة وحظها من الاستجابة لمؤثرات العصر ، أو من وحى التقليد ؟ هذه الأسئلة وغيرها نحاول أن نجد لها جوابا فى الأبواب القادمـــة . لعلنا بذلك ننصف أدباء هذا العصر ، ونقدم إليهم بعض الاعتذار .

فصل

فى النثر الفنى قبل المماليك ، فى الحجاز والشام والعراق

— ١ —

نثر الجاهلية

نعنى بنثر الجاهلية ، النثر الفنى الذى عاش قبل الإسلام . وهو يتمثل فى عدة قصص تتخللها أحيانا أمثال أوحكم ، وجملة من الوصايا والعظات ، وعدد من المنافرات والمفاخرات ، والخطب والأمثال المفردة ، والحكم المنثورة ، وشىء من سجع الكهان .

ومما روى من ذلك فى كتاب الأمالى لأبى على القالى :

١ — المفاخرة بين طريف بن العاصى والحرث بن ذبيان عندبعض أقيال حمير .

٢ — حديث النسوة اللاتى أشرفن على تربية بنت الملك ثم أشرن عليها بالتزوج ووصفن لها محاسن الزوج

٣ — المفاخرة بين سبيع بن الحرث وميثم بن مثوب بمجلس مرثد الخير بن ينكف .

ومما يروى من ذلك أيضا فى كتاب العقد الفريد لأحمد بن عبدربه :

١ — خطب وفد العرب إلى كسرى ، وقد أوفدهم إليه النعمان بن المنذر ، ومنهم : أكثم بن صيفى ، وحاجب بن زرارة التميميان . والحرث بن عباد البكرى ، وعمرو ابن الشريد السلمى ، وخالد بن جعفر الكلابى ، وعلقمة بن علاثة العامرى ، وقيس ابن مسعود الشيبانى ، وعامر بن الطفيل العامرى ، وعمرو بن معد يكرب الزبيدى ، والحرث بن ظالم المرى .

٢ — وفود قريش على سيف بن ذى يزن ، بعد ظفره بالحبشة ، يهنؤنه ، وخطبة عبد المطلب بن هاشم بين يديه .

٣ — وفود عبد المسيح على سطيح الكاهن .

هذا إلى جملة خطب ـ خطبة قس بن ساعدة الإيادى فى سوق عكاظ ، وجملة من الأمثال فى كتاب العقد وغيره من كتب الأمثال كمجمع الميدانى .

ومن أشهر خطباء الجاهلية عدا من ذكرنا : كعب بن لؤى الجد السابع للنبى عليه الصلاة والسلام وقيس بن خارجة بن سنان خطيب حرب داحس والغبراء ، وخويلد بن عمرو الغطفانى خطيب يوم الفجار ـ وكانت بين قريش وهوازن[1] ـ .

وإليك مثلا من هذا النثر :

١ — المفاخرة[2] بين طريف بن العاصى ، والحرث ذبيان بن لجأ بن منهب . هو أحد المعمرين ـ عند بعض مقاول حمير :

« احتمع طريف بن العاصى الدوسى ، وهو جد طفيل ذى النورين بن عمرو بن طريف والحرث بن ذبيان ، لجأ بن منهب ـ وهو أحد المعمرين ـ عند بعض مقاول حمير . فتفاخرا . فقال الملك للحرث ياحارث :

« ألا تخبرنى بالسبب الذى أخرجكم عن قومكم ، حتى لحقتم بالنمر بن عثمان . . ؟

فقال : « أخبرك أيها الملك ، خرج هجينان منا يرعيان غنمالهما ، فتشاولا بسيفيهما ، فأصاب صاحبهم عقب صاحبنا . فعاث فيه السيف فنزف فمات . فسألونا أخذ دية صاحبنا دية الهجين ـ وهى نصف دية الصريح ـ فأبى قومى . وكان لنا رباء عليهم . فأبينا إلا دية الصريح وأبوا إلا الهجين . فكان اسم هجيننا ذهين بن زبراء . واسم صاحبهم عنقش بن مهيرة ـ وهى سوداء أيضا — فتفاقم الأمر بين الحيين فقال رجل منا :

حلومكم يا قوم لا تعزبنها ولا تقطعوا أرحامكم بالتدابر

---

١ — حذفنا كثيرا من الأمثلة من أصل الرسالة لعدم الحاجة إليها هنا .

٢ — عن أمالى القالى

رأدوا إلى الأقوام عقل ابن عمهم ولا ترهقوهم سبة فى العشائر
فإن ابن زبراء الذى قد لم يكن بدون خليف أو أسيد بن جابر
فإن لم تعاطوا الحق فالسيف بيننا وبينكم والسيف أجور جائر

فتظافروا علينا حسدا . فأجمع ذوو الحجا منا أن نلحق بأمنع بطن من الأزد . فلحقنا بالنمر بن عثمان. فوالله ما فت فى أعضادنا . فأبنا عنهم وقد أثأرنا صاحبنا وهم راغمون » .

فوثب طريف بن العاصى من مجلسه فجلس بازاء الحرث ثم قال :

« تالله ما سمعت اليوم قولا أبعد من صواب ، ولا أقرب من خطل ، ولا أجلب لقذع ، من قول هذا . ! والله أيها الملك ! ماقتلوا بهجينهم بذخا . ولا رقوا به درجا ، ولا أنطوا به عقلا ولا اجتفئوا به خشلا . ولقد أخرجهم الخوف عن أصلهم وأجلاهم عن محلهم . حتى استلانوا خشونة الانزعاج ، ولجئوا إلى أضيق الولاج ، قلا وذلا . » .

فقال الحرث :

« أتسمع ياطريف إنى والله ما إخالك كافا غرب لسانك ، ولا منهنها شرة نزواتك ، حتى أسطو بك سطوة تكف طماحك . وترد جماحك . وتكبت تنزعك ، وتقمع تسرعك . »

فقال طريف :

« مهلا ياحارث ! لا تعرض لطحمة استنانى ، وذرب سنانى ، وغرب شبابى ، ومیسم سبابى ، فتكون كالأظل الموطوء ، والعجب الموجوء . »

فقال الحرث :

« إياى تخاطب بمثل هذا القول ! فوالله لووطئتك لأسختك . ولووهصتك لأوهطنك ولونفحتك لأفدتك »

فقال طريف متمثلا .

« وإن كلام المرء فى غير كنهه لكالنبل تهوى ليس فيها نصالها

أما والأصنام المحجوبة ، والأنصاب المنصوبة . لئن لم تربع على ظلعك ، وتقف عند قدرك . لأدعن حزنك سهلا ، وغمرك ضحلا ، وصفاك وحلا » .

فقال الحرث :

« أما والله لو رمت ذلك لمُرِّغت بالحضيض ، وأغصصت بالجريض . وضاقت عليك الرحاب . وتقطعت بك الأسباب . ولألفيت لقى تهاداه الروامس ، بالسهب الطامس . »

فقال طريف :

« دونك ماناجتك به نفسك : مقارعة أبطال . وحياض أهوال . وحفزة إعجال . يمنع منه تطامن الإمهال » .

فقال الملك :

« إيها عنكما . فما رأيت كاليوم مقال رجلين لم يقصبا ولم يتلبا . ولم يلصُوا ، ولم يقفوا » .[1]

---

٢ — خطبة الحرث بن ظالم المرى ، بين يدى كسرى وكان بين وفد العرب إليه . قال :

« إن من آفة المنطق الكذب . ومن لؤم الأخلاق الملق . ومن خطل الرأى خفة الملك المسلط . فإن أعلمناك أن مواجهتنا لك عن ائتلاف ، وانقيادنا لك عن تصاف . ما أنت لقبول ذلك منا بخليق ولا للاعتماد عليه بحقيق . ولكن الوفاء بالعهود . وإحكام ولث العقود . والأمر بيننا وبينك معتدل . مالم يأت من قبلك

---

١ — الهجين : العربي ابن الأمة ، أو من أبوه خير من أمه . — البذخ : الكبر — أنطى : أعطى — العقل : الدية — اجفئوا : قلعوا — الخشل : نوع من الشجر — طخمة استثنائى « الطاء مثلثة » : دفعة غضبى — الأظل : بطن الإصبع والمنسم — العجب بفتح فسكون : أصل الذنب — الموجوء : المضروب — وهصه : كسره — أوهطه : أضعفه — نفحه : ه به عليه كالربع — أفاده أهلكه — السهب : الفلاة — يقصب : يشتم — يتلب : يحمر — يلص : يقذف

ميل أو زلل . . . »[1].

ونستطيع أن نجمل خصائص النثر الجاهلى فيما يلى :

١ — الميل إلى الترسل والانطلاق بغير سجع أو أى قيد ، حينما يكون المقام مقام قص وسرد حوادث أو مثل أو حكمة .

٢ — الجنوح إلى الترادف وتكرار الجمل المتقاربة المعانى ، عند الرغبة فى الإيضاح والتوكيد .

٣ — تفضيل السجع والعناية بالتقفية ، عندما ترتفع درجة الحماسة ، ويتقد الإباء ويشيع الوعيد .

٤ — استخدام الفواصل ذات المعانى الحاسمة المنتهية ، وذلك فى مجال الاحتجاج وإبراز حجة وإبطال أخرى .

٥ — تفضيل الفقرات القصيرة لأنها أوقع فى النفس ، وأسرع فى التأثير .

٦ — الميل إلى شىء من البديع لا جفاء فيه كالطباق والمقابلة ، وكالجناس . حتى الخطى أو المصحف منه .

٧ — الميل إلى الإطالة إلا فيما يتصل بالمثل والحكمة ، فطبيعتهما الإيجاز .

٨ — شيوع شىء من الخيال الشعرى ، والتجوز والتشبيه . وبخاصة عند الحماسة والدفاع عن الكرامة .

٩ — الحرص على سوق أبيات من الشعر فى أول الحديث أو وسطه أو آخره .

١٠ — الإكثار من غريب اللفظ .

١١ — ويختص كلام الكهان بالجنوح إلى إبهام المعنى ، والتزام السجع ، رغبة فى التأثير . حتى ليخل أحدهم بقيود النحو فى سبيل السجع .

١٢ — كثرة العبارات الجامعة بين كلام الجاهليين . ولعل سبب ذلك خفة مئونتها وسهولة علوقها بالأذهان ، فبقيت أكثر من غيرها — كخطب أكثم بن صيفى .

---

١ — عن العقد الفريد .

١٣ — ومن هذه الكلمات الجامعة ما يتفق وكلام القرآن والحديث ، مثل : لكل أجل كتاب ، ولكل نبإ مستقر ، ومثل : لو تكاشفتم ماتدافنتم — ولاريب فى أن هذا من دس الرواة .

وللنثر الجاهلى حديث طويل . وهو كما ترى ، يتجلى فيه — على قلته — كثير من عادات العرب ، كالشجاعة والحذر والحمية والاباء ، وحب الظهور والفخر ، والمغامرة والاعتزاز بالنفس ، والدفاع عن القبيلة ، وتصديق الأباطيل والخرافات ولعل ذلك كان بتأثير من وثنيتهم وانقطاعهم فى جزيرتهم ؟

وكذلك يدل على مستواهم العقلى والنفسى ، ويكشف عن أنهم بلغوا من ذلك حدا لا بأس به ، وعرفوا شيئا من طبائع النفوس ودقائق الحياة ، ونظم الدول ، إلى غير ذلك . ومنه نستنبط أن العرب كانوا ذوى ألباب راجحة وعقول خصبة ، وألسنة طيعة مطبعة ، عودتها التجارب والمراس ، حنكة فى المنطق وكياسة فى التعبير .

فإذا صحت رواية هـــذا النثر ، استدللنا منه على أن العرب قبل إسلامهم لم يكونوا جهلاء ، كما يصورهم بعضهم . ولابد أن يكونوا قد مروا فى أدوار تهذيبية طويلة متعددة ، حتى بلغوا هذا المبلغ ، وحتى نضج تهذيبهم على لسانهم ، فترجم عنه هذا النثر . ولابد أن تكون لغتهم — واللغة مرآة خاطر الأمة — قد درجت فى أطوار تهذيبية متوالية ، وأن يكون بعض أبناء العرب قد صقلوا بألوان البيان حتى أوتوا منها نصيباً محموداً . وأنهم ألانوا لغتهم لحاجاتهم المعاشية والعقلية والنفسية ، فطاعت لهم وسايرت ركبهم . وأصبحوا وقد أسلتهم مقاد فصاحتها وأسرار بيانها . وبصرتهم ببواطن بلاغتها ومواطن إعجازها .

هذا هو أقرب مانستطيع تصوره وتصديقه معا ، لحالة العرب قبل الإسلام وذلك لأن عرب الجاهلية هم الذين أرسل إليهم النبى عليه الصلاة والسلام ، ومعه معجزته البيانية الكبرى ، وهى القرآن الكريم .

وكيف تتحدى قوما جهلاء ؟ لا يعرفون فنون القول ، ولا كنه البيان ، بكتاب هو المثل الأعلى فى الفن والبيان ؟ إن أى كتاب آخر فى مستوى بيانى أقل من مستوى القرآن يصلح أيضا لمثل هذا التحدى . لأنه لمس فيهم عقلا صافيا وقلبا واعيا ، ففهموه بليغا فوق مكنة البشر ، فبه آمنوا ، وبلاغته أسلموا .

هؤلاء العرب لم يتأثروا بالقرآن على نمط من تأثر عوام زماننا ، الذين نرى من تأثرهم كل يوم بالقرآن مانرى ، عندما يتلوه قارىء مجيد فإن لإيمانهم السابق ولإسلامهم الموروث أثراً ودخلا كبيرا فى هذا التأثر ، لأنه لم يصدم فيهم عقيدة ولم يسفه لهم حلما ، ولم يقبح عادة . بل هو — على العكس — كتاب دينهم المحبوب المقدس ، وهم إلى جانب ذلك لا يتذوقون من حلاوة بلاغته إلا النزر اليسير .

أما عرب الجاهلية فقد صدم منهم عقيدة ، وسفه عادة ، وقبح أصنامهم ، وطعن فى آلهتهم فكان حريا بأن يقاوم ويكافح ويرد وكان القرآن أحد أسلحة النبى عليه السلام ، ولكن كافحوا كل سلاح للنبى إلا القرآن فقد خضعوا له وآمنوا به . لقد قالوا عنه إنه سحر أو شعر ، وهذه عندى ، بوادر الإيمان به والاستسلام له . ذلك أنه غزاهم فى أمنع حصونهم وأرفع قلاعهم ، وهى بلاغتهم ففهموه أبلغ منها ، فدانوا له ، واعترفوا أنه فوق مقدور البشر — ولكنه هو أيضاً أثبت ضمنا أن لهم بلاغة وأن فيهم بيانا وأن لهم تذوقا . وهذا مما يؤكد لنا ينع الأدب الجاهلى شعرا ونثرا .

ومن الأدباء من يرتاب فى هذا النثر المروى عن عرب الجاهلية ، ويشك فيه ويزيفه . ويرى أنه من وضع الرواة فى العصر العباسى وضعوه بقصد التعليم أو التسلية أو الاتجار أو الظهور بالعلم أو غير ذلك من أسباب . ولهم على هذا أدلة وبراهين .

ولسنا هنا فى مجال الحديث عن هذا الموضوع ، ولا النظر فى أدلته وبراهينه وهب هذا النثر منحولا للجاهليين ، أفلا يدل على مقدار تصور الرواة لنثر الجاهلية ؟ وقد كانوا أقرب إليه وأحفظ له وأروى . ثم ألا يدل على مقدار فهم أدباء

الصدر العباسى للمستوى العقلى والنفسى لعرب الجاهلية .

ثم إن نحله لا يدل على فراغ الجاهلية من نثر فنى يكون على غرار هذا النثر المروى ، نتيجة لحياة نفسية وعقلية ، فيها إدراك ونزوع إلى السمو ، يؤهلانهم للقاء القرآن .

وجملة النثر المروى — بصرف النظر عن المطاعن الموجهة إليها — قليلة ضئيلة لا تناسب حياة أمة عظيمة كالأمة العربية . عاشت — قبل الإسلام — أجيالا فى باديتها ، حتى نضجت نضجها المحمود ، فاشتهرت بعقول رجالها وصفاء خيالها ، وبلاغة خطبائها وافتنان شعرائها .

والمشاهد فى الأمم الحية أن نتاجها النثرى يربو على نتاجها الشعرى ، لأن النثر أدخل من الشعر فى حيويات الأمم وأعجل منه اضطلاعا بحاجاتها ، وتأدية لها .

وكان من المرتقب لأمة ، سيجابهها القرآن ، ويتحدى بلغاءها ، أن يسبقه فيها نتاج نثرى فنى عظيم الشأن ، يكون تمهيدا للقرآن من ناحية ، ومحلا للموازنة بينه وبينه من ناحية أخرى ، حتى يتبين الخبيث من الطيب . وهذه هى السبيل الفطرية لمثل تلك الأحداث الكبرى ولتبيان كنه القرآن والاستشعار بإعجازه — وإنما يعرف الفضل من الناس ذوده . .

ولا نشك فى أنه كان للجاهليين نثر فنى ، ونثر ناضج ، ونثر كثير . ونعتقد أن هذه مسألة تنزل الآن من العقول منزلة البدهيات ، التى لم تعد تحتمل جدلا . ولكن أين هو ؟ إن لم يكن هذا المروى جزءاً منه . . . ؟ ونقول إن الأمية الضاربة والحوادث الصاخبة ، وطبيعة النثر وثقله فى الرواية . كل ذلك ، وغيره ، مكن ليد الضياع منه .

والزمن وحوادثه ، كانا ولا يزالان حتى اليوم ، يعيثان بآثار الأدباء . فأين هى مؤلفات رجال العصر العباسى فى زهاء خمسة قرون ؟ وأين — على الأقل — ما سجله منها ومن أخبارها ابن النديم فى الفهرست ، وهو المتوفى فى نحو سنة

٣٨٥ هـ - وأين ذخائر العصرين الفاطمى والأيوبى ؟ وأين كتب الشيعة وفقهائها ؟ بل أين مؤلفات رجال العصر المملوكى أنفسهم ؟ أن ما بين أيدينا منها لا يعدو قطرة من بحر مما يحدثنا به التاريخ - لقد أودت بكل أولئك حوادث الزمن ، من إحراق وإغراق وإبادة وسلب وتفريط .

بل أزعم - ولست مبالغاً فى زعمى - أن كثيرا من آثار الأدباء فى العصر الحديث يناله الفقد والضياع بسبب الإهمال والنسيان . ونحن فى عصر النور والطباعة . . . إذا فليس قليلا على النثر الفنى الجاهلى أن يضيع . . .

— ٢ —

نثر القرآن الكريم

القرآن كتاب الله تعالى ، أنزله على رسوله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم كتابا هادياً ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى صراط مستقيم ويعد المؤمنين منهم ثواباً من الله جزيلا ، ويتوعد الكافرين بنار يصلونها سعيرا . ويبين للناس أصول دينهم القويم ، وطرق عبادة الله التى ارتضاها لعباده ويسن لهم من شرائع الحياة ما يؤدى بهم إلى السعادة التى ينشدونها . ويضع لهم من فضائل النفس والمجتمع ما فيه كمالهم وجمال حياتهم . إلى غير ذلك .

وقد كان القرآن الكريم ، أمضى أسلحة النبى عليه السلام وأبلج حججه ، وأبهر معجزاته . تحدى به العرب - وقد نزل بلغتهم - أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله ، أو بآية من مثله ، فعجزوا وطاعوا لبيانه وسحر بلاغته ، أكثر مما طاعوا لشىء سواه .

وطاعة العرب للقرآن الكريم - وعلى رأسهم بلغاؤهم وأهل البيان فيهم - وهم الجفاة الغلاظ الذين لا يقتنعون فى يسر ، ولا يرضون عن عجلة . التياهون بما

أوتوا من بلاغة وبيان ، كانت حدث الأحداث ومعجزة الدهر الحاسمة فى تاريخ القرآن .

ولسنا هنا بصدد الحديث عن تاريخ القرآن ونزوله وطرق إعجازه ، ولكننا نقف وقفة خاطفة للحديث عن أسلوبه لما لذلك من الصلة ببحثنا . فنقول :

جاء القرآن الكريم مخاطبا عرب الجاهلية ، فاصطنع لغتهم المختارة . وهى لغة قريش غالبا . قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » .

وأول دليل أيضاً على أنه نزل بلغتهم هذه ، اقترانه بتحدى العرب وبلغائهم ، أن يأتوا - حتى بآية من مثله . لأنه لا سبيل إلى التحدى بين طرفين ، ولا معنى له ، مالم يكن نتاجهما من واد واحد ، ومن صناعة واحدة ، حتى تتفق الموازنة ويصدق الحكم .

نزل القرآن ، إذاً بلغة العرب ، أى لغة أهل الجاهلية ، فهو لذلك ، أصدق الأمثلة على النثر الجاهلى ، لأنه أقرب إليه صلة ومتانا ، وأنك لتلتمس فيه الجاهلية فتجدها .

وقد شغل علماء المسلمين منذ القديم بالقرآن وطرق إعجازه . فقالوا معجز بما فيه من دعوة إلى الله مع أدلتها . أو بما فيه من تشريع كامل ، أو بمافيه من قصص أو بما أخبر عنه من غيب ، أو بما احتوى عليه من جديد المعانى ، أو لأنه مطابق لمقتضى الحال . أو غير هذا وذاك .

واعتقادنا أن المعانى الجزئية أو الأغراض العامة أو مجرد قص القصة أو نحو ذلك ، لايجزىء وحده فى الإعجاز . وإنما الإعجاز هو فى موافقة هذه الأمور للأحوال التى ألقيت فيها ، ثم فى طريقة تأديتها أداء لفظيا . فليس الإعجاز فى المعنى من حيث هو معنى ، ولكن من ناحية مناسبته لمقامه ، وليس الإعجاز فى اللفظ من حيث هو لفظ ، ولكن من ناحية مناسبته للمعنى ، ومناسبته للمقام .

ولكل معنى أو فكرة ، أسلوب من الكلام يناسبها ، ويتسق مع روحها ،

وينسجم فى أدائها ، وهو كالثوب الذى يبرز جمال الجسم ، وينسجم مع ذوق الحفل الذى يبدو فيه مثل هذا الأسلوب يبرز المعنى أجمل ما يبرز ، ويبديه أقوى ما يبدو . فالفكرة الذهنية تحتاج إلى نوع من الأسلوب لا يصلح للمعانى النفسية . وتشريع القوانين غير الابتهال . وأسلوب القصص يختلف عن الوعد والوعيد . وطريقة التقرير غير طريقة التصوير . وحديث الوعظ غير حديث التهكم والسخرية ، ومخاطبة الكافر غير مخاطبة المؤمن ، وهكذا . . . فلكل مقام مقال ، كما قال الأقدمون .

والقرآن الكريم يحتوى على شتى من هذه الموضوعات ، وقد حدد فيه كل موضوع منها أسلوبه أو قالبه اللفظى الذى ينبغى أن يصب فيه . وإعجاز القرآن يتجلى أقوى ما يتجلى ، فى صب هذه المعانى والموضوعات فى قوالبها اللفظية التى تناسبها . وهو ما عجز بلغاء العرب عن مجاراته - وهم أهل بلاغة - فشعروا أن هذه القدرة خصوصية إلهية ، فوق طاقة البشر ، وبذلك أقروا بعجزهم وأسلموا . .

ويتبين من هذا ، أن فى القرآن جملة من مختلف الأساليب ، وعدة من فنون القول وهذا محل إعجاز آخر .

والرجل البليغ — مع اقتراض بلاغته والتسليم بها — لا يجيد من فنون القول إلا فنا واحدا ولا يسلك فى تعبيره غير مسلك أسلوبى واحد ، لا يتعداه ، أولا يكاد يتعداه . وتبدو فى أسلوبه هذا ، خصائصه ومميزاته ، ودعائمه الخاصة المشخصة التى تبرز بها شخصيته . فكل المعانى والموضوعات الكلية أو الجزئية التى يعرض لها ، يصبها فى هذا القالب الأسلوبى الخاص ، لا يكاد يخرج بها عن دائرته ، ودائرة قيوده ، وبذلك ينقص من كمال بلاغته دون وعى منه .

أما القرآن فقد أوتى حرية فى التعبير ومرونة فى التغيير ، لم يؤتها أى أديب . لذا تصرف فى معانيه وموضوعاته ، وصب كلا منها فى أنسب قوالبه اللفظية ، فتعددت بذلك مناهجه وأساليبه وهذا ضرب — ولا ريب — هام ، من ضروب إعجازه إن لم يكن أهمها جميعا .

ثم لنا بعدُ ، كلمة فى سجع القرآن . وقـــد وقف سجعه مثار نزاع بين علماء الإعجاز وأدبائه .

ويذهب بعض المتحدثين فى الإعجاز — كالباقلانى — [1] إلى أن القرآن فواصل فحسب ، لقوله تعالى « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » . فليس سجعا ، وليس مرسلا !

ويقول ابن خلدون فى ذلك ، فى مقدمته [2]

« وأما القرآن ، وإن كان من المنثور ، إلا أنه خارج عن الوصفين . وليس يسمى مرسلا مطلقا ، ولا مسجعا ، بل تفصيل آيات ينتهى إلى مقاطع ، يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ، ثم يعاد الكلام فى الآية الأخرى بعدها . ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعا ولا قافية . وهو معنى قوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » . وقال : « قد فصلنا الآيات » . ويسمى آخر الآيات منها « فواصل » إذ ليست أسجاعا ، ولا التزم فيها مايلتزم فى السجع ، ولا هى أيضا قوافى . » .

فترى هؤلاء ينفون وجود السجع فى القرآن ، إذ السجع محسن لفظى ، مقتضاه أن يأتى المعنى فيه تابعا للفظ — وحاشا للقرآن الكريم أن يعنى بالألفاظ ويقهر المعانى على أن تتبعها . وأن يقصد إلى توافق الفواصل فى حروفها الأخيرة ، فهذا بنأى به عن مطابقة الحال ، التى هى ميزان بلاغة الكلام . وما السجع وأشباهه إلا صناعة إنشائية مقصودة لذاتها ولما فيها من الزخرف . وينبغى أن ينزه عنها القرآن .

ويفسر هؤلاء ماورد فى القرآن سجعا ، بأنه ليس سجعا ، وإنما هو شىء شبيه بالسجع ، استلزمه المعنى فجاء هكذا قوافى متشابهة . . .

---

١ — راجع اعجاز القرآن للباقلاني.

٢ — مقدمه ابن خلدون تحت عنوان « فصل فى انقسام الكلام إلى فنى النظم والنثر .

ويذهب آخرون ومنهم أبو هلال العسكرى صاحب الصناعتين وابن سنان الخفاجى وضياء الدين بن الأثير صاحب المثل السائر الذى بالغ فى تأثره بمذهب بى هلال ، وغيرهما ، إلى أن ماورد فى القرآن من تقفية إنما هو السجع بعينه . قال ابن الأثير : [1]

« المسجع : وحدُّه أن يقال : تواطؤ الفواصل فى الكلام المنثور على حرف واحد. وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة. ولا أرى لذلك وجها سوى عجزهم أن يأتوا به . وإلا فلو كان مذموما لماورد فى القرآن الكريم . فإنه قد أتى منه بالكثير . حتى إنه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة . كسورة الرحمن وسورة القمر ، وغيرهما . وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور . »

فابن الأثير يرى أن ماجاء فى القرآن من توافق الفواصل ، هو السجع . وإن كان يشترط فى السجع — لكى يكون بليغا — أن تأتى ألفاظه تابعة لمعانيه . فإذا تساوى تعبيران عن معنى واحد . وأحدهما مسجوع والآخر مطلق ، كان المسجوع — فى رأيه — أبلغ . كما يشترط أن تكون ألفاظ السجع . . « حلوة حادة طنانة رنانة لاغثة ولا بادرة » . وقال : « وأما إذا كان محمولا على الطبع غير متكلف ، فإنه يجىء فى غاية الحسن . وهو أعلى درجات الكلام » .

وقد رد ابن الأثير على من اعترض عليه بأن السجع ، إذا كان أعلى درجات الكلام ، كان ينبغى ان يأتى القرآن كله مسجوعا . وليس الأمر كذلك ، بل منه المسجوع ومنه غير المسجوع . قال :

« وإن أكثر القرآن مسجوع ، حتى إن السورة لتأتى جميعها مسجوعة ، ومامنع أن يأتى القرآن كله مسجوعاً إلا أنه سلك مسلك الإيجاز والاختصار . والسجع لايؤاتى فى كل موضع من الكلام ، على حد الإيجاز والاختصار . فترك استعماله فى جميع القرآن لهذا السبب وههنا وجه آخر هو أقوى من الأول . ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع . وإنما تضمن القرآن غير المسجوع

١ — راجع المثل السائر تحت عنوان الكلام عن المسجع .

لأن ورود غير المسجوع معجزا أبلغ فى باب الإعجاز من ورود المسجوع ومن أجل ذلك تضمن القرآن القسمين جميعاً » .

فابن الأثير بعد أن قرر أن السجع - بشروطه - أعلى درجات الكلام ، يحتج لعدم اطراده فى القرآن بأمرين : الأول : ميل القرآن إلى الإيجاز أحيانا ، والإيجاز قد لا يتسق مع السجع . الثانى أن ورود غير المسجوع معجزا أبلغ فى باب الإعجاز . . .

وفى حجته الثانية نظر لأننا مادمنا أثبتنا أن السجع أعلى درجات الكلام ، فالعدول عنه إلى المطلق نزول بالكلام عن أعلى درجاته . وإذا كانت غاية القرآن الإعجاز ، فها هو ذا السجع سبيله . . أما العدول عنه حينئذ إلى غيره ، فحيلة لا يلجأ إليها بليغ ، للدلالة على بلاغته . ثم إن هذا الرأى يجعلنا نتساءل من جديد : ماوجه إعجاز المطلق ؟

وهكذا ترى أن كلا الفريقين مغال فى مذهبه ، إذ القرآن الكريم فواصل - ما فى ذلك شك - وتكتنفى كل فاصلة بمعناها ، ويحسن السكوت عليها غالبا . ومع هذا ففيه سجع ، وسجع مقصود أيضا ! وما فى ذلك شك . . . فإن ورود سورة كسورة القمر ، تحتوى على نحو أربع وخمسين آية ، كلها فواصل كريمة ، مسجوعة ، على قافية واحدة ملتزمة ، وهى حرف الراء ، وراء من نوع خاص ، وهى المسبوقة بمتحركين وربما بثلاثة ، لا يكون اتفاقا ، ودون قصد . . . وكذلك القول فى سورة الرحمن فإن قافيتها الملتزمة فى جميع آياتها النون المسبوقه بألف مد ، وكذلك سورة محمد ، فقافيتها الملتزمة ، الميم المسبوقة - غالبا - باللام المفتوحة وهاء الغيبة أو كاف الخطاب . ولم يتخلف فى هذه السجعات ، إلا قافيتان متباعدتان . ومع تباعدهما فيهما توافق ! فالأولى تنتهى بلفظ « أمثالها » وتنتهى الثانية بلفظ « أقفالها » وفى اللفظين أكثر من السجع ، فيهما أربعة أحرف مشتركة فى المنطق والشكل . هذا عدا الاتفاق فى الوزن ، بين اللفظين .

هذا أيضا عدا ما ينتشر فى سور القرآن من سجع .

وابن سنان الخفاجى أيد فى كتابه « سر الفصاحة » وجود السجع فى القرآن ، وعندما ذكر السجع قال إن منه مايحمد ، ومنه ما يستكره . ولولا أن منه مايحمد ما ورد فى القرآن والحديث وكلام الفصحاء . وأما القرآن فلم يرد فيه إلا من القسم المحمود لعلوه فى الفصاحة ـ ورأى أنه لا يوجد مانع شرعى يمنع وجود السجع فى القرآن .

ونحب أن نقف بين الطرفين موقفاً وسطا ، فنقول : إن القرآن به سجع . ولكن هل سجعه مقصود ولذاته أم غير مقصود ؟ وهل جاء زينة وحلية ، والمعنى تابع له ؟ أو أنه منقاد للمعنى المستفاد من لفظه ؟

ويبدو أن هذا الفهم المنطقى البحت ، جاء من أن البديعيين جعلوا السجع محسنا لفظيا . وأنه ـ فى باب الصناعة ـ يقصد لذاته ، فينبغى أن ينزه القرآن عنه... ـ ولكن وجود السجع ـ فعلا ـ فى القرآن ، أحرج البلاغيين ، ففسره بعضهم بأنه فواصل تنتهى كل منها بما يتم معناها . وفسره بعضهم بأنه سجع مطبوع غير متكلف طلبه المعنى .

ونحب أن نقول إن السجع القرآنى محسن معنوى يتطلبه المعنى مرارا بل يصرخ المعنى صرخات مدوية طالبا أن تبدو ألفاظه مسجوعة . ولكن أى معنى هذا ؟ . هذا المعنى هو الرغبة فى التأثير فى السامعين ، بعد أن يتضمن الكلام حقا لا باطل فيه ، وصدقا لا زيف فيه ، حتى يفترق بذلك سجع القرآن عن سجع الكهان .

إن السجعات اللطيفة والتقفيات الخفيفة ، ذات أثر بالغ فى النفوس والقلوب لا بمعناها المستفاد من لفظها ، ولكن برنينها وتجانس جرسها . ذلك لأن هذا الاتساق الصوتى حبيب إلى كل نفس ، قريب إلى كل قلب . فإذا اصطنعتها الحقائق والمعانى الصادقة وسيلة إلى الوصول إلى هذه النفوس والقلوب ، لإثارتها ، والاستقرار فيها مع إيمانها بها ، فلا غبار عليها .

ولا يكفى أن تخاطب الناس بالحق عاريا ، وبالصدق مجرداً ، لكى يؤثر أثره المرجو فيهم . ذلك أن الجماهير لا تعيش بعقولها وتفكيرها فحسب ، ولكن تعيش بعواطفها ووجداناتها أكثر مما تعيش بالعقول والتفكير . فإذا كان الباطل قد اصطنع السجع وسيلة إلى التأثير والاستفزاز . فأولى بالحق أن يستخدم هذه هذه الأسلحة نفسها ليحارب الباطل بسلاحه . . . ولهذا لم ينه النبى عن السجع ، وإنما نهى عن سجع الكهان لما فيه من أحكام باطلة ، وتخرص بالغيب .

والرغبة فى التأثير فى السامعين ، أحد المعانى العامة الشائعة فى القرآن الكريم . ونعنى به التأثير الوجدانى ، والسجع من أهم أدواته ، لما فيه من وزن وقافية ، وتوافق موسيقى ، ورنين صوتى متناغم ، يجعله كالشعر أو كالسحر . لهذا يقصد السجع تحقيقا لهذه الغاية ، وهنا يصبح السجع فى صميم البلاغة ، لأن أسلوبه يكون مطابقا لمقتضى الحال . . .

إذا ففى القرآن سجع ، وسجع مقصود ، لا لبيان ما يحتمله اللفظ من المعانى فحسب ، بل أيضا ، لتستخدم موسيقاه أداة للتأثير . والتأثير نعتبره جزءا من المعنى .

وبعد فلعل هذا التوجيه يحل إشكال السجع القرآنى ، اللهم إلا إذا اعترض معترض على الرغبة فى التأثير ، وعلى نسبتها إلى القرآن .

إن الذين ينزهون القرآن عن الرغبة فى التأثير بموسيقاه ، وجرس ألفاظه وعذوبتها ، واتساق عباراته وحلاوتها ، وحسن إيقاعه وتنغيمه ، وجمال تقاطيعه وتقسيمه ، يجردونه من ميزة من أهم مميزاته ودعامة من دعائم روحانيته ، وكأنهم يفترضون القرآن كتاب علم يخاطب العقول ، فحسب ، لا كتاب أدب . أيضا ، وكتاب عاطفة وروح ، يخاطب الشعور والأحاسيس . وهو ربما خاطبها وأثر فيها أكثر مما يخاطب العقول ويؤثر فيها . وهذه طبيعة الأديان وطبيعة ما يمت إلى العقيدة القلبية بصلة . تلك مسائل فى أغلب أمرها ، روحية تستسلم لها الجماهير استسلام استجابة روحية ، وإيمان وجـــدانى ، لا عن بصر دقيق أو إدراك عميق ، لما تحتوى من تفاصيل ومقولات وفلسفات .

وقد تدرك الجماهير من الأديان معانيها الكلية. أما جزئياتها فمن الغلو غير المقبول الادعاء بأنها تدرك منها شيئا . وإنما يدركها الراسخون فى العلم ، وقليل ماهم .

ومتى تبين لناهذا ، ووضعنا نصب أعيننا أن القرآن كتاب دين ، فهمنا السر فى سريان هذه الروحانية فى مختلف آياته وسوره . وهو يتخير من أدوات هذه الروحانية ، ووسائل التأثير بها ماينبغى له من الأعراض الأسلوبية ، وفى مقدمتها السجع .

إن طريقة نظم القرآن ، واتساق جرسه وروعة تصويره ، وحسن إخراجه للمعانى ، وشغله الحواس النفسية بما فى صوره من حياة وحركة ، وما فى تراكيبه من نغم ، سحر بلاغة وآية بيان ، انقاد بها كثير من عرب الجاهلية إلى الإسلام . وفى مقدمة وسائل اتساق نعمه ، سجعه .

والعامة — فى جملتهم — تتأثر بالسجع أكثر من غيره — غالبا — ألا تراهم يهشون ويبشون وينتشون للسور والآيات المسجوعة ، أكثر من سواها ؟ ألا تراهم يكثرون من التهليل والتكبير ، عندما يتلو عليهم أحد المقرئين سورة الرحمن أو القمر أو النجم أو المدثر مثلا ؟ ألا تراهم يرددون الآيات المسجوعة فى دعواتهم وصلواتهم وابتهالاتهم أكثر من ترديد سواها ؟ . ومن من العامة — أو حتى من الخاصة — يكثر فى ابتهالاته من قراءة آيات الميراث والوصية والتداين والطلاق ؟ وأمثالها من الآيات المرسلة المطلقة التى تضمن — غالبا — أحكاما شرعية . . ؟

وبعد . فإليك أمثلة من الآيات المسجوعة التى يلذ لك مافيها من سجع لطيف وتقفية عذبة ساحرة ، تترقرق فيها روحانية مشرقة جذابة . فمنها :

قول الله تعالى فى سورة النجم :

« والنجم إذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده مايوحى . ماكذب الفؤاد مارأى . أفتمارونه على مايرى . » . . الخ

وقوله تعالى من سورة طه :

« طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى . له مافى السموات ومافى الأرض ، وما بينهما وما تحت الثرى » .

وقوله تعالى من سورة القمر :

« اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغنى النذر » .

وقبل أن نترك هذا الموضوع . لانرى بدا من الإشارة إلى أن القرآن ، كان له أثر ضخم فى حياة الأمم الإسلامية ، ومن تأدب بآدابهم من الأمم الأخرى . له أثر فى النفسية ، وأثر فى فهم الحياة ، وأثر فى الاتجاه الفكرى . وفى نشأة العلوم وتوجيه الثقافات ، وفى بقاء العربية ، وفى معاملات الناس ، وكل موضوع منها يحتاج إلى بحث مستقل . وتتحدث عنها عادة كتب تاريخ الأدب .

هذه موضوعات ، لانعرض لها فى بحثنا هنا إلا بالإشارة . ولكن أمرا واحدا من بينها هو الذى نحب أن نلفت النظر إليه ، لماله من الصلة بهذا البحث . وهو أن الأساليب القرآنية كانت ذات أثر كبير جدا فى توجيه أساليب أدباء العربية ، منذ فجر الإسلام إلى اليوم . فلم يَنْ خطباؤهم ومنشئوهم وشعراؤهم ينهجون النهج القرآنى البديع فى شتى مناسباتهم الكلامية ، كلما واتتهم الفرصة لذلك ، وأمكنتهم المناسبة . وكان أسلوب القرآن إمامهم ومثلهم الأعلى الذى به يحتذى . لقد انتفعوا به أيما انتفاع ، طورا بطريق الاقتباس أو التضمين . وطورا بحل الآيات ، أو نظم الكلام على نمط من فواصله وأسجاعه أو ترسله أو ازدواجه ، أو تصويره الفنى أو خياله الشعرى وتشبيهاته وتجوزاته وكناياته ، إلى غير ذلك .

ويبدو لنا أن أدباء العربية . كانوا كلما تراخى بهم الزمن ، وتطاول عليهم العمر ، وبعدت بهم الأيام عن صدر الإسلام ، متأثرين به بالثقافات المختلفة ،

يزدادون تمسكا بالاقتداء بنظم القرآن ، وتوخى قياس أساليبهم على أساليبه ، والنظر فى نظمه واستنباط قوانينه ، وسنها قوانين للكلام يجرى على نمط منها .

وفضلا عن أن بعضهم دعا الناشئين من المنشئين إلى حفظه تهذيبا لإنشائهم . واشترط فى الكلام أن يحتوى على شىء من القرآن ، نرى بعضهم — كابن الأثير — لما قنن للسجع ونظام الفقرات ، احتج لذلك بسجع القرآن ونظام فقراته . وقد اتبعه كثيرون من بعده ، كالشهاب الحلبى والتقى بن حجة الحموى . وسنشير بعد إلى ذلك بتفصيل —

ويبدو للمرء لأول وهلة عند مطالعة رأى ابن الأثير — مثلا — فى نظام الفقرات المسجوعة ، وفى أن الفقرة الثانية ينبغى أن تطول عن الأولى ، وفى أن الفقرة الثالثة — إن وجدت — ينبغى أن تطول ، ولا تطول عن المثل ، مع تساوى الفقرتين الأوليين قبلها ، ثم فى تحديد عدد كلمات الفقرة الثالثة مثلا بكذا من الكلمات . . . أقول : عندما نقرأ ذلك لأول وهلة ، نعجب من تكلف الرجل إلى هذا الحد . ومن تعسفه فى تقنين هذا النظام ولكن يزول العجب عندما نراه يضرب لنا الأمثال لذلك ، بآى القرآن الكريم — وسنشير إلى ذلك فى مناسبة أخرى .

ولا تعلو إذا قلنا — والحالة هذه — إن الأساليب القرآنية ، وانكباب البلاغيين على دراستها ، واستخراج أنواع البلاغة منها ، قد عاون على ينع البديع فى القرآن الكريم .

لقد كان لهؤلاء البلاغيين حرص شديد على استمداد شواهدهم من آى القرآن . وحقا ، كان أهم غاياتهم من دراسة أساليبه ، إبراز خصائصها وألوان بلاغتها . ولكنهم باستنباط كل ما عن لهم من هذه الخصائص والألوان — وهى أكثر متاتا إلى البديع — فتحوا أبواب البديع على مصاريعها . لذلك نقول إن الثقافة القرآنية كانت فى مقدمة عوامل نضج البديع ، وإغراء الأدباء بالتمسك بأساليبه . فإذا كان أدباء العصر المملوكى قد ساروا تحت لواء البديع فهذه الثقافة فى جملة الدوافع إلى

ذلك . فهم أمعنوا فى إنشائهم ، فى محاذاة القرآن وتقليده . وتقليد القرآن ليس عيبا ، وإنما العيب فى الإخفاق فى التقليد . ولعلنا فى الأبواب القادمة نرى أنهم لم يخفقوا فى كثير مما كتبوه .

ومن لطيف مايحضرنى بهذه المناسبة ، ماقاله[1] ابن حجة الحموى فى الخزانة عند كلامه عن « المذهب الكلامى » قال :

« وقيل إن ابن المعتز قال لاأعلم ذلك فى القرآن — يعنى المذهب الكلامى — وليس عدم علمه مانعا علم غيره . ولم يستشهد على المذهب الكلامى بأعظم من شواهد القرآن » .

هذا ، والمذهب الكلامى — وقد نسبت تسميته إلى الجاحظ — هو أن يأتى البليغ على صحة دعواه وإبطال دعوى خصمه بحجة قاطعة عقلية ، تصح نسبتها إلى علم الكلام . إذ علم الكلام عبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية القاطعة .

ومن شواهد ابن حجة عليه ، قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ثم أورد أمثلة أخرى من الحديث النبوى والشعر .

وإلى هنا نكتفى بالحديث عن نثر القرآن ، منتقلين الى الحديث عن نثر الرسول صلوات الله عليه

— ٣ —

نثر النبوة وصدر الاسلام

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وبعثه عليه السلام ليكون للناس بشيرا ونذيرا . فدعا قومه إلى عبادة الله واتباع دينه .

---

١ — الخزانة ص ١٦٥ باب (المذهب الكلامى) .

وكانت دعوته عامة تناولت شتى شئون الحياة . فكانت عقيدة دينية ونظاما اجتماعيا وناموسا خلقيا . وليس إلا الخطابة والأحاديث ، أدنى وسائل التعبير للقيام بمهمة هذه الدعوة. فيها أيسر الأدوات وأفضلها مقدرة على النهوض بأعبائها. ومن هنا كان النبي عليه السلام خطيبا عظيم الشأن . ومحدثا رائع الحديث. عرفت له تطورات دعوته الكريمة ومراحلها ، مئات من المواقف الخطابية وآلافا من الأحاديث ، التى بلغ بها دعوته الى الناس . ودافع عنها وبين مزاياها ومراميها ، ووضح غامضها ، وكشف خفيها ، وفصل مجملها ، وبذلك أدى الأمانة خير الأداء . فكان أفضل معلم لهذه الأمة ، وأحرص مهذب أضاء لها الطريق إلى مواطن السعادة وقد صدق الله العظيم حيث يصفه فيقول «وما ينطق عن الهوى» .

وترجحت خطبه عليه السلام ، بين الطول والقصر ، وكذلك أحاديثه . وكان وجيزها من جوامع الكلم وخوالد الحكم .

ولا نرتاب فى أن كثيرا من أحاديثه عليه السلام قد روى بمعناه أو تغير شيء من لفظه أو أدخل فيه مالا ليس منه ، وذلك لطول العهد حتى عصر التدوين ، ولظهور الزنادقة والوضاع . ولكننا لا نرتاب بجانب ذلك ، فى أن كثيرا من أحاديثه عليه السلام قد إسلم من كل هذا العبث . وقد جهد مسجلو الحديث فى عصر بنى العباس فى التمحيص والتدقيق وتزييف الزائف ونفى الدخيل ، حتى سلمت لهم فى كتبهم جملة مما صحت روايته عنه عليه السلام ، وفى مقدمة الكتب الصحيحة ، صحيح البخارى

وكلام الرسول — وإن لم يقصد منه التحدى والإعجاز — أبلغ كلام العرب ، بعد كلام الله سبحانه وتعالى . وطبعى أن يجرى فى موضوعاته على نمط من القرآن الكريم فهو يبشر وينذر ، ويعد ويتوعد . ويقص ويعلم ، ويحث على الجهاد فى سبيل الله ، والكفاح فى سبيل الحياة . ويدعو إلى مكارم الأخلاق ويحض على الألفة والتعاون والمودة والنصيحة ، إلى غير ذلك مما هو معروف .

وأكثر أساليبه سهل عذب اللفظ قوى التركيب جزل الديباجة واضح المرامى

قوى التصوير محكم التشبيه رائع القص ، طلق الفاصلة حر القافية ، مرسل لا قيد فيه ولا محسن إلا مادعت إليه ضرورة المعانى وانساق اليه الطبع بلا إكراه ولا نبو.

وتراه فى بعض الأحيان جانحا إلى السجع . وربما راعى التوازن بين لفظين. على أن النبى عليه السلام قد نهى عن السجع . ولكن السجع المنهى عنه هو سجع الكهان الذى يدعى أنه من صنع الجن ، وأنه لامؤدى له ، وأنه يكتنفه الغموض، ويزعم به الغيب وأنه يراد به التأثير فى الناس بالباطل .

هذا، وتراه أحيانا جانحا إلى مايعتبر غريبا فى لفظه ، وتدعو إلى ذلك مناسبات، ومنه كلامه فى كتابه إلى وائل بن حجر الكندى أحد أقيال حضرموت يخاطبه بلغته قال عليه السلام :

« إلى الأقيال العباهلة والأرواع المشايب . » ومنه يشرع لهم :

«وفى التَّيعة شاة . لامثمورة الألياط ولا ضناك وأنطُوا الثَّبَجَة»[1] .. الخ وهذه خصوصية اختصه الله بها ليستطيع مخاطبة كل قبيلة بألفاظها وطرق أدائها .

وقد عمل النبى عليه السلام على أن يتعلم أصحابه الكتابة الخطية . وطلب إلى أسرى بدر ممن يعرفون القراءة والكتابة ، أن يفتدى الواحد نفسه بأن يعلم عشرة من صبيان القراءة والكتابة ومن ثم اتخذ كتابا لوحيه سجلوا القرآن الكريم ، وكتبوا رسائله إلى عماله وإلى الملوك المجاورين . فكانت هذه الرسائل بذرة كريمة لذلك الغرس اليانع ، وأعنى به كتابة الرسائل الديوانية . ولكن رسائله عليه السلام كانت على نمط من أحاديثه ، تجرى مع الفطرة وتتحرى الغرض أكثر من أى شىء آخر ومن هنا كانت وجيزة . ويبدأ فيها ببسم الله ومن محمد عبد الله ورسوله إلى فلان ، وتنتهى بمثل قوله « والسلام على من اتبع الهدى » .

---

١ ـ الأقيال : الملوك ـ العباهلة : المفرون فى ملكهم ـ الأرواع : ذوو الروعة ـ المشايب : ذوو المظهر الجميل ـ التيعة . اربعون شاة ـ المثمورة : المسترخية ـ الضناك : السمينة ـ أنطوا : اعطوا ٢ الثبجة . الوسط

مما سبق ترى أن النثر الفنى شهد بوجود الرسول عليه السلام عهدا عظيم الخطر فياض الأثر إذ علا شأن الخطابة وارتفع منارها ، وقررها الشرع فى مناسبات عدة كالجمع والأعياد . فضلا عن ميلاد الكتابة الفنية وكتابة الرسائل الديوانية .

وكانت مدرسة النبوة واسعة الأفق ، سرى فيح شذاها إلى الصحابة الكرام . هذا فضلا عن أثر النزاع الدينى نفسه فى العرب ولاسيما خاصتهم . فزاد بذلك كله عدد الخطباء ، وامتلأ عصر صدر الإسلام بهم . وفى مقدمتهم الخلفاء الراشدون ولاسيما على كرم الله وجهه . وخطباء الوفود وغيرهم . وكان من الخطباء : المغيرة ابن شعبة والحباب بن المنذر وبشير بن سعيد والأحنف بن قيس وسعد بن عبادة

وقد استخدم الخلفاء الخطابة أداة فاصلة فى ملماتهم وخلافاتهم ومشروعاتهم وفتوحاتهم ووعظياتهم ، إلى غير ذلك . فاتسع لها بذلك ، مجال القول ، وتعددت موضوعاتها . خطب أبو بكر يوم سقيفة بنى ساعدة ، وخطب عمر بعد أن ولى الخلافة ، وخطب على فى كثير من مواقفه ولاسيما فى عهد خلافته حينما وقع النزاع بينه وبين معاوية ، وحينما وقع الشغب فى صفوف أتباعه .

وقد جمع الشريف الرضى — أو المرتضى — خطب على فى ديوان هو « نهج البلاغة » ومهما قيل فيه وفيما دس إليه من كلام ليس لعلى فلا ريب أنه قد سلمت منه جملة صالحة من الخطب هى من قول على وتضعه فى الصف الأول من خطباء العرب بعد النبى عليه السلام .

وجملة القول فى خطبهم أنها كانت على نمط من خطب النبى عليه السلام ، جزالة لفظ وقوة تركيب ، وحنكة فى التعبير عن أدق المعانى ، وترسلا فى أكثر السطور ، وقربا إلى الطبع ، واقتباسا من القرآن الكريم .

واستمرت العناية بالكتابة الإنشائية مطردة ، لشعور الدولة العربية الناشئة بحاجتها إليها فاصطنع الخلفاء عدداً من الكتاب على نمط ما كان متبعا فى عهد الرسول وظلت المكاتبات — الديوانية — على وجازتها غالبا . وبلغ بعضها فى وجازته حد

الترقيع واتسع نطاق موضوعاتها تدرجا مع اتساع نطاق الدولة، واشتملت على العهود والوصايا.

— ٤ —

النثر فى عصر بنى أمية

ظل النثر يسير فى الطريق الذى رسم له فى عصر صدر الإسلام وجدّ له فى عصر بنى أمية من العوامل ما زاد فى نشاطه ووسع من محيطه وذلك باتساع الدولة وبدء أخذها بأسباب الحضارة، وبإقبال الناس على تدبر القرآن ورواية الأدب والأخبار. وبتعدد الدواوين لضبط شئون الدولة. هذا إلى النشاط الحزبى الذى جعل هذه الدولة القصيرة العمر كالأتون المستعر. فطغى لذلك سيل الخطابة واتخذت فى مقدمة الأسلحة التى يستعان بها على مـــلافاة الأمور وبث الدعاية واصطناع الأنصار وإرهاب الأعداء.

ومن هنا تعدد الخطباء ومنهم: معاوية، وعبد الملك بن مروان، وعمر بن عبدالعزيز، وزياد والحجاج وخالد القسرى، والحسين والحسن أبناء على. وقطرى ابن الفجاءة. والمختار الثقفى، وأبو حمزة الخارجى. وعبدالله بن الزبير وأخوه مصعب وغيرهم.

وتنوعت موضوعات الخطابة. فمنها الحزبية التى كانت تفيض بالدعاية والوعد والوعيد، وبسط السياسة وطرق الحكم. ومنها خطب الوعاظ وكانت ملأى بالعبر والعظات وضرب الأمثال وذكر السلف والتذكير بأيام الله، ومنها خطب الوفود وكانت تفيض بالحمد والثناء وبسط الأمل والمعاهدة على الطاعة. هذا عدا خطابة الجمع والأعياد.

وامتزجت أساليب الخطباء بالنزعة الدينية وبالروح العاطفية أحيانا، ويكثر

ذلك فى خطباء الأمويين من علويين وخوارج وزبيريين ووعاظ ، ومن هنا كثر الاقتباس فيها والاستشهاد بآى القرآن الكريم .

وكان الخطباء وكثير من ولاتهم يلون الخطابة بأنفسهم ولا سيما خطابة الجمعة ونحوها ، وكان لذلك أثر كبير فى ازدهاء رونق الخطابة المنبرية .

ونشير إلى أن معاوية اتخذ كتابا لرسائله فينشئها الخليفة من إملائه ، أو ينشئها كاتبه بوحى منه ومن هنا سميت كتابة الرسائل « الكتابة الإنشائية » ، وسمى كتابها « المنشئين » . وكان هذا أساساً لما أنشىء بعد من دواوين ، سواء أكان ذلك فى الدولة العباسية أم فى الدولة المنفرعة عنها ، وظل وجوده تقليدا صالحاً متبعاً فى الدول الإسلامية حتى بعد استعجام كثير منها . يتطلع إلى مناصبه ذوو الكفاية من الأدباء .

واتخذ معاوية ، عبيد الله بن أوس الغسانى كاتباً له . فلما كان عصر هشام كتب له مولاه سالم . وهو فارسى جمع إلى علمه بالفارسية علمه بالعربية واليونانية . فكان له أثر بالغ فى هذه الصناعة الناشئة — وهى صناعة كتابة الرسائل — التى أخذت بفضله تدخل فى طور جديد . وقد نضج هذا الطور ورسخ وزهت ألوانه على يد عبد الحميد بن يحيى بن سعيد الذى تخرج بختنه سالم المذكور . وكان عبد الحميد أيضا فارسيا خبيرا بالعربية ذا ذوق ومعرفة . فكتب لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وأخذ يفتن فى كتابة الرسائل ماشاءت له ملكته الخصبة وقلمه الطيع . حتى صارت الكتابة صناعة عنيدة لها أصول وقواعد ورسوم فى بدئها وختامها ، وقصاراها إبراز المعنى بأوضح عبارة وأجزل تركيب مع الاستعانة على تثبيته بالترادف .

هذا إلى إطالة التحميدات وتنويع عبارات البدء والختام بما يناسب موضوع الرسالة . والترجح بين الإطالة والإيجاز حسب مقامات الكلام . — وبهذا وذاك أخذ الفن يجد فى النثر العربى ميداناً جديداً لجولاته ومخترعاته .

ولم يبعد النثر الأموى فى جملته عن نهجه فى صدر الإسلام ، فكان بعيدا عن الحوشى والغريب ، مختار الألفاظ ، جزل التراكيب واضح المعانى ، فيه ترادف يؤكدها ويثبتها ، وسجع فطرى ، وطباق ومقابلة هينان يدعو إليهما الطبع . أما الاقتباس فكان كثير الذيوع . وقل أن خلت منه رسالة أو خطبة ، مع رعاية الدقة فى الاستشهاد بما ينسجم مع المناسبة ، وترجح بين الطول والقصر فإن لعبد الحميد موجزات فى توقيعاته ، كما أن له المطولات وذلك فى مقام التهديد والوعيد مثلا ، وذكر الفتوح والحث على الجهاد ولقاء العدو . قالوا إن عبد الحميد بعث إلى أبى مسلم رسالة حملت على بعير ، لو قرأها لترك دعوة العباسيين ، ولكنه لما بلغته خشى مغبة بلاغة عبد الحميد فأحرق الرسالة وكتب على جذاذة منها إليه :

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى عليك ليوث الغاب من كل جانب

واعتمد فى تصوير بعض معانيه على المجاز والاستعارة والكناية . والذى نلحظه فيها أنها مرتجلة صاغتها البديهة . ولا عبرة بما ورد فيها من ألوان الفن والبديع ، فليست هذه الألوان وقفا دائما على الإعداد . بل كثيرا ما تتركز فى الأذواق حتى تجرى على ألسنة المرتجلين مجرى الطبع . ونشاهد ذلك فى كثير من خطباء العصر الحديث ، المرتجلين . — على أن هناك دليلا على ارتجالها ، وهو عدم تسلسل معانيها تسلسلا دقيقا . ولو كانت معدة ، لكانت أكثر ترتيبا وتسلسلا وإناقة . وهذه الملاحظة عامة فى خطب هذا العصر . وهى سمة واضحة أيضا فى الحجاج ، على الرغم من أنه كان يتمثل فى خطبه بأبيات الشعر أحيانا . وهو لا يبعد كثيرا عن منهج زياد .

ومما كتبه عبد الحميد وهو منهزم مع مروان بن محمد ، إلى أهله ، قوله :

« أما بعد فإن الله جعل الدنيا محفوفة بالمكاره والشرور . فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها . ومن عضته بنابها ذمها ساخطا عليها وشكاها مستزيدا لها . وقد

كانت أذاقتنا أفاويق استحلبناها ثم جمحت بنا نافرة ورمحتنا مولية . فلح عذبها وخشن لينها. فأبعدتنا عن الأوطان وفرقتنا عن الإخوان . فالدار نازحة والطير بارحة . وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعدا وإليكم وجدا . فإن تتم البلية إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بنا وبكم . وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار من يليكم نرجع إليكم بذل الإسار والذل شر جار . نسأل الله تعالى الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة فى دار آمنة تجمع سلامة الأبدان والأديان، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين .»

ورسائل عبد الحميد نمط عال من أمثلة الكتابة الفنية ، وبها اعتبر شيخا لكتاب الرسائل. وقد اصطنع فيها عبد الحميد جملة من دعائم فنه الكتابى ، منها الاستعارة والكناية والطباق . ومنها السجع والازدواج. ومنها الاقتباس . هذا إلى عباراته فى البدء وعباراته فى الختام وكلها تناسب موضوع الرسالة. وإلى براعة استهلاله وختامه وإلى تخير ألفاظه وتراكيبه مع جزالتها وإلى وضوح المعانى وإسفار الأفكار ، والبعد عن التعقيد ، والتقديم والتأخير . مع ترتيب المعانى الجزئية ترتيبا يدعو إليه طبيعة الذوق والموضوع . هذا إلى أن بعض رسائل عبد الحميد كان بدءا للإخوانيات التى أخذت سبيلها إلى الازدهار .

والذى نريد أن نسجله هو أن الكتابة الفنية أخذت فى عصر بنى أمية ، ولا سيما فى أواخره، على يد عبد الحميد ، تشق طريقها نحو حياة جديدة واسعة ، تقاسم الأمم العربية فيها وتعاونها على أداء حاجاتها فى ميدانها . وأن هذه النقلة تطور طبعى اقتضته ملابسات العصر وسياق الحياة فيه ، إذ أخذ الناس حينذاك يسيرون نحو حضارة منتظرة ومدنية واسعة مرجوة ، هى — فى الحق — أثر بارز لتلك الدفعة الواثبة التى دفع الإسلام العرب فيها . ولعبد الحميد رسالة بين فيها للكتاب شرف صناعتهم وما ينبغى أن يتحلوا به ، أو يدعوه .

— ٥ —

النثر فى صدر عصر بنى العباس

نقصد فى المدة التى تنتهى بأواخر القرن الثالث الهجرى . وقد شهدت تكوين الدولة العباسية وعظمتها وازدهارها وانبساط سلطان خلفائها ، إلى أن أخذ الضعف يدب إليها بسبب استفحال خطر الفرس والترك .

فى هذه الفترة أسست بغداد قريبة من فارس ، ووسطا بين الأمم الإسلامية ، وصارت عاصمة للخلافة ، ومحورا للعلوم والآداب الإسلامية . ونشطت فيها حركة التأليف والترجمة والتعليم ، وهوم إليها الأدباء من كل فج ، ونعم العصر نسبيا ، بحياة حرة ، كان لأبناء الشعوب غير العربية ، نصيب منها كبير . وامتزج العرب بغيرهم زواجا ومجاورة ومعاملة . وبدأ بذلك جيل جديد يظهر فى الأفق . جيل مولد له سمات وصفات من هذه الشعوب المتمازجة ذات الحضارات المختلفة . ودخلت الدولة فى دور حضارة واسع المدى . وازدانت بعدد من الخلفاء ذوى شكيمة وقوة وعلم ورأى وسياسة وحزم ومغامرة ، أمثال أبى جعفر والرشيد والمأمون .

وكان لذلك صداه فى اللغة ، فشهدت طورا من حياتها جديدا ، فاتسع نطاقها ، وامتدت آفاقها . وتنوعت أغراضها . وتهذبت أساليبها وعذبت تراكيبها ، وعمقت معانيها ودقت أفكارها ، وتوسع فى مدلولات معجمها ، إلى غير ذلك من ضروب التجديد الذى كان للنثر الفنى منه نصيب موفور .

ويتمثل نثر هذه الفترة فى الخطب والكتابة .

أما الخطب فقد لازمتها نحو قرن ، وجدت خلاله أسبابا لنشاطها . إذ أن الدولة قامت على أساس من تأليف العصابات ومخاطبة الجماهير ، دعاية إلى مذهبها الجديد ، ونعيا على سياسة بنى أمية . فكان قيامها انقلابا عظيما وثورة جامحة واسعة المدى

والمرمى ، وفى مثل هذه المناسبات تجود الخطابة ، لأنها الأداة الطبيعية التى بها يبلغ القادة والزعماء أهدافهم .

وكان بنو العباس أنفسهم خطباء هذا الانقلاب ، فاستمروا منذ إنشاء دولتهم على نهجهم الخطابى الذى انتهجوه فى مخاطبة الجماهير ، على المنابر وغيرها . طلبا لطاعتهم ومعاضدتهم ، باذلين لهم الوعود مهددين من تحدثهم نفوسهم بالغدر ، مبينين سوء سياسة الأمويين .

ومن هنا ترى أن الخطب حينذاك صفحة ناصعة واضحة المعالم تصور سياسة هذا العصر واتجاهه الاجتماعى . وشاركتها العظات البالغة ، والقصص الزاجرة ، والمحاورات النافعة ، فى نشاطها ، وكل منها فى ميدانه .

ولكن بعد أن ضعفت الأحزاب السياسية وتشتت أتباعها ، وبعد أن جيشت الجيوش ووضعت لها النظم الدقيقة ، وتذوقت الدولة طعم الاستقرار ، ووكل أمر دواوينها إلى وزراء عرفوا بالدهاء وحسن السياسة وإصالة الرأى والبلاغة والمقدرة الإنشائية ، وأخذوا يكتبون هم أوكتابهم المنشورات السياسية التى كانت تتلى على الناس فى محافلهم ، بعد هذا كله فتر أمر الخطابة بعد أن أزدهرت زهاء مائة عام . ولعل من أسباب فتورها أيضا ، ضعف العناصر العربية بين جنود الدولة ، وضعف ملكة الارتجال بدافع الحضارة ونظمها وبدافع الاستقرار .

وما انتهى صدر العصر حتى كانت الخطابة العربية البليغة المرتجلة قد طوى بساطها وانفض سامرها . بعد أن شهدت عدداً من بلغاء الخطباء أمثال السفاح وأبى جعفر والرشيد والمأمون ، وداود بن على وكثير من إخوته وأبنائهم ، وجعفر البرمكى والفضل بن سهل وطاهر بن الحسين وابنه عبد الله بن طاهر وخالد بن صفوان وشبيب بن شيبة وموسى بن سيار الأسوارى الواعظ القاص .

والأسلوب الخطابى هنا امتداد لما كان منه فى العصر الأموى . فيه القوة والبرهان والوعد والوعيد والجزالة والطلاوة ، والسهولة والوضوح ، وضروب

من الزينة والحلية لا يتأبى عليها الطباع ، ولا تتجافى عنها الأذواق من سجعات قصيرة رفيقة ، ومطابقات دقيقة . واقباسات غاية فى رعاية المناسبة .

ومن أمثل خطبهم ، خطبة داود بن على عم السفاح ، وهى التى خطبها على منبر الكوفة يوم مبايعة الناس للسفاح .

وهى خطبة عصماء جيدة النسج اعتمد الخطيب فيها على الكنايات المأثورة فى إيضاح معانيه وعلى الترادف سبيلا إلى الإطناب . وبنائها على الفقرات القصيرة تارة مسجوعة وتارة مرسلة . مع سوق الأدلة والبراهين ، وحسن اختيارها مما له أثر سريع فى نفوس السامعين . مع ازدواج هين لا كلفة فيه . وعلى هـذا النهج أو قريب منه سارت الخطابة حتى عفا أثرها وطوى ذكرها ، ولم يعد منها إلا بقية تتمثل فى العظات والخطب المنبرية .

أما الكتابة فهذه الفترة أزهى فترات حياتها الطويلة . وأعمر أيامها الناضرة ، بلغت فيها قمة مجدها وذروة بلاغتها ، وحصف فيها الكتاب حتى ضربت بهم الأمثال فى البلاغة وسمو المعانى وجدتها وحنكة الأسلوب ومقدرته ، وسعة الموضوعات وإحاطتها . فأورثوا العربية بذلك جمالا لا تزال تزدان به ، ويلهج الناس بذكره ، وصار القدوة والمثال لكل كاتب ومنشىء .

وفى مقدمة أسباب ذلك ، هذا التطور الجاد الذى حدث فى حياة الأمة العربية ، إذ أخذت تسير قدما فى ميدان الحضارة ، وتصطنع من الأساليب ما يوائم حاجاتها فيه . مستعينة بالعناصر الأجنبية كلما وجدت إلى الاستعانة بها سواء أكان ذلك فى تنظيم شئونها أم تدوين علومها ، أم ترجمة كتب فارس والهند واليونان .

وكان لذلك رجعه الطبعى فى نفوس أدبائها ، وفى مقدمتها الكتاب ، فمثلوا ، بما أنشئوا من رسائل شائقة ومقالات بليغة وفصول ممتعة ومؤلفات ومترجمات شتى ، فى مختلف نواحى الحياة العقلية والأدبية ، عظمة هذه الدولة العظيمة الفتية .

واتسع نطاق الدواوين وأدخلت عليها نظم جديدة وأهمها فى موضوعنا ، ديوان الرسائل بقسميه : ديوان الخاتم وديوان التوقيع . إذ عظمت منزلته واتسع اختصاصه . وكان يليه مع سائر دواوين الدولة — عدا ديوان الجيش — وزير الدولة فيتولاه أو يكل أمره إلى أحد نوابغ المنشئين. وقد اتسع نفوذ الوزير الأديب الفضل بن سهل ، إذ وكل إليه المأمون . «ديوان الجيش» فى جملة دواوين الدولة ، وبهذا اجتمعت له رياسة القلم والسيف . ولقب « ذا الرياستين » وجعل له علم على سنان ذى شعبتين وكتب على سيفه من جانب « رياسة الحرب » ومن جانب «رياسة التدبير» .

وكان الوزراء والكتاب فى الديوان يختارون من الأذكياء الأكفاء ذوى الفضل والتجربة وذوى الشهرة فى العلم والأدب والإنشاء . ولهذا تنافس الكتاب وجودوا إنشاءهم ووسعوا من أفق معارفهم، حتى يكون ذلك لهم شفيعا إلى مناصب الديوان حيث الغنى والجاه والسلطان .

ولهذا سعد العصر بجمهرة منهم ندر أن اجتمع مثلها فى عصر ، ومنهم العربى والأعجمى . وتوالوا طبقات : طبقة ابن المقنع ويحيى بن زياد وعمارة بن حمزة ، وأبى أيوب الموريانى ، وكتبوا للمنصور ثم طبقة أبى عبيد الله معاوية ، ويعقوب ابن داود وزيرى المهدى ، ثم يحيى بن برمك ويوسف بن القاسم ممن كتبوا للمهدى والهادى والرشيد . ثم طبقة جعفر بن يحيى وأخيه الفضل ، واسماعيل بن صبيح ، والفضل بن سهل والحسن بن سهل . وأحمد بن يوسف ، وعمرو بن مسعدة ، وأحمد بن أبى خالد الأحول ، ممن كتب للرشيد والأمين والمأمون ثم طبقة ابن الزيات وابراهيم الصولى وسعيد بن حميد والحسن بن وهب وسليمان بن وهب ، وبنى المدبر والحسن بن مخلد ، ممن كتب للمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد .

ثم طبقة عبدالله بن سليمان بن وهب ، وأبى العباس بن ثوابة وأبى الحسن على

ابن الفرات وعلى بن الجراح ممن كتب للمعتمد والمعتضد والمكتفى والمقتدر . — وقد امتد عهد المقتدر إلى ما وراء القرن الثالث الهجرى[٢].

وفى ديوان الرسائل تكتب رسائل الخليفة ، وإليه ترد رسائله من الخارج . وتنوعت صنوف هذه الرسائل الصادرة فكان منها بيعات الخلفاء وأولياء العهد ، وعهود الولاة والقضاة ، والمنشورات السياسية إلى غير ذلك مما يستلزمه ضبط أمور الدولة وحاجاتها .

ولوحظ فيها الميل إلى الإطالة والتفصيل فى تدبيج أساليبها والتنويع فى عبارات بدئها وختامها واصطناع الألقاب والنعوت. ونعتبر ذلك كله اندفاعا فى التيار الذى بدأ يتحرك فى عصر بنى أمية وعاون على استمرار حركته وسرعتها ، السير فى طريق الحضارة والأخذ بألوان الثقافة والامتزاج بالأعاجم . غير أن طول الرسائل كان أناقة ووسامة ، لا تكلفا وثقلا .

أما الإيجاز فاختصت به التوقيعات وبعض الرسائل الإخوانية ، وكانت التوقيعات بليغة فى إيجازها طلية فى سجعها الملتزم وفقراتها القصيرة ، وازدواجاتها ومقابلاتها ، وتنافس فى ذلك الكتاب والوزراء .

ولم يقل نشاط الأدباء خارج الديوان عنه داخله . بل ربما كان أوسع نطاقا وأبعد آفاقا . لقد اخذوا تحت تأثير سياق الحياة وفيض الحضارة وتدفق الثقافة وجدة المترجمات، يكتبون وينشئون ويترجمون ويبدعون من فنون القول وألوان الكتابة ما شاءت لهم فطرهم السليمة وبراعتهم الحكيمة وقلمهم الطيع . مما بهر العقول وخلب الألباب .

وكانت أساليبهم ناهجة نفس النهج الديوانى من جزالة لفظ وعذوبة أسلوب وجمال تصوير ، وابتكار معنى ، وميل إلى الإطالة غالبا ، وإلى الترادف والتقسيم

---

٢ — راجع الأدب العربي فى العصر العباسى للاستاذ أحمد الإسكندرى

والتبويب . فكتبوا الإخوانيات والمقـالات الوصفية والموازنات والقصص ووصفوا الآداب والعادات والتقاليد والأخلاق . وصف دارس وناقد .

ونستطيع القول إن مناهج التعبير كانت متغايرة . ومادمنا فى مقام غير مقام التفصيل والموازنة ، نستطيع أن نجمل وصفها بأنها تمثلت فى منهجين بارزين هما . منهج ابن المقفع ومنهج الجاحظ . والأول يمثل الأسلوب السائد فى أوائل هذه الفترة . والثانى يمثل الأسلوب السائد فى أوسطها إلى أخرياتها ، على وجه التقريب . وكلا المنهجين تطور طبعى لأساليب الإنشاء دعت إليه مقتضيات الحياة المتحضرة . وإن لم ننكر أثر المزاج الشخصى فى أى منهج .

وأبرز مايتسم به منهج ابن المقفع الذى كان يحذق العربية والفارسية وآدابهما . — وقيل إنه كان أيضا عالما باليونانية — أنه كان يتوخى المفردات المتداولة ولكنه يسلكها فى تراكيب تضفى عليها منعة ، وتعصمها من الابتذال . وبذلك تتضح معانيه وتستساغ تراكيبه لبعدها عن الحوشى والغريب وبراءتها من أسباب الغموض والإبهام . وكان يلجأ إلى التفصيل والتقسيم إذا تصدى لوصف حالة خلقية أو اجتماعية مثلا ، ويميل إلى الإطالة فى التحميدات وغيرها دون لجوء إلى التكرار والترادف . ومن هنا كان كثير من معانيه جديدا سجل بها صورا نفسية وافرة . ويجنح إلى الإيجاز إذا لم يكن وراء الإطالة ما يغنى . غير متباعد عن رشيق اللفظ وعذب التركيب ليسهل تناولها . فإن البلاغة فى رأيه ، هى التى يظن الجاهل أنه يحسن مثلها . ويقول : «إياك والتتبع لوحشى الكلام طمعا فى نيل البلاغة ، فإن ذلك هو العى الأكبر» .

وكان ابن المقفع يترسل غير ملتزم نوعا من البديع أو مقادير معينة فى طول الفقرات ، ومن هنا ترجحت فقراته بين الطول والقصر ، ولا يحدها عنده إلا جمال المقطع وطيب الوقف وحسن الانتهاء . ونزع إلى الحكمة والمثل أحيانا ، وإلى الحديث عن الأخـلاق والاجتماع ، وهنا قد تعانى عباراته شيئا من القلق والغموض ويبدو أن ذلك من أثر معاناته الترجمة الحرفية ، ولاسيما فى أول

عهد العرب بالترجمة[١]

وقد كتب ابن المقفع الرسائل لأبى جعفر ولغيره من أقاربه . ودبج الإخوانيات وترجم كليلة ودمنة ، وأضفى عليه جدة من شباة قلمه وألبسه ثوبا قشيبا من بيانه . وكتب المقالات والرسائل الأدبية الضافية ، ومنها الأدب الكبير والأدب الصغير واليتيمة فى طاعة السلطان ، ورسالة الصحابة وغير ذلك . مما له فضل عظيم على العقلية العربية .

ومن فقراته فى رسالته « اليتيمة » يصف أحوال الناس وأخلاقهم :

« وقد أصبح الناس إلا قليلا ممن عصم الله ، مدخولين منقوصين . فقائلهم باغ . وسامعهم عياب . وسائلهم متعنت . ومجيبهم متكلف . وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل . وموعوظهم غير سليم من الهزء والاستخفاف . ومستشيرهم غير موطن نفسه على إنفاذ ما يشار به عليه ، ولا مصطبر للحق مما يسمع . ومستشارهم غير مأمون على الغش والحسد . وأن يكون مهتاكا للستر ، مشبعا للفاحشة ، مؤثرا للهوى . والأمين منهم غير متحفظ من ائتمان الخونة . والصدوق غير محترس من حديث الكذبة . وذو الدين غير متورع عن تقريظ الفجرة . »[٢]

ومن رسائله الموجزة يعزى عن بنت :

« لا ينقص الله عددك . ولا ينزع عنك نعمته التى ألبسك . وأحسن العوض لك وجعل الخلف لك خيرا مما رزأك به . وما أعطاك خيرا مما قبض منك . » .

وأما منهج الجاحظ — وهو أديب عصره وكاتب جيله — فهو مظهر لما اكتمل لصاحبه من أدب وعلم . إذ كان الجاحظ عظيم الاطلاع واسع المعرفة ذواقة . يستبطن الأمور ويكنهها بنظر ثاقب وفحص دائب . واستنباط صائب وقد قرأ

---

١ — راجع الفن ومذاهبه فى النثر العربى للدكتور شوقى ضيف ص ٤٨

٢ — راجع كتاب اختيار المنظوم والمنثور لابن أبى طاهر طيفور ج ٢ ظهر الورقة رقم ١٠٠ مخطوط بدار الكتب المصرية .

كثيرا من علوم عصره . وهى كثيرة بالنسبة لمن تقدمه . إذ بينه وبين جيل ابن المقفع ما يقارب مائة عام ، كانت رسائل العلوم والآداب والمترجمات ، خلالها قد توافر عددها وغمر فيضها . فأثر ذلك — ولا ريب — فى أسلوب الجاحظ الذى نصب نفسه معلما لجيله ومن بعده . ولهذا صار أسلوبه مدرسيا فيه الحوار والجدل ، وفيه التعليل والاستدلات . وفيه المقدمات والاستطرادات والهزليات يخلطها بالجديات ، بعثا لشوق القارىء . وفيه استقصاء لجزئيات الموضوع ، نشرا للثقافة . وفيه الإطالة عن طريق التكرار والترادف للمعانى . هذا فضلا عن سمات كثيرة من منهج ابن المقفع أهمها السهولة والوضوح وجزالة التراكيب ، وحسن الانتهاء عند مقاطع الفقرات .

سوى أن الجاحظ آنق منه . وأكثر احتفالا بمفرداته وتراكيبه ، وأميل إلى تنسيق عباراته وتنظيم فقراته حتى يطيب مظهرها وتقبلها الأسماع لموافقاتها الصوتية . فهو يسجع أحيانا ويزاوج أحيانا ، ويطابق مرة ويجانس أخرى . مفضلا فى أكثر ما يكتب قصار الفقرات التى ينتهى كل منها بمعناه ، باعثا لبعض الغريب رجاء الانتفاع به فى تأدية المعنى ، ورجاء بعثه . متخيرا أشهى الموضوعات وأدقها وأغربهـــا للكتابة عنه فكتب الإخوانيات ووصف الحيوان وطبائع الإنسان ، وأرخ للأدب ، ووضع دعائم للنقد والبلاغة ، وحرر القصص فى شىء من التحليل . إلى غير ذلك مما ألف فيه أكثر من مائة وسبعين كتابا منها البيان والتبيين وكتاب الحيوان . والبخلاء . والمحاسن والأضداد . وديوان رسائله .

ومن كلامه فى مفتتح كتاب الحيوان قوله يدعو :

« جنبك الله الشبهة . وعصمك من الحيرة . وجعل بينك وبين المعرفة سببا . وبين الصدق نسبا . وحبب إليك التثبت . وزين فى عينك الإنصاف . وأذاقك حلاوة التقوى . وأشعر قلبك عز الحق . وأودع صدرك برد اليقين . وطرد عنك ذل اليأس . » الخ

ومن رسائله ينصح :

« أما بعد فما أقبح الأحدوثة من مستمنح حرمته . وطالب حاجة رددته . ومثابر حجبته . ومنبسط إليك قبضته . ومقبل إليك بعنايته لويت عنه . فتثبت فى ذلك . ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم » .

هذا ، وممن سار على نهج ابن المقنع ، مثلا ، وعلى وجه التقريب عمرو بن مسعدة . وطاهر بن الحسين . وأحمد بن يوسف ، ومحمد بن عبد الملك الزيات . — وممن سار على نهج الجاحظ : المبرد وابن قتيبة وحمزة الأصفانى . وقصارى أساليبهم — على ما رأيت — أنها أخذت تسير وفق قريحة فنية تبتكر الفكرة ، وتتروى فى إخراجها وحسن عرضها ، وتجيد صناعة تصويرها غير متكلفة ولا متعسفة ، فهى صناعة أقرب شبها بالطبع ، وروية وتجويد أدنى محاكاة للبديهة والارتجال .

ولا ريب فى أن مابدا عليها من نزوع أحيانا نحو السجع أو الازدواج أو قصر الفقرات ، وانتهائها بانتهاء معانيها والتأنق فى اختيار اللفظ ، والحنكة فى تركيبه مع غيره بطريق الإسناد أو الإضافة مثلا ، أو غير ذلك ، أضفى عليها فنية جديدة لم تكن لها من قبل .

وقد أخذت هذه الخصائص وما أضيف إليها من جديد فيما بعد ، تحبب إلى الكتاب التزام شىء منها أو تتجه بهم نحو هذا الالتزام ، وهو ما نشاهده فى كثير من كتاب القرن الرابع ، ومابعده . وهو مانعده تطورا طبعيا للأساليب الكتابية دفعت إليه سياقات الحياة . وطبائع الفنون ، إذ تبدو ، يبدو أسبابها ، تكون باهتة قلقة ثم تزهو وتثبت ، ثم تلتزم وتتعقد بالإضافات الجديدة ، مادامت أسبابها مطردة ، فى سبيلها هى أيضا إلى التركز والتعقد .

ومن المناسب أن نشير إلى أحد الكتاب — وقد أشار إليه جورجى زيدان[1] — وهو ابراهيم بن سيابة . فقد روى له الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » ، رسالة كتبها إلى يحيى بن خالد بن برمك ، التزم فيها السجع وأطال الثناء ، وأكثر

---

١ — تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٢ ص ١٢٧

من التأنق حتى خرج بذلك عن مألوف عصره. ولغرابتها حينذاك حفظها البغداديون. وقد قال فى مطلعها : « للأصيد الجواد . الوارى الزناد . الماجد الأجداد . الوزير الفاضل . الأشم الباذل . اللباب الحلاحل . من المستكين المستجير . اليائس الضرير. فإننى أحمد الله ذا العزة القدير. إليك وإلى الصغير والكبير بالرحمة العامة والبركة التامة.

أما بعد فاغنم واسلم . واعلم إن كنت تعلم . أنه من يرحم يُرحم . ومن يحرم يحرم . ومن يحسن يغنم . ومن يصنع المعروف لا يعدم . وقد سبق إلىّ تغضبك علىّ . واطراحك لى وغفلتك عنى بمالا أقوم له ولا أقعد. وأنتبه ولا أرقد . فاست بحى صحيح . ولا بميت مستريح . . . الخ

وهذه رسالة لا تتخذ نموذجا لنثر عصر كاتبها . وما أشبهه فى غرابة أسلوبه البديعى بالنسبة لمعاصريه ، بابن خلدون فى غرابة ترسله وانطلاق أسلوبه ، بالنسبة لمعاصريه من أهل البديع . . . والقياس مع الفارق

— ٦ —

النثر فى القرن الرابع

ما إن تتابعت السنون سائرة نحو القرن الرابع حتى وجدنا ذلك البريق الذى بدا فى ثنايا الأساليب الكتابية يزداد لمعانا وثباتا وحتى وجدنا السجع يكثر أو يلتزم أحيانا على يد بعض الكتاب المتأخرين فى القرن الثالث أمثال أبى العباس بن ثوابة (٢٧٧ هـ) وأبى العيناء (٢٨٢ هـ) وكان هذا خير تمهيد لما بدا على الأساليب الكتابية من فنون الصناعة فى القرن الرابع ، تلك الفنون التى فتحت الطريق أمام هندسة الأسلوب ، واتخاذه - من بعد - موضوعا أصيلا لمبتدعاتها . [1]

وقد عنينا بإفراد هذا الفصل للحديث عن النثر الفنى فى القرن الرابع ، لأنه

---

١ — نفس المصدر ج ٢ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦

القرن الذى برزت فيه العقلية العربية وعليها آثار مركزة من الثقافات المتلاقحة التى أخذت تتصل و تتفاعل منذ أول العصر . ولأنه القرن الذى بلغت فيه الحضارة العباسية غاية كان لها رجع بعيد فى تعقيد الحياة العامة . ومن ثم فى الحياة الأدبية وأساليب الأدباء . ولأنه القرن الذى برزت فيه دول مستقلة عن دولة الخلافة ، كثيرة العدد والتتابع . وكان منها فى شرق العراق دول غير عربية ، اتخذت — لإسلامها — لغة القرآن أداة رسمية لضبط شئونها ، واحتاز أمراؤها العلماء والأدباء والكتاب وكان لمنافستهم أثر فى نبوغ عدد كبير من كرام الكاتبين فى مختلف نواحى النثر . فكان جديرا بأن يؤلف فيه وحده كتاب مستقل . وهذا هو الذى صنعه المرحوم الدكتور زكى مبارك فى كتابه « النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى » .

وقد تناول كتاب هذا القرن مختلف شئون الحياة . فكتبوا فى موضوعاتها المتفرقة . ومنهم منشئو الرسائل والعهود مثل ابن العميد والصاحب بن عباد وأبى الفضل الميكالى وأبى بكر الخوارزمى . وكتاب الأخبار والتاريخ كأبى اسحق الصابى والعتبى . ومنشئو والأقاصيص والمقامات كبديع الزمان الهمذانى . وكتاب النقد كأبى الحسن الجرجانى وأبى القاسم الآمـــدى وأبى هلال العسكرى . وأصحاب الآراء والمذاهب كأبى حيان التوحيدى وأبى منصور الثعالبى (توفى فى القرن الخامس) .

وكثير من كتاب هذا القرن احترف كتابة الدواوين ، وعاون على ذلك تعدد الدول الناشئة . كما أشرنا . فكتب بنو ميكال للدولة السامانية . وابن العميد وابن عباد للدولة البويهية . وقابوس بن وشمكير كان من أمراء دولته الزيارية . وكتب أبو اسحق الصابى للخليفة ببغداد ولآل بويه . وأبو الفتح البستى وكتب لأمير بست بأفغانستان ثم لمحمود ابن سبكتكين . وأبو العباس الضبى تلميذ ابن عباد وكتب للبويهيين . وعلى بن محمد الإسكافى وكان كاتبا للدولة السامانية ووزيرا لها .

ومن العسير أن تحسن القول هنا فى شىء من الدقة عن أساليب هؤلاء الكتاب .

الذين سمق على يدهم بناء الإنشاء العربى إلى أوجه ، ومعه ما اختارت له مشيئة الحياة وحضاراتها وثقافاتها من ألوان الزخرف المقبول ، ومن أفانين الصناعة التى أبدعتها هندسة بناء الأسلوب فى كثير من الروعة الممتعة . ويزيد المسألة عسرا أنك إذا قلبت النظر فى أسلوب واحد من هؤلاء ، رأيت فروقا بينه وبين غيره ، وشهدت خصائص دقيقة تميزه عما عداه .

وعلى سبيل التمثيل ، ترى ابن العميد يستحسن السجع ويكاد يكثر منه . وابن عباد يلتزمه ولو تعسف فى التزامه . والصابى مولعا بالسجع والجناس لا يريم عنها وهو مؤلف كتاب « التاجى » فى تاريخ البويهيين . واقتدى به أبو النصر العتبى فى كتابه « اليمينى » وهو فى تاريخ آل سبكتكين ، وفيه ضروب بديعية عدة . وأكثر الخوارزمى والهمذانى من ألوان البديع فى الرسائل والمقالات . وتعمد قابوس بن وشمكير ألوانا من الجناس أدته إلى العقادة ، وهكذا .

لذا نكتفى فى هذا المقام بوقفة وجيزة عند أبى العميد ، فهو أبرز كتاب هذا القرن ويعتبر — بطريق الإجمال — عميدا لهم ، وما منهم إلا قرين له معاصر ، أو متتلمذ له ، ومن المصادفات أنه عاش بين سنتى ٣٠٠هـ و ٣٦٠هـ ، فكأنه عاش فى صلب القرن ، والذين عاشوا إلى آخر القرن أو ماتوا بعده بقليل مثل قابوس والعتبى ، عاشوا زمنا فى مدرسته . وأسلوبه أمثل الأساليب دلالة على أثر ملابسات الحياة فى القرن المذكور فى عبارات الكتاب . وإن افترق بعضهم عنه بأشياء ، وإن اتجه بعضهم من بعده إلى كثير من الالتزامات والتعقيدات .

عاش ابن العميد إذاً فى القرن الرابع وهو القرن الذى بلغت فيه الحضارة العباسية أوجها ، وتم فيه امتزاج الشعوب الإســـلامية ، وتشابكت مصالحها وأفكارها تشابكا بلغ الغاية وامتلأت الحياة العملية والخلقية بالزخرف والمداهنة والتكلف ، فانتقل هذا إلى الحياة العقلية فالأساليب الأدبية ، ودعا إلى إجادة زخرفها وإتقان زينتها وتزويدها بمحاسن مجلوبة تبرز خلابتها وتزيد من تأثيرها تلبية لما مرنت عليه النفوس من تزويق الحياة ، واستجابة لما درجت عليه الألسنة

من تنميق الخطاب . لاسيما أن الدول الغالبة فى هذا الحين من الأعاجم ، فرسا أو تركا ، ممن يحبون الزخرف ويولعون بالزينة ويستريحون إلى المبالغات . وكان ابن العميد نفسه — وكان وزيرا للدولة البويهية — مولعا بصناعة الكتابة . ولكنه جمع إلى حذقها الإلمام بكثير من علوم عصره من منطق وفلسفة وإلهيات وطبيعة وهندسة حتى لقب بالجاحظ الثانى . هذا إلى إجادة فن التصوير وعلم الحيل . فنضح كل أولئك على أسلوبه وسار به نحو الزينة والزخرف .

وأهم ما يمتاز به أسلوب ابن العميد ، اعتماده على السجع غالبا ، وهو سجع خفيف مقبول لا يتأبى عليه الطبع أو يتجافى الذوق . ولكن كثرته فى عباراته أربت على ما كان من سجع أسلافه . واصطنع مع السجع ما خفف مئونته وذلك كقصر الفقرات ، أحياناً ، وبالازدواج والتوازن بين ألفاظها المتناظرة تارة ، فهذب بذلك التوافق الصوتى ، من تكلفه وخشونة تواليه . واعتمد على الطباق الهين والجناس السمح . وعمد إلى حل الأبيات الشعرية والحكم ، أو تضمينها ، مع جنوح إلى المبالغات والأخيلة الشعرية التى عمادها التشبيهات والمجازات ، دون أن يختل تسلسل معانيه ، تسلسلا يدعو إليه الذوق وطبيعة الموضوع ومع ذوق واضح فى تخير ألفاظه . وكياسة ملموسة فى صوغ تراكيبه . وبهذا كله تحول الأسلوب النثرى إلى مايشبه الشعر ، إذ برزت فيه جملة عناصر كان الشعر من قبل يختص بها وإليك قطعة من كلامه :

كتب إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة . رسالة مترجحه بين الوعد والوعيد قال منها :

« كتابى وأنا مترجح بين طمع فيك ويأس منك وإقبال عليك وإعراض عنك . فإنك تدل بسابق حرمة . وتمت بسابق خدمة . أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية . ثم تشفعهما بحديث غلول وخيانة . وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية . وأدنى ذلك يحبط أعمالك . ويسحق كل ما يُرعى لك) الخ

— ٧ —

النثر بعد القرن الرابع إلى نهاية الدولة العباسية

كان لطريقة ابن العميد فى نفوس الكتاب من بعده ، فعل السحر . وعاون على ذلك ، استمرار المؤثرات البيئية والحضارية والثقافية وغيرها . التى نضجت بينها هـــذه الطريقة فكان استمرارها إيذانا باستمرار الدعائم البيانية والمحسنات البديعية التى اصطنعها ابن العميد فى طريقته . فضلا عن الخصائص الأخرى التى التزمها بعض معاصريه والذين عاشوا من بعدهم ، حتى تأصلت هذه الدعائم والمحسنات وتركيزت ألوانها ، وحملوا النثر كل هذا العبء الفادح حتى صار كالرقعة التى تثودها أصباغها ، فخاتلت تلك الزخارف العين وضاعت تحتها معالم المعانى . ولعل من أهم الأسباب التى أدت إلى ذلك . تمكن السيادة للأعاجم فانساق الأدباء إلى الملق والتزويق والمبالغة استدرارا لرضاهم .

وقد عبر جورجى زيدان عن هذه الحالة ، فأحسن التعبير ، حيث يقول :

« لما تمكنت السيادة للأعاجم أصبح العرب وغيرهم من أهل الأدب فى حاجة إلى التملق . فجرهم ذلك إلى تنميق العبارة والمبالغة فى الإطراء والتأنق فى الإنشاء . مع ما تقتضيه طبيعة العمران من التبسط فى الحضارة والاسترسال فى تزويق العبارة بأنواع البديع والجناس — شأن المتحضرين فى سائر أحوالهم . فإنهم يجنحون إلى أسباب الرخاء والتأنق فى كل شىء ، فتجاوزوا فى الإنشاء ما وضعه أدباء العصر الثالث من القواعد التى سميناها مدرسية .

كان التنسيق فى العصر العباسى الثالث يزيد الإنشاء رونقا للاكتفاء بالقدر اللازم ، على ما يقتضيه الذوق السليم من سجع أو جناس أو كناية . فاستحسن أهل العصر الرابع ذلك ، فاسترسلوا فيه وتجاوزوا حده فآل إلى عكس المراد »[1]

---

١ ـــ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٣ ص ٣٣

ولم يخلص أدباء هذه الفترة للكتابة وحدها ، أو على الأقل لم يؤثروها بأفضل جهودهم كما كان شأن أسلافهم ، فكان منهم الشاعر واللغوى والنحوى والبلاغى والكلامى إلى غير ذلك . ونذكر منهم : أبا العلاء المعرى (٤٤٩ هـ) صاحب رسالة الغفران ، وابن سنان الخفاجى (٤٦٦ هـ) صاحب سر الفصاحة . وإن كانا قد ظهرا ببلاد الشلام . وعبد القاهر الجرجانى (٤٧١ هـ) صاحب أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز . ومنهم الخطيب التبريزى (٥٠٢ هـ) . والحريرى (٥١٦ هـ) والزمخشرى (٥٣٨ هـ) صاحب أطواق الذهب والحصكفى (٥٥١ هـ) وابن الجوزى (٦٥٥ هـ) وغيرهم .

ويمثل أبو القاسم الحريرى صاحب المقامات بأسلوبه ، أسلوب النثر الفنى فى هذه الحقبة الأخيرة ، بوجه الإجمال . ولهذا نقف عنده وقفة يسيرة فنقول :

كان الحريرى كاتبا وشاعرا ولغويا ونحويا نشأ بالبصرة وأتقن اللغة والنحو والأدب ، وعالج الكتابة حتى برع فيها على الطريقة البديعية . وله فى النحو ملحة الأعراب وهى أرجوزة وفى اللغة والأدب والنقد ، ودرة الغواص فى أوهام الخواص وله فى النثر البديعى مقاماته المشهورة وهى خمسون أهداها إلى جمال الدين[1] بن صدقة وزير المسترشد العباسى وقيل إلى رجل غيره ، وقد اشتهر بها شهرة كانت — ولا تزال — ذات دوى فى عالم الأدب وصناعة النثر .

ويعتبر أسلوبه فى المقامات القمة التى بلغها الأسلوب البديعى ، والتى ظل يتسلق إليها منذ بداية العصر . ومقامات الحريرى فى النثر تشبهها القصائد البديعية فى الشعر ، تلك القصائد التى ذاع الولوع بها فى عصر المماليك فكل منهما القمة التى بلغها الأسلوب البديعى والعناية بهندسة اللفظ : المقامات فى النثر ، والبديعيات فى الشعر . ـ وعلى نمط أسلوبه فى المقامات كان أسلوبه فى رسائله الأخرى ، إذا صرفنا النظر عن منهج القص وسوق الأخبار ، الذى اقتدى فيه بمنهج بديع الزمان فى مقاماته .

---

١ — راجع تاريخ الأدب فى العصر العباسى للاسكندرى فصل الكتابة . وراجع الفن ومذاهبه النثر العربى لشوقى ضيف ومعجم الأدباء ج ١٦ ووفيات الأعيان ج ١

وقد أفعم أسلوبه بصنوف من البديع لاحصر لها، وقوامه على كل حال، السجع، ويلتزم فى سجعه أحيانا مالا يلزم حتى يبدو شبيها بالجناس. على أن الجناس يتراءى كثيرا فى صلب فقراته. وإنه ليغلو فيه أحيانا حتى يجانس بين كل لفظين متجاورين، ويجانس بينهما جناسا خطيا وهو الذى لا يفترق فيه اللفظ عن مجاوره إلا بشكل حروفه فحسب، وسنرى كيف اقتدى به فى ذلك صفى الدين الحلى فى إحـــدى رسائله.

وإن هذا التكلف الذى ذهب الحريرى معه فى تحبير رسائله ومقاماته ساقه — ولو لم يعمد — إلى استعمال غريب اللغة ومهجورها، حتى يسد عوز جناساته وسجعاته ومرادفاته ويشبع بهم صنعته. وعاونه على ذلك اضطلاعه باللغة وحفظه لمتونها. وقد استعان إلى جانب ذلك باقتباسات قرآنية وبحكم وأمثال وأبيات متعددة، مصورا كثيرا من معانيه بطريق التجوز والتشبيه والكناية وما إليها من ضروب البيان، وهى لم تخل من التكلف، سلم له بها كثير من العبارات الممتعة. والفقرات القصيرة الرائعة. وجملة القول إن هـذه المجهودات الضخمة التى بذلها الحريرى فى إنشاء مقاماته ورسائله، والحيل المبتكرة فى تجويد صنعتها وهندسة أشكالها، جعلته يقف على القمة بين أرباب هذه الصناعة اللفظية، وإن بدت معانيه مختنقة تحت أعبائها، وأفكاره آنه تحت أثقالها.

ولعل هذا كان من حسن الحظ لكتاب دولتى المماليك، إذ أخذت الصناعة من بعده تعود إلى منحدرها بعد اندفاع تيارها إلى أقصى علوه. ومن ثم آب لها بذلك بعض الرونق أو كثير منه على يد هؤلاء الكتاب وأخذت المعانى تهدأ أنفاسها وتتردد طبيعية بعد لهثها، ويفىء إليها نبض الحياة بعد اختناقها. وهذا رأينا الذى سنوضحه فى الأبواب التالية فيما بعد.

والآن نسجل بعض السطور من إنشاء الحريرى. قال من مقامته الساسانية التى نصح فيها أبو زيد السروجى ابنه بالكدية والاستجداء عاملا فى ذلك بوصية ساسان شيخ هذه الصناعة. وترى فى سطوره هذه خفة روح وقصر فقرات وإن

كانت مليئة بمختلف صنوف من البديع . قال :

« يابنى ! إنه قد دنا ارتحالى من الفِناء . واكتحالى بمرود الفَناء . وأنت بحمد الله ولى عهدى . وكبش الكتيبة الساسانية من بعدى . ومثلك لا تقرع له العصا . ولا ينبه بطرق الحصا . ولكن قد نُدب إلى الإذكار وجعل صيقلا للأفكار . وإنى أوصيك بمالم يُرِص به شيث الأنباط . ولا يعقوب الأسباط . . الخ

فصل

فى النثر الفنى فى مصر الإسلامية إلى عصر المماليك

— ١ —

فتح العرب مصر عام ٢٠ هـ. فوفد بهذا الفتح، دين العرب وقرآنه ولغته. كما وفدت إليها جوال عربية من مختلف القبائل، بما لها من معارف وتقاليد ولهجات وبهذا تكون الثقافة العربية — إلى ذلك الحين — قد وفدت إلى مصر بجملة هامة من عناصرها ومقوماتها.

وأخذت هذه الثقافة الطارئة، تتوطن ربوع مصر، وتؤثر فى نواحى التفكير فيها. كما أخذت — بدورها — تتأثر بالبيئة الجديدة التى انتقلت إليها، وتتأثر بشتى مقومات الحياة الفكرية فيها.

وكانت بمصر، حينذاك، ثقافات يونانية ومسيحية، لها اتجاهاتها ولغاتها. كما كان بها أجناس شتى من يونان ورومان ويهود، فضلا عن الأقباط سكانها الأصليين. وللجميع عادات وتقاليد ومذاهب، ذات أثر — ولاريب — فى تلك الثقافات.[1]

واستمرت هذه الثقافة الطارئة، فى تأثيرها وتأثرها معا، حتى تحولت فى مصر مع تتابع السنين إلى ثقافة عربية مصرية ذات روح إسلامى ولسان عربى.

ولا يسمح لنا المجال الآن بالحديث المفصل عن مدى هذا التأثير والتأثر. أو على الأصح، لا يسمح لنا بوصف هذه الثقافة الجديدة وصفا يقوم على التفصيل وإيضاح الخصائص الدقيقة التى بها تتميز ثقافة عن أخرى، ويفترق لسان عن غيره.

---

١ — حياة النثر فى مصر إلى القرن الرابع. للدكتور زيان. — آلة كاتبة ص ٣٠ بمكتبة جامعة القاهرة

ولا يسمح لنا كذلك بالتمشى مع حياة هذه الثقافة لنلحظ تطوراتها وتطورات خصائصها فى كل مرحلة من مراحلها . فهذه كلها موضوعات تحتاج إلى عشرات من الرسائل والبحوث . ولذا لا نستطيع هنا إلا عجالة وجيزة تناسب المقام . وتكفى للربط السريع بين شتى عصور النثر الفنى فى مصر ، حتى عصر المماليك . ذلك العصر الذى سنرى أن خصائص النثر فيه ، تطور طبعى لخصائصه من قبل ، واندفاع مرتقب ، لاندفاعه السابق . مع مراعاة ظروف حياته وملابسات بيئته .

— ٢ —

والنثر الفنى من أهم ظواهر الثقافة ، التى تتضح فيها إقليميتها . وهنا لابد لنا من من القول إننا نؤمن نظريا بأن الأدب العربى — شعره ونثره — أخذ يتأثر بالبيئة المصرية ، وما فيها من مقومات اجتماعية وثقافية ونحوها ، بعد ما دخل مصر مع الفتح العربى

ولكننا من الناحية العملية نجد صعوبة فى إثبات هذه النظرية إذا أخذنا نبحث عنها أو نطبقها منذ الفتح . ولعل الأصح أن يقال إن الإقليمية أخذت سبيلها إلى الأدب خفية وعلى مهل واتئاد ، ولم تتضح فجأة ، ذلك لأنها ظاهرة أدبية ، والظواهر الأدبية لا تبرز وتلمع ، أو تتضح خصائصها إلا بعد زمن . وكلما كانت عوامل نضجها كثيرة متعاونة ، بعيدة عن المعوقات التى تقاومها ، كان بروزها أسرع .

وهنا ينبغى أن نشير إلى أن هناك جملة من المعوقات التى صادفتها إقليمية الأدب العربى فى مصر . ومنها أن اللغة العربية وفدت إليها وهى على قسط كبير من الغنى والتهذيب ، استقرت لألفاظها معانيها ، واتضحت لتراكيبها دلالاتها . واطردت — فى الجملة — قواعدها . واحتوت على ألوان كثيرة من طرق الأداء. هذا ، إلى أن القرآن الكريم قد وفد معها ، وعمل على حفظها ، لأنه نزل بها ، ولأن له قدسية فى نفوس العرب والمسلمين . ولم يكن أثره مقصورا على بقاء العربية ، بل امتد إلى فرضها على الأمم العربية والمسلمة ، وتلوين ثقافتها بلونه ولونها . ومن

هنا ترى أن الثقافات العربية ، وإن تباينت مواطنها ، تتشابه اتجاهاتها - فى جملتها - لأن قصاراها أن تدور فى فلك القرآن ولغته .

هذا ، إلى أن العرب لما وفدوا إلى مصر ، وفدت معهم — كما أشرنا — عاداتهم وتقاليدهم وعقليتهم . ثم كانوا ، إلى ذلك ، أصحاب الجاه والغلبة . وزاد عددهم مع تتابع السنين حتى أصبحوا كثرة بين سكان مصر . هؤلاء السكان الذين كانوا بقايا من أمم شتى ، وليست لهم حضارة مركزة قوية ، ولا ثقافة موحدة عامة ، يستطاع أن يكون لها أثر عظيم فى الثقافة العربية القرآنية الطارئة ، كما كان للفرس فى بغداد ولهذا لم يكن امتزاج العرب بسكان مصر ذا أثر ضخم كأثر امتزاج العرب بالفرس

هذه أمور متعددة أجملناها ، كانت ذات أثر — ولا ريب — فى تعويق ظهور الإقليمية فى الأدب العربى بمصر ، وفى ضعفها . وسنعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى عند الحديث عن خصائص النثر الفنى فى عصر المماليك . ذلك النثر الذى نعتقد أن المصرية اتضحت فيه أكثر من اتضاحها قبل العصر المذكور .

— ٣ —

أما النثر الذى انتقل إلى مصر مع الفاتحين . فهو نمط من النثر الذى شهدناه فى صدر الإسلام له خصائصه ومميزاته . نثر جزل ذو ديباجة قوية واضحة المرامى لا غموض فيها ، وإن خشنت تراكيبها أحياناً ، قليلة التجوز والكناية ، فصيحة معربة ، إذ كان العرب حينذاك خلصا فصحاء معربين . لا يزالون - وإن أسلموا - فى حالة من البداوة الأسلوبية أخذت سبيلها نحو التأنق وذلك بشىء من حسن الاختيار ، والسجع والازدواج .

على أننا لا نستطيع بحال ، أن نضيف نثر هذه السنين الأولى ، إلى مصر ، ونعتبره نثرا مصريا . ومن المبالغة أن نضم — مثلا — خطب عمرو بن العاص

ورسائله ، إلى النتاج الأدبى لمصر فى هذه الحقبة البعيدة.[1] كما أنه من الصعب جداً أن نحدد متى ولد النثر العربى المصرى ، وإن كنا نعترف بولادته .

وهناك مسألة جديرة بالإشارة ، وهى أنه ليس لنا أن نضيف نثر أى أديب من الأدباء إلى مصر ، بسبب أنه أقام بها ، أو ولد فيها . فان الاعتبار الأول فى مثل هذا المقام ، ينبغى أن يكون لدرجة تأثر الأديب وأدبه بالإقامة فيها ، وبمبلغ تأثير ثقافتها فيهما .

وعلى هذا تبدو أمامنا صعوبات كثيرة تعترض سبيل تحديدنا بالضبط لأدباء مصر وكتابها ، ومن ثم لأدبهم ونثرهم ، فى تلك الحقب البعيدة من حياتها العربية . وذلك لأن بعض الأدباء الذين عاشوا فيها ، كانوا عابرين بها من ديار أخرى . ومنهم من جاء إليها وهو يخطب ويكتب . أعنى بعد أن تكونت ملكته البيانية ، وعرف اتجاهه الفكرى . كما أن بعض أهلها نزحوا عنها إلى ديار غيرها وكان لهم أو لبعض ذريتهم نشاط أدبى فى تلك الديار[2] .

— ٤ —

إذا لاحظنا هذه الاعتبارات ، فلا بأس من أن نقول إن النثر الفنى قد وجد فى

---

١ — يفهم من كلام الدكتور بهى الدين زيان أنه يعتبر خطب عمرو بن العاص ورسائله وما شابهها من هذا النثر المبكر نثرا مصريا — راجع حياة النثر فى مصر فى القرن الرابع فى مواضع عدة منها ص ١٥٣ وما بعدها .

٢ — من الأسر المصرية التى هاجرت من مصر ، بنو صبيح ، وكانوا أقباطا . فهاجروا إلى الشام ثم العراق وكان منهم ذرية . وخدم بعضهم الأمويين كالقاسم بن صبيح فانه اتصل بهشام بن عبد الملك ، وخدم بعضهم العباسيين كابنه يوسف فانه كتب لعبد الله بن على عم المنصور . وابنه هو أحمد بن يوسف ، الكاتب العباسى المشهور — حياة النثر لزيان ص ٣٣٨ عن معجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٣٣ .

مصر منذ الفتح . وأنه أخذ فى التوطن شيئاً فشيئاً . كما أخذت اللغة نفسها تتوطن وتتغلب على ماعداها من اللغات الذائعة بين سكان مصر ، حينذاك ، حتى غلبتها ، وسادت ، حتى فى التخاطب وأحاديث الناس .

ولما كانت العربية لسان الفاتحين ، خطب بها الولاة ، وكتبوا رسائلهم إلى دار الخلافة فى الشئون العليا لولايتهم . واتخذوا لذلك كتاباً ، على نمط ما كان فى المدينة أو دمشق . فكان الولاة وكتابهم فى مقدمة أدباء هذه الحقبة الأولى . ومنهم : عمرو بن العاص ، وعتبة بن أبى سفيان وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وسلمة بن مخلد وعبد العزيز بن مروان ، وقرة بن شريك ، وحنظلة بن صفوان ، وكانوا جميعاً من ولاة مصر [١] .

وقد استخرج الدكتور بهى الدين زيان نصا من كتاب الولاة والقضاة للكندى [٢] أثبت به أن ديوان الرسائل أنشىء بمصر قبل عصر ابن طولون . وكان ممن وليه « خير بن نعيم » وكانت ولايته بعد سنة ١٢٧ هـ [٣] .

ونحن ، وإن كنا لانعرف متى أنشىء هذا الديوان بالضبط ، ولا شيئا عن ترتيبه ولا إلى أى وقت أقام ، نشعر أن وجوده كان فى مقدمة الأسباب التى أدت إلى نشاط الكتابة الديوانية ، ونعنى كتابة الرسائل .

و إلى جوار كتاب الولاة ، كان للقضاة كتاب ، ولعمال الخراج كتاب ، ولاريب أن أهمهم جميعاً كتاب الولاة ، فيما يختص بموضوعنا .

وقد كانت الكتابة فى الدواوين المصرية باللغة القبطية — وقيل باليونانية — ثم

---

١ — حياة النثر ص ٥٩ ، ٦٢ ، ١٧٨

٢ — حياة النثر ص ١٤٤ ، ص١٦٩ عن الولاة والقضاة للكندى ص ٣٥٦

٣ — حياة النثر ص ١٤٤ ، ١٤٥

غيرت منذ عهد عبد الملك بن مروان إلى العربية ، ولا ريب أن ذلك كان كسباً للغة العربية ، قيض لها أن يمتد سلطانها وسلطان نشرها [١] .

هذا ، و إليك سطورا من خطبة عمرو بن العاص فى وصف مصر ، من رسالة بعث بها إلى عمر بن الخطاب ، قال فى مطلعها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص .

سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد فقد بلغنى كتابك وقرأته وفهمته » ثم يقول منها :

« إن مصر وما احتجت أن تعلم من صفتها، برية سوداء وشجرة خضراء بين جبل أعفر قد ا كتنفها . ومعدن مرتفقها ومحيط رزقها ما بين أسوان إلى حمأ من البحر فى جنب البحر . يسيره الرا كب شهرا . كأن جبلها ورملها بطن أقب ، أو ظهر أجب . مخط نهر مبارك الغدوات، ميمون البركات يسيل بالذهب. وجرى بالزيادة والنقصان كمجارى الشمس والقمر ، له أيام » . الخ [٢]

ومن خطب عتبة بن أبى سفيان — وكان يعد من خطباء بنى أمية ، وولى مصر عام ٤٣ هـ — قوله فى أهلها :

« يا أهل مصر قد طالت معاتبتنا لكم بأطراف الرماح ، وظبات السيوف ، حتى صرنا شجى فى لهواتكم ما تسيغنا حلوقكم . وأقذاء فى أعينكم ما تطرف عليها جفونكم » . . الخ . [٣] .

---

١ — نفس المصدر ص ١٥٣

٢ — حياة النثر ص ١٥٩ عن فضائل مصر للكندى ص ٣٢ ، ٣٣

٣ — نفس المصدر ص ١٧٦ عن التجوم هرة الزج ا ص ١٢٣

ولا ريب فى أن هذا النشاط الأدبى — تبعا لانسياح العرب فى البلاد ، واختلاطهم بأهلها وانتشار لغتهم فيها ثم انتشار دينهم — أخذ يؤيد فى عصر الولاة بنشاط الحركات الفكرية رويدا رويدا ، وبالإقبال على التعلم والاستماع إلى أمور الدين من شيوخه ووعاظه فى جامع عمرو وغيره . وصاحبه رواية الأخبار وذكر الوقائع وتناقل النوادر الأدبية ، والقيام بشىء من المناظرات الدينية .[1]

ولكننا إذا استثنينا أحاديث الفقهاء ، كالليث بن سعد والشافعى والبويطى ، واستثنينا قصص المؤرخين وتسجيلاتهم كابن عبد الحكم . لانكاد نظفر بنصوص من النثر الفنى تؤيد هذا النشاط كما أننا لاندرى هل استمر ديوان الرسائل — الذى قيل إنه أنشى قبل ذلك — قائما أم استعيض عنه بشىء ؟

ولهذا كله لانستطيع أن نقطع برأى فى كنه الأساليب الأدبية حينذاك وفى خصائصها ، وفى مبلغ تأثر كتاب مصر بأساليب ابن المقفع ثم الجاحظ وأضرابهما ، ممن رأينا فى صدر عصر بنى العباس .

وأغلب الظن أنها صارت فى طريق الصناعة على نحو مما سارت الأساليب فى بغداد . فازدادت تأنقا وحسن اختيار للفظ ، وعناية بالسجع والازدواج ، وميلا إلى الإطالة ، واصطناعا للمطابقة والمقابلة والمجانسة ، واعتمادا على التجوز والتشبيه .

على أننا — وقد أشرنا إلى أن العرب لم يستفيدوا ثقافيا من وراء امتزاجهم بمن وجدوه فى مصر ، فائدة ضخمة ، كما استفاد العرب من وراء امتزاجهم بالفرس فى العراق — لانستطيع أن نزعم أن الحضارة والثقافة اللتين شهدتهما مصر خلال عصر الولاة ، كانتا من السعة والعمق والتعقيد ، بالدرجة التى كانت عليها حضارة العراق وثقافته فى صدر عصر بنى العباس . ولعل هذا هو السبب فى عدم ينع النثر الفنى فى مصر ،

---

١ — نفس المصدر ص ٦٥ ، ٧٠

واتساع أفقه ، وسيره قدما فى سبيل الحضارة الأسلوبية ، كما سار النثر الفنى فى العراق الذى كان مهد العز والسلطان والرياسة ، فى حين كانت مصر ولاية تابعة .

ونعتقد أن الكثرة العربية بمصر ، بالنسبة لعدد سكانها جميعا ، لها دخل أيضا فى هذا الموضوع . وسنرى فى المستقبل عندما نتحدث عن نثر عصر المماليك أنه كان أخف روحا وأهدأ صناعة ، وأقرب إلى الطبع من نثر متأخرى العباسيين . وذلك للأسباب التى أشرنا إليها ، ومنها غلبة العناصر العربية ، على الرغم من انتقال الحكم إلى يد غير العرب : بخلاف العراق الذى عانى غلبة الفرس والترك .

ولعل هذه السطور التى نثبتها لك من كلام ذى النون المصرى — وهو أحد الصوفية والوعاظ بمصر والمتوفى عام ٢٤٨ هـ — تفصح عن أساليب النثر فى أواخر عصر الولاة .

قال ذو النون يصف الصوفية للخليفة المتوكل — وقد وفد عليه — ويشرح له حالهم :

« يا أمير المؤمنين ! هم قوم ألبسهم الله النور الساطع من محبتك . وجملهم بالبهاء من أردية كرامتك . ووضع على مفارقهم تيجان مسرته . ونشر لهم المحبة فى قلوب خليقته . ثم أخرجهم ، وقد أودع القلوب ، ذخائر الغيوب ، فهى معلقة بمواصلة المحبوب . وقلوبهم إليه سائرة . وأعينهم إلى عظيم جلاله ناظرة . ثم أجلسهم بعد أن أحسن إليهم ، على كراسى طلب المعرفة بالدواء . وعرفهم منابت الأدواء . » . الخ [1]

— ٥ —

وأهل العصر الطولونى ، فكان لاستقلال مصر فيه ، أثر فى بدء ظهور شخصيتها . كما قيض للنثر فيه عوامل جديدة لنشاطه . وذلك بعناية ابن طولون بتدريج رسائله

١ — حياة النثر لزيان ص ٢٢٣ — عن تاريخ بغداد ج ٨ ص ٣٩٥

وحسن صوغها . ولهذا اختار لنفسه طائفة من الكتاب ، وأسس ديوان الإنشاء — أو أنه أعاد تأسيسه — وأمر بتصفح المكاتبات قبل إرسالها وأنشأ لذلك ديوانا.[1]

ويلاحظ أن الكتاب الذين ظهروا فى العصر الطولونى القصير ، كان منهم وافدون من العراق كأبى عبدالله الواسطى و يعقوب بن اسحق ، وأحمد بن أيمن ، و إسحق بن نصير . وكذلك كان ابن عبد كان — وهو أبرزهم — ويرجح أنه فارسى الأصل ، كما يرجح أن ابن طولون استقدمه معه من العراق إلى مصر . . وهو الذى رأس له ديوان الإنشاء . ولبث فيه حتى توفى بعد وفاة ابن طولون — على ماقيل — فرأس الديوان من بعده إسحق بن نصير الذى كتب لخمارويه بعد وفاة ابن عبد كان .

وكان منهم مصريون مثل بنى المهاجر ، وهم من عقب عبد الحميد الكاتب ، استوطنوا مصر منذ عهد بعيد ، وهم الحسن بن محمد بن أبى المهاجر و إخوته : على وأبو القاسم وأبو عيسى .[2]

ولعل ابن عبد كان — وهو أحمد بن محمد بن مودود — كان أمثل كتاب مصر فى هذه الحقبة . وقد كان له ديوان رسائل ويبدو فى أساليب رسائله مزيد من السجع مع قصر فقراته أحيانا وخفتها . وشىء من الازدواج ، والاقتباس المناسب ، والاعتماد على الترادف ، وعلى التجوز والتشبيه توسلا إلى التصوير . على أنه لايكاد يفترق مع من عرفنا من معاصريه من كتاب العراق .

ومن رسائله ما كتبه على لسان ابن طولون إلى ولده العباس ، وكان قد شق عصا طاعته ، قال :

« من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين ، إلى الظالم لنفسه ، العاصى لربه ، الملم

---

١ — نفس المصدر ص ٢٦٧ عن سيرة ابن طولون للبلوى ص ١١٢

٢ — نفس المصدر ص ٢٥١ وما بعدها — والفن ومذاهبه فى النثر العربى للدكتور شوقى ضيف ص ١٨٠

بذنبه . المفسد لكسبه . العادى لطوره . الجاهل لقدره . الناكص على عقبه . المركوس فى فتنته . المنجوس من حظ دنياه وآخرته .

سلام على كل منيب . تائب من قريب . قبل الأخذ بالكظم . وحلول الفوت والندم . أما بعد ، فإن مثلك مثل البقرة تثير المدية بقرنيها . والنحلة يكون حتفها فى جناحيها . وستعلم — هبلتك الهوابل ، أيها الأحمق الجاهل ، الذى ثنى على ألغى عطفه ، واغتر بضجاج المواكب خلفه — أى موردة هلكة باذن الله توردت . إذ على الله عز وجل تمردت وشردت . فإنه تبارك وتعالى قد ضرب لك فى كتابه مثلا : « قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » الخ [1]

— ٢ —

وكان العصر الإخشيدى ، مع فترة الانتقال التى سبقته ، امتداداً ضعيفاً للعصر الطولونى ، خفت فيه صوت ديوان الإنشاء ، وإن ظهر فيه بعض الكتاب أو العلماء والأدباء كابن الداية وابن الدلاء وابن طباطبا .

وما إن فتح الفاطميون هذه البلاد عام ٣٥٨ هـ حتى دبت فيها حياة جديدة ، وكانت هذه المدة التى امتد فيها الحكم الفاطمى ، أى إلى سنة ٥٦٧ هـ ، فترة خصبة فى تاريخ النشاط الفكرى والأدبى فى مصر [2]

ويهمنا أن نشير إلى أهم دعائم هذا النشاط الذى ندر أن سعدت البلاد المصرية فيما قبل بشىء يساويه . ومنها مذهب الفاطميين الدينى ، وأعنى التشيع وما اتصل به

---

١ — صبح الأعشى ج ٣ ص ١٧

٢ — راجع صفحات من الأدب المصرى للاستاذ عبد الحميد حسن ص ١ وما بعدها

من آراء فى الدين والإيمان والإمامة وتأويل القرآن ، ثم ما اتخذ وسيلة إلى نشره من ألوان الدعاية وما استلزمته من أساليب ومصطلحات . وعلى الرغم من أن البلاد لم تقبل على التشيع إقبالا يذكر يتكافأ مع مجهودات الفاطميين فى نشر دعوتهم بمصر وتشييعها ، فإنه مما لاريب فيه أن هذه الدعوة أورثت البلاد حركة فكرية جدلية فيها يقظة ولها قيمة ، وصحبها النقد .

على أن فى مقدمة دعائم النشاط ، التمكين لاستقلال البلاد المصرية استقلالا كاملا واتخاذها موطنا لملوك الدولة ، إذ انتقلوا إليها من المغرب ، وأسسوا القاهرة وجعلوها عاصمة لهم . بذلك أصبحت مصر دولة واسعة الأطراف ، أخذ نفوذها ينتشر فيما حولها من البلاد ، حتى خطب باسم أحد خلفائها على منابر بغداد زمنا . وعنى ملوكها بالعلم ووسائله ، فأنشئوا الجامع الأزهر وغيره ، واتخذوه موطنا لدعايتهم ، وأسسوا دار الحكمة وكانت ملأى بنفائس الكتب . وعنواهم ورجالهم — كابن كلس — بمجالس العلم والمناظرة مع تبجيل شيوخ العلم ودعوتهم إلى التعليم . ومن ثم أقبل طلاب العلم عليهم يتعلمون ويتأدبون .

وقد أسسوا الدواوين لإدارة شئون البلاد . غير أن أهم مايعنينا منها ديوان الإنشاء الذى وسعوا أفقه وصرفوا إليه عناية ، وأعلوا مكانة كتابه ، فأقبل الكتاب عليهم رغبة فى الجاه والغنى والسلطان ، فوفر عددهم وتتابعوا على الديوان زمرا بعد زمر . وزاد نشاطهم ونتاجهم ولمعت أسماؤهم ، إذ كانوا من رجال الدولة الذين تعتمد عليهم ، ولا سيما صاحب الديوان منهم ، وكان يسمى « كاتب الدست الشريف » .

وقد عاونت على ذلك كله حضارة واسعة ومدنية حافلة ، أغرت بها حالة من الرخاء عمت البلاد . فظهر الفاطميون بمظهر البذخ والترف ، واصطنعوا ألوان النعيم فى شتى نواحى حياتهم . واتضح ذلك فى قصورهم المونقة ، وبساتينهم المورقة ، وأثاثهم الوثير وموائدهم الشهية الفاخرة ، وحفلاتهم الحاشدة وموا كبهم المجلوة وعطاياهم الجزيلة . حتى

شغلوا الناس بذلك كله وبما سنوه من موالد ومواسم وأعياد . وفى مثل هذه المجالات تنتعش النفوس ويجود الأدب ويعلو صوت العلم . وقد عجت الدولة بالشعراء وكان الخلفاء يقربونهم ، كما امتلأت بالعلماء ومنهم ابن زولاق والقضاعى .

ومن رؤساء ديوانهم وكتابه : ابن خيران ، والعميدى ، وأبو طاهر النهركى ، وابن الشخباء ، وهو الحسن بن عبد الصمد بن الشخباء الذى توفى عام (٤٨٢ هـ) ، وأبو الحسن على بن أسامة الحلبى ، وابن الصيرفى ، وعلى بن خلف ، ومحمود بن الموفق ابن قادوس ، وابن أبى الدم اليهودى ، وموفق الدين يوسف بن الخلال . وأخيرا القاضى الفاضل وهو من مخضرمى الدولتين الفاطمية والأيوبية ، وقد تخرج بابن الخلال.[1]

— ٧ —

وجد النثر إذاً فى الحضارة الفاطمية الواسعة المترفة ذات الألوان الزاهية ، مؤثراً جديداً دفعه إلى جو من الزخرف والزينة ، وألوان من الاقتباسات واسعة المدى ، تدل على علم كُتَّابه وحضارة زمانه ، من توجيه وتلميح وحل منظوم وتضمين منثور واستشهاد بآى القرآن الكريم . وقد أخذ السجع يطول فضلا عن المطابقة والمجانسة الخفيفة ، ورعاية النظير ، إلى غير ذلك مما يدل على سعة أدب الكتاب وخفة ذوقهم ، وحسن تأتيهم فى سبك المتفرقات حتى يتلاءم منها أسلوب لامع يؤدى ما يحتاج إليه الموضوع ومعانيه ، من جمال فى التصوير ، يعتمد إلى حد بعيد على التجوزات اللطيفة والترشيحات الذوقية المناسبة ، مع مزيد من الأدعية .

ونحن ، وإن رأينا فى ذلك الاتجاه مشابه بما بدا على الأساليب العباسية بعد الجاحظ ، لا نراه تقليداً من المصريين للبغداديين . دون أن يكون اتجاها ولدته البيئة

---

١ — الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٨٧ — وحسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٦

وطبيعة ظروفها التى أشرنا إليها . فلم يكن كتاب مصر حينذاك إلا مستجيبين لها حينما برزت أمام عيونهم حرة جميلة قوية باستقلالها مزدانة بحضارتها شامخة بثقافتها . واطردت هذه الاستجابة فى الأساليب المصرية حتى زهت خصائصها واستقرت فى أساليب كتاب عصر المماليك.[1]

لهذا نعتبر العصر الفاطمى البدء الحقيقى لظهور الروح المصرى فى التفكير ، والذوق المصرى فى التعبير . هذا الروح وهذا الذوق اللذان اتضحا فى عصر المماليك .

والآن نسجل سطورا من نثر العصر الفاطمى فمنه :

ما كتبه ابن الصيرفى — وهو أبو القاسم على بن سليمان ، وقد كان يكتب للحافظ الفاطمى وتوفى فى عهده — يبشر بركوب الخليفة إلى صلاة عيد الفطر :

« كتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم عيد الفطر ، بعد أن وفى الصيام حقه . وحاز أجر من جعل الله على خزائنه رزقه . وبعد أن أفطر بحضرته الأولياء من آله وأسرته والمقدمون من رؤساء دولته ، المتميزون من أوليائه وشيعته . وكان من نبأ هذا اليوم أن أمير المؤمنين لما ارتقب بروزه من قصوره . وتجلى فأشرقت الأرض بنوره . توجه إلى المصلى قاضياً لسنة العيد . فكانت نعمة ظهوره بالنظر للحاضر وبالخير للبعيد . » ألخ[2]

ومن رسالة لابن الشحباء كتبها فى سنة ٤٦٢ هـ فى التهنئة بانتصار على خارج ، قال يصف الأعداء :

« قد ارتفع الخلاف بين الكافة أن الله ذخر للدولة الفاطمية — ثبت الله أركانها —

---

١ — يرى الدكتور شوقى ضيف أن المصريين لم يستحدثوا منهجا جديداً فى الكتابة . ويفهم من ذلك أنه يرميهم بالتقليد وهو ما نخالفه فيه — راجع كتابه الفن ومذاهبه فى النثر العربي ص ١٧٥ وما بعدها .

٢ — عن المنتخب .

من الحضرة العلية المنصورة الجيوشية — خلد الله سلطانها — من حمى سوادها ، ونصر أعلامها وضم نشرها . وحفظ سريرها ومنبرها . بعد أن كان الأعداء — الذين ارتضعوا در إنعامها . وتوسموا بشرف أيامها . فطردت يد الاصطناع إملاقهم . وأثقلت قلائد الإحسان أعناقهم — خفروا ذمم الولاء وكفروا سوابغ الآلاء . ففجأتهم الحوادث من كل طريق . ونعب بهم غراب الشتات والتفريق ، ألخ.[1]

وقبل أن نترك العصر الفاطمى نشير إلى أمور :

الأول : ندرة النصوص الكتابية المأثورة عن العصر المذكور ولاسيما رسائل كتابه ويبدو أن انصياع الكتاب لخلفاء الفاطميين ، وسيرهم فى ركاب دولتهم ، نفّر الناس من حفظ آثارهم . أو لعل هذه الآثار قد عبث بها الأيوبيون فى جملة ماعبثوا به من كتب الفاطميين .

الثانى : أن الأساليب المصرية والشامية كانت تجرى فى رَسَنٍ واحد على وجه التقريب حينذاك ، باستثناء منهج أبى العلاء والتزاماته . ولعل التقارب بين هذه الأساليب — وهو التقارب الذى استمر زمنا طويلا ، والذى نعتقد أنه ازداد فى عصر المماليك — راجع إلى اندماج الشام ومصر تحت حكم واحد على وجه التقريب منذ العصر الفاطمى ، وراجع إلى الكثرة العربية بين سكان هذين البلدين ، وإلى قيام الدول فيهما على أساس من النزعة الإسلامية ، وإلى حاجة ملوكهما — حتى الأكراد والأتراك والجراكسة — إلى اصطناع الكتابة العربية فى مراسلاتهم ، وحسن اختيار كتابهم .

الثالث : أن أسلوب القاضى الفاضل الذى سنشير إليه بعد ، ليس نهجاً تقليدياً

---

١ — الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٨٩ عن معجم الأدباء ج ٩ ص ١٦٤

لكتاب العباسيين — على طول الخط — وإنما هو امتداد لمناهجهم مع تأثره بوحى البيئة بشتى عواملها . وتعتبر أساليب الكتاب من قبله فى العصر الفاطمى تمهيداً حسنا لا كتمال أسلوبه وصبه فى قالبه الأخير .

— ٨ —

والعصر الأيوبى — وإن انتزع مؤسسه الملك عنوة من الفاطميين الضعفاء — امتداد فى جملته لعصرهم، كما أن عصر المماليك امتداد فى جملته للعصر الأيوبى الذى ظل من سنة ٥٦٧ هـ إلى سنة ٩٢٣ هـ أى أقل من مائة عام .

فتلك النظم التى سنها الفاطميون فى ترتيب دواوينهم وتنظيم دولتهم ، استمرت على نمط ما كانت عليه . على أن أهم من هذا كله ، الاندفاع الحضارى والفكرى الذى رأيناه فى عهد الفاطميين فإن كرته سدرت فى مسيرها ، واستمرت فى جريها . فقد اندفع الأيوبيون ينشئون المدارس ويوقفون عليها الأوقاف ، ويقررون فيها الدروس. وتلك المواسم والأعياد والحفلات استمرت البلاد ، تراها وتقيمها وتسمر فيها . وتلك المنشآت من قصور وبساتين ومساجد وما إليها ، شهدت البلاد منها كل جديد ورائع .

وحقا تغير اللون الرسمى للنزعة الفكرية فيما يختص بالعقيدة ، فحلت المذاهب الأربعة ولاسيما مذهب الشافعية ، وعقيدة الأشاعرة ، محل المذهب الشيعى وعقائده . ولكن ليس معنى ذلك تغير اللون الشيعى لهذه النزعة ، ذلك لأنها لم تكن من قبل قد ثبت فيها اللون الشيعى . فقد عاش الإمام الشافعى فى مصر ونشر مذهبه وأخذه عنه تلاميذه ، فانتشر بها وزاحم غيره من مذاهب الأئمة ، واتسع نفوذه حتى اعتبر رجال الشافعية أن مصر بلادهم ودائرة نفوذهم . ثم جاء الأيوبيون وكانوا شافعى المذهب أشعرى العقيدة ، فعملوا على نشر ذلك فى البلاد فاستجابت لهم ليل فيها قديم ، وعاون

على ذلك انتعاش الروح الدينى والحماسة الدينية بسبب هبوب الحروب الصليبية .

والذى يعنينا اطراد حركة الفكر والبحث ، واطراد تلك الحضارة . وقد وجدتا فى عصر المماليك من بعدُ ميدانا حافلا وعيشا رغيداً ، و إن كانت تسير فى نطاق من العقائد الإسلامية ، ولم تمس البحث الحر إلا مسا رفيقا .

واستمر ديوان الإنشاء قائما فيما استمر من دواوين . وأشرف عليه الكاتب القدير الفاضل عبدالرحيم البيسانى العسقلانى . الذى ظهر فى أواخر العصر الفاطمى وتخرج بابن الخلال ، وعاون صلاح الدين فى تدبير دولته فكان وزيره ومشيره وكاتبه ، وهو شامى المنبت مصرى الإقامة والعمل . اكتملت له أداة الكتابة والتدبير من علم وأدب وسعة واطلاع ورجاحة عقل وثقوب بصر ودهاء وحسن فهم . فصدرت عنه الرسائل والمكاتبات طلية الديباجة رائعة التراكيب غنية المعانى رائعة التصوير . اختط فيها لنفسه بذوقه جملة من القواعد ، هى جماع ما انتهت اليه أذواق أسلافه من كتاب العصر الفاطمى ، وجماع ما أوحت به إليه البيئة المتحضرة التى يعيش فيها . وصارت طريقته هذه جديرة بأن تسمى «المنهج المصرى» فى تلك العصور . وهو المنهج الذى كان له سيادة كبيرة فى الأساليب الأيوبية والمملوكية .

وتوالى من بعده كتاب ديوان الإنشاء ومنهم: أمين الدين سليمان المعروف بكاتب الدرج ، وأمين الدين عبد المحسن بن حمود الحلبى ، وبهاء الدين زهير الشاعر المصرى والصاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان الإسعردى ، وقد شهد هذا الأخير عصر المماليك.[1]

ومن الكتاب الذين خدموا الأيوبيين أيضا عماد الدين الأصفهانى صاحب الخريدة والفيح القسى ، وضياء الدين بن الأثير صاحب المثل السائر .

---

١ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٧ — وصبح الأعشى ج ١ ص ٩٦

وأساليب هؤلاء الكتاب — وقد عاشوا فى أواخر القرن السادس أو أوائل السابع — تفترق فى جملة ما التزمته عن أساليب متأخرى العباسيين ، بخفة الروح وقرب المعانى وقلة التكلف ، حتى إن من اتسم منهم بالتكلف والالتزامات كعماد الدين الأصفهانى ، الذى التزم السجع فى كتب تاريخه فضلا عن الجناس وغيره — وكابن الأثير الذى تعصب للسجع فى كتابه « المثل السائر » واعتبر ماجاء فى القرآن من توافق بين القرائن ، سجعا ، ووضع لفقرات السجع نظاما حدده بعدد ألفاظها — هذان وغيرهما ترى أساليبهم أيسر وأسهل وأخف من نثر متأخرى العباسيين ، مما يدل على أن اختلاف البيئة ومقوماتها هنا وهناك ، كان له أثره الكبير فى تلك الفروق . وننبه هنا إلى ماسبقت إليه الإشارة وهو غلبة العناصر العربية فى مصر والشام التى كان لها دخل فى وجود تلك الفروق . هذا إلى أن الثقافة والحضارة فى مصر والشام لم تكونا فى درجة من التعقيد والعمق كما كانت ثقافة العراق وحضارته . وهذه بعض أسباب الفروق المذكورة .

ومن نثر القاضى الفاضل ، ما كتبه من رسالة طويلة ، جوابا على لسان سلطانه صلاح الدين الأيوبى ، إلى خليفة بغداد الناصر الذى أرسل إليه مكاتبته يلوم فيها على أشياء — والمكاتبة من إنشاء قوام الدين أبى طالب بن يحيى بن زيادة كاتب الخليفة المذكور .

قال الفاضل فى مطلع الرسالة :

« يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ، »

أدام الله أيام المجلس السامى القوامى ، إدامة تؤذن بتشييد معاليه . وتشمل بيمنها وبركتها حاضر وقته وتاليه . وتؤيد من يواليه . وتخلد معها ناضر وقته وحاليه . ويتكافأ بها ترادف النصر وتواليه . وتزينه بمحاسن الصفات وتحليه . »

ومنها يعاتبه فى هوادة .

« فى سالف الوقت قيل فيمن سارع للائم إليه وأعجله . رب ملوم لا ذنب له . وإن كان — أعلى الله كلمته — أعنق فى النصيحة وأوضع . فقد أنهر الجروح وأوسع . وربما بالغ الطبيب فى إغراق المبضع فأوجع . واشتد الألم وإن لم يُلم . »[1] .

وتتراءى فى سطور القاضى الفاضل دعائم عدة من دعائم طريقته الكتابية منها : التزام السجع ، وربما لزم فيه مالا يلزم . والاقتباس الدقيق من القرآن الكريم . والجناس الخفيف المقبول . ومراعاة النظير والترادف ، والطباق ، والاعتماد على المجاز ، واصطناع الأمثلة وتضمينها . هذا مع جنوحه غالبا إلى الفقرات الطويلة ، والإكثار من الأدعية والألقاب ، مع استعمال نحو « المجلس » وإضافة الياء إلى اللقب مبالغة .

على أن طريقة الفاضل لها دعائم أكثر من هذه ، منها : التورية والاستخدام والتوجيه والتلميح . وسنعود إلى الحديث عن طريقة الفاضل فى مناسبات أخرى خلال هذا البحث . والذى نريد أن نسجله هنا أن هذه الطريقة كان لها أثر كبير فى كتاب عصر المماليك ، وكانت مثارا لإعجابهم ومحلا لثنائهم ، ترى هذا واضحاً فى أحاديثهم عندما يعرضون لذكر الفاضل . وكثيرا ما يتخذونه طرفا يشبهون به . ومن هذا وذاك ترى مبلغ تأثر النثر الفنى فى العصر المذكور بمنهج القاضى الفاضل . ذلك النثر الذى نعرفك به فى الأبواب التالية .

---

١ — النص فى التذكرة الصفدية ج ١٣ ورقة رقم ٥٨ ، مخطوطة بدار الكتب المصرية

النثر الفنى فى عصر المماليك

تعريف

هذا النثر هو موضوع البحث فى هذه الرسالة ، ومحور الحديث . وقد مهدنا له بالحديث عن النثر الفنى قبله سواء فى مصر أم غيرها . وسترى مما نعرضه عليك خلال الأبواب التالية أن النثر الفنى فى عصر المماليك ، لم يعى بعبئه ولا فاء بحمله ، ولا خبط خبط عشواء . ولا سار سير عاجز ولا عاش عيش مقلد . وإنما كان نثرا حيا قويا امتد إلى كل ناحية من نواحى الحياة فترجمها وعبر عنها ، بالمقدار الذى هيأته له ظروف بيئته وملابسات حياته ، بل وفوق هذا المقدار . مع أن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ، وبذلك يكون قد أدى رسالته خير الأداء .

لقد كانت هناك حياة رسمية ، وحياة شعبية ، الحياة الرسمية حياة السلاطين والأمراء والجند ، فى حركاتهم وأوامرهم ونواهيهم وغدوهم ورواحهم وحروبهم ومنشآتهم إلى غير ذلك ، وهى الشق البارز الصاخب المدوى من نواحى حياة هـذا الشعب . وكانت الحكومات فى تلك الأيام ، أو بمعنى أدق ، كان شخص السلطان وأمره ونهيه وما يتصل بحياته ، كل شىء فى الدولة . وتدور حياة الأمة حول محوره ، وتتجه باتجاهه وتميل بميله وتعتدل باعتداله . فهو قانونها وميزانها ، والمسيطر على مقدراتها ، والمصرف لثرواتها والموجه لعاداتها وتقاليدها بما يسن ويشرع ويستحدث من ضروب النظم والعادات والتقاليد . ومن المبالغة والغلو أن ندعى للشعب حينذاك شخصية بارزة بجواره ، تؤثر فى مجرى الأحوال واتجاه الحوادث . ومن هنا سار الأدب فى مواكب السلاطين والأمراء .

وهم — وإن عاشوا طبقة حاكمة مستبدة متعالية — كانوا مسلمين وغيورين على الإسلام فى جملتهم . والإسلام دين الشعب ، أعنى أغلبيته الساحقة إذ ذاك . وقد بذلوا فى سبيله وفى سبيل حماية المسلمين مابذلوا ، مجاهدة للصليبيين والتتار . وجنبوا مصر بذلك ويلات كثيرة .

هذا فضلا عن أنهم جهدوا فى فتح المدارس والمساجد لنشر دين الله ، حتى كانت مذاهبه الأربعة أهم الدروس المقررة فى دور التعليم . ولهذا لا تكاد ترى فى عصرهم كاتبا ولا مهندسا ولا طبيبا ولا فلكيا ولا غير ذلك من ألوان العلماء ، إلا مبرز أو مشارك فى مذهب منها .

هذه كلها صنائع من صنائع المعروف ، من شأنها أن تلهى الشعب وتعزيه عما يعانيه من ضغط وظلم وإرهاق وحرمان ، ولاسيما حرمانه من الجندية ، حتى ضعفت فيه الروح العسكرية والحمية الجندية التى هى من أهم مبرزات الشخصية . والأدب — كما عرفنا — رجع الحياة وصدى واقعها . وإن كانت له ثم رسالة أخرى وهى التوجيه . وأنى له ذلك فى تلك العصور . . .

وعلى الرغم من هذا ، أينع الأدب ولمع النثر وترجم عن هذه الحياة بكافة أوضاعها القوية منها والضعيفة ، البارزة منها والخفية ، الحسية منها والنفسية ، الرسمية منها والشعبية وأثبت أنه كان ضرورة من ضرورات العصر ، اجتمعت فى سطوره وسجلاته صوره وخوافيه .

سترى أنه فى موضوعاته ومعانيه وأساليبه وتراكيبه ومفرداته — فضلا عن أنه امتداد طبعى لحياة النثر المصرى من قبله — استجابة دقيقة للبيئة المصرية على اختلاف ألوانها . تلك البيئة التى ستكون محل دراسة خلال الأبواب والفصول القادمة ، مع محاولة الربط بينها وبين هذا النتاج الأدبى ، لنرى — على قدر الاستطاعة — مبلغ تأثير هذه البيئة فيه ، وصدق ما نقدم لك هنا . وسترى أن عصر المماليك هو العصر الذى بلغت فيه « المصرية » أوجها ، أكثر من أى عصر تقدم .

الباب الأول

باب الرسائل

تمهيد

الرسائل أسبق ألوان الأدب الكتابية إلى الظهور . فقد بدأ بروزها فى عالم الوجود والأدب ، على عهد الرسول صلوات الله عليه ، بفضل ما أذاعه من الكتابة الخطية ، واتخاذه كتاباً للوحى يدونون القرآن الكريم ، ويكتبون مايمليه الرسول عليهم من مكاتبات ضرورية تطلبها منطق الدعوة وسياق الجهاد . فسن بذلك لقومه من بعده ، سنة حسنة اتبعوها .[1]

وقد اقتدى خلفاؤه الراشدون به فى ذلك . فاتخذوا الكتاب ، وأملوا عليهم مايريدون من رسائل . وأخذت حياة الرسائل تزداد بروزا وثباتا وينعا ونضارة ، باتساع رقعة المملكة الإسلامية ، وشيوع عوامل القوة فيها ، وازدهارها ، وبنشر دعائم النظام فى ربوعها ، واستقرارها . وإنشاء الدواوين التى تحتاج إليها دولة قوية مترامية الأطراف واسعة المنافع طامحة الآمال موصولة الأعمال ، بفضل ماوحد الإسلام به بين بنيها ، وما بثه فيها من حياة وقوة ونشاط .

وما انقضت الدولة الأموية ، إلا وكتابة الرسائل قد اخضر عودها ، واستقامت سوقها ، وأصبحت صناعة عتيدة مجيدة ، ويتخصص فيها المنشئون ، ولها ديوان خاص يلى رياسته كبارهم ممن حذقوا الإنشاء والترسل . يكتبون لدولتهم فى شتى شئونها العليا فترتسم فيها سياستها ، ويبدو مبلغ قوتها وحيلتها ، ومدى آمالها ومراميها . ويُصور

١ — فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٥ فصل عن كتاب السر . فى صدره ذكر الكتاب الوحى وغيرهم .

فيها الجم من نواحى حياتها ونشاطها ومرافقها المختلفة . وتعمل على تثبيت أركانها ودعوة الناس إلى المعاونة على دعمها ، ومناوأة خصومها فى داخل البلاد وخارجها ، إلى غير ذلك من الوظائف الرئيسية العليا التى أصبحت روح الدولة وقوامها ، وأساس حياتها ونظامها .

بذلك كله نشعر بما كان لصناعة الإنشاء حينذاك من قوة وسلطان ، وما كان لصاحب ديوان الرسائل من جاه عظيم فى الدولة ، ولدى خلفائها . فقد تركزت فيه بذلك ، ضروب من المسئوليات . اضطلع بها وقام بشئونها من تقويم للسياسة الداخلية وتنظيم للعلاقات الخارجية . والعرب أهل أدب و بلاغة ، تفعل بهم الكلمة البليغة فعل السحر . ومن قبل هذا ، انقادوا لحر البيان ، واستسلموا لبلاغة القرآن . ذلك لأنه صادف فيهم نفوساً صافية أبية ، وأرواحا كريمة رضية ، فاستجابت لدعائه ولبت عند ندائه .

وهذه النزعة فيهم ، كانت من أهم الدواعى التى أوحت ببروز الكتابة الإنشائية و وهبت لها فى الدول العربية حياة كريمة فياضة بالنشاط . وأخص ضروب الكتابة التى تحتاج إليها الدول : كتابة الرسائل الديوانية . وقد عنوا باختيار رجالها من أهل الفقه والأدب اللباب ، والعقل الراجح الوثاب . ومن أولى الظروف والكياسة والدهاء والحيلة والسياسة . لأنهم ـ فى الحق ، و بحكم صناعتهم ـ حكام دولة ، وسيوف صولة ورءوس رعية ، وعقول أمة . فضلا عن مصاحبتهم للخلفاء . ومقارعتهم للملوك ، ومصاولتهم للولاة والعمال . لهذا كانوا ـ كما كانوا وزراء عصرهم ـ أمراء الكتابة وقدوة الكتاب ، فى زمانهم .

قال القلقشندى : « الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها . وأربح البضائع وأنفعها وأفضل المآثر وأعلاها ، وآثر الفضائل وأغلاها . لاسيما كتابة الإنشاء التى هى منها بمنزلة سلطانها ، و إنسان عينها بل عين إنسانها . لا تلتفت الملوك إلا إليها . ولا تعول

فى المهمات إلا عليها . يعظمون أصحابها ويقربون كتابها . فخليفها أبدا خليق بالتقديم جدير بالتبجيل والتكريم .

تسر مجانيها إذا ماجنى الظما وتروى مجاريها إذا بخل القطر [1]

وقال عبد الحميد الكاتب : « لو كان الوحى ينزل على أحد بعد الأنبياء ، لنزل على كتاب الإنشاء » [2]

لبثت هذه الحالة ، يتسع نطاقها وتمتد آفاقها . كلما ازداد نصيب الدولة الإسلامية من الحضارة والنظام . وقد تعددت الدواوين فى دولة بنى العباس ، لتعدد منافعها ، وترامى مرافقها ، ونخلوصها من بداوة العرب القديمة وحياة الاخشيشان ، واستتباب معالم المدنية فيها . وكان أرحب دواوينها أهمية وعملا ، وأوسعها أثراً وفضلا : ديوان الرسائل .

وتعددت ألوان الرسائل الديوانية بتعدد مصالح الدولة ومنازعها ومناسباتها وتقلب الأحوال بها ومن هنا نرى أن هذا الضرب من الرسائل من أهم سجلات الدولة التى تدون فيها شئونها ومختلف أمورها وأهم حوادثها ، وعليا تصرفاتها ومتجهاتها . وتصلح إلى حد كبير ، لأن تكون مدداً لتاريخها ، وسندا يرجع إليه عند معرفة أحوالها .

وبجوار الرسائل الديوانية ازدهرت ضروب أخرى من الرسائل ، شاركتها فى جهادها الأدبى ، مشاركة بعيدة المدى ، وأهمها الرسائل الإخوانية .

والرسائل الإخوانية ذات أهمية تاريخية كبرى ، فى عالم الأدب ، حينذاك . إذ كان يتمشى فى سطورها ، غالبا ، صدق التعبير عن الضمير . وتتراءى قوة الحس بما فى النفس . وتطفر هواجس اللب بخفايا القلب . وهى معرض للأخوات ، ومراد

---

١ — راجع خطبة صبح الأعشى فى ج ١

٢ — عن ثمرات الأوراق لابن حجة الحموى ص ١٢٨

للمودات . ومعترك للخصومات . فإن كانت الرسائل الديوانية تعبر عن الحياة الرسمية للدولة ، فالرسائل الإخوانية تنم عن الحياة النفسية والشعبية لها ، ولو فى نطاق . . وربما اتخذها المتراسلون مسرحا يظهرون فيه ما يبطنون ، ويتحدثون بما يعتقدون من آراء ومذاهب ، وأفكار ومشارب . ويستطردون فيها إلى تصريح بخفى . أو تلميح إلى قصى ، وإلى حديث عن ممتع مطرب ، ورائع معجب . كما يتخذونها مجالا لأدبهم وملعباً لأقلامهم ، تجول فيها أسلاتها وتصول . وتخب شباتها وتضع . فتسابق وتسبق . وتجد وتصدق . أو تتفكه وتداعب ، وتمزح وتلاعب . إلى غير ذلك من شئون النفوس ، وهى مترامية ترامى أطرافها ، ومتشعبة تشعب أهدافها . ومن هذا وذاك تبدو الأهمية التاريخية التى يعلقها الأدب على هذا الضرب من الرسائل .

والدول الإسلامية التى عاصرت دولة بنى العباس ، كالفاطميين المغاربة ، والأيوبيين الأكراد ، سارت فى نهجها الديوانى على نمط من العباسيين ، قريب . إذ شعرت بحاجتها القصوى إلى دواوين الرسائل والكتاب المنشئين من بارعى البلغاء . فأمدتهما بحياة ، وجملتهما بجاه ، ووسعت لهما فى أفق العمل . حتى كانا من أهم الدعائم القويمة التى سمقت الدولة بها وسبقت .

ودولة المماليك ، فى جملتها ، كانت امتداداً للدولة الأيوبية . اصطنعت كثيراً من من نظمها الديوانية ، واصطبغت إلى حد كبير بصبغاتها الأدبية ، ومشى كتابها فى الدواوين وخارج الدواوين فى طريق أسلافهم . واتخذ منشئوها الأسلوب الفاضلى قالباً يصبون فيه ما ينشئون . وتنوعت رسائلهم فمنها الديوانية ، والإخوانية ، وما إليهما مما بينته فى هذا الفصل . وبهذه وتلك نشعر بمقدار نشاطهم ، وبأنهم لم يقصروا —

فى هذا الميدان الأدبى — عن بلوغ مدى الأقدمين . على الرغم من اختلاف الظروف وتباين الملابسات .

والمماليك — أتراكا وجراكسة — أعاجم بالفطرة والمنشأ والثقافة والإصرار على العصبية . فلم ترفه عن عجمتهم ثقافة عربية ، ولا اندماج فى الشعوب العربية ، بإحدى الملابسات من مصاهرة ومجاورة ومتاجرة ، ونحو ذلك. بل عاشوا بمصر حكاما مستبدين وطغاة مترفعين . تعالوا عن الشعب وطبقاته ، ولم يشركوه فى حكم أو إمارة أو جندية ، وقصروا مناصب الدولة — عدا القضاء والكتابة — على أنفسهم . واستمرت أجيالهم تتجدد عن طريق الخارج ، يجلبون إلى مصر من أسواقه . ويدفعون إلى أبراج القلعة بالقاهرة ، ويربون تربية عسكرية خاصة بهم . يهيئون بها للحرب والضرب ، والنزال والقتال . ومن ثم يدلف أرباب الكفايات منهم إلى الإمارة ومناصبها الرفيعة ، وإلى السلطنة ومرتبتها الجليلة .

كان من المرتقب أن تدول العربية وتزول ، ويطوى بساط أدبها الممدود ، وينحسر ظلها الوارف. وتحل التركية محلها فى الدواوين . وتتخذ لغة للرسائل ولغيرها ، ولكن أبى ذلك لها : ضعف التركية وعجزها عن أن تكون لغة أدب وحساب وضبط ، وأداة سياسة وتعليم وقضاء وحكم ، وقلة النابغين النابهين من أبنائها ممن يستطاع بهم التمكين للغتهم فى دواوين الدولة .

هذا إلى أن المماليك كانوا طبقة حاكمة فحسب وبأسهم بينهم شديد ، وفتنهم على أحرها ، وتربص بعضهم لبعض على أمره ، تنازعاً على المناصب والحكم والجاه والمال والغنائم . فصرفهم ذلك وعاق ملوكهم عن أن يقيموا دولتهم على أساس تركى ذى نظام ثابت ، ولون واحد ، فى شتى مرافقها . وأن يدعموها بقانون مستقر ، وبخاصة فيما يتعلق

بالسلطنة وطريقة ولايتها . وما كانت شورى أمرائهم فيها — كما نرى — إلا مظهراً من مظاهر تحفز كل منهم لها ، ورغبته الخفية فيها ، وتحديثهم النفس بها . ولن يستطيع أحدهم أن يثب إليها إلا عن طريق هذه الشورى التى كانت فى كثير من مناسباتها ، ائتمارا مبيتاً على مغلوب ، وانتصارا مؤقتاً لغالب . فصرفهم ذلك عن التمكين للغتهم ولا سيما أنهم رأوا أنفسهم يحكمون أمما عربية ينطقون بلغتهم . وتتفاهم عامتهم وخاصتهم بها . وليس لهم — وهم الحاكمون — بد أن يخاطبوا هؤلاء بلغتهم ، التى هى فى الوقت ذاته ، لغة الدين الذى يدينون به جميعا ، ولغة القرآن الذى عملوا على تشجيع علومه . واتخذوا ذلك وسيلة إلى التقرب لله ، أو أداة لدعم الدولة وتثبيتها ، أو إبهام الدهماء و إلهائها .

هذا إلى أنهم وجدوا العربية لغة حاذقة ممرنة ، وماهرة مطبعة معودة . صقلتها السنون ، وفرهتها التجارب ، إذ كافحت زمناً طويلا فى ميدان الحكم والسياسة ، ومضمار العلم والأدب والفن والصناعة ، حتى شاب قرناها ، ولكن شبت قواها ، ودوى صوتها وما كلت لهاها . ووجدوا من أبنائها بقية تركز فيهم تراثها ، ونابتة تحول إليهم ميراثها . لا يقلون عن أوائلهم مهارة شباة ، ولا جسارة قلم ، ولا حصافة لسان ، ولا فراهة منطق ، ولا قوة اضطلاع بمهام الأمور ، وحسن تصريف لمعالى الشئون : تزدان بهم الدولة . وتتم على يديهم الصولة . وهم إلى ذلك ، رجال موالون وعمال مجربون . فاتخذوهم لأنفسهم كتابا ووزراء ، وقربوهم إليهم منازل ، وأغدقوا عليهم من الجاه ، ووسعوا لهم فى النفوذ ، ومكنوا لهم فى السلطان . لهذا ازدهرت بهم دواوين الإنشاء فى القاهرة ودمشق وغيرهما من عواصم النيابات المصرية . ونضرت بهم كتابة السر . فكانوا هنا وهناك ، زينة الدولة وزهرة الديوان .

قال القلقشندى يشير إلى ذلك : « وحظيت — أى مصر — من فضلاء الكتاب بما لم تحظ به مملكة من الممالك . ولا مصر من الأمصار . وحوت من أهل الفضل والأدب

مالم يحو قطر من الأقطار . فما برحت متوجة بأهل الأدب فى الحديث والقديم، مطرزة من فضلاء الكتاب بكل مكين أمين ، وحفيظ عليم .

نجوم سماء كلما غاب كوكب بدا كوكب تأوى إليه كواكبه »

إذاً ، كان لبقاء ديوان الإنشاء ، و إنشاء كتابة السر ، أجمل الأثر وأبقاه ، فى نشاط الكتابة من عقال ، والإفساح للكتاب فى المجال . فإليك كلمه وجيزة عن عن كل منهما ، نتحدث بعدها عن أهم الرسائل الديوانية . ثم الإخوانية وغيرها مما برز فى هذا العصر من أنواع الرسائل .

الفصل الأول

١ — ديوان الانشاء وكتابة السر

لكلمة « صناعة الإنشاء » فى عالم الأدب — كما نفهم اليوم — معنى عام ومعنى خاص .

أما معناها العام فمزاولة الكتابة الفنية والتبريز فيها . وبذلك تشمل كل فنون الكتابة من مقالات ورسائل وقصص ووصف ونحوه . والمنشىء هنا أديب ناثر ، ويطلق عليه فى عصرنا الحديث لفظ « كاتب » كما يطلق على الإنشاء نفسه لفظ « كتابة » والكتابة أشهر .

ونعنى بالكتابة الفنية حسن صوغ التراكيب اللفظية ودقته ، المدلالة على الصور الذهنية والعاطفية :

أما معناها الخاص ، فمزاولة كتابة الرسائل الديوانية ، فى ديوان الإنشاء — كان والمنشىء هنا أحد موظفى الديوان المذكور ممن كان يوكل إليهم تحرير الرسائل الملوكية ومن كانوا يشبهونهم من قبل .

ونعنى بكتابة الرسائل اختراع صورها اللفظية المدلالة على المعانى المقصودة من الرسائل .

وهذا هو ما نفهم من كلام القلقشندى حيث قال :

« وأما كتابة الإنشاء فالمراد بها كل ما رجع من صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام وترتيب المعانى من المكاتبات والولايات والمسامحات والإطلاقات ، ومناشير الإقطاعات والهدن والأمانات والأيمان ، وما فى معنى ذلك ككتابة الحكم

ونحوها .»[1] وعلى هذا الاعتبار جرى حديث القلقشندى عن الإنشاء فى كتابه « صبح الأعشى » .

ومن المناسب أيضاً أن نذكر رأيه فى تعريف « الإنشاء » ، وفى الصلة بينه وبين الكتابة ، فلعل فيه شيئا من المخالفة ، لما تعورف عليه اليوم .

فبعد أن قال إن « الكتابة » لاتخرج عن أصلين هما : كتابة الإنشاء ، وكتابة الأموال ، وما فى معناهما ، قال ما نصه :

« إلا أن العرف فيما تقدم من الزمان قد خص لفظ الكتابة بصناعة الإنشاء ، حتى كانت الكتابة إذا أطلقت لا يراد بها إلا كتابة الإنشاء . والكاتب إذا أطلق لا يراد به إلا كاتبها . حتى سمى العسكرى كتابه « الصناعتين الشعر والكتابة » يريد كتابة الإنشاء . وسمى ابن الأثير كتابه « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » . يريد كاتب الإنشاء ، إذ هما موضوعان لما يتعلق بصناعة الإنشاء من علم البلاغة وغيرها .

ثم غلب فى زماننا بالديار المصرية اسم « الكاتب » على كاتب المال ، حتى صار الكاتب إذا اطلق لا يراد به غيره . وصار لصناعة الإنشاء اسمان : خاص، يستعمله أهل الديوان ويتلفظون به وهو « كتابة الإنشاء » . وعام يتلفظ به عامة الناس وهو « التوقيع » .

فأما تسميتها بكتابة « الإنشاء » فتخصيص لها بالإضافة إلى الإنشاء الذى هو أصل موضوعها . وهو مصدر أنشأ الشىء إذا ابتدأه أو اخترعه على غير مثال يحتذيه بمعنى أن الكاتب يخترع ما يؤلفه من الكلام ويبتكره من المعانى فيما يكتبه من المكاتبات والولايات وغيرها . أو أن المكاتبات والولايات ونحوها تنشأ عنه

---

١ — صبح الأعشى ج ١ ص ٥٤

وأما تسميتها « بالتوقيع » ، فأصله من التوقيع على حواشى القصص وظهورها ، كالتوقيع بخط الخليفة أو السلطان والوزير أو صاحب الإنشاء أو كتاب الدست ، ومن جرى مجراهم بما يعتمد فى القضية التى رفعت القصة بسببها ، ثم أطلق على كتابة الإنشاء جملة . »[1]

و بعد أن أورد كلا ما فى معنى التوقيع ووجوه اشتقاقه ومآخذه ، قال :

« ووجه إطلاقه على كتابة الإنشاء أنه قد تقدم أن التوقيع فى الأصل اسم لما يكتب على القصص ونحوها . وسيأتى أن ما يكتب من ديوان الإنشاء من المكاتبات كالولايات ونحوها ، إنما يُبنى على ما يخرج من الديوان من التواقيع بخط صاحب ديوان الإنشاء أو كتاب الدست ومن فى معناهم . وحينئذ فيكون التوقيع هو الأصل الذى يبنى عليه المنشىء . وقد يكون سُمّى بأصله الذى نشأ عنه مجازا .

وقد يعبر عنها بصناعة الترسل ، تسمية للشىء بأعم أجزائه. إذ الترسل والمكاتبات أعظم كتابة الإنشاء وأعمها من حيث إنه لا يستغنى عنها ملك ولا سوقة . بخلاف الولايات فإنها مختصة بأرباب المناصب العلية دون غيرهم . وعلى ذلك بنى الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى — رحمه الله — تسمية كتابه . . حسن التوسل إلى صناعة الترسل . »[2]

ونستنبط من حديث القلقشندى أمورا منها :

١ — أن « الكتابة » كانت قديما ترادف « الإنشاء » ، وتطلق عليه وحده والكاتب هو المنشىء . — وهذا يماثل ما يعرف اليوم فى عالم الأدب ، إذ « الكاتب » هو الذى يديج المقالة أو القصة أو نحوهما . كما أشرنا .

٢ — وأن الكتابة أطلقت فى زمن القلقشندى على كتابة الأموال . والكاتب

---

١ و ٢ — صبح الأعشى ج ١ ص ٥٢ و ٥٣ .

هو كاتب الأموال — وهذا يماثل ما يعرف اليوم فى دواوين الحكومة ، إذ يطلق على موظفيها ، لفظ « الكتّاب » .

٣ — وأن « الإنشاء » بمعنى اختراع الرسائل وتحرير الولايات ، أطلق عليه فى زمن القلقشندى : « كتابة الإنشاء » . ولعل ذلك تميز لها عن كتابة الأموال .

٤ — وأن « كتابة الإنشاء » كانت تطلق على كتابة الرسائل ونحوها ، داخل الديوان . أما الناس فيعرفون كتابة الرسائل ونحوها « بالتوقيع » .

٥ — وأن « كتابة الإنشاء » قد يعبر عنها بصناعة « الترسل » . ويبدو أن هذا التعبير معروف فى جميع عصور الأدب .

هذا ، ولما كانت وظائف كتابة الرسائل ، أملا موموقا وهدفا مقصوداً ، لما تضفيه من الجاه ، وما تدره من الخير . شاعت كلمة « الإنشاء » على مزاولة الكتابة فى أى فن من فنونها ، تيمنا بإنشاء الرسائل وإعلانا بالتطلع إليها . . . هذا إلى أن كتاب الديوان — غالباً — كانوا الزهرة اليانعة والثمرة الناضجة بين نابتة المنشئين . فكانوا قدوة لهم فى مسالك أساليبهم ومناهج تعابيرهم ومن ثم شاعت كلمة « الإنشاء » على صناعتهم جميعا . وعرف غير منشئى الديوان بالمنشئين أيضا .

وقد أشرنا من قبل إلى أن الرسائل ، كانت أول بوا كير الكتابة الإنشائية ، وأسبق ألوانها ظهورا وازدهارا فى الدولة الإسلامية ، لمسيس الحاجة إلى اصطناعها .

وقد نبتت نابتتها أول الأمر بين يدى النبى عليه الصلاة والسلام لما جدت حاجة دعوته إلى مخاطبة أمرائه وأصحاب سراياه من الصحابة رضوان الله عليهم ، و إلى مخاطبة الملوك المجاورين له — فضلا عن الحاجة إلى تسجيل القرآن الكريم — فاتخذ لذلك كتابا لوحيه ، ممن تعلموا الخط العربى . وبلغ عددهم — كما قيل — نيفا وثلاثين

كاتبا.[١] وممن كتب له عليه السلام: أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وأبى بن كعب. وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبى سفيان، وكان هذان الأخيران ألزمهم له.[٢] وكانوا يكتبون ما يمليه عليهم بلا تغيير، ذلك لأنه كلام النبوة. — وروى أن النبى عليه السلام قال لزيد بن ثابت: «تأتينى كتب لا أحب أن يقرأها كل أحد، فهل تستطيع أن تعلم العبرانية»؟ — أو قيل السريانية — . فقال زيد «نعم» فتعلمها فى سبع عشرة ليلة.[٣] وبهذا ترى أن زيد بن ثابت، كان أول كاتب سر فى الدولة الإسلامية.

هذا، ومن رسل الرسول الذين أرسلهم بمكتبه: عمرو بن أمية، إلى النجاشى. وعبد الله بن حذافة، إلى كسرى — ودحية الكلبى إلى هرقل. وحويطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس، وغيرهم. وهؤلاء أشبه بأصحاب البريد فى الأعصر التالية.

ونهج الخلفاء الراشدون هذا النهج النبوى. فاتخذوا لأنفسهم كتابا يملون عليهم مراسلاتهم، وكتب لأبى بكر: عثمان بن عفان — وكتب لعمر: زيد بن ثابت، وكتب لعثمان: مروان بن الحكم. وكتب لعلى: عبد الله بن رافع.

وسار خلفاء بنى أمية على هذه السنة. فكتب لمعاوية: عبد الله بن أوس الغسانى، وهكذا.

غير أن اتساع الدولة فى زمانهم وتعدد أجناس رعاياهم وتنوع مصالحهم دعاهم إلى التوسع فى إنشاء الدواوين، فكان فى جملتها ديوان الرسائل. وأطلق لفظ «الكاتب» على متولى كتابتها. وتعدد كتاب الخليفة. فكان — مثلا — ممن كتب ليزيد بن عبد الملك: سعيد بن الوليد الأبرش، ومحمد بن عبد الله بن حارثة الأنصارى. وقد كتبا أيضا لهشام بن عبد الملك. وكتب له أيضا مولاه سالم، أستاذ عبد الحميد بن يحيى ابن سعيد آخر كتاب بنى أمية، وكان كاتبا لمروان بن محمد آخر خلفائهم. وعلى يد عبد الحميد أصبح إنشاء الرسائل الديوانية صناعة مجيدة ذات رسوم وقوانين مرعية — وكان

---

١ — صبح الأعشى ج ١ ص ٩١ وما بعدها ٢ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٥
٣ — خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٦٧

الخلفاء ،قد شغلتهم أمور السياسة عن الإملاء على كتابهم بأنفسهم ، فاستقل الكتاب بإرسال الرسائل ، وأخذت طبقة من طبقات الأدباء تبدو فى أفق الأدب . تلك هى طبقة الكتاب « المنشئين » . وكان آخرهم كما أشرنا ، عبد الحميد الكاتب الذى يعتبر الأستاذ الأول لكتاب الرسائل ، وأطالها فى بعض الموضوعات ، وقصرها فى البعض ، ونوع فى بدئها وختامها بما يناسب الغرض منها ، وأطال فى تحميداتها ، إلى غير ذلك ، ومهد أمام الكتاب سبيل بلوغ الوزارة ، بما أبرزه من أهمية صناعته .

ولما أسس العباسيون دولتهم ، وسعوا نطاق دواوينهم ، واقتبسوا نظما فارسية أنشئوها عليها ، وكان من أجلها خطرا ديوان الرسائل ، ولا يليه إلا كل أديب ممتاز عالى الكعب فى الأدب والسياسة ، واسع الحيلة ذكى مشهور بالعلم والفضل .

وكان خلفاؤهم يوقعون على القصص والولايات ونحوها بأنفسهم ، حتى كانت خلافة هرون الرشيد ، فوكل أمر رسائله إلى وزيره يحيى[1] بن جعفر البرمكى . فكان أول وزير ولى ديوان الرسائل فجلت بذلك رتبته ، وصار يحيى يوقع على الولايات والظلامات وإطلاقات الرزق ، والعطيات وماشابه ذلك ، وصار سنة لمن بعده من الوزراء .

غير أن هذا الوضع لم يتصل دائما ، بل ربما انفرد رجل بديوان السر وديوان الرسائل تحت إشراف الوزير ، أو وليه الوزير . حتى كانت أواخر العصر فانفرد به رجل دون الوزير ، سمى « صاحب ديوان الرسائل » أو « متوليه » أو « صاحب ديوان المكاتبات » أو « متوليه » .[2] قيل وكان يسمى « كاتب الإنشاء » .

ولما اشتهر الديوان بديوان الإنشاء ، ويبدو أن ذلك كان فى أواخر العصر العباسى ، قيل لمتوليه « صاحب ديوان الإنشاء » وربما جمع لفظ الديوان ، تعظيما له ، فقيل :

---

١ — خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٦٧ .

٢ — راجع هامش السلوك ص ٢٤٥ نقلا عن صبح الأعشى من مواضع عدة

« صاحب دواوين الإنشاء ». وقيل كاتم السر[١] .

واشتهر كثير من كتاب الرسائل فى عصر بنى العباس ، ومنهم : عبد الله بن المقفع ويحيى بن خالد بن برمك ، وأبو أيوب المرزبانى ، والربيع بن يونس، ويوسف بن القاسم ابن صبيح ، وأحمد بن يوسف . . . الخ[٢] .

ونهج كثير من الدول المعاصرة للعباسيين ،نهجهم فى اتخاذ ديوان خاص بالمكاتبات السلطانية، كأموية الأندلس ثم بنى الأحمر ، واشتهر هناك ابن زيدون وابن الخطيب. وكدول المغرب حيث كانوا يسمون صاحب الديوان : «صاحب القلم الأعلى » . وسمى الديوان فى الدولة السلجوقية : « ديوان الطغراء »[٣] .

ديوان الانشاء فى مصر الاسلامية

لما فتح العرب مصر، أخذ ولاتها من قبل الخلفاء ، يكتبون إليهم فى مهام الأمور مكاتبات لم يقيموا لها ديوانا خاصا . وتولاها لهم كتاب ينشئونها عنهم على نمط مما كان متبعا فى عاصمة الخلافة . وكان لديهم ديوان « للبريد » ويقال لمتوليه : « صاحب البريد » وإليه مرجع ما يرد من الخلافة من الكتب على أيدى أصحاب البريد ، وهو الذى يطالع « برد » بأخبار مصر[٤] .

ولبث الأمر كذلك ، حتى كان عهد أحمد بن طولون ، فصرف عنايته إلى هذه المكاتبات . فأنشأ[٥] لها ديوانا كان النواة الأولى لديوان الإنشاء بمصر واشتهر من كتاب[٦] ابن طولون ، أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود . وكتب لابنه خمارويه :

---

١ ، ٢ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٥ ٣ — خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٦٧

٤ — نفس المصدر ص ٣٦٨

٥ — وقيل إن مصر عرفت ديوان الانشاء قبل ابن طولون. وأشرنا إلى ذلك فى بعض المواضع .

٦ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٦

إسحق بن نصر العبادى[1] . وتوالت دواوين الإنشاء .

ولما ملك الفاطميون مصر ، أخذ قائدهم جوهر الصقلى ، يوقع على القصص حتى قدم المعز لدين الله الفاطمى فوقع بنفسه ، وفوض أمر الأموال وما يتعلق بها إلى يعقوب بن كلس ، وعسلوج بن الحسن .

وفى عهد ابنه العزيز بالله ، فوض أمر الوزارة إلى يعقوب بن كلس ، فاستبد بجميع أمور المملكة ، وجرى فى دولة العزيز ، مجرى يحيى بن جعفر البرمكى فى دولة الرشيد . فعظم أمر ديوان الإنشاء . ووقع يعقوب بيده على المكاتبات والظلامات . وقد يوقع الخليفة بيده أيضاً . هذا مع ترك أمور البريد يليها أحد أمراء الدولة . ولقب صاحب الديوان بكاتب الدست الشريف[2] .

ولبث الأمر كذلك حتى كانت أيام المستنصر بالله الفاطمى ، فصرف وزيره أباجعفر محمد بن جعفر بن المغربى عن وزارته ، وأفرد له ديوان الإنشاء ، فوليه مدة طويلة وصار الديوان لا يليه إلا أكابر[3] الكتاب . ووليه المسلم والذمى .

وممن كتب للعزيز ـ عدا وزيره يعقوب ـ أبو عبد الله الموصلى ، ثم أبو المنصور ابن حورس النصرانى . وكتب للآمر والحافظ : أبو الحسن على بن أبى أسامة الحلبى . ثم ولده أبو المكارم ومعه تاج الرياسة أبو القاسم على بن سليمان المعروف بابن الصيرفى ، وكافى الكفاة محمود بن الموفق ، وابن أبى الدم اليهودى . وبعد أن توفى أبو المكارم الحلبى ، كتب للحافظ ، القاضى موفق الدين أبو الحجاج يوسف بن الخلال . وما زال متوليا أمر ديوان الإنشاء فى مصر ، إلى أن انقرضت أيام العاضد آخر خلفاء الفاطميين واشترك معه زمنا القاضى جلال الدين محمود الأنصارى . وعلى يد ابن الخلال المذكور

---

١ ـــ واشتهر فى ديوان ابن طولون ابن عبد كان الكاتب وطبطب المحرر وكان أهل بغداد يحسدون أهل مصر عليهما ـ راجع صبح الأعشى ج ١ ص ٩٩

٢ ـــ هامش السلوك ص ٢٤٦ عن صبح الأعشى

٣ ـــ خطط المقريزى ج ٣ ص ٢٦٨

تخرج القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى ، وكتب لديه مدة فى عهد العاضد ووزارة صلاح الدين الأيوبى .

ولما أسس صلاح الدين دولته ، لبث ديوان الإنشاء على رونقه ، وتولاه الكاتب الأشهر القاضى الفاضل الذى أضيفت إليه الوزارة من بعد . وظل يلى الديوان كرام الكتاب ، حتى وليه الأديب الشاعر بهاء الدين زهير فى زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب . ثم وليه القاضى فخر الدين ابراهيم بن لقمان الإسعردى ، وهو الذى شهد انقراض دولة بنى أيوب ، على أيدى مماليكهم ، وكتب لأوائلهم .

فلما ملك المماليك الأتراك ، تشبهوا بالأيوبيين فى جملة نظمهم الديوانية وأوضاعهم الإدارية . واتسع نطاق عنايتهم بديوان الإنشاء ، لحاجة دولتهم الشديدة إليه فى ضبط أمورها ومكاتباتها وفى تحرير الرسائل السلطانية ونحوها من المكاتبات الهامة . فنبه بذلك شأن الديوان وكتابه . وارتفعت منزلة رئيسه وأصبح واسع الجاه ضخم النفوذ والسلطان ، وكاد يكون أقرب رجال الدولة إلى ملكها ، ومستشاره فى عليا أمورها خارجية وداخلية . ولقب صاحب الديوان ، أولا ، بما كان يلقب به من قبل فى عهد الفاطميين ، أى « بكاتب الدست الشريف [1] » كما نشير إليه بعدُ .

غير أن « صاحب الديوان » كان فى أوائل الدولة المملوكية ، يشرف عليه أحد الأمراء من الدوادارية [2] الكبار ، وهو بمثابة « صاحب البريد » فى عهد بنى طولون . فقد كان الأمير سيف الدين بلبان الدوادار — مثلا — يلى أمر الديوان ، على عهد الظاهر بيبرس . وكان يوحى إلى القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، منشىء الرسائل

---

١ — هامش سلوك ص ٢٤٦ عن صبح الأعشى

٢ — الدوادار : لفظ غير عربى وهو أحد ألقاب الأمراء حينذاك ويطلق على من يبلغ الرسائل إلى السلطان ، كاتب السر .

بما يشاء من المكاتبات[1] كما تبينه .

ولبث ذلك حتى صرف صاحب الديوان فخر الدين بن لقمان الإسعردى عنه إلى الوزارة فى عهد المنصور قلاوون . وعين القاضى فتح الدين بن محيى الدين بن عبد الظاهر رئيساً لديوان الإنشاء ولقب بكاتب السر . فعظم أمره منذ ذلك الحين واتسع جاهه وعلت كلمته ، ولم يشرف عليه رجل آخر بل تحكم فى أمور الدولة وارتفعت منزلته فوق منزلة الوزير . كما سنبينه أيضاً .

وظل ذلك تقليداً متبعاً . إلا أننا نرى أنه لم يُعف الديوان نهائياً من تبعته أحياناً لبعض الأمراء ، فقد روى المقريزى فى تاريخه فى سياق حديثه عن الناصر محمد بن قلاوون ومن عينهم من الأمراء عام ٦٩٣ هـ فقال : « والأمير ركن الدين بيبرس الدوادار ، دواداراً ، وأعطى إمرة مائة فارس وتقدمة ألف ، وجُعل إليه أمر ديوان الإنشاء فى المكاتبات والأجوبة والبريد »[2] .

هذا ، ويتألف ديوان الإنشاء من ١ — رئيسه ويسمى صاحب الديوان أوكاتب السر ، ٢ — كتاب الدست ، ٣ — كتاب الدرج . وإليك كلمة عن كل منهم :

كاتب السر[3]

لم يعرف هذا اللقب فى الدولة الإسلامية ، قبل عهد المنصور قلاوون إلا لما فى الدولة العباسية حيث أطلق أحيانا على صاحب ديوان الإنشاء . وهذا لا يمنع أن

---

١ — حسن المحاضرة ٣ ص ١٤٧

٢ — السلوك ج ١ ص ٧٩٤

٣ — أورد السيوطى فى حسن المحاضرة . ج ٢ فصلا ذكر فيه أسماء كتاب السر من لدن كتاب النبى عليه السلام إلى عهد المؤلف ، وإلى مابعد سنة ٨٩٣ هـ فتضمن أسماء كتاب السر فى زمن المماليك.

يكون اختصاصه قد وجد، ووكل إلى رجال بالتتابع، أطلق على بعضهم لفظ «الوزير» أو غيره، كما سبقت الإشارة.

وقد أشرنا — فيما أشرنا إليه — إلى أن زيد بن ثابت يعتبر أول كاتب سر فى الدولة الإسلامية، ولو لم يسم بذلك.

وفى مستهل عصر المماليك كان يلى الديوان تارة رجل واحد يسمى «كاتب الدست» وربما قيل له «كاتب الدرج». وتارة يليه أكثر من واحد. وقيل إنه وليه فى عهد الظاهر بيبرس ثلاثة رجال، كان منهم القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر، وكان أرفعهم درجة [1].

هذا ملخص كلام القلقشندى. غير أننا لاحظنا أن عددهم بلغ سبعة فى عهد بيبرس كذلك كما نبينه عند حديثنا عن كتاب الدست..

ومنذ عهد الملك المنصور قلاوون، جدَّ لقب «كاتب السر» فى الديار المصرية، وأطلق على صاحب ديوان الإنشاء وذلك عام ٦٧٨ هـ يوم ٢ شوال [2].

وكان سبب ذلك، أن الظاهر بيبرس، عرض عليه مرةً، كاتب إنشائه القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر مكاتبة، فوجدها لاتتفق وآراءه: فراجعه فيها، فقال الكاتب: إنه أمر بها من الأمير سيف الدين بلبان الدوادار، فقال بيبرس: «ينبغى أن يكون للملك كاتب سر يتلقى المرسوم منه شفاها». وكان قلاوون، إذذاك، حاضرا فى جملة الأمراء. فوقرت هذه الكلمة فى صدره. فلما بلغ السلطنة اتخذ لنفسه كاتب سر وأبرز الفكرة إلى حيز العمل.

ووقع اختيار قلاوون على القاضى فتح الدين بن القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر،

---

١ — صبح الأعشى ج ١ ص ١٠٤

٢ — السلوك ج ١ ص ٦١٦

فاتخذه كاتبا لسره وصاحبا لديوان إنشائه . ومن ذلك الحين أصبح صاحب ديوان الإنشاء يلقب بكاتب السر . ونقل لقب « كاتب الدست » إلى من دونه من كتاب الديوان . وكان رئيس الديوان [١] يومذاك ، القاضى فخر الدين ابراهيم بن لقمان الإسعردى، فنقله قلاوون إلى الوزارة . ثم مثل الرجلان: فتح الدين وفخر الدين، بين يدى السلطان قلاوون . وكان المتبع أن الوزير إذا حضر مجلس السلطان فلا يقرأ المكاتبات عليه أحد غيره . فأراد ابن لقمان أن يقرأ كتابا ، فأخذه السلطان منه ودفعه إلى فتح الدين وأمره بقراءته . . . فعظم ذلك على ابن لقمان . [٢]

وعلا نجم فتح الدين وسمت به مكانة صاحب الديوان وكاتب السر . ولبث فى منصبه هذا زهاء ثلاثين عاما تمكن فيها من قلب السلطان ومن أمور الدولة . وكان له أثر عظيم فى تنظيم المكاتبات السلطانية ورسومها وإرساء تقاليدها .

ولعل من المناسب أن نذكر أن القاضى ابن لقمان عزل من الوزارة بعد مدة ، فعاد إلى ديوان الإنشاء كاتبا فى جملة كتابه ، يتصرف بأمر صاحب الديوان . . [٣]

وكان مجلس الوزير من السلطان ، أقرب من مجلس صاحب الديوان . فما زال فتح الدين حتى تمكن ، فجلس فوق مجلس الوزير . وقد كان الوزير حينذاك سعد الدين ابراهيم البشرى [٤] ، وظل ذلك تقليدا متبعا من أيام فتح الدين .

وقال المقريزى منوها بمنزلة كاتب السر : « ورتبة كاتب السر أجل الرتب . وذلك أنها منتزعة من الملك » . [٥] ومن الطريف فى هذا المقام ماذكره القلقشندى حيث قال : « واعلم أن العامة يبدلون الباء من كاتب السر ميما فيقولون « كاتم السر » . وهو صحيح المعنى ، إما لأنه يكتم سر الملك . أو من باب إبدال الباء بالميم على لغة ربيعة . وإن كانوا لا يعرفون الثانى . . . » [٦]

---

١ ـ صبح الأعشى ج ١ ص ١٠٤ ٢ ـ حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٧١ ٣ ـ السلوك ج ١ ص ٦٨٢ ٤ ـ الخطط ج ٢ ص ٣٦٧ ٥ ـ نفس المرجع ٦ ـ صبح الأعشى ج ١ ص ١٠٤

اختصاصه :

وأبرز اختصاص لكاتب السر — أو صاحب الديوان، أوناظره ، كما قيل أحيانا — قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها ، إما بخطه أو بخط كتاب الدست أو الدرج . حسب الأحوال . . وله حق إرسال الأجوبة بعد أخذ علامة السلطان عليها . ويسجل المراسيم السلطانية ويصدرها ، ويصرفها فى أوجهها . ويجلس بين يدى السلطان بدار العدل ليقرأ عليه الكتب الواردة ، والقصص المرفوعة إليه ، مما يرتئى عرضه على أنظاره ، ويوقع عليها بخطه . ويجلس معه فى حضرة السلطان، كتاب الدست ، ومع كل منهم كتب أوقصص — ويبدو أنها توزع عليهم حسب اختصاصهم وطبيعة عملهم ونوعه — فيقرأ كل منهم ، بعد كاتب السر ، مالديه منها ثم يوقع عليها بخطه حسب أوامر السلطان .

وقد ازداد نفوذ كاتب السر ، منذولى المنصب فتح الدين بن عبد الظاهر : حتى صار إليه التحدث فى مجلس السلطان عند عقد المشورة ، وعند اجتماع الحكام للفصل فى أمر مهم . ويتوسط بين السلطان وأمرائه فيما يندب له عند وقوع خلاف وإليه النظر فى أمور القضاة ومشايخ العلم ونحوهم فى سائر المملكة ، مصر وشاما . ويمضى رأيه بخصوصهم بعد مشاورة السلطان ؛ كما أن له الحق فى استبقاء بعض القصص والمكاتبات التى ترد إلى ديوانه ، فلا يعرضها على السلطان ، لعدم أهميتها ، ويتصرف فيها برأيه ، فيحولها على أحد أعوانه ، أويردها أويهملها .[1]

من ذلك كله ترى مبلغ أهمية منصب كاتب السر فى دولة المماليك ، ومدى حاجتها هى ورجالها إليه . قال المقريزى : « ومنزلة كاتب السر ، منزلة صاحب ديوان الإنشاء . إلا أنه يتميز بالتوقيع على القصص تارة بمراجعة السلطان ، وتارة بغير مراجعة . فلذلك

---

١ — صبح الأعشى ج ٦

يحتاج إليه سائر أهل الدولة من أرباب السيوف والأقلام ولا يستغنى عن حسن سفارته نائب الشام فمن دونه . » [١]

وقال القلقشندى :

« ومرتبته فى زماننا أرفع مرتبة ، ومحله أعظم محل . إليه تلقى أسرار المملكة وخفاياها وبرأيه يستضاء فى مشكلاتها . وعلى تدبيره يعول فى مهماتها وإليه ترد المكاتبات. وعنه تصدر . ومن ديوانه تكتب الولايات السلطانية كافة ويقوم بتوقيعه على القصص فى نفوذ الأوامر ، مقام توقيع السلطان . وجميع ما يعلم عليه السلطان من جليل وحقير ، فى مزرّته ، [٢] حتى ما يكتب من ديوان الجيش من المناشير ، وما يكتب من ديوان الوزارة ، وديوان الخاص وغيرها من المربعات ونحوها وليس لأحد من المتولين لهذه المناصب ، التعرض لأخذ علامة سلطانية البتة وناهيك بذلك رفعة وشرفا باذخا . » [٣]

وقد روى القلقشندى فى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٩٧ ، أن الثلج كان يجلب إلى أرض مصر من الشام لرفاهية الملوك ، ثم يكتب به « رجعة » تصدر من ديوان الإنشاء. وهذا يدل على مبلغ صلة الديوان بأمور الدولة حتى توافهها .

---

١ — الخطط ج ٢ ص ٣٠٨ — وكان نائب الشام أكبر نواب السلطنة فى الخارج .

٢ — المزرة : أرشدنا الأستاذ عمر الدسوقى أثناء المناقشة إلى ما جاء فى كتاب « المقصد الرفيع » عن مصف المزرة . ومؤداه أنها كالجعبة وذات حجم خاص وتتخذ من قماش ممتاز وتزرفوقها بخيط ، على ما فيها من الأوراق ، وتحمل إلى القصر للعرض على السلطان . وتوضع فيها الأوراق مرتبة حسب نظام خاص. وأول من اتخذ المزرة قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ، قبل أن يلى القضاء والوزارة فى أيام السلطان الصالح نجم الدين أيوب. — وفى عصر المماليك كان حامل المزرة وظيفة من وظائف الدولة تلى وظيفة الدوادار . ويسمى أحيانا « خادم المزرة » .

٣ — صبح الأعشى ج ١ ص ١٠٢ ، ١٠٣

كتاب الدست :

هم الكتاب المنشئون الذين يعاونون صاحب الديوان فى عمله . وهو يكل إليهم بعض الأعمال ، وإنشاء بعض الرسائل ، وتوجيهها فى مراحلها الديوانية المتبعة[1] .

وسموا بكتاب الدست لأنهم يجلسون مع رئيسهم فى دست السلطان — أى مجلسه — ويجلسون بترتيب أقدميتهم فى العمل . وترجع تسميتهم هذه إلى العصر الفاطمى . حتى إن كبيرهم أو صاحب الديوان ، كان يسمى « كاتب الدست » أو « كاتب الدرج » على نحو ما أشرنا .

وحينما يجلسون فى دست السلطان ، يقرأ رئيسهم مكاتباته ، ويوقع عليها بأمر السلطان . ثم يقرأ كل منهم بالترتيب ، ما معه من مكاتبات وقصص ، ويوقع عليها بأمر السلطان .

وكانوا — على ما روينا — ثلاثة رجال ، فى أوائل الدولة ، أيام الظاهر بيبرس . وكان أرفعهم درجة القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، فكان بمثابة رئيسهم أو رئيس الديوان .

وقد لاحظنا أن عددهم بلغ سبعة رجال ، ومنهم رئيسهم ، وذلك فى عهد الظاهر بيبرس نفسه . ذلك أن المقريزى روى فى سلوكه عند حديثه عن السلطان المذكور بعد أن فتح عكا ، وخلال حوادث عام ٦٦١هـ ، أنه بعد ما فتحها وكشف غيرها من البلاد ، قعد ليلا فى خيمة عظيمة تحت أضواء الشموع الكثيرة ، ليدبر بعض أموره ويعين بعض أمرائه . فمثل بين يديه عدد من موظفيه ، ومنهم « كتاب الدرج » وعددهم « سبعة » . وكان على رأسهم الصاحب فخر الدين بن لقمان . فكتب بين يديه فى تلك الليلة ، ستة وخمسون منشورا كبارا بخطب ، لأمراء كبار .[2]

---

١ — صبح الأعشى ج ٦

٢ — السلوك ج ١ ص ٤٩٠ و ٤٩١

وشاهدُنا هنا فى ذكر العدد « سبعة » . غير أن المقريزى سماهم « كتاب الدرج » ونحن نرجح أنه يقصد بذلك « كتاب الدست » ، وذلك لأن « كتاب الدرج » لايجلسون فى دست السلطان . فهذه خصوصية لـكتاب الدست . وإنما سماهم كذلك تجوزا ، كما كانوا يسمون كبيرهم من قبل ، مرة « كاتب الدست » ومرة « كاتب الدرج » . وكما أطلق مرة على « كتاب الدرج » « موقعى الدرج » مع أن « الموقعين » هم « كتاب الدست » . هذا إلى أنهم فى تلك الليلة مثلوا بين يدى السلطان ، وعلى رأسهم الصاحب فخر الدين بن لقمان ، وهو كبير كتاب الدست إذ ذاك .

وقد سجل المقريزى فى عبارته ، أسماء ستة من هؤلاء الـكتاب ، ونسى واحداً . ولقب كلا منهم « بالصدر » ، ويبدو أن هذا اللقب كان يطلق على كل فرد من كتاب الدست ، عدا رئيسهم ، فإنه يلقب بالصاحب .

وقد أخذ عدد « كتاب الدست » يزداد شيئا فشيئا ، حتى صاروا فى أواخر دولة الأشرف شعبان بن حسين — أى فى نحو ٧٧٨هـ — عشرة كتاب ، أو قريبا من ذلك . واطردت زيادتهم وبخاصة فى سلطنة برقوق وابنه الناصر فرج . ومازالوا حتى جاوزوا العشرين ، وهكذا[1] .

ويبدو لنا كذلك أن « كتاب الدست » هم المختصون — بإرشاد رئيسهم — بتحرير رسائل الديوان فى صورتها الإنشائية حسب أوضاع الديوان ولوازمه . هذا بجوار إتقانهم الخط . وقد أطلق عليهم « الموقعون » أيضا ، قيل : « وهم أحق كتاب الديوان باسم الموقعين ، لتوقيعهم على جوانب القصص ، بخلاف غيرهم . » .

والموقع هو الذى يكتب المكاتبات والولايات فى ديوان الإنشاء . وكان من قبل ،

---

١ — هامش السلوك ج ١ ص ٤٨٩ عن صبح الأعشى .

يعرف بكاتب الدرج . وقد غلب اسم « الموقع » على القائم بتلك الوظيفة زمن القلقشندى .

كتاب الدرج :

يبدو لنا أن هؤلاء الكتاب ، خطاطون . أو هم يجيدون الخط أكثر من الإنشاء. وعملهم إلى اللون الإدارى ، أقرب منه إلى العمل الفنى . كما أن « كتاب الدست » يشتغلون بالإنشاء أكثر من اشتغالهم بالخط ، وإن كانت لهم اختصاصات إدارية .

ونسوق كلمة القلقشندى التى عرّف فيها بهؤلاء الكتاب ، قال :

« الطبقة الثانية : « كتاب الدرج » وهم الذين يكتبون ما يوقع به كاتب السر أو كتاب الدست ، أو إشارة النائب أو الوزير ، أو رسالة الدوادار ، ونحو ذلك من المكاتبات والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير والأيمان والأمانات ، ونحو ذلك مما يجرى مجراه .

وسموا « كتاب الدرج » لكتابتهم هذه المكتوبات ونحوها فى دروج الورق والمراد بالدرج فى العرف العام : الورق المستطيل المركب من عدة أوصال . وهو فى عرف الزمان عبارة عن عشرين وصلا متلاصقة ، لاغير .

ويجوز أن يطلق عليهم — أى كتاب الدرج — كتاب الإنشاء ، لأنهم يكتبون ما ينشأ من المكاتبات وغيرها مما تقدم ذكره . . ولايجوز أن يطلق عليهم لقب « الموقعين » لما تقدم أن المراد من . التوقيع ، الكتابة على جوانب القصص ونحوها .

وكما زاد « كتاب الدست » فى العدد زاد كتاب الدرج حتى خرجوا عن الحد . وبلغوا نحوا من مائة وثلاثين كاتبا .

على أن « كتاب الدست » الآن هم المتصدرون لكتابة المهم من كتابة الدرج كمتعلقات البريد المختصة بالسلطان من المكاتبات والعهود والتقاليد وكبار التواقيع

والمراسيم والمناشير . وصار « كتاب الدرج » مخصوصين بالمكاتبات فى خلاص الحقوق وما فى معناها . وكذلك صغار التواقيع والمراسيم والمناشير بما يكتب فى القطع الصغير . وربما شارك أعلاهم « كتاب الدست » فى التقاليد وكبار التواقيع وما فى معناهما . إذا كان حسن الخط »[1]

ونستطيع أن نستنبط إجمالا ، أن « كتاب الدست » هم المختصون بإنشاء الرسائل الهامة الممتازة التى يحتاج تحريرها إلى فن ودقة فى رعاية أصول الخطاب والوصف ولوازم الأساليب الديوانية . ويخطونها كذلك بأقلامهم ويتصرفون فى المكاتبات العامة تصرفا إداريا — عن رئيسهم — يتلقونها من الدواوين الأخرى كديوان الجيش ، أو يرسلونها إليها ، أو يحفظون صورتها فى أضابير الديوان ، ونحو ذلك .

وأن كتاب الدرج « مختصون بكتابة صغار المكاتبات التى لا تحتاج فى إنشائها إلى فن أو براعة . ويشتركون فى كتابتها كتابة خطية ، ويتصرفون فيها — بأمر رئيسهم — تصرفا إداريا ، على نحو من تصرف « كتاب الدست » وقد يشترك أعلاهم مع هؤلاء فى أداء عملهم ، إذا كان حسن الخط .

ونحب أن نضيف إلى ما تقدم أموراً :

الأول :

أن للديوان لوازم خطية مرعية فى مكاتباته . فلكل مكاتبة نوع من الورق ، وقطع خاص منه ، وطريقة فى كتابتها كتابة خطية . ولا نفيض فى هذا ،

---

[1] — صبح الأعشى ج ص ١٣٧ وما بعدها .

فليس من موضوع بحثنا .

الثانى :

أن هذا النظام الذى دعى فى ترتيب ديوان [1] الإنشاء وكتابة السر ، دعى هو أقريب منه فى كثير من النيابات المصرية . وفى ذلك يقول القلقشندى عند حديثه عن صاحب الديوان :

ويضاهيه فى ذلك من العرف العام ، متولى ديوان الإنشاء بدمشق وبحلب وبطرابلس وبحماة وبصفد . إلا أنه لا يقال فى واحد منهم فى مصطلح الديوان : « صاحب دواوين الإنشاء » كما يقال فى متولى ديوان الإنشاء بالديار المصرية . بل يقال فى متولى ديوان دمشق : « صاحب ديوان الإنشاء بالشام » . وفى ديوان حلب « صاحب ديوان المكاتبات بحلب » وكذا فى الباقيات . أما غزة والكرك والإسكندرية وغيرها من النيابات الصغار ، فإنما يقال فى متولى شىء من دواوينها : « كاتب درج » ولا يطلق عليه « كاتب سر » بوجه . [2]

الثالث :

أننا لاحظنا أن ابن حجة الحموى المتوفى عام ٨٣٧هـ ، وكان موظفا فى الديوان بمصر أيام المؤيد شيخ ، وكان رئيس الديوان ناصر الدين ابن البارزى — كان يلقب نفسه بمنشىء الديوان الشريف ، فلعل ذلك كان لقبا لأنبه « كتاب الدست » .

الرابع :

أن ديوان الإنشاء لبث قائما بنظامه ، أو بنظام قريب منه ، إلى آخر العصر

---

١ — لعل من المناسب هنا أن نذكر ما رواه الشهاب بن فضل الله فى تعريف ص ١٨١ أن بيبرس عين عمه الصاحب شرف الدين أبا محمد عبد الوهاب كاتبا للانشاء بدمشق ، ووصاه بأن يبعث إليه بما يتجدد من أخبار التتار والفرنج وقال له : إن قدرت ألا تبيتنى كل ليلة إلا على خبر ولا تصبحنى إلا على خبر فافعل . »

٢ — صبح الأعشى ح ١ ص ١٠٤

حتى أزاله العثمانيون . وحقا ليس بين أيدينا بعد كتب المقريزى ، ما ينص على ذلك صراحة على نمطه ونمط القلقشندى . غير أن ما تتبعناه من تراجم رجال العصر إلى أواخره ، فى مثل « الضوء اللامع » و « بدائع الزهور » عوض هذا النقص . فقد أرخا لكثير من كتاب السر ، إلى عهدهما .

وفى حسن المحاضرة للسيوطى ، مقالة ضافية تحت عنوان « ذكر كتاب السر » تحدث فيها عنهم من لدن الرسول عليه السلام إلى سنة ٨٩٣هـ مسجلا أسماء كتاب السر بمصر على التوالى إلى العام المذكور . وفى هذا دليل ضمنى على قيام ديوان الإنشاء .

الخامس :

أننا لا نرى بنا حاجة إلى الحديث عن ثقافة موظفى هذا الديوان ، ولاسيما رؤساؤه وكتاب سره . فحسبنا أن نلقى نظرة عجلى على تراجمهم فى مواضعها . ليتجلى لنا أنه ما منهم إلا من جمع العلم من أطرافه ، والأدب من أقطاره . وإلا من التأم له شمل جملة من العلوم والفنون ، لا تلتئم إلا لكل عبقرى صنديد ، وذكى فريد : من حديث وفقه وأصول ومعقولات وفنون عربية ، ومقدرة على النثر والنظم . هذا فضلا عن دهاء وسياسة وظرف وكياسة ، وأدب جم ومعرفة واسعة بأمور الناس وأخلاقهم ، وإحاطة تامة بشئون الدولة خارجها وداخلها . وإلا ما استطاع أحدهم أن يصل إلى مقعده أو يتبوأ مكانه فى إدارة دفة الأمور بجانب سلطانه . والدولة حينذاك واسعة الأطراف مترامية الآفاق تحكم شعوبا عدة ، وتتطلع إليها عيون كثيرة فى مشارق الأرض ومغاربها ، ويأتمر بها أعداء من كل جانب ، والحروب سجال ، واسم مصر ومهابتها وريح عظمتها تملأ الدنيا . ويحمل « كاتب السر » من ذلك كله ، عبئا ضخما ينوء به الحامل ، ولا ينهض به إلا كل بازل . . . فتنقصهم والطعن فى ثقافتهم حديث

خرافة ، ووحى ظن ، ومس من سقيم خيال .

السادس :

أن من شك فى سمو ثقافتهم ، وقال إنها أضيق أفقا من ثقافة أسلافهم . فليقرأ ما كتبه القلقشندى فى « صبح الأعشى » . وكتابه هذا تفصيل لما أجمله فى مقامته التى وصف فيها الكتابة وما ينبغى للكاتب من آلات فى صناعتها . وقد أسهب فى بيان ذلك ، وحشد فيما ينبغى للكاتب معرفته ، علوما جمة ومعارف شتى ، لا يستطيع عقل بشرى أن يحيط بها جميعا . وعندنا أن لو اجتمع بعضها لأديب لقدم له المعونة ، وكفاه المئونة .

ولا نشك فى أن القلقشندى استوحى خياله من واقع الحياة فى عصره . ومن ملابساته فى الديوان . وحقا إنه رسم بذلك المثل الأعلى للكاتب . ولكنه ما كان يرسم ذلك لولا ما لمسه فى كتاب السر أو بعضهم من سمو وسعة اطلاع .[1]

السابع :

أن ثقافة هؤلاء المنشئين ، أو كتاب السر ، إذا أحببنا أن نقيسها بنتاج أفكارهم وندلل عليها به — وليس النتاج الفكرى هو الدليل الوحيد على مبلغ الثقافة — وجدنا أن المثل تنهض معنا ، والأدلة تتسابق إلى المحاجة .

وحسبك أن ترى من بينهم أصحاب الموسوعات التى لا نظير لها فى الآداب العربية جميعها . ومنهم :

١ — محيى الدين بن عبد الظاهر ، صاحب كتاب الروضة البهية الزاهرة ، فى خطط المعزية القاهرة » . وهو فى التاريخ والتقويم والأدب . وهو من الأسفار المفقودة ، ولكن اعتمد عليه من جاء بعد مؤلفه كالمقريزى .

٢ — شهاب الدين بن فضل الله العمرى صاحب « مسالك الأبصار » فى التاريخ

---

١ — راجع موازنته بين كتابة الأموال وكتابة الإنشاء فى صبح الأعشى ج ١ ص ٥٤ . ٥٥

والتقويم والأدب وعلوم شتى . وقد طبع الجزء الأول منه . ونفعه واضح .

٣ — شهاب الدين القلقشندى صاحب « صبح الأعشى » وهو أجمع كتاب فى وصف صناعة الكتابة وما يتصل بها .

٤ — تقى الدين المقريزى صاحب « الخطط » ولا غنى لأديب أو مؤرخ عنه .

وبعد فهذا وشل من سيل ، وقل من كثر ، وغيض من فيض ، ونملة من كأس ، وشعاع من شمس . . . فاترك حديث من يطعن فى هؤلاء و يصمهم بالجمع فى مؤلفاتهم وأنهم بمنأى عن الاختراع . فهذه دعوى فجة لا نضج لها . ثم أن الجمع المنظم المهذب الذى يؤلف الشتات ، ويحسن المتات ، من أروع ألوان الابتكار فى عالم التأليف . يعرف ذلك أهل الفضل ممن يعانونه و يعالجون مآزقه ومشاقه .

الثامن :

أن لنا برهانا جديدا ، على مبلغ ثقافتهم وسعتها ، ذلك هو إنتاجهم داخل الديوان فما منهم إلا وله مئات الرسائل فى شتى الأغراض . وهو يجهد النفس فى التجديد فيها والاختراع ، أسلوبا ومعنى وتصويرا ، حذرا من المؤاخذة ، والعيون إليه شاخصة . حتى المعانى المسبوقة يجتهد أحدهم فى أن يسكبها فى قالب لفظى جديد — على حد ما قاله القلقشندى فى موازنته بين كتابة الأموال وكتابة الإنشاء .

ولو جمع ما كتبه أصحاب الديوان ، وكتاب السر ، عدا المنشئين الآخرين ، فى طول العصر ، بل فى فترة منه ، لكان للأدب منه ثروة ضخمة رائعة .

وقد ذكر المقريزى عند كلامه عن «مكان ديوان الانشاء » وأنه كان بجوار قاعة الصاحب بقلعة الجبل ، وفيه قعد مع الكتاب أيام صحابة القاضى بدر الدين بن فضل الله العمرى فى نحو سنة ٧٧٠هـ ، قال :

« فلما زالت دولة الظاهر برقوق ثم عادت ، اختلت أمور كثيرة . ومنها أمر قاعة

الإنشاء بالقلعة وهجرت . وأخذ ما كان فيها من الأوراق . وبيعت بالقنطار »[1] .
ولاريب أن بينها قناطير من المكاتبات الأدبية المحفوظة. وقال الصفدى عن نفسه : « إنه كتب بيده مايقارب خمسمائة مجلدة . ولعله كتب فى الإنشاء ضعف ذلك »[2]

ولعله من المناسب أن نذكر حملة ضياء الدين بن الأثير على مقامات الحريرى ، ووصفه لها بأنها « صور موضوعة فى قوالب حكايات مبينة على مبدأ ومقطع . بخلاف الكتابة — ويعنى داخل الديوان — فإن أحوالها غير متناهية . وأنه لو روعى حال ما يكتبه الكاتب فى أدنى مدة لكان مثل المقامات مرات » . ومثل ذلك يقال فى كتاب عصر المماليك . على أن كتابى «التعريف» لابن فضل الله ، و «قهوة الإنشاء» لابن حجة، معرض جميل ونموذج لإنتاج رجال الديوان .

وبعد فلسنا نبالغ فنبرىء كتاب الديوان من العيوب المتصلة بصناعتهم. وقد عابهم منذ القديم كثير من نقاد الأدب ، ذلك لأنه اندس بين أهل العمل منهم ، من ليس أهلا للعمل ، شأنهم فى ذلك شأن سياسة الدواوين فى كل عصر . فالمعيبون هم غير الأكفاء منهم ، ولا ينبغى أن يكون ذلك مطعنا فيهم عامة .

هذا وقد أطال القلقشندى فى ذكر من عابهم ، وفى ذكر معايبهم ، حتى نقل كلمة لطيفة لصاحب نهاية الأدب ختمها بهذين البيتين قائلا : لله در القائل :

لعن الزمان فقد أتى بعجاب ومحا فنون الفضل والآداب
وأتى بكتاب لو انبسطت يدى فيهم رددتهم إلى الكتاب

وسيرد علينا بعد قليل فى فصل «الأسئلة والأجوبة» ، ماوقع بين ابن نباته المصرى ، وكتاب الديوان ، وماعابهم به وجادلهم فيه .

---

١ — الخطط ج ٣ ص ٣٦٦
٢ — راجع ترجمة الصفدى فى الدرر ج ٢ رقم ١٦٥٤ ، وفى مقدمة الوافى بالوفيات ج ١

الفصل الثانى

الرسائل الديوانيـــة

نعنى بالرسائل الديوانية ، تلك التى كان يدبجها كتاب ديوان الإنشاء فى المناسبات الرسمية للدولة ، جارية على لسان السلطان ، أو بأمر منه .

وبد هى أن تتعدد وتتنوع بتعدد هذه المناسبات وتنوعها . وما كان أكثرها وأوفرها .

فكانوا — مثلا — يكتبونها عند مخاطبة ملوك البلاد الأخرى فى أحد الشئون الهامة ذات الصلة بالبلدين . وعند تولية سلطان جديد ، عهدا له من خليفة زمانه ومبايعة . وعند سفر السلطان ونزوله وعودته ، للحرب أو الرياضة أو نحوهما : وعند الفتح والغزو والظفر والهزيمة . وعند تعيين النواب والقضاة وموظفى الدولة ، وعند عهد السلطان بولاية سلطنته لولى عهده ، وعند عهد الخليفة بولاية خلافته لولى عهده كذلك . وعند زواج السلطان — مثلا — أو أحد أبنائه ، وعند البشارة بوفاء النيل ، إلى غير ذلك من المناسبات .

وتعتبر الرسالة بهذا ، وثيقة رسمية تسجل الحادث وتصفه .

ونجمل فيما يلى ، الإشارة إلى ألوان من هذه الرسائل الديوانية ، لنبين مدى اشتراكها فى تأدية حاجة الدولة فى ناحيتيها السياسية والاجتماعية ، ذاكرين أنها كانت أهم ضروب الرسائل فى المجال الأدبى ، وأقوم النماذج التى يحتذيها كتاب الإنشاء بالديوان وخارجه ، ويحتذيها غيرهم أيضا من أفاضل المنشئين والأدباء فيما يتعاطون من

إنشاء . كما كانت الميدان الفسيح الذى يتبارى فيه جياد المترسلين ، إظهارا لكفايتهم وإشعارا بمقدرتهم ، لينالوا من وراء ذلك جاها وعزا وسلطانا .

ونذكر أيضا أنها كانت أكثر من سواها رعاية لرسوم الديوان ، ومافيه من التقاليد الإنشائية واللوازم الكتابية ، فى البدء والختام وبين السطور ، وفى ذكر الألقاب والأوصاف والأدعية ، ومايتناسب من ذلك كله مع كل مقام ، كما سنبينه فى الفصل الأخير بعون الله .

ونحن إذ نشير إلى ألوان منها ، لانستوعب ولانحاول الاستيعاب والإحاطة . فليس بحثنا معنيا بهذه الناحية إلا بمقدار مايجلى مكانة الأثر الأدبى فى الأفق الاجتماعى وبمقدار مانشعر القارىء بأن هذ الأثر كان كائنا حيا ينبض بالحركة والقوة ، ويشارك الأحياء ويؤدى وظيفته بينهم كما أريد له فى عصره .

فمن الرسائل الديوانية : الرسائل الملوكية ، وما يتصل بها من مهادنات ويمين ومفاسخات . ومنها العهود والمبايعات . ومنها التقاليد والتواقيع والمناشير والمراسيم والمساميح . ومنها البشارات ومنها الصداق — فهذه أهم أنواعها .

ونوجز القول فيما يلى عن كل نوع منها .

---

١ — الرسائل الملوكية :

نعنى بالرسائل الملوكية ، تلك المكاتبات التى كانت ترسل على لسان السلطان إلى غيره من الملوك والسلاطين والأمراء ، فى أمر ذى بال ، مبادأة بها ، أوردا على مثلها .

ولعلها أهم الديوانيات ،من ناحية صلتها الوثيقة بالتعبير عن السياسة العليا للدولة ، وبيان نزعات السلطان ، وإيضاح نواياه وخططه ، إزاء المرسل إليه وبلاده ، ومن ناحية ماقد يترتب عليها من مودة وحسن اتصال ، أوخصام قد يعقبه قتال . فقد تكون تهديدا أوردا على تهديد ، وقد تكون إعلاما بغزو وظفر ، أوإيذانا بتحرك عدو ، أو إتهاما بمالأة خصم ، أو إجابة لمعونة ، أوعرضا لقضية ، أو فضا لمشكلة ، أوشكرا على هدية ، أوتعزية ،ونحو ذلك مما يكون بين الملوك الأنداد ، أوبين السلطان وكبار نوابه فى الأقاليم .

ويبدو أن الملوك المعاصرين لمصر فى هذه الحقبة — ومنهم ملوك التتار — نهجوا فى المكاتبات السلطانية نهجا مشابها ، واتخذوا لأنفسهم كتابا ينشئون رسائلهم إلى ملوك مصر وأشباههم ، بالعربية ، أو ينشئونها بالمغولية ثم تترجم إلى العربية بنفس الأسلوب المتبع فى مراسلات ديوان الإنشاء .[1]

ولعل من بواكير رسائلهم ، تلك الرسالة التى بعث بها هولاكو التترى الذى أزال ملك بنى العباس ، وأنهى دولتهم عام ٦٥٦ هـ ، ثم طفق يعيث فسادا بالديار الشامية متجها منها نحو الديار المصرية ، تلك التى أرسلها إلى سلطان مصر « المظفر قطز »

---

١ — فى تاريخ الآداب العربية لجورجى زيدان ج ٣ ص ١٠٥ أن شهاب الدين بن عريشاه تولى ديوان الإنشاء للسلطان محمد الأول ملك الأتراك العثمانيين . وكتب عنه إلى ملوك الأطراف بالعربية والفارسية والتركية .

وروى أبو المحاسن فى كتابه « النجوم الزاهرة » ج ٨ ص ١٣٦ قصة وفود وفد التتار على سلطان مصر الناصر بن قلاوون عام ٦٩٨ هـ ، ومعهم كتاب إليه عن ملكهم . وقال بالنص : « فلما كان ليلة الخميس فتح الكتاب وقرىء على السلطان وهو مكتوب بالمغلى » . وعلق الناشر فى الهامش على ذلك ، نقلا عن نسخة أصلية للكتاب ، قول المؤلف : « وهو مكتوب بالتركى » . — ثم قال أبو المحاسن عنه : « وهو مكتوب بخط غليظ فى نصف قطع البغدادى . ومضمونه ...» الخ . وقوله : « مضمونه » يشعرنا بترجمة الكتاب إلى العربية . فقد أورد أبو المحاسن نص هذا المضمون بتمامه . ويرى القارىء جزءا من هذا المضمون بعد قليل فى الصفحات الآتية .

عام ٦٥٨ هـ ، يدعوه فيها إلى الاستسلام والدخول فى طاعته ويصف له قوته وجبروته ، ويهدده تهديدا صاخبا .

وتعد الرسالة المذكورة نموذجا رائعا من نماذج « أدب الحرب » ، الذى تراءى مرارا بين الآداب العربية .

---

١ — ونسوق إليك فقرات منها ، قال فى مفتتحها :

« من ملك الملوك شرقا وغربا ، القان[1] الأعظم ، باسمك اللهم باسط الأرض والسماء : يعلم الملك المظفر قطز ، الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الأقليم ، يتنعمون بأنعامه ، ويقتلون من كان بسلطانه . بعد ذلك ، يعلم الملك المظفر ، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته ، بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله فى أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حل به غضبه . فلكم بجميع البلاد معتبر . وعن عزمنا مزدجر . فاتعظوا بغيركم . وأسلموا إلينا أمركم . قبل أن ينكشف الغطا . فتندموا ويعود عليكم الخطا . فنحن ما نرحم من بكى . ولا نرق لمن شكا . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد . وطهرنا الأرض من الفساد . وقتلنا معظم العباد . فعليكم بالهرب ، وعلينا الطلب . فأى أرض تأويكم . وأى طريق تنجيكم وأى بلاد تحميكم ؟ فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص . فخيولنا سوابق وسهامنا حوارق . وسيوفنا صواعق . وقلوبنا كالجبال . وعددنا كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع . والعساكر لقتالنا لا تنفع . ودعاؤكم علينا لا يسمع . فانكم أكلتم الحرام . ولا تعفون عند كلام . وخنتم العهود والأيمان . وفشا فيكم العقوق والعصيان . فأبشروا بالمذلة والهوان . « فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون .

---

١ — لفظ القان غير عربي ، وهو لقب رؤساء الترك ثم المغول — عن فهرست سلوك المقريزى ج ١ ص ١١٦٥

وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

فمن طلب حربنا ندم . ومن قصد أماننا سلم . فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم . فلكم مالنا وعليكم ماعلينا . وإن خالفتم هلكتم . فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم . فقد حذر من أنذر . وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة ، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة . وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة ، والأحكام المدبرة . فكثيركم عندنا قليل . عندنا ذليل . وبغير الأهبة مالملوككم عندنا سبيل . فلاتطيلوا الخطاب . وأسرعوا برد الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها . وترمى نحوكم شرارها . فلا تجدون مناجاها ولاعزا . وتدهون منا بأعظم داهية وتصبح بلادكم منكم خالية . فقد أنصفناكم إذ راسلناكم . وأيقظناكم إذ حذرناكم . فما بقى لنا مقصد سواكم .

والسلام علينا وعليكم ، وعلى من أطاع الهدى . وخشى عواقب الردى . وأطاع الملك الأعلى .

ألا قل لمصر ها هُلاون قد أتى ... بجند سيوف تنتضى وبواتر
يصير أعز القوم منها أذلة ... ويلحق أطفالا لهم بالأكابر »[1]

هذا وقد أثارت هذه الرسالة ثائرة قطز وحماسته ، وحفزته وأمراءه وجنوده إلى أن هبوا على بكرة أبيهم يدفعون عن بلادهم هذا الخطر الداهم . وخفوا إلى الديار الشامية فى جحفل لجب ، والتقوا بالتتار فى موقعتين فاصلتين هما « عين جالوت » و « بيسان » هزموهم فيهما هزيمة منكرة ، فارتدوا عن مصر داحرين ، فلم يقيض لهم بعد دخولها وهما مقدمة الوقائع التى منى فيها التتار بالهزيمة .

---

١ — النص منقول من سلوك المقريزى ج ١ ص ٤٢٧ — وهلاون من أسماء هولاكو .

٢ — وإليك مثلا آخر، وهو رسالة كتبها محيي الدين عبد الظاهر[1]، على لسان الملك الظاهر بيبرس إلى بيموند، أحد أمراء الصليبيين بالشام، وكان يملك طرابلس وأنطاكية. وكان بيبرس قد دهم مدينة طرابلس فى شعبان عام ٦٦٦ هـ، وأثخن فيها. ثم زايلها إلى أنطاكية فحاصرها واستولى عليها فى رمضان من العام المذكور، وكان بيموند وقت فتح أنطاكية مقيما بطرابلس، فبعث إليه السلطان هذه الرسالة، يبشره فيها بفتح أنطاكية — والبشرى هنا تهكم مرير — وقد صور فيها ما أصاب طرابلس وأنطاكية معا من خراب ودمار، تصويرا أدبيا مؤثرا تعززه المجانسات الساخرة، والطباقات والتضمينات الهازئة، وغير ذلك من البديعيات التى تفيض بألوان التهديد والوعيد.

والرسالة هنا، تعتبر وثيقة رسمية بتسجيل خبر الفتح، وبنية السلطان على معاودة القتال. وقد قيل فى سلوك المقريزى فى أعقاب هذه الرسالة، ما نصه: «ولما وصل إليه هذا الكتاب اشتد غضبه، ولم يبلغه خبر أنطاكية إلا من هذا الكتاب».

وإليك فقرات من هذه الرسالة، قال فى مفتحها، ويتجلى فيه أدب التراسل، على الرغم من ظروف الرسالة:

«قد علم القومص[2] الجليل المبجل. المعزز الهمام. الأسد الضرغام. بيمند فخر الأمة المسيحية. رئيس الطائفة الصليبية كبير الأمة العيسوية... ألهمه الله رشده.

---

١ — أثبته فى سلوك المقريزى ج ١ ص ٥٦٧ هكذا «ابن عبد الظاهر». والراجح أنه محيى الدين، لأنه كان منشىء الديوان فى عهد بيبرس، وقد توفى عام ٦٩٢ هـ بعد ما خدم ديوان الإنشاء أكثر من عشرين عاما. تزعم فيها الكتاب والشعراء وتعصب لطريقة الفاضل. (ترجمته فى فوات الوفيات ج ١ ص ١٧١ — والدرر الكامنة ج ٣ — وطبقات الحفاظ للذهبى — وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٧٣)

٢ — القومص تعريب اللفظ اللاتينى Comes وهو فى الفرنسية Comte وفى العربية الدارجة. الكونت. هامش السلوك ج ١ ص ٩٦١.

وقرن بالخير قصده . وجعل النصيحة محفوظة عليه . ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له فى عقر الديار . وما شاهده بعد رحلينا من إخراب العمائر وهدم الأعمار . وكيف كنست تلك الكنائس من بساط الأرض . ودارت الدوائر على كل دار . وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر . وكيف قتلت الرجال ، واستخدمت الأولاد ، وتملكت الحرائر . » الخ

ومنها يتهكم به وينذره :

« هذا . وأنت تنظر نظر المغشى عليه من الموت . وإذا سمعت صوتنا ، قلت فزعا : « على هذا الصوت » . وكيف رحلنا رحيل من يعود . وأخرناك وما كان تأخيرك إلا لأجل معدود . وكيف فارقنا بلادك ، وما بقيت ماشية إلا وهى لدينا ماشية . ولا جارية إلا وهى فى ملكنا جارية . ولا سارية إلا وهى من أيدى المعاول سارية . ولا زرع إلا وهو محصود . ولا موجود إلا وهو منك مفقود . » الخ

ومنها يصف فتح أنطاكية . وما عناه خيالة بيموند من صرع تحت سنابك الخيل وما عاثه النهابة من السلب فى المدينة وما جرى على رجالها وحرائرها من هول وذل ، وما لحق بالمدينة من ألوان الخراب . قال :

« فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول . وديارك والنهابة فيها تصول والكسابة فيها تجول . وأموالك وهى توزن بالقنطار . وداماتك[1] وكل أربع منها تباع ، فتشترى من مالك بدينار . ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كسرت ونشرت . وصحفها من الأناجيل المزورة قد نثرت . وقبور البطارقة قد بعثرت . ولو رأيت عدوك المسلم ، وقد داس مكان القداس . والمذبح وقد ذبح فيه الراهب والقسيس والشماس . والبطارقة وقد دهموا بطارقة . وأبناء المملكة وقد دخلوا فى المملكة . ولو شاهدت النيران وهى فى قصورك تحترق والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق . وقصورك وأحوالك قد حالت . وكنيسة بولص وكنيسة القسيان ، وقد زلت وزالت . لكنت

١ — داماتك : يبدو أن معناها سيداتك أو نساؤك وزوجاتك ، ولفظها فرنسى .

تقول : « ياليتنى كنت ترابا . وياليتنى لم أوت بهذا الخبر كتابا » . ولكانت نفسك تذهب من حسرتك . ولكنت تطفىء النيران بماء عبرتك . ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت من معانيك . ومراكبك وقد أخذت فى السويدية بمراكبك . فصارت شوانيك من شوانيك . لتيقنت أن الإله الذى أعطاك أنطاكية منك استرجعها . والرب الذى أعطاك قلعتها منك قلعها . ومن الأرض اقتلعها . »الخ[1]

---

٣ — وإليك نموذجاً آخر :

فى نحو عام ٦٩٨ هـ كانت الوقائع مساجلة بين التتار وسلطان مصر الناصر محمد قلاوون . وفى شهر ذى القعدة من العام المذكور ، أرسل ملك التتار محمود غازان وفدا إلى الناصر بن قلاوون ، ومعهم رسالة ، تتراوح معانيها بين الوعد والوعيد ، وبين المصالحة والتهديد . ذكر فيها ما كان من جنود الناصر من عبث وفساد فى جهات ماردين . وإنما أوقع بهم بسبب ذلك ، وبسبب استغاثة أهل ماردين به منهم . وأنه فعل ذلك بدافع من الإسلام الذى يقطع دابر المفسدين . ثم يطلب الصلح ويستهدى السلطان .

وقد رد عليه الملك الناصر برسالة ملؤها الوعيد والتهكم ، معربا عن ارتيابه فى نيات غازان فى الصلح . وقد ذكره بما لجنود مصر فيما سلف ، من إذلال لآبائه وأجداده . ثم أبدى استعداده لقبول الصلح ، إذا صدقت النية ، وإلا فالحرب سجال .

واعتذر الناصر عن هزيمة جنوده بماردين ، بأنهم أحجموا عن قتال جنود غازان حينما علموا أنهم يدينون بدين الإسلام ، ولا يحل لمسلم سفك دم أخيه المسلم ، ولهذا وقع الفشل فى صفوفهم .

كما اعتذر عن الإهداء إليه ، حتى يبدأ هو بإرسال هديته إعلانا منه بالصفاء ،

---

١ — الرسالة نصها الكامل فى سلوك المقريزى ج ١ ص ٩٦٦

و إعلاما بالسعى إلى المصالحة والمودة ، وطلب إليه فى أعقاب الرسالة أن يوفد إليه رجلا ذا مكانة ورأى مسموع بينهم ، يستطيع معه النظر فى أمر الصلح .

وتتسم كلتا الرسالتين — كما يتسم كثير غيرهما فى مثل مناسبتهما — بجملة — سمات ، منها : السخرية والتهكم بالمرسل إليه ، يكالان له كيلا ، مع قدر وافر من التهديد والإنذار . ومنها : الفخر البالغ ، و إظهار العظمة والتنويه بالقوة والقدرة على البطش وسفك الدماء ، كل ذلك يبديه المرسل فى أسلوب غائم مثقل بسحب قتال يشتد فيها البرق والرعد ، ومنها اتخاذ الإسلام والدفاع عن الدين ذريعة وسببا وستارا لأعمال العدوان والغزو والفتح ، والسلب والنهب ، مع اعتبار ذلك إقامة للعدل و إحقاقا للحق و رعاية للمظلوم ، وانتقاما من الظالم ، وتأديبا للعاصى العابث .

وننقل إليك فقرات من كل رسالة . فمن رسالة غازان — أومن مضمونها وترجمتها — ماجاء فى مستهلها ، قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم . وننهى — بعد السلام إليه — أن الله عز وجل ، جعلنا وإياكم أهل ملة واحدة وشرفنا بدين الإسلام وأيدنا وندبنا لإقامة مناره وسددنا . وكان بيننا وبينكم ما كان بقضاء الله وقدره . وما كان ذلك إلا بما كسبت أيديكم ، وما الله بظلام للعبيد . وسبب ذلك أن بعض عساكركم أغاروا على ماردين وبلادها فى شهر رمضان المعظم قدره ، الذى لم تزل الأمم يعظمونه فى سائر الأقطار . وفيه تقل الشياطين وتغلق أبواب النيران . فطرقوا البلاد على حين غفلة من أهلها . وقتلوا وسبوا وفسقوا وهتكوا محارم الله بسرعة من غير مهلة . وأكلوا الحرام . وارتكبوا الآثام . وفعلوا مالم تفعله عباد الأصنام » .

وبعد أن ذكر استنجاد أهل ماردين به ، قال منوها بنجدته لهم وهزيمته لجنود الناصر :

« فهزتنا نخوة الكرام . وحركتنا حمية الإسلام . فركبنا على الفور بمن كان معنا .

ولم يسعنا بعد هذا المقام . ودخلنا البلاد وقدمنا النية . وعاهدنا الله تعالى على مايرضيه عند بلوغ الأمنية . وعلمنا أن الله تعالى لايرضى لعباده الكفر بأن يسعوا فى الأرض فسادا — والله لايحب الفساد — وأنه يغضب لهتك الحريم وسبى الأولاد . فما كان إلا أن لقيناكم بنية صادقة وقلوب على الحمية للدين موافقة . فمزقناكم كل ممزق . والذى ساقنا إليكم هو الذى نصرنا عليكم وما كان مثلكم إلا كمثل قرية كانت آمنة مطمئنة... الآية . فوليتم الأدبار . واعتصمتم من سبوفنا بالفرار فعفونا عنكم بعد اقتدار . ورفعنا عنكم حكم السيف البتار . وتقدمنا إلى جيوشنا ألا يسعوا فى الأرض كما سعيتم . وأن ينشروا من العفو والعفاف ماطويتم . ولوقدرتم ماعفوتم ولاعففتم . ولم نقلدكم منة بذلك . بل حكم الإسلام فى قتال البغاة كذلك . وكان جميع ماجرى فى سالف القدم . ومن قبل كونه ، جرى به فى اللوح القلم . » الخ

وبعد أن أطال فى وصف جيوشه ، وما وقع منها من إغاثة ونجدة ، ومن إقرار للأمن إلى غير ذلك ، قال فى طلب الصلح :

« والآن فإنا وإياكم لم نزل على كلمة الإسلام مجتمعين ، وما بيننا ما يفرق كلمتنا إلا ما كان من فعلكم بأهل ما ردين . وقد أخذنا منكم القصاص ، وهو جزاء كل عاص . فترجع الآن فى إصلاح الرعايا . ونجتهد نحن وإياكم على العدل فى سائر القضايا . فقد ضرت بيننا وبينكم حال البلاد وسكانها . ومنعها الخوف من القرار فى أوطانها . وتعذر سفر التجار . وتوقف حال المعايش لانقطاع البضائع والأسفار . ونحن نعلم أننا نسأل عن ذلك ونحاسب عليه . وأن الله عز وجل لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . وأن جميع ما كان وما يكون ، فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . وأنت تعلم أيها الملك الجليل ، أننى وأنت مطالبون بالحقير والجليل . وأننا مسئولون عما جناه . أقل من ولیناه . وأن مصيرنا إلى الله . وأنا معتقدون الإسلام قولا وعملا ونية . عاملون بفروضه فى كل وصية . » الخ.

أما رسالة الناصر بن قلاوون ، فقد عول فى مستهلها على رد فرية غازان عن جنود مصر ، وأبان أنهم لم يعبثوا بجهات ماردين . وإنما وقع العبث من غيرهم من الطامعين، ووصفهم بالسجد الصائمين . . . قال .

« بسم الله الرحمن الرحيم . علمنا ما أشار الملك إليه . وعول فى قوله وفعله عليه . فأما قول الملك : قد جمعتنا وإياكم كلمة الإسلام . وإنه لم يطرق بلادنا ولا قصدها إلا لما سبق به القضاء المحتوم . فهذا الأمر غير مجهول . بل هو عندنا معلوم . وأن السبب فى ذلك غارة بعض جيوشنا على ماردين ، وأنهم قتلوا وسبوا وهتكوا الحريم وفعلوا فعل مالا له دين . فالملك يعلم أن غارتنا مابرحت فى بلادكم . مستمرة من عهد آبائكم وأجدادكم . وأن من فعل ما فعل من الفساد ، لم يكن برأينا ولا من أمرائنا ولا الأجناد . بل من الأطراف الطامعة ممن لا يؤوبه إليه، ولا يعول فى فعل ولا قول عليه . وأن معظم جيشنا كان فى تلك الغارة ، إذا لم يجدوا ما يشترونه للقوت ، صاموا لئلا يأكلوا ما فيه شبهة أو حرام وأنهم أكثر ليلهم سجد ، ونهارهم صيام . » الخ

ومن كلامه يقرعه و يعيره :

« وأما قول الملك إنه لما التقى بجيشنا مزقهم كل ممزق . فمثل هذا القول ما كان يليق بالملك أن يقوله أو يتكلم به ، وهو يعلم — وإن كان مارأى ، يسأل كبراء دولته وأمراء عساكره — عن وقائع جيوشنا ومراتع سيوفنا من رقاب آبائه وأجداده، وهى إلى الآن تقطر من دمائهم . إن كنت نصرت مرة ، فقد كسرت آباؤك مرار[1] . و إن كان جيشك قد داس أرضنا مرة ، فبلادكم لغارتنا مقام ، ولجيوشنا قرار وكما تدين تدان . » .

ومن كلامه يذكر طلب الصلح فى أسلوب من التهكم والريب ، ويطلب منه اختيار رجل صالح لمفاوضته :

١ — مرار هكذا بدون نصب لضرورة السجعة .

« فإن كنتم تريدون الصلح والإصلاح . وبواطنكم كظواهركم متتابعة فى الصلاح. وأنت أيها الملك طالب الصلح على التحقيق . وليس فى قونك مين ولا يشوبه تنميق. فنحن نقلدك سيف البغى . ومن سل سيف البغى قتل به . ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله . فيرسل إلينا من خواص دولتك ، رجل يكون منكم ممن إذا قطع بأمر وقفتم عنده . أوفصل حكما انتهيتم إليه ، أوجزم أمرا عولتم عليه . يكون له فى أول دولتكم حكم وتمكين . وهو فيما يعول عليه ثقة أمين . لنتكلم معه فيما فيه الصلاح لذات البين. وإن لم يكن كذلك عاد بخفى حنين » (١)

ومن هذه الرسائل الخارجية : «المهادنات» وهى رسائل تكتب بتقرير الهدنة بين السلطان وأحد أعدائه من تتار أوفرنجة أوغيرهما ، أوبينه وبين حكام آخرين من أمراء الأقاليم ، ممن تقع بينه وبينهم مناوشات وحروب ، تنتهى إلى مفاوضات فصلح فمهادنة . ويكتب بذلك رسالة ، كثيرا ما تحشى بأسماء البلاد والأماكن التى تمت بخصوصها المصالحة والمهادنة. ولا يراعى فى كتابتها السمت الأدبى تمام الرعاية، على نسق ما هو معهود فى المراسلات الأخرى .

ويتصل بالمهادنات: « اليمين » . وهى صيغة تكتب مثقلة بألوان القسم الإسلامية إذا كان المقسم مسلما ، وبألوان القسم المسيحية ، إذا كان مسيحيا . ويحلف كل من المتهادنين على هذه الصيغة — كل فيما يناسبه — بالوفاء لمهادنه على ما عاهده عليه ، وارتضياه معا .

كما يتصل بها أيضاً «المفاسخات» وهى رسائل تكتب فى فض المهادنات وبيان أسباب ذلك .

---

١ — الرسالتان نصهما الكامل مثبت فى النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٣٦ ، ١٤٢ .

ونثبت لك هنا بياناً بألوان من هذه الرسائل ، دالين على مواضعها وموضوعاتها ذاكرين أن بعض المنشئين — كالشهاب الحلبي — كانوا يتلهون أحياناً بتمرين القريحة على إنشاء بعض هذه الرسائل ، دون أن تكون لها داعيه واقعية .

فمن الرسائل الملوكية :

١ — رسالة على لسان السلطان المؤيد شيخ المحمودى ، إلى صاحب تونس يذكر له فيها قضيته مع سلفه الملك الناصر فرج بن برقوق . وكتبها تقى الدين بن حجة الحموى منشىء الديوان فى ذلك الحين . ونصها مثبت فى كتابه المخطوط « قهوة الإنشاء » .

٢ — جواب على لسان المؤيد شيخ أيضاً إلى صاحب اليمين ردا على مكاتبته ، يذكر له مودته وكتبه ابن حجة ، ومثبت فى «قهوة الإنشاء» ، وفى خزانة الأدب ص ٤٢٦ .

٣ — رسالة ملك التتار « إيلخان » أحمد تكدار ، بفارس ، إلى السلطان المنصور قلاوون عام ٦٨١ هـ ، يخبره فيها باعتناقه الإسلام ، وبأنه خف إلى إطفاء فتنة تابعيه ضد بلاد السلطان . ويطلب إليه أن يتفقا معا على ما فيه صلاح المسلمين .

٤ — رسالة المنصور قلاوون إلى « إيلخان » السابق ذكره ، ردا على رسالته المذكورة ، يرحب بدخوله الإسلام ويوافقه على طلب الإصلاح .

وكلتا الرسالتين مثبتتان فى سلوك المقريزى ج ١ ص ٩٧٧ وما بعدها .

٥ — رسالة إلى متهم بمالأة العدو ، كتبها انشهاب الحلبى ، وهى مثبتة فى «حسن التوسل » ص ١٣٩

٦ — رسالة الناصر بن قلاوون إلى نائبه « سلار » حينما توجه الناصر إلى الكرك للاعتزال بها عام ٦٩٨ هـ . مثبتة فى النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٨٠ .

٧ - وفى ص ١٥ من كتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » لابن فضل الله العمرى . رد على مراسلة أرسلها ابن مطهر إمام الزيدية من صنعاء ، يشكو صاحب اليمن إلى السلطان الناصر بن قلاوون ، ويستعديه عليه ، وفى الرد إجابة لطلبه بتحفظ .

٨ — وفى ص ١٧ من صبح الأعشى ج ١٤ ، صورة مهادنة ، يبدو أنها من إنشاء القلقشندى مؤلف الكتاب ، كتبها على لسان ملك قوى إلى ملك ضعيف ، على أن يتقاضى منه مالا أو نحوه ، كل عام .

وفى ص ٣١ منه ، نص « مهادنة » كتبت بين الظاهر بيبرس سلطان مصر ، وبين الأسبتار أحد أمراء الصليبيين بالشام ، ومدتها عشر سنين كتبت عام ٦٦٥هـ .

وفى ص ٣٩ « مهادنة » أخرى بين بيبرس ومملكة بيروت .

وفى ص ٤٢ « مهادنة أخرى بين بيبرس وولده الملك السعيد ، وبين الفرنجة الاسبتار بقلعة لد بالشام .

وفى ص ٥١ « مهادنة » أخرى بين الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، وبين صاحب برشلونة الفرنجى

الخمس المهادنات الأخيرة ، ذكر القلقشندى فى أعقابها أنه نقلها من تذكرة « محمد بن المكرّم » أحد كتاب الإنشاء بالدولة المنصورية « قلاوون » ، المسماة « تذكر نزهة الأديب » من نسخة بخطه .

ب — العهود والمبايعات :

العهد رسالة ديوانية تصدر عن خليفة أو سلطان ، إلى من اختاره لولاية الخلافة أو السلطنة من بعده ابنا كان أو غير ابن ، أى لولاة العهد .

والمبايعة رسالة ديوانية أخرى ، تكتب للخليفة أو الملك ، عند قيامه لأول مرة

بأعباء منصبه . إقرارا له به ورضا عنه . وتصدر — عادة — إلى الملك ، على لسان خليفة عصره ، و إلى الخليفة ، على لسان سلطان زمانه .

وقد قال شهاب الدين بن فضل الله العمرى فى كتابه « التعريف » عند كلامه عن القسم الثانى من الرسائل ما نصه :

« اعلم أن هذا ينقسم إلى أقسام . فمنها : عهود ، ولا تكون إلا للخلفاء عن الخلفاء أو للملوك ، ولا تكون إلا عن الخلفاء أو الملوك . يكتب لولاة العهد عن المستقلين. فأما من قام من الخلفاء بغير عهد ممن تقدم ، فإنما يكتب له مبايعة . » .

وقال : « وأما من قام من الملوك بغير عهد من الخليفة ولا ملك متقدم ، فلم تجر العادة بكتابة مبايعة له » .

على أننا نرى أن المؤرخين خلطوا بين العهود والمبايعات والتقاليد ، ولم يتحروا الدقة تماما فى تسمية كل نوع باسمه . وسموا أحيانا أحدها باسم الآخر . وسمى السيوطى — مثلا — بعض المبايعات « تقاليد »[1]

كما أنه يبدو لنا أن صدور العهود والمبايعات ، لم يكن تقليدا ديوانيا متبعا فى كل الأحوال عند حلول مناسباتها .

والعهد والمبايعة نمط من الرسائل السلطانية ، تبدأ بالخطبة وفيها الحمد لله والثناء عليه ، والصلاة على نبيه الكريم ، و بيان جلال الخلافة ، أو عظمة السلطنة ، وما ينبغى لشاغلها من صفات كريمة ومناقب حميدة ، وأن هذه الصفات والمناقب تجمعت فى فلان — الخليفة أو الملك أو ولى العهد — فاستأهل منصبه بسببها . و يفاض عليه من آيات المدح والثناء ، بمقدار ما يستطيعه قلم منشىء الرسالة ، و بمقدار ما يتلاءم مع المفاض عليه وسطوته . و يوصى بوصايا تتفق وطبيعة منصبه ، من رعاية للعدل وحماية

---

١ — راجع حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٠

للدين ، ومن إنصاف للرعية وقطع لدابر الفساد ، إلى غير ذلك . هذه سمات العهد أو المبايعة فى جملتها .

ويوكب أحيانا لتلاوة العهد أو المبايعة ، فيقام لذلك حفل حاشد يحضره علية رجال الدولة[1] . ويكتب بخبر ذلك إلى الأقاليم لأخذ موافقتها على العهد أو المبايعة .

وإليك نماذج من هذه العهود والمبايعات :

١ — عهد أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله — الأول — العباسى ، المتوفى عام ٧٠١هـ إلى ولده أبى الربيع سليمان ، الملقب بعدُ بالمستكفى بالله — الأول ، بولاية الخلافة من بعده . وقد ولى الخلافة بناء على هذا العهد ، وبعد أن أمضاه سلطان عصره الناصر محمد بن قلاوون ، بعد استيثاقه من شيخ الإسلام حينذاك تقى الدين بن دقيق العيد القشيرى قاضى قضاة الشافعية ، بصلاح المستكفى للخلافة .

وقد قيل فى مفتتحة مُوَرى بلقب المستكفى وكنيته أبى الربيع :

« الحمد لله الذى رفع المستكفى به ، لما انتصب بشريف همته ، للمحل الأسمى ، ومنح الأمة به ربيع خفض العيش وجزم أمرهم على الصلاح والتوفيق جزما . وأدام الأئمة من قريش ، ونظم لآلىء حكم أحكامهم فى جيد الزمان نظما — وجعل الناس تبعا لهم فى هذا الأمر ، فغيرهم بالخلافة المعظمة لا يدعى ولا يسمى . » الخ

ومنه ينص على عهد الحاكم إلى ولده ، قال :

« إنه عهد إلى ولده لصلبه ، الإمام المستكفى بالله أبى الربيع سليمان . شيد الله به أركان الإيمان . ونصر ببركة سلفه العصابة المحمدية ، على أهل الكفر والطغيان وجعله ولى العهد . واستخلفه من بعده . لما علمه من أهليته وعدالته وكفالته . وصلاحه

---

١ — راجع حسن المحاضرة ج ٢ تحت عنوان « ذكر من قام بمصر من الخلفاء العباسيين وتحت » عنوان « ذكر سلاطين مصر الذين فوض إليهم خلفاء مصر العباسيون » .

لذلك وكفايته ، وشخصه لشهود هذا المكتوب الشريف . ونبه على استحقاقه لذلك ومحله العالى المنيف عهدا صحيحاً شرعياً . معتبراً تاما مرعيا . وفوض إليه أمر الخلافه المعظمة تفويضا شرعيا صريحا . وعقد له عقد ولاية العهد على الأمة عقدا صحيحا » الخ ويلى ذلك إشهاد الشهود بنفس الأسلوب والمنهج .(١)

---

٢ — وبايع السلطان المنصور أبو بكر بن الناصر محمد بن قلاوون ، عام ٧٤١ هـ ، أحمد بن الخليفة المستكفى بالله بالخلافة ، بعد أن خلع منها الخليفة الواثق ، وكتب صورة المبايعة ابن فضل الله العمرى . فقال يصف البيعة

بيعة يصلح الله بها الأمة ، ويمنح بسببها النعمة ، ويجازى الرفاق . ويسرى الهنا فى الآفاق . ويتزاحم زهر الكواكب على حوض المجرة الدفاق . بيعة سعيدة ميمونة . بها السلامة فى الدين والدنيا مضمونة . ببيعة صحيحة شرعية . بيعة ملحوظة مرعية . تسابق إليها كل نية . وتطاوع كل طوية . ويجمع عليها شتات البرية . يستهل بها العام . ويتهلل البدر التمام . بيعة متفق على الإجماع عليها . والإجماع يبسط الأيدى إليها . انعقد عليها الإجماع . فاعتقد صحتها من سمع الله وأطاع . وبذل فى تمامها كل امرىء ما استطاع . حصل عليها اتفاق الأبصار والأسماع ، ووصل بها الحق إلى مستحقه . وأقر الخصم وانقطع النزاع ، تضمنها كتاب مرقوم يشهده المقربون . وتلقاه الأئمة الأقربون . الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله »

ومنها فى مدح المبايع :

« إنه الحائز لما زرت عليه جيوب المشارق والمغارب . والفائز بملك ما بين المشارق والمغارب . الرامى فى صفيح السماء هذه الدرة المنيفة . الراقى بعد الأئمة الماضين ونعم الخليفة . المجتمع فيه شروط الإمامة . المتضع لله وهو ابن بيت لا يزال الملك فيهم إلى يوم القيامة . الذى يفضح السحاب نائله ، والذى لا يغره عاذره ، ولا يغيره عاذله .

---

١ — نص العهد والإشهاد فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٤

والذى ما ارتقى صهوة المنبر بحضرة سلطان زمان ، إلا قال ناصره وقام قائمه ولا قعد على سرير الخلافة إلا وعرف أنه ماخاب مستكفيه ولا عاب حاكمه » الخ.

ومنها فى الدعاء له :

« أيد الله ببقائه الدين . وطوق سيفه رقاب الملحدين . وكبت تحت لوائه المعتدين. وكتب له النصر إلى يوم الدين . وكب بجهاده على الأذقان طوائف المفسدين. وأعاذ به الأرض ممن لا يدين بدين . وأعاد بعدله أيام أبائه الخلفاء الراشدين والأئمة المجتهدين. الذين قضوا بالحق و به كانوا يعدلون . وعمله كانوا يعملون. ونصر أنصاره. وقدر اقتداره. وأسكن فى القلوب سكينته ووقاره . ومكن له فى الجود وجمع له أقطاره » الخ [1]

---

٣ — وقال السيوطى يذكر مبايعة الخليفة المستنصر بالله ، أول خلفاء بنى العباسى فى مصر ، للملك الظاهر بيبرس ، بالملك عام ٦٥٩ هـ ، مانصه :

« فى يوم الاثنين رابع شعبان ، ركب الخليفة والسلطان والقاضى والوزراء والأمراء وأهل الحل والعقد ، إلى خيمة عظيمة ، قد ضربت ظاهر القاهرة . فألبس الخليفة السلطان بيده خلعة سوداء ، وعمامة سوداء ، وطوقا فى عنقه من ذهب ، وقيدا من ذهب فى رجليه . وفوض إليه الأمور فى البلاد الإسلامية وما سيفتحة من بلاد الكفر ولقبه بقسيم أمير المؤمنين . وصعد فخر الدين بن لقمان رئيس الكتاب ، منبرا ، فقرأ عليه تقليد السلطان ، وهو من إنشائه » الخ .

وقد افتتحه ابن لقمان بقوله :

« الحمد لله الذى أضفى على الإسلام ملابس الشرف . وأظهر بهجة دره ، وكانت خافية بما استحكم عليها من الصدف . وشيد ماوهى من علائة ، حتى أنسى به ذكر من سلف . وقيض لنصره ملوكا اتفق عليهم من اختلف » .

وبعد الحمد والصلاة قال يذكر السلطان ومناقبه :

---

١ — المبايعة نصها الكامل فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٩

« وبعد فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره . وأحقهم أن يصبح القلم راكعا وساجدا لتسطير مناقبه وبره . من سعى فأضحى سعيه للحمد متقدما . ودعا إلى طاعته فأجاب من كان منجدا ومتهما . ومابدت يد فى المكرمات إلا كان لها زندا ومعصما . ولا استباح بسيفه حمى وغى ، إلا أضرم منه ناراً ، وأجرى منه دما .

ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالى المولوى السلطانى الملكى الظاهرى الركنى — شرفه الله وأعلاه — ذكره الديوان العزيز النبوى الإمامى المستنصرى — أعز الله سلطانه — تنويها بشريف قدره ، واعترافا بصنيعه الذى تنفد العبارة المسهبة ولاتقوم بشكره . وكيف لا ، وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان . وأذهبت ما كان لها من محاسن و إحسان ، وعتب دهرها المسىء لها فأعتب . وأرضى عنها زمنها ، وقد كان صال عليها صولة مغضب . فأعاده لها سلما بعد أن كان عليها حربا . وصرف إليها اهتمامه ، فرجع كل متضايق من أمورها واسعا رحبا . » الخ

وقال يوصيه :

« فلاحظ أمور الأمة، فقد أصبحت لهاحاملا. وخلص نفسك من التبعات اليوم ، ففى غد تكون مسئولا لا سائلا . ودع الاغترار بأمر الدنيا ، فمامال أحد منها طائلا . وما رآها أحد بعين الحق إلا رآها حائلا زائلا . فالسعيد من قطع منها آماله الموصولة . وقدم لنفسه زاد التقوى ، فتقديمه غير التقوى مردودة لامقبولة . وابسط يدك بالإحسان والعدل ، فقد أمر الله بالعدل وحث على الإحسان . وكرر ذكره فى مواضع من القرآن . وكفر به عن المرء ذنوبا كتبت عليه وآثاما . وجعل يوما واحدا منها كعبادة العابد ستين عاما . وما سلك أحد سبيل العدل إلا واجتنيت ثماره من أفنان . ورجع الأمر به بعد تداعى أركانه وهو مشيد الأركان . وتحصن من حوادث زمانه ، والسعيد من تحصن من حوادث الزمان . وكانت أيامه فى الأيام أبهى من الأعياد. وأحسن فى العيون

من الغرر فى أوجه الجياد . وأحلى من العقود إذا حلى بها عاطل الأجياد[1] » الخ

وإليك بيانا بعهود ومبايعات أخرى :

١ — عهد من الخليفة المعتضد بالله العباسى ، إلى ولده أبى عبد الله محمد « المتوكل على الله » بالخلافة . ونصه فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٥ .

٢ — مبايعة — أو تقليد — صادرة من الخليفة الحاكم بأمر الله — الأول — العباسى إلى السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحى عام ٦٧٨ هـ بالسلطنة وتفويض أمور البلاد إليه . وهى من إنشاء محيى الدين بن عبد الظاهر . ونصها فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٠ .

٣ — تجديد عهد — أو مبايعة — من الخليفة المستكفى بالله — الأول — العباسى ، إلى السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير عام ٧٠٨ هـ بولاية السلطنة . ونصه فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٢ ، وفى النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٣ — وقد قرىء هذا العهد الجديد على الناس بمنابر القاهرة — وقال أبو المحاسن : إن الناس ضجوا وصاحوا لا نريد المظفر . . .

٤ — تجديد قسم بولاية العهد للملك السعيد بن الظاهر بيبرس . كتبه القاضى فخر الدين بن لقمان . ونصه فى سلوك المقريزى ص ٩٦٩ ، ملحق رقم ٣ .

هذا . ومن العهود ما يسمى « كفالة » أو « عهدا بكفالة » . وتكون على لسان الخليفة ، إلى أحد ملوك المسلمين فى القاصية ، يوليه أمور بلاده ، ويقره على ما بيده .

---

١ — النص الكامل لهذه المبايعة فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٩ وما بعدها . وكذلك فى سلوك المقريزى ج ١ ص ٤٥٣ .

ومن أمثلتها ما أشار إليه ابن حجة الحموى فى خزانة الأدب ص ١٧ تحت باب « براعة الاستهلال » ، من أنه كتب عهداً بكفالة السلطنة ، صادرا من الخليفة المستعين بالله العباسى ، إلى السلطان العادل مظفر شاه ملك دهلى بالهند .

ج — التقاليد :

التقاليد من أهم الرسائل الديوانية . والتقليد بمثابة أمر تعيين يصدر إلى موظف من كبار موظفى الدولة . أو تسجيل لهذا الأمر ، وإيذان به ، وتحديد له . ويكتب على لسان السلطان ، بقلم صاحب ديوان الإنشاء ، أو أحد منشئى الديوان الممتازين . وهو عادة ، « منشىء ديوان الإنشاء بالممالك الإسلامية الشريفة » .

ومن الموظفين الذين تكتب لهم « التقاليد » عند اختيارهم للوظيفة : صاحب ديوان الإنشاء . قضاة القضاة . نظار الأوقاف . الوزراء . بعض نواب السلطنة ، وبعض أمراء النواحى المتملكين بها والموالين للسلطان . وكتاب السر .

ويبدو أن « التقاليد » تكتب أكثر ما كانت ، عند تعيين أحد المتعممين فى وظيفة من وظائف القضاء أو الكتابة أو ما يشابههما من عليا الوظائف .

وربما كانت «التقاليد» أكثر رسائل الديوان صدورا ، لتواتر حاجة الدولة إلى كبار الموظفين ، مع كثرة ما يتعرضون له من نقل أو عزل .

والتقاليد، شبيهة فى زماننا ، بالمراسيم أو الأوامر التى يصدرها رئيس الدولة بتعيين كبار الموظفين ، فى مناصبهم الهامة كالوزراء والسفراء ووكلاء الوزارات والمحافظين ، وشيخ الأزهر ومديرى الجامعات ، ومفتى الديار .

وإذا استثنينا مراسيم تشكيل الوزارات ، رأينا الوجازة والإشارة غالبتين على المرسيم والأوامر . وهذا ما يفرقها عن التقاليد . إذ فى « التقاليد » تفصيل وإطناب

وترادف ومبالغة وروعة تصوير ورعاية للنمط البديعي واللوازم الديوانية الكثيرة.

فى « التقليد » تفاض ألقاب التعظيم والإجلال على من يصدر إليه . وتذكر صفاته الممتازة ومؤهلاته الشخصية العلمية والخلقية مثلا ، التى من أجلها وقع اختيار السلطان عليه لشغل منصبه . ويحدد له فيه اختصاصه فى أداء عمله . ويوصى بوصايا عدة تتناسب معانيها مع ما هو بصدده من الأعمال ، ومع طبيعة وظيفته .

وهذا النسق الكتابى يتسق وروح العصر ومنطق حوادثه وسياق حياته ، إذ هو عصر تموج فيه المبالغات والتهاويل وإراعة الجماهير بادعاء العدالة وحماية الدين واختيار الأكفاء النزاه لولاية الشئون العامة . وهذه أمور تستدعى الإطناب واصطناع أدواته فى كتابة الرسائل . وإذا علمنا أن هذه «التقاليد» كان بعضها أحيانا يقرأ على الجماهير فى المساجد ونحوها ، عرفنا داعية جديدة من دواعى إطنابها .

وقد قال ابن حجة الحموى فى كتابه « خزانة الأدب » ص ٤٣٩ ما نصه :

« ومما أنشأته بالديار المصرية وحصل إجماع الأمة على أنه من الأفراد ، تقليد مولانا قاضى القضاة جلال الدين شيخ الإسلام البلقينى — نور الله ضريحه — بعد عزل الهروى . ويوم قراءته بالجامع المؤيدى أرخه المؤرخون ، وذكروا أنه لم ينفق بملك مصر يوم نظيره »

ويبدو أن ثمة سببا آخر للاطناب، هو الصلات الودية التى كانت تربط بين رجال الإنشاء ورجال القضاء أو الوزارة أو نحوهما ممن يعينون بتقاليد ، فاتخذوها فرصة طيبة للثناء عليهم واستبقاء مودتهم .

وسنشير عند الحديث عن خصائص النثر ، إلى الآداب والشروط الكتابية التى روعيت فى تدبيج التقاليد وما إليها من تواقيع ومناشير ونحوها ، مما سجله الشهاب الحلبى فى « حسن التوسل » وابن فضل الله فى « التعريف » والقلقشندى فى « صبح الأعشى » .

وقد أطلق السيوطى لفظ « التقاليد » على المبايعات والعهود عند حديثه عنهما — كما أشرنا — غير أن ابن فضل الله ، فى التعريف فرق بين « التقاليد » والعهود و « التفاويض » و « التواقيع » ، كما سنشير إليه عند الحديث عن « التواقيع » .

والآن نعرض عليك بعض نماذج التقاليد ، فمنها :

١ — كتب شهاب الدين محمود الحلبى « تقليدا » على لسان سلطانه[١] ، إلى متملك سيس[٢] ، بإقراره على ماقاطع النهر من بلاده ، ويقع هذا التقليد فى نحو ثمانين سطرا . قال فى مفتتحه :

« الحمد لله الذى خص أيامنا الزاهرة باصطناع ملوك الملل . وفضل دولتنا القاهرة بإجابة من سأل . بعض ما أحرزته لها البيض والأسل . وجعل من خصائص ملكنا إطلاق الممالك و إعطاء الدول والمنّ بالنفوس التى جعلها النصر لنا من جملة الخول . وأغرى عواطفنا بتحقيق رجاء من مدّ إلى عوارفنا كف الأمل . وأفاض بمواهب نعمائنا على من أناب إلى الطاعة ، حلل الأمن بعد الوجل . وانتزع بآلائنا لمن تمسك بولائنا أرواح رعاياه من قبضة الأجل . وجعل برد العفو عنه وعنهم بالطاعة نتيجة ما أذاقهم العصيان من حرارة الغضب ، إذ ربما صحت الأجسام بالعلل . » الخ

وقال بعد الحمد والثناء والصلاة على النبى — أى بعد انتهائه من خطبة التقليد ، يبين عظمة المملكة وقوتها :

« و بعد . فإنه لما آتانا الله ملك البسيطة . وجعل دعوتنا بأعنة ممالك الأقطار محيطة . ومكن لنا فى الأرض . وأنهضنا من الجهاد فى سبيله بالسنة والفرض . وجعل كل يوم تُعرض فيه جيوشنا من أمثلة يوم العرض . وأظفرتنا بوادر الفتوح . وأطلت

---

١ — لعل هذا السلطان هو الناصر بن قلاوون ٢ — متملك سيس يزعم أنه من البيت القسطنطينى . ومن ملك منهم سمى « التكفور » . وقد تشكك ابن فضل الله فى نسبتهم إلى هذا البيت ويقول إن جدهم لأكبر كان رئيس النصارى بهذه البلاد — راجع التعريف لابن فضل الله ص ٥٥

على الأعداء سيوفنا التي هي على من كفر بالله وكفر بالنعمة دعوة نوح . وأيدنا بالملائكة والروح، على من جعل الواحد سبحانه ثلاثة ، فانتصر بالأب والابن والروح. وألقت إلينا ملوك الأقطار السلم . وبذلت كرائم بلادها وتلادها . رغبة في الالتجاء من عفونا إلى ظل أعلى من علم . وتوصل من كان منهم يظهر الغلظة ، بالذلة والخضوع . وتوصل من كان منهم يبدي القوة بالإخلاص الذي رأوه لهم أقوى الجنن وأوقى الدروع. عاهدنا الله تعالى ألا نرد منهم آملا . ولا نصد عن مشارع كرمنا ناهلا . ولا نخيب من إحساننا راجيا . ولا نخلي عن ظل برنا لاجيا . علما أن ذلك شكر للقدرة التي جعلها لنا الله على ذلك الآمل. ووثوقاً بأنه حيث كان ، في قبضتنا ، متى ما نشاء نجمع عليه الأنامل » الخ .

ومنه يبين أسباب لجوء ملك سيس إلى إظهار الولاء للسلطان ، وطلب إقراره له على ما بيده ، وإجابته إلى طلبه :

« ولما . . . وكان الملك ممن يريد طرق النجاة ، فلم ير إليها بسوى الطاعة سبيلا . ويأمل أسباب النجاح ، فلم يجد عليها غير صدق الانتحاء دليلا . فأبصر بالخدمة موضع رشده . وأدرك بسعيه نافر سعده . وأراه الإقبال كيف تثبت قدمه في الملك الذي زلت عنه قدم من سلف . وأظهر له الإشفاق على رعاياه ، مصارعُ من أورده سوء تدبير أخيه موارد التلف . وعرفه التمسك بإحساننا كيف احتوت يده على مالم يبق العصيان في يد أخيه منه إلا الأسى والأسف . وحسنت له الثقة بكرمنا ، كيف يجمل الطلب. وأعلمته الطاعة كيف تستنزل عوارفنا عن بعض ما غلبت عليه سيوفنا ، وإنما الدينا لمن غلب . وانتمى إلينا فصار من خدم أيامنا وصنائع نعمائنا ، وقطع علائقه عن نميرنا فلجأ منا إلى ركن شديد . وظل مديد . ونصر عتيد . وحرم يؤوى آمله إليه . وكرم تقر نضارته ناظريه . وإحسان يمتعه بما أقره عطاؤنا في يديه . وامتنان يضع عنه إصره والأغلال التي كانت عليه . . اقتضى إحساننا أن يُقضى له عن بعض ما حلت جيوشنا

ذراه . وحلت سطوات عساكرنا عراه . وأضعفت عزمات سرايانا قواه . ونشرت طلائع جنودنا ما كان ستره صفحنا عنهم من عورات بلادهم وطواه » الخ[1]

---

٢ — وكتب محيي الدين بن عبد الظاهر ، على لسان السلطان الملك السعيد بن بيبرس ، فى نحو عام ٦٧٦ هـ تقليدا صادرا إلى بهاء الدين بن حنا « وهو الصاحب على ابن سديد الدين محمد » ، بالوزارة . وقد كان وزيرا من قبل لأبيه بيبرس ، فثبته فى وزارته — قال الكاتب فى خطبة هذا التقليد :

« الحمد لله الذى وهب هذه الدولة القاهرة من لدنه وليا . وجعل مكان سرها وشد أزرها عليا . ورضى لها من لم يزل عند ربه مرضيا . نحمده على نعمه التى أمسى بنا برها حفيا . ونشكره على أن جعل دولتنا جنة أورث تدبيرها من عباده من كان تقيا » الخ .

وقال يذكر فضل الصاحب بهاء الدين على الدولة ، ويشيد بصفاته ومزاياه وشخصيته :

« كم لها فى الوجود من كرم وكرامة . وفى الوجوه من وسوم ووسامة . كم أحيت مهجا . وكم جعلت للدولة من أمرها مخرجا . وكم وسعت أملا وكم تركت صدر الخزائن ضيقا حرجا . وكم استخدمت جيش تهجد فى بطن الليل ، وجيش جهاد على ظهور الخيل . وكم أنفقت فى واقف فى قلب بين الصفوف والحروب . وفى واقف فى صفوف المساجد من أصحاب القلوب . كم سبيل يسرت . وسعود كسرت . وكم مخاوف أدبرت حين دبرت . وكم آثار فى البلاد والعباد أبرت وأثرت . وكم وافت ووفت . وكم كفت وكفت . وكم أعفت وعفت وعفّت . وكم بها موازين للأولياء ثقلت ، وموازين للأعداء خفّت .

---

١ — التقليد نصه الكامل فى (حسن التوسل) للشهاب الحلبى ص ١٥٧

وكم أجرت من وقوف . وكم عرفت بمعروف . وكم بيوت عبادة ، صاحب هذه البركات هو محرابها . وسماء جود هو سحابها . ومدينة علم هو بابها » الخ

ومنها يصرح باسمه ، ويضفى عليه ألقابا مدحاله وتعظيما لشأنه :

« وإذا كان لابد للمادح أن يجول . وللقلم أنه يقول . فتلك بركات المجلس العالى الوالدى الصاحبى الوزيرى السيدى الورعى الزاهدى العابدى الذخرى الكفيلى الممهدى المشيدى العونى القوامى النظامى الأفضلى الأشرفى العاملى العادلى البهائى . سيد الوزراء والأصحاب فى العالمين . كهف العابدين . ملجأ الصالحين . شرف الأولياء المتقين . مدبر الدول . سداد الثغور . صلاح الممالك . قدوة الملوك والسلاطين . يمين أمير المؤمنين . على بن محمد . أدام الله إجلاله . من تشرف الأقاليم بحياطة قلمه المبارك والتقاليد بتجديد تنفيذه الذى لا يساهم فيه ولا يشارك . » .

ومنها ينوه باختصاصه وعمله :

« خرج الأمر العالى . لا برح يكسب ببهاء الدين المحمدى أتم الأنوار . ولا برحت مراسمه تزهو من قلم منفذه بذى الفقر وذى الفقار . أن يضمّن هذا التقليد الشريف بالوزارة التامة العامة الشاملة الكاملة الشريفة الصاحبية البهائية أحسن التضمين . وأن ينشر منها ما يتلقى روايته كل رب سيف وقلم باليمين . وأن يعلم كافة الناس ومن يضمه طاعة هذه الدولة وملكها ، من ملك وأمير . وكل مدينة ذات منبر وسرير . وكل من جمعته الأقاليم من نواب سلطنة . وذوى طاعة مذعنة . وأصحاب عقد وحل وظعن وحل وذوى جنود وحشود . ورافعى أعلام وبنود . وكل راع ورعية . وكل من ينظر فى الأمور الشرعية . وكل صاحب علم وتدريس . وتهليل وتقديس . وكل من يدخل فى حكم هذه الدولة العالية من شموسها المضيئة وبدورها المنيرة ونجومها المشرقة وشهبها الثاقبة . فى الممالك المصرية والنوبية والساحلية والتركية والشوبكية والشامية والحلبية ، وما تداخل بين ذلك من ثغور وحصون وممالك .

إن القلم المبارك الصاحبى البهائى فى جميع هذه الممالك مبسوط . وأمر تدبيرها به منوط . وعناية شفقته لها تحوط . وله النظر فى أحوالها وأموالها . وإليه أمر قوانينها ودواوينها وكتابها وحسابها . ومراتبها ورواتبها . وتصريفها ومصروفها . وإليه التولية والصرف . وإليه تقدمة البدل والنعت والتوكيد والعطف .» الخ.[1]

وهاك بعض التقاليد ومواضعها :

١ — تقليد صادر إلى جلال الدين البلقينى بمنصب قاضى قضاة الشافعية . بقلم ابن حجة الحموى ، وقرىء بجامع المؤيد . وذلك فى عهد المؤيد شيخ . ونصه فى خزانة الأدب ص ٤٢٩ .

٢ — تقليد صادر إلى ناصر الدين بن البارزى بصحابة ديوان الإنشاء بالقاهرة فى عهد المؤيد شيخ . وكتبه ابن حجة الحموى . ونصه فى قهوة الإنشاء . وجزء منه فى « خزانة الأدب » ص ١٧ ، ٤٢٥ .

٣ — تقليد صادر إلى كمال الدين بن البارزى بصحابة ديوان الإنشاء بالقاهرة . كتبه ابن حجة أيضا . ومنه سطور فى خزانة الأدب ص ٤٢٥ .

٤ — تقليد صادر إلى «سلامس» بمملكة الروم بإقراره على ما بيده . كتبه الحلبى . ونصه فى كتابه « حسن التوسل » ص ١٦٠ .

٥ — وفى كتاب «قهوة الإنشاء» لابن حجة ، جملة من التقاليد من أنشائه .

د — التواقيع والمناشير والمراسيم

كان للتوقيع معنى خاص فى عصر بنى العباس . وهو الكلمة الوجيزة التى يوقع بها الخليفة أو وزيره مثلا على حواشى ما يرفع إليه من قصص ومظالم ونحوها . ويغلب

---

١ — التقليد نصه الكامل فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٨ تحت عنوان (ذكر وزراء مصر)

عليها الإيجاز واجتماع المعانى وحسن الرونق والسهولة مع سمة البلاغة .

وفى عصر المماليك بقيت بقية من هذا المعنى للتوقيع . فقد أطلق لفظ «الموقعين» على كتاب الدست الشريف ، وذلك لأنهم « يوقعون » على حواشى القصص ونحوها فى مجلس السلطان . ومعنى « توقيعهم » كتاب كلمة تتضمن ما ارتآه السلطان بخصوصها ، ريثما يعودون و إلى ديوانهم لتحرير ما ينبغى لذلك من المكاتبات .

غير أن « التوقيع » فى عصر المماليك أيضا أطلق على أحد ضروب الرسائل والمكاتبات الديوانية ، كان ضربا من التقاليد . وكذلك المراسيم والمناشير . والفرق بينها جميعا ، على ما ذكره ابن فضل الله فى « التعريف » : أن « التقاليد تكتب لكبار الموظفين عند تعيينهم فى مناصبهم ، والتواقيع » للأصغر منهم البالغين شأوهم . والمراسيم هى ما يكتب فى صغائر الأمور التى لا تتعلق بولاية . وأما المناشير فهى ما يكتب للامراء والجند بما يجرى فى أرزاقهم من ديوان الإقطاع . ويكون أخصر خاليا من الوصايا .

ويحسن بنا فى هذا المقام أن ننقل كلام ابن فضل الله العمرى فى كتابه «التعريف» عن هذه المكاتبات الديوانية .

قال عن التقاليد : « ومنها التقاليد . ولا تكون إلا لكفلاء الملك كأكابر النواب والوزراء ومن كان فى معناهما . وقد يكون لأكابر قضاة القضاة ، فالواجب ألا يسمى ما يكتب لهم إلا تفاويض . فأما جمهور من عانى الكتابة فى زماننا وما قاربه فعلى تسميته تواقيع » .

وقال عن التواقيع : « تواقيع » ، وهى لعامة أرباب الوظائف جليلها وحقيرها وكبيرها وصغيرها ، حتى النواب اللاحقين بشأو الكبار فمن دونهم . »

وقد عقب على ذلك بقوله : « وعندى فى هذا نظر . والذى أرى أن يكون لمن

لحق بشأو الكبار منهم : تفاويض وللصغار مراسيم ولأدنى الطبقات منهم تواقيع لميزة السيوف على الأقلام . » الخ

وهو بذلك يقنن للديوان .

وقال عن المراسيم : « وهى ما يكتب فى صغائر الأمور التى لا تتعلق بولاية »

وقال عن المناشير : « وأما المناشير فهى ما يكتب للأمراء والجند بما يجرى فى أرزاقهم من ديوان الإقطاع . وشأنه شأن ماتقدم ، إلا أن المناشير أخصر ولا وصايا فيها ولا إطناب فى مقاصد للكاتب يستوفيها »[1] .

وجميعها - كما فهم — أوامر تعيين وإنما تختلف تسميتها باختلاف مناصب المعينين . كما تختلف طولا وقصرا بحسبها كذلك . وتحتوى كل منها — فى جملتها — على الخطبة وذكر صفات الموظف وعبارات مدحه ، وتوصية مناسبة ، وتحديد لاختصاصه وهناك ضروب من الاختلاف فى آداب كتابة كل منها ، ولوازمه . سنعود إليها عند الحديث عن خصائص النثر .

وعلى ضوء ما استقرأناه من نماذج التواقيع ، نرى أنها لبثت بعد ابن فضل الله تستخدم فيما كانت تستخدم فيه فى زمانه . ومثل ذلك تعيين عامة القضاة فى الأقاليم ،

---

١ — راجع التعريف بالمصطلح الشريف ص٨٤ و ٨٥ و ٨٨ — وقال فى صبح الأعشى ج ١٣ ص ٥٣ ، وما بعدها ما مؤداه أن (المثال) مكاتبة رسمية تخرج من ديوان الجيش إيذانا باعطاء أحد المماليك إقطاعا من الإقطاعات الخالية . فاذا وافق عليه السلطان أرسله ناظر ديوان الجيش إلى (ديوان النظر) لتسجيله وكتابة (مربعة) بدلا عنه فيها اسم المقطع ورتبته وما يتصل به من بيانات وترسل (المربعة) إلى ديوان الانشاء ليكتب بها (منشور) والمنشور هو آخر أدوار تلك العملية .

ومنشىء الدواوين والموقعين بها ، وكتاب السر فى غير القاهرة ، ورئيس الأطباء ، ونحو ذلك .

وإليك الآن توقيعا أنشاه تقى الدين بن حجة الحموى ، باستقرار « زين الدين عبد الرحمن بن الخراط » فى كتابة السر بثغر طرابلس . وذلك حينما كان ابن حجة منشىء ديوان الإنشاء بالقاهرة على عهد المؤيد شيخ المحمودى وقد راعى فى إنشائه . التوجيه بمصطلحات البديع ، لصلتها بالكتابة وهى صناعة الموظف الذى صدر إليه التوقيع . فهناك للتوجيه بها مناسبة ، قال منه :

« وبعد . فمهل إنعامنا الشريف قد حلينا لأهل الأدب مورده . لتصير عقود إنشائنا بجواهر منثوره منضدة . وتطلع كل براعة باستهلالها فى أشرف المطالع . وتسكن النزاهة طباق البديع للمقابلة فيتنزه الناظر والسامع : ويقوم الاستخدام بما يجب عليه من واجب الخدمة . ويزيل الاقتباس بنوره عن أهلته كل ظلمة . وتجول خيول الاستطراد فى رد العجز على صدره . ويحصل لأهل الأدب فى زماننا تمكين فيظهر الافتنان فى نظمه ونثره . ويصير لفقه المذهب الكلامى فى أيامنا الشريفة ترشيح ومماثلة ومناسبة . ويبرز فى توشيح التسليم من غير اعتراض مناقضة وموار بة . ويجنح العصيان إلى الدخول تحت الطاعة . ويسمع القول بموجبه من غير مراجعة فى كل براعة . ويزول التجاهل بالعارف . ويصير التسجيع والموار بة عند إيجازه بالمواقف .

وكان المجلس العالى القضائى عبد الرحمن بن الخراط الشافعى ممن حُسنُ بيانه إيضاح ، وللسر عنده حسن إيداع . وللأدب إليه التفات لأنه بجواهر ترصيعه يشنف الأسماع . وهو الفاضل الذى إذا نظم أزال بسهولة نظمه الإبهام والتوهيم . وإذا نثر عقود الإنشاء فلا فرق بين عبد الرحمن وعبد الرحيم . يحسن فى المطالعة والأمثلة طيهُ

ونشره . وهو من الشعراء فيما يبعد من القصص إذا علا فى تفسيره أمره .

فلذلك رسم بالأمر الشريف . لا زالت براعة المطلب منظومة فى بديع زمانه بإنعامه . ولا برحت أبوابه الشريفة فى تصريع وتشريع لوفود أهل الأدب فى أيامه. أن يستقر لأنه ممن يحسن به التحبير ، ويحصل به الاكتفاء والتشميم. ويجمع من نظمه ونثره بين التحميس والترسل فيحسن الجمع بهذا التقسيم .

فليباشر ذلك ، ويجعل الاستعانة بالله ليأمن التنكيت والتعليل . ويصير لشقة الإنشاء بعد النفس تسهيم وتكميل - ويظهر لبرد الكلام بحسن تفصيله تفويف وتوشيع . ولأصول التهذيب والتأديب مبالغة وتفريع .

والوصايا كثيرة لا تخفى على الأديب الفاضل : الاحتراس والفرق بين المستوى والمقلوب . وبه يحصل الفتق فى جميع الفرائد وتظهر براعة التخلص فى عنوان كل مطلوب . لأنه الفاضل إن سكن ثغرا لم يفته شذب التورية بحسن نظامه . أو جاور بحرا فهو أديب ، والبحور فى تصريف أوامره فى نقضه وإبرامه .

والله تعالى يجعل نظم هذا الثغر بحسن أدبه فى بلاغة وانسجام . وكما أحسن له الابتداء يعضده بديع السموات والأرض بحسن الختام . »[1]

وإليك تواقيع أخرى :

١ — توقيع لابن حجة ، ينقل ابن الآدمى من الحسبة إلى قضاء الحنفية ببعض الجهات — نصه فى قهوة الانشاء .

٢ — توقيع لابن حجه بتعيين المقرأبى بكر الحنفى فى إفتاء دار العدل . ونصه فى قهوة الإنشاء .

---

١ — التوقيع نصه الكامل فى خزانة الأدب لابن حجة ص ١٤٣ تحت باب (التوجيه) .

٣ — توقيع لابن حجة بتعيين رئيس أطباء مصر . نوه به فى خزانة الأدب ص ١٧٠

٤ — توقيع للصلاح الصفدى . ضمن مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٧٠٧ آداب عربية .

---

٥ — البشارات

البشارات من أطرف رسائل الديوان . لما يتاح فيها للمنشىء من ألوان الوصف والمبالغة . وكأنه فيها حر الزمام طليق الخطام يسرح ويمرح كما لذ لقلمه وطاب . وموضوعات البشارات تعين بطبيعتها ، على هذا السرح والمرح . وتزين للكاتب الخيال من جمال التصور ، وما راق الخاطر من حسن التصوير ، وما سال على أسلة القلم من روعة التعبير . فما أشبه تلك الرسائل برسائل الوصف ومقالاته .

وكانوا يكتبونها فى مناسبات كثيرة . منها : تحرك ركب السلطان عن الديار المصرية ، أو عودته إليها . فيضمنون الرسالة حينذاك وصف هذا الرحيل ومراحله ، وما كان فى طريقه من ترحاب أو ولاء وخدمة ومعونة ، قدمها الحكام والأهلون . ويذكرون ما صادفه من وقائع وحوادث ، وما تخلله من تصرفات سلطانية كمنح أو منع أو عفو أو عقوبة أو رضا أو سخط ، أو هدية أو نحو ذلك . يرسلونها إلى البلاد يبشرونها بذلك وبسلامة السلطان وركبه .

ويكتبونها عندما يهب السلطان بجنوده وأمرائه إلى ديار الشام مثلا ، غازيا مجاهدا فى سبيل الله وفى سبيل بلاده . فيضمنونها أخبار الغزو وما يتصل به من حصار وسلاح وخيل . ويبشرون البلاد بجهاد سلطانها وانتصاره المبين فى سبيل الدين . ويشيدون بشجاعته وبراعته وإقدام جنده وأمرائه ، ويكيلون للأعداء الذم والقدح ،

ويصبون على رءوسهم جام الغضب والسخط . وينعتونهم بكل زرية ورذيلة . ويفيضون فى وصف مفاسدهم وجرائمهم ، إلى غير ذلك .

ويكتبونها عند فيضان النيل ووفائه وكسر خليجه فيفيضون فى وصف بركاته ويمنه ، وطيب أيامه وزمانه . وما تفيده البلاد من مائه من خصب وينع ، ونبات وزرع . ويصفون مجراه وماءه ووفاءه ، وشواطئه وآثاره ومناظره ، والاحتفال بوفائه إلى غير ذلك .

ويكتبونها عند ولادة مولود للسلطان يهنئون البلاد بولادته .

وهكذا فى مثل هذه المناسبات تكتب البشارات . ويتولى كتابتها أحد منشئى الديوان .

ولم تكن البشارات مقصورة على تلاوتها للجماهير فى داخل البلاد . بل كثيرا ما كانت ترسل البشارات بأنباء الفتوح إلى الموالين من حكام البلاد النائية كاليمن مثلا . أو المعادين من الملوك المحاربين نكاية بهم وتهكما وتهديدا .

وربما اتخذت البشارات سبيلا ومثار للمعاوضات . ومن ذلك ما حكاه تقى الدين ابن حجة الحموى فى كتابة « خزانة الأدب » قال :

« رُسم لى فى الأيام الشريفة المؤيدية سنة تسع عشرة وثمانمائة ، أن أنشىء رسالة بوفاء النيل المبارك ، لم أسبق إليها . ولا حام طائر فكر عليها . وأحضر مولانا المعز الأشرف القاضوى الناصر محمد بن البارزى الجهنى الشافعى صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية — تغمده الله بالرحمة والرضوان — قطعة من إنشاء القاضى الفاضل بوفاء النيل . وقرئت على المسامع الشريفة المؤيدية . وحذرت من التعرض إلى شىء من ألفاظها ومعانيها . فأنشأت رسالة ، حكم لأبى بكر

بها على كل فاضل بالتقديم . وإن كان لسان القلم قد طال ، فأنا أقطعه هنا تأدباً مع عبد الرحيم » .

ثم أورد القطعتين .[1]

---

١ — وإليك سطورا من بشارة ابن حجة ، :

« ونبدى لعلمه ظهور آية النيل المبارك الذى عاملنا الله فيه بالحسنى وزيادة . وأجراه لنا فى طرق الوفاء على أجمل عادة. وخلق أصابعه ليزيل الإبهام ، فأعلن المسلمون بالشهادة . وكسر بمسرى ، فأصبح كل قلب بهذا الكسر مجبورا . وأتبعناه بنوروز وبابرح هذا الاسم بالسعد المؤيدى مخسورا . ودق قفا السودان فالراية البيضاء من كل قلع عليه . وقبل ثغور الإسلام وأرشفها ريقه الحلو فمالت بأعطاف غصونها إليه . وشبب خريره فى الصعيد بالقصب. ومد سبائكه الذهبية إلى جزيرة الذهب. فضرب الناصرية واتصل بأم دينار. وقلنا إنه صبغ بقوة ، لما جاء وعليه الاحمرار . وأطال الله عمر زيادته ، فتردد الناس على الآثار . وعمته البركة فأجرى سواقى مكة إلى أن غدت جنة تجرى من تحتها الأنهار . وحضن مشتهى الروضة فى صدره ، وحنا عليه حنو المرضعات على الفطيم .

وأرشفه على ظمأ زلالا ألذ من المدامة للنديم

وراق مديد بحره لما انتظمت عليه تلك الأبيات . وسقى الأرض سلافته الخمرية فخدمته بحلو النبات . وأدخله إلى جنات النخيل والأعناب فالق النوى والحب. فأرضع جنين النبت وأحيا لها أمهات العصف والآب . وصافحته كفوف اللوز فختمتها بخواتيمه العقيقية . ولبس الورد تشريفة وقال : أرجو أن تكون شوكتى فى أيامه قوية. ونسى الزهرى بحلاوة لقائه مرارة النوى . وهامت به الشعراء فأرخت ضفائر فروعها عليه من

---

١ — راجع خزانة الأدب لابن حجة ص ٤٣١ فى سياق باب السجع .

شدة الهوا . واستوفت الأشجار ما كان لها فى ذمة الرى من الديون . ومازج الحوامض فهام الناس بالسكر والليمون » . الخ[1]

---

٢ — وكتب القاضى تاج الدين بن الأثير بشارة إلى صاحب اليمن ، بأمر الملك المنصور قلاوون عام ٦٧٨ هـ ، يعرفه بانتصاره وفتح طرابلس ، جاء فى أوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أعزالله نصر المقام العالى السلطانى الملكى المظفرى الشمسى . » ومنها :

« وكانت الخلفاء والملوك فى ذلك الوقت ، ما فيهم إلا من هو مشغول بنفسه . مكب على مجلس أنسه . يرى السلامة غنيمة . وإذا عنّ له وصف الحرب لم يسأل منها إلا عن طرق الهزيمة . قد بلغ أمله من الرتبة . وقنع من ملكه — كما يقال — بالسكة والخطبة . أموال تنهب . وممالك تذهب . لا يبالون بما سلبوا . وهم كما قيل :

إن قاتلوا قتلوا أوطاردوا طُردوا أو حاربوا حُرِبوا أو غالبوا غُلبوا

إلى أن أوجد الله من نصر دينه وأذل الكفر وشياطينه » .[2]

وكتب القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، عن السلطان ، إلى نائب السلطنة بحلب . بشارة بوفاء النيل ، قال فيها :

« أعز الله أنصار المقر وسره بكل مبهجة . وهنأه بكل مقدمة سرور تفد ، وللخصب والبركة منتجة . وبكل نعمى لا تصبح لمنة السحاب محوجة . وبكل رحمى لا يستعد لأيامها الباردة ولا لياليها المثلجة .

---

١ — البشارة نصها الكامل فى خزانة الأدب ص ٤٢١ باب السجع . وفى ثمرات الأوراق . وفى تأهيل الغريب . وحسن المحاضرة ج ٢ ص ٢١٩ .

٢ — هذه السطور هى كل ماوجدناه من البشارة المذكورة . راجع النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

هذه المكاتبة تفهمه أن نعم الله و إن كانت متعددة . ومنحه و إن غدت بالبركات متر ددة . ومنته و إن أصبحت إلى القلوب متو ددة . فإن أشملها وأكملها ، وأجملها وأفضلها ، وأجزلها وأنهلها . وأتمها وأعمها . وأضمها وألمها . نعمة أجزأت المن والمنح . وأنزلت فى أبرك سفح المقطم أغز ر سفح . وأتت بما يعجب الزراع . ويعجل الهراع . ويعجز البرق اللماع . ويفل القطاع . ويغل الإقطاع . وتنبعث أفواهه وأفواجه . ويمد خطاها أمواهه وأمواجه ، ويسبق وفد الريح من حيث ينبرى ، ويغبط مريخه الأحمر القمر ، لأن بيته السرطان ، كما يغبط الحوت ، لأنه بيت المشترى . ويأتى عجبه فى الغد بأكثر من اليوم . وفى اليوم بأكثر من الأمس . ويركب الطريق مجدا ، فإن ظهر بوجهه حمرة ، فهى ما يعرض للمسافر من حر الشمس . ولو لم تكن شقته طويلة لما قيست بالذراع . ولولا أن مقياسه أشرف البقاع . لما اعتبر ما تأخر من ماء حوله الماضى بقاع . بينا يكون فى الباب إذا هو فى الطاق ، وبينا يكون فى الاحتراق ، إذا هو فى الاختراق للإغراق . وبينا يكون فى المجارى ، إذا هو فى السوارى . وبينا يكون فى الجباب إذا هو فى الحبال . وبينا يقال لزيادته : هذه الأموه ، إذا يقال لدلالته : هذه الأموال . الخ [1]

---

٤ — وأرسلت بشارة إلى قاضى القضاة بدمشق « شهاب الدين الخوبى » ، على لسان السلطان الأشرف خليل بن قلاوون . حينما تم له فتح قلعة الروم عام ٦٩١ هـ . قيل فى مستهلها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أخوه خليل بن قلاوون .

صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامى القاضى الأجل . الكبير الإمام العالم الفاضل الأثير الأكمل . الأوحد الرئيس الزاهد شهاب الدين . جمال الإسلام فخر الأنام

---

١ — نصها فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢١٦

شرف العلماء جلال الرؤساء . فخر الأكابر شمس الشريعة صفوة الملوك والسلاطين . خصه اللهُ بأنواع التهانى . وأتحفه بالمسرات التى تعوذ بالسبع المثانى . وأورد على سمعه من بشائر نصرنا وظفرنا ما يستوعب فى وصفه ومدحه الألفاظ والمعانى . » .

ومنها يصف مشاق المسير إلى القلعة المذكورة . ويذكر فتحها :

« مازلنا نصل السرى بالسير . ونرسل الأعنة إلى نحوها فتمد الجياد أعناقها إليها مدا ينقطع بين قوتها وقوته السير . واستقبلنا من جبالها كل صعب المرتقى . وعر المنتقى . شاهق لايلتقى به مسلك ولايلتفى . فما زالت العزائم الشريفة تسهل حزونه . والشكائم تفجر بوقع السنابك على حجارتها عيونه . والجياد المطهمة ترتقى مع امتطاء متونها بدروع الحديد متونه . فلما أشرف عليها منا أشرف سلطان، جعل جبلها دكا . وحاصرناها حصارا ألحقها بعكا وأخواتها ، وإن كانت أحصن من عكا . ونصبنا عليها عدة مجانيق تنقض حجارتها انقضاض النسور . وتقبض الأرواح من الأجسام وإن ضرب بينها وبينهم بسور . وتفترس أبراجها بصقورر صخور . افتراس الأسد الهصور .

هذا والنقوب تسرى فى بدنانها سريان الخيال . وإن كانت جفونها المسهدة وعمدها الممدة . وحفظتها المجندة . ورواسبها على جبل الفرات موطدة . وقد خندقوا عليها خندقا جرت فيه الفرات من جانب . ونهر مرزبان من جانب . ووضعها واضعها على رأس جبل يزاحم الجوزاء بالمناكب . وسفح صرحها الممرد ، فكأنه عرش لها على الماء . وإذا رمقها طرف رائيها اشتبهت عليه بأنجم السماء » الخ[1]

ومن البشارات :

١ — بشارة بقلم ابن حجة الحموى بحلول ركب المؤيد بالديار المصرية عام ٨١٧هـ نصها فى قهوة الإنشاء .

---

١ — نصها فى سلوك المقريزى ج ١ ص ١٠٠٥ ملحق رقم ١١ ، ولم يذكر منشئها .

٢ — بشارة بقلم ابن حجة الحموى بحلول ركب المؤيد شيخ بالديار المصرية عام ٨١٨ هـ نصها فى قهوة الإنشاء.

٣ — بشارة بقلم ابن حجة الحموى بحلول ركب المؤيد شيخ بالديار المصرية عام ٨٢٠ نصها فى قهوة الإنشاء.

٤ — بشارة بقلم صلاح الدين الصفدى بوفاء النيل . نصها فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢١٧.

٥ — بشارة بقلم شرف الدين القدسى عن الأمير علم الدين الشجاعى نائب السلطنة بدمشق، إلى قاضى قضاتها شهاب الدين الخوبى بفتح الأشرف خليل لقلعة الروم عام ٦٩١ هـ غير البشارة التى سبقت إليها الإشارة — ونصها فى سلوك المقريزى ج ١ ص ١٠٠٧ ملحق رقم ١١.

و — الصداق

الصداق خطبة أو رسالة ومكاتبة، تسطر بمناسبة زواج . ويبدو أنها تتلى فى حفلة العقد.

وقد قال القلقشندى : « قد جرت العادة أنه إذا تزوج سلطان أو ولده أو بنته أو أحد من الأمراء الأكابر وأعيان الدولة، أن تكتب له خطبة صداق تكون فى الطول والقصر بحسب صاحب العقد . فتطال للملوك ، وتقصر لمن دونهم بحسب الحال ».[1]

والصداق غير خطبة الإملاك. ويفهم من كلام القلقشندى أنه نوعان : رسمى : يكتبه أحد منشئى الديوان حين زواج السلطان أو ولده أو بنته . وهذا ضرب من المكاتبات

---

١ — صبح الأعشى ١٤ ص ٣٠٠

الديوانية. وغير رسمي : ويكتبه أحد المنشئين حينما يتزوج أمير أو كبير ، تشبها بالسلطان . ونعتبر هذا ملحقا بالأول .

وتتضمن رسالة الصداق : الحمد لله على توفيقه . والحديث عن الزواج والصهر والنسل . وما يتصل بذلك ، أو نحوه ، ويزود بالآمال والأمانى ، ويعطر بمدائح تضفى على الزوج والزوجة ووالدها . ويذكر فى أعقابه اسم العاقد وولى الزوجة . ثم سطور مستقلة فى صيغة الصداق مستهلة بالبسملة ، وتبرز فيها كلمة « أصدقها » أو « هذا ما أصدق » أو نحوهما .

وهذه سطور من صداق كتبه محيى الدين بن عبد الظاهر ، عند زواج الملك السعيد بركة بن الظاهر بيبرس ، ببنت أتابكيه الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى — قبل سلطنة قلاوون — وكان ذلك بالقلعة ، قال فى أوله :

« الحمد لله موفق الآمال لأسعد حركة . ومصدق الفأل لمن جعل عنده أعظم بركة . ومحقق الإقبال لمن أصبح نسيبه سلطانه وصهره ملكه . الذى جعل للأولياء من لدنه سلطانا نصيرا . وميز أقدارهم باصطفاء تأهله حتى حازوا نعيما وملكا كبيرا . وأفرد فخارهم بقريبه حتى أفاد شمس آمالهم ضياء وزاد قمرها نورا . وشرف به وصلتهم حتى أصبح فضل الله عليه بها عظيما وإنعامه كثيرا . مهيىء أسباب التوفيق العاجلة والآجلة وجاعل ربوع كل إملاك من الأملاك بالشموس والبدور والأهلة آهلة . جامع أطراف الفخار لذوى الإيثار حتى حصلت لهم النعمة الشاملة . وحلت عندهم البركة الكاملة » الخ .

ومنها يعلل لهذا الاتصال :

« فلو كان اتصال كل شىء بحسب المتصل به فى تفضيله . لما استصلح البدر شيئا من المنازل لنزوله . ولا الغيث شيئا من الرياض لهطوله ولا الذكر الحكيم لسانا من

الألسنة لترتيله . ولا الجوهر الثمين شيئا من التيجان لحلوله . ولكن ليتشرف بيت يحل به القمر . ونبت يزوره المطر . ولسان يتعوذ بالآيات والسور . ونثار يتجمل باللآلىء والدرر . ولذلك تجملت برسول الله ﷺ أصهاره وأصحابه . وتشرفت أنسابهم بأنسابه . وتزوج ﷺ منهم . وتمت لهم مزية الفخار ، حتى رضوا عن الله ورضى عنهم » .

ومنها يصف العروس ويمدحها :

« فخطب إليه أسعد البرية . وأمنع من تحميها السيوف المشرفية . وأعز من تُسبل عليها ستورُ الصون الخفية . وتضرب دونها خدور الجلال الرضية . وتتجمل بنعوتها العقود ، وكيف لا؟ وهى الدرة الألفية . فقال والدها وهو الأمير المذكور : هكذا تُرفع الأقدار وتزان . وكذا يكون قران السعد وسعد القران . وما أسعد روضا أصبحت هذه المراحم الشريفة السلطانية له خميلة ، وأشرف سيفا غدت منطقة بروج سمائها له حميلة . وما أعظمها معجزة آتت الأولياء من لدنها سلطانا ، وزادتهم مع إيمانهم إيمانا . وما أفخرها صهارة يقول التوفيق لإبرامها : ليت ! وأشرفها عبودية كرّمت سلمانها بأن جعلته من أهل البيت . » الخ

ومنه فى الخاتمة نص صريح بالصداق ، قال :

« وإذا قد حصلت الاستخارة فى رفع قدر المملوك . خصصته بهذه المزية التى تقاصرت عنها آمال أكابر الملوك . فالأمر للملك البسيطة فى رفع درجات عبده كيف يشاء . والتصدق بما يتفوه به هذا الإنشاء . وهو :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب مبارك تحاسدت رماح الخط وأقلام الخط على تحريره . وتنافست مطالع النوار ومشارق الأنوار على نظم سطوره . فأضاء نوره بالجلالة وأشرق . وهطل نوءه بالإحسان فأغدق . وتناسبت فيه أجناس تجنيس لفظ الفضل . فقال الاعتراف :

هذا ما تصدق . وقال العرف : هذا ما أصدق . مولانا السلطان أصدقها ماملأ خزائن الأحساب فخاراً . وشجرة الأنساب ثمارا . ومشكاة الجلالة أنوارا . وأضاف إلى ذلك مالولا أدب الشرع لكان أقاليم ومدائن وأمصارا . فبذل لها من العين المصرى ماهو باسم والدها قد تشرف . وبنعوته قد تعرف . وبين يدى هباته وصدقاته قد تصرف . »[1]

ومن مكاتبات الصداق - الرسمى وغيره :

١ — صداق لابن حجة الحموى ، فى زواج المعز داود بن الكوبز على ابنة الناصر بن البارزى . نصه فى قهوة الإنشاء .

٢ — صداق لابن حجة الحموى ، بزواج السلطان الناصر ببنت الأمير السيفى كشبغا . ونصه فى قهوة الإنشاء .

٣ — صداق بزواج المقام الشريف أنوك بن السلطان الناصر بن قلاوون ، من بنت الأمير بكتمر الساقى — فى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٠٣ — مطول —

٤ — صداق بقلم شهاب الدين بن فضل الله العمرى بزواج المقر الشريف ابراهيم ابن الناصر بن قلاوون — فى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٠٨ .

٥ — صداق بقلم شهاب الدين بن فضل الله العمرى بزواج جمال الدين عبدالله ابن سيف الدين أبى سعيد أمير حاجب ، على بنت بيدمر العمرى — صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣١١ .

٦ — وفى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣١٩ على الترتيب ثلاثة صداقات أخرى .

---

١ — نص الصداق فى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٠٠

ز — الوصايا

الوصية نصيحة يرسلها الكاتب — خلال المكاتبة ، تقليدا أو مبايعة أو توقيعا — ويدعو فيها الموظف المعين إلى التمسك بما جاء فيها .

وليست الوصية لونا من ألوان الرسائل الديوانية ، مستقلا ، ولكنها بعض أغراض المكاتبة ، مما يدور خلالها ، فمثلها فيها مثل الحمد والثناء والصلاة على النبى ، والدعاء ، والمديح ، إلى غير ذلك .

وكنا نستطيع أن نتجاوز عنها ، ولا نقف عندها ، ولا نثبتها لونا من ألوان الإنشاء الديوانى . شأنها فى ذلك شأن غيرها من الأغراض الجزئية . ونجتزىء بالإشارة إليها عند الحديث عن لوازم المكاتبات . غير أننا وجدناها لازمة بارزة بين اللوازم لا تكاد تريم عن أية مكاتبة . ورأينا شهاب الدين بن فضل الله العمرى يخصها فى كتابه « التعريف » بحديث مستقل طويل يعرض فيه ما ينبغى أن تكون عليه . لهذا رأينا التنويه بها فى هذا المجال بهذه السطور الوجيزة .

والوصية هنا غير الوصية التى نذكرها فى باب « الخطب » لأن الأولى متنوعة المذاهب ، مختلفة المسالك ، يذهب فيها المنشىء مذاهب عدة ، ويطرق معانى شتى تختلف باختلاف طبيعة الوظيفة واختصاصاتها . أما الأخرى فمقصورة على النصيحة الدينية أو هى تدور حول الدعوة إلى تقوى الله والعزوف عن الدنيا ، — وإن كانت الوصايا الأولى مردها فى النهاية إلى الخلق الكريم فالدين أيضا .

فالوصية التى توجه إلى السلطان فى خلال مبايعته ، يطلب إليه فيها — مثلا — رعاية الحق وإشاعة العدل ، وتقوية الدين ، والحرص على الرعية ، ومكافحة الأعداء ، والسهر الدائم واليقظة إلى غير ذلك مما يشبهه .

والوصية التى توجه إلى نائب السلطنة فى تقليده ، يطلب إليه فيها — مثلا —

تنفيذ الأحكام الشرعية ، ومعاضدة السلطان ، والأخذ بناصر القضاة ، واستخدام سيوفه لمساعدة الأقلام ، ورعاية عساكر الدولة ، وحضهم على خدمتها . ومعاونة جباة الأموال ، واتباع المرسوم فى شئون الجباية ، واستطلاع الأخبار ، ومطالعة السلطان بها إلى غير ذلك مما يشبهه .

والوصية التى توجه إلى الوزير فى تقليده ، يطلب فيها — مثلا — مراقبة الله فى أعماله ، و بذل آرائه الرشيدة فى شد أزر الدولة ، والقيام بعمله تنفيذا لأغراض السلطان لا لأغراضه هو ، وترك أطماعه الشخصية جانبا ، وعدم السعى إلى الاختصاص باللذاذ والمنافع ، والعفة عن المال الحرام ، وعدم اقتطاع شىء من طعام الجند . والبعد عن كل حرام و إبعاد الجند عنه ، و إقامة العدالة فى كل ما يصدر عنه من تولية مرءوسيه أو عزلهم ، وانتخاب الأكفاء لمعاونته ، دون العاجزين ، واستخلاص أموال الدولة التى هى أموال الله، إلى غير ذلك .

وهكذا نستطيع أن نفهم كيف تصاغ الوصية ، لنائب قلعة ، أو استادار[1] ، أو مقدم مماليك ، أو والى حرب ، أو قائد جند فى غزاة ، أو أمير عرب ، أو حافظ للحرمين أو قاضى قضاة ، أو كاتب سر ، إلى غير هذا وذاك .

وقد أسهب ابن فضل الله فى كتابه « التعريف » — كما ألمعنا — فى ذكر هذه الوصايا ، وما ينبغى لها من المعانى والنصائح ، المختلفة باختلاف طبيعة الوظيفة . فلتراجع ثمة .

---

١ — الأستادار : لفظ غير عربي وهو من ألقاب الأمراء . والأستادار يوكل إليه النظر فى بيوت السلطان والأشراف على مطابخه ومشاربه وحاشيته وخدمه وينفق على بيوته ومن فيها ويدبر له ما يحتاج إليه فيها — صبح الأعشى ج ٤ ، وخطط المقريزى ج ٣

وفيما سبق من نماذج ، أثبتنا سطورا من الوصية . وهنا نثبت نموذجا واحدا نجتزىء به هذا المقام :

كتب ابن عبد الظاهر تقليدا بالسلطنة إلى المنصور قلاوون ، على لسان الخليفة وقد جاء فيه يوصيه قوله :

« فالواجب أن يعمل بجزئيات أمره وكلياته . وألا يخرج أحد عن مقدماته . والعدل : فهو الغرس المثمر . والسحاب الممطر . والروض المزهر . وبه تنزل البركات وتخلف الهبات . وتربو الصدقات . وبه عمارة الأرض . وبه تؤدى السنة والفرض . فمن زرع العدل اجتنى الخير . ومن أحسن كفى الضرر والضير . والظلم : فعاقبته وخيمة . وما يطول عمر الملك إلا بالمعدلة الرحيمة . والرعية : هم الوديعة عند أولى الأمر ، فلا تختص منهم زيدا دون عمرو . والأموال : فهى ذخائر العاقبة والمآل . فالواجب أن تؤخذ بحقها وتنفق فى مستحقها . والجهاد : برا وبحرا . فمن كنانة الله تفوق سهامه وتؤرخ أيامه ، وينتضى حسامه . وتجرى منشآته فى البحر كالأعلام وتنشر أعلامه . وفى عقر دار الحرب يحط ركابه . وتخط كتابه . وترسل أرسانه . وتجوس خلالها فرسانه . فيلزم منه ديناديدنا . ويستصحب منه فعلا حسنا . وجيوش الإسلام وأمراؤه وحماته : فمنهم من قد علمت قدم هجرته ، وعظم نصرته . وشدة بأسه . وقوة مراسه . وما منهم إلا من شهد الفتوحات والحروب . وأحسن فى المحاماة عن الدين الدءوب . وهم بقايا الدول . وسجايا الملوك الأول . ولاسيما أولى السعى الناجح والرأى الراجح . ومن له نسبة صالحية . فإذا فخروا بها ، قيل لهم نعم السلف الصالح . فأوسعهم برا . وكن بهم برا . فأنت بما يجب من خدمتك أعلم . وأنت بما يجب من حقهم أدرى . والحصون والثغور : فهى ذخائر الشدة . وخزائن العديد والعدة . ومقاعد القتال . وكنائن الرجا والرجال . فأحسن لها التحصين . وفوض أمرها إلى كل قوى أمين . وإلى كل ذى دين متين . وإلى كل ذى عقل رصين . » الخ[1]

---

١ — راجع حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٠ وما بعدها .

الفصل الثالث

الرسائل الاخوانية

الرسائل الإخوانية مظهر من المظاهر الأدبية . وبعض ميادين الكتابة الفنية فى عصر المماليك . لم يقصر كتابها عن بلوغ أسلافهم فى مضمارها ، ولم يبطىء منشئوها عن قداماهم فى قضاء أوطارها. تراسلوا بها تراسلا ، وتبادلوها تبادلا ، فى وقائع من وقائع حياتهم وفى مناسبات من مناسبات صلاتهم . وأتوا فيها بالعجب العجاب ، من بديع اللفظ ورائع المعنى . واتخذوها مسرحا للهو والتسلية . وحملوها ماشاءت لهم الصداقات والمودات ، من عواطف ووجدانات . وساجل بعضهم بعضا فى ميدان الأدب والعلم ، وفى كل ماتسمح به الوشائج والصلات التى تربط بين صديقين أو ندين .

وربما اتخذها بعض الكتاب أداة لمرانة القريحة ، بدون أن تكون لها مناسبة أو واقعة . ولعل هذا مما يفهم من حديث زين الدين بن الوردى الشاعر الناثر ، فى خطبة ديوان شعره ونثره ، إذ قال :

« إنى أمرت أن أكتب فى هذا الكتاب شيئاً من نثرى ونظمى . وهأنا قد أثبت علىّ به مسطورا يشهد بقصر فهمى . وقد يقف الناظر فى مجموعى هذا ، على وصف عذار الحبيب وخده ، ونعت ردفه وقده ، وشكوى عشقه وصده ، وذم الشىء وحمده ، ومدح الشخص لرفده ، وجزر القول ومده . فيظن لذلك بى الظنون . غافلا عن قوله تعالى : « وأنهم يقولون ما لا يفعلون » وإنى إنما قلت ذلك على وجه امتحان القريحة ومحبة فى المعانى المبتكرة واللمع المليحة »[1] .

وهذه الكلمة ، وإن كانت منصرفة أكثر منصرفها ، إلى شعره ، تمس نثره بعض

---

١ — راجع خطبة ديوان ابن الوردى .

المس . ولعل مما يعزز هذا أن بعض رسائله الإخوانية المثبتة فى ديوانه . لا يُدرى لمن أرسلها ، وهى غفل من ذكره .

وروى تقى الدين بن حجة الحموى فى كتابه « تأهيل الغريب » قال متحدثا عن رسالة استدعاء :

« وردت على مولانا قاضى القضاة ، صدر الدين بن الأدبى — سقى الله من غيث الرحمة ثراه — إلى دمشق المحروسة فى زمن الورد ، ورياحين الشبيبة غضة . ومعلوم أنه كان أحد أئمة الأدب . فرسم بتجربة الخواطر . والمجاراة بما تسمح به القرائح من بديع الاستدعاء وغريبه ، اللائق بهذا الفصل . فتزاحمنا بالمناكب . ونثرنا جواهر العقود . فأثبت استدعاء العبد . وقال : هذا أعذب مناهل الورود »[1] .

وقد سجل شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبى فى كتابه « حسن التوسل » جملة من النماذج الإنشائية فى موضوعات مختلفة ، فى جملتها موضوعات إخوانية . وصرح بأنها تجربة للخاطر . وقال فى مطلعها :

« فأما الكتب الإخوانية ، والكتب التى تعمل رياضة للخاطر ، فيما يقل وقوعه لاحتمال أن يقع . أو فيما تمتحن به قوة القريحة ، ويعتبر به تصرف الفطنة ، ويسير به غور الذهن . ويعلم به استعداد الفكر . فإن الكاتب فى ذلك الأمر مطلق العنان مخلى بينه وبين قوته فيه أو ضعفه . لكن على كل حال ، يراعى كل مقام بحسبه . فمما عملته رياضة للخاطر لصعوبة مسلكه : صورة كتاب إلى إنسان ، يتضمن مخاطبته فى تزويج أمه . . » الخ[2]

وقد سبق لنا التنويه بأهمية هذه الرسائل ، وأنها من خير الوسائل التى تعبر بصدقها

١ — راجع تأهيل الغريب المخطوط بدار الكتب المصرية . واقرأ فيه باب الاستدعاء .

٢ — عن حسن التوسل للحلبى .

عن مكنون الضمير وخفى الشعور ، وهواجس النفس وخواطر الأذهان . ولاسيما أنها حرة طليقة من قيود الرسميات التى كثيرا ما تحتاج إلى رصيد كاف من الملق والدهان .

وقد تعددت أنواع الرسائل ، ولـكننا هنا لم نسلك فى عدادها إلا ماظفرت فيه السمات الخالصة للاخوانيات . كأن يبدو فيها الحديث حديث ود . ويبدو بها المرسل قاصا على المرسل إليه إحدى مصادفاته أو هاجساته الشخصية ، أو مايمس علاقتهما .

أما ما لا يتسم منها بهذه السمات ، بل اتخذ وسيلة لوصف حادثة أو كارثة أو صيد أو غزو أو نحو ذلك ، مما لاصلة له بالصداقات والروابط الشخصية ، فقد سلكنا كلامنها مع ما يناسبه .

وقد تنوعت الرسائل الإخوانية بتنوع موضوعاتها ، فمنها رسائل فى الشوق والشكر والشكوى والتقريظ والمدح والمداعبة والتسلية والالغاز ، وإظهار الولاء ، والتهنئة والتعزية ، والدعاء والعتاب والاعتذار والتبرىء ، والاستمناح والاستدعاء ، والمجون والغزل والنصيحة . إلى غير ذلك .

طرق كتاب عصر المماليك هذه الأغراض فى مراسلاتهم الإخوانية . وكثير منها — كما يرى القارىء — أغراض شعرية وهذا يدلنا على مدى سعة المجال الذى أتاحته لنفسها هذه المراسلات .

والإخوانيات هنا فضلا عن أسلوبها البديعى الفاضلى ، متأثرة بمصطلحات الرسائل الديوانية ، ولو إلى حد ما . ومثل ذلك بدؤها بخطبة فيها تحميدات وصلوات على النبى عليه السلام ، مع استهلالات بارعة تناسب ألفاظها ومعانيها موضوع الرسالة أوملابسات المرسل إليه . ومثل إظهار الولاء ومكنون الود ودفين الشوق ، ثم عرض الموضوع ثم الختام . مع شىء من الأدعية المناسبة والألقاب المتكررة ، والأبيات الشعرية فى المعنى ، إلى غير ذلك من اللوازم كما سنرى .

ويبدو أن سبب تأثرها بمصطلحات الديوان أن أكثر الأدباء المتراسلين كانوا من أصحاب الديوان أو كتابه أو المتصلين بهم أو المتطلعين إلى وظائفه ، أو المقتدين بمناهج أصحابه ، أو نحو ذلك .

على أن هذا التأثر لم يكن مطردا كل الاطراد ، أو متبعا بالدقة التى نجدها فى المراسلات الديوانية .

ويضيق مجال القول فى بحثنا عن استيعاب الحديث عن كل نوع من هذه الإخوانيات ، وعرضه عرضا مناسبا ، هو ونماذجه . لهذا نكتفى بالحديث عن البعض دون البعض الآخر . فى هذه الوجازات التالية .

ا — رسائل المديح والشكر والتهنئة :

إن رسائل المديح أوالتقريض ، أولى الإخوانيات بالعرض والتقديم . ذلك لأنها — فيما نرى — أكثر الرسائل عددا ، ولأن المديح هو السمة الغالبة على الإخوانيات بعامة . وندر أن خلت رسالة إخوانية من عنصر المديح . وأكثر المتراسلين يتبادلون الثناء ويتقارضون الحمد فى مراسلاتهم . بل إن هذه المراسلات — على اختلاف ضروبها — إحدى فرصهم الفريدة لإظهار عواطفهم وتقديراتهم . بعضهم نحو البعض . وقد كان أكثرهم أيضا علماء ، برعوا فى فقه أوحديث أونحوهما . ودلفوا بعلمهم هذا إلى مناصب القضاء وما إليها . أو كانوا أدباء من أرباب الأقلام أو مشهورى الشعراء ، ودلفوا من وراء أدبهم هذا إلى ميادين الشهرة ، وإلى مناصب الإنشاء وما إليها . لهذا نرى أن صناعة العلم والأدب وملابساتهما وما يتصل بهما من ألفاظ ومعانى محور الحديث ومصدر الاقتباس فى هذه الرسائل ، ومستمد كاتب الرسائل ، ينتزع منها المصطلح اللطيف فيوجه به ، ويسوق من وراثهما التوريات السليمة ، والاقتباسات المستقيمة ، مع رعاية للنظير ،

غاية فى الدلالة على لطف الذوق ودقة الحس ونباهة الذاكرة ولباقة البادرة .

والشكر والتهنئة بابان من أبواب المديح يفضيان إليه ، ويختلطان به . والشكر يكون لمعونة أسداها المرسل إليه أوهدية قدمها أوغيبة ردها أوصداقة رعى عهدها ، أونحو ذلك مما يستوجب شكر الصديق لصديقه .

والتهنئة تكون لمولودجديد أشرق نجمه وسعد به أبوه وأمه ، أولعودة من حج أورحلة أوشفاء من مرض أوعودة إلى منصب ، إلى غير ذلك .

وإليك بعض نماذجها :

١ — أنشأ شهاب الدين القلقشندى رسالة فى مدح المقر الفتحى أبى المعالى فتح الله صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالديار المصرية الممالك الإسلامية . وذلك فى شهور سنة ٨١٤ هـ [1] ويبدو أنها تهنئة له بصحابة الديوان .

وتقع هذه الرسالة فى نحو ١١٣ سطرا . وقد بدأها بالحمد لله سبحانه وتعالى ، وبالشهادة ، والصلاة على النبى عليه الصلاة والسلام والإشارة إلى مآثره . ثم أخذ يتحدث عن الرياسة فى الدول وأنها تستمد من القرب من الملك . وبين منزلة صاحب الديوان فى الدولة . ثم أخذ فى مدح المقر الفتحى فتح الله بشتى ضروب المديح . فأنه كليم الملك وعميد المملكة والوساطة بين الملك والرعية . وذكر أن الديوان ظل خلوا من صاحب يرأسه حتى اختير المقر الفتحى له ، فتلقت الأيام بالبشرى رياسته . ونعته بحسن الرأى ودقة التدبير ولطف السفارة وعلو الكعب فى الخط والإنشاء . ووازنه ببعض كرام الكتاب ، السابقين كالحسن بن سهل ، وأخيه الفضل بن سهل ، وأبى على بن مقلة . ووصف بيانه بالسحر الحلال ، وأقلامه بالصوارم بل هى تهزأ بالصوارم والأسل . وذكر

---

١ — نص الرسالة فى صبح الأعشى . ج ١٤ ص ١٩١ . وفتح الدين المرسل إليه لعله هو فتح الله بن مستعصم التبريزى .

أن كرمه يغنى من الإملاق . إلى غير ذلك من الصفات النفسية الجليلة . واعتذر فى نهاية الرسالة عن تقصيره فى الإطراء وعجزه عن توفية الثناء . وكان يفصل بين سطورها بأبيات شعرية منسجمة المعنى مع السياق . وهذه بعض فصول الرسالة :

قال فى مستهلها :

« الحمد لله ، جعل الفتح محط رحال القرائح الجائدة ومستقر نواها . محيط دائرة الأفكار الواردة ومركز شعاع كواها ومادة عناصر الأفهام الجائلة وعتاد شكيمة قواها .

نحمده على أن خص المملكة المصرية من إيداع سرها المصون بأوسع صدر رحيب . وأنهض بتدبير مصالحها من إذا سرت كتائب كتبه إلى عدو أنشد من الفرق : قفا نبك من ذكرى حبيب . وأقام لنصرتها بأسل الأقلام وصفاح المهرق من إذا طرقها على البعد طارق ، تلا لسان يراعته « نصر من الله وفتح قريب » الخ .

وبعد أن أشار إلى ما لصاحب الديوان من جاه فى الدولة وصولة وإلى خلو الديوان زمنا من صاحب ، حتى أقبلت دولة برقوق ثم ابنه فرج ، فوقع اختيارها على المقر الفتحى فتح الله ، قال يمدحه ويطريه :

« إن تكلم أتى من بيانه بالسحر الحلال . أو حاور أتى من البلاغة بما يقصر عن رتبته سحبان فى المقال أو ترسل أعيا عبد الحميد فى رسائله . أو كتب رتعت من روض خطه فى زهر خمائله .

يؤلف اللؤلؤ المنثور منطقه وينظم الدر بالأقلام فى الكتب
فرأيه السيف لا ما صنع الهند وعقله الصارم لا ما استودع الغمد .
ففى رأيه نجح الأمور ولم يزل كفيلا بإرشاد الحيارى موفقا
أقلامه تزرى بالصوارم وتهزأ بالأسل وتجرى بصلة الأرزاق فتزيد على الأمانى وتربو على الأمل .

بت جاره فالعيش تحت ظلاله واستسقه فالبحر من أنوائه

فمكارمه تغنى عن الإملاق . وبواكره بالإسعاد تبادر الغدو والإشراق . وعطاياه تسير سير السحاب فتمطر الغيث على الآفاق

كريم مساعى المجد يركب نجدة من الشرف الأعلى وبذل الفواضل

قد خدمته الحظوظ وأسعدته الجدود . وقسمت المنازل السنية فكان له منها سعد السعود .

لو عدد الناس مافيه لما برحت تثنى الخناصر حتى ينفد العدد

فلو غرس الشوك لأثمر العنباء أنى أرادها . أو حاول العنقاء فى الجو لصادها . أو زرع فى السباخ لكان ذلك العامُ العامَ والسنة الخصبة . ولضوعفت مضاعفة حسناته ، فأنبتت كل حبة سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة

وإذا السعادة لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

واصطد بها العنقاء فهى حبائل واقتد بها الجوزاء فهى عنان » الخ

و بعد أن أطنب فى مديحه و بيان مناقبه ماشاء له الإطناب ، أخذ يعتذر عن تقصيره فى ذلك ، فقال : « على أنى أستقيل عثرتى من التقصير فى إطرائه ، والتعرض من مدحه لما لا أنهض بأعبائه . فلو أن الجاحظ نصيرى ، وابن المقفع ظهيرى وقس بن ساعدة يسعدنى ، وسحبان وائل ينجدنى ، وعمرو بن الأهتم يرشدنى . لكان اعترافى بالعجز فى مدحه أبلغ مما آتيه . وإقرارى بالتقصير فى شكره أولى مما أصفه من توالى طوله وأياديه :

ولو أن لى فى كل منبت شعرة لسانا يطيل الشكر فيه لقصرا

---

٢ — وكتب الشاعر الأديب برهان الدين القيراطى إلى شاعر عصره جمال الدين بن نباتة المصرى ، يمدحه . وفيها اقتباسات طلية ، ورعاية للنظير كيسة . قال :

« يقبل الأرض التى سقت السماء نباتها . وعمر الله بمعانى الحسن أبياتها . » ومنها يمدحه ويصف كتابته ونظمه .

« فلا غرو أن فضح بديع الزمان بلفظه البديع . وأزهرت الأوراق بمنثور رسائله التى كل فصل منها ربيع . وخجلت صفحة الخد المنمنمة بطراز العذار المرقوم . وقالت الكئوس حين شبهت فى إمالة الأعطاف بألفاظه : وما منا إلا له مقام معلوم » .

ومنها فى مديحه كذلك :

« فسبحان من أسرى بها فى ليل نقسها إلى المحل الأقصى . وحباها بالفضل الذى لايحصى . وأنبت دوحتها فى رياض الفصاحة . ونمق حدائقها التى لو فتح النرجس عينه فى عينها لنسب إلى الوقاحة . فتبارك الذى جعل فى سماء دوحته لشمس بلاغته بروجا . وأعلى همم التى لاترضى الشهب جيادا والأهلة سروجا . حتى أقام يراع قلمه لسوق الأدب قصبة . وشاد من قصائده كل بيت إذا مر الحاسد ببابه قبل العتبة . وسارت كالسيمة السيارة مصنفاته . وعلت من قصره المشيد بسينات سطوره شرفاته . وفديت بالمباسم والقدود ميماته وألفاته . وزهت أمداحه المؤيدية ، فأصبحت بيوته المرفوعة ذات العماد . وراقت محاسنها التى لم يخلق مثلها فى البلاد . وفضحت لسهلها الممتنع أدباء العصر الذين جابوا الصخر بالواد . » ومنها :

« وطالما سرح الناظر فى بستانها منظره . ورام ابن سكرة فتح الأبواب لمعارضة قطرها النباتى فوجدها مسكرة . وعلم المتنبى أن هذا خاتم الأدباء لامحالة . والمترسل الذى نهض دونه بأعباء كل رسالة . وأقام بتقديمها على غيرها براهين الاحتجاج . وقال الملحى عند ما قابل بحرها الحلو ببحره : هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج » الخ [1] .

---

١ — عن خزانة الأدب لابن حجة ، باب الاقتباس ص ٤٤٨ ، وهذه الفقرات كل ما أثبته من رسالة القيراطى .

٣ — ومن رسائل التهنئة ما كتبه صلاح الدين الصفدى مهنئاً القاضى جمال الدين أبا اسحق ابراهيم بن محمود ، بعودته إلى منصب كتابة السر الشريف بحلب المحروسة عام ٧٣٠ هـ .

وقد افتتحها بأبيات شعرية منها :

« بعودتك الغراء قرت نواظر وأمست وجوه البشر وهى نواضر
فروض الأمانى ظله بك وارف وحوض الهنا طله منك وافر
لأنبائك الحسنى أصخنا مسامعا فياطيب ما أملت علينا البشائر »

وبعد أبيات أخرى قال :

« يقبل الأرض ويهنىء نفسه والأنام والأيام . ومن خط الطروس ووشى برودها بالأقلام . ومن كتب الإنشاء فآخى من كلامه بين الجواهر فى النظام . ومن نظم قريضه فأخمل فى الخمائل ساجعات الحمام . لأن مولانا — بسط الله ظله — بركة هذا الوجود . ومن هبات نسيمه ينشق الناس عرف الهبات والجود .

وينهى ما حصل له من الابتهاج والسرور . والهناء الذى التحف منه بالتحف وحباه الحبور . فالله تعالى ، يديم أيام مولانا التى هى أمان من الحوادث والغير . وجمال الكتب والسير . بمنه وكرمه » .

وقد رد عليه المرسل إليه « القاضى جمال الدين أبو اسحق ابراهيم بن محمود » برسالة شكر . قال فى مطلعها :

« بفضل صلاح الدين سرت سرائر ووافت إليها بالتهانى البشائر »

وبعد أبيات قال :

« يقبل الأرض ، لا زالت مطالعها مشارق الأنوار . ومرابعها مراتع

التهانى ومواطن المسار .

وينهى ورود المشرف العالى . المشتمل من جواهر البديع على ما يخجل زهر اللآلىء . فقبله المملوك حين وافاه وأجل محله حين تلقاه . وكلف بمضمونه فكلما انتهى إلى منتهاه ، أعاد لثمه وابتداه . وعلم ما تفضل به مولانا من تهنئة المملوك بالمنصب الذى كان المملوك عنه بفضل الله فى غنى . والرتبة التى ما ازداد المملوك بها إلا التعب والعنا . وتحقق صداقة مولانا التى ألفها قديما وآنفا ومحبته التى لم يزل المملوك على مثلها مقيما وبمثله عارفا . وعلم مولانا الكريم محيط بأن المملوك كان قد حط عنه واطمأن وسكن . وأغلق الدكان ولزم الوطن . فلما اتفق بعد ذلك للملوك ما اتفق من المقادير التى لا محيد عنها . والأمور التى إن سخط أو رضى لابد منها . ما أمكنه إلا التسليم لحكم الله وأمره . ولعل ذلك ألا يكون لشر قضاه الله بل لخير قدره . ورزق يسره . وأجر ساقه وقدره .

والمملوك يرجو أن تكون الآخرة إلى خير . فقد قربت المنزلة وحث إليها السير . وقد تقلد المملوك لمولانا هذا الإحسان . وهو يعتذر من التقصير بشكر هذه العوارف الحسان . فلو كان بين يدى مولانا لانفتح له من المعانى كل باب . واقتبس من فوائده وفرائده ما ينظمه فى سلك هذا الجواب . وإنما بعده عن فضائل مولانا أوجبت له الاعتراف بتقصيره . والتعويض بقليل اللفظ عن كثيره . وما تم غير صفح مولانا الجميل . والله يبلغه من الأمانى نهاية التأميل . بمنه وكرمه[1]

---

٥ — وكتب زين الدين بن الوردى إلى أحد أصدقائه ، وقد أهدى إليه صقرين فكتب يشكره ويمدحه ويصف هذين الصقرين ، فقال :

---

١ — تهنئة الصفدى ، والرد عليها ، عن كتاب (ألحان السراجع) المخطوط للصفدى . وهو بدار الكتب المصرية فى ترجمة إبراهيم بن محمود (جمال الدين أبو إسحق) .

« وينهى وصول الصقرين . فسر العبد بهذين الحرين. اللذين تحن الجوارح إليهما من وجهين . ويعز على ابن المعتز أن يذكر لهما فى تشبيهاته شبيهين فوقع الصقران من المملوك بموقع يفوق النسر . وتأمل نحوهما فإذاهما منصوبان لبناء ما ارتفع وانخفض من الصيد على الكسر . مقلتهما حمر كسيوفه . وأجنحتهما مسبله كغمائم بره على رعاياه وضيوفه . ومخالبهما كالمناجل لحصاد أعمار أعدائه وأعمار الطير . ومناقيرهما كالأهلة المبشرة له ولأوليائه بكل خير . فلسان حال كل منهما يقول لمرسليه : تفرقوا فبكسبى أجمعكم أجمعكم . ويخطف لهم الخطفة ويعود بسرعة ، فبينما يتطيرون لغيبته ، تلوا : « طائركم معكم . » فما أحسن ما يرجع كل واحد منهما من أفقه . وقد التزم طائره فى عنقه . كم ذللا من الطير من حرون . وكم أهلكا فى الوحش من قرون . فما أحق هذا الجبر بمقابلة الثناء عليه . وأن يمد المملوك لهاتين اليدين يديه . ومن كرامات مولانا أنه أصبح جابرا بكاسرين . فمرحبا برسوله الذى إن قدم رسول بأيمن طائر ، فقد قدم هو بأيمن طائرين . والسلام ».[1]

هذا . وسيرى القارىء آيات من المديح تتخلل سطور الإخوانيات التالية ، فى شتى أغراضها . فهو لون مشترك بينها .

ب — رسائل الشوق والشكوى والعتاب :

الشوق وما أكثره وما أحره ، والحنين وما أوتره وما أبره ، أكرم ما ثار بين محبين . وأجل ما هاج فى قلب صديقين . يبعثه الحب الخالص والود المكين . وتثيره الوحشة التى تقلق النفس وقد غاب عنها محبوبها ، الذى هو أنسها ورسول طمأنينتها

---

١ — الرسالة عن ديوان ابن الوردى ص ١٨٩

وأليفها وموضع بهجتها وسرتها . وأقرب ما يهيج الشوق غياب رفيق أو صدود صديق فتتابع بلابله فى الفؤاد ، وتتجاوب فى أنحاء النفس ، وترقق عاطفة القلب حتى يضج اللسان بالشكاية والبث . وينطلق هو والعين الباكية الحرى فيحرق بزفراته ما يروق من صفحات ، وتبلل هى الخدود بما تريق من عبرات . ويحملان نفثاتهما ما لذ من حديث العتاب .

لهذا ترى رسائل الشوق وما إليه ، من أينع الإخوانيات وأروعها . وأملئها بالعاطفيات وأجمعها . وقد تناولها أدباء عصر المماليك على نمط مما تناوله بها أسلافهم . فاحتلت مكانها كريما بين ضروب الرسائل ، واقتعدت محلها رفيعا بين مظاهر الأدب وأدت قديرة حاجة من حاجات المجتمع .

والمتشوق يبث فى رسالته حديث نفس إلى نفس . وبث قلب إلى قلب . فالرسالة لهذا ، نجوى سارية بين خلين . وشكوى هادية بين حبين . تزدان بعبارتها الأنيقة . وإشارتها الرقيقة الرفيقة . قد يبدؤها المرسل بتقبيل الأرض . وما أكرمه بين يدى المحبوب . ويعلى من قدره ، وهو المطلوب . . . ويجود له بالمديح غاية الجود ، ويستوفيه ما وهب له من وعود ويحمل الرسالة ما يعتلج فى صدر مشتاق . من لوعة الأشواق .

وكثيرا ما يرد المرسل إليه برسالة يجيب فيها صديقه إلى ما دعاه . ويبادله حمدا بحمد ، ويقارضه حنينا بحنين وتفتتح الرسالة أو تفصل بأبيات من وادى الشوق أو الشكوى أو العتاب أو المديح أو غير ذلك مما تدعو إليه المناسبة ويستمنحه السياق . إما من نظم الكاتب ، أو من تضميناته .

ومن نماذج هذه المكاتبات :

١ — ما كتبه القاضى شهاب الدين محمود الحلبى فى إظهار الشوق ، قال :

« ماأم طفل قذفها الزمن العنيد ، فى بعض البيد . فى أرض موحشة المسالك . قليلة السالك . قد لمع سرابها . وتوقدت هضابها وصرخ يومها ونفر ظليمها . وحضر سمومها . وغاب نسيمها . فلما خافت على ولدها من الظمأ ، الهلاك ، أجلسته إلى كثيب هنالك . ثم ذهبت فى طلب الماء للغلام . لئلا يقضى عليه الأوام . فانتهى بها المسير إلى روضة وغدير وآثار مطى بوارك : تدل على أن الطريق هنالك . فعادت إلى ولدها مسرعة . وكل أعضائها إليه عيون متطلعة . فلما شارفت الكثيب . رأت ولدها فى فم الذيب .

بأكثر منى حسرة وتلهفا وأعظم منى حرقة وتوجعا
وأغزر دمعا عندما قيل لى : الذى كلفت به أضحى على البعد مزمعا» [1]

---

٢ — وكتب جمال الدين بن نباتة المصرى عام ٧٣٢ هـ إلى صلاح الدين الصفدى يعاتبه ، فقال .

«رضيت بالكتب بعد القرب فانقطعت حتى رضيت سلاما فى حواشيها

وينهى أنه كان كسير الخاطر حسير الناظر . لانقطاع برمولانا الممتاز . ولامتناع المملوك من المكاتبة ظنا أن بينها وبين القصد مجاز . فلما وقفت الآن على ذكره فى جمالية ، استأنف للخاطر سرورا . وأقام وزن البيت القلبى وكان مكسورا . ووضع الطرس على وجه حظه الأعمى فارتد بصيرا وجمع بين ذلك الخاطر واللفظ والقلب ، وإنما جمع مسكينا ويتيما وأسيرا . وسره — أشهد الله — أن يكون معدود الذكر فى الحاشية . واستوقف ألفاظ العتاب وقد كانت إلى درج الأدراج ماشية .

حلال لليلى أن تروع فؤاده بهجر ومغفور لليلى ذنوبها
لاتقرعن سمعا من تهوى بتعداد الذنوب
ما ناقش الأحباب إلا م من يعيش بلاحبيب

---

١ — منقولة عن خزانة الأدب (باب التفريع) .

وقد علم الله شوق المملوك إلى تلك الخلائق وربيعها والألفاظ وبديعها وشجوه الذى أخفى الجلد وأبانه . ووحشته التى أفردته سهما واحدا فى دمشق لافى كنانة .

لم يترك الدهر لى خلا أسر به إلا اصطفاه بنأى أو بهجران

والله تعالى يحرس مولانا حيث كان . ويمده بمعونتى المكان والإمكان . ويصون نفاسة نفسه وإن تغيرت على أحبابها . وأعرضت عن غلمانها ، ويأبى ناموس الرتبة أن يقال عن أصحابها . ولا يعدم الأولياء على القرب والبعد . أن يجتنوا من نظمه ونثره ثمر البيان متشابها . » الخ [1]

---

٣ — وكتب صلاح الدين الصفدى ردا على رسالة ابن نباتة السابقة ، وقد بادله عتابا بعتاب ، واعتذر إليه وقارضه الثناء . قال من ذلك :

« وينهى ورود المثال العالى . والفضل الذى نصب لى لواء الفخر لوأنه كما أعهده متوالى . والبر الذى كم تمسكت بحباله فأرسل الحبا لى . والروض الذى هو لابن الشجرى نهاية الأمانى والآمالى . والأزاهر التى أصبحت من جناة جناتها . فلابدع إذا كنت لنار عتبها اليوم صالى .

إذا لم يخن صب ففيم عتاب وإن لم يكن ذنب فمم يتاب

أجل مالنا إلا هواكم جناية فهل عندكم غير الصدود عتاب

فوقف المملوك عليه . بعد أن تمثل واتفا لديه . وشاهد ذلك اللفظ الرقيق المشتمل على العتب الفظ . وتحقق أن هذا من جزئيات ماساق إليه القسم وحض عليه الحظ .

وغايتى أن ألوم حظى وحظى الحائط القصير

---

١ — نص الرسالة فى كتاب « الوافى بالوفيات » للصلاح الصفدى ج ١ ص ٣٢٠ فى سياق ترجمة ابن نباته المصرى .

ولقد علم المملوك عند رؤيته أنه غمامة يقعقع بالعتب رعدها عند الغض . ورسول جاء بعد فترة يدعو القلب إلى الكسر ، والطرف إلى الغض . وخصم يروع بالعتب ويرفق باللطف . وكذا جرى لأن الروع تعجل نقده فى النض .

هذا عتابك إلا أنه مقة قد ضمن الدر إلا أنه كلم

فياله من عتاب ماحاك العتابى منه لقطة لفظة . ولا رقى إلى رقته عتاب جرى بين الزمان وجحظة . ولا استحضر مهديه عند تسطيره من القرآن الكريم « وليجدوا فيكم غلظة » .

وأطيب أيام الهوى يومك الذى تروع بالهجران فيه وبالعتب

إذا لم يكن فى الحب سخط ولا رضا فأين حلاوات الرسائل والكتب » .

إلى آخر ما كتب ، والرسالة طويلة .[1]

---

٤ — وكتب صلاح الدين الصفدى أيضاً ، إلى بهاء الدين أبى حامد السبكى — وكانت بينهما صداقة وطيدة — رسالة فى الشوق والشكر والولاء والمدح ، ردا على رسالة وردت إليه منه . وقد قدمها الصفدى بأبيات شعرية ، ثم قال :

« يقبل الأرض حيث تضع الملائكة الأجنحة . وينخذ الأنام من الدعاء فى مواطنها مواضى الأسلحة . ويفعل الله بها ما أحب ، فإنه لا يجب عليه شىء وإن راعى المصلحة . ويعمل طلاب العلم إليها الركاب بكل يعملة كأن راكبها غصن بمروحة .

وإنى بتقبيل لك الأرض والثرى على كل من فاخرته لفخور

تقبيلا يثبت به الجوهر الفرد ، فإن كل جزء منها للقبل يتجزأ . ويحط به أثقال خطو أقعدته عن اللحاق به عجزا . ويتشرف بمشافهة تربها فإن له منها أقل الأجزاء أجزا .

---

١ — نص الرسالة فى كتاب (الوافى بالوفيات) للصلاح الصفدى ج ١ ص ٣٢٠ فى سياق ترجمة ابن نباتة المصرى .

ترابهم وحق أبى تراب أعز علىّ من عينى اليمين

وينهى بعد وصف ولاء حكم بتصديقه لما تصوره كل منطق ومنطبق . ودل بالمطابقة والتضمين والالتزام على أنه فى الوفاء عريق . عرى من تلف التلفيق . وأصبح وحده جامع مانع لأن جنسه القريب هو الإخلاص وفصله التحقيق .

عرفت بصدق الود فيك لأننى رفعت بلاعجز ولاء ولائى» الخ

وهى طويلة [1] .

---

٥ — وكتب تاج الدين البارنبارى [2] ، إلى الصلاح الصفدى ، ردا على مكاتبة له فى الشوق . قال :

شكرا لغرس بريض الفضل قد نبتا ووده فى صميم القلب قد ثبتا

أهدى إلىّ كتابا كنت أرقبه أزال عنى من عيث النوى العنتا

مباركا جاء بالحسنى فأحسن لى وكيف لا وهو من عند الخليل أتى

لازالت ألفاظه حلية الممالك . ووده فى النفوس ثابتا وللقلوب خير مالك ومنزله من فضل الله رحيب الساحات معمورا بالسماحات فى رحبة مالك .

وينهى ورود مشرف سمح ببيانه . ونفح بعرفانه . وجنح إلى عوائد إحسانه . وباح أشرف المعانى بإنسانه . وربح إذ بدا بفصل كتابه وفضل بنانه . أبى الله إلا أن يكون له الفضل فى ابتدائه . والفوز بسبق تحيته وإنشائه فقبله المملوك تقبيلا ، وفضه فإذا البيان جاء كله معه قبيلا . ورأى أدبا غضا . ونظما ونثرا فاقا من سلف عصره وتقضى . ولقد ذكر مولانا بأوقات قربه ، على أن المملوك مازال يذكرها . وأقر عينا ما برحت تشهد محاسنه وتنظرها .

---

١ — نص الرسالة فى « طبقات الشافعية » للسبكى ج ٦ ص ١٠٠ فى سياق ترجمة الصفدى

٢ — هو محمد بن محمد بن عبد المنعم المتوفى عام ٧٥٦ ، وكان صاحب ديوان الإنشاء بطرابلس .

أبلغ أخانا أدام الله نعمته أنى ولو كنت لا ألقاه ألقاه
الله يعلم أنى لست أذكره وكيف يذكره من ليس ينساه الخ[٣]

ولا أس أن نشير فى هذا المقام إلى رسالة قيمة طويلة تقع فى نحو ٩٠٥ سطرا كتبها المنشىء القدير محيى الدين بن عبد الظاهر يعارض بها رسالة للقاضى الفاضل كتبها على لسان سلطانه صلاح الدين بن أيوب يرد بها على رسالة اتهام أرسلها إليه الخليفة الناصر، بقلم كاتبه ابن زيادة

ورسالة الفاضل فيها عتب رقيق وتقع فى نحو ٢٠٠ سطرا . ورسالة ابن عبد الظاهر فيها عتب قاس ومخاشنة وكان هذا هو رأيه فيما كان ينبغى أن يكون عليه رد الفاضل.

فمن رسالة ابن عبد الظاهر قوله فى مطلعها :

« يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » ماجمعه الله للديوان العزيز من المآثر التى زكا عرقها . والمكارم التى كرم خلقها . والنصفة التى تحرى رشدا نطقها . توجب على الناطقين لسانه . والمرجحين لبرهانه . حبس أعنة الحنق . و إخلاف حدة القول المختلق . وأنهم لا يزالون يقولون للحق قد جاء وللباطل قد زهق .

ولما ورد على العبد من الجهة المحروسة الكتاب الكريم . الذى حسب أن مزاجه من تسنيم وأن كئوسه المهداة من دار السلام مثل كئوس دار السلام لا لغو فيها ولا تأثيم . وجد بكل جرعة من مدامه خمار وشاهد المشبه منها مجازا بالشرار ، حقيقة هو النار وعربدت فى الكأس قبل أن تعربد فيها العقول وأمست الندامى بشمول مضار تلك الشمول . الخ[٤]

---

١ — نص الرسالة بتمامه فى ترجمة البارنبارى ، بكتاب (الوافى بالوفيات) ج ١ ص ٢٤٩ رقم ١٢٦

٢ — رسالة الفاضل ورسالة ابن عبد الظاهر بتمامهما فى تذكرة الصفدى بالجزء الثالث عشر ، مخطوط بدار الكتب المصرية . وسيرد علينا فى باب الخصائص جزء من رسالة القاضل عند الكلام عن مذهبه فى الأسلوب .

٥ — رسائل الاستدعاء وما يتصل به :

الاستدعاء هنا غير الاستجازة التى سنشير إليها مع الإجازة العلمية . أما هنا فنعنى بالاستدعاء الدعوة إلى مجالس الشراب والمنادمة ، حيث يجتمع الأحباب والأصحاب ، ويصيبون فيها مما لذ وطاب .

والاستدعاء أحد فنون الشعر ، شاركته فيه الكتابة ، وجال فيه كتاب عصر المماليك وصالوا . ولكنه ليس طارئا عليهم جديدا . فإن لكتاب العصر العباسى — مثلا — جولات فى ميدانه موفقة ، ومنهم ابن العميد والميكالى وأبو المغيرة بن حزم من أدباء العصر الرابع الهجرى (١)

ورسائل الاستدعاء من أحب أنواع الرسائل لدى الأدباء . إذ فيها تسفر نفوسهم على حقيقتها . وتبدو سرائرهم بما فى طويتها دون خفاء أو التواء . والحرية المتاحة لهم فيها ، تطلق الأذهان من عقالها ، يجرى المنطق بعد جبانته ، وتفصح اللسان بعد عيه . لهذا نرى رسائل الاستدعاء مشرقة وضيئة ، إشراق نفوس كاتبيها ووضاءتها .

ويصف الكاتب فى رسالة استدعائه أسباب هذا الاستدعاء ، ويوضحها المرسل إليه ويغريه بها ويزينها له حتى يعجل بالمبادرة وتلبية الدعوة . ويذكر له ما يعانيه أو يعانيه الحاضرون من شوق إليه صريح ، وحنين نحوه محض ، وكلف بحضوره شديد . وشغف إلى مطالعته مشبوب . وتلهف إلى رؤيته ومجالسته لا يغلب . ويرسم له ما يضم المجلس من علية الإخوان وصفوة الخلان ، وما به من دواعى الأنس ومعدات اللهو والسرور ، من طعام وشراب ومن غلمان صبيحة وجوار مليحة ، وسقاة وندمان وأعواد وقيان . وما فاح فى المجلس من أرج مسك ورند ، وشذى زهر ورند ، إلى غير ذلك .

ومن هنا نرى أن رسائل الاستدعاء مسرح فياض بضروب الوصف الدقيق المطرب المعجب الذى يأتلق فيه جديد التوريات ، وبديع التوجيهات وأدب الاقتباسات

---

١ — راجع النثر الفنى لزكى مبارك ج ٢ ص ٢٢٠ .

وغيرها مما يجعل الرسالة زاهرة كالروضة المعطار . قد يدور فيها المجون على سوقه ، داعيا ببوقه ، سادرا فى فسوقه .

ولسنا فى حاجة إلى أن نشير إلى الصلة الوثيقة بين هذا الفن النثرى وفنون نثرية أخرى ، تجرى مجراه ، وتسير على نسق منه . ومنها وصف الخمر والندمان والجوارى والغلمان ، والمغنين والقيان ، والأعواد وآلات الطرب وتدبير الشراب واستعماله ، وما يتخلل ذاك من نكات فكاهية ومحاضرات أدبية . كل ذلك ضرورى للمجلس حتى يتم التئامه ويكمل انسجامه .

ومن هنا نرى أيضاً ما تستدعيه تلك المجالس من نباهة ذهن وصفاء قريحة وحضور بديهة وجود ذاكرة وكياسة خاطر ولباقة منطق وفرط أدب ودماثة خلق ورقة دعابة .

ومن هنا أيضا يتضح لنا أثرها وأثر استدعاءاتها فى الأدب . ويتضح لنا إلى أى حد شاركت فى تأدية إحدى حاجات المجتمع ، وصورت إحدى نواحيه النفسية والخلقية

وسترى فى فصل المجونيات بباب الوصف ، سطورا فى آداب النديم والمنادمة وتدبير استعمال الشراب تزيدك علما بهذه الاستدعاءات وما يحيط بها .

وإليك بعض نماذج الاستدعاء .

١ — كتب بدر الدين بن الصاحب إلى الصاحب فخر الدين بن مكانس ، استدعاء ، وصف فيه الخمر وأدواتها وفعلها ، وملأه بالكنايات اللطيفة والاستعارات والتشبيهات الظريفة والتوريات الطريفة ، قال :

« هل لك بسط الله آمالك . وضاعف نعيمك ودلالك . فى عذراء مصونة . كالدرة المكنونة . كأن على خدها فوق وردة ياسمينة . مظلومة الريق فى تشبيهه بالضرب . وحاشا ثغرها الدرى أن يفوته شنب . لها من ذاتها طرب يغنى عن المزامير . بلقيسية الجمال لها صرح ممرد من قوارير . ليلها من حسنها نهار . وضوء وجهها ليد لامسها سوار . عجوزة الاسم صبية الاستمتاع . بكر تستخف الحليم بكشف القناع . أديمها كلما يعتق

يغلو . ووردها كلما مر يحلو . ثملة المعاطف تقهقه قهقهة الرعونة . كأنها خلقت نشوانة من الطينة حدثها السحر الحلال . وعتيقها خلع الدلال . تطيب عيش الجلاس . وتعرك أذن الوسواس . من القاصرات الطرف فى كل قصر . وهى على الإطلاق منحة العصر . رومية لها بالكيمياء معرفة . مع أنها بإدراك المطالب متصفة . فتارة تقلب الأحزان أفراحا . ومرة تكتنال لك الذهب أقداحا . نديمها يجد فى نفسه مخايل المملكة . ويكاد أن يمد على الدنيا من لؤلؤ حبتها شبكة . لو خالطها جبل لماس . أو قابلها جماد لقيل إنه كاس : أو قتلت ندمانها ما نسبت إلى باس . ولقال لسان حالهم : وفيها منافع للناس . أنفاسها مسكية . ومكارمها حاتمية . وأنسابها قيصرية . بكر بخاتم ربها . وهى ترضع أباها من حلبها . فتعيد الشيخ صبيا . والمشغول خليا . فكأنها استعارت الإرضاع من أمها التى لها ثدى كالنجوم عدة . وتعلمت منها المكارم لما رأت أكفها بالندى ممتدة . غانية طعم الحياة فى ريقها . وضيق الوقت فى مبايعتها وتطليقها . لا تنزل الحوادث ساحتها . ولا يعرف التعب من صافح راحتها . حمراء تخلع ثوبها على الندمان بل تكاد تطبق عينها على الإنسان » [1]

---

٢ — وكتب تقى الدين بن حجة ، استدعاء — من باب تمرين الغريحة — قال فيه ، وفيه إغراء بالحضور ووصف للخمور :

« يامولانا ! المماليك بروض جزت دموع الطل من أحداق حدائقه لفقدك . وضاقت أنفاس نسيمه وظهر الكسر فى قلب مائه لبعدك . وعاد تصفيق الموج لطما

---

١ — منقولة عن « تأهيل الغريب » لابن حجة ، باب الاستدعاءات .

وهى أيضا موجودة بتمامها فى ديوان فخر الدين بن مكانس ، وفى روض الآداب للشهاب الحجازى . وكل منهما مخطوط بدار ، الكتب المصرية . وقد استعنا بها جميعا على ضبط النص . — وذكر فى هامش « تأهيل الغريب » أن ابن مكانس رد على هذه الرسالة وبين مافيها من سرقات ، وأثبت الرد فى ديوانه — وقد تصفحنا ديوانه المخطوط بدار الكتب المصرية ، فلم نجده به .

على وجنات الأنهار . وخرج كل مغرد عن المغنى فلم يغن بعدك على عود وطار . وكأن ثغر الكأس قد ابتسم عن شذب فصار الشذب دموعا على وجنة حمرا . ولذهاب حواس الأنس لم يقل نديم الافاسقى خمرا . وصلب الراووق على وجهه وعادت قهقهات القنانى زمجرة . وقلبنا المثل ، فقلنا اليوم أمر وغدا خمر . لما أثبت قاضى العنب لغيبتكم محضره . ودار القدح على كعبه ، ولم يجدك فى الصحبة ، ففك عقود حبابه من طوقه ، وقال : انفرطت السبحة .

فيا فريد العصر لاتترك فريدة عصرها . ويا أفق الأنس لا تفرق بين شمسها وبدرها . ويا جابر القوم كيمياء الشراب مفتقرة إلى حسن تدبيرك . وكسرى وقيصر محدقان من وراء زجاجة إلى حضورك . فلا تدع ثغور الإقاح تعض على أصابع المنثور أسفا . فقد جرى من دموع الغمام على وجنات الورد ما كفى . وعافت الشمس رشف خمر الندى بكئوس الشقيق . ولم يجمع الورد فمه لتقبيل إذ صار عنده لغيبتك تحقيق . وانكشرت شوكته وخشى من نفيه إلى الكرك وورد حمامه . واعتراه من برد النسيم رعدة فلم يخرج يده عن أكمامه . وكادت الورق أن تمزق من حنينها إليك الأطواق . وهاهى تملى علينا شرح حالها من الأوراق . وعيون الأزهار قد اختلجت بنسمات قربك وطلقت الوسن . والماء والخضرة فى غاية الافتقار إلى وجهك الحسن . ولما بان فى دوائر الأنس لغيبتك يانعم الخليل زحاف اتفق الإجماع على فرط نظم الشمل ، فقال البان : عندى فى ذلك خلاف . والدولاب دموعه جارية وهو دائر على تسمع أخبارك . فبالله أرحنا من نومه الطويل على بحره المديد بقربك المتدارك . وكم شرعنا فى مذاكرة الأدب فلم نتأهل بغريب ، واعترتنا لغيبتك قلة الأدب . فياعروض الألسن لاتقابل دوائر الأقداح بفاصلة من غير سبب . فقد صار فم الجدول بماء ريقه مغصصا . وهاهو قد مد معصمه يضرب على قدومك بالحصا . وقد تحركت ألسنة النسيم فى ثغور الأزهار بأدعية مستجابة . ورفعت الغصون رءوسها إلى السماء وفتحت

كفوف أوراقها للإجابة . فأسبغ الله ظلال تلك الأرواح الوارفة عليك . وميلت يد النسيم قدود أغصانها لتقبيل الأرض بين يديك وفى إنشاء هذه التحايا مايرنحه إلى القرب ونشوة المدام . ومولانا أرق وألطف من يقابل برد التحية ، والسلام » .[1]

---

٣ — ومن لطيف ما كتب فى باب الاستدعاء ، مكاتبة أنشأها الكاتب الألمعى الأديب محيى الدين بن عبدالظاهر ، يدعو أحد أصحابه إلى حمام . وقد كانت الحمامات واسعة الانتشار فى ذلك العصر . يعرف ذلك مما سجله المقريزى فى خططه ، من أسمائها وأماكنها وأخبارها . ويبدو أنها كثيرا ما كانت ملتقى الأحباب، ومجتمع الأصحاب، ومجتلى السرور والأنس ، ومثار الأدب واللهو .

وترى فى استدعاء ابن عبد الظاهر بدائع معجبة و إشارات مطربة ، ورعايات للنظير ، وتوريات وجناسات مشوقة مناسبة ، قال :

« هل لك — أطال الله بقاءك ، إطالة تكرع بها من منهل النعيم . وتتملى بالسعادة تملى الزهر بالوسمى ، والنظر بالحسن الوسيم — فى المشاركة فى حمام جمع بين جنة ونار . وأنواء وأنوار . وزهر وأزهار . قد زال فيه الاحتشام فكل عار ولا عار . نجوم جاماته لا يعتريها أفول . وناجم رخامه لا يثيره ذبول . تنافست العناصر على خدمة الحالّ به . تنافسا أحسن كل التوصل فيه إلى بلوغ أربه . »

ومنها يذكر قيم الحمام ثم يُغرى المدعو بأشياء ، فقال وفى قوله بعض المجون :

« ثم إن الأشجار رأت أنها لا شائبة لها فى هذه الحظوة . ولا مساهمة بشىء من تلك الخلوة . فأرسلت من الأمشاط أكفا أحسنت بها وجوه الفرق . ومرت على سواد الغدائر الفاحمة كما يمر البرق . وذلك على يد قيم ، قيم بحقوق الخدمة . ماهر فيما يعامل به أهل النعيم من أسباب النعمة . خفيف اليد مع الأمانة . موصوف بالمهابة عند

---

١ — نصه فى (باب الاستدعاءات) بكتاب تأهيل الغريب .

أهل تلك المهانة . ألطف أخلاقا حتى كأنها عتاب بين جحظة والزمان . وأحسنُ صنيعة فلا يمسك إلا بمعروف ، ولا يسرح إلا تسريحا بإحسان . أبدا يرى من نظافته وهو ذو صلف . ويشاهد من بلا لكل أذى حتى لو خدم البدر أزال عن وجهه الكلف . بيده موسى كأنه صباح ينسخ ظلاما . أو نسيم ينفض عن الزهر أكماما . إذا أخذ صابونه أوهم من يخدمه بما يمره على جسده أنه بحر عجاج . لما يبدو من زبد الأعكان التى هى أحسَنُ من الأمواج .

فهلم إلى هذه اللذة . ولا تعد الحمام دعوة أهل الحرف فربما كانت هذه من بين تلك الدعوات فذة . ولعل سيدنا يشاهد مالا يحسن وَصفه قلمى . ولا ينسق عطفه يدى ولا فمى . وإذا جنح بى عنان بنانى فأقول : وأخلع للخلاعة ما تستر به ذوو العقول :

لدىّ — ألهمك الله — غصون قد هزها الحسن طربا بل رماح لغير كفاح قد نشرت من شعورها عذبا . وبدور أسبلت من الذوائب غيهبا . قد جعلت بين الخصور والروادف من المآذر برزخا لا يبغيان . وعلمنا بهم أننا فى جنة تجرى من تحتها الأنهار وتطوف بها الولدان . يكاد الماء إذا مر على أجسادهم يجرحها بمره . والقلب أن يخرج إلى مباشرتها من الصدر ، وعجيب لامرىء لا يلقى الأمور بصدره . إذا أسدل بعضهم ذوائبه ترى ماء عليه ظل وارف . وجوهرا من تحت عنبر يشف . يطلب كل منهم السلام ، وكان الواجب أن تطلب منه السلامة . كيف لا وقد غدا كل منهم أمير حسن وشعره المنشور ، وخالهُ العلامة . إذا أفاض ماء بيده على الحضار . قلت هذا بدر بيده نجم تقسم منه أشعة الأنوار . وإن أخذ غسولا وأمره على جسمه مفركا . لم يبق عضو إلا اكتسب منه لطافة وراح مدركا . فما عذرك فى انتهاز تلك الفرص . واقتناص هذه الشوارد التى يعذر فيها من اقتنص . والله تعالى يوالى إليك المسار . ويجعلها لديك دائمة الاستقرار . بمنه وكرمه . »[1]

---

١ — عن فوات الوفيات لابن شاكر جـ ١ ٢٧٣

د — رسائل اخوانية متنوعة :

ألمعنا فى مطلع الحديث عن الرسائل الإخوانية إلى تنوعها بتنوع أغراضها . ثم عرضنا بالتفصيل والتدليل لبعض منها . ويضيق نطاق هذا البحث عن رغبتنا فى استيعاب كل ألوانها ، وإيراد نماذج لكل نوع ، لنستكمل بذلك أسباب البرهنة على حياة هذا اللون الأدبى بين ألوان الكتابة ، وعلى قوة هذه الحياة ، وعلى المبلغ الواسع الذى بلغه فى تأدية حاجة المجتمع .

ونعتقد أن ما سطرناه آنفا ، يجيز لنا الوقوف عنده ، والاجتزاء به ، وحسبنا هنا فى خاتمة الحديث عن الإخوانيات أن نسجل مثلين آخرين فى غرضين مختلفين ، ثم نتبع ذلك بثبت ببعض النماذج الأخرى ، إكمالا للبرهنة والتدليل .

---

١ — فهذه مكاتبة طريفة فى التبرىء والاعتذار . دبجها الأديب الخفيف الظل فخر الدين بن مكانس إلى الصاحب زين الدين بن أبى بكر العجمى . وكلاهما من أهل الأدب والشعر والعلم . وقد أثارها بينهما رجل ضرير من أهل القيروان يسمى « عبدالله الزغبى » يتعاطى نظم الشعر المقفى الموزون ، الخالى من المعانى . وكان يتردد على الأديب الكاتب الشاعر فخر الدين بن مكانس ، فى مجالسه مع أهل الأدب . فوشى إلى الشيخ زين الدين بن أبى بكر العجمى — عين كتاب الإنشاء الشريف — أن فخر الدين اهتضم جانبه وتنقصه فى مجلسه وغض فى منزلته بين الأدباء ، ونسب إليه أنه يستعين فى كلامه بكلام غيره كثيرا . فتأذى الشيخ زين الدين من ذلك . ولما بلغ الخبر مسامع فخر الدين تألم للوشاية ، وبعث إلى صديقه زين الدين يتبرأ ويعتذر ويمدحه ويذكر مكانته بين أهل الأدب . قال فى مفتتحها :

« ليس على الأعمى حرج . بلغنى — بلغ الله سيدنا ومولانا الإمام العالم العلامة

الأديب الشاعر الناظم الناثر المحقق الأمة الكاتب الحجة . زين الدنيا والدين . قرة عين الكرام الكاتبين أقصى ما ينتهى إليه تنافس المتنافس وتبتهج به صدور الأولياء والرؤساء والمجالس . ولا زال زينة يحلى به العاطل . ويظل تحت جناح أدبه القائل — من غيبة ذلك الضرير . ما لا خشى الله فيه بظهر الغيب . ونقل إلى المسامع الكريمة ما لا يحتاج للاعتذار عنه لما فيه من الريب ولكن لاغناء لسيف ذهن المملوك من التنصل . ولا بد من نهلة اعتذار على سبيل التملل . وكان المملوك يترقب سببا للمطارحة . فهذا المغتاب الآن صار عنده محمودا إذ كان السبب لحسن التوسل إلى صناعة الترسل . »

ومنها يمدحه ويتبرأ :

« فلو اختلف الأدباء على إمام لأهل هذه الصناعة ، مطهر من الأرجاس . لقال لهم لسان البلاغة مروا أبا بكر فليصل بالناس . فكيف يسوغ للمملوك أن يدعى غير هذا . وكيف ولم ولماذ ؟ . أحسدا على الأدب . فما أهجرنى له منذ عصر الصبا بحمد الله وما أغنانى . أو تفاخرا بالنظم فما أشغلنى عنه بتدبير الممالك بما عنانى . نعم وإن كان جوهر الألفاظ مما يحسد عليه ، فما أزهدنى — والله — فى هذا العرض الفانى . »

ومنها يسأله قبول المعذرة ، وعدم الإنصات إلى الواشى ، قال :

« والمسئول من إحسانه أمران ، أحدهما : الجواب فإنه يقوم عند المملوك مقام الفرج من هذه الشدة . والآخر رد كل فاسق عن الباب العالى ، فإن أبا بكر أول من تصلب فى الردة . وبلغ المملوك أن هذا الضرير قصد بعض الأصحاب برمية كهذه فأصمى . وتردد إليه مرة أخرى فعبس وتولى أن جاءه الأعمى . »[1]

---

١ — عن الأدب لابن حجة الحموى (باب الاقتباس) ص ٤٤٨ .

٢ — ومن التعزيات الإخوانية ما كتبه الأديب الشاعر الفقيه زين الدين بن الوردى معزيا بوفاة شرف الدين بن البارزى ، قال :

« وينهى أنه بلغه انهداد الطود الشامخ . وزوال الجبل الراسخ . الذى بكته السماء والأرض . وقابلت فيه المكروه بالندب وذلك فرض . فشرقت أجفان المملوك بالدموع ، كما شرق صدر القناة من الدم ، وأحرق قلبه بين الضلوع . فراق وما فارقت غير مذمم . وساواه فى حزنه الصادر والوارد . واجتمع الناس لمأتم واحد . فالعلوم تبكيه والمحاسن تعزى فيه . والأقلام تمشى على الرءوس لفقده . والمصنفات تلبس حداد المداد من بعده . ولما صلى عليه يوم الجمعة صلاة الغائب بحلب . ارتفع الضجيج واشتد النشيج وغلب . فلا خاص إلا حزن قلبه . ولا عام إلا طار لبه . فإنه مصاب زلزل الأرض . وهدم الكرم المحض . وسلب الأبدان قواها . ومنع عيون الأعيان كراها . ولكن عزى الناس لفقده . كون مولانا الخليفة من بعده . فإنك خلف عظيم لسلف كريم وأنت أول من قابل هذا الفادح العارم بالرضا . وسلم إلى الله فيما قضى .

سلم إلى الله فكل الذى ... سرك أو ساءك من عنده

إن الذى الوحشة فى داره ... تؤنسه الرحمة فى لحده »الخ[1]

وبعد سطور ، عقب بقصيدة فى نحو ٣٢ بيتا ختم بها الرسالة .

وهاك رسائل أخرى فى أغراض متنوعة :

١ — رسالة بقلم القاضى فخر الدين عبد الوهاب كاتب الدرج إلى صديق له متهم بحب عبده . وكلها دعابة ومجون وتوريات من وَاديهما ، وإيهامات واضحة المرمى ، ماجنة الهدف — فى خزانة الأدب فى باب براعة الاستهلال . ص ١٧ .

٢ — رسالة بقلم ابن حجة الحموى فى تهنئة السلطان المؤيد شيخ بمولود — فى

---

١ — عن ديوان ابن الوردى .

خزانة الأدب ص ٤٦٥ ، باب حسن الختام .

٣ — رسالة بقلم الشهاب محمود الحلبى إلى شخص فى تزويج أمه — حسن التوسل ص ١٦٦ .

٤ — رسالة بقلم الشهاب محمود الحلبى إلى منهزم مع جيشه ، يقيم عذره ، ويحثه على المعاودة — حسن التوسل ص ١٦٧ .

٥ — رسالة بقلم الشهاب محمود الحلبى إلى منهزم يذمه ويقرعه — حسن التوسل ص ١٦٩ .

٦ — رسالة بقلم الشهاب محمود الحلبى على لسان مولود وُلد ووالده مسافر فى رحلة للصيد ، — إلى والدهُ — حسن التوسل ص ١٧١ .

٧ — رسالة لابن مالك النحوى إلى الظاهر بيبرس يستعين به على صلاح حاله — حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٥ فى ذكر سلاطين مصر .

٨ — رسالة لابن نباتة المصرى إلى ابن فضل الله يطلب صرف راتبه المتأخر — الوافى بالوفيات فى سياق ترجمة ابن نباتة

٩ — وفى كل من ديوانى ابن الوردى والصفى الحلى وألحان السواجع للصفدى ، رسائل إخوانية عدة .

الفصل الرابع

الإجازة والاستجازة

الإجازة ضرب من ضروب الرسائل ، وهى « شهادة » يمنحها أحد شيوخ العلم أو فحول الأدب ، لأحد تلاميذه ، أو من يتقدم إليه بطلبها . وهى ثلاثة أنواع : إجازة الفتيا والتدريس ، وإجازة العراضة ، وإجازة الرواية .

أ — النوع الأول : الإجازات العلمية :

الإجازة العلمية : هى إذن بالفتيا والتدريس ، يمنحها أحد العلماء لتلميذ من تلاميذه . ممن واظب على أخذ العلم عنه . وجهد فى فهمه وتحصيله ، وبذل فى الإلمام بأطرافه ، وبدا منه لشيخه حرصه الشديد على العلم ، ومثابرته فى سبيله. أو يكون قد قرأ على شيخه كتابا معينا من كتب العلم ، فى فقه أو نحو أو منطق أو غيره ، قراءة درس وفهم . أو لقن من شيخه جملة من أحاديث الرسول عليه السلام ، إذا كان شيخه من حفاظ عصره .

وهذه الإجازات ذات أهمية كبرى فى حياة الطالب . فهى تجيز له التصدر للفتوى، والتصدى للتدريس ، أو إملاء الحديث ، وروايته لطلابه . وتسوغ له التوظف فى إحدى وظائف العلم . ومنها يسلك طريقه إلى عليا المناصب فى القضاء ونيابة الحكم والإمامة . فهى — على هذا — تفتح له باب العمل والكسب والجاه .

وهى بمثابة الإجازات الدراسية فى عصرنا الحديث . وتزداد قيمتها بقيمة مانحها وبتعددها فى يد الطالب . ولهذا كان نوابغ الطلاب جد حريصين على ملاقاة مشهورى الشيوخ فى الأمصار المتباعدة . ولهذا كثرت رحلتهم وطاف كثير منهم البلاد وتحملوا المشاق ، ساعين إلى شيوخهم سعى مشتاق . ويلازمونهم ملازمة الظل حتى يستفرغوا

مافى جعابهم من علم غزير وفقه وفير ، و يتشربوا مافى نفوسهم من معرفة، فيكونوا بحق ورثة علمهم ، والأمناء على الدين وعلى علومه من بعدهم. ثم يستمنحونهم هذه الإجازات التى هى عبارة عن رسائل يكتبها لهم شيوخهم . و بلغ عدد شيوخ بعضهم عشرات بل مئات.

و إذا استطاع الطالب بجده ومثابرته ، وذكائه وعبقريته أن يُمنح الإجازات وهو فى سن مبكرة ، كان ذلك مفخرة له فى حياته ، وشرفا يذكر فى ترجمته . وقد روى جلال الدين السيوطى فى ترجمته لنفسه ، « أنه أجيز بتدريس العربية فى نحو السابعة عشرة من عمره . وأجيز بالتصدر لتدريس الفقه والفتيا فى نحو السابعة والعشرين » وهى سن مبكرة بالنسبة لجلال الفتوى. وتجد أمثال ذلك كثيرة فى تراجم النابهين من علماء العصر[1] : ولهذا لانبالغ إذا قلنا إن العصر حظى بمئات من هذه الرسائل الأدبية.

وكان السلطان المؤيد شيخ المحمودى يحمل إجازة برواية صحيح البخارى ، من حافظ زمانه « سراج الدين البلقينى » لم تكن تفارقه سفرا ولا حضرا ، وكانت موضع فخره[2].

والشيوخ من جانبهم لم يكونوا يمنحون هذه الإجازات جزافا واعتباطا و بغير وعى و إنما يمنحونها بعد خبرة وتجربة ورو ية وتؤدة. إذ كانوا يقدرون الأمانة حق قدرها. و إنك لتشعر بذلك الحرص بارزا فى سياق إجازاتهم نفسها إذ يحددون فيها بالضبط ما قرأه عليهم المجاز ، وفهمه .

وتكتب هذه الإجازات بعبارات مسجوعة بديعية ، يذكر فى مقدمتها ،عادة ، اسم المجاز ونسبه ، ويسبغ عليه آيات من الثناء والحمد ، وتنويه بالغ بما وهب له من ذكاء ، وما رزق من مثابرة ، وما بذل من مجهود ، وفيها تسجيل لما قرأه ودرسه وفهمه

---

١ — تراجع تراجم أفذاذ علماء العصر فى الدرر والضوء ونحوهما . وترى فيها إشارات إلى إجازتهم ومن أجازوهم .

٢ — راجع ترجمة المؤيد شيخ فى الضوء اللامع ج ٣ رقم ١١٩٠ .

من شيخه . ولا تخلو الرسالة من أن تتخللها أبيات شعرية فى المعنى ، وتصويرات خيالية لطيفة ، وتشبيهات لا بأس بها ، ورعاية لألوان بديعية فيها اتفاق موسيقى أو طرائف معنوية . وهكذا ترى أن الإجازة تحولت إلى قطعة أدبية معجبة مطربة ، يتجلى فيها الفن الكتابى . وهى متأثرة إلى حد كبير بالمنهج الديوانى فى مراسلاته .

وربما سبق الإجازة ، استدعاء من المجاز . والاستدعاء هنا «استجازة» . والاستجازة رسالة يقدمها الطالب إلى شيخه يستمنحه الإجازة ، ويدعوه إليها . ومن ثم سميت استدعاء أو استجازة .

وفى الاستجازة يبدى الطالب لشيخه جميل التواضع وجليل الولاء ، ويبرز ما أفاده منه من العلم ، وما اشتهر به شيخه من صفات النبل وأخلاق الفضل ، ويدعو له دعوات متنوعة ، فيكون رد شيخه عليه ، إجازته .

ويكتب الاستدعاء بأسلوب الإجازة الذى أشرنا إليه ، ومن هنا ترى أنه بدوره نمط من الرسائل الأدبية . والإجازة والاستجازة ، فرصة مناسبة للتلميذ وشيخه ، يتقارضان فيها الثناء والإطراء .

ويبدو لنا أن الشيخ أحيانا ، يستقل بكتابة إجازته لتلميذه ، بقلمه هو ، وأحيانا يكل أمر كتابتها إلى غيره من أرباب الخبرة بالإنشاء ، تحت إرشاده ، ثم يعقب عليها بقلمه مقرا ما جاء فيها ، مشهدا على نفسه بصحته . ولا تقل عبارته حينئذ ، فى أدب أسلوبها ومستواه عن أسلوب الإجازة نفسها . ومن أمثلة ذلك ، إجازة الشيخ سراج الدين بن الملقن لشهاب الدين القلقشندى صاحب صبح الأعشى . فإنه ليبدو لنا أنها من إنشاء القلقشندى نفسه . وكتبها له بخطه القاضى تاج الدين بن غنوم . وعلق الشيخ سراج الدين بن الملقن عليها فى أعقابها[1]

---

١ — راجع ج ١٤ من صبح الأعشى ص ٣٢٢ .

وبهذه المناسبة نشير إلى أن هذه الإجازات، كان يعتنى بكتابتها خطا ـ وباختيار نوع الورق الذى تسطر فيه.

وقد قال القلقشندى عن هذه الإجازات ما يلى:

« أما الإجازة بالفتيا فقد جرت العادة أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس أن يأذن له شيخه فى أن يفتى ويدرس. ويكتب له بذلك. وجرت العادة أن يكون ما يكتب فى الغالب فى قطع عريض. إما فى فرخة الشامى أو نحوها من البلدى. وتكون الكتابة بقلم الرقاع أسطرا متوالية، بين كل سطرين نحو إصبع عريض »[1]

وإليك أمثلة لهذه الإجازات العلمية:

١ — من إجازة العلامة سراج الدين[2] بن الملقن لتلميذه شهاب الدين القلقشندى صاحب صبح الأعشى، بتدريس فقه الشافعى — ويبدو أنها من إنشاء القلقشندى نفسه — قال فى مطلعها بعد البسملة:

« الحمد لله الذى رفع للعلماء مقدارا. وأجزل نعمه عليهم إذ أعلى لهم منارا. ووفق بسواء الطريق من اقتدى بهم إيرادا وإصدارا. أشرعت همهم العلية فى حلبة السباق فهى لا تجارى. وتحلوا بالمفاخر جهرا، وقد عجز غيرهم أن يتحلى بها إسرارا. أبرزهم هالات المفاخر أقمارا. وأزال بضياء علومهم ريب الشك حتى عاد ليل الجهالة نهارا. وجعلهم لدينه أنصارا. وصيرهم نخبة أصفيائه إذ أودعهم من المعارف أسرارا. واختصهم بكونهم ورثة أنبيائه، وناهيك بها فخارا. » الخ

وظل يحمد الله ويثنى عليه ويصلى على نبيه الكريم. ثم أخذ يشيد بعلم الشريعة

---

١ — راجع ج ١٤ من صبح الأعشى ص ٣٢٢ ٢ — سراج الدين بن الملقن من أفذاذ علماء مصر. كان شافعى المذهب. وله مؤلفات فى الحديث والفقه، قيل بلغت مؤلفاته نحو ٣٠٠، ومات سنة ٨٠٤ هـ (ترجمته فى الضوء اللامع ج ١١ رقم ١٨٢).

ويبين منزلته بين العلوم ، وضرورته لمصالح الناس فى الدنيا والآخرة . فقال :

أما بعد . فقد وضح لذى الأبصار والبصائر . واتضح عند ذوى الأسرار والسرائر واستقر عند ذوى القلوب السليمة . والعقول الراجحة المستقيمة . أن منزلة علم الشريعة عند الله تعالى أعلى المنازل وفضله أفضل المآثر وآثر الفضائل . وخصوصا معرفة تفاصيل أحكام أفعال المكلفين بالشريعة المحمدية . التى من علمها وعمل بها فقد سعد السعادة الأبدية . إذ هى الشريعة الجامعة لمصالح الدنيا والآخرة . الناسخة لما خالفها الشرائع الغابرة . الباقية إلى أن يأتى وعيد الله وكل شريعة سواها داثرة » الخ .

ومنها يذكر المجيز ويبين ما امتاز به من فضائل :

« ولما كان — فلان — أدام الله تعالى تسديده وتوفيقه ، ويسر إلى الخيرات طريقه . ممن شب ونشأ فى طلب العلم والفضيلة . وتخلق بالأخلاق المرضية الجميلة الجليلة . وصحب السادة من المشايخ والفقهاء . والقادة من الأكابر والفضلاء . واشتغل عليهم بالعلم الشريف اشتغالا يرضى . وإلى نيل السعادة — إن شاء الله — يفضى . استخار الله تعالى سيدنا وشيخنا وبركتنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، الشيخ الإمام العلامة الحبر الفهامة . فريد دهره ونسيج وحده . جمال العلماء . عمدة الفقهاء والصلحاء ، سراج الدين ، مفتى الإسلام والمسلمين »

وظل يذكر الشيخ المجيز حتى قال :

« وأذن وأجاز لفلان المسمى فيه — أدام الله تعالى معاليه . أن يدرس مذهب الإمام المجتهد المطلق العالم الربانى . أبى عبد الله محمد بن أدريس المطلبى الشافعى رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة متقلبه ومثواه — وأن يقرأ ما شاء من الكتب المنصفة فيه . وأن يفيد ذلك لطالبيه . حيث حل وأقام ، كيف شاء ، ومتى شاء وأين شاء . وأن يفتى من قصد استفتاءه خطا ولفظا ، على مقتضى مذهبه الشريف المشار إليه . لعلمه بديانته وأمانته ومعرفته . وأهليته لذلك وكفايته .

فليتلق — أيده الله تعالى — هذه الحلة الشريفة . وليترق بفضل الله تعالى ذروة هذه المرتبة المنيفة . وليعلم قدر ما أنعم الله تعالى عليه . وأسدى من الإحسان الوافر إليه . وليراقبه مراقبة من يعلم اطلاعه على خائنة الأعين وما تخفى الصدور . وليعامله معاملة من يتحقق أنه يعلم ما يخفيه العبد وما يبديه فى الورود والصدور . ولا يستنكف أن يقول فيما لا يعلم لا أعلم . فذاك قول سعد قائله وقد جاء « جُنة العالم لا أدرى . فإن أخطأها أصيبت مقاتله . » . فالله تعالى يرزقنا وإياه التوفيق والتحقيق . ويسلك بنا وبه أقرب طريق . ويهدينا إلى سواء السبيل . فهو حسبنا ونعم الوكيل . » .

وقد تجلى فى سطور هذه الإجازة ، الأسلوب البديعى بفقراته المسجوعة . تطول وتقصر ، دون لجاجة أو إلحاح . وبدأت بحمد الله والثناء عليه . مع إطالة فى هذا التحميد . ثم بالصلاة على النبى الكريم ، ثم خطبة فى فضائل علم الشريعة ، ثم ذكر المجيز ومنزلته العلمية ، ثم المجاز ومزاياه . ثم الإجازة والإذن ، ثم التوصية للمجيز بما ينبغى أن يتبعه ، وهو دستور علمى قويم . ثم الدعاء للمجاز . وختمها بقوله حسبنا الله ونعم الوكيل » .

وهذا النهج هو الغالب على أسلوب الإجازات فى جملتها .

ونلحظ فى الإجازة السالفة عدم الغلو والاسترسال فى صفات المجاز ومدحه . ولعل سبب ذلك أنه هو كاتبها كما أشرنا . أما فى غيرها من الإجازات فإننا نرى إطنابا فى مدحه وفى ذكر صفاته .

وقد علق الشيخ سراج الدين بن الملقن على الإجازة السالفة بما يفيد إقراره لما جاء فيها فكان مما كتبه فيها قوله :

« ما نسب إلى فى هذه الإجازة المباركة من الإذن — لفلان — أدام الله تعالى النفع به ، وأجرى كل خير بسببه . بتدريس مذهب الإمام المطلبى ، محمد بن إدريس

الشافعي — قدس الله روحه ، ونور ضريحه — والإفتاء به لفظا وخطا ، صحيح . فإنه ممن فاق أقران عصره بذكائه . وبرع عليهم بالاستحضار وتحرير المنقول ووفائه .

وقد اعتنى — وفقه الله تعالى وإياى — من جملة محفوظاته ، بمختصر الجوامع لشيخنا العلامة . . كمال الدين[1] النشائى » تغمده الله تعالى بغفرانه — فاستحضر بحضرتى مواضع منه جمة . وأزال ببديع فصاحته جملة مدلهمة . وأظهر من مشكلاته ما يعجز عنه اللبيب . ومن أعاريبه ما يقف عنده البارع الأديب . فليتق الله حينئذ فيما يبديه . وليتحر الصواب فى لفظه وخطه وليراقب الله فيه . فإنه موقع عن الله تعالى فليحذر الزلل . ومحاولة الخطأ والخطل . »الخ[2]

---

٢ — وكتب زين الدين بن الوردى إجازة لمن يسمى « تقى الدين أبا بكر » بأنه قرأ عليه مواضع من كتاب « البهجة الوردية » فقال مع توريات بمصطلحات الفقه :

« أما بعد حمد الله الذى زاد أهل العلم شرفا ورقيا . وجعلهم خلف السلف ، فحبذا سلفا وخلفا تقيا . والصلاة على نبيه محمد الذى جعل فى حربه وسلمه ، الموت والحياة . وسجل لعترته المنيفة كتاب الطهارة ، وأتبع من أصابعه الشريفة باب المياه . وعلى آله الذين فتح لهم باب الولاء لإحياء الموات . وأغلق عنهم باب الرد بالعيب لما زكا معدنهم وطاب بناؤهم ، فهذه زكاة المعدن والنبات . وعلى صحبه المعدودين من خيار المجلس . المقصودين للاستسقاء وصرف القبض عن المفلس . وعلى تابعيهم الذين عقلوا الوصايا فأدوا فرائض العبادات . وحسنت منهم السير فنزه تعديلهم عن الجرح الشهادات .

---

١ — كمال الدين النشائي : أبو العباس أحمد بن عمر بن أحمد . كان إماما حافظا متصوفا . زاول التدريس بجامع الخطيرى وغيره بمصر . وكان شافعيا ممتازا . وله مؤلفات عدة منها جامع المختصرات وشرحه ، والمنتقى . وتوفى بالقاهرة سنة ٧٥٧ هـ : وترجمته فى الدرر ج ١ ص ٥٧ — وحسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٧ — وشذرات الذهب ج ٦ ص ١٨٢ .

٢ — الإجازة فى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٢٢ ، ٣٢٦ .

صلاة تعقب الجنايات بالمسابقة إلى جنة وحرير . وتوجب القضاء بالعتق والعفو عن القصاص وحسن التدبير .

فقد قرأ علىّ تقى الدين أبو بكر — أمده الله بالرفعة والرقى — ونفع به الناس . فما أحوجهم إلى النقى . من كتابى « البهجة » مواضع متفرقة . بتدبر حسن وعبارة مطلقة . وتفهم للدقائق . ووقوف على الأسرار والحقائق . وبحث عن غوامض ومهمات . وتنبه لفوائد وتتمات . آذن ذلك منه بذهن وقاد . وفكر صحيح منقاد . زاد البهجة بهجة . وكم أبدى من بنت فكر تعتضد من الأم بإملاء الحجة . والله يضاعف علو قدره . ويجمل نظراءه ببقائه ، فقد سبقهم أبو بكر بشىء وقر فى صدره »[1]

ب — النوع الثانى أجازات العراضة :

وهى إجازات علمية أيضاً ، وعلى نمط من النوع الأول . ولكن الفارق بينهما فى الموضوع . إذ موضوع النوع الثانى حفظ الطالب كتابا أو كتبا معينة، يعرضه أو يعرضها على شيخه ، فيختبره فى حفظه من مواضع مختلفة مما حفظ ، حتى يتبين له تمام حفظه وجودته ، فيمنحه بذلك إجازة تسمى « إجازة العراضة » لأن الطالب ينالها بعد أن « يعرض » ماحفظه على شيخه .

وقد قال القلقشندى بصددها :

« وأما الإجازة بعراضة الكتب ، فقد جرت العادة أن بعض الطلبة إذا حفظ كتابا فى الفقه أو أصول الفقه أو النحو ، أو غير ذلك من الفنون ، يعرضه على مشايخ العصر . فيقطّع الشيخ المعروضُ عليه ، ذلك الكتاب ، ويفتح منه أبوابا ومواضع يستقرئه إياها من أى مكان اتفق . فإن مضى فيها من غير توقف ولا تلعثم ، استدل

---

١ — عن ديوان بن الوردى .

بحفظه تلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب . وكتب له بذلك كل من عُرض عليه ، في ورق مربع صغير . يأتى كل منهم بقدر ما عنده من الملكة فى الإنشاء ، ما يناسب ذلك المقام من براعة الاستهلال ونحوها . فمن عال ومن هابط . وربما خفف بعضهم فكتب : « وكذلك عرض علىّ فلان » . أو « عُرض علىّ وكتبه فلان » . — إما رياسة وتأبيا عن شغل فكره وكد نفسه فيما يكتبه ، وإما عجزا عن مضاهاة من يكتب معه . »[1]

هذا . وتكتب « إجازة العراضة » بأسلوب مشابه لأسلوب إجازة الفتوى والتدريس. ويبدو أنها كانت تمنح للطلاب الماشئين فى حين تعتبر إجازة الفتيا والتدريس إجازة عليا نهائية ، تمنح للطلاب المنتهين .

والواقع أن مراحل التعليم فى ذلك العصر — عدا التعليم العسكرى — كانت ثلاثا

الأولى : مرحلة الصغر ، وفيها يدخل التلميذ مكتبا ، فيحفظ القرآن الكريم ويعلم شيئاً من الخط والإملاء ونحوها .

والثانية : فى بدء الشباب ، وفيها يكب التلميذ على كتب العلم كالفقه والنحو والصرف والأصول والحديث ، فيحفظ منها ما وسع جهده ، وقدرت عليه طاقته وسمت إليه همته وعاونه عليه استعداده . ثم يعرض محفوظاته على شيوخ من جلة عصره . فإذا اقتنعوا بحفظه وجودته ، منحوه إجازة عراضة . . وهى شهادة المرحلة الثانية . ويُعد ما يحفظه الطالب فى هذه المرحلة ، خير معين له ومرشح على دخول المرحلة الثالثة .

والثالثة : فى إبان الشباب وينعه ، ويعكف فيها الطالب على الدراسة والبحث ، والمناقشة والجدل ، والفهم والاستيعاب . حتى يستقيم لسانه ويثبت جنانه ، ويحصف عقله وتجود قريحته . ويستقصى بعض الكتب أو الأحاديث ، دراسة وفهما ، حتى

١ — عن صبح الأعشى ح ١٤ ص ٣٢٧ .

يصبح أهلا للافادة بها . حينئذ يقدم « استدعاء أو استجازة » إلى بعض شيوخه ، فيجيزه ، على نمط ما قدمنا

ولعل من المناسب هنا أن نضرب مثلا لمحفوظات أحد طلاب ذلك العصر . وهو « شمس الدين السخاوى » صاحب « الضوء اللامع » . فقد قال فى ترجمته لتاريخ حياته ماؤداه : أنه فى صغره حفظ القرآن وجوده ، وحفظ كتبا منها : عمدة الأحكام ، والتنبيه والمنهاج الأصلى وألفية ابن مالك ، والنخبة .

ثم قال ماؤداه : « وكلما انتهى حفظه لكتاب عرضه على شيوخ عصره »[1] وترى مثل ذلك فى كثير من تراجم غيره .

و إليك أمثلة لإجازة العراضة :

١ — كتب العلامة بدرالدين محمد بن أبى بكر المخزومى المالكى ، إجازة عراضة ، لشهاب الدين أبى العباس أحمد بن شمس الدين أبى عبد الله محمد العمرى الشافعى ، حين عرض عليه كتاب « عمدة الأحكام » للحافظ عبد الغنى[2] وكتاب «شذورالذهب» لجمال الدين بن هشام المصرى[3] وذلك سنة ٨١٧ هـ ، فقال ، وفى مستهلها توريات لطيفة:

« أما بعد حمد الله على كرمه الذى هو عمدتنا فى النجاة يوم العرض ، وناهيك بها عمدة . وسندنا الذى لايزال لسان الذوق يروى حديث حلاوته عن صفوان بن عسال من طريق شُهْدَه . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أحيا بروح سنته الشريفة كل من جاء ومن ذهب . وأعربت كلماته النفيسة عن عقود الجوهر و «شذور الذهب». وعلى آله وصحبه الذين أحسنوا الرواية والدراية . وبنوا الأمر على أساس التقوى

---

١ — الضوء اللامع ح ٨ ص ٢

٢ — الحافظ عبد الغنى بن عبد الواحد على المقدسى الحنبلى الزاهد الحافظ مؤلف عمدة الأحكام وغيره . مات بمصر سنة ٦٠٠ هـ (حسن المحاضرة ح ١ ص ١٦٥) .

٣ — جمال الدين بن هشام المصرى النحوى الأديب المشهور صاحب المغنى والشذور وغيرهما ، مات عام ٧٦١ هـ (الدرر ح ٢ رقم ٢٢٤٨) .

وأعربوا عن طرق الهداية . ما أنهل من أفق الكرم المحمدى كل عارض صيب . وتحلت الأسماع والأفواه من أخباره بنفائس الشذور البديعة وحلاوة الكلم الطيب .

فقد عرض علىّ الجناب العالى البارعى الأوحدى الألمعى اللوذعى الشهابى ، شهاب الدين ، نخبة النجباء أوحد الألباء نجل السادة العظماء . سلالة الأعيان العلماء . أبو العباس أحمد ابن سيدنا المقر الكريم العالى المولوى العالمى الفاضلى البليغى ، المفيدى الفريدى المفوهى ، الشمسى ، العمرى ـ أطاب الله حديثه ، وجمع له بالإعراب عن علو الهمة قديم الفضل وحديثه ـ طائفة متفرقة من « عمدة الأحكام » للحافظ عبد الغنى المقدسى ، و « شذور الذهب » للعلامة جمال الدين بن هشام — رحمة الله عليهما — عرضا قصرت عنه القرائح على طول جهدها . وكانت الألفاظ الموردة فيه لأمة حرب الفئة الباغية عليه ، فأحسن عند العرض فى سردها . وزين ـ أبقاه الله ـ تلك الأماكن بطيب لحنه وإعراب لفظه وآذن امتحانه فيها بأن جواهر الكتابين قد حصلت بمجموعها فى خزانة حفظه » الخ . (١)

---

٢ — وكتب ابن الوردى من إجازة « لابن العطار » بعرض كتاب « التنبيه » فقال :

« أما بعد حمدا لله بمحامده كلها . والصلاة على نبيه أشرف البرية رتبة وأجلها . وعلى آله وصحبه أحق الناس بكلمة التقوى وأهلها . فقد عرض علىّ « ابن العطار » أنبته الله نباتا حسنا وبلغه من فهم العلم المنى ، عرضا زاد هذا الطفل طولا . وكفل له — إن حرص — اليد الطولى . دل به على حفظ الكتاب كله . فأكبرت لصغر سنه مثل ذلك من مثله . قائلا : « إنك من أطفال أرجو أن تكون لهم فى العلوم رسوخا . ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا . سر الله بك أباك فى السر والجهر . فهو سبحانه إذا شاء خرق العادة فيصلح بابن العطار ما أفسد الجهر » (٢)

---

١ — عن صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٢٧ ٢ — عن ديوان ابن الوردى ص ١٧٤

م — النوع الثالث : الإجازات بالرواية الأدبية :

هو الإجازة برواية المؤلفات الأدبية التى ألفها المجيز . وهذا الضرب يسبقه عادة « استدعاء » من طالب الإجازة — أى استجازة . وهذا الضرب إن لم يفق الضرب الأول فى سمو أسلوبه وأناقة تراكيبه ، وعلو عباراته ، لا يقل عنه فى ذلك .

ونعنى بالاستدعاء أو الاستجازة ، أن يسعى أديب إلى أديب آخر ، يكون — غالبا — أنضج منه أدبا ، وأرحب أفقا ، وأبعد شهرة ، فيكتب إليه رسالة يضمنها طلبه منه أن يمنحه إجازة برواية آثاره الأدبية ، ومصنفاته ومروياته ، سواء أكانت شعراً أم نثرا . ليكون بذلك أحد رواة أدبه ، تشريفا له من ناحية ، وتحملا لأمانة الرواية عنه ، من ناحية أخرى ، حيث يكون قد شافه بنفسه ، صاحب مروياته . وهذا أدعى إلى الثقة به ، والإقبال عليه والأخذ عنه ، مادام يحمل منه إجازة بالرواية . تلك الإجازة التى تعد فى الواقع شهادة بصدق الراوى ، والثقة به فى الأداء . وهى تخول له أن يحمل أمانه الرواية إلى من بعده . وبذلك تظل سلسلة رواية الأدب والتصانيف ، وصولة إلى المؤلف . وفى ذلك ما فيه من شيوع الثقة فى المرويات .

والاهتمام برواية الآثار الأدبية شفاها عن أصحابها ، عادة جاهلية محمودة ، ولقد لبثت متبعة حتى عصر المماليك متأثرة بعناية حفاظ الحديث فى ضبطه وروايته بعد الإجازة .

واعتاد المستدعى أن يكتب رسالته بعبارة بديعية خلابة ، ينوثب فيها الخيال ، ويطفر الخاطر ، ويتناثر فيها المديح وذكر فضائل المجيز ، وماله من قدرة أدبية وفضائل علمية ومنافع قدمها أيادى بيضا لبنى الإنسان .

والإجازة ، هى رسالة يرد بها المجيز « أو المستجاز والمستدعى » على طالب الإجازة « المستدعى » يجيب فيها طلبته ويحقق رغبته ، ويضفى عليه فيها آيات من

الثناء ، و بينات من الإطراء . وقد يسوق إليه خلالها نسبه — نسب المجيز — واسمه وأخباره ، و يسجل مؤلفاته وأسماءها واحدا واحدا . وكثيرا ما يعروه التواضع حينذاك ، و يعف عن مدح نفسه بقلمه .

ومن هذا وذاك ترى أن الاستدعاء والإجازة بالرواية ، رسالتان يتقارض فيهما الصديقان المتراسلان الأديبان ، الثناء ، و يتبادلان الحمد ، و يمتنان روابط المودة ، و يكرم كل منهما الآخر .

ومن أمثلة الإجازة بالرواية ، إجازة جمال الدين بن نباتة المصرى التى كتبها لصلاح الدين الصفدى بعد استدعاء أرسله الصفدى إليه . وكانت بينهما أمور ومسائل ومنافسات . فقد سطا الصفدى على بعض أبيات ابن نباتة ، وغضب ابن نباتة ، وألف فى سرقات الصفدى منه كتابا سماه « خبز الشعير » لأنه مأكول مذموم . كما كان بين الأديبين معاتبات شعرية وممتعة فى آن واحد . ولقد أفاد الأدب من هذين الأديبين ثروة لاتقدر .

أما استدعاء الصفدى فمنه قوله ، وترى فيه ألوانا من البديع ، وبخاصة الجناس الذى كان به مشغوفا — :

« الحمد لله على نعمائه . المسئول من إحسان سيدنا الشيخ الإمام العالم العلامة رحلة أهل الأدب . وقبلة ذوى التحصين فى التحصيل والدأب . الذى تبيت شوارد المعانى صرعى نحوله للطافة تخيله . وتمشى الألفاظ العذبة طوع تحوله فى التركيب وتحيله . فأمسى وله النسيب الذى يضحك من العباس فى رقته ويقيم صريع الغوانى إلى مقته بعد مقته . والغزل الذى يشيب له فؤاد الوليد ويسترق الحر من كلام عبيد . والتشبيه الذى لو علمه ابن المعتز لما نصب الهلال فخا يصيد النجوم . ولو تعاطاه حفيد جرير

لقيل له : «ألم تسمع ، ألم غلبت الروم» ؟ . والمديح الذى لو بلغ زهيرا لقال : ما أنا من هذه الحدائق . أو اتصل نبؤه بالمتنبى لاشتغل عن ذكر العذيب وبارق . والرثاء الذى نقص عند أبى تمام ، بعد أن رفع له لواء الشرف والفخر . وقال : هذه عذوبة الزلال ، لا ماتفجر من الخنساء على صخر . والترسل الذى سقى الفاضل كأس الحتوف لما شبه الغمود بالكمائم ، والسيوف بالأزهار . وأذهله حتى صحت له القسمة فى الخيل والخيال بين المراقب والمراقد ، فأخطأت معه فى المرابع والمساجد بين الأنوار . والكتابة التى تغدو الطروس بها وكأنها رياض محبرة . أو سماء بالنجوم زاهرة . إن لم ترض أن تكون فى الأرض رياضا مزهرة .

أدب على الحصرى يعلو تاجه ... ولو ابن بسام بكى ألوانا
وترسل سبحان من قد زاده ... منه وأعطى الفاضل النقصانا
وكتابة لعلوها فى وضعها ... ليس ابن مقلة عندها إنسانا
فلكم أخى فضل رأت عيناه فى م ... الأوراق لابن بناتة بستانا

جمال الدين أبى عبدالله محمد بن الشيخ الحافظ شمس الدين محمد بن نباتة — جمع الله به شتات أهل الأدب فى دوحة هذه الدولة . ولم به شعث أبنائه الذين لا صوت لهم ولا صولة . وأقام به عماد أبيات الشعر التى لولاها لما عُرفت دارمية من أطلال خولة — إجازة كاتب هذه الأحرف — فسح الله فى مدته — برواية المصنفات فى الأحاديث النبوية والتأليفات الأدبية ، على اختلاف أوضاعهما ، وتباين أجناسهما وأنواعهما . بحسب ما يؤدى ذلك إليه ، واتصل به من سماع أو إجازة أو وصية أو وجازة ، من مشايخ العلم الذين أخذ عنهم . وإجازة ماله — أحسن الله إليه — من مقول ، نظما أو نثرا أو تأليفا أو وضعا ، إجازة خاصة . وإثبات ما لديه من التصانيف إلى هذا التاريخ بخطه الكريم ، وإجازة ما لعله يقع بعد ذلك . إجازة عامة ، على أحد القولين فى المسألة فإن الرياض لا ينقطع زهرها والبحار لا ينفد درها . وإثبات ما يحسن إيراده فى

هذه الإجازة من المقاطيع الرائقة . والأبيات اللائقة . وذكر نسبه ومولده ومكانه ، متفضلا فى ذلك .

وكتبه خليل بن أيبك بن عبدالله الأيبكى بالقاهرة المحروسة فى مستهل شعبان المبارك فى تسع وعشرين وسبعمائة وحسبنا الله ونعم الوكيل . »[1]

أما إجازة ابن نباتة فقوله : وفيه براعة استهلال ، مما اشتهر به ابن نباتة ، وكذلك توريات واقتباسات ونحوها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد حمد الله الذى إذا توجه إليه ذو السؤال فاز . وإذا استدعى كرمه ذو الطلب أجاز . والصلاة والسلام على سيدنا محمد كعبة القصد التى ليس بينها وبين النجح حجاز وعلى آله وصحبه حقائق الفضل ، والفضل من بعدهم مجاز .

فلو لزم فى كل الأحوال تناسب المخاطبة . وكان جواب السؤال بحسب ما بينهما من شرف المناسبة . لما رضى سجع الحمائم لمطارحته نوعا من الأطيار . ولا قبل فصحاء الأول مراجعة الصدى من الديار . ولا قنع غمز حواجب الأحبة برد القلوب الهائمة فى أودية الأفكار . ولكن تقول الأكابر : والأولياء تبذل من الأجوبة جهدها . وتنفق ما عندها . وتجرد الأماثل سيوف المنطق ولا تتعدى الأتباع من الطاعة حدها .

ولما كنت أيها الراقم برود هذا الاستدعاء ببنانه . والمنشىء روض هذا السؤال بآثار السحب من بيانه . والسائل الذى بهرت الأفكار فضائله . وسحرت أرباب العقول عقائله . وأقام المسئول مقاما ليس من أهله فليتق الله سائله . فريد فن الأدب الذى لا يبارى . وبحره الذى لا يهدى غائص تلمه الدر إلا كبارا . وذا اليد البيضاء

---

١ — راجع خزانة الأدب ص ٢٨٩ فى سياق باب التورية — والوافى بالوفيات ج ١ — والدرر الكامنة ج ٤ رقم ٥٨٥ .

فيه، الذى طالما آنس من جانب الزهد نارا . وخليله الذى اطلع على أسراره الدقيقة. ورئيسه الذى لو طارح ابن المعتز وتمت ولايته لكان أمير المؤمنين على الحقيقة . وناظمه الذى يسرى الطائيان تحت علمه المنشور . وكاتبه الذى تتبجح العبدان بالدخول تحت رقه المأثور . طالما شافه منه القلم وجها جميلا . وقدرا جليلا . ولاقى من لا يندم على صحبته ، فيقول: ياليتنى لم أتخذ فلانا خليلا . فهو الغرس الذى يقصر عن أمالى وصفه الشجرى . ويفخر الدين والعلم بشخصه ولفظه ، فهذا يقول : غرسى . وهذا يقول : ثمرى . » .

ولبث ابن نباتة يثنى على صاحبه ، ثم قال محدثا عن نفسه مبديا تواضعه :

« بدأتنى — أعزك الله — من الوصف بما قل عنه مكانى . وكاد من الخجل يضيق صدرى ولا ينطلق لسانى . وحملت كاهلى من المنن ما لم يستطع . وضربت لذكرى فى الآفاق نوبة خليلية لا تنقطع . وسألتنى مع ما عندك من المحاسن التى لها طرب من نفسها . وثمر من غرسها . أن أجيبك وأجيزك . وأوازن بمثقال كلمى الحديد إبريزك . وأقابل لسنك المطلق بلسانى المحصور ، وأثبت استدعاءك على بيت مال نطقى المكسور . فتحيرت بين أمرين أمرين . ووقع ذهنى السقيم بين داءين مضرين . إن فعلت ما أمرت به . فما أنا من أرباب هذا القدر العالى . والصدر الحالى . ومن أنا من أبناء مصر ، حتى أتقدم لهذا الملك العزيز . وكيف أطالب مع إقتار علمى بأن أمدح وأجيز . وأنى لمقيد خطوى هذه الوثبات . وأنى يماثل قوة هذا الغرس ضعف هذا النبات . »

وما زال ابن نباته يبدى تواضعه ، ويمدح الصفدى ، حتى استنفد سطورا عدة . ثم ذكر له فصلا عن مولده ومكانه وشيوخه وعددا من فضلاء الأدباء الذين روى عنهم وما كان بينه وبينهم من إنشاد أشعار . وما أنشده كل منهم للآخر . ثم سجل له مصنفاته واصفالها ومشيها لها باليامين الذى لا يساوى جمعه . ثم قال مجيزا :

« أجزت لك — أعزك الله — روايتها عنى ، ورواية ما أدونه وأجمعه بعد ذلك

حسبما اقترحه استدعاؤك ونمقه . ونسخه وحققه . وتضمنه سؤالك الذى تصدقت به . فمنك السؤال ومنك الصدقة . والله تعالى يشكر عهدك الجميل . وكلماتك الجزلة وكرمك الجزيل . ويمتع بك فنون الفضائل الملتجئة إلى ظل قلمك الظليل . ولا يعدم الأحباب والآداب من اسمك وسميك خير صاحب وخليل .

قال ذلك وكتبه محمد بن محمد بن محمد بن أبى الحسن بن صالح بن على بن يحيى بن طاهر ابن محمد بن الخطيب بن يحيى بن عبد الرحيم بن نباتة القارقى الحذاق ثم المصرى . عفا الله عنه »[1]

وإجازة ابن نباتة طويلة ، وقد اجتزأنا منها بالفقرات التى أثبتناها ، وقد أوردها ابن حجة الحموى فى خزانة الأدب ، وذلك بعد أن أشار إلى سرقات الصفدى الشعرية من ابن نباتة . ثم قال أيضا ، وفيه موازنة بين أدب ابن نباتة والصفدى :

« قلت : قد أوردت هنا ما جناه الشيخ صلاح الدين الصفدى من حدائق الروض النباتى . ومقابلة جمال الدين له على ما جناه . فإن نسبنى أحد إلى تحمل ، راجعته إلى النقل . وإن وافق وتعقل الرتبتين ، فقد اكتفى بشاهد العقل . وإلا فالأقسام الصفدية بالنسبة إلى القطر النباتى تمجها الأذواق . وهأنا قد أبرزت ثمرات الدوحتين بين هذه الأوراق . والشيخ صلاح الدين — رحمه الله — تصاغر ، لذلك ، وما كابر . ووقف على باب الشيخ وقوف فقير يسأل الإجازة . وطال وقوفه على ذلك الباب العالى ، إلى أن حصل له الفتوح وأجازه . وهأنا أذكر سؤال هذا السائل الذى ولد قبل العطاء أن يدفع بالتى هى أحسن . وأشرح كرم المسئول الذى نثر على سائله الدر جزافا ، علما أن عطاء الكريم لا يوزن » . . ثم أورد النصين .

ونشير بعد هذا إلى بعض الإجازات الأخرى :

---

١ — المرجع السابق .

١ — إجازة بالرواية كتبها الصفدى ردا على استدعاء شهاب الدين الحنبلى . وردت فى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٣٢ . وفى ألحان السواجع للصفدى .

٢ — إجازة بالرواية كتبها شمس الدين بن الصائغ ردا على استدعاء بعضهم . وردت فى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٣٤ .

٣ — إجازة عراضة كتبها شمس الدين بن الدايم . فى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٢٩ .

٤ — إجازة عراضة كتبها عز الدين بن جماعة . فى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٣٠ .

٥ — إجازة عراضة كتبها شهاب الدين القلقشندى . فى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٣٩

٦ — إجازات متنوعة بقلم زين الدين بن الوردى مثبتة فى ديوانه .

٧ — استدعاء بقلم الصفدى موجه إلى ركن الدين بن القوبع — فى الوافى بالوفيات ج ١ .

٨ — إجازة ابن القوبع للصفدى ردا على استدعائه — فى الوافى بالوفيات ج ١

الفصل الخامس

الأسئلة والأجوبة

وإليك لونا من ألوان الرسائل طريفا، هو « الأسئلة والأجوبة » وهو نوع من المكاتبات المتبادلة بين ندين أوصديقين أو بين رجل من الناس، وأحد الأدباء أو العلماء. يرسله الأول إلى الثانى سؤالا، ويرسله الثانى إلى الأول جوابا.

ويستطاع اعتبارها نوعا من الرسائل الإخوانية. غير أن لها خصوصية تفرقهما عن الإخوانيات. ذلك أن موضوع الحديث فيهما ليس إخوانيا بالمعنى الذى أشرنا إليه فى مطلع الحديث عن الإخوانيات. فلا يدور حول شوق أو شكوى أو عتاب أو نحو ذلك من ملابسات الصداقة ومضاعفات المودة. وإنما يدور حول مسألة علمية أو أدبية. يسأل عنها الأول، ويجيب الثانى. لهذا آثرنا إفرادها على حدة.

وكانت هذه المكاتبات متواليه بين كثيرين من أهل العصر وعشاق العلم والأدب. وكثيرا ما كانت تكون موضوعات الحديث فيها مسألة فى النحو أو الصرف، أو الفقه أو العقيدة أو الأدب أو النقد أو الألغاز أو نحو ذلك. وهى تدل على مدى شغفهم بالعلوم والآداب ومبلغ نضج النزعات الفكرية على الرغم من ملابسات العصر ومعوقات نهوضه.

ويتبع فى تحرير هذه المكاتبات غالبا، النمط البديعى المتبع فى غيرها. مع اقتضاب فى اللوازم الديوانية. ومع تزويدها بقسط من الأبيات الشعرية فى الموضوع. وبهذه المناسبة نشير إلى أن « الأسئلة والأجوبة » كثيرا ما كانت شعرية خالصة.

هذا . وقد سماها القلقشندى « الأسئلة الامتحانية » . وقال بإزائها ما نصه :

« قد جرت عادة مشايخ الأدب وفضلاء الكتاب أنهم يكتبون إلى الأفاضل بالمسائل يسألون عنها : إما على سبيل الاستفهام واستماحة ما عند المكتوب إليه فى ذلك . وإما على سبيل الامتحان والتعجيز . ثم تارة يجابُ عن تلك الأسئلة بأجوبة فتكتب ، وتارة لا يجاب عنها . بحسب ما تقتضيه الحال . »[1]

ومن نماذجها :

١ - ما أورده القلقشندى أيضا بعد كتبه السابقة ، حيث قال :

« وهذه رسالة كتبها الشيخ جمال الدين بن نباتة المصرى ، إلى الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى ، صاحب ديوان الإنشاء بالمملكة الشامية . وقد بلغه أن بعض أهل الديوان نال منه . وأن الشيخ شهاب الدين المذكور ، ناضل عنه ودافع . فكتب إليه يشكره على ذلك ، ويسأل كتاب الديوان على أسئلة ، بعضها يرجع إلى صنعة الإنشاء ، وأكثرها يرجع إلى فن التاريخ » .

وقد أثبت القلقشندى هذه الرسالة الشائقة بتمامها . ويبدو من سطورها أن ابن نباتة كان أولا ، قد استفتى بعض كتاب الديوان فى أمور تتعلق بصناعتهم طلبا منهم للفائدة . فظنوه — وهو من هو — يعرّض بهم ويسخر منهم ، فثاروا إلى مذمته ، وثار معهم بعض كبار المنشئين ، فى الديوان ، وتناولوه بالعيب والتنقص ، حتى رد الشهاب الحلبى غيبته وكان نتيجة ذلك ، أن كتب إليه ابن نباتة هذه الرسالة الفريدة فى بابها .

وهى رسالة طويلة ، بل مقامة رائعة مقطوعة النظير ، تقع فى نحو ٢٥٠ سطرا . وقد أبدع فيها ابن نباتة إبداعا مطربا معجبا . وسن لها شباة قلمه وأرهف حده ، حتى صال

---

١ — صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٤٠ .

على القرطاس صولة السيف الصارم فى الميدان . و يمضى القلم أحيانا مالا يمضى السيف. وقد ضمنها من ضروب مراعاة النظير تهكمات لا عدد لها . وفصلها بأبيات فى أليق مناسباتها . وملأها بجملة من الأسئلة الساخرة الموجهة إلى عائبيه ، فى أمور تاريخية و كتابية تتعلق بصميم صناعتهم التى يزاولونها فى الديوان ، وخصصوا أقلامهم فيها . ليثبت بعجزهم عن الإجابة عنها ، مدى علمه ، ومدى جهلهم . وا كتمال أدبه ، ونقص أدبهم . و يبرز للقارىء أنه كان الأحرى بهم أن يدخروا عيوب ألسنتهم لأنفسهم ، و يحفظوا خواطرهم من إذاعة كلالها وهزالها ، و يبقوا حسد قلوبهم دفينا بها .

وقد بدأ الرسالة بالدعاء للحلبى دعاء فيه إشارات إلى الحسد والحاسدين ، والحقد والحاقدين . وأبدى له أشواقه فى عبارات كيسة مونقة . وأخذ يشكره و يمدحه و يصف أياديه عنده ، و يعلى من قدر شعره ونثره ، و يفصح عن منزلته بين الأدباء . ثم أخذ يبدى له عجبه من شانئيه وعائبيه ، و يصفهم هاجيا متهكما مزدريا . وفى خلال ذلك يمدح نفسه و يفخر بشعره ونثره . وذكر ما استولى على بعض كتاب الديوان من العى والحصر والجهل . وطفق يلقى عليهم الأسئلة تلو الأسئلة حتى أمطرهم بفيض منها غزير . وهى أسئلة محرجة ، مما ينبغى على الأديب المتبوىء أحد مناصب الديوان الرفيعة ، أن يكون على ذكرة منها ومن جوابها . وهى — كما أشرنا — فى صميم صناعة الكتابة وتاريخها ومايتصل بها . — ثم عاد فى خاتمتها إلى شكر المرسل إليه ، راجيا منه أن يسد الخلل كلما بان ، و يصلح الخطل كلما بدا . معتذرا إليه عن إقلاله وكلال ذهنه بما انتابه و ينتابه — من صروف الزمان وقلة الإخوان حتى أصبح يرتجى المنية ، وعندما يستطيع أن يطلق صناعة الأدب ، طلاقا لا رجعة فيه . .

ومن هذا العرض الوجيز ، ترى أن هذه الرسالة تضمنت جملة من الفنون النثرية ، منها : الشكر والمدح ، والعتاب والتهكم والهجاء والتحدى والدعاء والفخر والشكوى . مزجت جميعا مزجا أدبيا رائعا بارعا ، وندر أن ترى بين الرسائل المنثورة ما يشبهها فى

ذلك . على الرغم من قيودها البديعية . على أن هذه القيود فى أكثر حالاتها أضفت عليها قوة وتأثيرا ، وعاونتها على الجدة و بلوغ الغرض .

ونثبت لك فقرات منها فى مواضع متنوعة ، تجتزىء بها فمن ذلك :

مما قاله فى مستهلها وهو فى الدعاء للمرسل إليه وفى مدحه :

« لا يخرج الكره منى غير نائبة ولا ألين لمن لا يبتغى لينى

الاستفتاح « بلا » تيمن ببركة الشهادة . وهى ههنا مقراض يقطع من العيب المِدَّةَ ويحسم المادة . فحسم الله عن سيدنا الإمام العلامة القدوة ، شهاب الدين . مكمل الآداب . وملك الشعراء والكتاب . شر كل عين حاسد ولو أنها عين الشمس . وحماه عن مد ألسنة ذوى الاغتياب والارتياب من الهمْج والهمْس . وهيأ له أسباب الخير حتى يكون يومه فيه مقصرا عن الغد زائدا على الأمس . واستخدم له الأقدار حتى تكون فرائض تقبيل أنامله العشر عندهم كفرائض الخمس . وجعل ما يرد عنه العين من العيب — بُعدَ شأنِه عن المتناول — وقايةً عن اللمس . حتى يكونَ المعنىُّ بقول القائل :

ولا عيب فيه غير أن علاءه إذا حددوه كان قد جاوز الحدَّا

ولا عيب أيضا فى مآثر بيته سوى أنها تُروى بألسنة الأعدا »الخ

وقال فى إظهار شرقه إليه ، وهى فقرات أندى من الزهر ، وأغن من سجع الحمائم ، قال :

« العبد يخدم بسلام . ما روضة نقطها الجو بدر سحائبه . وأفرغ عليها الأفق سفط كواكبه . وامتد نوء الذراع لتدبيج سمائها . وتأريج أرجائها . وتخميش معاصم أنهارها المنشقة بأفنائها . وصقال نسماتها السَّحَرية . ومغازلة عيونها السحرية . وهوان الغالية بنفحاتها الشجرية . تصرف دنانير أزهارها الصروف . ويسل جدولُها على

الهموم السبوف . وتجذب حمائمها القلوب بالأطواق . ويتشفع دوحها إلى النواظر بالأوراق قد ترقرق فى وجناتها ماء الشباب . وغنى مطرب حمامها وعنترء فى حك من الذباب . ويحرّها رونقُ السيف وفى قلب روضته الذباب .

فما كل أرض مثل أرض هى الحمى وما كل نبت مثل نبت هو البان يوما بأبهج منه أشواقا . وأطيب منه انتشاقا واتساقا . والطيبون للطيبات . ولكل غيث نبات ، وما لذاك الغيث إلا هذا النبات . » الخ .

ومنها يمدحه أيضا ويشكره قال :

« فأعلى الله كلمة سيدنا العلامة فى الدارين . وشكر غِنىً جود كرمه وكلمه الدارين . فهو صاحب ديوانهم وحجة زمانهم فلقد وصفنى بما يزيد على الجواب . وشافهنى من الشكر بما لا يتوارى من الرزق بحجاب . وأمنى العز والزمان حرب . ونصرنى والأيام سيوف تتنوع من الضرب فى كل ضرب . وأعطانى كرمه والمحلُّ مُحْل . وفى قلب الزمان زحل . ونحلنى شهدة إحسانه والأوقات كابر النحل . حتى عذرنى فى حبه من كان من اللائمين . واهتديت من لفظه وفضله بقمرين لا يميل أحدهما ولا يمين . وصُلتُ من جاهه وماله بيدين إلا أن كليهما فى الإعراض يمين .

ويلومنى فى حب عَلوة نِسوةٌ جعل الإلهُ خدُودهن نعالَها »

وقال يذكر عائبيه ويفخر عليهم ويتهكم بهم :

« بلغنى أن جماعة من الذين استفتيتهم استنباطا لفوائدهم ، والتقاطا لفرائدهم ، لا تكليفا لهم فيما لا يقوم به إلا الأقوى من الأقوام . ولا يستنجد به فى هذا الوقت إلا بأرباب صفحات السبوف لا أرباب قصبات الأقلام . أرادوا الغض منى . ونفى الإحسان عنى . وهيهات :

« أنا أبو النجم وشعرى شعرى »[1]

---

١ — أبو النجم أحد الرجاز . والشطر من شعره .

هأنا و بضاعتى . وهذه يدى لا أنى ألقيتُ بها إلى السلم ولكن لأعرض صناعتى:

« هو الحمى ومعانيه معانيه »

و إنهم اجتمعوا بالميدان على حديثى . وذكروا قديمى وحديثى . وتسابقوا فى الغيبة أفراس رهان . وأعجب كلا منهم أن يقول : هذه الشقراء فى يدى وهـذا الميدان . ولاموا وعذلوا . وهموا بالسب وفعلوا . واستطابوا لحم أخيهم فسلقوه بألسنة حداد وأكلوا . حتى تعدى ذلك إلى من جاد علىّ بالجواب . وفعله إما جزاء المدح و إما للثواب .

فقلتُ لها عيشى جَعَارِ[1] وجرِّرِى بلحم امرىء لم يشهد اليوم ناصِرُه »

ومن أسئلته وهى الغرض البارز من رسالته ، قوله :

« من كتب فى الورق واستنبطه ؟ ومن ختم الكتاب بالطين وربطه ؟ ومن غيّر طين الكتاب بالنشا وضبطه ؟ ومن قال : أما بعد فى كتابه ؟ ومن جعلها فى الخطب وأسقطها فى ابتدائه فى المكاتبة وجوابه ؟ ومن كره الاستشهاد فى مكاتبات الملوك بالأشعار ؟ وكيف تركها على ما فيها من الآثار ؟ ومن الذى أراد أن يكتب نثرا فجاء شعرا ؟ ومن وضع هذه الطرة فى التقاليد واخترعها ؟ وما حجته إذ قدمها على اسم الله ورفعها ؟ ومن الذى باعد بين السطور ووسعها ؟ وكيف ترك بالتعاظم فى كتبه سنة رسول الله ﷺ ولم يسعه من التواضع ما وسعها ؟ ومن استغنى بكتابة آية من كتاب الله عن الجواب ؟ ومن اكتفى ببيت من الشعر عما يحتاج من تطويله الكتاب؟ ومن الذى عانى المترجمات ورتبها ؟ وأخفى ملطفات الجواسيس وغيبها ؟ ومن الذى سن البرد وبعثها فى الملمات ؟ ومن حاكى شيئا من ملك سليمان فاستخدم الطيور فى بعض المهمات ؟ وما أوجز مكاتبة كتب بها عن خليفة فى معنى ؟ وما أبلغ جواب وأوجزه أجاب به عن خليفة من لا سمى ولا كُنّى ؟ ولمَ أرخ بهجرة النبى ﷺ ؟ وكيف

---

١ — جعار : اسم للضبع

لم يؤرخ بمولده أو غير ذلك من الأيام[1] » الخ

والرسالة طويلة كما أشرنا وهى مليئة بمثل هذه الأسئلة . وتدل ضمنا على مدى ثقافة ابن نباتة وسعة علمه .

٢ — ونسوق الآن نموذجا آخر من طراز آخر ، يفترق عن الأول فى موضوعه : ذلك أن جمال الدين بن نباته المصرى كان قد مدح القاضى كمال الدين الزملكانى بقصيدة تائية جيدة طويلة امتازت بانسجام ألفاظها ورقة عباراتها وجمال أساليبها ، فضلا عما فيها من حسن التصوير وورعة النكات الأدبية وجدة الدقات البديعية مع تنوع فنونها . وهى التى قال فى مطلعها متغزلا :

قضى وما قضيت منكم لبانات متيم عبثت فيه الصبابات

وقد عارضها معاصره الأديب الشاعر برهان الدين القيراطى بقصيدة بارعة من البحر والروى . أجاد فى غزلها وفى دقاتها الأدبية إجادة ممتازة . وهى التى قال فى مطلعها متغزلا :

ما لابتداء صبابات نهايات يا غاية ما لعشق فيه غايات

وكانت القصيدتان — كما يبدو من كلام ابن حجة — موضع موازنات لدى بعض أهل الأدب ، حتى فضلوا تائية القيراطى على تائية ابن نباتة من ناحية زيادتها فى النكت الأدبية فى القافية ، لا من قبيل انسجام الألفاظ وحشمتها . فإن تائية ابن نباتة من هذه الناحية مقدمة .

وقد جاء بعدهما تقى الدين بن حجة فعارضهما بتائية ثالثة مطلعها :

لعجبه ولذيل الهجر شمرات وللقلوب من الأجفان كسرات

ثم بعث ابن حجة إلى قاضى القضاة شهاب الدين بن حجر العسقلانى رسالة يعرض عليه التائيات الثلاث ، ويقيمه حكما بينها ، ليبين أجودها . وهذه مكاتبة ابن حجة

---

١ — صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٤١ ، وبه النص الكامل للرسالة .

قال : وقد سماها : « صيغة الدعوى » :

« الحمد لله الحكم العدل . يقبل الأرض ، وينهى أنه انتصر بنباتة الحموى لنباتى مصر وحلاوتة . وحرر مع القيراطى موازين الأدب بمعيار البلاغة . والموجب لذلك أن جماعة من عدول الأدب بترجيح تائية القيراطى تشهد . وقد عارضته منتصرا لمحمد . وأبو بكر أحق من تطلب لنصرة محمد . وسميت هذا التأليف : « قبول البينات للمبرز فى نظم التائيات » . والمملوك يسأل الحكم لمن قبلت بينة تقديمه فيما ادعاه . أعز الله تعالى أحكام مولانا قاضى القضاة » .

وقد رد عليه ابن حجر مفضلا تانيته على تائيته ابن بناتة والقيراطى معا ، فقال :

« لله الأمر من قبل ومن بعد . الحكم بين النظراء إنما يحسن ممن يماثلهم فيما به يرتفع الحكم . وفى إقدام من لم يرتق إلى تلك الطبقة نوع من الظلم . ولا يرتاب لبيب أن كلا من الثلاثة رأس هذا الفن فى زمانه . وأنه لا يوازنه أحد من أقرانه .

وثلاثة كثلاثة الراح استوى لك لونها ومذاقها وشميمها

ولكن لما كان امتثال الأوامر من بعض فنون الأدب . وإجابة الداعى ولاسيما على من ظنه أهل هذا الفن أمر انتدب . ومرجع الحكم فى هذه القصة إلى الذوق السليم ، فأمكن القول إن لم أقل : وجب . فأقول مستعينا بالله متوكلا عليه . ملتجئا فى كل الأمور إليه :

الذى تبنى عليه القواعد ويشهد به الذوق السليم الذى هو فى هذا الفن أعدل شاهد ، أن الثالثة أرجح وزنا من الثانية . ولولا حرمة الكمال ، والحياء من الجمال . لقلت أن الثانية فى الرتبة الأخيرة تالية . لأن الأولى وإن كانت من الثانية أكثر انسجاما . والثانية وإن فضلت على الأولى فى الدقات الأدبية ابتداء واختتاما ، فالثالثة قد جمعت بين المعنيين . وفازت بالحسنيين . ونزلت فى كل وجه من الأدب منزلة العين . وقال لسان فحوليتها عند لين الكلام من غيرها : للذكر مثل حظ الانثيين .

وقد أتت بما غض من الأزاهر النباتية والجواهر القيراطية . وما فاق مجموعه كل فريد . وراق مسموعه كل مجيد . حتى قال من شهد مثلى ببراعته . وطرب لصرير يراعته

أقصى نهاية وصفى فيه معرفتى بالعجز منى عن إدراك معرفته »

هذا . وقد كان ابن حجر العسقلانى ، فضلا عن تفوقه فى فقه الشافعية وحفظ أحاديث الرسول ومعرفته التاريخ ، أديبا ذواقة له شعر لطيف ونثر أدبى طريف .

ويبدو أن ابن حجة قد أرسل بمثل استفتائه السابق ، إلى شمس الدين أبى عبدالله محمد الجزرى وهو من حفاظ زمانه أيضا وفقهائه وأدبائه . فبعث إلى ابن حجة رده وهو رسالة على نمط من رسالة ابن حجر[1] .

وفى قهوة الإنشاء لابن حجة ، وألحان السواجع للصفدى نماذج لهذه المراسلات .

---

١ — نصوص الرسائل الثلاث فى « تأهيل الغريب » لابن حجة

خاتمة

ينبغى لنا — وقد تحدثنا عن أهم ألوان الرسائل ، أن نشير إلى حديث القلقشندى عنها فى كتابه « صبح الأعشى » وهو أفضل موسوعة فى موضوعها . وقد استقصى فيه مؤلفه جميع ألوان المكاتبات قديمها وحديثها إلى عهده . وفى جملتها : المكاتبات الديوانية وغير الديوانية .

وقد تحدث عن هذه الأخيرة فى الجزء الرابع عشر من كتابه ، فى مقالته العاشرة تحت عنوان « فى فنون من الكتابة يتداولها الكتاب ، وتتنافس فى عملها ، ليس لها تعلق بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها » .

وملخص ما اندرج تحت حديثه المذكور من ألوان المكاتبات : ١ — المقامات ٢ — الرسائل الملوكية وهى نوعان : رسائل الغزو ورسائل الصيد . ٣ — رسائل المديح والتقريض . ٤ — المفاخرات . ٥ — الأسئلة والأجوبة . ٦ — ما تكتب به الحوادث والماجريات . ٧ — رسائل وصف قِدْمَات البندق وما يتصل بها . ٨ — الصَّدُقات « أنواع الصداق » ، ملوكية وغيرها . ٩ — الإجازات وأنواعها . ١٠ — التقريضات التى تكتب على المصنفات والقصائد . ١١ — التقاليد الحكمية ١٢ — إسجالات العدالة . ١٣ — الكتب إلى النواب وما فى معناها . ١٤ — افتتاحات كتب الوقف ونحوه . ١٥ — العمرات التى تكتب للحجاج . ١٦ — الهزليات .

وقد أجمل القلقشندى هذه الأنواع جميعا تحت مقالة واحدة — كما أشرنا —

واعتبرها « غير ديوانية » .

وقد اتبعنا فى بحثنا هذا منهجا مخالفا لمنهجه بعض المخالفة . فجمعنا الفنون التى يكون الوصف غرضها الأساسى ، تحت باب الوصف . والتى تنطبع بالطابع الرسمى الديوانى ويكتبها منشئون رسميون فيما يتصل بالسلطان ، تحت الرسائل الملوكية . وما ينطبع بالطابع الإخوانى أو الشخصى ، تحت الرسائل الإخوانية ونحوها من إجازات وأسئلة وأجوبة . وهكذا .

ولذلك :

نعتبر رسائل الغزو والصيد الخاصة بالسلطان فى عداد الرسائل الملوكية الديوانية ومثلها الصداق والتقاليد الحكمية وإسجالات العدالة ، والرسائل إلى النواب ومن فى حكمهم . وافتتاحات كتب الوقف ونحوها ، والعمرات ، فكل أولئك نعتبره من الرسائل الديوانية ، أو الملحقة بها ، إذ قصاراها أن تكتب فى أمور رسمية ، لها متات بالرسميين وبالدولة .

ونعتبر رسائل المديح والتقريض والأسئلة والأجوبة والإجازات والهزليات ، من الرسائل الإخوانية أو ما يجرى مجراها ، على نحو ما نهجناه فى « باب الرسائل » .

ونعتبر رسائل المفاخرات ، ووصف الحوادث والماجريات ، ووصف قدمات البندق وما يتصل به ، وتقاريض الكتب فى « باب الوصف » كما نفصله بعدُ .

أما المقامات فقد سلكناها فى « باب القصص » .

هذا . ولننوه هنا فى إشارة عابرة ، بما فاتنا التنويه به من هذه الألوان الكتابية التى ذكرها القلقشندى مما يتصل بباب الرسائل ، فحسب ، ليكون القارىء على ذكرة منها . أما ما يتصل بباب الوصف فننوه به فى بابه بمعونة الله ومشيئته .

فمن ذلك :

التقاليد الحكمية :

هى رسائل تكتب عن قضاة القضاة إلى تابعيهم ، يولونهم بها أمرا من الأمور ، أو منصبا من مناصب نيابة الحكم . وأسلوبها نمط من « التقاليد » التى سبقت الإشارة إليها ، على وجه التقريب . فتبدأ مثلا بخطبة فيها تحميدات وصلوات على النبى عليه السلام ، وإفاضة فى ذكر المنصب أو الأمر وبيان أهميته ، وما للمرسل إليه من مزايا أهلته لشغله ، ثم وصيته برعاية الأمانة والعدالة ونحو ذلك .

اسجلات العدالة :

رسائل تكتب عن قضاة القضاة أيضا ، إلى أبناء العلماء والرؤساء الذين تثبت عدالتهم لديهم . ويبدو أنها ضرب من التكريم أو الشهادة أو الإعداد للعمل والولاية وأسلوبها نمط قريب من التقاليد .

الكتب الى النواب ومن فى حكمهم :

رسائل تكتب عن قضاة القضاة كذلك ، إلى نواب حكمهم فى بعض الأمور الموكولة إليهم ، وأسلوبها نمط من التقاليد قريب .

كتب الوقف ونحوه :

هذه كتب تفتتح بها كتب الوقفيات فيها حمد وصلاة على النبى ، وبيان للغاية من الوقف . وهكذا .

العمرات :

العمرة رسالة تكتتب للحاج . يُسجِّلُ فيها قيامه بالاعتمار عن السلطان ـ مثلا ـ حين حلوله بالأراضى المقدسة ، وتضفى فيها على السلطان — أو المعتمر عنه — عبارات الثناء وآيات المديح .

هذا . وفى صبح الأعشى ج ١٤ نماذج لأكثر هذه الألوان الكتابية ، وفى هذا العرض كفاية .

الباب الثانى

باب الوصف

تمهيد

نعنى بالوصف هنا معناه الأخص ، وهو تعمد ذكر أوصاف الموصوف بأسلوب أدبى مؤثر ينساب فيه خيال الكاتب ويسرح . فيدون النعوت والخصائص ، لا باعتبار أنها « حقائق » يعدها ويحصيها ، ولكن يصورها تصويرا فنيا بمقدار ما وقرت ورسمت وعاشت فى خيال الكاتب وأثارت نفسه وأثرت فيها تأثيرا جعله يشعر بها شعورا خاصا كثيرا ما يفترق عن شعور غيره من الأدباء .

يصف الكاتب إذا موصوفه معبرا عن هذه الصورة المؤثرة التى أثارت انفعاله العاطفى كما تصورها . وهنا يطيب له التشبيهات الجميلة والأخيلة الشعرية والتجوزات اللطيفة ، والتعليلات الحسنة ونحو ذلك من أدوات التصوير ، التى يستعين بها على حسن التعبير ودقة حكاية الشعور بالموصوف . وهو طورا يخاطبه كما لو كان إنسانا حيا ينبض بالحركة والحس . أو ينطقه ويعيره من حواس الإنسان مايعين على النطق وحسن الأداء . وطورا يوازن بينه وبين غيره ، أو يعقد بينهما حوارا ومناقشة . وفى خلال ذلك يبرز من مكنون الأوصاف ما يند — عادة — عن الأذهان ويبعد عن متناول اللسان .

وكان الوصف أجل بضائع كتاب عصر المماليك، وأخف مناهج أساليبهم ، وميدان

بلاغتهم ومجال معارضاتهم ، إليه يميلون عامدين ، ونحوه يجنحون قاصدين . فإن لم يكن المقام مقام الوصف لووا إليه عنان الأقلام أيضا كلما عنت مناسبة وسنحت فرصة ، حتى ليخيل للمطالع أن الوصف كان مقصدهم الأسنى ، وهدفهم الأسمى ، من كل كتاباتهم .

وقد رأينا فى « باب الرسائل » ونرى فى الأبواب القادمة ، كيف كان الوصف عمادا لأغراضهم وعاملا مشتركا فى جميع فنونهم الكتابية . ولو أننا ذهبنا نتتبع منشآتهم الوصفية لوجدنا آمادها فسيحة وآفاقها بعيدة ، ولرأينا أنهم تناولوا بها كل منحى من مناحى الحياة . هذا ، على الرغم من ضن طبيعة البيئة المصرية بمدهم بالوسائل التى تقوى تصورهم فيقوى تصويرهم ، وبالأدوات التى تهيج انفعالهم فينشط تعبيرهم . ولعل كثيرا منهم استفاد فى هذه الناحية من ترحلاته فى آفاق الشام وغيرها ، فرأى مناظر غير المناظر ، ورياضا غير الرياض ، آهلة بمجالى الجمال وآيات الحسن ، فأثرى منها خياله ، ونضح بثرائه قلمه .

وسنرى فى الفصول القادمة بهذا الباب ، مناحى ومظاهر لموصوفاتهم ، سقناها على سبيل التدليل والتمثيل ، لا على سبيل الحصر والاستقصاء ، قد قصرنا الحديث عنها لما رأيناه فيها من أنها صفوة فنون الوصف .

وعنينا فى خلال عرض النماذج بتحليل بعضها وبيان ما فيه من فنون متنوعة ومجال جميلة . وأتبعنا كل فصل بإشارة إلى نماذج أخرى وأماكن كل منها .

الفصل الأول

الرسائل الوصفية

نتحدث هنا عن لون من ألوان الرسائل ، الوصف عماده وغرضه الأول وهدفه المباشر . وهذه الرسائل هى فى الواقع ، مقالات وصفية .

غير أن بعضها أطلق عليها كاتبوها اسم « الرسائل » . فآثرنا إبقاءها تحت هذا الاسم ، مراعاة لمقاصد منشئيها ، واحتفاظا لها بهذه التسمية من الناحية التاريخية ، واستدلالا على مذهبهم فى تسميتها . ولامانع لدينا من أن نطلق عليها لفظ « رسائل » أو « مقالات » . والرسالة والمقالة كلتاهما منشأة نثرية تجرى سطورها حول غرض من الأغراض ، أو موضوع من الموضوعات تصفه وتلم بأطرافه وتجمع شتات معانيه الجزئية فى دقة ووضوح وتسلسل ، مع الإيجاز المناسب ، حتى لا تتحول المقالة أو الرسالة إلى كتاب .

وبعضها الآخر له صفات « الرسالة » بالمعنى الذى شهدناه فى « الإخوانيات » ، فإنه لم يعدُ أن يكون مكاتبات من صديق إلى صديق ، فى أمر ما ، من الأمور التى يجوز لهما — باعتبارهما صديقين — أن يطرقاها ولم ننظمها فى سلك الإخوانيات ، لأن السمت الإخوانى يزايلها فى سرعة وعجلة بعد ديباجتها الأولى ، ويتجلى لك بعدُ الغرض الأساسى منها ، وهو الوصف . ولا مانع من أن تجد الكاتب ينحرف عنه غرارا بعد غرار ، إلى غرض آخر كالغزل أو المديح ، فيه أيضا من الوصف نفثات . ولكن أكثر الرسالة — على كل حال ، فى الوصف ، ومن أجل الوصف أنشئت .

وهذه الرسائل دليل جديد ملموس على اليقظة الأدبية ، والنشاط الفكرى ، ونضج

العاطفة لدى كتاب العصر ومنشئيه ، وبرهان على رغبتهم الفطرية التى ثبتها فى نفوسهم النزعات الأدبية ، فى تسجيل كل مايدور بخلدهم ، وتجيش به نفوسهم من صدى ورجع لوقائع حياتهم الشخصية ، أو وقائع الحياة حولهم عامة . بمافيها من مظاهر مختلفة وبرهان أيضا على عمق تأثرهم بهذه الوقائع والمظاهر .

ونعرض هنا ألوانا من تلك الرسائل فى موضوعات مختلفة ، فمنها :

١ — وصف النيل وزيادته وأثره :

ولا غرابة فى قولنا هذا ، فقد تبارزوا فى وصف النيل وذكر فيضانه وزيادته ، وبيان آثاره ، واتخذوا من موضوعه مثارا للمسابقات والمعارضات . وكانت رسائلهم فيه ندا لما كتبوه من البشارات بفيضانه ووفائه بين الرسائل الديوانية .

وأى شىء فى مصر أحق بالوصف من النيل ؟ ومن الولوع بأخباره ، والترقب لحركات فيضانه ونقصانه ، لما لذلك من أثر حيوى فى حياة البلاد . فالنيل رمز يمنها وبركتها ، ونبع خيرها وثروتها . وعزاء أهلها وسلواهم . ولقد كان لأدباء مصر فى هذا العصر وقبله ، كتابا وشعراء ، جولات موفقة ، ومقالات صادقة فى وصفه وذكر أنبائه ، وتصوير شعورهم نحوه ، حتى كانت هذه الجولات بعض المسالك الأدبية التى مصرت الأدب العربى فى مصر . وقد كان للنيل حينذاك ضجيج وعجيج . وكان لفيضانه صوت مدو فى آفاقها . وليوم وفائه موسم وعيد . وكان أحد الأحداث الرائعة التى يهتز لها قلب البلاد ، وتقام فيه الزينات ، وتغنى الأغانى ، ويتبارى المنشدون ويسمر السمار ، ويلهو الجميع كافة من الملك إلى السوقة .

وهذا أديب مصر الكبير جمال الدين بن نباتة المصرى ، يشرع قلمه ويرهف

شباته ، ليسطر فى وصف النيل سطورا . وهو — على حد ماوصفه به الأديب الكاتب الشاعر فخر الدين بن مكانس — « أطاعته من الآداب جوانح نظمها ونثرها، وسُخرت له بحور الشعر ، فقالت له الآداب : اختر من درها . فسبحان من يسر له ممتنع الكلام وهو نه . وجعله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » .

وسطور ابن نباتة خطرات متبتل يناوها فى محراب النيل ، أو كلمات عاشق يرتلها فى أذن خليل . أو هى — فى الحق — قصيدة غزلية نثرت أبياتها ، ونجوى شاعر رقت همساتها ، ومدحة رجل طروب يرى فى ممدوحه المثل الأعلى ، فلا ينى يكرر له الحمد والمدح ، والمكرر أحلى . وينسب إليه كل صفات الكمال الإنسانى، فكأنه أحال النيل إلى ملك عظيم أو إنسان كريم ، أغرق فى محبته ، وأطال فى صحبته فخبره فرآه حسنا فى كل شىء . فهو الوفى فى وعده ووعيده ، و إطماعه وتهديده . وله من الأسد هصره ، ومن العظيم خيلاؤه ، ومن المستبد جبروته ، ومن المحسن الكريم يده . . . إلى آخر ماوصف ابن نباته به النيل . وهو وصف يشعرك بأن الواصف امتزج بموصوفه، فاقتدر أن يفصح لك عن خبيئته ومعروفه . وهكذا ترى إلى أى حد أمعن ابن نباتة فى هذا الوصف النفسى الأثير . وهو إذا سلك مرة سبيل الحسى ، فبمقدار ماينفذ إلى النفسى المعنوى . قال :

« وأما النيل فقد استوى على الأرض فثبتت فيها قدمه . وامتد نصل تياره كالسيف الصقيل فقتل الإقليم ، وهذا الاحمرار إنما هو دمه .

حمرتها من دماء ما قتلت ... والدم فى النصل شاهد عجب

فلم يترك وعدا بل وعيدا إلا وفاه ، ولا وهدا بل جبلا إلا أخفاه . أقبل كالأسد الهصور إذا احتد واضطرم . وجاء من سن الجنادل فنحدر وعلا ، حتى بلغ أقصى الهرم. وعامل البلاد بالخيلاء ، و كيف لا ؟ وهو سلطان جائر أيّد بالنصر . قائلا : إن كنت بليت بالاحتراق فى أرضكم فأنا أفيض بأن أرمى من بروق تيارى بشرر كالقصر .

هذا وطالما قابلنا قبله بوجه جميل . وسمعنا عنه كل خبر خير ثابت ويزيد ، كما قال جميل . وكل بديع من آثار جوده يصبغ الثرى فيخضر بخلاف المشهور عن صبغة الليل . وطالما خصصناه بدعاء ، فكانت الراحة به كقياسه ذات بسطة . وكمنازل الخصب بقدومه المبارك ذات غبطة . ومنحناه بولاء وثناء ، هذا يدور من الإخلاص بفلك ، وهذا يعذب من البحار بنقطة . وكم ورد إلى البلاد ضيفا ومعه القرى . وكم أتى مرسلا بمعجز آيات الخصب إلى أهل القرى . فهو جواد قد خلع الرسَنَ . ساهر فى مصالح الخلق وقد ملأ الأمن أجفانهم بالوسن . جامع لأهل مصر من سقياه ومرعاه ووجهه ، بين الماء والخضرة والوجه الحسن . كم بات سبر مقياسه يشمل بظله الغائبين والحاضرين . وكم رفع على الوفاء راية صفراء فاقع لونها تسر الناظرين . وبلَغ وبلّغ بتحرير النيار سلامه . وبات الناس بوفائه من حذار الغلاء تحت الستر والسلامة . وخلّق صدر العمود وكيف لا يُخلّق بشير العباد والبلاد . ودعا مصر لأخذ زخرفها ، فسواء قيل : ذات العمود أو ذات العماد . وبسط يده ببركة الماء فقيل : سلام لك من أصحاب اليمين . وخضّب بنانه وأقسم بحصول الخير فقيل : لخضوب البنان يمين . » الخ [1]

وإليك الأديب اللامع الرقيق فخر الدين بن مكانس . لقد شمر عن ساعد جده ، وشهر قلمه ساعيا فى خدمة نيل بلاده ، يسجل له به زيادته المفرطة عام ٧٨٤ هـ ، فى رسالة بارعة . كتب بها إلى صديقه الأديب بدر الدين البشتكى .

ويبدو أن بدر الدين كان إذا ذاك متغيبا عن القاهرة ، فلم يشهد طغيان النيل ،

---

١ — صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٦٧ — وديوان فخر الدين بن مكانس . ولعل هذه السطور من رسالة ابن نباتة التى عارضها تقى الدين بن حجة بالبشارة التى كتبها للمؤيد شيخ « راجع البشارات » فى باب الرسائل .

فاتخذ فخر الدين من غيبته وعدم رؤيته ، تكأة للكتابة إليه فى وصف زيادته .

وقد أحسن فى استهلاله البارع الذى تجمع بينه وبين موضوع المكاتبة ، جامعة واضحة ، وينطوى فيه من التشبيه المضمن ماهو منشور بين .

قال يتحدث عن مدى زيادة النيل ومبلغ ضررها :

« رب اجعلنا فى هذا الطوفان من الآمنين . وسلام على نوح فى العالمين .

ماتأخير مولانا بحر العلم وشيخه ، عن رؤية هذا الما . وما قعوده عن زرقة هذا النيل الذى جعل الخلق فيه بالتوبة كالملائكة لماغدا هو أيضا كالسما . وكيف لم يرهذا الطوفان الذى استحال بالزيادة ، فما أشبه زيادته بالظما . فهى كزيادة الأصابع الدالة فى الكف على نقصه . وأولى أن ينشد بيت المثل بفصه :

طفح السرور على حتى إنه من عظم ماقد سرنى أبكانى

فإنه قارب أن يمتزج بنهر المجرة ، بل وصل وامتزج . وأرانا من عجائبه ما حقق أنه معنى بقول القائل : « حدث عن البحر ولا حرج » . وتجاوز فى عشر الثلاثين الحد . وأرانا بالمعاينة فى كل ساحل ماسمعناه عن الجزر والمد . وأساء فى دفعه ، ولم يدفع بالتى هى أحسن . وأقعد الماشى عن التسبب والحركة حتى شكا إلى الله فى الحالين جور الزمن . وسقى الناس من ماء حياته المعهودة كما شربوا من الموت ، أصعب كأس . وسئل ابن أبى الرداد عن قياس الزيادة ، فقال : « زاد بلا قياس » . امتلأ اليباب . وهال العباب . وضاع العدد واختلف الحساب . كال فطفف . وزاد فما خفف . غسل الجسور . وأعاد الأملاق بعزمه إلى البحور . وبرع فكان أولى بقول الحلى من ابن منصور :

بمكارم تذر السباسب أبحرا وعزائم تذر البحار سباسبا »

وأمعن الكاتب القدير فى تصوير هذه الزيادة ومبلغ ما أحدثته فى وجه الأرض من تغيير ، ويبدو أن فيضان تلك السنة كان فوق حد الوفاء ، حتى ساحت مياه النيل

وعلت إلى كثير من الأراضى فعمرتها حتى تعذر المسير فيها ، وأصابها كثير من الضرر . وقد سجل الكاتب هذا كله تسجيلا أدبيا جميلا ، قوامه التشبيهات والاستعارات والكنايات والتوريات ، وما إلى ذلك من ألوان وعناصر ، تعين القلم على تصوير مايصرح إليه الخاطر ، ويجمح نحوه الخيال . قال :

« جمع فى صعوده إلى الجبال بين الحادى والملاح . ودخل الناس إلى أسواق مصر ، وخصوصا سوق الرقيق على كل جارية ذات ألواح . وغدا التيار ينساب فى كل يم كالأيم . وأصبحت هضاب اللوح فى سما ، البحر وكأنما هى قطع الغيم . واستحالت الأفلاك فكل برج مأنى . وتغيرت الألوان فكل مافى الأرض سمأنى . وحكى ماؤه حكاكة الصندل لما مسه شيطان الريح فتخبط . وزاد فاستحال نفعه فتحقق ماينسب إلى الصندل من الاستحالة إذا أفرط . فلقد حكت أمواجه ودوائره الأعكان والسرر . وغدا كل حى متيما من زيادته لا كما قال المعرى : « حيامن بنى مطر » وتحالى إلى أن أقرف الليمون الأخضر . واحمرت عينه على الناس فأذاقهم الموت الأحمر ولقد صعب سلوكه ، وكيف لا ؟ وهو البحر المديد ، وأصبح كل جدول منه جعفرا ويزيد .

فلست أرى إلا إفاضة شاخص إليه بعين أو مشيرا بأصبع » .

ومازال فخر الدين سادرا فى تيار وصفه ، حتى جنح إلى المديح .. فكتب فيه لصديقه سطورا ، كانت بخار الند ، عطر به رقاه . قال ، وفيه دعابة وسط جناس وطباق ونحوهما :

« وكيف يسوغ لمولانا فى هذه الأيام غير ارتشاف فم الخمور . ولم لا يغير مذهبه ويطيب على هذه الخلج بالسلسل والدور . وكيف وكيف ؟ ولم لا يتخذ مولانا حمو النيل وبرده رحلة الشتاء والصيف . وهو فى المبادرة إلى علو المعالى وغلو المعانى . وانتهاز الفرص فى بلاغ الآمال ، بلوغ الأمانى :

عجب من عجائب البر والبحر م ونوع فرد وشكل غريب
من قاسكم بسواكم قاس البحار إلى الثماد

أعلى الأنام فى العلوم قدرا . وإمام النحاة من عهد سيبويه وهلم جرا . وشيخ العروضين على الحقيقة برا وبحرا .

وشيخ سيحون والنيـ ـل والفرات ودجلة
وشيخ جيحون أيضا وشيخ نهر الأبلة

إى والله !

أقولها لو بلغت ماعسى الطبل لايضرب تحت الكسا

لامخبأ لعطر بعد عروس . أنت أعوم فى بحور الشعر من ابن قابوس . وأصلح إذا حدثت من صالح بن عبد القدوس . وأشهى إذا هزلت من ابن حجاج إلى النفوس .

ولو أن بحر النيل جاراك مازحا وحقك ما استحلى له الناس زائدا » .

ثم عاد فخر الدين إلى وصف هذه الزيارة الضارة . وأخذ ينعت آثارها فى أديم الأرض ، وما خلفته فى نباته وشجره وزهره ، وما ملأت به النواحى من مياه غامرة ، فقال وبين سطوره توريات واقتباسات وتلميحات لطيفة :

« فلو رآه مولانا وقد هجم على مصر فجلس خلال الديار . ودخل إلى المعشوق فتركه كالعاشق المهجور لم يرمنه غير الآثار . لبكى بعينى عروة . وأرى من الرصد وقد تفجرت من صلده عيون النز إلى ربوة . أو رنا لروض الجزيرة وقد خلع حلاه . وتخلخلت عرائس أشجاره على الحالين بالمياه . والنخيل وقد قتلت ملاكها — حين فتك — بالأسف . وجف أحمر ثمرها وأصفره فأرانا العناب والحشف . والجيزة وقد قلت لها . تبا لجارك النيل إذ أفسدك صورة ومعنى . وسكن مغانيك فسقى ديارك بغير استثنا . وقراها الغربية وقد قلت لها حين أوت إلى أعالى الأرض هربا من المياه ، واعتصمت

بالجبل الغربى : لاعاصم اليوم من أمر الله » وكل سفينة وقد علت على وجه الماء . وارتقت لارتقاء البحر إلى أن اختلطت بالسماء . وقد قالت لها أترابها عند الفراق : إلا ترجعى . وقلنا لها نحن على سبيل التفاؤل : « ياسماء أقلعى » . والنيل تبدو عليه القلوع خافية لبعدها فكأنها الخيام بذى طلوع . وجار على الناس بطغيانه فكأنما هو أخو فرعون مصر ، أو ابن طوفان نوح .

فلقد طار النسر مبلول الجناح . ودنا نهر المجرة من السكارى بالشخاتيت إلى أن كاد يدفعه من قام بالراح . ونرجس البساتين وقد ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . وفارق أحبابه من الرياحين ولم يبق له غير القلانس صديق ، وغير الماء حميم . والورد وقد قيل له : « مالك من آس » . وغصنِ البان وقد قيل له : « طوبى لمن عانقك ولا باس » . والأسماك وقد ألجمها العرق . والقلقاسِ وقد شكا شكوى ابن قلاقس وابنه من الغرق . والقصب بالجيزة وقد شرب ماء النز فهو بئس الشراب . والقصب ببولاق لم ينجه من مشاهدة الغرق إلا كونه غاب . والفارسى بالبساتين وقد وقد ترجل ووقع فأرانا كيف تكسير الأقصاب . وقيل للآس : عالج جيرانك بالغيظان فالناس بالناس . وبادر إلى جبر ما كسر فالحاجة تدعو المكسور فى الحالين إلى الآس . » .

وما زال فخر الدين فى خطابه ، حتى مال به الاستطراد إلى الاستشهاد لشيخه بما قاله أفاضل كتاب مصر ، وسطره أعلام منشئيها ، من آيات بينات ، فى وصف نيلها ، ومنهم القاضى الفاضل ، ومحيى الدين بن عبد الظاهر وزين الدين بن الصفدى وجمال الدين بن نباتة المصرى ، وشهاب الدين بن أبى حجلة المغربى . وكلهم ، ماعدا الفاضل ، من كتاب عصر سلاطين المماليك .

وبعد أن عرض شيئا من منثورهم فى الموضوع ، عاد إلى ما كان بصدده من

وصف الزيادة وذكر أضرارها . ثم خاطب النيل خطابا يدور حول المعنى نفسه ، مثنيا على أتابك العسكر فى زمانه ، لأنه اهتم بأمر النيل ، حتى كف عن الناس ضرر زيادته ومفاسد غزارته[1] .

---

٢ — وصف الطبيعة ومظاهرها :

ومما أولعوا بوصفه أو ترديد نعوته فى مناسبات شتى ، مناظر الطبيعة وما فيها من شمس ضاحية وقمر هادىء ونجوم باسمة ، ورياض فيح ، وطيور مغردة ، وأزهار يانعة ، وجداول رقراقة ، إلى غير ذلك .

وقد كتب القاضى شهاب الدين بن فضل الله العمرى ، فى الشنويات ، رسالة إلى زين الدين بن الوردى ، أولها قصيدة مطلعها :

هلا أعارت دمشقا أختها حلب عينا فترحم أو قلبا فيكتئب

فأجابه ابن الوردى بكتاب فى مقدمته قصيدة مطلعها :

وافى الكتاب الذى تعنو له الكتب من الشهاب الذى تسمو به الشهب

والقصيدة فى وصف شتاء عامه وثلجه وبرده ومطره بدمشق . وقد أردفها بسطور نثرية فى المعنى ، ومنها قوله :

« يقبل الأرض التى تقبيلها شرف ويدعو بدوام أيام مولانا دعاء من اعترف بفضله ، ومن بحر فضائله اغترف . ويبدى ورود المثال الشريف الذى يحكى رداء نهار طرز بليل . وتبسم عن معان مبتكرة فى وصف ثلج وبردوسيل . أعرب فيه فأغرب . وأرقص سامعيه وأطرب . ثلج أصبحت به جبال دمشق مغلقة ، والخواطر

---

١ — رسالة ابن مكانس فى ديوانه المخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٣ م آداب عربية — وفى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٦٨ .

معلنة . والأغصان المثناة مقشعرة من باردته لكون الثلج بالمثلثة . تورات الشمس من وقاحته بفاختى قمصها . وودت من برده لو جرت النار إلى قرصها . وقالت له الأرض : اكشف عن حمرة وجنتى وخضرة عذار مرجى . قال : كأنك لا ئطة ، قالت : و إلا عذارك الثلجى . ابتسم لبكاء أهلها عن شنب ثغر للرفش لا للرشف . وستر رقعة الأرض فى دسته القائم حتى النفس ولو أنها الفيل تموت بالمقاطعة شوقا إلى الكشف .

أثلوجُ ضاعفتِ الهموم وطالما ... كلفتنى ما ضرنى تكليفه

إبل السحائب هيج فى جوها ... ولغامها كالبرس طار نديفه

قل تجلد الأرض على جليده ظهرا و بطنا . فقال لها أتبردين وقد طرح قوس السحاب على جبتك قطنا .

ذر كافور ثلجه الجو فى الأر ... ض فأضحى مزاجها كافورا

وتلاه وَيلاه حب غمام ... فحسبناه لؤلؤا منثورا » الخ[1]

وكتب الشهاب محمود الحلبى فى سياق رسالة قال يصف شمس الأصيل :

« فبرزنا وشمس الأصيل تجود بنفسها . وتشير من الأفق الغربى إلى جانب رمسها . وتغازل عيون النور بمقلة أرمد . وتنظر إلى صفحات الورد نظر المريض إلى وجوه العود . فكأنها كئيب أضحى من الفراق على فرق . أو عليل يقضى بين صحبه بقايا عمر بالرمق وقد اخضلت عيون النور لوداعها . وهم الروض بخلع حليته المموهة بذهب شعاعها :

والطل فى أعين النوار تحسبه ... دمعا تحير لم يرقأ ولم يكف

كلؤلؤ ظل عطف الغصن متشحا ... بعقده وتبدى منه فى شنف

---

١ — عن ديوان ابن الوردى ص ١٨٢ .

يضم من سندس الأوراق فى صرر خضر ويجنى من الأزهار فى صدف
والشمس فى طفل الإمساء تنظر من طرف غداوهو من خوف الفراق خفى
كعاشق سار عن أحبابه وهفا به الهوى فترا آهم على شرف

إلى أن نضا المغرب عن الأفق ذهب قلائدها. وعوضه عنها من النجوم بخدمها وولائدها . فلبثنا بعد أداء الفرض لبث الأهلة . ومنعنا جفوننا أن ترد النوم إلا تحلة. ونهضنا وبرد الليل موشع. وعقده مرصع . وإكليله مجوهر . وأديمه معنبر. وبدره فى خدر سراره مستكن . وفجره فى حشا مطالعه مستجن . كأن امتزاج لونه بشفق الكواكب خليطا مسك وصندل . وكأن ثرياه لامتداده معلقة بأمراس كتان إلى صم جندل .

ولاحت نجوم الليل زهراً كأنها عقود على خود من الزنج تنظم
محلقة فى الجو تحسب أنها طيور على نهر المجرة حوم
إذا لاح بازى الصبح ولت نئومها إلى الغرب خوفا منه نسر ورزم

إلى حدائق ملتفة. وجداول محتفة. إذا خش النسيم غصونها اعتنقت كالأحباب . وإذا ركب من المياه متونها انسابت فى الجداول انسياب الحباب . ورقصت فى المناهل رقص الحباب . وإن لثم ثغور نورها حيته بأنفاس المعشوق . وإن أيقظ نواعس ورقها غنته بألحان المشوق .

فنسيمها دان . وشميمها لعرف الجنان عنوان . ووردها من سهر نرجسها غيران . وطلها فى خدود الورد منبث وفى طرر الريحان حيران . وطائرها غرد وماؤها مطرد . وغصنها تارة يعطفه النسيم إليه فينعطف . وتارة يعتدل تحت ورقائه فتحسب أنها همزة على ألف » الخ.[1]

---

١ — حسن التوسل ص ١٤٩ .

٣ — وصف الغزوات وما يتصل بها :

وقد عج العصر بالكثير من غزوات سلاطينه . فقد كان مماليكه وأمراؤه ، وبخاصة فى أوائل دولتهم مثالا للهمة والنجدة ، ونموذجا للشجاعة والفتوة ، وأملا للذود عن الدين والوطن . وكانوا يتلمسون الفرص لأظهار مواهبهم فى القتال ، وفتهم العالى فى النزال . وقد قيضت لهم الأيام فرصا فريدة متجددة وميادين كثيرة متعددة . وذلك بكثرة إغارات التتار من جانب ، والفرنجة من جانب آخر ، على ممتلكات مصر فى الديار الشامية والجزيرية . فخاضوا غمارها وثبتوا فى ميادينها . وكان لذلك رجع بعيد المدى فى المكاتبات الديوانية . وشهدنا منها ضربا عماده الوصف وهو البشارات ، وصفوا فيه غزوات ملوكهم وهجمات أمرائهم وجولات جنودهم ، والفتوح التى أفاءها الله عليهم ، والانتصارات التى أسبغ نعمها فوقهم . وما تخلل ذلك من حوادث ذات أثر ، وما لابسها من مواقع وقائع ذات خطر .

وعلى هذا النسق سار الكتاب خارج الديوان . فكاتب بعضهم بعضا بأخبار هذه الغزوات فى رسائل أشبه بالإخوانيات ، أودبجوا فيها الرسائل والكتب الواصفة ، التى تعتبر بدورها — فضلا عن أهميتها الأدبية — تسجيلا تاريخيا .

ولم يقتصروا على ذكر الحرب والضرب ، والقتال والنزال ، بل تناولوا وصف مايتصل بها من آلات وسلاح وأبنية وحصون وقلاع . بل وتحدث بعضهم عن الهزائم واعتذر لها ، وتهدد بالعود للثأر والانتقام وهكذا . فكانت رسائلهم فى ذلك كله صنوا لبشارات الغزو والفتح التى تصدر عن الكتاب الرسميين .

ومن رائع الرسائل فى هذه الناحية ، مادبجه الكاتب اللبق والمنشىء الذلق ، القاضى علاء الدين على بن عبد الظاهر ، فى وصف وقعة « مرج الصفر » ، بين سلطان

مصر الناصر محمد بن قلاوون ، وسلطان التتار إيلخان غازى ، وذلك عام ٧٠٢ هـ . وكان النصر فيها من نصيب الناصر . وكان الكاتب أحد الذين شهدوا هذه الغزاة .

وقد بدأها بحمد الله سبحانه وتعالى الذى أيد سلطان مصر الناصر ، وجعل منه مدافعا عن دينه ، وجعل من ذرية المنصور أبيه من يذود عن الإسلام ويجاهد الكفر والكافرين ، ويرعى حوزة الدين . ثم أثنى على نبيه الكريم الذى سن سنة الجهاد ، وشرع شرع الجلاد فى سبيل نشر دين الله حتى روع الكفر وأخمد الشرك وكشف النفاق.

وأشار إلى شهرة غزوة الناصر وما كان لها من دوى عظيم فى أرجاء البلاد الإسلامية، وما كان لها من أثر كبير ، وقد آتاه الله فيها النصر لأنه وعد به عباده المؤمنين.

ونوه بأنه شاهد هذه الغزوة فهو يصفها وصف راء وسامع ، ورأى أن يذكر منها ملحة تنشرح منها الصدور ، ولمة تعرب عن ذلك النور .

وقد أخذ الكاتب فى وصف هذه الغزوة من أول مسير الناصر إليها خارجا من القلعة ومعه أمراؤه وخليفة عصره وكانت تلك عادة كثير من السلاطين فى ذلك العصر — وقبل بلوغهم مدينة « غزة » اشتبكت جنودهم مع بعض جنود التتار لإغارتهم على قريتين فى الطريق ، فهزموهم هزيمة منكرة فكانت فاتحة لهزائمهم المتوالية .

ووصف الكاتب دخول الركب السلطانى إلى «غزة» واستقبالها له ، ثم مزايلته لها إلى « مرج الصفر » ، حيث اشتبك الجيشان يومين كاملين ، وصف ما كان فيهما من ثبات الناصر وشجاعة أمرائه وجرأة جنوده ، مما أدى بجنود التتار إلى الاعتصام ببعض الهضاب العالية ، فما كان من جنود السلطان إلا أن أحاطوا بهم ، ثم فتحوا لهم طريقا إغراء لهم بالهروب ، وكمنوا لهم على جانب الطريق ، وأخذوهم أخذة جبارة ، وأثخنوا فيهم وقتلوا وسبوا ، وفرت فلولهم مستخذية .

هذا ، ولما تم النصر للسلطان وجنوده ، يمم شطر دمشق فأقام شهر رمضان .

وهنا يصف الكاتب استقبال المدينة له وإقامته الحافلة بها ، ثم مزايلته لها فى ثالث يوم من شوال إلى الديار المصرية . وأبدع فى وصف استقبال البلاد له ، ولا سيما مدينة القاهرة .

وقد لقيت هذه الرسالة من لدن السلطان الناصر عطفا وقبولا حينما تليت على مسامعه الكريمة . . .

من هذا العرض الوجيز لتلك الرسالة الفريدة ، التى تحتوى على نحو ثلثمائة سطر ، يتبين لك أنها تشتمل على جملة أغراض كتابية . منها بعد الحمد والثناء ، وصف رحلة السلطان فى ذهابه وإيابه ، ووصف الغزوة ، ومدح الناصر ورجاله ، ووصف استقبالات الركب ، والدعاء للناصر بالتأييد والنصر الدائم .

وقد امتزج بعض هذه الأغراض بالبعض الآخر ، حتى تراءت معانيها المتمازجة واضحة خلال السطور . غير أن السبب المباشر أو الغرض الأصيل منها هو وصف الغزوة ، وما عداه من الأغراض تبع له ، وإحدى وسائله ، على أنها أيضا فى صميم الوصف .

وقد سميت هذه الرسالة « الروض الزاهر فى غزوة الملك الناصر » . وإليك فقرات منها مختارة من مواضع مختلفة . وأنت تلمح فيها الأسلوب البديعى زاهيا بما فيه من سجع وجناس ومطابقة وتورية واقتباس وتضمين وغير ذلك .

قال فى خطبتها وفيه براعة استهلال :

« الحمد لله الذى أيد الدين المحمدى بناصره . وحمى حماه بمن مضى هو وسلفه بأداء فرض الجهاد فى أول الزمان وآخره . وجعل من الذرية المنصورية من يجاهد فى الله حق جهاده . ويسهر فى سبيل الله فيمنع طرف السيف أن يغفى فى أغماده . ويقدم يوم الوغى والموت من بعوثه للعدى وأجناده . » الخ .

ومنها يصف بدء خروج الناصر ويذكر أمراءه وخليفة عصره وجيوشه المنصورة :

« ركب مولانا السلطان الملك الناصر — خلد الله ملكه — بنية صالحة أخلصها فى سبيل ربه . وعزيمة ناجحة ماثلت فى المضاء سمر عواليه وبيض قضبه . من قلعة مصر ، التى هى كنانة الله فى أرضه. بجيوشه التى نهضت بسنن الجهاد وفرضه. تقدمها أمراؤه الذين كأنهم ليوث غاب أو غياث سحاب . أو بدور ليال أو عقود لآل . معتضدا ببضعة من الرسول . منتصرا بابن عمه الذى لا يسمو أحد من غير أهل بيته لشرفه ولا يطول . ملتمسا بركة هذا البيت الشريف الذى طالما كانت الملائكة من نجده وجنده . مسترسلا بيمنة الإيمان سحب كرمه . مستدعيا صادق وعده . وسار على اسم الله تعالى بالجاريات الجياد . التى تعدو فى سبيل الله النجاد وتعلو الهضاب . وسرى يقطع المنازل ويطوى المراحل طى السجل للكتاب . والجيوش المنصورة قد أرهفت حد سيوفها ، وأشرعت أسنة حتوفها . وهى تسير كالجبال ، وتبعث كالصدى ما يرهب من طيف الخيال .

فبينما الركاب قد استقلت فى السرى . ورقمت فى البيداء من أعناق جيادها سطور من قرأها استغنى بحسنها عن القرى . إذا البشير قد وفد . ونجم المسرة قد وقد . وأخبر بأن جمعا من الفئتين قصدوا الفريقين للإغارة . » الخ

وقال يصف استعداد الجنود قبيل المعركة :

« هذا والسيوف قد فارقت الأغماد ، وأقسمت أنها لا تقر إلا فى الرءوس . والأسنة قد أشرعت وآلت أنها لا يُروى ظمؤها إلا من دماء النفوس . والسهام قد التزمت أنها لا تتخذ كنائنها إلا من النحور ، ولا تتعرض عن حنايا القسى إلا بحنايا الأضالع ، أو لترقيها لا تحل إلا فى الصدور . والدروع قد لزمت الأبطال قائلة : لا أفارق الأبدان حتى تتلى سورة الفتح المبين . والجياد حرمت وطء الأرض وقالت لفرسانها : لا أطأ

إلا جثث القتلى ورءوس الملحدين . فلا ترى إلا بحرا من حديد ، ولا تشاهد إلا لمع أسنة أو بروق سيوف تصيد الصيد . والسلطان قد أرهف ظباه ليسعر بها فى قلوب العدى جمرا . وآلى أنه لا يورد سيوفه الظلا بيضا إلا ويصدرها حمرا . والإسلام كأنه بنيان مرصوص ونبأ النصر على مسامع أهل الإيمان مقصوص . والنفوس قد أرخصت فى سبيل الله وإن كانت فى الأمن غالية . وأرواح المشركين قد أعدلها الدرك الأسفل من النار ، وأرواح المؤمنين فى جنة عالية . » الخ .

وقال يصف زحف السلطان عليهم بجنوده واشتباكه معهم فى القتال وخدعتهم لهم حتى أطبقوا عليهم :

« وزحف السلطان وبين يديه أمراؤه وعساكره المؤيدة فضيقوا عليهم الخناق . وأحدقوا بهم إحداق الهدب بالأحداق . وراسلوهم بالسهام . وشافهوهم بالكلام لا الكلام . ورفعوا من راياتهم المنصورة ما طاول المنشئات فى البحر كالأعلام . وحمل بها الأبطال فكلما رآها العدى تهتز بتحريك نسيم النصر سكنوا خوف الحمام . ثم خرجوا لهم عن فرجة من جانب الجبل ظنوها فرجا . وخيل لهم أنه من سلك تلك الفرجة سلك طريقا مستقيما وما دروا أنه سلك طريقا عوجا . واستترت لهم الجيوش المنصورة إلى الوطأة لتمكن سيوفها من سفكهم . وتقرب مدى هلكهم . وتسلمهم إلى الحمام الذى لا ينجى منه خيل ولا حيل . وتملأ الوطأة من دمائهم فيساوى السهل من قتلاهم الجبل . وحل الحمام بساحتهم . وامتدت الأيدى لاستباحتهم . وضاقت عليهم المسالك . وغلبوا هنالك . وأنزل الله نصره على المؤمنين وأيدهم بجنود لم يروها . واشترى منهم أنفسهم بأن لهم الجنة ، فياطيب ما شروها . » الخ

وقال يصف إقامة السلطان بمدينة دمشق ، بعد المعركة ، وقد أقام بها بقية رمضان إلى ثالث شوال ، وكانت له فيها مواكب وهبات :

« وأقام السلطان بدمشق المحروسة ، يتبوأ منها أحسن الغرفات . ويستقر من

بقعتها فى جنات . فحييت به بعد الممات . وعادت بمقدمه إلى جسدها الروح بعد المفارقة. وتمتعت مقلتها من محاسنه بأبهى من رياضها الرائقة . وهو يحمى حماها . ويحلى مواطن ملكها الزواهر رباها . ويزينها بموا كبه التى ما ثلت الكواكب فى سمائها وسناها . وتطأ سنابك جياده أرضها فيدانى الثريا فى الافتخار ثراها . إلى أن قضى شهر صيامه المقبول . وأتاه عيد الفطر مبشرا بإدراك آماله فى عز مستمر ونصر موصول . وأسبغ من عطاياه ما أربى على عدد أمواج البحر . وتعددت لدولته المسرات فى هذا الشهر الميمون فآخره عيد فطر وأوله عيد نحر . . » الخ[1] .

وأنشأ الكاتب المتمكن شهاب الدين محمود الحلبى ، رسالة إلى قائد سرية كاشفة — ولم يرسلها — وقد أبدع فيها ما شاء له قلم الإبداع ، من رائع المعانى ما شاءت له نزعة الاختراع . مادحا المرسل إليه بجملة أوصاف وثيقة الصلة بصميم عمله ، موصيا له بما ينبغى أن يحفل به ، متناولا فى خلال ذلك وصف خيله .

قال يصفه ويمدحه ويوصيه ، ولعله بذلك يضع له دستور العمل والحركة :

« وهو لازال أخف فى مقاصده من وطأة ضيف . وأخفى فى مطالبه من زورة طيف . وأسرع فى تنقله من سحابة صيف . وأروع للعدى فى تطلعه من سلة سيف ، حتى يتعجب عدو الدين فى الاطلاع على عوراته من أين دهى وكيف . ويعلم أن من قسمته الشقاء حصل عليه فى مقاصده الحيف .

أصدر ناها إليه نحثه على الركوب بطليعة أعجل من السيل . وأهول من الليل . وأيمن من نواصى الخيل وأقدم من النمر . وأوقع على المقاصد من الغيث المنهمر . وأروع فى مخاتلة العدى من الذئب الحذر . على خيل تجرى ما وجدت فلاة . وتطيع راكبها مهما أراد منها سرعة أو أناة . تتسنم الجبال الصم كالوعل . وإذا جارتها البروق عدت

---

١ — عن سلوك المقريزى ج ١ ص ١٠٢٧ .

وراءها تمشى الهوينا كما يمشى الوجى الوجل . وليكن كالنجم فى سراه وبعد ذراه . إن جرى فكسهم . وإن خطر فكوهم . وإن طلب فكالليل الذى هو مدرك . وإن طلب فكالجنة التى لا يجد ريحها مشرك . حتى يأتى على عدو الدين من كل شرف . ويرى جمعه من كل طرف . ولا يسرف فى الإقامة عليه إلا إذا علم أن الخير فى السرف . وليحرز جمعهم ، ويسبق إلى التحرز منهم بصرهم وسمعهم . وينظرهم بعين منعها الحزم أن ترى العدد الكثير قليلا . وصدها العزم أن ترى العدو الحقير جليلا . بل ترى الأمر على فصه وتروى الخبر على نصه . وإن وجد مغررا فليأخذ خبره . إن قدر على الإتيان بعينه ، وإلا فليذهب إثره . ولا يؤجج فيما لديه نار حرب إلا بعد الثقة بإطفائها . ولا يوقظ عليه عين عدو مهما ظهر له أن المصلحة فى إغفائها . وليكشف من أمورهم ما يبدى عند الملتقى عورتهم . ويخمد فى حالة الزحف ثورتهم وليجعل قلبه فى ذلك رئيسة طرفه . وطليعة طرفه . وسرية كشفه . والله تعالى يمده بلطفه . بمعقبات من بين يديه ومن خلفه . »[1]

---

٤ — وصف الصيد وما يتصل به :

وكان الملوك وأشباههم يخرجون إلى الرياضة والنزهة بين الآونة والأخرى . ويصحبون معهم من أمرائهم وحرسهم وحاشيتهم من يلذ معهم الرحيل ، ويطيب بهم المقام . ويحلو إليهم السهر والسمر ، وتروق المصاحبة والمشاورة . فيمارسون الصيد فى البرارى والقفار . ويستخدمون أدوات الصيد من سهام وأقواس ونشاب وبندق وبزاة وصقور وخيل ، فكان ذلك أحد الحوافز إلى الوصف . فكتب بعض كرام الكاتبين فى ذلك الرسائل الممتعة . وصفوا فيها هذه الغزوات المملنة ضد الحيوان . وأسهبوا فى

---

١ — عن حسن التوسل .

وصف آلات الصيد . وأطنبوا فى نعت الجوارح . وردّدوا الكثير من صفات الخيل على مختلف ألوانها . وأطالوا فى وصف الصيد من طير جارح أو حيوان سارح ولعمرى لم يخل ما كتبوا من جديد ممتع ومبتكر رائع. هذا بجانب جدب البيئة المصرية وضنها بالمناظر الطبيعية الخلابة والغابات الجذابة التى تجذب إليها الطيور المرتادة ، والأفدام المرتاضة . وتختلف إليها الوحوش ، ويهوم نحوها الصائدون ، حيث يجدون أجمل البواعث على مزاولة غايتهم ، ومواصلة هوايتهم مما يتيح للمنشئين أحب الفرص وأسنحها لجمال الوصف .

هذا ، وقد تحتوى رسائل الصيد على وصف الرحيل من بدء الاستعداد له إلى وقت مفارقته ، وذكر ركب السلطان ومسيره ومن حف به ، وما احتوى عليه ، ومراحل رحيله وأماكن نزوله . وما حف بذلك كله من مواضع جامعة ومناظر رائعة وحفاوة بالغة ، وما تخلل ذلك من حوادث بدت فيها من السلطان شهامة أو شجاعة أو كرم أو حسن رأى أو نحو ذلك ، مما يبادر إليه الملوك الصيد فى رحلات لهوهم وليالى أنسهم. ومن هنا ترى أن الكاتب يجنح قسرا إلى المديح وإغداق الثناء على سلطانه . وترى الرسالة رسالة وصف ولكن المديح هدفها المستور . ومن هنا أيضا ترى إلى أى حد شارك النثر الشعر فى أهم أغراضه وزاحمه فى أجدى أبوابه وأرحبها وأدرها بالربح ، وأعودها بالنجح . — وفى الوقت الذى ترى كثيرا من السلاطين فيه قد لووا جيدهم عن سماع مدح الشعراء ونفحهم بالعطاء ، نراهم قد استرقوا هذا المديح المنثور . واستعذبوا إطراء هذه السطور ، تسبغ عليهم أثوابه وتضفى ، بيد كرام الكاتبين ، داخل الديوان وخارجه . خلال هذه الرسائل وأمثالها.[1]

---

١ — القلقشندى يعتبر رسائل الغزو والصيد فى عداد الرسائل الملوكية ، وإن لم يدخلها بين الرسائل الديوانية — راجع صبح الأعشى ١٤ — وقد خالفناه هنا بعض المخالفة ، إذ لم نعتبرها من الرسائل الملوكية ، وذلك لعدم صدورها من ديوان الإنشاء .

وهذا القاضى « تاج الدين البارنبارى » ، دبج رسالة جيدة فى وصف عادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى الخروج كل عام إلى الصيد ، فبلغ بسطورها نحو مائتين .

وقد أشار فيها إلى عادة هذا السلطان فى الخروج إلى الصيد أيام استراحته من الحروب ، وأيام أن ينشر السلم رواقه . فيجتلب به دواعى الأنس ، ويروح عن النفس .

قال الكاتب من سطور رسالته هذه مبينا تلك العادة :

« وفى خلال كل عام تصرف عزائمه الشريفة إلى ابتغاء صيد الوحش والطير . لما فى ذلك من تمرين النفوس على اكتساب التأييد . وحصول المسرة بكل ظفر جديد . فيرسم — خلد الله سلطانه — فى الوقت الذى يرسم به من مشتى كل عام ، بإخراج الدهليز المنصور . فينصب فى بر الجيزة بسطح الهرم . فى ساعة مباركة آخذة فى إقبال الجود والكرم فتمد بالتأييد أطنابه . وترفع على عمد النصر قبابه . ويحاط بحراسة الملائكة الكرام رحابه . وتضرب خيام الأمراء حوله وطاقا . وتحف به مثل النجوم بالبدر إشراقا . »

والرسالة المذكورة فى وصف رحلة معينة . ولكنها تصف العادة فى الخروج والصيد وترسم نمطا من رحلات السلطان لهذه الغاية . ولذلك تحدث فيها عن بدء مسير ركب السلطان الناصر من القلعة وحوله مماليكه وأخصاؤه . وروى أنه يقصد إلى ساحل النيل حيث يركب فلكا يبلغه شاطىء الجيزة . فيمتطى صهوة فرسه إلى مخيمه بسفح الهرم . ثم يقيم هناك ردحا ، يخرج خلاله إلى صيد الطيور أولا ، ويستخدم فى ذلك ما حمل معه من جوارح الصيد المعودة المعدة ، حتى يشبع هواه من ذلك ، فيعود إلى مخيمه حينما يجن الليل بين صفوف من جنوده وأتباعه تضىء لهم الشموع فى ذلك الليل الدامس وتحيله إلى صبح مسفر . ثم يكر مرة أخرى إلى الوحوش فيصيدها وهو يطاردها على صهوات الخيول الفارهة ، وهكذا دواليك .

وقد استطرد الكاتب إلى وصف ألوان من الخيول وبيان مزية كل لون منها وصفاته الفريدة المفيدة. فوصف الأشهب والأحمر والأدهم. ووصف الفهود والضوارى الصائدة. ثم وصف أنواعا من المصيدات وحالتها وقت الصيد، ومنها النعام والظباء والبقر الوحشى والحمر.

وننقل إليك فقرات وجيزة مما جاء فى هذه الرسالة. قال يذكر مسير السلطان من النيل إلى سفح الهرم وسط حقول الجيزة، ويصف ما معه من البزاة والصقور، ثم مزاولة الصيد:

« وسار فى زروع مخضرة وثغور نبات مفترة وقد طلعت للظفر شموسه وبدوره. وأعدت للصيد بزاته وصقوره. من كل متوقد اللحظ من الشهامة. محمول على الراحات من فرط الكرامة. يتوسم فيه النجاح قبل خفق الجناح ويخرج من جو السماء، ولا حرج ولا جناح. وبازها الأشهب. يجىء بالظفر ويذهب. بصدر مفضض وناظر مذهب له منسر أقنى. طالما أغنى. كأنما هو شبا السنان، وقد حباه الكماة طعنا.

وصارم فى يديك منصلت إن كان للسيف فى الوغى روح

منقد اللحظ من شهامته فالجو من ناظريه مجروح

قد راش النجح جناحه. وقرن الله باليمن غدوه ورواحه. ونصره فى حربه حيث جعل منسره رمحه ومخلبه صفاحه. فى قوادمه السعد قادم. وفى خوافيه النصر ظاهر المعالم. كأنما ألهم قوله ﷺ « بورك لأمتى فى بكورها ». فيسرح والطير جاثمة فى وكورها. ويخرج فى أغباش السحر وعليه سواد. فيهابه الصادح فى الجو، والباغم فى الواد. ويأمر — خلد الله سلطانه — أمراءه فيضربون على الطير حلقة وهى لاهية فى التقاط حبها. غافلة عما يراد بها. فيذعرونها بخفق الطبول وضربها. ومولانا السلطان — خلد الله ملكه — لنافرها مترقب. ولطائرها بالجارح معقب. فما يدنو الكركى مقرورا. حتى يثوب مقهورا. ساقطا من سمائه إلى أرضه، ومن سعته

إلى قبضه . فسبحان من خلق كل جنس وقهر بعضه ببعضه » الخ .

ومن وصفه للفرس الأدهم قوله :

« ومن أدهم : مدرك كالليل . منصب كالسيل . كريم الناصية . جواب قاصية . كأن غرته صبح تنفس فى الدجى الحالك . وكأنه من الليل باق بين عينيه كوكب يضىء المسالك . وكأن حجوله بروق تفرقت فى جوانب الغسق فحسُن منظرا لذلك . سنابكه يورى قدحها . وغرته ينير صبحها . وجوارحه مسود جنحها . وصهوته كمن فيها العز فلا يزال ظاهرا نجحها » .

ومن وصفه للنعام قوله

« فمن نعام : خُضَّب ظليمها لما أكل ربيعا . واحمرت أطراف ريشه فكأنها سهام أصابت نجيعا . طالت أعناقها الناحلة فكأنها خطية . واشتدت قوائمها الحاملة فكأنها مطية . شاركت الطير فى وجود الجناح . رفارقتها فى كثافة الأشباح . وأشبهت الوحش فى مسكن القفار ، وشدة النفار . قد اجتمع فى ظاهرها اللونان من الوحش والطير . وائتلف فى باطنها الضدان من ماء ونار . »[1]

---

٥ — وصف الخيل :

ها نحن أولاء شهدنا مبلغ عنايتهم بوصف الخيل خلال وصف الصيد . ولا عجب فإنما هم أهل تلك القرون الوطى ، والعمدة فى ركوبهم على الخيل . والجواد أهم أداة يعتمد عليها جنديهم فى حروبه . وهو المنطى الذى يعتليه السلطان وأمراؤه فى تنقلاتهم المختلفة ذهابا وأوبة ، وحضورا وغيبة ، وطلوعا ونزولا ، وسلما وحربا ، فضلا عن استخدامه فى الصيد . وهو موضع الزينة بمجلى الحلية فى المواكب الحافلة والحشود المجموعة . وهو إحدى المنح التى تجود بها مكارم السلطان على خاصته وخلصائه . وهو

(١) عن صبح الأعشى ج ١٤ ص ١٦٥ .

المركب الذى يتسنمه ذو المنصب العالى حينما يفيض عليه السلطان بنعمة المعين فيه ويعود من لدنه إلى داره فى موكب ممتطيا صهوة جواد . .

لهذا ولغيره ، ترى الجواد ذا حياة حافلة وأهمية كبرى فى ذلك الزمان . ولا عجب — كما قلنا — إذا صرفوا الكثير من عنايتهم إليه . وكلف به الواصفون ، وسجلوا له فى صفحة الأدب ما يخلد ذكره و يبين خطره و يشيد بجميله و إياديه . ونافس فى ذلك بعضهم بعضا ، حتى اتخذوا وصفه سببا لمعارضاتهم .

ولم يقتصر وصفهم له ، على ذكره فى سياق رسائل الصيد ، بل كتبوا فيه الرسائل المستقلة . ومن لطيف ما قرأناه من ذلك ، رسالة لابن حجة الحموى سماها : « مجرى السوابق » .

مجرى السوابق :

رسالة كتبها ابن حجة لسبب وغاية . وذلك أن لكل من الشهاب محمود الحلبى والجمال بن نباتة المصرى ، والشهاب بن فضل الله العمرى ، نثرا فى وصف الخيل . فطُلب من ابن حجة أن يعارضهم بنثر من عنده فى موضوعهم . فعارضهم على غرار رسائلهم ، وجمع ذلك كله فى مؤلف واحد هو « مجرى السوابق » .

ومما يذكر أن كلا من الكتاب الأربعة ، وصف على الترتيب : الأدهم فالأشقر فالكميت فالحبشى الأصفر فالأخضر فالأبلق . ثم انفرد كل من ابن فضل الله وابن حجة بوصف الورد والكدش .

وقد نظم ابن حجة ذلك كله فى رسالة « مجرى السوابق » . فلم يورد كلام كل منهم على حدة ثم أتبعه بكلام من بعده ، بل فصّل فى ذلك بعض التفصيل . فأورد ما قالوه جميعاً فى الجواد الأدهم بالتتابع : الحلبى فابن نباتة فابن فضل الله فابن حجة . ثم ما قالوه جميعا فى الأشقر على الترتيب المذكور أيضاً ، وهلم جرا . فصارت كل طائفة من السطور فى وصف لون من الخيل ، مقرونة إلى مثيلاتها .

وقد افتتح ابن حجة هذه الرسالة الممتعة الفريدة ، بخطبة طلية ورّى فيها بمصطلحات

الخيل ، وهو بارع دائم البراعة فى استهلالات خطبه ، مراعيا فيها النظير رعاية لافتة ، تدل على يقظة خاطر وأصالة أدب ولباقة ذوق .

قال فى الخطبة :

« الحمد لله الذى يقف عند سوابق فضله كل جواد . ويقصر فى حلبة هذا الكرم الذى ليس له غاية فى بديع الاستطراد . فمن ألهم الحزم وأرشده إلى حد المعرفة حاز قصبات السبق ، ولا نقول : كد .

نحمده على أن جعل لنا الخير معقودا بنواصى الخيل . ونشكره شكرا نعلو به على أشهب الصبح ونمتطى أدهم الليل . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة نرجو أن نكون بها فى ميادين الرحمة الواسعة من السابقين . ونشهد أن محمدا عبده ورسوله قائد الغر المحجلين . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين هم السابقون السباقون إلى الغايات . وإذا ذكرت الفصاحة والشجاعة كانوا على كلا الحالين فرسان العربيات . وسلم تسليما » .

هذا . ونقتصر هنا على ذكر أوصافهم للفرس الأشهب نموذجا لغيرها . قال :

« قال الشهاب محمود رحمة الله عليه :

« فمن أشهب غطاه النهار بحلته . وأوطأه الليل على أهلته . يتموج أديمه ريا . ويتأرج ريا . ويقول من استقبله فى حلى لجامه : هذا الفجر قد طلع بالثريا . إن النقت المضايق انساب انسياب الأيم . وإن انفرجت المسالك مر مرور الغيم . كم أبصر فارسه يوما أبيض بطلعته . وكم عاين طرف السنان مقاتل العدى فى ظلام النقع بنور أشعته . لايستن داحس فى مضماره . ولا تطمع الغبراء فى شق غباره . ولا ظفر لاحق من لحاقه بسوى آثاره . تسابق يداه مرامى طرفه . ويدرك شوارد البروق ثانيا عن عطفه .

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله :

« ومن أشهب كأنه طلعة نجيح . أو قطعة صبح . أو غرة قمر يضرب بأشعته أدبار

جنح قد ترتبت منه الأرضاع . وانقطعت دون غايته حتى الأطماع . واعتذرت له الريح فصوب أذنيه للسماع . وأصبح لصاحبه نعم العون فى يوم السبق ، والغوث فى يوم القراع . وكاد يكون من الملائكة فكم له من غبار السبق أجنحة مثنى وثلاث ورباع . ماخفيت مصلحة إلا قيضها ولا ادلهمت سحابة نقع إلا قام لها بنفسه وبيضها . وما حدث عن حسن إلا رواه ، ولا امتطاه عازم إلا حمد عند صباح لونه سراه . يقرب الطلب بسفارة عزائمه المسفرة . ويختال فى الخيل كالنهار فلا جرم أن آيته مبصرة . كم ثنى عنانه كثيراً عن مسابقة الرياح وأعرض . وكم لعب عليه غارم حتى فاز منه بالعيش إلا أنه أبيض » .

وقال القاضى شهاب الدين بن فضل الله :

« ومن أشهب جواد بما فى يده . سابق بعد يومه الأبيض لغده . فكأنما قمصه النهار بردائه . أو سمح له البدر التمام بروائه . قد صيغ من لجين . وصين نور البصر منه بسواد العين . ومعه شهباء من جنسه لا تحدث إلا عن محاسن الأبناء . ولا تعرف كتائب زيد إلا لكونها حكتها وتسمت بالشهباء .

وقال تقى الدين بن حجة :

« ومن أشهب شابت ببياضه مفارق الأرض . وقصر طولها بسرعته يوم العرض . إن تعلل جواد بغرته فهذا كله غرر . وكم قالت الشهب الثواقب إن كان هذا فى السبق مبتدأ ، نزلنا وراءه منزلة الخبر .

والنصر فى أشهب يبدو بطلعته يوم الخميسين لا فى السبعة الشهب

وقد قدمنا أن القمر شاركه فى اللون وفرط البهجة فى الأفق . فكم جاراه فى السير فقطعه وتركه مرميا على الطرق . جواد له اليد البيضاء مع كرم الأصل . وما غمزه فارس إلا قطع بوصوله إلى العرض . فهمزته همزة قطع وهمزة وصل . يسبق النظر فى تصوره إذا امتد خلفه وطلبه . فكأنه بقايا يقين كاد الشك أن يذهبه . ما قرع بيده بغية إلا سقطت

ساجدة لصعوده بهاتيك المزايا . وقال بياضه الصبحي منشدا : أنا ابن جلا وطلاع الثنايا » الخ[1] .

---

٢ — وصف الحمائم :

ونعني بها « حمائم الرسائل » وهي المختصة بحمل الرسائل من مكان إلى مكان . فهي تقوم مقام البريد في إيصال المكاتبات وحمل الرد عليها. وقد استخدمت في مصر في العصر الفاطمي ، واعتنى بها الناصر لدين الله الفاطمي . واستمر استخدامها تقليدا متبعا إلى عصر المماليك . ويستتبع استخدامها العناية بها و بأقفاصها وطعامها وتمويتها ، و إنشاء المحاط الخاصة بها وما أشبه ذلك .

وقد ذكر السيوطي[2] أن القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر قد ألف في ذلك كله كتابا سماه « تمام الحمام » ومن كلامه نفهم أنه وصف العادات المتبعة في المكاتبات المرسلة بطريق هذه الحمائم ، من حذف التهميشات ، والعدول إلى الإيجاز ، وحذف فضول الكلام ، وختم الرسالة بقوله « وحسبنا الله ونعم الوكيل » إلى غير ذلك .

وأهمية هذه الحمائم ، إن برزت في أوقات السلم ، فهي في أوقات الحروب والفتن أشد بروزا .

وحديثنا هنا نعني فيه بالإشارة إلى أن هذه الحمائم ، لما كانت ذات أهمية في حياة الدولة وأهلها ، وتستنفد من عناية أولى الأمر فيها جهدا موفورا ، لفتت إليها خواطر الأدباء ، و بخاصة لما لها من حميد الصفات وفريد المزايا ، وما انفردت به دون سائر الطيور من أمانة وذكاء وحيلة . فكان لا بد لها أن تنال نصيبا موفورا من عناية

---

١ — هذه المقتطفات من « مجرى السوابق » وهي مثبتة في كتاب «فهوة الانشاء» لابن حجة مخطوط بدار الكتب المصرية . وفي حسن التوسل ما كتبه الحلبي منها .

٢ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٦ وما بعدها .

أقلامهم ، ومن سنحات خواطرهم ، ومن سرحات خيالهم . فلم ينوا عن ذلك ، منذ كان لهذا الضرب من « البريد » وجود بمصر . فكتب فى وصفها القاضى الفاضل وغيره من بعده من كرام الكاتبين ، واتخذوها مسرحا لنفثات الأقلام ، وميدانا للمعارضات الأدبية الطريفة التى كانت إحدى مذكيات الأدب شعرا ونثرا .

ونجتزىء بنقل سطور وجيزة مما كتبه القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر فى وصفها . قال من رسالة :

« كم دفعت شكما بيقينها . ورفعت شكوى بتبيينها . وكم أدت أمانة ولم تعلم أجنحتها بما فى شمالها ، ولا شمالها بما فى يمينها . كم التفت منها الساق بالساق . فأحسنت لربها المساق . وكم أخذت عهود الأمانة فبدت أطواقها فى الأعناق . ويقال ما تضمنته من البطائق بعض ما تعلق منها فى الرياض من الأوراق . تسبق اللمح . وكم استفتح بها المسير إذا جاء بالفتح . تسبق الطَّرف السابق . والطرف الرامى الوامق . وما تلت سورة فى البروج إلا وتلت سورة الطارق . كم أنسى مطارها عَدْو السلكة والسليك وكم أغنت فى خدمة سلطانها عن الغناء . وقال كل منهما لرفيقه إليك ، عن الأيك » الخ[1] .

---

٧ — وصف الرحلات :

كان العصر عصر رحلات . وذلك لترامى أطراف المملكة المصرية وانتشار نظمها المركزية فى شتى هذه الأطراف . حتى أصبحت الشعوب المقيمة بها كالشعب الواحد . يشتهى الفرد منه أن يرى بقية وطنه . . . وكثرت تنقلات الأمراء من نيابة إلى أخرى . وتنقل حواشيهم فى ركابهم ينزلون بنزولهم ، ويرحلون برحيلهم .

---

١ — المرجع السابق .

وكثرت تنقلات القضاة من قضاء إلى آخر ، وتنقلات كتاب السر وغيرهم من الموقعين وعلية القوم . بل و كثرت رحلات الطلاب طلبا للعلم وحرصا على ملاقاة الشيوخ. هذا إلى أن الحوادث الجارفة والحروب الزاحفة ، كثيرا ما أرحلت قوما من الشام إلى مصر ، وقوما من مصر إلى الشام ، وهكذا . ومن هنا ترى أن الرحلات على مختلف أسبابها كانت على كثير من النشاط .

وقد دون بعض الأدباء أنباء رحلاتهم فى رسائل أدبية طريفة ، ضمنوها ذكر ما شاهدوا وما عاينوا ، وما أصابهم خلالها من خير أو شر . وما رأوا من صالح أو فاسد وسجلوا كثيرا من وقائعهم الشخصية وأسباب هذا الرحيل ، سواء أكان الخوف أم الطمع ، والمغامرة أو الفرار ، وحب الرياضة أم القسر والاضطرار .

ومن بديع ما تصفحناه فى هذا الباب ، رسالة « حظيرة الأنس الى حضرة القدس » أنشأها أديب مصر الألمعى جمال الدين بن نباتة المصرى . وصف فيها رحلته فى دمشق إلى بيت المقدس عام ٧٣٥هـ فى صحبة أحد وزراء زمانه وهو الصاحب أمين الدين . وكان ذلك فى أعقاب شتاء العام المذكور ، وفى مطالع فصل الربيع .

وقد استهلها ابن نباتة بحمد الله والصلاة على نبيه عليه السلام ، ثم مدح الصاحب أمين الدين ونسب إليه كثيرا من المناقب الحميدة . وتحدث مبينا سبب استصحاب أمين الدين له ، وهو أنه كان حزينا على فقد ولده عبد الرحيم ، فأحب أمين الدين أن يرفه عنه و يخفف من حزنه باصطحابه فى هذه الزيارة إلى القدس الشريف : ثم أخذ الكاتب يصف استعدادهم للرحلة و بدءهم بها ثم طفق يذكر الأماكن والبقاع التى حلوا بها ومروا عليها مثل رأس الماء والمغير والحصين وعجلون والغور ، واصفا ما لاقوا من حفاوات ، وما تصدق به الصاحب من صدقات ، حتى بلغوا بيت المقدس ، فطفق يصف زيارتهم لها والأماكن والآثار التى تمتعوا فيها بمشاهدتها واختبار معالمها

كالصخرة ، دار ملك الأمراء ، بعض المدارس ودار الحديث والخانقاه والرباط . وهم يمشون خلال ذلك بين حفاوات بالغة ، ويفيض الصاحب بأعمال بر متجددة ويقوم بمنشآت نافعة . ثم ذكر الكاتب أنهم بعد أن أقاموا سبعة أيام ، زاروا قبر الخليل وقبر يونس والرملة ومشهد زكريا ويحيى وغير ذلك . ثم أخذوا سمتهم نحو العودة إلى دمشق مارين من نفس الطريق التى أتوا منها ، وسجل الكاتب ما لقوه فى دخولهم دمشق من حفاوة وحسن استقبال .

وقد أبدع ما شاءت له براعته فى الوصف ناهجا النهج البديعى فى لباقة وكياسة . وإليك مقتطفات من هذه الرسالة الفريدة .

قال فى خطبتها ، وبه براعة استهلال ورعاية نظير وتلميح بمدح الصاحب وتورية :

« الحمد لله حافظ سر الملك بأمينه . وحامى حماه بمن قسم الشكر والأجر بين دنياه ودينه . ومن إذا رفعت راية مجده تلقاها عرابة براعته بيمينه . وإذا امتدت إليه أجياد الممالك حلاها من عقد التدبير بثمينه ، وإذا نوى فى السيادة فعلا أمضى العزم السنى قبل دخول سينه . وإذا حمل بنانه القلم رويتا عن ابن بحر كتاب بيانه فى الفضل وتبيينه . وصلى الله على سيدنا محمد الذى أيد بالروح الأمين . وعضد بوزراء آله وصحبه الغر الميامين . وسلم عليه وعليهم سلاما باقيا إلى يوم الدين . »

وقال يذكر الصاحب أمين الدين ويمدحه ويدعو له :

« صاحب هذه الدولة التى خضعت لها الدول ، وفاضل أمرها الجليل وراسخ دوحها الذى ما مال مع الهوى . ونديم صحائفها الذى تلا تسديده : ما ضل صاحبكم وما غوى . وضابط أمورها الذى طالما استشرفت إليه أسماع وأبصار . وانتصرت به لقديم هجرته فلا غرو أن صار من المهاجرين والأنصار . المقر الأشرف الصاحبى الوزيرى الأمينى — أعلى الله تعالى أبدا شأنه ورفع على فرق الفرقدين مكانه . وزان بأقلامه أقاليم مصر ، فهذه سهام وهذه كنانة . » الخ .

وقال يذكر استعدادهم للرحيل ويبدأهم به :

« فأتينا الكسوة فلبسنا منها للمسرة ثيابا سابغة الذيول . وطفنا منها بكعبة الفضل طوافا واضح الإقبال والقبول. وقلنا للمقاصد تباشرى بالحظوة. ولعيون الإقبال تأملى فما أحسن الكعبة فى الكسوة . ومررنا والخيل تجمز جمزا. وجزنا بالصنمين فهمّت أن تفخر بمواطىء خيلنا على اللات والعزى . وصعدنا منزلة رأس الماء فكاد الطرب يهزه هزا . ورأينا بينها وبين منزلة المغبر أرضا قد اخضر جنابها . وطرزت بآثار الطرف ثيابها . فأمرت بالقول فقلت :

سقى الله أرضا طرفها مثل طرزها وسائرها برد من الوشى أخضر
تذكرت أحبابى بمثوى بريدها فعينى رأس الما وجسمى المغبر » .

وقال يصف دخولهم إلى عجلون ويذكر قلعتها :

« وعجنا بعجلون . فحشر الناس لدينا ضحا . وجاء أهل المدينة يستبشرون فرحا. وارتفعت الأصوات بالأدعية الوافية . وأردنا أن نكتم دخولنا البلد وكيف تكتمنا وهى ذات عين صافية . ثم نزلنا بالخيام فى مرجتها الخضراء تحت قلعتها الغبراء . وهى فى معارج السحب صاعدة . شائدة فى الجو كأنها فى السحر على عمود الصبح قاعدة . مضيئة بين عقود الأنجم كأنها درة يتيمة. جالسة على سرير الخيل تنادم الفرقدين كأنها جذيمة . » .

وبعد أن وصف طوافهم بآثار القدس وأماكنه قال يذكر صدقات الصاحب :

« فجنينا من تلك المحاسن بساتين دانية القطوف . ولحظنا من الظلال السيفية جنة نشأت ، وكذلك الجنة تحت ظلال السيوف . وشرعت صدقات السر والجهر. وقوبل السؤال ببحر لا يسمع عنده نهر . وغص بفقرائهم المكان والطريق . وجاءوا رجالا ونساء على كل ضامر من العصى ، يأتين من كل فج عميق. فوضع فى مواضعه النوال. وقدرت الكساوى حتى على المستورين والأطفال. هذا وكم ثياب صوف أعرض إشراقها

عن مقال اللاحين . واتخذ الفقراء والأغنياء من أصوافها أثاثا ومتاعا إلى حين . وجاءت الدراهم بعد التفاصيل بالجمل . وقال جودها الحاتمى : هذى التى لا ناقة لك فيها ولا جمل .

لله كم حال امرىء مقتر قضيت فى القدس بتنفيسه
ودرهم ولى ولكنه قد أخذ الأجر على كيسه » .

وقال يصف دخولهم إلى دمشق عائدين :

« وفى تلك الليلة كان دخولنا إلى دمشق المحروسة كدخولنا إلى القدس الشريف. سائرين سرى النجوم فى الليل . سابقين لغرة الصباح بغرر الخيل . موقرين لخواطر الملتقين، وهيهات وقد سال منهم السيل . نازلين من دمشق جنة قد تبسمت لقدومنا عن ثغور الأزهار . وأجرت أمام ركابنا الأنهار . ولبست من وشى البديع حللا لها من أوائل ما انعقد من الثمار أزرار . فائزين من الثناء والثواب بفوق الإرادة . داعين لمن فضله جامع ، مترقبين لرتبته باب الزيادة . وتمت هذه السفرة على أحسن مايكون. واشتملت من وجوه المحاسن على عيون . »[1]

---

٨ — وصف الحوادث العامة :

ونقصد بها الحوادث العامة الأخرى — عدا ما سبق — مما تتأثر به البلاد عامة وسكانها ، ويلهج الناس بذكره ورواية خبره ، فيكون حديث الأدباء صدى لما يتردد فى الأفواه ، وتتحرك بأنبائه الشفاه . وذلك مثل غلاء فاحش استشرى وكثر عن نابه . أو وباء جارف ضرب بأطنابه . أو زلزال منيت به البلاد فأصابها بالضرر ، أو حريق انتشر منه النار والشرر ، أو غير ذلك .

---

١ — الرسالة بتمامها فى ثمرات الأوراق لابن حجة الحموى .

وممن كتب فى ذلك زين الدين بن الوردى الأديب الشاعر الناثر . فقد كتب :

رسالة النبأ عن الوبأ :

تحدث فيها عن طاعون جارف قيل إنه لبث نحو خمسة عشر عاما طوافا من نواحى الصين إلى غرب آسيا ، جوالا فى أرجاء كثير من البلاد حتى أزهق كثيرا من الأرواح وقضى على آلاف من النفوس .

وقد وصف ابن الوردى هذا الطواف والتجوال مبينا أثر الوباء وما أنزله من الأضرار بالناس مشيرا إلى حيرتهم فى طريقة دفعه ، وإلى انكباب أعيانهم على مطالعة كتب الطب لعلهم يقفون فيها على وسيلة لعلاجه ، وإلى إقبالهم على تبخير بيوتهم وتختمهم باليواقيت ، واصطناعهم البصل والخل ونحوهما فى عداد أطعمتهم ، وإقلالهم من تعاطى المرق والفاكهة ، زعما منهم أن ذلك كله يدفع عنهم المكروه .

وأشار كذلك إلى تعدد الوفيات وكثرة الجنائز اليومية ، وما تردد فى كل ناحية وصقع من عويل ونحيب . ومن توقع الأحياء أن ينزل بهم هذا البلاء عما قريب ، فيقضى عليهم قضاءه المبرم . وما كان من أثر هذا التوقع فى نفوسهم من إشاعة الخوف والنوم على وجل ، والعجلة إلى التوصية بالأولاد وترتيب بقية أموالهم ، وإنهاء المتخلف من أعمالهم ، والاقتصاد من آمالهم . وأشار إلى أثر ذلك كله فى تغير أخلاقهم وفى إقبال بعضهم على بعض يتلاطفون ويتسامحون ويتناوبون وينصافون إلى غير ذلك .

وهذه الرسالة هامة من ناحيتها الاجتماعية إذ صورت حالة المجتمع حينما دهمه الوباء ، وسجلت الاضطراب النفسى الذى شاع بين أهله ، والقلق الذى أصابهم ، والوداعة المفاجئة الطارئة عليهم التى حولتهم إلى حملان هادئة مستسلمة .

غير أن أسلوب الرسالة يشوبه الضعف وركاكة النسج ، وهى دون ماشاهدنا من النماذج السالفة قوة أسلوب ، وحسن ربط ، وجزالة تركيب ، ونقاوة لفظ .

ونسوق سطورا منها على سبيل المثال ، قبل يذكر طواف الطاعون من قطر إلى آخر ، وقد اصطنع فى ذلك ألوانا من الجناس والطباق فيها تكلف :

« طاعون روع وأمات . وابتدأ خبره من الظلمات . يا له من زائر . من خمس عشرة سنة دائر ما صين عنه الصين . ولا منع منه حصن حصين . سلّ هنديا فى الهند . واستند على السند . وقبض بكفيه وشبك . على بلاد أزبك . وكم قصم من ظهر . فيما وراء النهر . ثم ارتفع ونجم وهجم على بلاد العجم . وأوسع الخطا . إلى أرض الخطا . وقرم القرم . ورمى الروم بجمر مضطرم . وجر الجزائر إلى قبرص والجزائر . ثم قهر خلقا بالقاهرة . وتنبهت عينه لمصر فإذا هم بالساهرة » .

وقال بذكر انكباب أعيان حلب على كتب الطب ، ويصف اعتمادهم على البصل والخل ، وتقليلهم من الفاكهة وكثرة الجنائز إلى غير ذلك :

« فلو رأيت الأعيان بحلب وهم يطالعون من كتب الطب الغوامض . ويكثرون فى علاجه من أكل النواشف والحوامض . قد تنغص عيشهم الهنى بملاطخة مسلم الطينة الطين الأرمنى . وقد لاطف كل منهم مزاجه وعدل . وبخروا بيوتهم بالعنبر والكافور والسعد والصندل . وتختموا بالياقوت . وجعلوا البصل والخل والصحنا من جملة الأدم والقوت . وأقلوا من الأمراق والفاكهة . وقربوا إليهم الأترج وماشابهه . ولو شاهدت كثرة النعوش وحملة الموتى . وسمعت بكل قطر من حلب نعيا وصوتا لوليت منهم فرارا . ولأبيت فيهم قرارا . فلقد كثرت فيها أرزاق الجنائزية ، فلا رزقوا وعشوا بهذا الموسم وعرقوا من الحمل فلا عاشوا ولا عرقوا . فهم يلهون ويلعبون . ويتقاعدون عن الزبون .

اسودت الشهباء فى عينى من هم وغش
كاد بنو نعش بها أن يلحقوا بذات نعش » الخ [1]

---

١ — راجع ديوان ابن الوردى ص ١٨٤ .

٩ — وصف الأدوات :

وتلك كالسكين أو القلم أو السيف . وذلك لكثرة استعمالهم لها وحاجتهم إليها فى الحرب أو الكتابة .

وقد كتب الأديب ابن حجة الحموى رسالة وصف فيها السكين . واستخدم من الألفاظ ماشاء له الذوق السمح ، مما يلابس السكين وعملها ، موجها ومموريا أو مراعيا للنظير أو غير ذلك من بديعيات ، وجاد فيها بما سنح خاطره من مبتكرات فنه وجديد تصويره .

قال فى أولها :

« يقبل الأرض التى قامت حدود مكارمها . وقطعت عنها مكروه الفقر بمسنون عزائمها . وينهى وصول السكين التى قطع المملوك بها أوصال الجفاء ، وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البرء والشفاء . وتالله ما غابت إلا وصلت الأقلام من تعثرها إلى الجفاء . زرقاء كم ظهر للبيض منها ألوان . خرساء ومن العجائب أنها لسان كل متوان . ماشاهدها موسى إلا سجد فى محراب النصاب . وذل بعد أن خضعت له الرؤس والرقاب . كم أيقظت طرف القلم بعد ماخط . وعلى الحقيقة مارؤى مثلها قط . وكم وجد بها الصاحب فى المضايق نفعا . وحكم بحسن صحبتها قطعا . ماضية العزم قاطعة السن . فيها حدة الشباب من وجهين . لأنها بالناب والنصاب معلمة الطرفين . وأنملة صبح تفمعت بسواد الدجى . فعوذتها بالضحا والليل إذا سجا . ولسان برق امتد فى ظلمات الليل . فتنكرت أشعة الأنجم وما عرف منها سهيل . هذا وتقطيعها موزون إذ لم يتجاوز فى عروض ضربها الحد . ومعلوم أن السيف والرمح لم يعرفا غير الجزر والمد . من أجل ذا تدخل فى مضايق ليس للسيف فيها قط مدخل . وكل ما تفعله توجزه والرمح فى تعقيده مطول .

إن هجمت بحجتها كانت أمضى من الطيف. وكم لها من خاصة جازت بها الحد على السيف. تنسى حلاوة العسال فلا يظهر لطوله طائل. وتغنى عن آلة الحرب بإيقاع ضربها الداخل. إن مرت بشكلها المحلى تركت المعادن عاطلة ولم يسمع للحديد فى هذه الواقعة مجادلة. شهد الرمح بعدالته أنها أقرب منه إلى الصواب. وحكم لها بصحة ذلك قبل أن تستكمل النصاب. ماطال فى رأس القلم شعرة إلا سرحتها بإحسان. ولا طالعت كتابا إلا أزالت غلطه بالكشط من رأس اللسان. تعقد عليها الخناصر لأنها عدة وعدة. وتالله ماوقعت فى قبضة إلا أطالت لسانها وتكلمت بحدة. إن دخلت إلى القراب كانت قد سبكت على الدخول. أو أبرزت من غيمه كان على طاعتها قبول. تطرف بأشعتها الباهرة عين الشمس. وبإقامتها الحد حافظت الأقلام على مواظبة الخمس. وكم لها من عجائب صار بها جدول السيف فى بحر غمده كالغريق. ولو سمع بها قبل ضربه ما حمل التطريق. فلو عارضها أبو طاهر[1] لعرك من قوسه الأذنين. وقال له جحدت رسالتك ياذا القرنين. فإن جذبت إلى مقاومتها وكان لك يد تمتد. وصلت السكين إلى العظم وصار عليك قطع وانتهى أمرك إلى هذا الحد.» الخ[2].

وكتب شهاب الدين بن فضل الله العمرى نموذجا لما ينبغى كتابته فى وصف السيف خلال المراسلات، فقال:

« وسل منه سيفا يمضى حكم على الرقاب، ويقضى على المرء بما تبقى من بقاياه للأعقاب. يجد به اللاعب. ويتلقى بصدره المناعب. ويدنو من العدو اقتباسه. ويعز

---

١ — أبو طاهر هو أبو طاهر اسماعيل بن عبد الرازق الأصفهانى، وقد كتب رسالة فى وصف القوس (خزانة الأدب ص ٤٣٢ باب السجع).

٢ — رسالة السكين نصها مثبت فى خزانة الأدب لابن حجة ص ٤٣٢ باب السجع، وفى ثمرات الأوراق ص ٢٥٣ وفى كتاب « قهوة الإنشاء ».

عليه إذا تأتى فى الحرب فما يُقسم به إلا راسه . ولا يمنع دونه زرد موضون . ولا بيض مكنون . قد توقد شملا . وسفل الفرند فى تياره وعلا وكادلولا السل يأكل غمده ويقطع حتى بنده . قد تردى حامله منه بابن صاعقة . وأرى الآجال منه كل بارقة . قد قذف فى الثبج سميره . وقبل فى إبلاغ الآجال سفيره . كأن على متنه سلح أيم . أو كأنه متلفع بقطع من غيم . قد أسبل الضارب منه ذيل ذبابه . فأدنى به لأجله كل محضر . وجنى منه ثمر الوقائع يانعا من ورق الحديد الأخضر . »[1]

وقال أيضا :

« وسل سيفا سال المنون من لعابه . وسار الموت فى إهابه . وتناوم عذاره ملء جفونه فما هجع . وتناوب للوثوب للهيج فما رجع . وتبا كى على من قتل فجرت دموعه دماء . وتحرق على من سلم فتوقدت ضلوعه نارا وترقرقت مآقيه ماء . »[2]

نكتفى بما مر وصفه وتسجيله من الرسائل . ونشير إلى بعض رسائل أخرى فى موضوعات مختلفة ، فمنها :

١ — رسالة لابن الوردى فى وصف زلزلة حدثت عام ٧٤٤ هـ . ص ١٧٨ من ديوانه .

٢ — رسالة فى وصف الخيل للشهاب الحلبى . فى حسن التوسل .

٣ — « « « حصن « « « « «

٤ — « « « رمى البندق للشهاب الحلبى . فى حسن التوسل .

٥ — « « « هزيمة جيش « « « « «

٦ — « « « الصيد والجوارح والضوارى ، وأخرى فى رمى النشاب ، للحلبى أيضا .

---

١ ، ٢ — عن كتاب التعريف بالمصطلح الشريف ص ٢٠٣ . ٢٠٤

٧ — رسالة للبارنبارى فى وصف يوم ماطر . عن الوافى بالوفيات ج ١ فى ترجمة البارنبارى .

٨ — رسالة لابن حجة فى وصف « حمائم الرسائل » يعارض بها رسالة للقاضى الفاضل فى نفس الموضوع — عن ثمرات الأوراق ، وخلبة السكميت .

٩ — رسالة مطولة لمحيى الدين بن عبد الظاهر فى وصف الغزو . أرسلها إلى الوزير الصاحب بن حنا . عن صبح الأعشى ج ١٤ ١٣٩ .

١٠ — رسالة لابن حجة إلى فخر الدين بن مكانس ، كتبها عام ٧٩١ هـ يصف فيها ما لقيه من الأهوال فى دمشق أيام حريقها . ص ٤٤٩ ، ٤٦٤ من خزانة أدبه .

١١ — رسالة لابن حجة إلى بدر الدين الدماميني يصف له أهوال سفره إلى طرابلس الشام ، وتسمى « الرسالة البحرية » . عن ثمرات الأوراق ، وقهوة الإنشاء .

١٢ — رسالة كتبها شاهد عيان لمعركة عكا بين الصليبيين وجيوش السلطان خليل بن قلاوون عام ٦٩٠ هـ . عن سلوك المقريزى .

١٣ — رسالة لبدر الدين الدماميني فى وصف مدينة دمشق . عن تأهيل الغريب ، باب مطولات فى الروض والبساتين .

الفصل الثانى

المقالات الوصفية

المقالة — كما يتطلبها العصر الحديث — إحدى المنشآت النثرية ، تملأ سطورها صفحة أو بضع صفحات ، لتقرأ فى دقائق . وتتحدث عن أحد الموضوعات الأدبية أوالفكرية ، تعرض على القراء فى عجلة تناسب سياسة الصحيفة التى تنشر فيها مثلا ، وفى وضوح يناسب مستوى قرائها . و يغلب أن يكون موضوع المقالة ، فكرة جزئية أو خطرة عارضة وجيزة ، يراد تجلية غوامضها و بسط أطرافها فى يسر وعجلة ، فتحبك المقالة فى سطور منظمة مهذبة العبارة منطقية يتقدم الأهم من عناصرها فيها على المهم ، مع حسن العرض ودقة الربط ، وصدق المقدمة وصحة النتيجة ، إلى غير ذلك .

وكلما اقتدر الكاتب على رعاية شروط المقالة كانت أفضل وأجمل وأقرب إلى نفوس القراء ، وأشد تأثيرا فيها .

وقد راج أدب المقالة فى عصرنا الحديث رواجا مقطوع النظير ، وأصبحت المقالة من أينع المسالك الكتابية إن لم تكن أينعها . وامتدت آفاقها حتى استوعبت الكثير من ألوان الفكر والخواطر أدبية وغير أدبية ، وشاركت مشاركة واسعة النطاق فى ثقافة الجماهير . وقد قيض لها هذا النشاط العظيم المدى بفضل انتشار الصحف والمذياع ، و إقبال الأدباء وقادة الرأى على نشر أفكارهم على الجماهير عن طريقهما وطريق غيرهما .

وفى عصر المماليك ازدهى ضرب من المقالة الأدبية ، هو الضرب الوصفى الذى عنى فيه الكتاب بوصف المحسوسات أو المرئيات مما يلابس حياتهم من أدوات وصناعات

ومناظر وحيوانات وحوادث وغير ذلك . فوصفوا ذلك وصفا أدبيا جميلا عماده الخيال وما يستند إليه من تشبيهات جميلة واستعارات حسنة التصوير وكنايات لطيفة ، وعاونهم على بلوغ أربتهم ما لذ لهم وسلم واستسلم من ألوان البديع وفى مقدمتها التورية والتضمين والاقتباس والتوجيه والطباق وما إلى ذلك .

والمقالة و إن بلغت مبلغها القيم الذى أشرنا إليه فى عصرنا الحديث ، لم يزه فيها هذا اللون الوصفى وانصرف عنه أكثر الكتاب البارزين ، ولم يعنوا به إلا غرارا كشوقى فى كتابه « أسواق الذهب » . وعبد العزيز البشرى فى « فى المرآة » ، ومصطفى صادق الرافعى فى « من وحى القلم » ، هذا بالقياس إلى غيره من الألوان التى جذبتهم إليها شواغل الحياة الحديثة .

وازدهى هذا اللون الوصفى فى عصر المماليك ، وقد سبقهم إلى ذلك الأدباء السابقون ، ولا سيما كتاب الأندلس الذين عاونتهم بيئة بلادهم بجمالها وتعدد مناظرها ورخاء عيشها على إجادة الوصف .

وقد رأينا — فى الحق — نماذج متعددة للمقالات الوصفية ، رأينا ذلك عند حديثنا السابق عن « الرسالة الوصفية » ، فهى فى الواقع ، مقالة ، ولهذا نورد هنا نماذج جديدة على نسق ما أوردناه فى الفصل السابق ولا تكاد تفترق فى الموضوع والشكل إلا ما أطلق على اللون السابق من اسم « رسالة » .

والمقالة بدورها إحدى الشواهد على استجابة أدباء العصر لوحى بيئتهم وعاطفتهم وصداقتهم . فكانت مقالاتهم ترجمانا جديدا لكل أولئك .

وكثيرا ماترى فى كتب التاريخ العام ، والموسوعات الكبرى نماذج لهذه المقالات وبخاصة أوصافهم للحروب والوقائع ، وللأبنية والعمائر ، وللرحيل والنزول ، وما شابه ذلك .

وقد وصف شهاب الدين بن فضل الله العمرى فى كتابه « مسالك الأبصار » المسجد الأقصى فقال :

« معهد الأنبياء . ومتعهد الأولياء ، وثانى البيت الحرام فى البناء ، وأولى القبلتين حال الابتداء شيدت ملوك بنى إسرائيل معاهده . وشدت بقباب البروج معاقده . ثم تدارك بنو أمية ذماءه . وصفحوا أرضه وسماءه . وهذا هو على ماهو عليه من حمل الآلام . واختلاف دول الكفر والإسلام . ومن صخرته المقدسة المعراج حيث عرج بخاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام . من حضرة القدس إلى حضرة القدس . و بسط له بساط الأنس . ودنا من ربه مقاما لم يبلغه الخليل ولا الكليم . ولا وصل إليه ملك مقرب ولا نبى كريم . وقد أم فى ذلك المسجد بالنبيين . وصعد منه إلى أعلى عليين . و إلى صفيح تلك البقعة المحشر . ومنها يوم القيامة المنشر . والصخرة بها عرش الله الأدنى . ومقام الفخار الأسنى . وهى التى تزف إليها عروس الكعبة زفا . وتقسم الناس لشقاوة وزلفى » الخ[1]

وصف الشعر والنثر ونحوهما :

وكان للأدباء بما يكتبون ولوع . وإلى تبادل الحمد وتقارض الثناء نزوع . فكثيرا ما وصف أحدهم شعر صديق أو نثر رفيق . فإذا هو الدر اللامع . والزهر اليانع . والنجم الساطع . و إذا ببلاغته الحكمة وفصل الخطاب .

ورسائلهم فى ذلك أو مقالاتهم أدنى إلى رسائل المديح أو مقالاته . وتلك ظاهرة بدت بكثرة فى خلال تراجم الأدباء للأدباء . وفى سياق مكاتبات الأخلاء للأخلاء . إذ يدفع المقام إلى الإطراء ، ويسوق الإطراء إلى المبالغة فى الوصف استجابة للوفاء .

---

١ ـ عن مسالك الأبصار ج ١ ص ١٣٣ .

ويرد خلال ذلك ذكر الأقلام ووصف القراطيس وما إلى ذلك.

وقد كتب الشهاب الحلبي من ذلك فى وصف كتاب فقال :

« وهذا فلان قد آتاه الله فى بلاغته الحكمة وفصل الخطاب . ومكنه من أزمة جياد المعانى فهى تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . ومنحه فضيلتى العمل والعلم ، فإذا كتب أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وإذا قال ، قال الذى عنده علم من الكتاب . »[1]

ووصف صلاح الدين الصفدى فى سياق رسالة كتبها إلى بهاء الدين السبكى ، قصيدة طائية نظمها الشاعر الأديب برهان الدين القيراطى فى مدح الصفدى وذكر تقى الدين السبكى فقال :

« انتقل المملوك إلى القصيدة الطائية . والبلاغة الطائية فلو أن الطائيين حيان لسلما قبل أن يسلما . واعترفا لشاعرهما بالفضل وندما على كل ما كلما . ولو كانت هذه الطاء حرف الراء لما زادت على هذه العدة . ولا أذعنت لناظمها وجارته فى حدة هذا الرونق والجدة .

يامولانا ! هذا الشيخ برهان الدين نكت حرف الطاء وأخذ جميع ما فيه من النكت . وعلم أن الذى يجاريه إن أفلح جاء سكيتا أو سكت . أما قوله : مصر وفسطاط فلم يمر بالمملوك مثلها . ولا فاء عليه ظلها . وأما تقاطيف الجزار وأسقاطه ، فلو كان حيا صح حذفه من هذه الصناعة و إسقاطه . وأما ذكره الأقراط مع الربيع والتشنيف فصناعة فائقة فى النظم والتصنيف . وأما تسريح الحلى وتقريض الأمشاطى ، فهذا قول من خاض لجة هذا الفن و ترك الناس على الشاطىء » الخ[2]

---

١ ـ عن حسن التوسل ص ١٤٨ ٢ ـ عن ألحان السواجع المخطوط ـ ظهر الورقة رقم ٥ .

وصف الكتابة :

ووصف القلقشندى الكتابة و بين شرف صناعتها فقال :

« و بعد فلما كانت الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها . وأربح البضائع وأنفعها وأفضل المآثر وأعلاها . وآثر الفضائل وأغلاها . ولا سيما كتابة الإنشاء التى هى منها بمنزلة سلطانها . و إنسان عينها بل عين إنسانها . لا تلتفت الملوك إلا إليها . ولا يعول فى المهمات إلا عليها . يعظمون أصحابها ويقربون كتابها . فخليقها أبدا خليق بالتقديم جدير بالتبجيل والتكريم .

تسر مجانيها إذا ما جنى الظما وتروى مجاريها إذا بخل القطر » الخ[1]

وصف الكتاب :

وقال بدر الدين بن حبيب الحلبى يصف الكتّاب و يورى بشىء من صناعتهم :

« الكتاب عماد الملك وأركانه . وعيونه المبصرة وأعوانه . وبهاء الدول ونظامها . ورءوس الرياسة وقوامها . ملابسهم فاخرة . ومحاسنهم باهرة . وشمائلهم لطيفة . ونفوسهم شريفة . مدار الحل والعقد عليهم . ومرجع التصرف والتدبير إليهم . بهم تحلى العواطل . وتبتسم ثغور المعاقل . محاسنهم بالفضائل معمورة . و بنداهم أندية القصاد مغمورة . يهدون إلى الأسماع أنواع البديع . وينزهون الأحداق فى حدائق التوشيح والتوشيع . هم أهل البراعة واللسن . وشيمتهم لف القبيح ونشر الحسن . و يميلون إلى القول بموجب المدح . ولا يملون من مراجعة الراغبين فى المنح . دأبهم استخدام الناس بالمعروف . وعدم التورية عن المعانى والملهوف . » الخ[2]

---

١ — راجع خطبة صبح الأعشى ٢ — عن نسيم الصبا . الفصل الحادى والعشرين فى وصف الكتابة

وتبدو لك أوصاف الشعر والنثر — كما نوهنا — فى تراجم الشعراء والمنشئين. وكذلك تبدو لك أوصاف العلم وما يسبغ عليه من جلال ، وما يضاف إليه من فضل ، ويضفى عليه من أثواب النبل ، فى سياق تراجم العلماء .

وممن برع فى هذا النحو من الوصف ، جمال الدين بن نباتة المصرى . وسنتحدث فى باب « التقاريظ الأهاجى » عن كتابه « سجع المطوق » الذى ترجم فيه لجماعة ممن قرظوا كتابه « مجمع الفرائد » . ونجتزىء هنا بذكر سطور من ترجمته للقاضى كمال الدين ابن الزملكانى . وهى وصف لبس ثوب المديح . قال :

« أماغصون أقلامه المثمرة بالهدى وسطور فتاويه الموضحة للحق طرائق قددا ، وخواطره التى تولدت ، فكانت الأنجم مهودا . ومآثره التى ضربت رواق العز وكانت المجرة طنبا ، وكان الفجر عمودا . ومناظرته التى أسكتت المناظرين فكأنما ضربت سيوفهم المجردة لألسنتهم قيودا . إن الآداب لتحركنى لمدحه والأدب يحثنى على السكون . وإنى لأرمق محاسنه إذا أردت نشرها بالوصف ، ومن البر ما يكون . جل عن مذهب المديح فقد كاد يكون فيه المديح هجاء » . وقال

« هو البحر وعلومه درره الفاخرة . وفتاويه المتفرقة فى الآفاق سحبه السائرة . والعلم إلا أنه الذى لا تجنه الغياهب . والطود إلا أنه الذى لا يحاوله البشر على أنه عثر الكواكب . والمفرد الذى حمى بيضة الإسلام فى أعشاش أقلامه . والمجتهد الذى لا غبار على رأيه فى الدين . وإن غير ففى وجوه أعلامه » الخ[1]

نسيم الصبا :

نرى ونحن بصدد الحديث عن « المقالات الوصفية » أن ننوه بكتاب مطبوع

---

١ — عن كتاب « سجع المطوق » لابن نباتة المصرى .

بطابعها يحتوى على عدد منها وهو كتاب « نسيم الصبا » .

ألف هذا الكتاب الأديب « بدر الدين بن حبيب الحلبي » أحد أدباء العصر وتوفى عام ٧٧٩ هـ . ويحتوى الكتاب على ثلاثين فصلا . كل فصل منها مقالة وصفية فى موضوع مستقل . وقد اختار موضوعاته من مواضع مختلفة ، فمنها الطبيعة ومناظرها كوصف السماء وزينتها ، والشمس والقمر ، ومنها الأشياء كالنار والشمعة . ومنها الأخلاق كالكرم والشجاعة والعدل والإحسان . ومنها الحيوان ، كالطيور والخيل والإبل والوحش ومنها الإخوانيات كالاستعطاف والتهنئة والشكر والرثاء ومنها المجونيات ، كوصف غلام وجارية ومجلس شراب إلى غير ذلك .

ومن هذا وذاك ، ترى أن الكتاب تصبغه صبغة الوصف ، ولكنه إلى جانب ذلك يلاحظ عليه ملاحظات منها

١ — أن روح القص تسرى بين سطوره أحيانا كما فى الفصل السادس وهو فى وصف البحر والنهر حيث قال فى مطلعه :

« هزتنى رياح الأمل البسيط . إلى امتطاء ثبج البحر المحيط . فأتيت سفينة يطيب للسفر مثواها . وركبت فيها باسم الله مجراها ومرساها . موقنا بأن المقدور صائر . معرضا عن قول الشاعر :

لا أركب البحر أخشى علىّ منه المعاطب
طين أنا وهو ماء والطين فى الماء ذائب »

٢ — أن الفصل الخامس من فصوله عبارة عن مناظرة ومفاخرة بين فصول السنة الأربعة ، حيث قال فى مطلعه :

« حضر فصول العام مجلس الأدب . فى يوم بلغ منه الأريب نهاية الأرب . بمشهد من ذوى البلاغة . ومتقنى صناعة الصياغة . فقام كل منهم يعرب عن نفسه . ويفتخر على أبناء جنسه . فقال الربيع . . . الخ » .

٣— أن فى بعض فصوله سمات « الإخوانيات »، وذلك كالفصل الخامس عشر فى الاستعطاف، فقد بدأه بقوله :

« أيها المعرض الهاجر . الذى سعى لصده دمع صبه على المحاجر . رفقا بمن ملك الوجد قياده . وعطفا على من أذاب الشوق فؤاده . متيم أقلقه فرط صدودك . ومغرم أغراه بحبك قول حسودك . » الخ .

ومن هذا وذاك أيضا ترى أن الكتاب احتوى على جملة فنون نثرية .

هذا إلى أن أسلوبه مكون — غالبا — من فقر قصيرة مسجوعة ، يبدو على أكثرها رونق وطلاوة ووضوح مع قلة تكلف وخفة مئونة . غير أن مؤلفها آدها بكثير من الأبيات الشعرية خلل بها سطورها، وهى و إن كانت فى صميم المعنى والمناسبة، وكانت رقيقة حسنة الاختيار ، تبعثر جمال السطور ، وتشعث حسن المنثور . ونقتبس لك سطورا من بعض فصوله :

فمن وصفه للرياض والأزهار « من الفصل التاسع » ، قوله :

« جد بى الوجد فى إبان الربيع ، إلى رؤية فضل الغيث بمنازل الربيع . فسرت أحدق فى جوانب الحدائق . وصحبنى من الشوق وسائق ينلوهن حاد وسائق . فإذا أنا بروضة أريضة . عيون أزهارها مريضة . قد فاح أرجها وأضاءت سرجها . وبرز إبريزها وحسن تطريزها وأبدت من زينتها ماهو باللطف منعوت . ونثرت على الزمرد أصناف الدر والياقوت . وتحلت بما يروق إنسان كل إنسان . وتجلت فى رفرف خضر وعبقرى حسان . أعلن السحاب أسرارها . وهتك النسيم أستارها .

كأن تفتحها بالضحا عذارى تحلل أزرارها

حكت الخنساء ، لا فى الحزن ، بل فى الحسن والفخر . ولها عيون تجرى على الديباج لا على صخر . يضوع عرفها فى الآفاق ولا يضيع . ويبهر الطرف من صنع صانعها كل زهر رفيع . تنهار جداولها وأنهارها . ويضحك فى وجه من أم بابها ثغر نوارها .

وما غربت نجوم الليل لكن ... نقلن من السماء إلى الرياض » الخ[1]

حسبنا هذا من نسيم الصبا ، وإليك كتابا آخر من وَاديه وهو :

كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار[2] :

هذا كتاب صنفه الشيخ الإمام العالم العلامة عز الدين بن عبد السلام بن أحمد المقدسى . وهو مكون من نحو ٣٦ فصلا قصيرا . يحتوى كل فصل منها على « مقالة » وصفية أو « إشارة » كما سماها مؤلفها . وكل مقالة أو إشارة محكية على لسان قاص يقصها عن نفسه ويحكى فيها أوصافه فمقالة على لسان النسيم ، وإشارة على لسان الورد ، وأخرى على لسان النرجس ، وأخرى على لسان النيلوفر . وهلم جرا .

وقد مهد لها المؤلف بما مؤداه أنه تجول فى الرياض ونظر فى آفاق الكون فرأى أن الخالق جلت قدرته له فى كل شىء آية تدل على أنه الواحد ، وتبرهن على حكمته وعظيم صنعته — فرأى أن ينطق بعض مخلوقاته معبِّرة عن خصائصها وأوصافها ، دالة بها على قدرة الخالق ، وفى ذلك عظات وعبر للمتعظين المعتبرين .

فالغاية من الكتاب هى عظة الناس وبيان حكم الخالق . ولكن القارىء يجد روح الأديب — لا الواعظ — متمشية بين سطور الكتاب . ويجد روح المتخيل — لا المحقق — بارزة بادية فيها ولهذا قلنا إنه كتاب على نمط « نسيم الصبا » ، أو « نسيم الصبا » نمط منه .

ومن قصاصه : النسيم والورد والنرجس والنيلوفر ، والأشجار والبنفسج ، والطاووس

---

١ ، ٢ — كتاب نسيم الصبا طبع أكثر من مرة ، ومنها طبعة عام ١٣٠٢ هـ ومعها كتاب « كشف الأسرار » فى مجلد واحد . ولم نتفق بعد من نسبة هذا الكتاب الأخير إلى مؤلفه .

والخفاش والببغاء والديك والنملة وغير ذلك من ضروب الأزهار والأطيار ، يرد أحدها على من تقدمه .

وفصوله قصار كما أشرنا — يختم كلامها بعدة أبيات شعرية فى المعنى ، أو يخلله بها . ونثره أربى من شعره . ونهجه فى أسلوبه النهج الأدبى البديعى المسجوع .

وإليك سطورا من أحد فصوله ، وهو مقالة النسيم ، قال :

« أنا رسول كل محب إلى حبيبه . وحامل شكوى كل عليل إلى طبيبه . إن استودعتُ سرا أديته كما استودعته . وإن حملت نشرا رويته كما سمعته . وإن صحبت مصحوبا انجذبت معه بلطافة إيناسى . ومازجته بصفاء أنفاسى . فإن طاب طبت . وإن خبث خبثت . ثم إنى وإن صح بى العليل . وحيث ظللت طاب بى المقيل . وإن تنفس المشتاق . توسوس العشاق . فأنا لين الأعطاف . هين الانعطاف . سريع الائتلاف . يعرف لطفى ذوو الألطاف . ولولا وجودى فى الجو لجاف » الخ . . .

الفصل الثالث

الموازنات والمفاخرات

الموازنة أو المفاخرة ، نعنى بها هنا ، مقالة مسطورة على نمط ما رأينا فى المقالات والرسائل غير أنها تفترق عن المقالة بأن موضوع الوصف فيها اثنان أو أكثر ، يتبادل الحديث عنهما أو منهما ، ويتناوب بالتتابع . وكثيرا ما يكون الحديث فيها حوارا ومناظرة على لسان الأداتين أو الشيئين اللذين هما موضوع الحديث والوصف . فيتكلم كل منهما عن نفسه مبينا إحدى محاسنه وخصوصياته ، ويشيد بها ويصفها وصفا جميلا مؤثرا ، هدفه الفخر والبروز والتغلب على خصمه وكثيرا ما يثنى بذكر بعض معايب خصمه ويبرزها للعيون مهتوكة مفضوحة ، وقد يقلب إحدى محاسن خصمه عيبا . ومن هنا وهنا تثور الحماسة ويندلع لهيب المفاخرة بين المتخاصمين . ويرد الآخر بدوره فيشيد بخصوصية أخرى من خصوصياته ويبالغ فى وصفها وإبراز محاسنها ، ويجمل فى تصويرها ، وينعى على زميله عيبا آخر من عيوبه . وهلم جرا . حتى تنتهى المفاخرة والحوار بمصالحة بين الطرفين ، أو بتغلب طرف على آخر .

ويبدو لك من هذا كله جملة من العناصر الأساسية التى تمتاز بها الموازنات من المقالات الوصفية ، فهى فضلا عن بنائها على الوصف ، تصب فى قالب من الحوار . وتبنى على الفخر . فتتمشى الحماسة بين سطورها ، وينقلب أسلوبها إلى نمط من الأساليب الخطابية قوامه الدفاع والمجادلة والمحاجة وسوق البراهين ومحاولة التأثير والوصول إلى الكسب والانتصار . . . وفى سبيل ذلك قد تنقلب الحقائق ويزوق الباطل ويبهرج الزيف ويلذ الهجاء . كما تستطاب المبالغات وتروق التهويلات ويسرح

الخيال الشعرى سرحاته الممتعة ، ويعود بكل تصوير مبتكر وتعبير جميل .

ومن هنا ترى أن هذه الموازنات التى تعتمد على قوة الخيال وروعة التصوير ، تحتاج إلى ضروب بيانية تعينها على بلوغ غايتها ، منها : التشبيهات والمجازات والكنايات وأنواعها ، ومنها الاقتباسات والتلميحات وبراعة الاستهلال والتوريات ، إلى غير ذلك . وترى هذا واضحا فيما نعرضه عليك من سطور الموازنة بين السيف والقلم لابن نباتة .

انظر إلى قول القلم فى استفتاحه : « ن والقلم وما يسطرون » تلحظ ما فيها من حسن اقتباس وروعة استهلال ومراعاة نظير . وكذلك اقتباسه فى قوله « يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا » . الخ

وقوله : « سفير الملوك . وناشر درر الأفكار . وناقض حبل الأنس ، واستر أنيابك وقت المكاشرة » . إلى أمثال ذلك ، تلحظ ما فيها من تشبيه ومجاز وكناية .

وقوله : « أنا للوصل وأنت للقطع . وأنا للعطاء وأنت للمنع . وأنا للصلح وأنت للضراب » تلحظ ما فيه من تورية وطباق ، إلى غير ذلك .

هذا إلى أن الموازنات تتحدث فيها الأدوات أو الأشياء بلسانها — كما أشرنا — ومن هنا تبدو كأن فيها حياة كحياة الإنسان ، وتنسب إلى نفسها ما للإنسان من خصائص كالسمع والبصر والحلم والغضب ، والحب والرضا ، والعطف والصد ، والحركة ، إلى غير ذلك .

وموضوعات هذه المفاخرات تنتقى عادة من بين الأشياء المتناقضة التى تجمع بينها جامعة ما ، كفصول السنة ، والمدن والأقطار ، وأنواع الأزهار والفاكهة والأطيار ، ومختلف الحيوان ، والسيف والقلم ، والتراب والنار ، وضروب العلوم ، وألوان الطيب من مسك وكافور إلى غير ذلك مما يشبهه .

والموازنة أو المفاخرة ، بمعناها الأعم ، وباعتبارها بعض مظاهر النثر العربي ، وإحدى النزعات الحوارية الجدلية ، ظاهرة أدبية ، ترجع في وجودها إلى العصر الجاهلي. حيث كان يتلاحى خطيبان، ويتساب ندان ، يتفاخران ويتهاجيان، ويذكران كرم الأصل والنجار ورعي الذمار ، والشجاعة والمغامرة والكرم ، وما إلى ذلك من الصفات النفسية الجيدة .

ويبدو أن هذه المفاخرات تطورت في العصر العباسي إلى هذا اللون الذي وصفناه آنفا، وهو الموازنات الأدبية الوصفية . ولعل الجاحظ أسبق الأدباء إلى الكتابة فيها . فقد ورد في ثبت مؤلفاته أن له رسالتين إحداهما في الموازنة والمناظرة بين الربيع والخريف وتسمى «سلوة الخريف» . والثانية في المفاخرة بين المسك والرماد.[1]

وكذلك كتب الجاحظ جدلا بين صاحب الكلب ، صاحب الديك في كتابه « الحيوان » ، واقتدى به بعضهم مثل أبي العلاء المعري . وسرت العدوى إلى النقاد كالآمدي في موازنته بين البحتري وأبي تمام .

وانتقل هذا اللون الأدبي إلى بلاد الأندلس ، فأبدع الكتاب فيه ، ووسعوا آفاقه ، وناظروا بين الجمادات وبين الحيوانات وبين الأزهار ، وبين المدن الأندلسية. واشتهر منهم أبو بحر صفوان بن إدريس في عهد الموحدين بمناظرته بين مدن الأندلس[2] وابن برد الأكبر المتوفى عام ٤١٨ هـ بمناظرته بين السيف والقلم.[3] وعاونهم جمال بيئتهم وغناها بالمناظر الطبيعية على بلوغ غايتهم .

ومن ثم شرق هذا الغرض من جديد وأشرق . بعد ما غرب واغترب . فيمم

---

١ — انظر مقدمة كتابة (البيان والتبيين) . ٢ — راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٥٨.

٣ — راجع ذخيرة ابن بسام ج ص ٤٩ . وهذه الرسالة ينسبها ابن بسام في المطمح إلى ابن برد الأكبر ، وينسبها ياقوت في معجم الأدباء ج ٢ ص ١٠٦ إلى ابن برد الأصغر — راجع النثر الفني لزكي مبارك ج ٢ ص ٢١٢.

شطر مصر والشام فى زمان المماليك . فأدلى كتابهما بدلوهما فى الملاء ، وغنوا به فأطرب الغناء .

وسنرى فى « باب القصص » من هذا البحث ، عند الحديث عن المقامات ، أن جلال الدين السيوطى جملة من الموازنات والمفاخرات ، وذلك مثل مقامته الوردية وهى مناظرة بين جملة من الأزهار منها الورد والنرجس والياسمين . ومثل مقامته المسكية ، وهى مناظرة بين جملة من العطور منها المسك والعنبر . وغير هاتين المقامتين كثير بين مقامات السيوطى . وهى فى صميم الموازنات والمفاخرات ، ومن حقها أن تسجل هنا فى هذا الباب . غير أننا آثرنا الحديث عنها فى باب المقامات ، لما طبعت عليه من النهج المقامى ، وافتتاح كثير منها بحدث فلان عن فلان ، وحفاظا على تسمية مؤلفها لها .

الموازنة بين النار والتراب :

على أن للسيوطى موازنة طريفة لا بأس من أن نشير إليها هنا . وقد سجلها فى كتابه « الكنز المدفون[1] والفلك المشحون » . وموضوعها مناظرة بين النار والتراب . وقد ساقها تحت عنوان : « فائدة فى بطلان شبهة دعوى إبليس خيريته على آدم » .

وهذ العنوان يوجهنا توا إلى ما عسى السيوطى أن يسوقه فى موازنته . فقد ذهب — على طول الخط — إلى تفضيل التراب على النار . وكان كل همه أن يبين ما فى النار ومالها من مفاسد ومضار وطبائع سيئة وأن يشير إلى مافى التراب وماله من محاسن وطبائع راضية .

---

١ — هذا الكتاب منسوب للسيوطى ، ونحتاج نسبته إلى بحث وتحقيق ، على أن السمة الغالبة عليه هى الجمع وإن كان كثيرا مايشير إلى الموضع الذى نقل منه . وفى هذه الموازنة لم يشر إلى شىء من ذلك ، لهذا نرجح أنها من إنشائه واختراعه .

على أن أسلوب السيوطى هنا — فى هذه الموازنة — لم يسلك النهج البديعى ، ولم يعن فيه بأناقة التراكيب ، بل كان أسلوبا مسرودا هين المئونة تصبغه صبغة منطقية . ثم إنه لم يعقدها محاورة ومفاخرة بين المتناظرين ، بل تحدث هو عنهما ، وأورد الفروق بينهما فى فقرات مرقمة بالأول والثانى والثالث وهلم جرا . حتى بلغت الخامس عشر .

ولو أنه سلك فيها مسلكه فى موازناته ومحاوراته ومقاماته السالفة لكان أمتع وأروع وأجمل وأفضل .

ونسوق هنا فقرات منها للاستدلال : قال :

« الثانى عشر : أن الله تعالى جعل الأرض محل بيوته التى يذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال عموما ، وبيته الحرام خصوصا ، الذى جعله قياما للناس مباركا وهدى للعالمين . فلو لم يكن فى الأرض إلا بيته الحرام ، لكفاها ذلك شرفا وفخرا على النار .

الثالث عشر : أن الله تعالى أودع الأرض من المعادن والأنهار والعيون والثمرات والحيوانات والأقوات والجبال والرياض والمراكب البهية والصور البهيجة ، مالم يودع فى النار شيئا منها فأى روضة وجدت فى النار ، أو معدن أو صورة أو عين جارية ، أو نهر مطرد ، أو ثمرة لذيذة ؟

الرابع عشر : أن غاية النار أنها وضعت خادمة لمن فى الأرض . فالنار إذن محلها محل الخادم لهذه الأشياء . فهى خادمة فقط إذا استغنيت عنها أبعدتها وطردتها . وإذا احتجت إليها استدعيتها كما يفعل المخدوم مع خادمه .

الخامس عشر : إن اللعين لقصور نظره وضعف بصيرته ، رأى أن صورة الطين تراب ممتزج بماء ، فاحتقره . ولم يعلم أن الطين مركب من أصلين : الماء الذى جعل الله تعالى ، كل شىء منه حيا ، والتراب الذى جعله الله خزانة المنافع والنعم . هذا ،

وكم يجيء من الطين من المنافع والأمتعة ، فلو تجاوز نظره إلى بدايته ونهايته لرأى أنه خير من النار وأفضل . ثم لو سلم بطريق الفرض الباطل أن النار خير من الطين ، لم يلزم من ذلك أن يكون المخلوق من الطين . فإن القادر على كل شيء يخلق من المادة المفضولة من هو خير ممن خلقه من المادة الفاضلة ، فاعتبار تكامل النهاية ، لا ينقص المادة . فالطين لم يتجاوز نظره محل المادة ولم يعبر منها إلى كمال الصورة ، ونهاية الخلقة . والله أعلم . » .

الموازنة بين السيف والقلم :

ومن أشهر الموازنات : الموازنة بين السيف والقلم ، لجمال الدين بن نباتة المصرى . وهى رسالة طويلة لامعة السطور متألقة المعانى . جمعت فأوعت الكثير من أوصاف السيف والقلم وتشبيهاتهما ، سواء من ذلك ما يتصل بحجمها أو أصلهما أو عملهما أو آثارهما ، ونحو ذلك ، تارة على سبيل المدح ، وتارة على سبيل القدح والمغالطة .

ويبدو أن ابن نباتة كتب هذه المحاورات اللطيفة الممتعة بين هاتين الأداتين — وهما ماهما فى تشييد الدول وحفظ كيان الممالك — فى إحدق لياليه أيام كان بحماة فى حمى الملك المؤيد اسماعيل أبى الفداء صاحبها . وذلك لتكراره ذكر هذا الملك فى خلال سطورها ، ولتوجيه المدح إليه فى أكثر من مناسبة ، وبخاصة فى أواخر الرسالة بعد ما اصطلح الخصمان لأنهما عضدان لهذا الملك فى تدبير ملكه ، وتراضيا على أن يحكماه بينهما . وبخاصة لأنه أوتى الكثير من الحكمة وحسن الرأى . . .

ويبدو أيضا أنه كتبها فى إحدى لياليه الهادئة ، فسرح فيها خيال فكره ، ومرى تيار خاطره ، وأمرى جواد عاطفته ، وتلك حالة — لعمرى — تتجرد فيها الروح ويتسع مدى إلهاماتها حتى تدنو من حالات الوحى . . . والجوارح وسنى راكدة .

ولهذا قال ابن نباتة فى أعقابها : « وانتبه الملوك فى سنة فكره . وطالع بما اختلج سواد هذه الليلة فى صدره » . وكان أولى أن يقول « فى يقظة فكره » . . . .

وتقع هذه الموازنة الطويلة فى نحو مائتى سطر . وتتكون من ستة فصول . منها ثلاثة على لسان القلم ، وثلاثة على لسان السيف . يتخلل كلا منها أو يختمه بيت أو أكثر من الشعر ، مناسب فى المعنى . ومن هنا يبدو لنا طول كل فصل منها على حدة . وهذا دليل ضمنى على طول نفس الكاتب وسعة أفقه وتدفق المعانى وانثيالها على لسانه ، فضلا عن طواعية العبارات لقلمه .

وقد كان القلم هو البادىء بالعدوان والمنافرة . ثم رد السيف عليه ، فأجابه القلم وهلم جرا . وكان الكاتب يصل كل فصل بالذى يليه بعدة عبارات تتضمن مجمله مشيرا إلى أثره المنتظر .

وحينما بدأ القلم ، خطب خطبة مهد بها لحديثه . وتلك الخطبة على نسق ماشهدنا فى خطب الرسائل ، تحتوى على حمد الله والصلاة على نبيه الكريم . والطريف هنا ، الدقة فى اختيار ألفاظ الاستهلال ، وفيها من حسن المناسبة ورعاية النظير وجمال التوجيه ما يشعرك بذوق أصيل وأدب جم . فقد بدأها بقوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم . ن والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون » الحمد لله الذى علم بالقلم . وشرفه بالقسم . وخط به ما قدر وقسم . » . وهكذا ترى جملة من الاقتباسات من آى القرآن الكريم ، ومن الحديث الشريف تتناسب مع المقام وتعين على الحجة ، وتقوى عند الجدل . وتدحض مزاعم الخصم .

وأخذ القلم بعد خطبته يشيد بمناقبه ويزعم لنفسه محامد لا قبل للسيف بها . فهو سفير الملوك . وأداة لإطلاق الأرزاق . وعون للدولة ووسيلة العلم وراقم الأدب والبيان ، وناشر درر الأفكار ، ولا يستغنى عنه فى سلم أو حرب . . . إلى غير

ذلك مما لا ينبغى لغيره مفاخرته به .

فهب السيف يذود عن نفسه ويرد عادية القلم ، وهو بذلك جدير . . فأشاد بصفاته ، وأشار إلى أن الله جعل الجنة فى ظلال السيوف . وأن السيف سبيل إلى إحقاق الحق وهو صديق الفارس ، ومعين الشجاع على بلوغ إربته ، وحاسم النزاع بين الدول ، والوسيلة إلى الفتح والانتصار ، والعمدة فى بلوغهما . وأيد كلامه بآى كلام الله . وابتدأه بخطبة على نسق خطبة القلم استهلها بقوله : « بسم الله الرحمن الرحيم . وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » . وفى ذلك ما فيه من رعاية المناسبة ، وتقوية الحجة ومجاراة الخصم فى نوعها ، ومعالجته بألوان أسلحته .

وما إن انتهى السيف من مقالته حتى حمى وطيس الجدل ، واحتدمت حماسة القول ، وأخذ يسب السيف سبا صراحا ، ويرميه بكل جارحة ومجرحة ، ويصفه بأنه للقطع والمنع ، ولا يصلح للوصل والعطاء . وأنه أداة للمخاصمة لا المصالحة ، ووسيلة إلى الدمار لا البناء . . إلى غير ذلك من مساوىء السيف .

فكان له السيف الصاع صاعين . وهكذا تبادلا الذم وتقارضا العيب فى حماسة وتيه ، وفى اعتزاز وكبرياء . ومازالا ، حتى رأى القلم نفسه مضطرا إلى التلطف فى الحديث ، والترفق فى القول ، وتلمس سبيل الصلح وطلب الصفح ، وإن لم يكف جملة عن المحاورة والمفاخرة .

وأخيراً طلب القلم إلى السيف أن يتحاكما فيما شجر بينهما إلى رب السيف والقلم ، وهو الملك المؤيد اسماعيل صاحب حماة . . . فقبل السيف هذا الطلب فى شىء من التواضع ، نظرا إلى مكانة سيدهما ، وماله من حول وطول ، وما به من تجربة وخبرة وحنكة ، وما اتصف به من عدل و إنصاف . . .

هذه خلاصة وجيزة لتلك الرسالة الفريدة ، وقد جرى واضعها فى نظمها ، على

الأسلوب البديعى المسجوع الذى تتراوح فقراته بين الطول والقصر ، المعتمد على ألوان البيان ، وأصباغ البديع . واستطاع أن يخوض بها فى فيض من المعانى لا نرتاب فى أن كثيرا منها مبتكر جديد . ونعتقد أنه ألم بأغلب ما يتصل بها تين الأداتين النافعتين من معان ، سواء أكانت تتعلق بمعدنهما أم بصناعتهما أو بآثارهما فى حياة الدولة والمجتمع . وليست المسألة موضوعا إنشائيا على نمط ما نشاهده فى دور تعليمنا فى العصر الحديث ، بل مسألة بيانية ذات أصول فنية مرعية فى الأسلوب ، ومسألة فكرية قوامها حسن التصور ودقة التصوير ، مع الحنكة والمقدرة فى استعمال الألفاظ التى تسبغ على معانيها الأصلية مددا واسعا من الظلال المعنوية يجعلها أثبت لونا وأبهى بريقا .

وكنا نود لو وازنا بين هذه الرسالة وأشباهها من رسائل السيف والقلم ، لولا أن هذه الموازنة خارجة عن نطاق بحثنا .

وننقل هنا سطورا مما قاله كل من القلم والسيف ، نجتزى بها فى مقام الاستدلال . وهى من الفصلين الأوسطين ، إذ هما أكثر الفصول احتداما واضطراما ، وأملؤها بقذائف الهجاء :

قال ابن نباتة يصف حال القلم حينما سمع كلام السيف وفخره عليه :

« فلما وعى القلم خطبته الطويلة الطائلة . ونشطته الجليلة الجائلة . وفهم كنايته وتلويحه . وتعريضه بالذم وتصريحه . وتعديله فى الحديث وتجريحه . استفاث باللفظ النصير . واحتد وما أدراك ما حدة القصير . وقام فى دواته وقعد . واضطرب على وجه القرطاس وارتعد . وعدل إلى السب الصراح . ورأى أنه إن سكت تكلم ولكن بأفواه الجراح . فانحرف إلى السيف وقال :

« أيها المعتز بطبعه ، المغتر بلمعه . الناقض حبل الأنس بقطعه . الناسخ بهجيره من ظلال العيش فيئا . السراب الذى يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .

الحبيس الذى طالما عادت عليه عوائد شره المكين . الإبليس الذى لو أمر لى بالسجود ، لقال : « خلقتنى من نار وخلقته من طين » . أتعرض بسبى . وتتعرض لمكايد حربى . ألست ذا الخدع ، والحرب خدعة . والمنن النافعة ولا خير فيمن لا تبغى الأنام نفعه . ألستُ المسود الأحق بقول القائل :

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الجود والإقداما

أتفاخرنى وأنا للوصل وأنت للقطع . وأنا للعطاء وأنت للمنع . وأنا للصلح وأنت للضراب . وأنا للعمارة وأنت للخراب . وأنا المعمر وأنت المدمر . وأنت المقلد وأنا صاحب التقليد . وأنت العابث وأنا المجود ، ومن أولى من القلم بالتجويد . فما أقبح شبهك . وما أشنع يوما ترى فيه العيون وجهك . أعلى مثلى يشق القول . ويرفع الصوت والصول . وأنا ذو اللفظ المكين . وأنت ممن دخل تحت قوله تعالى « أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين . » . فقد تعديت حدك . وطلبت مالم تبلغ به جهدك . هيهات ! أنا المنتصب لمصالح الدول وأنت فى الغمد طريح . والمنعب فى تمهيدها وأنت غافل مستريح . والساهرُ وقد مهد لك فى الغمد مضجع . والجالس عن يمين الملك ، وأنت عن يساره ، فأى الحالتين أرفع . والساعى فى تدبير حال القوم . والمفنى لنفعهم العمر إذا كان نفعك يوما أو بعض يوم . فاقطع عنك أسباب المفاخرة . واستر أنيابك عند المكاشرة . فما يحسن بالصامت محاورة المفصح . والله يعلم المفسد من المصلح . على أنه لا ينكر لمثلك التصدى . ولا يستغرب منه على مثلى التعدى . ما أنا أول من أطاع البارى ، وتجرأت عليه . ومددت يد العدوان إليه . أو لست الذى قيل فيه :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج فى الحرم

قد سلبت الرحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء . وجلبت القوة فكم هيجت سبة حمراء وأثرت دهماء . وخمشت الوجوه وكيف لا وأنت كالظفر كونا . وقطعت اللذات

ولم لا وأنت كالصبح لونا . أين بطشك من حلمى . وجهلك من علمى . وجسمك من جسمى .

شتان ما بين جسم صيغ من ذهب وذاك جسمى وجسم صيغ من بهق

أين عينك الزرقاء من عينى الكحيلة . ورؤيتك الشنعاء من رؤيتى الجميلة . أين لون الشيب من لون الشباب . وأين نذير الأعداء من رسول الأحباب . هذا وكم أكلت الأكباد غيظا . وحملت الأضغان قيظا . وشكوت الصدأ فسقيت ولكن بشواظ من نار . وأخنت عليك الأيام حتى انتعل بأبعاضك الحمار . ولولا تعرضك إلى لما وقعت فى المقت ولولا إساءتك لما كنت تصقل فى كل وقت . فدع عنك هذا الفخر المديد . وتأمل وصفى إذا كشف عنك الغطاء ، فبصرك اليوم حديد . وافهم قول ابن الرومى :

إن يخدم القلم السيف الذى خضعت له الرقاب ودانت خوفه الأمم

فالموت والموت لا شىء يعادله ما زال يتبع ما يجرى به القلم

بذا قضى الله فى الأقلام إذ بريت إن السيوف لها مذ أرهفت خدم »

قال ابن نباتة :

« فعند ذلك وثب السيف على قده . وكاد الغضب يخرجه عن حده . وقال :

« أيها المتطاول على قصره والماضى على طريق غرره . والمتعرض منى إلى الدمار . والمتحرش بى فهو كما تقول العامة « ذنبه قش ويحارس بالنار » . لقد شمرت عن ساقك حتى أغرقتك الغمرات . وأتعبت نفسك فيما لا تدرك ، إلى أن أذهبها التعب حسرات . أولست الذى طالما أرعش السيف لهيبة عطفك . ونكس للخدمة رأسك وطرفك . وأمر بعض رعيته وهو السكين ، فقطع تفاك وشق أنفك . ورفعك فى مهمات خاملة وحطك . وجذبك للاستعمال وقطك . فليت شعرى ! كيف جسرت . وعبست على مثلى وبسرت . وأنت السوقة وأنا الملك . وأنا الصادق وأنت المؤتفك . وأنت لصون

الحطام وأنا الصون المالك . وأنت لحفظ المزارع وأنا لحفظ المسالك . وأنت للفلاحة وأنا للفلاح . وأنت حاطب الليل من نفسه ، وأنا سارى الصباح . وأنا الباصر وأنت الأرمد . وأنا المخدوم الأبيض وأنت الخادم الأسود . وأقسم بمن صيّر فى قبضتى أنواع اليمن المسخرة . وجعل شخصك وشخصى كقوله تعالى « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » . أنك عن بلوغ قدرى لأذل رتبة . وعن يرى كفى لأخيب طلبة . فإنى لا أنكر قول بعض أربابك حيث قالوا :

أف لرزق الكتبة أف له ما أصعبه
يرتشف الرزق به من شق تلك القصبة
يا قلما يرفع فى الطرس لوجهى ذنبه
ما أعرف المسكين إلا كاتبا ذا متربة

إن عاينت الديوان وقعت فى الحساب والعذاب . أو البلاغة سحرت وبالغت فأنت ساحر كذاب . أو فخرت بتقييد العلوم فمالك منها سوى لمحة الطرف . أو برقم المصاحف فإنك تعبد الله على حرف . أو جمعت عملا فإنما جمعك للتكسير . أو رفعت إلى طرفك رجع البصر خاسئا وهو حسير . وهل أنت فى الدول إلا كخيال تكتفى الهمم بطيفه . أو أصبع بلعق بها الزرق إذا أكل الضارب بقائم سيفه . وساع على رأسه قلما أجدى . وسار وما أعطى قليلا وأكدى ثم وقف وأكدى . أين أنت من حظى الأسنى وكفى الأغنى . وما خصصت به من الجوهر الفرد إذا عجزت عن العرض الأدنى ؟ كم برزت فما أغنيت فى مهمة . وكم خرجت من دواتك لتسطير سيئة فخرجت — كما قيل — من ظلمة إلى ظلمة . وهب أنك — كما قلت — مفتوق اللسان . جرىء الجنان . مداخل بمخلبك بين ذوى الاقتناص . معدود من شياطين الدول وأنت فى الطرس والنقس بين بناء وغواص . فلو جريت خلفى ، إلى أن تحفى . وصحت بصريك إلى أن تخفت وتخفى . فما كنت منى إلا بمنزلة المدرة من السماك الرامح . والبعرة على تيار

الخضم الطافح . فلا تعدّ نفسك بمعجزى فإنك ممن يمين . ولا تحلف لها أن تبلغ مداى ، فليس لمخضوب البنان يمين . ومن صلاح نجمك أن تعترف بفضلى الأكبر . وتؤمن بمعجزتى التى بعثت منك إلى الأسود والأحمر . لتستوجب حقا . وتسلم من نار حر تلظى لا يصلاها إلا الأشقى . وإن لم ينضح لرأيك إلا الإصرار . وأبت حصائد لسانك إلا أن توقعك فى النار . فلا رعى الله عزائمك القاصرة ولا جمع عقارب ليل نفسك التى إن عادت فإن نعل السيوف لها حاضرة . .

ثم قطع الكلام وتمثل بقول أبى تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب »[1]

هذان فصلان من فصول هذه الرسالة القيمة ، نجتزىء أمام القارىء بعرضهما وبعد ! فلله در ابن نباته ودر بيانه ! لقد كتب بقلمين مختلفين ، وضرب بسيفين متنافسين ، وتكلم بعاطفتين متناقضتين ، ومزج بين فنين متضاربين . .

وحسبنا هذا فى الحديث عن الموازنات ، مشيرين إلى أن :

١ — للقلقشندى موازنة بين السيف والقلم — فى كتابه صبح الأعشى ج ١ ص ٢٣١ .

٢ — وله أيضا مفاخرة بين العلوم — فى كتابه صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٠٤ .

٣ — ولابن الوردى موازنة بين السيف والقلم — انظر ديوانه ص ١٥٨ .

٤ — وقيل إن لشمس الدين البساطى المتوفى عام ٨٤٢ هـ ، رسالة المفاخرة بين مصر والشام — راجع ترجمته فى الضوء اللامع .

٥ — مفاخرة بين فصول العام ، فى كتاب نسيم الصبا لابن حبيب الحلبى ص ٩ .

---

١ — الرسالة بتمامها فى خزانة الأدب لابن حجة الحموى ص ١٠٣ ومابعدها — باب النثار

الفصل الرابع

المجونيات

ومالنا لانعقد للمجونياب فصلا مستقلا ، ومن حقها أن يعقد لها فصل . وقد كان العصر عاجا بضروب من المجون كثيرة . ولا ريب أن يكون لذلك فى الأدب رجع . والعصر قد فاض بأرقاء الغلمان والجوارى الحسان الذين ملئوا الدور وزينوا القصور ، وتعهدوا الأكواب ، وأطابوا الشراب . وأقبل كثير من أهل الطبقة الحاكمة على اللهو والعبث ، كما أقبل الشعب البائس على ملاهيه ، لينسى فى أعماقها همومه وأشجانه ، ويتسلى عن حرمانه . وانتشرت أماكن اللهو هنا وهناك ، حتى أشفق بعض العلماء والسلاطين منها ، وأقدم بعضهم — كالظاهر بيبرس — على الأمر بكسر بواطى الخمور وإراقتها ، وكبس أماكن الحشيشة وإحراقها ، ومصادرة الزناة واللائطين . .

كان هناك إذن مجون ، وكان عشق وهيام بالجوارى والغلمان . وكانت هناك مجالس شراب ، وليالى أنس وسماع . . . وكان لذلك أيضا صداه فى الأدب شعره ونثره .[1]

وحمل الشعر من ذلك ، العبء الأوفى . وشاركه النثر مشاركة محمودة . نعرض بعضها مسجلين شيئا من مظاهره ، لما أسبغ عليه من ثوب الوصف .

وقد أشرنا من قبل ، إلى شىء من ذلك المجون ، عندما تحدثنا عن « الاستدعاءات » فى فصل « الرسائل الإخوانية » . ورأينا كيف كان أديب يستدعى صديقا له برسالة

---

١ — فى كتاب (حلبة الكميت للنواجى حكايات لطيفة تدل على مدى انغماس أهل العصر فى المجون والشراب .

رقيقة إلى مجلس شراب أو ليلة أنس يغريه فيها بضروب الإغراء ، ويصف له ما أعده من وسائل اللهو واللذة والطرب . وستصادفك مواضع أخرى .

وكنا نود أن نثبت نماذج هذا الفصل ، مع « المقالات » لولا هذه الخصوصية التى امتازت بها المجونيات ، فجعلت لها سمتا آخر ، وشأنها فى ذلك شأن الألغاز .

أدب المنادمة والنديم :

ونستهل نماذج هذا الفصل بأن ننقل إلى القارىء الكريم شيئا مما قيل فى أدب المنادمة والنديم ، لشدة صلته بهذا الباب .

فقد قال الأديب الألمعى تقى الدين بن حجة ، فى كتابه « تأهيل الغريب » يتحدث عن آداب النديم :

« يجب على النديم أن يكون حسن البزة ، نبيل الهمة ، مستوى الذيول ، وأطراف الأكمام ، نظيف المخفى من الملبس كالسراويل والتكة والجورب ومنديل الكم . فإذا كملت فيه هذه الخصال ، كان قريبا من القلوب سهلا على الأرواح . وإذا لم تدر كأس المدام أسكرهم براح[1] المحاضرة . وأنساهم الهموم بحسن المذاكرة . » .

وقال :

« ومما يجب على النديم أنه إذا كان بين يدى الملوك أو غيرهم من الأعيان أن يحترس من التمدد والتمطى والتثاؤب والتنخع والبصاق وتفريك اليدين وفرقعة الأصابع واللعب بالخاتم والعبث باللحية والعمامة والفاكهة والرياحين والأزهار والتناول للشمامات والإكثار من النقل بعد الشراب . ولا يرمى بثفل ما يمنصه بحيث يُرى ، ولا يعض الفاكهة نهشا ، بل يقطع منها حاجته بالسكين . ولا يكترث . ولا يكثر من شم الريحان

---

١ — فى الأصل و (مزاج) فرجحنا أن تكون (براح) وهو أنسب .

ولا من إدارة اليد فيه ، ولا يقطع زوبيته ولا ينفضه عند أخذه . وليكن شربه مصا وكرعه جرعا . ولا يشرب من الشراب مالا يطيق ، فيزول عقله ، وليأخذ لنفسه مايعلم أنه يقوم به . ولا يقترح صوتا ولا يظهر الطرب ، ولا يبدو منه هزل إن ناوله الساقى قدحا . وإذا أحس بنفسه سكرا أسرع القيام والانصراف وهو يملك نفسه . ولا يلمس يد غلام عند مناولة الكأس . ولا يكثر من ملاحظته عند معاطاته الراح . ولا يشير إليه ولا يغمزه . »[1].

وهذه — لعمرى — آداب مجتمع راق . . !

تدبير استعمال الشراب :

ونقل ابن حجة أيضا فى كتابه « تأهيل الغريب » كلمة من كتاب « الموجز » لعلاء الدين بن النفيس فى تدبير استعمال الشراب ، قال :

« جيد الشراب ما طاب طعمه . وعطرت رائحته . وصفا لونه . واعتدل قوامه . والعلامة الجيدة للشراب أنه إذا ترك المقدار القليل مدة طويلة لم يفسد . وبقدر طول المدة تعرف الجودة . والرقيق اللطيف أسرع إسكارا وتحللا ، والغليظ أبطأ إسكارا وتحللا ، وأدوم خمارا . لكنه يسمّن ، وخصوصا الحلو . وليكن من تسديده على حذر .

ويختار للشاب والمحرومين الأبيض الممزوج الكثير الماء . وللمشايخ الأصفر القوى المزاج . والأحمر يغذى ويسمن . وإنما يستعمل الشراب عند انحدار الغذاء من المعدة . وأما فى خلال الأكل أو عقيبه فضار ، لتنفيذه الغذاء على مجاجته . على أن المعتاد به قد ينتفع باستعمال ما يعين على الهضم لا بمقدار ما يقوى على التنفيذ .

---

١ — عن باب (الاستدعاءات والتذييل) من كتاب (تأهيل الغريب) لابن حجة ، مخطوط بدار الكتب المصرية . ويبدو أن ابن حجة نقل عن خلية الكيت — الفصل الخامس —

وما دام السرور يتزايد ، واللون يحسن ، والبشرة تلين ، والجلد يربو ، والحركات في نشاط ، والذهن في سلامة ، فلا تخف من إفراط .

فإن أخذ النعاس يغلب ، والغثيان يقوى ، والبدن والدماغ يثقلان ، والذهن يتشوش ، والحركة تتراخى ، فقد وجب الترك وحينئذ يجب القيء . والقيء على قليل منه ردىء ، لأنه يغصب من البدن ما ينفعه .

والشرب بالأقداح الصغار خير من الكبار . وينبغي أن يحف مجلس الشراب بالمنظر اللذيذ من الأزهار والمحبوبين من الناس . والأعراف الطيبة والسماع المطرب . ويرفع كل ما يغم ويقبض النفس كالوسخ والصنان ، واللباس القذر . ويلبس المشرق ، وتسرح اللحية وتقلم الأظفار .

وليكن المجلس مشرقا فسيحا بقرب المياه الجارية مع الظرفاء من الأصدقاء ، وذلك لأن الشراب يحرك قوى النفس ، وينير كل شهوة . فإذا لم تجد كل قوة مطلوبها تأذت وانقبضت ، فلا تقبل النفس على الشراب كل القبول ، ولا تتصرف فيه التصرف الواجب فيقل نفعه ، وربما فسد فكان شره أكثر من نفعه[1] » الخ

وصف غلام :

قال بدر الدين بن حبيب الحلبي يصف غلاما :

بينما أنا جالس في بعض الحدائق ، وحولي رفقة هذبتهم الحقائق . وحسنت منهم الأخلاق بين الخلائق . مر بنا غلام . يخجل بدر التمام . من بني الأتراك ، الناصبين مصائد الأشراك ، بديع الجمال . أين منه الغزالة والغزال ، لطيف الشمائل ، يختال بين

---

١ — عن باب (تدبير استعمال الشراب) من كتاب (تأهيل الغريب) لابن حجة مخطوط بدار الكتب المصرية .

الخمائل . تمتد لرؤيته من الزهور الأعناق . وتستتر الغصون حياء منه بالأوراق . وهو ممتط صهوة جواد أشهب . لا يبلغ البليغ حصر وصفه لو أسهب :

ساحر الطرف وافر الظرف أحوى خده الأبيض اللجين مذهب
لا تلمنى على اعتقادى هواه مذهب الوجد فيه أحسن مذهب

فلما حاذى مثوانا . حيانا فأحيانا . فتلقيناه بالترحاب . ردعوناه فأجاب . فحصلناه من حضوره على المقصود . وتحققنا أن يومنا بمشاهدته مشهود . فأطلت فى محاسنه نظرى وأجلت فى ذاته وصفاته فكرى . فإذا له :

ذؤابة تذيب المهج . وتدرج فى حبائلها من دب ودرج . ظلها وارف . وظلامها عاكف . تسلب العقول بالأثيث الأثيل . وتسهر العيون فى ليلها الطويل . حندسية العذب . غزيرة الفضل والأدب .

إذا ما تثنى للسلام مليكها على أحد دارت وقبلت الأرضا

ووجه وسيم . تعرف فيه نضرة النعيم . يفوق سنا القمر . له خفير من الخفر . رقيق البشرة . تحار عند أسفاره السفرة . نزهة المشتاق . ومرآة لوجوه العشاق .

محيا به المقتول يحيا وكم له على وجنة العانى من الدمع جعفر الخ[1]

وصف جارية :

وقال بدر الدين بن الحبيب الحلبى أيضا يصف جارية كان صاحب له منها على ميعاد مع جمع من رفاقه :

« أقبلت من الباب . خود تختلس الألباب . غادة رمرد . طفلة أملود كاعب رداح . ترتاح لها الأرواح . عديمة المثال . نشأت فى حجر الدلال . يسرح الطرف فى

---

١ — من نسيم الصبا الفصل العاشر .

روض جمالها ويتنزه . وتمحو بكثير محاسنها البديعة ذكر عزة . فى حليها وحللها تميد وتميل وبالجملة فهى بثينة الحسن لأن وجهها جميل . فوقفت واستأنست . ثم سلمت وجلست . فسر الجماعة بورودها . وتملوا من جنة وجنتيها بورودها وأقبل يمن إقبالهم . وأنشد لسان حالهم :

أهلا وسهلا بها من غادة سمحت ... بالوصل ليلا ولم تحذر من الحرس

لما تبدت أضا الداجى ولا عجب ... فطرة الصبح تمحو آية الغلس »

الخ [1] .

وصف معشوق وساعة وصال :

قال الصفدى يصف غلاماً عشقه بين أتراب له من ظباء الترك ويذكر تولهه به :

« فبدا بينهم ظبى كأنه بدر سافر . أو غزال نافر . فاقهم حسنا وظرفا . وفاتهم رشاقة ولطفا . قد تقمص بالحسن وارتدى بالجمال . وتسربل بالغنج وتمنطق بالدلال . إن تبدى أنكرت البدر فى تمامه . أو تثنى لم تعرف الغصن من قوامه . أو رنا لم تدر أسحر بدا أو نصال . أو التفت لم تذكر بعدها جيد الغزال . قد أسهر العاشق بطرفه الوسنان . وفتن الرامق بقده الفتان . وأطار الفؤاد على مائس غصن قده . وأوهى جلد الكثيب المستهام بحل عقدة بنده :

من الترك لو عاينت ذلى وعزه ... لعاينت مولى لا يرق لعبده

أحب التفات الظبى حبا لجيده ... وأعشق غصن البان حبا لقده

رعى الله هاتيك الشمائل إنها ... لبانة من يهوى وغاية قصده

---

١ — عن نسيم الصبا (الفصل الحادى عشر)

أيا سقمى أعياك رقة خصره ... ويا جلدى أوهاك عقدة بنده

فحين رأيته خطف قلبى . وأضعف صبرى وضاعف كربى . وتهت فى مهالك الوجد وموامه الغرام . وبت أتفكر فى لطف هاتيك الشمائل وهيف ذلك القوام . وحرت عن معاينة هاتيك العيون الرواشق . وهمت فى رقة ذلك الخصر وقراطف المناطق . وشغلنى الهوى عن التمايك بالنقية . وقادنى الوجد والغرام قود المطية . وملت بعد الراحة إلى التعب . وبعد الترافه إلى الشقاء والنصب . ووقفت فى مصايد مصائب توسواس . وهوفت ما كنت أستصعبه من لوم مناس . وجريت فى مجال ميدان التصابى كالصبا . وذهبت فى مناكب العشق مذهبا » . . الخ

وما زال الصفدى يصف عشقه ولهه ، وجيده فى استعطاف معشوقه واسترقاقه ، حتى استطاع أن يلينه ويعطفه نحوه ، فظل يشكو له غرامه وهيامه حتى وصل إليه فقال :

« فضممته إلى صدرى ضمة وأى ضمة . وبادرته بلثمة بعد لثمة . فسلم إلىّ فى اللثم وفى الرشف قيادى وأبلغنى من الضم والقبل مرادى . وقال : أبحتك نفسى هذه الجلسة . وسلمتك أمرى هذه الخلسة . فبس ما استطعت أن تبوس . وأزل بالعناق مابك من عناء وبوس . فبادرت فى امتثال أمره ، وتنقلت من برد ثغره ونجد ردفه إلى غور خصره :

ياطيب يوم ظلمت فيه معانقا ... من أشتهى قد كان يوما أزهرا

واصلت فيه معذبى ولثمته ... ألفا على وجناته أو أكثرا

ويعز ، والله العظيم ، على أن ... أصف الذى قد كان منى أو جرى »

. . الخ [1] .

---

١ — راجع لوعة الشاكى للصفدى.

رشف الزلال من السحر الحلال :

هذا عنوان مقامة من مقامات الجلال السيوطى . أو هى عشرون مقالة مختلفة بين الطول والقصر ، وتبلغ أطولها ستين سطرا . كتبها السيوطى على لسان عشرين عالما يختلفون فيما تخصصوا فيه وهم : المقرىء والمفسر والمحدث والفقيه والأصولى والجدلى واللغوى والنحوى والصرفى ، وصاحب المعانى ، وصاحب البيان ، وصاحب البديع ، والعروضى ، وصاحب الحساب ، وصاحب الهيئة ، والكاتب ، وصاحب الميقات ، والطبيب ، وصاحب المنطق . والصوفى .

وموضوعها أن يحدث كل عالم منهم زملاءه عما شاهده ليلة زفاف موريا بمصطلحات علمه . . .

والموضوع دقيق — كما يرى القارىء الكريم — فيه حروجه ودقة . ولا مناص لسالك طريقه من الانزلاق فى المجونيات ، والخوض فى الأدب المكشوف على رغم التوريات والتلميحات . ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . وهكذا انزلق السيوطى — رحمه الله — إلى هذا الضرب من الأدب الماجن ، الذى يتنافر كل التنافر مع ما عرف عن السيوطى من زهادة وتقوى وجد . ولكن السيوطى أديب . والأديب طروب . والنفس تواقة إلى الترويح بشىء من المزاح ، يرفه عنها الأتراح ، ويجلب لها الأفراح ، ولو بحديث يجرى على الشفاه ، لا يلوث الجباه . وهكذا أكتب السيوطى مقامته أو مقالته تلك . بحسن نية — كما ذكر فى صفحتها الأولى . ونحن من ناحيتنا لا نشك أن السيوطى أراد بها أن يستكمل نواحى فنونه الأدبية ونواحيه العلمية معا لأن عقليته — فى الحق — أو نفسيته ، كانت موسوعية أو دائرة معارف ، تضرب فى كل فن وعلم بسهم .

والمقامة المذكورة دليل جديد على حسن اتصال السيوطى بشتى من علوم وفنون

ووقوفه على مؤلفاتها وألفاظها الاصطلاحية . واقتداره أن يورى بعدد منها وهذا ضرب من التوجيه البديعى .

على أننا — ونحن دائما نطمع فى الكمال — كنا نود لو أن السيوطى أطال فى هذه المقامه أو المقالات، وأكثر من استخدام مصطلحات الطب والحساب والهندسة، إلى غير ذلك من علوم كونية. مع العودة إليها لشرحها والإشارة إلى معانيها — كما فعل ذلك فى بعض مقاماته الآتية بعد — إذن لكان من ذلك ثروة لغوية أى ثروة، نستطيع الاستمداد منها فى النهضة العلمية والفنية .

و بعد فقد قص السيوطى قصته هذه ، على لسان أبى الدر نفيس بن أبى إدريس، الذى خرج إلى فلاة فسمع خطيبا يخطب على منبر ، يغظ الناس ويدعو الرجال إلى الزواج ، لما فيه من الحل والخير ، ويحذرهم اللواط لأنه حرام وضر ، ومسقط للمروءة .

ويبدو لنا من ذلك ، كيف كان هذا الداء الوبيل متصلا من عهد الظاهر بيبرس إلى زمن السيوطى أعنى طول العصر تقريبا .

وكان من بين مستمعى الخطيب ، أبو الدر نفيس وعصبة من الشباب الذين تخصص كل منهم فى علم أو فن ، وكانوا عشرين شابا . فاستجابوا لندائه ، وأرادوا أن يعززوا تقواهم بالزواج ، وتواعدوا على أن يحكى كل منهم ما رآه ليلة زفافه لإخوانه موريا بمصطلحات علمه . . .

و إليك سطوراً من كلام بعضهم .

فمما قاله المقرىء :

« لما انقضى الاجلا . وحصل الاختلا . ورفع عنها التاج والحلى . وتخيل لى أن

البدر فى ليلة أضحيان قد انجلى .

عزمت على رقيا محاسن وجهها بآيات أنوار الضحا متهللا

فلما بدت تفتر عن نظم ثغرها بدأت ببسم الله فى النظم أولا

ثم استوينا على العرش . وجلسنا على الفرش . وكشفت عنها فإذا هو باطنه ورد ، وظاهره ورش . وله كعنب [1] أضخم . وحرف مفخم . وركب كأنه بيضة الأدحى [2] كأنه من سكر سوسى . جرمه كبير . وشحمه يروى عن ابن كثير . » الخ .

ومما قاله المفسر :

« لما كشف الملائم . ولاحت لى المعالم . رأيت أوصافا . تعجز وصافا . وتروق كشافا . ثم كشفت عن ذيلها . لأبلغ ما أرومه من نيلها ، فإذا هى :

من كل بيضاء لها كعنب مثل سنام البكرة النائر

لها جميش مشرف مهدف مثل سنام الربع العاكر » الخ

ومما قاله المحدث :

« لما كشفت القناع . رق الحديث وراق السماع . ورأيت منظراً أبهى من البدر السنى . وحديثا أحلى من الرطب الجنى . » الخ [3]

رسالة لفخر الدين بن مكانس :

قرأت لهذا الأديب البارع الرقيق رسالة أو مقالة ماجنة فى ديوانه المخطوط . وقد ضمنها حوارا بين أربعة وخمسين رجلا من مختلف المهن والصناعات ، جمعهم مجلس شراب وطلب إليهم أن يتكلم كل منهم بمصطلحات مهنته وصناعته ثم يختم كلامه

---

١ — الكعنب الركب الضخم ٢ — الأدحى كسكرى موضع بيض النعام فى الرمال .
٣ — مقامة السيوطى مطبوعة ومنها نسخة بدار الكتب المصرية .

بيتين من الشعر فى المعنى . والحديث يدور حول الشراب ووصفه .

ولعل هذه الرسالة انهاوت إلى السيوطى ، فاستوحى منها فكرة مقامته « رشف الزلال » التى سبق الحديث عنها .

وكنا نود أن نفصل الحديث عن رسالة ابن مكانس لرقته وعذوبة أدبه . ولكننا ضربنا الذكر صفحا عنها ، لكثرة ما خالطها من العامية .

ومع هذا نلاحظ عنها جملة ملاحظات منها :

أولا : أن حديث كل رجل استغرق سطورا قليلة من سطورها .

ثانيا : أنها مثل للقص والحوار .

ثالثا : أن من بين رجالها : القاضى والصوفى والحمامى والقبانى والفاغرانى والمكارى والجمال والمصارع ومعلم الصبية ، والسقا والبراذعى والحشاش الخ ومن ذلك نستطيع أن نعرف شيئا من مهن العصر وصناعاته وفنونه .

---

١ — راجع ديوان ابن مكانس المخطوط بدار الكتب المصرية

الفصل الخامس

التقاريظ والأهاجى

لا بدع ، إذا نحن سلكنا التقاريظ والأهاجى فى عداد باب الوصف ، وجعلناها فصلا من فصوله . وقد اعتدنا — وبخاصة عند الحديث عن الشعر — أن نجعل الوصف بابا ، والمدح بابا والهجاء بابا ، وهلم جرا . ولكننا هنا حينما نقرأ تقاريظ أو أهجية ، نشعر تمام الشعور أنهما قائمان على الوصف ، وأن الوصف يترقرق فى سطورهما ترقرق الماء والنضارة فى العود . . لذلك آثرنا ضمهما إليه والتنويه بهما فى بابه .

والتقاريظ صنو لرسائل المديح والشكر التى سبق لنا التنويه بها فى « باب الرسائل » . غير أن التقاريظ هنا تفترق عن تلك ، بأنها فى جملتها ليست « رسائل » متبادلة بين أصدقاء فى إخوانيات معتادة كالتشوق أو الشكر أو الاستهداء ونحوه . فيخرجون بها هونا إلى المديح والتقريظ . وإنما هى مقالات وصفية يكتبها الأصدقاء لأصدقائهم أو نحوهم ، يمتدحون بها شيئا من نتاج أقلامهم وثمار عقولهم مثل كتاب أو قصيدة جيدة أو ديوان شعرى أو رسالة أو نحو ذلك .

وقد نشطت سوق التقاريظ فى الجيل الماضى ، فكنت لا تكاد ترى كتابا علميا أو ديوانا شعريا مثلا ، يصدر إلا وفى صدره جملة من التقاريظ لعدد من أعلام الأدباء ورجال الفكر المعاصرين للمؤلف أو الناظم ، يزفونه إلى القراء ويبشرونهم بالانتفاع به ويغبطونهم عليه ويغدقون الثناء على مؤلفه أو ناظمه . ولم يكن الغرض من التقريظ حينذاك ، الشرح والتحليل والتعليق النافع والنقد المثمر ، وتبصير القراء بمواضع النفع والجدة فى هذا الأثر العلمى أو الأدبى المقدم إليهم ، بطريقة علمية يجلوها الصدق

ويجملها الحق ولا تشوبها شائبة المديح والإطراء ، والمبالغة فى الثناء ، إلا لماما وبقدر .

أما فى جيلنا الحاضر فقد نضب معين هذه التقاريظ وركدت وكسدت سوقها ، وخف مدادها ، وعف كثير من المؤلفين والناظمين عن حشد هذه التقاريظ التى أملتها الصداقة أوحب المجاملة ، فى طليعة مؤلفاتهم ومقدمة منظوماتهم ، شبيهة « بزفة العروس » . . . وربما أحرى محلها مقدمات تحليلية ممتعة يكتبونها بأقلامهم أو بأقلام بعض أصدقائهم .

ولكن فى عصر المماليك راجت سوق التقاريظ . ودفع إلى رواجها عوامل الصداقة بين الأدباء ، ورغبتهم فى اللعب البديعى وتمرين القريحة وحب المعارضة ونحو ذلك . لهذا أصبحت مظهراً آخر من المظاهر الأدبية التى يتسابق فى ميدانها الأدباء . وأمعنوا فى وصف الشعر والنثر والعلم والأدب والأقلام والقراطيس وما إلى ذلك وصفا بارعا عماده التشبيه والاستعارة والخيال الشعرى وغير ذلك من ألوان البيان محلاة بأصباغ البديع ، تتماوج فيها مبالغات المديح والإطراء ، مختومة غالبا بعبارات الدعاء .

ولعل من الطريف أن نذكر أن ابن حجة الحموى طلب إليه أحد طلبة العلم بحلب — ويسمى بدر الدين بن محمد بن الضعيف — عام ٨١٤ هـ ، أن يكتب له تقريظا على رسالة مشتملة على حكم ومواعظ ، فامتنع . حتى أمره صديقه الناصرى محمد بن البارزى بأن يكتبه ، فكتب تقريظا مهمل الحرف ، ليس به حرف منقوط سوى التاء المربوطة فقال منه :

« طالع المملوك رسالة محمد وسلم . وأحكم السمع والطاعة لكلامها المحكم . والله ما سمعها عالم إلا وهام . ولا ردع سحرها الحلال مسلما إلا كره الحرام . وعاد عاملا وأعد للصلاح حواصله . وصار له مع الله معاملة . ما أحلى ما كرر عاطلها المحلى ، وأهلا

لسهولة مسلكها وسهلا . مالولد ساعة ، سعد أحكامها . ولا أهل العصر سكر ، إلا ما أدار كأس مدامها . ولا لعمارة عامرُ صرحها ورهطه . ولا لصر در كاؤلؤها وسمطه . ولا لولد مطروح مع طرحها المحرر مطارحه . ولا صار لولادة رسالة مسموعة ولا لسرحها آرام سارحة . ولا مسارح الماء الحلو لملحها إلا كلآل . وما عامر ما أمسه المعمار إلا أطلال . وما المطاعم الحلوة معها إلا مالحة . وما صوادح الكلام الصادح إلا حول دوحها صادحة . وما لطعم الراح مع حلاوة وردها راحة . ولا لسلسل الورد معها طلاوة ولوكال الطل أدواحه . ولا لسلوك الدر در سلوكها . ولا للمسوك العاطرة عطر مسوكها . » الخ[1]

وكتب زين الدين بن الوردى على قطعة من شعر بدر الدين حسن بن حبيب — وكان ابن نباتة قد قرظها — فقال :

« تأملت هذه النبذة التى رق من قائلها الطباع . فافتخرت بنظرها الأبصار على الأسماع . فوجدتها مشتملة على مبانى القوافى الفوائق . والمعانى الرواقى الروائق . فقبسها بدرى . وكوكبها درى . هاجت لى ذكر حبيب . فهى زبدة من حلب ، لا بل قطعة من طيب . أعذب من الوصال . وألذ من الماء الزلال . وألطف من الرياض عند الصباح . وأرق من رحيق الطل فى ثغور الإقاح . فيالها من مقطعات نيل . أضرمت فى روح كل كليم نار خليل . قدّر ناظرها فى السرد . وقال ناظرها بالجوهر الفرد . ونابت مناب سيوف الهند . وأغنت عن التشبيب بسعاد وهند . ما أطول صفات شعرها ، إن كان قصيرا : فلو ألقيت على وجه أبى العلاء لأتى بصيرا . ومن سلك من الجماعة هذا الطريق وهو نقى خد . فما الظن به إذا تحلى لسانه وعارضه برسم وحد . وكيف به إذا تعلق بأفنان مواد هذا الفن وامتاز . ونزل بدر خده فى دارة دار الطراز .

---

١ — القطعة بتمامها فى خزانة الأدب ص ٤٤٠ تحت باب « ذكر الحذف » .

مما لك يبين للناظرين أن الوليد كان عابثا . وأن ابن حبيب لأبويه فى الأدب والنسب أصبح وارثا .

أقسمت إن جد وطال المدى ... روّى الورى من بحره الزاخر

فقل لمن بالسبق تقضيله ... كم ترك الأول للآخر

ومالى لا أصف هذه النبذة فأغلو فى وصفها . وقد شهدت الألفاظ النباتية بحلاوتها ولطفها . قرن الله قوله وفعله بالتوفيق . وصان شأنه عمن شانه ، فشين الحسن لا يليق » .[1]

وكتب برهان الدين القيراطى من رسالة إلى جمال الدين بن نباتة المصرى ، يقرظه ويصف رسائله ومنظوماته ويذكر بلاغته وسنحات بيانه . فقال من تقريظه مبدعا فى اقتباسه :

« لا غرو إن فضح بديع الزمان بلفظه البديع . وأزهرت الأوراق بمنثور رسائله التى كل فصل منها ربيع . وخجلت صفحة الخد المنمنمة بطراز العذار المرقوم . وقالت النكتوس حين شبهت فى إمالة الأعطاف بأنفاظه : وما منا إلا له مقام معلوم . »

ومنها :

« فسبحان من أسرى بها فى ليل نفسها إلى المحل الأقصى . وحباها بالفضل الذى لا يحصى . وأنبت دوحتها فى رياض الفصاحة . وعمق حدائقها التى لو فتح النرجس عينه فى عينها لنسب إلى الوقاحة . فتبارك الذى جعل فى سماء دوحته لشمس بلاغته بروجا . وأعلى همم التى لا ترضى الشهب جيادا والأهلة سروجا . حتى أقام براع قلمه لسوق الأدب قصبة . وشاد من قصائده كل بيت إذا مر الحاسد ببابه قيل العتبة . وساوات كالسبعة السيارة مصنفاته . وعلت من قصره المشيد بسينات سطوره شرفاته .

---

١ — عن ديوان ابن الوردى ص ١٥٢ .

وفديت بالمباسم والقدود ميماته وألفاته . وزهت أمداحه المؤيدية فأصبحت أبياته المرفوعة ذات العماد . وراقت محاسنها التى لم يخلق مثلها فى البلاد . وفضحت لسهلها الممتنع أدباء العصر الذين جابوا الصخر بالواد . » ومنها :

« طالما سرح الناظر فى بستانها منظره . ورام ابن سكرة فتح الأبواب لمعارضة قطرها التباتى فوجدها مسكرة . وعلم المنذى أن هذا خاتم الأدباء لا محالة . والمترسل الذى نهض دونه بأعباء كل رسالة . وأقام بتقديمها على غيرها براهين الاحتجاج . وقال المليحى عندما قابل بحرها الحلو ببحره : هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج . »[1]

سجع المطوق :

أحب — بهذه المناسبة — أن أنوه بكتاب لجمال الدين بن نباتة المصرى ، فريد فى بابه . وهو كتابه « سجع المطوق » وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ، متوسط الحجم يحتوى على نحو ٦٣ ورقة مكتوبة من الصفحتين ، فى كل صفحة خمسة عشر سطرا . وليس فيه ما يدل على زمن نسخه .

وقد ورد اسم هذا الكتاب ، فى جملة مؤلفات ابن نباتة ، فى أكثر من مناسبة ومنها ترجمته فى الدرر والوافى وغيرهما .

وقد بدأه ابن نباتة بخطبة طويلة ، حمد الله فيها وأثنى عليه ، وصلى على نبيه الكريم عليه السلام . ثم بين سبب تأليفه ، وهو أنه لما ألف كتابه « مجمع الفرائد » — وكان إذ ذاك بدمشق — اطلع عليه عدد من فضلاء الشام ، فقرظوه . فجمع هذه التقاريظ فى كتاب سماه « سجع المطوق » . ويبدو أنه جمعها وهو فى حماة .

---

١ — هذه الفصول من خزانة الأدب ص ٤٤٨ باب الاقتباس .

وقد سماه كذلك لأن مقرظيه « طوقوه » بإنعامهم ، ولذلك « سجع » بمحامدهم على غصون الأقلام — على حد قوله — .

ولم يكتف ابن نباتة بتسجيل التقاريظ ، بل سجل تراجم المقرظين وشيئا من مراسلاته إليهم ومدائحه فيهم ، سواء أكانت شعراً أم نثرا . ولم يسجل سنوات وفاتهم لأنهم معاصرون له ، أحيا فى زمنه .

من هنا ترى أن الكتاب طريف فى بابه — كما أشرنا — إذ بنى على تسجيل « تقاريظ » . ولكنه إلى ذلك ، كتاب أدب وتاريخ ، وإن لم يغن غناء حاسما ، إذا أردنا أن ننتفع به انتفاعا تاريخيا فى تراجم أعلامه ، وذلك لأنه صبها فى قالب من الثناء والإطراء والمبالغات الشعرية ، التى وإن راعتنا من الناحية الأسلوبية ، لا تجدى كثيرا فى مجال التحقيق التاريخى .

وقد ترجم لعدد كبير من أدباء عصره ومنهم : الشهاب محمود الحلبى ، والجلال القزوينى ، وكمال الدين العطار ، وأمين الدين بن النحاس ، وبهاء الدين بن غانم . وغيرهم .

وفى هذا الكتاب سجل ابن نباتة عددا من الرسائل الإخوانية المنثورة مما كتب إلى إخوانه فى أغراض شتى ، منها العتاب والاستهداء والتشوق ، وعددا من مقطعاته وقصائده ، ومنها تائيته الرائعة فى مدح قاضى القضاة كمال الدين بن الزملكانى — ومن هنا ترى أن الكتاب يعتبر أحد دواوين ابن نباتة فى شعره ونثره .

وننقل هنا سطورا من تقريظ العلامة جلال الدين القزوينى خطيب جامع بنى أمية بدمشق ، لكتاب « مجمع الفرائد » لابن نباتة ، قال :

« هذا سماه حكم بدائع وفقر روائع . فلا بدع أن سميت « مطالع الفوائد » . وأصداف كريمة حوت درراً يتيمة . فلا غرو أن رسمت بمجمع الفرائد . وحدائق تنتف

زاهية ناضرة . حقائق بأن تكون وجوه أهل الحقائق إلى عيونها ناظرة . وأبكار أفكار هن ضرائر النجوم . وأنفاس خواطر أطيب من فوح الأزاهر جادتها الغيوم . ومبانى بيان كل مبنى كبانيه كريم . ومغانى معان تحل فيها القلوب فلا يرى قلب عنها يريم . ورياض لطائف شرفت منها لطائم المسك الأذفر وحياض طرائف رفت عليها سحائب كل ذهن صائب فسح صيبها الأوفر . ومحاسن إذا تليت سورها على البلغاء ، ظلت أعناقهم لها خاضعين . وإذا جليت صورها على الفصحاء بهرت الناظرين والسامعين . فكيف ، لا وهى صوب العقول ونظم العقود . وقد بدئت بكلام من كلامه إلى الحق يقود ، وعن الباطل يذود . أبان مؤلفها مانبه عليه من معانيه الدقيقة . أنه معتصم من البراعة فى صناعة البلاغة بعروة وثيقة ودل بما أورد فيها من كلامه الذى هو أرق من أنفاس النسيم . وأحق بميل الأنفس إليه من العقد النظيم . أنه حاز قصبات السبق فى حلبات النظم والنثر ، حتى فخر كل مفاخر . وفاز من تحقيق الفضائل بما فيه تصديق القائل : كم ترك الأول للآخر . » الخ [1] .

ونلاحظ فى تقريظ الجلال القزوينى هذا ، دقائق ولطائف من الصناعة البديعية . ففى خلال سجعاته — مثلا — ترى ازدواجات طريفة كقوله : « حكم بدائع وفقر روائع » وقوله : « أصداف كريمة ، ودرر يتيمة » وقوله : « رياض لطائف وحياض طرائف » — وترى من جناساته الخفيفة قوله : « حدائق وحقائق » و « أبكار وأفكار » و « مبانى بيان ، ومغانى معان » — ومن اقتباسه قوله : « ظلت أعناقهم لها خاضعين إلى غير ذلك .

---

١ — راجع سجع المطوق . مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٧٠ آداب عربية .

تقاريظ مهمة :

لعل من الطريف هنا أن نذكر ثلاثة تقاريظ تجلى فيها أحد الفنون البيانية البارعة. وهو فن وعر المسلك دقيق المنهج ، فى حاجة إلى ذوق أصيل ورفق أدبى واسع ، وتمام لباقة . ونعنى به « الايهام » إذ يجتمع فى عباراته وألفاظه غرضان متضادان كالمدح والذم ، يورى بأحدهما عن الآخر . فيورى عن الذم بالمدح مثلا . إذ يرد الكلام محتملا معنيين متضادين ، يريد الكاتب أحدهما ، ويستتر أمام محدثه بالمعنى الثانى . وهو منهج — كما ذكرنا — وعر ، يحتاج إلى كياسة وحنكة واقتدار على إدارة كئوس التوريات حلوة مرة . ويستطيع به الكاتب أن ينال من خصمه ويطعنه ماشاء ويكشف عوراته ، ويهتك أستاره ، ثم يجد لنفسه مخرجا ومخلصا وعن لوم مخاطبه مفرا. وهذا المنهج شديد الصلة بالنقد ودعايته ، التى تنقد النقدة المرة ، وتلبق فى التخلص من مسئوليتها وعواقبها .

التقريظ الأول والثانى

ونعود فنقول إنه قدم على الديار المصرية فى زمن الملك المؤيد شيخ المحمودى ، الأديب المؤرخ الشيخ شمس الدين محمد بن ناهض الفقاعى . وذلك فى شوال عام ٨١٨ هـ. وقد صنف فى تاريخ الملك المؤيد المذكور ، سيرة مشتملة على نظم ونثر . وتعرف بسيرة ابن ناهض [١] . ويبدو أنها لم تكن جيدة النسج كما ينبغى .

قال ابن حجة الحموى فى حق ابن ناهض المذكور : « ولم يكن للمشار إليه إلمام بتعاطى الأدب فى مبادى عمره »[٢] .

طلب ابن ناهض إلى ابن حجة ثم إلى الأديب بدر الدين بن الدمامينى ، أن يكتب

---

١ — يبدو أن هذه السيرة مفقودة . كما يبدو أنها كانت موضع عناية الأدباء إذ أقبل بعضهم على نظمها كلها شعرا .

٢ — خزانة الأدب ص ٨٠ « باب الايهام » .

لسيرته تقريظا ، فأحرجا وترددا نظرا لضعف السيرة من ناحية ، ولأنها سيرة سلطانهما من ناحية أخرى ، وبعد تردد كتب ابن حجة تقريظه أولا ، ثم وليه الدماميني فكتب تقريظه ثانيا . ونهج كل منهما فى تقريظه منهج الإبهام الذى أنقذهما من حرجهما . فبلغا به الغاية من ذم السيرة ، كما يقتضى أدب النقد . تحت ستار من المديح كما يقتضى الأدب مع السلطان والإخوان .

وهذه سطور من تقريظ ابن حجة ، قال :

« وقفت على قواعد الأدب من هذه السيرة الناهضية . فوجدت مطرب لحنها قد أعرب عن التنكيت لأهل النكت الأدبية . ونويت معها سلوك الأدب لاحتشامها بالصفات المؤيدية . فإنها ما قوبلت بأدب إلا تقوت بسلطانها . ولا جارتها سيرة مطولة إلا كانت قاصرة عن الجرى فى ميدانها . ولا ذكرت التواريخ المقدمة معها إلا تأخرت وكبت خلفها : ولا ناظرها ذو قصص إلا ثقل عليه أمرها . ونظر إلى قصصه فاستخفها . ولا بالغ أهل التقاريض فى تقاريضهم إلا وكانت دونها . واستحق لها هذا الوصف فى ذمة أهل الأدب فاستوفت منه ديونها فلو نظر الصفدى إلى هذا التاريخ وراجع النظر لسلخ جلده . أو تصفحه الكتبى لعدد على تاريخه وما عده . أو كاثر ابن كثير لرأى نقصه متزايدا عنده . أو عاصر ابن خلكان لقال لم أمازج شراب الفقاعى بخلى فإن عنده حمضة وبردة . أو لحقه الذهبى وموه بتاريخه لقيل له : هذا ماينطلى معه . وعلى أن خلاصة الذهب تظهر بالسبك فهضم من جانبه ووضعه . ولو أدركه البديع لرمى بديعه وعلم أنه بدعة . أو لحقه الوهرانى لرآه فى المنام إن حصل له بعد مطالعته هجعة » . الخ

أما الدماميني فقد بدأ تقريظه بمدح السلطان فقال ـ وفى ذلك فن من فنون النثر ـ « أما المقام الشريف الممدوح ـ عز نصره ولا زالت تفخر بدولته القاهرة مصره ـ

فملك مدّ على الرعية جناح العدل وحمى بيضة الإسلام . وتواردت على تجريح عداته وتعديل صفاته ألسنة السيوف والأقلام . وسار على أقوم طريق فأذكرنا السيرة العمرية . وطلع فى سماء الكواكب كالبدر ، فقل ماشئت فى الطلعة القمرية . ودعا إلى نسك طاعته فلبته فى ذلك الموقف النفوس . ونادى على أعدائه منادى الخنف فأرانا كيف يكون الترخيم بحذف الرءوس . ناهيك بها مناقب سرت القلوب وسارت . ونافست النجوم جواهر الألفاظ فى مدحها فغارت . وشملت البرايا بالمن والمنح وقابلت المسىء بالعفو والصفح . حماها الله تعالى من الغير . وجعل صفاتها الشريفة جمال الكتب والسير . »

ثم قال فى تقريظ السيرة ومنشئها :

« وأما منشىء السيرة . فماذا أقول وقد رأيت الخطب جليلا . وماذا أصف وقد حملنى عبئا ثقيلا . هو كبير أناس . مزمل من البلاغة بأنواع وأجناس . يأتم به الهداة كأنه علم . وتروم الآداء المقايسة به فيقاسون ولكن من شدة الألم . له فى الأدب صريمة وشهامة . وفراهة تجريه إلى المقامات الرائقة فلا تعتريه سآمة . ما هم بتركيب معنى إلا وشرح الصدور بذلك الهم . ولا شن فارس فكره غارة إلا وتم منها على بيوت الشعراء ما تم . طالما أظهر برغم أنوف الحسدة فى المجالس فضله . وصعبت الآداب على غيره ولكنها أصبحت عليه سهلة . وعقل غرائب نكته عما سواه فلله ما أبدع . كدو عيش الحلى بما ابتدعه من العجائب ، ولا ينكر لمثله تكدير الصفى . واكتفى فى ميدان البراعة بجواد فكره الذى حال وهو مكرمفر ، وهكذا يكون المكتفى . أتى فى تاريخه بألفاظ لو رآها ابن الأثير لتأثر . وابن سعيد لتعثر . وابن بسام لأصيب منها بالقارعة فعبس وتولى . أو الحجازى لرمى منها بالداهية التى هدمت ما بناه وثقلت عليه حملا . وكتب خطا لو لمحه ابن مقلة لأصيب منه بنظرة . أو ابن البواب لهتك ستره . وجاء بأدب لو وازن أحد به الراجح الحلى لما أقام وزنا ولا رجحه . ولو تأمل المليحى ملاحة لفظه الذى ما مر مثله بالذوق إلا قال لسان التعجب ما أملحه . ولو قيس به ابن الرومى

المتعاظم لأنشد الناظم :

ولو أنى بليت ببهشمى خشولته بنو عبد المدان
لهان على ما ألقى ولكن تعالوا وانظروا بمن ابتلانى

ولو تشبه به مادح كافور لعاد من برده بكبد حرى . ولو كلف مجاراته صاحب القطر النباتى لقال : ربنا أفرغ علينا صبرا . ولو تعرض ديك الجن لعزائمه فى الأدب لما زادت إلا خبالا . ولرأى سطورا تتوالد منها المعانى العجيبة ، والليالى — كما علمت — حبالى . » الخ .

التقريظ الثالث :

أما هذا فقد كتبه الأديب مجد الدين فضل الله بن مكانس ، بعد أن ألح عليه المصنف ابن ناهض الفقاعى فى كتابته ، كما ألح على ابن حجة والدماميني . وقد نوه ابن مكانس خلال تقريظه بمناقب الملك المؤيد ومدحه ودعا له . وبدأه بقوله :

« يا لطيف ! » نظرت هذه السيرة التى يعرض عنها المعارض . وينزو مؤلفها فى رياض الأدب على بكر من سوام المعانى وفارض . فوجدته قد نهض بعبء ثقيل من الكلام . وقام وأوقف البلغاء فى مقام العجز ويعذر العاجز ، إذ شرفها بذكر مولانا السلطان فى هذا المقام . خلد الله ملكه الشريف . وعم بعدله المبسوط مدائن فضل ذات ظل وريف . ورفع جنابه المعظم على الأفلاك حتى تسير لخدمته ممتطقات بمناطق النجوم » . الخ

وقال فى تقريظ السيرة ومنشئها :

ثم كررت النظر فيها . واستنهضت القلم للكتابة عليها حسب سؤال منشيها . فنكس القلم من الخجل راسه . وصعد من صريره أنفاسه . وقال : لست ممن يجيد فى هذا

التقريض عبارة . ولا ينهض فى وصف ماجاء به هذا الرجل من متين كلمه الذى أفحم الفحول، فكأنما ألقمهم حجارة . فلقد ترفع قلمه فى أرض قرطاسه وسما . وأتى من الرقيق بشىء يحسبه الظمآن ماء . وقذف الرعب فى القلوب بذكر الوقائع فورمت خوفا وشكت مماقذف بها ورما . فلو وازنه القيراطى لثقل فى الحقيقة عليه . أوحام على حمى ابن أبى حجلة لفرطائرا من بين يديه . أوجلا على ابن نباتة سلاف نظمه لم يقل: إلىّ بكأسك الأشهى إلىّ . أو أورى زنده مع الشواء لأحرق قلبه . لم يستحسن منه شى » الخ [1]

الأهجيتان :

لم أظفر فيما قرأت من نثر هذا العصر ، بغير هاتين الأهجيتين اللتين أنوه بهما هنا ـ هذا إذا استثنينا التقاريظ الثلاثة المبهمة السالفة الذكر ، لما تتضمنه من الذم والهجاء . أما الأهجيتان اللتان نسجلهما هنا فهما سافرتان صريحتان فى باب الهجاء . لم أجد لهما نظيرا بين القطع والرسائل المنثورة . كما استبد الشعر بهذا الباب دون النثر . ذلك النثر الذى استبد فى هذا العصر بكثير من الفنون الشعرية ، فشارك الشعر فيها .

والأهجية الأولى كتبها الناثر الشاعر زين الدين بن الوردى ، يصف فيها أعمال « القاضى الرباحى المالكى » وتقع فيما يقرب من ثلثمائة سطر تتخللها أبيات شعرية كثيرة فى مواضع مختلفة ، تتناسب مع المعنى . وكذلك بعض فنون الزجل من كان وكان . هذا عدا أسلوبها البديعى المسجوع .

ويبدو أن هذا القاضى الرباحى ، كان قاضى المالكية فى حلب ، وأساء إلى كثير من الناس فيها ، وأسقط عددا من الشهود بدعاوى مختلفة ، واقترف جملة من التصرفات

---

١ — القطع الثلاث فى خزانة الأدب ص ٧٩ ومابعدها (باب الابهام) وهى أيضا فى قهوة الإنشاء .

التى ألحقت الضرر ببعض أهل حلب واستنكروها منه ، وفى جملتهم أو فى مقدمتهم ابن الوردى .

أحب ابن الوردى أن يدمغ هذا القاضى بنشر قصته على الناس ، و يسجل أعماله شاهدة عليه لدى التاريخ فكتب هذه الأهجية ووصف فيها تصرفاته وأخلاقه . وسماها « الحرقة للخرقة » . وخلدها — على حد قوله — فى ديوان الدهر شاهدة على المسىء بفعله . ومن عجب أن ترى ابن الوردى يقدم هذه الأهجية بسطور يدعى فيها أنه إنما كتبها للنصيحة ، وأنه تجنب فيها فحش القول ، وتحرى فيها الصدق والصواب . . . والله سبحانه خبير بالنيات وعليم بذات الصدور . . .

وننقل منها سطوراً ، قال فى مطلعها :

« اعلموا يا ولاة الأمر . و يا ذوى الكرم النمر . — أبقاكم الله بمصر للأمة . ووفقكم لدفع الإصر و براءة الذمة — أن حلب قد نزعت للزبدة . ووقعت من ولاية التاجر الرباحى فى خسر وشدة . فاض سلب الهجوع . وسكب الدموع . وأخاف السرب . وكدر الشرب . بجراءته التى طمت وطمت . وعاميته التى غمت وعمت . وفتنته التى بلغت الفراقد . وأسهرت ألف راقد . ووقاحته التى أدهشت الألباب . وأضاعت النطف فى الأصلاب . فكم لطخ من زاهد . وكم أسقط من شاهد . وكم رعب بريئا . وكم قرب جريئا . وكم سعى فى تكفير سليم . وكم عاقب بعذاب أليم . وكم قلب ذائب . بنائبة توسط بها عند النائب » .

ومنها يصف انفضاض الناس عنه ونفورهم منه :

« لما رأى خلو مجلسه ، قلة مؤنسه . وانقطاع الأعيان عن داره . وإهمال الكافة له لصغر مقداره . قال له رأيه الفاسد . إلى متى أنت مهجور كاسد . فازدجر وانتهر . وقبح حتى تشهر . فآذى وناوا . وجرح وما داوى . فطفر الناس عليه بهذه الطفرة .

وما زادهم عنه إلا نفرة ، وكشفوا حلته ، وعرفوا علته .

حال النحاة على العموم تميزت عندى لأن القوم أهل نصوص

من أجل قاض قدموه لعلة ودعوه بالمستثقل المنقوص

إذا جلس خلت غولة جالسة . وإذا تكلم متطيلسا قلت جاء البرد والطيالسة . لا قراء ولا قرى . فليت العيون اكتحلت منه بأميال السرى . يحب من القرآن : «ألا فى الفتنة سقطوا» ومن الحديث : « أباهى بكم الأمم حتى السقط » . ومن الفقه : «مسألة سقوط يد السارق بآفة» . ومن النحو : « سقوط بأل والإضافة . ومن الشعر :

وما للمرء خير فى حياة إذا ما عد من سقط المتاع

يحب من كل علم السين والقاف والطا

حاشا الرسالة منه ما خلقه بالموطا

يتنفس على الناس الصعداء . ويؤذى الأشقياء والسعداء . لقى بعض الناس منه مالقى . وهو عازم على ما بقى .

لقد أصبح الباقون منه على شفا متى استنشدوا الشعر القديم يقولوا

يهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلم أعراض لنا وعقول »[1]

هذا ويبدو للمطالع ضعف نسج أسلوب ابن الوردى ، وهكذا هو فى أساليبه النثرية . غير أنها لا تخلو من فن ونفع .

الأهجية الثانية :

هذه رسالة[2] كتبها الكاتب البارع محيى الدين بن عبدالله ابن عبد الظاهر

١ — الأهجية بتمامها فى ديوان ابن الوردى طبع الحوائب ص ١٩٠

٢ — وجدتها مطبوعة فى نهايه « تمام المتون فى شرح رسالة ابن زيدون » الصلاح الصفدى ومنها نسخة خطية فى دار الكتب المصرية رقم ٣٩١١ (آداب عربية)

المنشىء المشهور ، عام ٦٥٣ هـ مخاطبا بها الأمير ناصر الدين حسن بن شاور الكنانى المعروف بابن النقيب .

وكان ابن عبد الظاهر قد عابه رجل فى حضرة ابن النقيب — كما يفهم ذلك فى سياق الرسالة — فكتب ابن عبد الظاهر رسالته هذه يندد فيها بعائبه ويرد عيبه عليه ، ويبين له طريق الرفعة والسمو الذى يسمو به الرجال ، ويرسم له سبيل المجد الحقيقى ، وهو سبيل التواضع والعلم والكرم ومكارم الأخلاق ، لا سبيل النسب والاعتماد على غيره .

وهذه المعانى تفهم من القصيدة التى ختم بها الرسالة — وتقع فى نحو أربعين بيتا — أكثر مما تفهم صراحة من الرسالة المنثورة .

والرسالة — كما رسمنا — رسالة لوم وعتاب وتقريع وهجاء موجه إلى العائب ، ورسالة فخر دافع بها الكاتب عن نفسه محتجا لما بلغه من السمو والتقدم بين الرجال . ثم هى رسالة مدح وجهه الكاتب إلى صديقه ابن النقيب ، وبخاصة فى الجزء الأخير منها . وتقع الرسالة كلها فى نحو مائتى سطر .

وبعد ، فقد اتسمت هذه الرسالة بعنوانها «التواضع» . ولولاه ولولا مادعت إليه من التمسك بمكارم الأخلاق لأثبتناها فى « الرسائل الإخوانية » عوضا عن فصل «التقاريظ والأهاجى » وهى صالحة لكلا الفصلين على كل حال .

ويرى القارىء من السطور التى نقتبسها منها بعدُ ، أنها رسالة فريدة الأسلوب قوية التركيب ، غنية ممتعة فى مجازاتها وتشبيهاتها . بينها وبين الرسالة الجدية لابن زيدون مشابه ، لولا سجعها الملتزم ، وهجاؤها السافر غير المقنع ، وخلوها من الاستعطاف . ولعل أبرز وجوه الشبه بينهما : جزالة التركيب وقوة المجاز والتشبيه وكثرة الإشارات إلى الحوادث الماضية . (ومن إشارات ابن عبد الظاهر إشارته

إلى حادث كليب . و إلى مقتل على ، و إلى مسألة التحكيم) . وامتزاج الفخر مطويا فى تضاعيفها .

ومن سطورها ، بعد أن بدأها ببسم الله الرحمن الرحيم قال مخاطبا ابن النقيب ومبينا سبب رسالته :

« بلغنى — أعزك الله ولا برحت رحيب فناء الفخر . قشيب ملبس العمر . يانع ثمر الفكر . مفعم حياض البر — أن « فلانا » غض منى كل غض الجنى . وأنه عبث بى عبث الأيام بالمنى . وأنه ردنى إلى أرذل العمر فى الاطراح . وغلق فى وجهه تنجحى أبواب النجاح . وزعم أن إناء أتانى غير مفعم . وبناء مجدى غير محكم . وجواد إجادتى غير ملجم . وأن ميلاد مجدى حديث . وسبب سعدى رثيث . وأن جوار إجادتى جريحة . وقرائح ارتجالى قريحة . وأن صدور المجالس تنكر إقدام أقدامى . وبطون الطروس لاتلقح بوطء أقلامى . وأنى لا أعد فى جملة الكتاب . وإذا دخلوا من أبواب متفرقة للتكريم لا أدخل معهم فى باب .

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل »

ومنها يدافع عن نفسه ويدفع فرية المفترى وتنقص المتنقص فى كلام كالسهام ومقال أمر من النبال ، وحجج ناصعة وبراهين بارعة ، تخفى فى طياتها ماتخفى من لذعاتها . قال :

« والذى أقوله له مخاطبا . وأوحيه إليه مجاوبا : إن كان استرسالك أيها العائب عبثا ، فما كل الأفاعى تعبث بها الأنامل . ولا كل المراعى تنصب بها الحبائل . ولا كل زخار يخاض ولا كل جناح يهاض . ولا كل جامح يراض . ولا كل سابغة تفاض . ولا كل نسر واقع . ولا كل السموم يدخل فى درياق ، ولا كل مطوق يجذب بالأطواق . فإن كان ماقلته حلما ، فإن من الأحلام ما يروع . أو وهما فإن من الأوهام مايخامر الضلوع . أو جهلا فإن المندل الرطب لايضره كونه حطبا فى موطنه . والتبر لا يضيره كونه ترابا فى

معدنه. ولا يضر الزناد الوارى قدح القادح. كما أنه لا يضير النجم السارى نبح النابح ولا على إذا قلت ملاما. وقلت أنا سلاما » الخ

ثم قال بعد قليل يوبخه ويوهن من شأنه ثم يفتخر :

«وأعود إلى محاققة النفس. فتأبى إلا إظهار اللبس. فأقول: هل أنت « يافلان! » الإمتخرض بزور وآيس من الخير كايئس الكفار من أصحاب القبور. وآمن من العواقب ولله عاقبة الأمور. وما مبالاتى بك إلا مبالاة الديك بالبط. ورماح الخط بأقلام الخط. ومتى خافت الرعود من الوعود. أم متى أحجمت الأسود عن القرود. أم متى جزعت البحار عن النيار. أم متى صارت النار كالأنوار. أم متى فزعت بنات نعش بانى سعير. أم متى صغرت بنو الريان فى عين أبى كبير. أم متى جبن الفرزدق من جرير. » الخ

ومازال حتى دعا لصاحبه بن النقيب فى ختامها دعاء لاريب جديدا فى منزعه، طليا فى مطلعه، حيث قال :

« أدام الله لك النعمة إدامة لا ينقصها اختزال. وحرسها عليك حراسة لا تنتهى إلى زوال. خذها — أجلك الله — قد أنشأتها سحبا ثقالا، لك منها عذب الشراب ولغيرك عذاب السراب. وأوريتها نارا، لك منها الإنارة ولغيرك الإحراق. وأجريتها بحارا، لك منها الإرواء ولغيرك الإغراق. وأدرتها شمولا، لك منها النشوة ولغيرك الخمار. وطبعتها نصولا، لك ماضمت عليه الأنامل منها، ولنحر غيرك الفرار» الخ.

وختمها بقصيدة فى الحديث عن مكارم الأخلاق وفى أعقابها أبيات فى مدح ابن النقيب. ومطلعها :

« العلى فى ارتشاف در العلوم والحلى فى انشاح در الحلوم
والتناهى فى كل فعل حميد ما التباهى بحلل خل حميم » الخ.

وبعد فهذه مذكرة دفاع لانجربة يراع، وقعقعة سنان لاثرثرة لسان. وأدلة راهنة

للخصم، أكبر الظن أنه ألجم عند طلوعها وأفحم وقت سماعها .

وقد أفصح ابن عبدالظاهر عن موضع الفرية ومكان المذمة ، وهو أنه لايحسب بين الكتاب . فثار من أجل فنه وهبته،هذه الثورة الجارفة التى لقن بها العائب درسا. وإذا علمنا أن ابن عبد الظاهر يوم كتب الرسالة « عام ٦٥٣هـ » كان فى غضارة شبابه وطراوة إهابه . ونظرنا إلى متانة نسجه وجزالة إنشائه وسعة إحاطته ، بدا لنا مقدار فضل الله عليه وعنايته به . والله يعطى من يشاء بغير حساب .

وصن التقاريظ

١ — تقريظ للصلاح الصفدى كتبه ابن دريهم — مثبت فى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٣٥ .

٢ — تقريظ للشهاب بن فضل الله كتبه للصفدى — مثبت فى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٣٦ .

٣ — تقريظ لشهاب الدين القلقشندى كتبه لشرف الدين عيسى بن حجاج مثبت فى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٣٧ .

٤ — تقريظ لابن حجة على ديوان اسماعيل ابن الحلبى الصائغ — مثبت فى فى خزانة الأدب ص ٤٥٠ .

٥ — وفى قهوة الإنشاء تقاريظ أخرى من إنشاء ابن حجة

٦ — وفى صدر « نسيم الصبا » لابن حبيب الحلبى ، ستة تقاريظ لكتاب ستة قرظوا بها كتابه المذكور .

الفصل السادس

الألغاز

اللغز ضرب من ضروب التعمية فى الأسلوب ، وقصد الإبهام فى العبارة ، حتى يبدو من ظاهرها معنى لايراد وهو غير المعنى المرادمن باطنها ،مع صلاحية المعنى الظاهر كذلك . فيعمى بمعناها الظاهر عن معناها الباطن . ويضطرب ذهن السامع بين ألفاظها ومراميها ، مترجحا بين ظاهرها وباطنها ، نافذا من أولها إلى ثانيها ، مستخدما ذكاءه وخبرته وبصره بأساليب الأدب وألوان الألفاظ ومعانيها المتباينة ، حتى يظفر فى النهاية بالمعنى المطلوب .

وتشترك فى تكوين اللغز ألوان من البديع والبيان ، ما بين مجاز وتشبيه وكناية ، وتورية وإبهام ، مع ألفاظ الاشتراك والتضاد ، ومع الاعتماد على التصحيف والعكس والتحريف ، فى المفردات ، إلى غير ذلك .

واللغز وصاف ماهر ، وذلك لأنه يتناول أوصاف الملغز فيه — قدحا مثلا أو ماء أو قلما أو غير ذلك — ثم يسردها واصفا معميا . فهو فوق ما يتحمله من عبء الوصف ، وإبراز دقائقه ، وإيضاح حقائقه يتحمل عبء التعمية فيها ، وإيراد المشترك منها ، مع إشارات ورموز تفتح مغاليق المعمى ، وتنير السبيل إلى الحل ، ونحو ذلك . فتغمض المعانى لأول وهلة ، وتبعث الألفاظ السامع على التفكير والبحث . وفى ذلك — بلا ريب — طرافة أدبية ودعابة إخوانية ، وتجاوب ذهنى ، وانسجام نفسى جميل . فضلا عما يكشفه اللغز من صلات دقيقة بين مفردات اللغة .

ويخطىء من يقول إن الاشتغال بالألغاز دليل الفراغ والبطالة ، ومظهر من مظاهر الإفلاس الأدبى وأنه علامة على انحطاط الأدب وإسفاف الأدباء . هذا خطأ صراح . فإن الاشتغال بالألغاز ملء للفراغ بما يفيد التسلى به ، ويستدر ذكاء المرء ، ويقدح قريحته ، ويمرن ذهنه على حل المعضلات . وبها تبرز النزعات الأدبية وتزدهر ، ويتكشف صدؤها ، ويدب فى خمولها روح من النشاط ، فتمرح فى بحبوحة من الحرية ، ويسبغ عليها بعد مرانتها ، مرونة تجعلها تتحكم فى تصريف عباراتها ، وتكيفها تكييفا أسلوبيا خاصا يتماوج بتماوج مقامات الكلام .

وإن من يتصفح صحفنا — نحن أهل العصر الحديث — وبخاصة فى أبان الأزمات السياسية واشتدادها ووقت اضطراب الأمور العليا وتشابكها والقاق منها ، وخوف تسرب أنبائها إلى العامة حذرا من تأثر الرأى العام بها ، يرى كثيرا من هذه الألغاز والأحاجى منشورة منبثة بين سطورها تومىء فيها الصحف بعباراتها المعماة إلى مجارى الأمور ومسالكها وتحولاتها وخفاياها ، دون إفصاح أو إيضاح . لذا يعرفها من الناس أذكياؤهم وفضلاؤهم والمتتبعون منهم لأمور السياسة واتجاه أعاصيرها ، وتصاريف رياحها وتذبهم على من عداهم . وتكون الصحف بذلك قد قامت بواجبها فى النطاق المضروب عليها ، وفى الحدود المرسومة لها ، وبخاصة عندما تكون هناك أحكام عرفية أو رقابة قوية ، تكبت الأنفاس ، وتكمم الأفواه . فتجد حينذاك فى الألغاز ونحوها متنفسا ومخرجا .

على أن الألغاز تستخدم أحيانا وسيلة من وسائل التربية والتهذيب ، اختبارا للعقول ، وقياسا للأذهان ، ووقوفا على نسبة الذكاء وسرعة الخاطر . وهى أيضا فى المجال العلمى أداة مقبولة للسؤال عن موضوع علمى ، وللإلمام بأطرافه ، أو التصدى لشرحه أو نحو ذلك . ونقول : مقبولة ، لما فيها من التشويق وإثارة الخاطر وبث الاهتمام فى نفس السامع أو المسئول ، ودعوته إلى الاشتراك مع الملغز فى الوصول إلى حل المشكل وفهم الموضوع .

هذه بعض مزايا الاشتغال بالألغاز لذلك ينبغى أن لانرمى شعراء عصر المماليك وكتابه بسعة فراغهم وضعفهم الأدبى ، والاشتغال بالتافه من الأمور ، إذا رأيناهم يعتنون بالألغاز ويشتغلون بها .

على أن الاشتغال بالألغاز ليس صناعة مملوكية مبتكرة ، ولكنه من مخلفات الأدب فى العصور المواضى على أننا نشعر أنها صناعة اتسع نطاقها وامتدت آفاقها فى مصر والشام زمن المماليك .

ويبدو أنها كانت صناعة شعرية ، ثم شملت النثر كذلك . لم تقتصر إذن على النثر والشعر ، ولم تقتصر كذلك على المسائل الأدبية ، بل امتدت إلى المسائل العلمية ومشاكل النحو والصرف والفقه واللغة والحديث ، ونحو ذلك .

ومن هذا وذاك ، ترى أن فن اللغز فى الأدب العربى واسع النطاق ، وجدير بدراسة مستقلة شاملة ، منذ أقدم عصور الأدب حتى الآن . ومنها نستطيع — إلى حد ما — أن نتبين إحدى نواحى العقلية والعاطفة العربية .

وبدهى أننا نتحدث هنا عن الألغاز فى نطاقها الأوسع ، لا باعتبارها لونا من ألوان البديع ، عارضا ، بل باعتبارها أسلوبا فنيا من أساليب الأدب يمثل إحدى نزعات التفكير والتعبير عند الأدباء .

والملحوظ فى الألغاز النثرية أن منها مالم يكتب بأسلوب أدبى فنى ، يسلكه فى عداد المقالات أو الرسائل الفنية ، التى نجد لها محلا فى هذا البحث . غير أن منها عددا تبادله الأدباء وأجادوا تدبيجه وتحريره وسبكوه فى قوالبهم الفنية البديعة ، وسكبوا عليه من رائع براعتهم وبراعتهم ، فخول لها ذلك أن تسلك هنا وتحتل مكانا بين شتى ضروب المقالات والرسائل . وكنا نسلكها فى عدادها ، لولا هذه الخصوصية البارزة التى اختصت بها الألغاز دون سائر مقالات الوصف ورسائله وهى قصد التعمية وتكلف الغموضة مع الطرافة والتشويق فجعلها ذلك صنفا من المقالات جديرا بالاستقلال

ويتصل باللغز الرد عليه والإجابة بحله ، وكلاهما ينزع غالبا عن مشرب واحد ، ويمتح من معين مشترك . ولقد اعتاد الأدباء أن يزودوا ألغازهم بعبارات يتقارضون فيها الثناء ، كما اعتادوا « التراسل » بها ، ومن هنا ترى هذه « الأسئلة والأجوبة » ضربا من « الإخوانيات » . ولكنها لخصوصيتها السالفة ، ولأنها أنشئت للوصف ، أو لأن الوصف غالب عليها ، آثرنا أن نسلكها فى بابه .

هذا ومما اتخذوه موضوعا لألغازهم : الأدوات والطيور والحيوان والأزهار والفاكهة والمأكولات والمشروبات ونحوها .

ونسجل هنا أمثلة للألغاز والرد عليها ، فمن ذلك :

ما كتبه العلامة الشيخ بدر الدين الدماميني إلى مجد الدين فضل الله بن مكانس ، الأديب ، ملغزا فى « قدح » فقال :

« ما اسم حبيب إلى النفوس . شبيه بالبدر حليف للشموس . إن قلب كان لقلبه من العين مكان المناسبة . أوسقط قلبه مع هذا الفعل كان ضدا للأقوال الكاذبة . وإن صحف بعد العكس أنبأ عن الذكاء ، وهذا غاية الشرح . وإن غير ثانيا علم رب الكلام أنه دال على الطرح . حاشيتاه مع التصحيف آلة للصيد . معينة على المكر والكيد . وإن قطع طرفه كان مزاج باقيه قواما . وإن عكس كان الطرب بتصحيفه مداما . وإن زال أوله كان العكس عقابا لمتعاطى إثمه . وأن صحف اشتاقت الشفاه إلى تقبيله ولثمه . وربما كان المقول عند تصحيفه الآخر منافيا لاسمه . مباينا فى الحقيقة لحده ورسمه . » .

فكتب مجد الدين فضل الله بن مكانس جوابا ، فيه الرد ، وفيه لغز جديد فى « ورد » ، فقال فى رده :

« يقبل الأرض التى أطالت بالجفاء حرمانه . وتداركته بعد إجراء دموعه فعظمت فى الحالين شانه . وانتهى المملوك إلى اللغز الذى تمتع بملحه . وشرب بقدحه . فابتهل

شكرا . ومالت أعطافه بالقدح الفارغ سكرا . فوجده كما قال مولانا حبيبا إلى النفوس . مجتهدا فى التوصل بما حازه إلى الرءوس . » .

وقال فى لغزه فى « ورد » :

« ما عاطل يتحلى به المجالس . ويتفكه به فى المجالس . تحمر وجناته من الشرب . وتحمد آثاره فى البعد والقرب إن قلبته وجدته تاجا . وإن تركته على حاله زاد ابتهاجا . يعذب بالنار وغيره الجانى . ويريك إن بدلت أوله برد الأمانى . يستخرج وهو خارج . ويرى معه من نار قلبه هاطل [1] لا تبرح به غبطة . ولا تجد فيه مع انهماله نقطة . فإن حذفت أوله وحرفت باقيه وجدته أمرا بالشراب . وإن فعلت كذا فى ثانيه رأيت ما بقى مولدا للمحبة بين الأحباب وورّ إن حذفت آخره كمن ورى . وغص فى بحر الفكر على عكس ثلثيه لتستخرج درا .

والمملوك يسأل الصفح فإنه لولا المحبة ما أجاب . ولا طرق بعد فقد أبيه هذا الباب . » .

فكتب إليه الشيخ بدر الدين الجواب ، فقال :

« يقبل الأرض . وينهى ورود الجواب الذى شفى القلوب بوروده . واللغز الذى نسى بوروده بان الحمى رطيب وروده . فوجده روض بلاغة عدم العاتب والعائب . وترعرع زهره حيث أمطرته من الأنامل المجدية خمس سحائب فلو شاهده ابن الوردى لاحمر خجلا . أو صاحب زهر الآداب لتلون وجلا . ثم تأمل حل اللغز فوجده قد كشف المشكل وجلى . واعترف أنه لم يمر بذوقه أطيب من ذلك الحل ولا أحلى . وتحقق أن مولانا أوسع المملوك فى مقام الأدب بفضله إيناسا . وتناول منه قدحا أعاده بألفاظه المسكرة كاسا . وانتهى المملوك إلى اللغز المخدومى ، فقال :

مولاى مجد الدين يا من فضله ... يروى وجودُ كفوفه يروى الصدى

---

١ — هكذا فى الأصل ، ويبدو أن بعض العبارات سقط .

ألغزت فى اسم عاطل حليته فينا بدر اللفظ أوقطر الندى
إن أورد التحريف فى أثنائه قد كان للثانى هلاكا أوردى »

وقال مجيبا عن لغز « الورد » ويمدح مجد الدين :

لله لغزك يامولى فضائله قد عطر الكون منها طيب أنفاس
أتى بورد فحيانى على قدحى به وأبهجنى ما بين جلاسى
وقد أساجرح كسرى حين أقبل لى روحى الفداء لذكر الورد والآس (سى)

فاستحلى المملوك بالتحريف ورده . وود لواقتطف من أغصان حروفه ورده . ورده إلى ذل القصور عاريا عن ملابس عزه . وأنشد قول ابن قلاقس ، وقد تقلى بنار عجزه :

إذا منعتك أشجار المعالى جناها الغض فاقنع بالشميم

فراح على بهرج هذا الرأى الكاسد . واقتنع بالشميم على رغم أنف الحاسد وعلم أن تلك الورود لاتخرج إلا من تلك الخضرة . وأن هذه الفاكهة لاتخرجها إلا أغصان أقلام لها باليد المخدومية بهجة ونضرة . وتمشى المملوك من هذا اللغز فى بساتين الوزير على الحقيقة . ورأى كل ورقة فاحمرت الوجنات الحمر فتحير أهى وردة أم شقيقة . وتفكه بها معجبا بثمار غرسه . منشدا لمن كرر النظر فى صحيفتى طرسه

إن كنت تزعم مافى خده عجبا فانظر إلى الورد فى خديه منثورا

فلقد ظفرت من نفسه الوردى بالعنبر الورد . وعوذته عند تبديل الثلاثة بالواحد الفرد . وتأملت بقصور راحتى تكة برد الأمانى . فانعقد لسحر البيان لسانى وتيقنت أنه لا يقوى على فهم هذا البرد الاكل حديد النظر . ووجدت تصحيف هذه الكلمة ـ ياشمس الفضائل ـ للعقول قمر . وعلمت أن الفكر لايجارى مَنْ بديهته من بحر الفضائل روية . وأن الخاطر لايقوى على سلطان هذا اللغز لأن شوكته قوية . وقلت للذهن : رد بعضه لتنتهل شرابا سائغا . وزد تصحيفه ليكون فى التعريف بمعناه مبالغا . وتمتعت من ورده بالمشموم . ثم تذكرت البعد عن جناب المخدوم فاستقطر البين ماء الورد من حدقى

لمولانا الصفح عن مقابلة هذا الدر بالسقط . وتمر هجر بهذا الحشف الملتقط ».[1]

نكتفى بما مر . ونسجل مواضع ألغاز أخرى ، فمنها :

١ — لغز لزين الدين بن العجمى فى « الماء » مثبت خزانة الأدب ص ٣٩٧ ، وفى حلبة الكميت بالباب العشرين . وفى روض الآداب للشهاب الحجازى بعنوان « النيل »

٢ — لغز لعز الدين بن البهاء الموصلى إلى الصلاح الصفدى فى . . أمس « مثبت فى « الأشباه والنظائر » للجلال السيوطى وبه أيضا جوابه من الصفدى

٣ — جملة من الألغاز للجلال السيوطى فى كتابه « الأشباه والنظائر » ، وبه ألغاز كثيرة لغيره .

٤ — لغز أنشأه المولى شرف الدين حسين بن المقر الجمال بن ديان . فى « المئذنة » وألزم الصلاح الصفدى بالجواب عنه . وقد أجاب الصفدى عنه . وكذلك أجاب عنه القاضى بدر الدين بن مكى . — واللغز والجوابان مسجلة فى تذكرة الصفدى بالجزء الرابع عشر « مخطوط بدار الكتب » .

---

١ — اللغزان والرد عليهما فى خزانة الأدب ص ٣٩٥ باب الألغاز . كما أن اللغز الأول والرد عليه فى حلبة الكميت بالباب الثالث عشر .

الفصل السابع

خطب الكتب

اعتاد المؤلفون أوالناظمون والأدباء ، منذ القديم أن يقدموا بين يدى مؤلفاتهم ومجاميعهم ودواوينهم « خطبا » تطول أحيانا ، وتقصر أحيانا يصغون فيها كتبهم ، ويبينون الغاية منها والمنهج الذى اتبعوه فى وضعها . كما اعتادوا أن يتأنقوا فى صوغ هذه الخطب ويبدعوا فى نظمها ، لأنها طليعة الكتاب والمبشرة به ، وخير عنوان عليه . وهى منه بمثابة صفحة الوجه من الإنسان .

ونهج الأدباء والمؤلفون فى عصر المماليك هذا النهج ، سواء أكان ما ألفوه كتابا أدبيا أم علميا أومجموعة من مجاميع الشعر أو النثر أو المحاضرات المختلفة . والتزموا فى هذه الخطب خطوات وسمات خاصة . وذلك كبدئها بحمد الله والثناء عليه سبحانه وتعالى ، والإقرار بالشهادتين ، والصلاة والسلام على نبيه الكريم وآله وصحبه . ثم بيان أهمية المؤلف وطريقة تأليفه . ويذكرون أحيانا المراجع التى رجعوا إليها واعتمدوا عليها والأسباب التى دفعتهم إلى التأليف .

وأهم من هذا أنهم التزموا صوغها صوغا أدبيا فى أسلوب مسجوع الفقرات فيه ألوان البديع مابين طباق وجناس وتضمين واقتباس وتوريات وتوجيهات إلى غير ذلك مما يلذهم . وأجادوا فى استهلالهم بما يشعر حقا ببراعة . فضمنوا سطورها الأولى ألفاظا وعبارات تومئ وتنبئ بموضوع الكتاب ، وتدل على لطائف ذوقية أصيلة .

نهج المؤلفون هذا النهج ، لم يحيدوا عنه فى جميع ماألفوا ، لاتكاد ترى كتابا خلا من مثل هذه الخطبة أو المقدمة — طويلة أوقصيرة — حتى فى أعرق كتبهم علما

واصطلاحا ، مثل كتب النحو والفقه والبلاغة والمنطق والحديث ، إلى غير ذلك . نهجوا هذا النهج ، حتى ابن خلدون فى خطبة كتاب تاريخه أو خطبة مقدمته ، نهج أيضا هذا النهج الذى عابه على كتاب عصره ، فى أحد فصول مقدمته المذكورة . بل كان أكثر منهم التزاما وأثقل سجعا وتكلفا .

وبعد ، فهذه الخطب بهذا السمت ، ألزمتنا أن ننوه بها هنا فى باب الوصف ، لأنها فى جملتها خطب واصفة تصف المؤلفات وصفا أهدأ وأكثر دقة ووضوحا ونفعا من التقاريظ التى مر بنا ذكرها .

وإليك نموذجا منها نكتفى به مقتطفين سطوره فى مواضع متنوعة :

قال السيوطى فى خطبة كتابه « كفاية الطالب اللبيب فى خصائص الحبيب » . وهو كتاب جليل فى السيرة النبوية وأحاديث الرسول عليه السلام ، ويعرف « بالخصائص الكبرى » .

قال فى تحميده ودعائه .

« الحمد لله الذى أطلع فى سماء النبوة سراجا لامعا وقمرا منيرا . وأطلع من الرسالة ثمرا يانعا وزهرا منيرا . تبارك اسمه . وتمت كلمه . وعمت نعمه . وجمت حكمه . وجرى بما كان ومايكون قلمه . أوجد الأنام من العدم . وجعل الضياء والظلم . وخلق اللوح والقلم . وقدر الآجال والأرزاق والأعمال وقسم . أحمده وهو المحمود أزلا وأبدا . وأشكره مستزيدا من نعمه مسترفدا . وأستهديه ومن يضلل الله فلن تجد له وليا مرشدا . وأستنصره ولن تجد من دونه ملتحدا . وأستكفيه وله الحول والقوة سرمدا . وأستعينه ونعم المولى والنصير مؤيدا . » الخ .

وقال فى الشهادة بمحمد عليه السلام ، وفى مدحه بما هو أهله ، وفى وصفه ببعض صفاته الكريمة :

« وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله. نبي ماضل وماغوى . وماينطق عن الهوى. ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى. عندها جنة المأوى . وسمع صريف الأقلام بالمستوى. وكتب الرحمن اسمه على العرش إذاستوى. وآذن باسمه في المبتدأ في الأرض وفى السما . ويوم النشأة الأخرى . سلم عليه الحجر والشجر . ودر له ضرع الجذعة بالدرر. وحن الجذع لفراقه حتى خار خوار البقر ونبع الماء من أصابعه ومن الأرض انفجر . وانشق له وكان يناغيه فى مهده القمر . » الخ.

وقال فى وصف آل النبى عليه السلام ، وأصحابه مصليا عليهم :

« نجوم الهدى . وليوث العدى . وغيوث الندى . ماصاح حاد وشدا . وراح شاد وغدا . وصاب غادوهدى. وغاب صادوبدا . وصال بادوودى . وسال وادوجدى. ».

وقال يصف كتابه :

هذا كتاب مرقوم ، يشهد بفضله المقربون . وسحاب مركوم يحيا بوابله الأقصون والأقربون . كتاب نفيس جليل . محله من الكتب محل الدرة من الإكليل . أو موضع السجدة من آى التنزيل . كتاب أمرعت قطراته . وأينعت ثمراته . وعبقت زهراته . وأشرقت أنواره ونيرانه . وصدقت أخباره وآياته . كتاب بسقت فنونه . وأورقت غصونه . واتسقت أسانيده ومتونه . كتاب يؤجر قارئه ومستمعه . ويحفظ به إن شاء الله تعالى مؤلفه فيما يأتيه ويدعه . ويثبته بالقول الثابت إذا حان مصرعه . ويكون له فى عرصات القيامة نورا يسعى بين يديه ويتبعه . كتاب جمع فأوعى . ما كل عن جمعه ووهى . كل بطل شديد القوى . كتاب فاق الكتب فى نوعه جمعا وإتقانا يشرح صدور المهتدين إيقانا . ويزداد به الذين آمنوا إيمانا . وديوان مستوف لما تناسخته السفرة الكرام البررة . مستوعب لما تناقلته أئمة الحديث بأسانيدها المعتبرة . مشتمل على ما اختص به سيد المرسلين من المعجزات الباهرة . والخصائص التى أشرقت إشراق البدور السافرة . وأوردت فيه كل ماورد . ونزهته عن الأخبار الموضوعة ومايرد .

وتتبعت الطرق والشواهد لما ضعف من حيث السند . ورتبته أقساما متناسقة . وأبوابا متلاحقة. بحيث جاء بحمد الله كاملا فى فنه . وابلا مطر[1] وجفه . سابغة ذيوله. سائغة نيوله . حلله ضافية ومناهله صافية . وموارده كافية . ومصادره وافية . لاتجمع واردة إلاوهى فيه مسموعة . ولاتسمع شاردة إلا وتراها فى ديوانه مجموعة . قربت فيه ما كان بعيدا . وآنست ما كان فريدا . وأهلت ما كان شريدا . وفتحت لكل غريبة وصيدا . وشرحت به صدور قوم مؤمنين . وقلوب طائفة آمنين . وغظت به الجاحدين والمفسدين والطائفة المبتدعة والملحدين . والفلاسفه المتمردين. ورجوت به الحسنى ومن يهد الله فهو من المهتدين . »[2] .

---

١ — هكذا بالأصل ويبدو أن بعض سجعاته سقط .

٢ — راجع مقدمة الخصائص الكبرى للجلال السيوطى .

كلمة ختامية

نحب أن نختتم هذا الباب بالتنويه بألوان من المؤلفات الأدبية ، نتحدث عنها لأنها أقرب المؤلفات صلة وشبها بباب الوصف .

ونعلن أولا بأننا لا نؤرخ هنا « الحركة التأليفية » ، ولا نؤرخ « الحركة الأدبية » فلكل منهما مجال آخر غير هذا المجال الذى قصرناه على تاريخ « النثر الفنى » ، وإن يكن الحديث عنه جزءا من الحديث عن « الحركة الأدبية » .

غير أننا لم نر بدا من الحديث عن هذه « المؤلفات الأدبية » هنا فى أعقاب « باب الوصف » لشدة ارتباطها به ، وحذرا من أن ينسب إغفالنا لها إلى التقصير . نتحدث إذاً عنها فى هذه الكلمة الختامية فى إيجاز شديد ، ونرى مبلغ نصيبها من النثر الفنى ومن الوصف ، ومبلغ نصيبهما منها .

ونعنى بهذه المؤلفات خمسة أنواع هى :

١ — كتب التاريخ . ٢ — رسائل وفصول فى موضوعات متنوعة . ٣ — شروح الرسائل والقصائد . ٤ — الموسوعات . ٥ — المجموعات الأدبية .

---

١ — كتب التاريخ :

حفل العصر بعدد ضخم من كتب التاريخ ، فازدهر بها علم التاريخ . حتى إذا قلنا إنه العصر الذهبى للتأليف التاريخى لم نكن مبالغين . وتنوعت هذه الكتب واختلفت مشاربها وحماتها ، فمنها كتب التاريخ العام ، وكتب الخطط والآثار ، والسيرة النبوية ، وسير الملوك وأشباههم ، وتراجم الأعلام ، وطبقات العلماء ، وغير ذلك .

واتسع نطاق بعضها حتى صار موسوعة جامعة لفنون التاريخ ، حافلة بنصوص الأدب .

وهى كتب واصفة فى جملتها ، مسجلة لحقائق التاريخ ووقائعه ، غير أن أسلوبها غلبت عليه نزعة القص والحكاية والسرد ، دون النزعة الأدبية الخيالية المثيرة ، إلا غراراً غراراً ، عند ترجمة بعض الأعلام ، أو الحديث عن أثر من الآثار ، أو ذكر موقعة هامة من مواقع القتال ، ونحو ذلك ، مما يثير اهتماما خاصا لدى المؤرخ ، فيجد فيه فرصة موتية تنشط لها روحه الأدبية ونزعته الخيالية ، فيفيض فى الوصف بين جو شعرى ، ويبدع ويجيد كما شاء له خياله . وقد كان كثير من المؤرخين — أو كلهم — أدباء ينظمون الشعر أو يكتبون الرسائل ، ولديهم ذخيرة موفورة من الطبع والمرانة تقدرهم على الإبداع والإجادة .

ونذكر من بينهم — على سبيل المثال — ابن خلكان وله كتاب « وفيات الأعيان »، والحافظ ابن حجر وله « الدرر الكامنة » ، وشمس الدين السخاوى وله « الضوء اللامع »، والصلاح الصفدى وله « الوافى بالوفيات » ، وأبو المحاسن بن تغرى بردى وله « المنهل الصافى » و « النجوم الزاهرة »، وتقى الدين المقريزى ، وله « الخطط » و « السلوك » ، وتاج الدين السبكى وله « طبقات الشافعية »، وشمس الدين الذهبى وله « دول الاسلام » و « طبقات الحفاظ » ، وبدر الدين العينى وله « عقد الجمان » ، والجلال السيوطى وله « حسن المحاضرة » ، وابن إياس الحنفى وله « بدائع الزهور »، إلى غير ذلك من ثمين الكتب وقيمها .

وقد نوهنا بكتب التاريخ وأسلوبها ، فى مواضع أخرى من هذا البحث ، وهى مختلفة الأساليب ، يتبسط بعضها فى العبارة تبسطا يبعدها عن إناقة الأدب وسمة الجمال ، ومنها ما النات بالعامية ألفاظها وتعبيراتها . ولكنها — بلا ريب — قد سلم من عباراتها جمل ذات خطر وأثر . ويتجلى لك هذا فى كتب تاج الدين السبكى وابن

خلكان مثلا ، وليس المقام مقام الإفاضة فى وصف أساليبها ، وإنما نجتزىء هنا ، بذكر نموذج مما راق ورق منها .

من كلام تاج الدين السبكى فى طبقاته ، يترجم لأبيه تقى الدين السبكى ، قوله :

« شيخ المسلمين فى زمانه . والداعى إلى الله فى سره وإعلانه . والمناضل عن الدين الحنفى بقلمه ولسانه . أستاذ الأستاذين . وأحد المجتهدين . وخصم المناظرين . وجامع أشتات العلوم . والمبرز فى المنقول منها والمفهوم . والمشمر فى رضا الحق وقد أضاءت النجوم . شافعى الزمان . وحجة الإسلام المنصوب من طرف الجنان . والمرجع إذا دجت مشكلة وغابت عن العيان . عباب لا تكدره الدلاء . وسحاب تتقاصر عنه الأنواء . وباب للعلم فى عصره ، وكيف لا وهو على الذى تمت به النعماء .

وكان من العلوم بحيث يقضى له من كل علم بالجميع

وكان من الورع والدين . وسلوك سبيل الأقدمين . على سنن ويقين . إن شاء الله مع المتقين . صادع بالحق لا يخاف لومة لائم . صادق فى النية لا يخشى بطشة ظالم . صابر وإن ازدحمت الضراغم . منوط به أمر المشكلات فى دياجيها . محطوط عن قدره السماء ودراريها . مبسوط قلمه ولسانه فى الأمة وفتاويها . شيخ الوقت حالا وعلما . وإمام المحققين حقيقة ورسما . وعلم الأعلام فعلا واسما .

إذا تعلل فكر المرء فى طرف من مجده عرفت فيه خواطره

لا يرى الدنيا إلا هباء منثورا . ولا يدرى كيف يجلب الدرهم فرحا ، والدينار سرورا . ولا ينفك يتلو القرآن قائما وقاعداً ، وراكبا وماشيا ، ولو كان مريضا معذورا . وكانت دعواته تخترق السبع الطباق . وتفرق بركاتها فتملأ الآفاق . وكيف لا وقد رفعت على يد ولى لله ، تفتح له أبوابها ذوات الأغلاق . وكانت يداه بالكرم مبسوطتين لا يقاس إلا بحاتم . ولا ينشد إلا على قدر أهل العزم تأتى العزائم . لا يعرف إلا العطاء

الجزل ، وتأتى على قدر الكرام المكارم . »[1]

---

٢ — رسائل وفصول فى موضوعات متنوعة :

يصادف المطالع فى الكتب الأدبية ونحوها ، رسائل « وفصول » كتبت لغرض من الأغراض الأدبية ، وهى تدل — فيما تدل عليه — على قريحة نافذة وعقلية سامية ونظر سليم .

واتبع فى تدبيجها أسلوب سهل لطيف فيه أناقة وطرافة وتأثير . طورا مسترسل لا قيد فيه . وطورا آخر بديعى مسجوع تتتابع فقراته دون أن يشودها تكلف ، أو يشينها نبو ، إلا نادراً . يسرح فيها الخيال الشعرى الجميل القائم على رائع المجازات وبارع التشبيهات .

لهذا رأينا أن نعرض هنا نماذج لتلك الرسائل والفصول من ألوان متنوعة الموضوع وسيرى القارىء الكريم أنها بباب الوصف ألصق منها بأى باب آخر . وذلك منا على سبيل التدليل والتمثيل فمن ذلك :

١ — التأليف الظاهر فى شيم الملك الظاهر :[2]

هذا كتاب فى سيرة الملك الظاهر « جقمق » أحد سلاطين مصر . حكمها بين سنتى ٨٤٢ هـ ، ٨٥٧ هـ ، وقد ألفه المؤرخ البارع شهاب الدين أحمد بن عربشاه ، مؤلف كتاب « عجائب المقدور فى نوائب تيمور » الذى سنتحدث عنه فى باب القصص .

---

١ — عن طبقات السبكى ج ٦ ص ١٤٦ ، ١٤٧

٢ — اطلعت على نسخة من هذا الكتاب مصورة تصويرا شمسيا عن مخطوط بالآستانة ، يملكها فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الزاهد الكوثرى — رحمه الله تعالى —

وكان لنا أن نختار للحديث عنه موضعا من هذا البحث آخر ، غير موضعة هنا ، أو نضرب الذكر صفحاً عنه ، لولا خصوصيات فيه ، ومظاهر جوهرية بادية عليه ، أخرجته — فى نظرنا — عن نطاق كتب التاريخ . . . والواقع ، أن سيرة جقمق ، التى ألف لها ، لم تبد فيه بدوا أصيلا ، بل عارضا ، وخاصة بالقياس إلى المعلومات الأخرى التى سيقت بجانبها .

وحسب القارىء أن يطلع على خلاصة وجيزة عن مضمون فصول هذا الكتاب الفريد حتى يرى معنا أنه ليس كتابا فى التاريخ ، و إنما هو — فى الحق — مجموعة من فصول أدبية ممتعة ، فيها أدب وحكمة وفيها خيال وحقيقة ، وفيها منطق وفلسفة ، وفيها أخلاق واجتماع .

وهو يحتوى على خطبة بديعة يتصل بها فصلان . ثم يستقل بعدهما عشرة فصول . ويبدو لنا — بهذه المناسبة — أن النسخة التى تصفحناها منه ناقصة ، وأن للكتاب فصولا أخرى مفقودة . أو على الأقل ، بقية الفصل العاشر . وذلك لأنه لم يختم الختام المألوف فى الكتب ، مما يشير إلى انتهاء تأليفها .

أما الخطبة ، فقد تضمنت بعد التحميدات والصلوات على النبى الكريم ، سطورا فى وصف الإنسان وخلقه وبراعة تصويره . وفى سيرته وسريرته وأخلاقه المحمودة والمذمومة وفى تفاوت الناس فى درجات الكمال . ثم أشار إلى اختصاص عصره بدولة الظاهر جقمق ، لما آتاه الله من ضروب الفضل والكمال . . وأخذ فى الثناء عليه و إطرائه .

أما فصلاها الملحقان بها ، فقد ذكر فى أولها ، مبدأ أحوال السلطان إلى أن صار إماما عادلا يتبوأ عرش السلطنة . وفى ثانيهما أوضح ما اختصه الله به من الأوصاف المحمودة مما ميز به الإنسان حتى صار إنساناً ، وبمقدار ما يصيب منها يرقى فى سلم الإنسانية .

أما الفصول العشرة :

فالأول : فى ذكر النفس وماهيتها وما ذكره فى ذلك حكماء الإسلام وغيرهم. وفيه تحدث عن طبيعة النفس البشرية و كنهها و تعلقها بالبدن . وعن تقسيم أفلاطون لها إلى ثلاثة أنواع : ناطقة ومحلها الدماغ ، وشهوانية ومركزها الكبد ، وغضبية ومكانها القلب . كما تحدث عن اللوامة والأمارة والمطمئنة .

والثانى : فى بيان الصفات الحميدة ومنبع الخصال السعيدة وقد أرجعها إلى العقل وقسمه قسمين : غريزى — أى خلقى — وهو مناط التكليف ، وتجربى يكتسب بالتجربة . وقد فصل الحديث عن كل من القسمين .

والثالث : فى حسن الخلق وفضله . وقد تحدث هنا عن سوء الخلق وآثاره . ثم أورد من محاسن أخلاق جقمق وفضائله وعاداته القويمة وتقاليده الدينية السليمة ، ما استحق من أجله الثناء . . .

والرابع : فى العلم وفضيلته ومزية أهله على سائر المخلوقات . وقد أسهب فى ذلك إسهابا محموداً ، مشيراً إلى احتياج الدول والملوك والحاكمين إلى العلم ، مبينا نصيب جقمق منه . . . وهو نصيب موفور أهله لولاية أمر المسلمين . والملحوظ أنه يقصد بالعلم فهم الشريعة الإسلامية والعمل بتعاليمها .

وعلى هذا النسق ، تحدث فى الفصل الخامس عن التواضع ، وفى السادس : عن الحلم والعفو والشفقة ولين الجانب ، ونحو ذلك . وفى السابع : عن شكر الله على نعمه وفى الثامن : عن التوكل والتفويض وتحمل المشاق والصبر والثبات فى الأمور . وفى التاسع : عن العدل وفضله ، وقد أسهب فى ذلك وأفاض ، وبين فى أعقاب هذا الفصل أن « جقمق » قد حاز جميع الصفات المذكورة فى الآية الشريفة : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » . —

وهذا الفصل من أبدع فصول الكتاب . وفى العاشر : عما يحتاج إليه الملوك والسلاطين مما هو قوام السلطنة والملك ، وعماد الدولة ، كاتخاذ الوزراء والناصحين وغيرهم .

والملحوظ أن المؤرخ لم يلتزم الحديث عن سلطانه فى أعقاب كل فصل من فصول كتابه . بل تحدث عنه فى بعضها دون الآخر . كما أنه حين حديثه عنه ، لم يذكر شيئا عن حوادثه التاريخية أووقائع عهده — على نمط المألوف فى كتب التاريخ . بل عنى بذكر نواحيه الخلقية فحسب . ونواحيه الخلقية المحمودة وصفاته الفاضلة فقط . وكأنى بالمؤلف افترض فى سلطانه هذا نموذجا من نماذج الكمال الإنسانى فكمل له المديح كيلا ، وأغدق عليه من آيات الحمد والتعظيم ماجعل الكتاب — فى هذه الناحية — قصيدة مدح منثورة ، لا كتاب تاريخ . ولهذا ينبغى ألا نعتمد عليه فى الناحية التاريخية إلا بمقدار . فما هو — كما أشرنا — إلا مجموعة من فصول أدبية رائعة متنوعة الموضوعات ، مطبوعة فى الغالب بطابع الوصف ، وتدل فيما تدل عليه ، على عقلية للمؤلف ممتازة زاخرة بألوان المعارف ، وعلى عارضة قوية قديرة على أداء المعانى الدقيقة بالعبارات الرقيقة .

ومن هنا نرى أن هذا الكتاب طراز آخر ، غير طراز « عجائب المقدور » ، الذى سنتحدث عنه فيما بعد .

أما أسلوبه فقد التزم فيه ، وفى مفتتح الخطبة ومفتتح كل فصل ، أن يذكر آيات من القرآن وشيئا من حديث الرسول ، تتناسب مع موضوع المقال . ويتبعها بجمهرة من أقوال الحكماء وأمثالهم وقصص التاريخ وحوادثه ، وأبيات الشعراء فى المعنى ، مما لا يدع للقارىء رغبة فى المزيد ، ويشبع ما عنده من نهم .

وجنح إلى الأسلوب البديعى المسجوع فى بعض سطوره ، وبخاصة سطور خطبته ومستهلها ، وعندما يتحدث عن « جقمق » ويجنح إلى مديحه . أما عدا هذا فالغالب على أسلوبه الطلاقة والانطلاق من البديعيات ، والاسترسال خلف المعنى بحرية فى العبارات ونظام الفقرات . وهذه إحدى المفارقات التى يُفارق بها أيضا كتاب « عجائب المقدور » الذى التزم فيه البديع والسجع .

وبعد فإليك سطورا من هذا الكتاب البديع الذى لا تجزىء فى التعريف به عجالة كهذه :

قال فى الخطبة بعد الحمد والصلاة ، يتحدث عن خلق الإنسان :

« أما بعد فإن الله تعالى ، بجميل صنعه ورحيم رأفته ، وجسيم فضله وعميم نعمته جعل الإنسان أشرف الموجودات ، وألطف المخلوقات ، وواسطة عقد الكليات . ودرة صدف الفطرة ، ومركز دائرة الحكمة ، وثمرة شجرة الوجود ، والمقصود بعبادة المعبود . قال الله سبحانه وتعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » وجاء فى حديث قدسى : « يا ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتك من أجلى » .

وللإنسان صورة وسيرة . وظاهر وسريرة أما صورته وظاهره فكما قال الله تعالى . « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » وقال تعالى : « وصوركم فأحسن صوركم » . فهو أحسن الحيوانات شكلا وأزهى . وأعجب منظرا وأعدل قامة وأصبح وجها . وأفصح نطقا ، وأطرب نغمة وألين ملمسا وأرشق حركة . وهو مركب من لطيف الجواهر وكثيفها . ففيه من كثيف الأرض ولطيف الهواء ورقيق النار وصافى الماء . ولذلك صار معتدلا وسمى العالم الأصغر المحصور فى العالم الأكبر .

بيانه : أن رأسه كهيئة الفلك فى شكله واستدارته واجتماع الأجرام النيرة فيه

كالسمع والبصر والشم والذوق والنطق . فعيناه كالشمس والقمر . وأذناه كالمشرق والمغرب . وأنفه كهب الرياح . وأمامه كالنهار . ووراءه كالليل . وحركته كسير النجوم . وسكونه كوقوفها . ورجوعه القهقرى كهبوطها . وموته كاحتراقها . وأعضاؤه الباطنة سبعة كالكواكب السيارة . وأعظم رأسه سبعة كعدد أيام الأسبوع . وقفار ظهره أربعة وعشرون كساعات اليوم والليلة . ومفاصله ثمانية وعشرون كمنازل القمر وحروف الهجاء . وأمعاؤه ثلاثون كعدد أيام الأهلة . وعروقه الضوارب ثلثمائة وستون عرقا كعدد أيام السنة . والنواكس كذلك كعدد لياليها . وطبائعه أربعة كالفصول الأربعة . وجسده كالتراب . ودمه كالبحار . وعروقه كالأنهار . وعظامه كالجبال . وشعره كالنبات .

وهذه نكتة من بدائع صورته وعجيب تركيبه . ولو أرخيت عنان الكلام فى هذا المقام لفات المقصود . » الخ .

هذا إحصاء لطيف ، وموازنة طريفة ، وأسلوب مرسل فى أكثر سطوره .

وإليك سطورا أخرى من مديحه لسلطانه ، فى أواخر خطبته وهى فقرات مسجوعة مطرزة بالحلى البديعية قال منها :

« وقد منّ الله سبحانه فى هذا العصر . وجبر هذه الأمة الضعيفة بعد الكسر . برحمة شاملة . ونعمة كاملة . ودولة عادلة . وأيام سحائب خيرها بالأمن والإحسان هاطلة . وهى الأيام السعيدة . والدولة الشريفة الحميدة . أيام دولة مولانا وسيدنا ، ومالك رقابنا . السلطان الأعظم . المالك الملك الأكرم الأفخم . سيد سلاطين العرب والعجم . والترك والديلم . خادم الحرمين . ومخدوم الثقلين . حامى العباد وماحى العناد . المؤيد بالنصر . المسدد بالفخر . الملهم سيرة العدل . المثبت من الله تعالى بالفضل والفصل . . . ظل الله فى الأرضين . ناشر رايات الخير على الإسلام والمسلمين . ماد سرادق الويل على الكفرة والملحدين . رافع ألوية الحق . ناصب ألوية الصدق . كاسر أرباب النفاق .

جازم أصحاب الشقاق . مظهر كلمة الله العليا . محفى آثار الشرك والريا . منصف المظلومين من الظالمين . مشيد سند سيد المرسلين . ملاذ الملوك ملجأ السلاطين . غوث الملهوفين والضعفاء . مربى العلم والعلماء الملحوظ بالعناية الأزلية . الملفوظ بالولاية الأبدية . مولانا السلطان الملاك الملك الظاهر أبى سعيد حقيق . » الخ

---

٢ — تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم : [1]

هذا الكتاب فريد فى بابه ، ونسيج وحده . وحقه أن يدرس دراسة مفصلة مستقلة تبرز ماهيته وتكشف الكثير مما سنه وسجله من صائب الآراء فى الآداب والتربية .

وقد ألفه القاضى الفقيه والعالم الأديب « بدر الدين بن جماعة الكنانى المتوفى عام ٧٣٣ هـ » . وموضوعه أوسع بكثير مما يدل عليه عنوانه . فهو فى وصف التربية الإسلامية ، وماسنته من آداب ينبغى للعالم المتصدى للإفادة أن يتحلى بها ، ومارسمته من تعاليم ينبغى للطالب المتصدى للاستفادة أن يتبعها .

وآداب العالم وأخلاقه العلمية لاتقف عند أداء دروسه فحسب : وإنما هناك أمور ينبغى له ملازمتها ، والدأب على الاتصاف بها ، رعاية لحرمة علمه وإتماما لأداء رسالته . ومن ذلك : دوام مراقبته لله تعالى ، والتزام جانب السكينة والوقار ، وتعظيمه لما يحمله من علم ، فلا يضع من شأنه ولايحط من قدره بنفاق أو مراءاة لأمير أو عظيم ، وجنوحه إلى الزهادة فى الدنيا ، والركون إلى القناعة حتى لاتستعبده الحاجة ، والتنزه عن المطامع ، والربوء بنفسه عن دنىء المكاسب ، واجتناب مواضع الشبهات ومزالق الريب ، والعكوف على عبادة الله ، والتحلى بكل مكرمة من مكارم الأخلاق مع البعد عن الحسد والحقد . إلى غير ذلك من دواعى الكمال .

---

١ — تصفحت نسخة من هذا الكتاب ، مطبوعة فى حيدر أباد الدكن بالهند عام ١٣٥٣ هـ تحت إدارة جمعية دائرة المعارف العثمانية .

وقد بين ابن جماعة كل ذلك مدعوما بالآيات والأحاديث ، وآراء كثير من فقهاء الأمة وكبار مفكريها ، مع بيان المزايا الناتجة منها .

ثم بين آداب العالم ، التى ينبغى له اتباعها لأداء درسه . أو قل « العادات والتقاليد الإسلامية » التى عليه انتهاجها فى ذلك . فتحدث عن صفة الجلوس فى الدرس ، واجتناب الأعمال المكروهة فيه . ونهى عن مزاولة التدريس فى الأوقات التى يغلب فيها الحر أو البرد أو النعاس أو الجوع أو العطش . وتحدث عن حركات المدرس فى درسه ، وعن وجوب اقتصاده فى الالتفات إلى الحاضرين وقت الدرس ، وعن آداب افتتاح الدرس وختمه ، والاقتصاد فى رفع الصوت ، والبعد عن اللغط والعناية بترتيب أجزاء الدرس ، وطرق معاملة المستهين من الطلاب بدرسه ، والحث على التودد إلى غرباء الطلاب . والعناية بحسن ترتيب الطلاب ، وتأديبهم مع التدرج فى ذلك ، والصبر حين شرح الدرس وتفهيمه لهم ، والتسوية بينهم فى المعاملة ، والسؤال عن الغائبين منهم . . إلى غير ذلك .

كذلك آداب المتعلم وأخلاقه العلمية لا تقف عند تلقى درسه فحسب . وإنما هناك أمور ينبغى له ملازمتها والدأب على التحلى بها ، حتى يصل إلى ما يصبو إليه أمله من تحصيل العلم . ومن ذلك : إخلاص النية فى طلب العلم ، والمبادرة إلى تحصيله فى أوقات الشباب ، والتغرب عن الأهل فى سبيله ، والتفرغ من الشواغل الأخرى ، والقناعة باليسير ، وتنظيم الوقت وتقسيمه بين الحفظ والمطالعة والمذاكرة . والتورع والتمسك بأهداب الدين ، والبعد عن الأطعمة الضارة ، والتقليل من النوم ، وإراحة النفس عند الملل ، والتفرج بالخروج إلى المتنزهات ، وجواز التزوج لما فيه من حفظ الصحة ، والعناية باختيار الرفيق ، وتعظيم العلماء . والأخذ عمن منهم تنتظر لإفادة . . . إلى غير ذلك

والحق أننا لا نستطيع فى هذا المجال ، إيفاء هذا السفر القيم ، حقه من حسن العرض ،

لما تضمنه من وافر المسائل ، وواسع النظريات التربويه ، التى تحتاج فى عرضها وفهم ومناقشتها ومقارنتها بغيرها ، إلى ميدان آخر ، ومقال أوسع . وحسبنا أن نشير إلى أن المؤلف انبث بنظراته الفاحصة ، وبقلمه الحصيف ، فى نواح شتى من نواحى المدرسة : معلمها وطالبها ، والسيطرة عليها ، ونظم التعليم بها ، وطرق الاتصال فيها ، وغير ذلك ، فضلا عن النواحى الخلقية ، فأجاد فى الحديث عن ذلك كله حديثاً إسلامياً تبدو فيه روح التربية الإسلامية عامة ، وفى عصر المؤلف خاصة .

والكتاب ، بعد هذا ، منظم الأبواب والفصول ، مستقيم الترتيب ، مبنى على خمسة أبواب :

الأول : فى فضل العلم وأهله وشرف العالم ونسله .

الثانى : فى أدب العالم فى نفسه ومراعاة طالبه ودرسه .

الثالث : فى أدب المتعلم فى نفسه ، ومع شيخه ورفقته ودرسه .

الرابع : فى مصاحبة الكتب وما يتعلق بها من الأدب .

الخامس : فى آداب سكنى المدارس للمنتهى والطالب .

وعبارة المؤلف ، فى جملتها رائقة رقيقة واضحة المرامى ، وهى وإن كانت مدعومة بالآيات والأحاديث وآراء السابقين ، للمؤلف فيها شخصية بارزة ، تتجلى بسعة الإحاطة وحسن الاطلاع ، وأناقة الترتيب وعدم الخلط بين الموضوعات ، ودقة التصوير ، وعذب الحديث وأدب التعبير . وقد أرسل قلمه على سجيته ، ولم يقيده ببديع إلا لماما لماما ، ودون تكلف أو تعسف .

ولا يسعنا ونحن نختتم الحديث عن هذا الكتاب القيم ، إلا أن نعرض منه سطورا دالة عليه دلالة الشعاع على الشمس ، والقطرة على رحيق الكأس .

---

١ — قال فى أول الفصل الأول من الباب الثالث ، متحدثا عما ينبغى للطالب أن يتجمل به من طهر القلب وخلوص النية لطلب العلم :

« أن يطهر قلبه من كل غش ودنس ، وغل وحسد ، وسوء عقيدة وخلق . ليصلح بذلك لقبول العلم وحفظه ، والاطلاع على دقائق معانيه ، وحقائق غوامضه، فإن العلم — كما قال بعضهم — صلاة السر ، وعبادة القلب ، وقربة الباطن ، وكما لا تصلح الصلاة التى هى عبادة الجوارح الظاهرة إلا بطهارة الظاهر من الحدث والخبث ، فكذلك لا يصح العلم الذى هو عبادة القلب إلا بطهارته عن خبث الصفات ، وحدث مساوىء الأخلاق ورديئها .

وإذا طيب القلب للعلم ظهرت بركته ونماؤه ، كالأرض إذا طيبت للزرع نما زرعها وزكا . وفى الحديث : « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

وقال سهل : « حرام على قلب أن يدخله النور ، وفيه شىء مما يكره الله عز وجل » .[1]

٢ — وقال أول الفصل الثانى من الباب الثالث ، متحدثا عما ينبغى للطالب من اختيار شيخه محذرا من التقيد باختيار المشهورين من العلماء ، دون غيرهم :

« إنه ينبغى للطالب أن يقدم النظر ويستخير الله فيمن يأخذ العلم عنه ، ويكتسب حسن الأخلاق والآداب منه . وليكن — إن أمكن — ممن كملت أهليته ، وتحققت شفقته ، وظهرت مروءته ، وعرفت عفته ، واشتهرت صيانته ، وكان أحسن تعليما ، وأجود تفهيما . ولا يرغب الطالب فى زيادة العلم مع نقص فى ورع أو دين ، أو عدم خلق جميل .

فعن بعض السلف : « هذا العلم دين ، فانظر عمن تأخذون دينكم . »

---

١ — تذكرة السامع والمتكلم ص ٦٧ .

وليحذر من التقيد بالمشهورين ، وترك الأخذ عن الخاملين . فقد عد الغزالى وغيره ذلك من الكبر على العلم ، وجعله عين الحماقة ، لأن الحكمة ضالة المؤمن ، يلتقطها حيث وجدها ، ويغتنمها حيث ظفر بها ، وينقلد المنة لمن ساقها إليه . فإنه يهرب من مخافة الجهل كما يهرب من الأسد . والهارب من الأسد لا يأنف من دلالة من يدله على الخلاص كائنا من كان . » [1] .

---

٢ — سكردان السلطان : [2]

هذا كتاب ألفه شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى المتوفى عام ٧٧٦هـ . وأهداه إلى سلطان مصر الناصر حسن بن الناصر بن قلاوون .

ومعنى « سكردان » آنية السكر [1] . أما موضوعه فهو غريب إذ يتركز حول العدد « سبعة » . فقد جمع فيه مؤلفه ألوانا من المعارف والمصادفات والنوادر ، ذات الصلة الوثيقة بالحياة المصرية والتاريخ المصرى ، واتسمت كلها بهذا العدد « سبعة » . وقد لا تجمع بينها جامعة فى نوعها ، أو موضوعها ، أو غير ذلك ، سوى هذه الجامعة ، ويظن المطالع أن لا صلة بينها ولا رابطة . فاستطاع المؤلف بثقوب بصره وحدة نظره ، أن يجد بينها المناسبة الجامعة ، وهى اشتراكها فى هذا العدد « سبعة » .

وقد دلل المؤلف على أن العدد المذكور ، دون سائر الأعداد ، طابت له الإقامة فى مصر ، فاتخذها موطنا لا يريم عنه . فجرى كثير من حوادثها وملابساتها ، متسما به دون سواه من الأعداد .

خذ مثلا : يوسف الصديق عليه السلام ، رأى الرؤيا بمصر ، وهو ابن سبع سنين

---

١ — تذكرة السامع والمتكلم ص ٨٥ ٢ — سكردان السلطان مطبوع .

٣ — انظر كتاب « اكتفاء القنوع » فى حرف السين .

ورأى ملك مصر فى أيامه رؤياه المشهورة ، وفيها سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . وقد تحققت الرؤيا وفق ما فسرها به يوسف الصديق .

وإليك الحاكم بأمر الله الفاطمى : لبس الصوف سبع سنين . وأوقد الشمع ليلا ونهارا سبع سنين . ومنع النساء من الخروج ليلا ونهارا سبع سنين وسبعة أشهر . وكان يقرأ نسبه على المنبر كل سبعة أيام . وأنه قتل وهو يلبس سبع جبات مزرورة عليه .

وأما السلطان الناصر حسن — الذى أهدى الكتاب إليه — فإنه وافق أباه الناصر محمدا فى سبعة أمور هى :

اللقب ، وترك السلطة والعودة إليها ، والجلوس على العرش فى المرة الأولى يوم ١٤ فى الشهر ، وفى المرة الثانية يوم ٢ شوال ، وأنه اتخذ وزيرا من المتعممين ومن أرباب السيوف ، وأنه حكم مرة دون وزير أو نائب سلطنة .

هذا ويحسن بنا أن ننوه بمشتملات الكتاب . فقد رتبه على مقدمة وسبعة أبواب ونتيجة .

وفى المقدمة : أجمل ذكر عدة حوادث مما وقع بالبلاد المصرية من متسمات العدد « سبعة » .

وفى الباب الأول : تحدث عن خاصية العدد « سبعة » وشرفه ومزيته على غيره من الأعداد .

وفى الثانى : عن العلاقة بين السلطان حسن والعدد «سبعة» .

وفى الثالث : عن إقليم مصر الذى عاش فيه العدد « سبعة » ذاكرا نبذة حسنة من أخبار هذا الإقليم وحوادث القاهرة وأنباء النيل وما اتصل بذلك .

وفى الرابع : عن السلطان حسن وأنه سابع من جلس على سرير الملك ، من إخوته . مع نبذة يسيرة فى أخبار من تقدمه من ملوك الترك بمصر .

وفى الخامس : عن تاريخ الناصر حسن وإخوته وأبيه وعميه وجده . « وكلهم من أسرة قلاوون » .

وفى السادس : نوه بجملة حوادث عجيبة مما وقع لهؤلاء السلاطين ، لم يسبقه إلى تأثرها أحد — كما يقول —

وفى السابع : فسر شيئا مما أجمله فى خطبة الكتاب ، وما تحدث به فى الباب الخامس ، وتكلم عن الآثار النبوية . وهذا الباب ملىء بالنكت والنوادر الأدبية .

أما النتيجه : فهى أوسع مما تقدم مدى . وأرحب صدرا وأبسط حديثا . وفيها تدليلات وتوضيحات لما أبهم وتفصيلات لما أجمل فى المقدمة . وهى تشتمل كذلك على « سبعة » أبواب . فالأول فى قصة يوسف وقد فسر فيه سورة يوسف تفسيرا لطيفا . والثانى فى قصة فرعون وموسى . والثالث بسط فيه الكلام عن ملوك مصر وعجيب حوادثهم ومتفقات حياتهم . والرابع فى سيرة الحاكم بأمر الله الفاطمى . والخامس فى ذكر بعض حوادث مصر . والسادس فى ذكر حوادث القاهرة وضواحيها ، وفى الأهرام وغيرها ، والسابع فى ذكر الزهرات السبع التى اجتمعت فى صعيد واحد وما قيل فيها من منظوم الكلام ومنثوره ، وغير ذلك .

هذا . وقد حرص المؤلف على أن يختم كل باب بخاتمة خاصة به ، مناسبة له .

ومن هذا العرض اليسير يتضح لنا جملة من المعارف والحوادث والنوادر المتباعدة التى ربط بينها المؤلف تحت راية العدد « سبعة » وكلها ذات صلة وثيقة بمصر . وهى تدل على سعة إحاطته ولباقة تأليفه .

وقد بين محتوياته بقوله فى خطبته :

« وسميته « سكردان السلطان » لاشتماله على أنواع مختلفة من جد وهزل ، وولاية وعزل . ونصيحة ملوك . وآداب وسلوك . وسير وعبر . وتغيير دول . وانتحال ملل . وقطع طريق . وجر مجانيق . وأفعال مكرة . وأعمال سحرة : وبيان وتبيين . ومدح وتأبين . ويقظة ومنام . وبر وآثام . وقال وقيل . وأهرام ونيل . وغرائب وعجائب . مما تلقفته من أفواه الشيوخ الأجلة . ورويته عن كثرة وقلة . وشاهدته بعين الحقيقة . والتقطته من التواريخ المعتمدة عليها ، التقاط الزهر من الحديقة . » .

والأسلوب فى كثير من سطوره عذب سائغ مطلق دقيق اللفظ ، أسبغ عليه المؤلف من شخصيته المرحة الفكهة الحكيمة ، وإن كان مملوءا بالاستشهادات والأقوال المنقولة .

وإليك سطورا مما كتبه فى خاتمة الباب الرابع ، وفيها يجنح إلى الحكمة ويضرب المثل ويسوق التشبيه : وموضوعها : الحديث عن البغى وأن الله نصر الناصر بن قلاوون على من بغى عليه . وقد لاحظ هو بهذه المناسبة سبع ملاحظات قال :

« أولها : أقول : « قد تقدم أن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون — والد مولانا السلطان — أعز الله تعالى أنصاره — كان ممن نصره الله تعالى على من بغى عليه لأنه كان يقال : « ما أعطى البغى أحدا شيئا ، إلا أخذ منه أضعافه » . وكان يقال : ما اجتمع الملك والبغى على سرير إلا خلا . وكان يقال : الملك الحازم ينال غرضه من عدوه بأربعة أشياء : باللين والبذل والمكيدة والمجاهرة بالعداوة فى آخر وقت إذا رأى الفرصة . كما اتفق للملك الناصر — رحمه الله تعالى —

ومثال هذه الأشياء الأربعة التى ذكرتها مثال الخراج الذى يخرج فى بدن الإنسان فإن علاجه فى أول أمره : التحليل ، فإن لم ينفع فالتليين والإنضاج . فإن لم ينجح فالبط . فإن لم يكف فالكى ، وهو آخر العلاج . ولهذا قيل : « آخر الطب الكى » . فإن استعمل أحد هذه الأشياء الأربعة المذكورة مكان الآخر كان ذلك فساداً فى

التدبير ، بل يستعمل على الترتيب المذكور . و إلى الله عاقبة الأمور »

ثم أكمل حديثه حتى أتمها سبعا .

ونحب أن نعقب على هذا الكتاب بملاحظتين .

الأولى : أننا لانذهب مذهب المؤلف فى أن العدد « سبعة » مستوطن فى مصر ، وعلى الأفق ، دون سواه من الأعداد . وأن ما جمعه المؤلف من حوادث السبعة من مصادفات الأقدار .

الثانية ، وهى أهم : أننا لا نرى مندوحة من أن نذكر أن لصلاح الدين الصفدى كتابا اسمه « طرد السبع فى سرد السبع » وهو كتاب مفقود . وقد اختصره جلال الدين السيوطى وزاد عليه أشياء من عنده وسماه « عين النبع فى مختصر طرد السبع » ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية . ومنه نستطيع أن نعرف ماهية « طرد السبع » . ويحتوى على ٢٩٦ صفحة مكتوبة بخط لايكاد يرى بالعين المجردة ، وفى كل صفحة ٢٩ سطرا .

وقد تصفحت هذا المخطوط فوجدته قد جمع فأوعى . وحشد من المعلومات ما لاحد له . وكلها متسم بهذا العدد « سبعة » ، وهو أوسع أفقا من « سكردان السلطان » إذ تحدث عن صلة العدد « سبعة » بالقرآن والحديث والقراءات والتفسير والفقه والأصول وعلوم العربية وغيرها ، وبين عجائب وجوده فى الشعر والنثر والمجون والتاريخ . وتكلم عن الأئمة السبعة والأقاليم السبعة والبحار السبعة والمعادن السبعة وأيام الأسبوع والأزهار السبعة ، إلى غيرذلك . فهوموسوعة جامعة لهذا العدد وحياته فى شتى المعارف والأحداث الإنسانية ، وهو جدير بالإحياء والدراسة المستقلة .

غير أن أسلوبه جانح إلى التعبير العلمى وحشد المعلومات حشدا ورصها رصا ، دون أن يضفى عليها ثوبا أدبيا ، أو أن يؤلف بينها تأليف الطاقة لأزهارها ، لهذا زايله

الصوغ الفنى والقالب الأدبى . ومن هنا آثرنا أن ننوه به فى ذيل حديثنا عن « سكردان السلطان » الذى صبه مؤلفه فى قالب أدنى إلى الأدب والفن .

ونلفت إلى أنه يبدو لنا أن ابن أبى حجلة استوحى فكرة كتابه من فكرة الصفدى فى « طرد السبع » ، والمسألة فى حاجة إلى بحث . وذلك أن ابن أبى حجلة ألف كتابه — ولا ريب — بعد عودة الناصر حسن إلى عرشه . وقد عاد سنة ٧٥٥ هـ ـ ولبث به حتى قتل عام ٧٦٤ هـ . والصفدى معاصر لهما وقد توفى عام ٧٦٤ هـ — والله أعلم .

---

٤ — ديوان الصبابة :

مؤلفه شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى أيضا . وموضوعه ـ كما يبدو من عنوانه ـ فى وصف الصبابة وذكر ما يتصل بها وما قيل فى ذلك شعرا ونثرا . وهو ديوان جليل فى وصف العشق وما إليه ، يقع فى نحو ٢٥٩ صفحة .

وقد رتبه المؤلف على مقدمة وثلاثين بابا وخاتمة .

أما المقدمة فقد تحدث فى فصولها عن العشق ورسمه واشتقاقه وأسبابه وعلاماته ومراتبه وأسمائه ، ومدحه وذمه ، واختلاف الناس فيه ، وهل هو اختيارى أو اضطرارى . وروى ما عرفه به الفلاسفة والشعراء ومن شابههم . ومنهم فيثا غورس وأفلاطون وأرسطو ، ومنهم الجنيد والأصمعى . وأما الأبواب الثلاثون فكل منها مستقل ببحث خاص متصل بالعشق ، فمنها باب فى الفارق بين الحسن والجمال وما قيل فى ذلك . وباب فى ذكر المحبين والظرفاء من الملوك والخلفاء . وباب فى ذكر من عشق على السماع . وباب فيمن نظر أول نظرة . وباب فى تغير الألوان . وباب فى الغيرة . وباب فى إفشاء السر والكتمان . وباب فى مغالطة الحبيب واستعطافه ، وتلافى غيظه وانحرافه . وهكذا أبواب أخرى فى الرسل والرسائل والطيف وقصر الليل وطوله والعذول

والفضول ، والإشاره والزيارة والعتاب والاجتماع والرضا والهجر . . الخ . ومنها أبواب فى الوصف، منها : فى وصف الردف والقد والخدورمان النهود . ومنها : أبواب فى أخبار المطربين من الرجال والنساء ، وذكر من ابتلى بحب النساء والغلمان ، ومن اتصف منهم بالعفاف . . .

وأما الخاتمة ففى ذكر من مات بسبب حبه ، وما يتصل بذلك .

ومنهجه فى الحديث أن يشير إلى موضوعه شارحا موضحا بما يعرفه وينقله من آراء المتقدمين عربا أو غير عرب وذاكرا ما ناسبه من الأحداث والوقائع والقصص ، راويا ما قيل فيه من شعر أو نثر .

وأسلوبه أسلوب الأديب الذى هضم معلوماته الكثيرة هضما تاما ومزجها بما هدته إليه فطرته من فهم للحب وما يتصل به ، فحاك ذلك حوكا بارعا بيد صناع ماهر ، فبدت معلوماته نسجا جديداً وحوكا مستحدثا .

ومع تشعب موضوعاته وكثرة استشهاداته قل أن تجد منه شذوذا فى عبارة أوضعفا فى صلة بين معنى ومعنى ، أو ركاكة فى الانتقال من غرض إلى غرض . وهذا مما يدل على سعة اطلاع وقوة فهم وحسن تصرف وامتلاك لأزمة التعبير ، مع حسن استحضار ولباقة فى الاستشهاد بالمناسب . ولا تشعر منه وأنت تقرؤه بأنه يكد خاطره أو يروض لسانه أو يستجدى قريحته ، يقول :

« الحمد لله الذى جعل للعاشقين بأحكام الغرام رضا . وحبب إليهم الموت فى حب من يهوونه فلا تكن يا فتى بالعذل معترضا . . . فكم فيهم من عاشق . ومحب صادق.

رأى فهام[1] فرام الوصل فامتنعوا فسام صبرا فأعيا نيله فقضى

أحمده حمد من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . وشبب بذكر محبوبته

---

١ — فى الأصل : « حب » رأينا تصحيحها : فهام

إن كان تهاميا فى حجاز ، أو شاميا فى نوى .

طوراً يمان إذا لاقيت ذا يمن وإن لقيت معديا فعدنانى

ويقول مشيدا بكتابه :

« على أن جماعة من العصريين غلبوا من تقدم بالتأليف فى هذا الباب . ولم يفرق غالبهم فى التشبيب بين زينب والرباب

وكل يدعى وصلا بليلى وليلى لا تقر لهم بذا كا

فربع كتابنا هذا بذكر العامرية معمور . وهو بالنسبة إلى ما ألفه الشهاب محمود ، مشكور . ومن وقف عليه علم صحة هذا الكلام . وأنشد فى تصديق هذه الدعوى: إذا قالت حذام . مؤلف طوق الحمامة بالنسبة إلى حجلته يحجل . وصاحب منازل الأحباب ممن عرف المحل فبات دون المنزل .

وعذرت طيفك فى الجفاء لأنه يسرى فيصبح دوننا بمراحل

فيا دارها بالخيف إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال »

ومن كلامه :

« قال الجنيد فى تعريف العشق : العشق ألفة رحمانية وإلهام شوق أوجبها الله تعالى على كل ذى روح لتحصل به اللذة العظمى التى لا يقدر على مثلها إلا بتلك الألفة»

ومنه :

« قيل لبعض العلماء : « إن ابنك قد عشق » . فقال : « الحمد لله الآن رقت حواشيه . ولطفت معانيه وملحت إشاراته . وظرفت حركاته . وحسنت عباراته . وجادت رسائله وجلت شمائله . فواظب على المليح ، واجتنب القبيح . »

وبعد فأحسب هذا الكتاب فريداً فى أدب العرب فى موضوعه ، وأملاً

الكتب فيه بالحديث عن الصبابة .

---

٣ — شروح الرسائل والقصائد :

عنى كثير من أدباء العصر بشرح الرسائل أو القصائد المشهورة ذات الأهمية فى عالم الأدب . وهذه الشروح ثروة أدبية قيمة .

أما الرسائل فلا نكاد نجد منها غير رسالتين هما رسالتا ابن زيدون الهزلية والجدية.

أما الهزلية فقد عنى بشرحها جمال الدين بن نباتة المصرى وسمى شرحه « سرح العيون ».

والجدية عنى بشرحها صلاح الدين الصفدى ، وسمى شرحه « غام المتون ».

والقصائد الشعرية التى حظيت بالشرح — وربما بالشروح — كثيرة العدد ومنها: بردة البوصيرى ، وشراحها كثيرون منهم : الجلال المحلى ، والشهاب الأقفهسى ، وخالد الأزهرى .

وهمزية البوصيرى ومن شراحها : شمس الدين الجوهرى القاهرى .

وقصيدة « بانت سعاد » وقد شرحها جمال الدين بن هشام المصرى .

وتائية عز الدين بن جماعة وقد شرحها الفيروز ابادى صاحب القاموس المحيط .

ولامية الطغرائى وشرحها الصلاح الصفدى فى كتابه « الغيث الذى انسجم فى شرح لامية العجم » . وشرحها كذلك جلال الدين السيوطى شرحا وجيزا فى كتابه « الكنز المدفون » .

والقصائد البديعية ، ولكل منها شرح أو أكثر . وأبدع شروحها « خزانة الأدب » لابن حجة الحموى، شرح فيها بديعيته التى عارض بها الصفى الحلى والعز الموصلى.

وبهذه المناسبة نوجه نظر الباحثين إلى أن هذه الشروح تصلح موضوعا لبحث طريف مستقل .

أما منهج الشارحين فمختلف :

منه منهج شارحي البديعيات ، فقد اتجهوا فى أسلوبهم إلى الناحية العلمية وتعريف الأنواع البديعية أكثر مما عنوا بالأسلوب الفنى والروح الناقدة .

ونستثنى من هؤلاء ، ابن حجة الحموى، فهو و إن كان معنيا مثلهم بتعريف الأنواع البديعية والموازنة بين التعاريف المختلفة المأثورة عن البلاغيين ، نجد شرحه « خزانة الأدب » امتلأ بالموازنات والترجيحات والتوجيهات والاستشهادات وبيان محاسن النصوص ومساوئها وتعليل ذلك تعليلا مرد كثير منه إلى الذوق . وبذلك أصبح صاحب منهج ممتاز بينهم بما تمشى فى أسلوبه من أدب الأسلوب وروح النقد. فكانت عباراته أدنى إلى النثر الفنى منها إلى سواه . وقد أشبعنا الحديث عن ابن حجة وخزانته فى « باب النقد » الآتى بعد .

أما الشروح الأخرى فالمنهج الغالب عليها ، العناية بتفسير المفردات تفسيرا لغويا ، وشفعها ببيان بعض الحوادث التاريخية والوقائع الأدبية التى يدفع إليها توجيهات الشاعر أو الكاتب . وندر أن تجد فى أساليبهم هذه أناقة الأديب ، أو دقة الفنى ، وقصارى حديثهم القص والسرد ، دون عناية بجمال التراكيب .

و إليك وجازات عاجلة عن بعض هذه الشروح ومناهجها ، من باب الاستدلال:

١ — شرح العيون: ألفه جمال الدين بن نباته المصرى فى شرح رسالة ابن زيدون الهزلية التى تهكم فيها على لسان ولادة بنت المستكفى ، بالوزير ابن عبدوس .

وقد حشد فيها كثيرا من الأمثال والحكم والأبيات الشعرية والأقوال المأثورة عن السابقين ، مع الإشارات اللطيفة إلى كثير من حوادث التاريخ ووقائع الأدب .

وقد بدأ ابن نباتة هذا الشرح بترجمة ابن زيدون ووصف طريقته فى الكتابة، وتحدث عن صلته بولادة و بابن عبدوس . ثم أخذ فى شرح الرسالة بأن تحدث عنها

فقرة فقرة . فيفسر مفردات الفقرة تفسيرا لغويا ثم يبين ما يراد منها من المعانى ، ويشير إلى مآخذ ما تضمنته من مثل أو حكمة أو شعر أو قول مأثور أو نحو ذلك ، معرجا على قائلها متحدثا عن تاريخه . وهكذا يتحدث عن كل علم ورد اسمه فيها . لهذا ترى أنها ذات قيمة فى تاريخ الأدب وأعلامه .

وقد غلب عليه فى أسلوبه القص والمحادثة والنقل والإيجاز ، على أنه مع هذا أسلوب عذب مشرق مطلق من قيود البديع ، واضح المرامى . ماعدا خطبة الكتاب فهى ذات فقرات مسجوعة بديعية .

تمام المتون : ألفه صلاح الدين الصفدى فى شرح رسالة ابن زيدون الجدية ، التى استعطف بها ابن جهور وتبرأ فيها مما نسب إليه . وشرحه ينحو نحو التفسير اللغوى والإعراب والاستشهاد على المعانى اللغوية بنصوص أدبية أخرى مابين شعر ونثر وآيات وأحاديث ، مع الاستطراد إلى كثير من الأبيات الرائعة والحكم الشائقة . مع تعريج أحيانا على البديع وأنواعه وشرحها حسب المناسبة ، ودعم الشرح بالاستشهاد بالشعر والنثر ، وعنى كذلك بشرح المعانى الإجمالية للتراكيب .

وقد أسهب فى بعض المواضع ، مثل كلامه فى الفروق بين « المولى والسيد » فتحدث عما تقصده العرب من كل منهما ، وأيهما أولى بالتقديم ، وهل يطلقان على الله سبحانه وتعالى ، إلى غير ذلك .

وقد أشار عند شرح كل فقرة إلى النص الأدبى وصاحبه موضحا جميع الأمثال والحكم والحوادث تاريخية وأدبية مايعرض فى سطور الرسالة ، مستطردا إلى مالابسها من حكايات أو آثار أدبية شعرا أو نثرا . ومن ذلك مقتل عثمان ومقتل على ، وصلة المعرى بالشريف الرضى ، ودفاعه عن المتنبى ، إلى غير ذلك .

ويغلب الإيجاز على هذا الشرح فى جملته ، وأسلوبه أقرب إلى الأسلوب

العلمى منه إلى الأدبى ، فهو حديث مسرود لا أناقة فيه ، ولا جمال فى تراكيبه ، إلا نادرا .

---

٣ — شرح البردة : لزين الدين خالد الأزهرى ، وهو رجل نحوى لغوى . وشرحه هذا موجز لطيف سهل المأخذ لعدم عقادة أسلوبه . وقد تحدث الشارح فى أوله عن براعة مطلع القصيدة وما تضمنه من المعانى . وقد اتبع منهجا فى شرح كل بيت على حدة ، لم يحد عنه . وذلك بأن يبدأ بتفسير معانى مفرداته تفسيرا لغويا ، ثم يعرب البيت بأجمعه ، ثم يشرح معناه شرحا إجماليا . ويضمن هذا فوائد نحوية وبلاغية قيمة .

---

٤ — شرح بانت سعادة : لجمال الدين بن هشام المصرى والأديب النحوى المشهور . أنه — كما قال — تيمنا ببركات النبى عليه السلام ولإسعاف طالبى العربية بفوائد جليلة وقواعد عدة . وهو على نمط من الشروح المتقدمة ، وقد بدأه بترجمة صاحب القصيدة وبيان سبب نظمها . وضمنها — فضلا عن الفوائد النحوية — طرفا أدبية شائقة مثل كلامه عن التشبيب وأنواعه عند أهل الأدب .

---

٥ — الغيث المسجم فى شرح لامية العجم : اضطرب مؤرخو الأدب فى هذا العنوان ، فهو الغيث المسجم مرة ، والغيث المنسجم مرة أخرى ، أو الغيث الذى انسجم . ومهما يكن من شىء ، فأحسب هذا الشرح من أجمل شروح القصائد وأفضلها وأوسعها .

وواضعه هو صلاح الدين الصفدى ، شرحا لقصيدة الطغرائى اللامية المشهورة بلامية العجم . وإليك فقرة من خطبته تبين لك منهجه فيه قال :

« وقد أحببت أن أضع عليها شرحا يزيد جيدها فرائد . وقصيدتها فوائد . مما سمعت فوعيت . وجمعت فأوعيت . ولا أغادر فيها لغة ولا إعرابا ولا إيضاح معنى ولا إغراباً . ولا مايضمه إليها سلك أو يدخل معها جرابا . إلا نبهت عليه . وأشرت بحسب الإمكان إليه .

هذا ، إلى ما يستطرد إليه الكلام من نكتة . ويعترض جملة ذكره بغتة . ويبديه الضمير على لسان القلم وكم للسان من فلتة . » .

وهذه الخطبة أو المقدمة طويلة بلغت نحو ٥٣ صفحة ، مملوءة بالاستطرادات القيمة والطرف النافعة ، تحدث فيها عن العلم والشعر وأورد أقوال المتقدمين فى بابيهما ، وذكر مولد الطغرائى وشيئا من حياته وطرفا من شعره مبينا مافيها من ملاحة وجمال ، واستطرد إلى ذكر الكيمياء واشتغال بعض الأدباء بها وما وُرّى به من مصطلحاتها فى الشعر . إلى غير ذلك من اللطائف الأدبية المتنوعة . ففيها الجد والهزل ، والفكاهة والمجون ، والحكمة والمثل ، والغزل والوصف . وفيها طائفة من شعر معاصرى الشارح كابن نباتة ، والشهاب الحلبى . ولم تخل هذه المقدمة النافعة من الموازنات والنقد .

وقد أخذ بعد ذلك ، يتحدث عما يتعلق بالقصيدة من علمى العروض والقافية متعرضا لأقوال الفلاسفة والمناطقة والعلماء فى ذلك .

ثم أخذ فى شرح القصيدة ، وهى مليئة بالحكم والأمثال والفخريات ، مع رصانة التراكيب وجزالة العبارات وعذوبتها . فتحدث عنها بيتا بيتا . وكأنى به عند الحديث عن البيت ، لم يترك شوقاً للقارىء إلى فائدة ، إلا بل أوامه بتعجيلها إليه . فشرح المفردات شرحا لغويا وبين اشتقاقها ، والمعنى العام من البيت ، واستطرد منه إلى طرف لغوية وفقهية وأدبية وتاريخية لا تعد ، مع مفاضلات وموازنات ونصوص من شعره وشعر معاصريه .

ومن هذا وذاك ترى مبلغ أهمية هذا الشرح ، وأنه سجل لأدب عصر الشارح .

ودليل على طول باعه فى علوم العربية وغيرها .

وأسلوبه فى المقدمة أغلبه بديعى مسجوع . وجنح فى صلب الكتاب إلى التحدث والقص دون عناية كبيرة بأناقة التراكيب ، مائلا أحيانا إلى الخيال ، وأحيانا إلى المنطق ، حسب مناسبة الحديث والموضوع . ولم يخل من دقة فى أداء المعانى .

وإليك سطورا وجيزة من هذا الشرح .

قال فى المقدمة متحدثا عن العروض والشعر واختلاف الآراء فيهما :

« وأقول أنا : العروض آلة قانونية تعصم مراعاتها الإنسان عن أن يضل فى وزن شعر العرب . وهذا الاحتراز الأخير أتيت به لأن اللغة اليونانية فيها شعر ، ولهذا نسمعهم يقولون : « سولون الشاعر » . « وقال أرسطو حكيم اليونان وخطيبهم وشاعرهم » . وليس الشعر عندهم مايكون ذا وزن وقافية ، ولاذلك ركن فيه . بل الركن فى ذلك إيرادُ المقدمات المخيلة فحسب . فإن كانت المقدمة التى ترد فى القياس الشعرى مخيلة فقط ، تمحض القياس شعريا . وإن انضم إلى المقدمة قول إقناعى تركبت المقدمة من معنيين : شعرى وإقناعى . — قال أرباب المنطق : « القياس الشعرى قول مؤلف من مقدمات مخيلة تؤثر فى النفس تأثيرا عجيبا من قبض أو بسط . » كقول القائل : مح البيض عذرة . والخمر ياقوت سيال . فالأول يؤثر فى النفس انقباضا . والثانى انبساطا .

وذكر لى العالم العلامة شمس الدين محمد بن ابراهيم بن ساعد الأنصارى ، أن الشعر اليونانى له وزن مخصوص ولليونان عروض لبحور الشعر ، والتفاعيل عندهم تسمى « الأيدى والأرجل » . قال : « ولا يبعد أن يكون وصل إلى الخليل بن أحمد شىء من ذلك ، فأعانه على إبراز العروض إلى الوجود . » الخ [1]

---

١ — هذه الشروح التى تعرضنا للحديث عنها ، مطبوعة . وهناك كثير غيرها ما بين مطبوع ومخطوط بدار الكتب المصرية .

٤ — الموسوعات الجامعة :

وهذه إحدى مميزات العصر ومظاهر أدبه . إذ ألفت فيه عدة موسوعات جامعة هى دوائر معارف واسعة الآفاق مترامية الأطراف ، يحتوى كل منها على أبواب شتى وفصول مختلفة ذات فروع لا عدد لها . تناولت شتاتا من علوم ومعارف ما بين تقويم وتاريخ وأدب وقصص وغير ذلك . وهى أشهر من أن تعرف .

ولم نعرض لها هنا بقصد الحديث المفصل الذى يفصح عن مقدار أهميتها ، ويشرح جميع نواحيها ويبين قيمتها فى عالم الأدب والعلم ، بما يتناسب مع جهد مؤلفيها فى وضعها وترتيبها وتبويبها ، ولكننا عرضنا لها لنسجل — فى عجلة — أنها إحدى المظاهر العقلية وطرق التفكير الأدبى فى هذا العصر ، ولكى نشير إلى مناهج أسلوبها لنرى مقدار نصيبه من فن التعبير .

ونحصر الحديث فى ثلاث موسوعات ، هى : نهاية الأرب ، ومسالك الأبصار ، وصبح الأعشى .

---

١ — نهاية الأرب :

مؤلفه شهاب الدين أحمد النويرى ، وهو من خير الأمثلة على العقلية الموسوعية الشاملة التى تحيط بفنون عدة . وهو يفوق « صبح الأعشى » بخصوصية بارزة ، وهى شموله لجملة من الموضوعات ، فى حين أن اختص « صبح الأعشى » بالحديث عن الإنشاء وصناعته وما عداه تبع له ، فهو بالروضة البهية لابن عبد الظاهر ، وبمسالك الأبصار لابن فضل الله ، أشبه .

وقد قسمه المؤلف إلى خمسة فنون أدبية تكلم عن كل فن فى جملة من الأبواب

والفصول فى نظام رتيب ودقة فى التبويب .

والفن الأول : فى السماء والآثار العلوية ، والأرض والمعالم السفلية . لذلك ترى فيه حديثا عن السماء وكواكبها وسحبها وصواعقها وهوائها ونارها . وعن الليالى والأيام والشهور والأعوام ، والفصول والمواسم ، والأعياد وعن مبدأ خلق الأرض ومساحتها وأقاليمها السبعة ، والجبال والبحار والجزائر والأنهار والغدران والعيون ، وطبائع البلاد وأخلاق سكانها ، ومبانيها القديمة ومعاقلها ومنازلها . الخ .

والفن الثانى : فى الإنسان وما يتعلق به . وفيه تكلم عن اشتقاق لفظ الإنسان وتسميته وطبائعه ووصف أعضائه . وعن غزله ونسيبه وعشقه وهواه وأنسابه وأمثاله . وعن عادات العرب وصفاتهم وما لهم من زجر وفأل وطيرة وفراسة وذكاء ، وتعريض وأحجية ولغز . وعن مدحهم وهجوهم ومجونهم وفكاهاتهم وملحهم وخمرهم ومعاقرتهم وندمانهم وقيانهم وآلات طربهم . وعن كل ما يتصل بذلك من شجاعة وجود وصبر وعقل وصدق ووفاء وتواضع وقناعة . . الخ . ومن حسد وسعاية وبغى ونميمة وبخل ولوم وجبن وفرار وحمق وكبر وخيانة . . . الخ . — وقد تحدث فيه أيضا عن الملك وما يشترط فيه ، وما يحتاج إليه ، وما يجب له وما يتصل به من وزارة وجيوش وسلاح ومناصب دينية . . الخ ، وما ينبغى له من حسن سياسة وعزم وحزم وانتهاز فرصة وحلم وعفو وعقوبة وانتقام . . الخ

والفن الثالث : فى الحيوان الصامت ، من سباع ووحوش وظباء وحمر وأرانب وقردة ونعام وخيل وبغال وحمير وإبل وبقر وغنم ، وذوات سموم ، وطير وسمك وحشرات ، وما يتصل بذلك .

والفن الرابع : فى النبات . فتحدث عن أصله وأرضه وذكر الأقوات والخضراوات والبقول . وتكلم عن الأشجار وأنواعها وأزهارها ورياضها . وعن الطب والأدوية المختلفة .

والفن الخامس : ولعله أطول فنون الكتاب حديثا . موضوعه التاريخ . أى تاريخ أمم الأرض من لدن آدم إلى عصره — عصر المؤلف أى إلى سنة ٧٠٠ هـ زمن الناصر بن قلاوون — فتحدث عن خلق آدم وعن الأنبياء وقصصهم وأخبار من اتصلوا بهم ، وأنباء أصحاب البئر المعطلة والقصر المشيد وأصحاب الرس وعن بنى اسرائيل والعزير . وقد أسهب فى قصة موسى وعيسى . وتكلم عن نزول عيسى إلى الأرض وقتل الدجال ، وخروج يأجوج ومأجوج وهلاكهم ووفاة عيسى وما يتلو ذلك من أخبار القيامة . ثم تحدث عن ذى القرنين وعن الملوك القدماء فى مصر والهند والصين والفرس واليونان وغيرهم . ثم تحدث عن العرب وأيامهم فى الجاهلية ووقائعهم . ثم تحدث عن الدول الإسلامية من لدن حكومة النبى عليه السلام ، حتى عصر المؤلف ، وأهم الأحداث والملوك فى كل صقع وناحية .

وقد استغرق فى هذا كله واحدا وعشرين مجلدا ضخما ، جمع فيها من فنون الأدب والمعرفة ما لذ وطاب ورق وراق .

ويبدو للمطالع لأول وهلة أن النويرى جماع سطا على بطون الكتب ، وهذا تجن واضح . فإن الدقة التى كتب بها النويرى معلوماته بل ومنقولاته ، والتى تتجلى فى حسن العبارة وعذوبة الإشارة ، وفى جمال التبويب وقوة الربط ، لدليل واضح على سعة علمه وعمق فهمه وحسن تصرفه . فضلا عما نثره خلال بحثه المنسق من جيد محفوظه شعرا ونثرا وقصصا مما يناسب الحديث وينسجم معه ، وفضلا عن أن كثيرا من معلوماته كتبه بقلمه وإنشائه ، ولو استطعنا استصفاء ما أنشأه ابتداء ، لملأ عدة مجلدات . ولعله يشير إلى هذا بقوله فى مقدمته : «وأتيت فيه بالمقصود والغرض . وأثبت الجوهر ونفيت العرض . وطوقته بقلائد من معقولى . ورصعته بفرائد من منقولى . فكلامى فيه كالسارية تلتها السحائب . أو السرية ردفتها الكتائب . فما هو إلا مترجم عن فنونه وحاجب لعيونه » .

و إنه لمن فضول الحديث أن نذكر أن فنون الأدب ، يحتاج إليها الأديب وغير الأديب . . فهى للأول أداة أصيلة تعينه على عمله الفنى ، وتفسح أمامه مجال الابتكار. وهى للثانى أداة متعة روحية وتكميل نفسى يرفه به عن عقله المكدود وقلبه المجهود . — ونهاية الأرب من أسرع الكتب توخيا وتحقيقا لهذه الغايات : إذ هو معرض حافل لأحلى ثمار الآداب ومقتطفات الفنون . وقد قال النويرى فى ذلك :

« وما أوردت فيه إلا ماغلب على ظنى أن النفوس تميل إليه . وأن الخواطر تشتمل عليه . ولو علمت أن فيه خطأ لقبضت بنانى ، وغضضت طرفى . ولو خبرت طريق المعترض لعطفت عنانى وثنيت عطفى » .

وتغلب روح القص على أسلوب الكتاب ، و يسلك بك سبيل الاستطراد إلى روائعه من النوادر والوقائع ، و إلى لوامعه من الأمثال والأشعار . . كما يتسم بالترسل والطلاقة فى عذوبة وخفة إذا تحدث عما يتصل « بالحقائق العلمية » . فإذا خلى بينه و بين خياله ، عاد إلى عادته — كما فى خطبته — من العبارة المسجوعة المحلاة ، اللطيفة المحل ، الخفيفة الظل ، بين قفار قصيرة غالبا يعروها الازدواج حينا ، والمطابقة والمقابلة ورعاية النظير . انظره يقول فى مفتتح « الفن الثانى » وهو فى الإنسان وما يتعلق به :

« وهذا الفن قد اشتمل على معان مؤنسة للسامع . مشنفة للمسامع . مرصعة لصدور الطروس والدفاتر . جاذبة لنوافر القلوب والخواطر . واضحة البيان . معربة عن وصف الإنسان . فمن تشبيهات فائقة . وغزليات رائقة . وأنساب طاهرة . ووقائع ظاهرة . وأمثال امتدت أطنابها . وتبينت أسبابها . وأوابد جعلتها العرب لها عادة ودليلا . واتخذتها ضلالة وتبديلا . ونصبتها أحكاما ونسكا . وصيرتها عبادة ومداواة فتبوأت بها من النار دركا . ومهيء من أخبار الكهان . وزجر عبدة الأوثان . وكنايات نقلت الألفاظ إلى معان أبهى من معانيها . و بلغت النفوس بعذوبتها غاية أمانيها . وألغاز

غورت بالمعانى وأنجدت . وأشارت إليها بالتأويل حتى إذا قربتها من الأفهام أبعدت . ومدائح رفعت للممدوح من الفضل منارا . وأهاج صيرت المهجو من القوم يتوارى . ومجون ترتاح إليها عند خلوتها النفوس . ويبتسم عند سماعها ذو الوجه العبوس . وشىء مما قيل فى الخمر والمعاقرة . وأرباب الطرب وذوى المسامرة . وتهان نشرت من البشائر ملاء . ورفعت من المحامد لواء . وتعاز حسرت نقاب الحسرات . وأبرزت مصون العبرات » . الخ

والنويرى ، إلى هذا ، يبدأ حديثه عن موضوعه بذكر ما يتصل به من الآيات القرآنية ، متحدثا أحيانا عن معانيه اللغوية . ويرشح كلامه بعدة من الأحاديث النبوية الوثيقة الصلة به ، مشيراً إلى مصدرها غالبا . ثم يأخذ فى سوق عدد — يزيد أو يقل — من الأقوال المأثورة والأبيات الشعرية أو أنصافها فى المعنى . ثم يقتحم الحديث عن باب موضوعه واصفا ملما محيطا بكل أطرافه ، فى شىء من الاستقصاء والاستيعاب الذى يعروه الاستطراد إلى ما يناسب الموضوع من قصة أو نادرة أو حادث أو فكاهة أو نحو ذلك .

وبعد فهذا كتاب علم وأدب وفقه وشعر ولغة ، وتقويم وتاريخ واجتماع ، ووصف إنسان ونبات وحيوان .

---

٢ — مسالك الأبصار :

هذا كتاب جليل الشأن . نقل عنه العلماء والأدباء قديما وحديثا . مؤلفه الكاتب المنشىء البارع العالم شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمرى ، أحد — رؤساء دواوين الإنشاء بمصر والشام إذذاك .

ويقع فى عدة مجلدات كبيرة . وتوجد بدار الكتب منه نسخة كاملة مصورة بالتصوير الشمسى ، بهمة العالم المصرى الأديب المرحوم أحمد زكى . وقد طبع جزؤه الأول فقط .

وأول ما يلاقيك من الكتاب أنه فى «تقويم البلدان» . فقد طالع مؤلفه الكتب الموضوعة فى أحوال الأقاليم ووصف ما تحتوى عليه ، فلم ير فيها من قبل أحوالها ، ومثل فى الأفهام صورها . لذلك رأى أن يضع نبذة دالة على المقصود فى ذكر الأرض وما فيها ومن فيها ، الأظهر فالأظهر ، والأشهر فالأشهر . وأن يصف حالة كل مملكة وما هى عليه وما عليه أهلها فى زمنه ، متحدثا عما فيها من المعاملات ومالها . من المصطلحات فى شتى نواحى حياتها ، وذلك ليبصر أهل كل مملكة بأحوال غيرها ، وفى ذلك ما فيه من النفع لهم جميعا فى حياتهم ومعاشهم .

ويقول ابن فضل الله إنه نقل عن الثقات من ذوى التحقيق والتدقيق فى الرواية ، وحذر من تغفل الغفلاء وتخيل الجهلاء وتحريف الأفهام الفاسدة . وبذل الجهد فى تصحيح ما وقف عليه حسب طاقته . كما قطع فى ذلك الأيام والليالى الطويلة .

ولم يعن إلا بذكر ممالك المسلمين إلا لماما قليلا يذكر فيه غيرها ، تاركا الحديث عن بلاد الكفار إلى فرصة أخرى أو مؤلف آخر .

وقد قسم قسمين : الأول فى وصف الأرض . والثانى : فى الكلام عن سكانها .

ففى القسم الأول تحدث عن كيفية الأرض ومقدارها وأسمائها وصفاتها وأسماء التراب وصفاته والغبار والرمال . ووصف أحوال الأرض والجبال والبحيرات والمساجد الثلاثة والآثار القديمة ، والأقاليم السبعة . والبحار وما يتعلق بها ومافيها من العجائب . والقبلة والأدلة عليها . وتداخل الشهور ، والكواكب الثابتة والسيارة . وتحدث عن الأفلاك والكسوف والخسوف . . . الخ

ثم ذكر الطرق والممالك الإسلامية مثل الهند والسند وممالك جنكيزخان والتورانيين والإيرانيين ومملكة الجبال ، والأتراك الروم ومصر والشام والحجاز والحبشة واليمن والسودان الممتدة على ضفاف النيل إلى مصر .

وفى القسم الثانى : فاضل بين سكان الشرق وسكان الغرب ، وتحدث عن الديانات وعن دول الشرق قبل الإسلام وبعده . . الخ

ونحن هنا لا ندعى أننا قرأنا الكتاب كله ، أو درسناه دراسة فحص ونقد ، فذلك يحتاج إلى رسالة مستقلة . ولكننا عرضناه هنا فى عجلة وإيجاز لننوه به باعتباره أحد الكتب الواصفة .

والمؤلف — على الرغم من أنه نقل كثيراً من المعلومات عن غيره ، عقد أكثر سطور الكتاب بلفظه ، فشخصيته فيه بارزة ، وأسلوبه متضح ملموس ، خال من العقادة واضح المعانى عذب الألفاظ دقيق الدلالة ، غير مقيد فى أكثر سطوره بقيود البديع ، على الرغم من أن المؤلف أحد زعماء البديعيين ، وتشعر وأنت تقرؤه أنك تطالع كتابا من كتب الأدب لسلاسة العبارة وجمال التراكيب .

وبهذه المناسبة نذكر أن الكتاب ليس خالصاً لتقويم البلدان . . بل مما عرضناه من محتوياته ترى أنه كثير التناول لعلوم شتى ما بين تاريخ وآداب وقصص . معنى بإثبات النصوص نثرها وشعرها ، قديمها وحديثها ، ولهذا ترى فيه كثيرا من أدب عصره ووقائع أدبائه ، أعنى بمصره عصر المماليك إلى عهده . فيه مثلا قصص عن أبى الحسين الجزار وسراج الدين الوراق وغيرهما .

فهو هذا سجل أدبى نفىء إليه عند الحاجة ويمدنا بالنص ويخبرنا عن كثير من وقائع الأدباء وأخبار العلماء ، مفسحا أحيانا إلى التفسيرات اللغوية وإلى النقدات الذوقية .

وإليك سطورا من حديثه عن طبيعة الإنسان وعمله «ص ٤٥ من الجزء الأول» قال:

«فلما كان الإنسان بما غلب عليه تركيبه ، أرضيا ترابيا ، من الأرض مبدؤه ، و إليها معاده ، ثم منها عوده كما قال تعالى : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » اضطر إلى مركزه ، واحتاج إلى الاضطراب فى أرجاء الأرض للكسب . إما للصيد وهو أول رتب المعاش . أو الزراعة وهى ثانى رتب المعاش . أو التجارة وهى ثالث رتب المعاش ، على ما يأتى بيانه . فلم يكن له غنى عن معرفة جهات الأرض ليمتد فيها الأسباب معاشه فيما ذكرناه ، أو غير ذلك مما يتفرع منه أو يترتب عليه .

زعموا أنه لو وقع إنسان إلى برية بهماء لاساكن بها ، لم يكن له دأب إلا طلب سبب البقاء بما يصيد منه ليأكل . فإذا أكل طلب ما هو أزيد سببا فزرع ، فإذا زرع طلب ما هو أزيد سببا فتاجر . ثم تفرع معاشه وتشعبت أسبابه فاحتاج حينئذ إلى معرفة أجزاء الأرض وعوالمها ليعرف أين كسبه ومن أين معاشه . ولا يمكنه أن يقصد أرضا فى بر أو بحر ، إلا بأعلام دالة عليها كالنجوم اللائحة والجبال المائلة والأنهار الجارية والأهوية الهابة . وليس هذا موضع ذكرها».

---

٣ — صبح الأعشى :

كتاب أشهر من أن يعرف . مطبوع فى أربعة عشر مجلدا ضخما . ألفه المنشىء العلامة شهاب الدين القلقشندى . وهو من مفاخر المؤلفات المصرية ، اعتمد فيه مؤلفه اعتمادا ما على كتاب « التعريف » لشهاب الدين بن فضل الله العمرى .

وقد حدد القلقشندى موضوع كتابه إذ جعله فى صناعة الإنشاء . . « فهو كتاب فى تاريخ الكتابة وما إليها ، يتتبع حياتها منذ نشأتها الأولى ويصف أطوارها ونموها وسموها فى آفاق البلاد الإسلامية وممالكها على مر العصور إلى عهده . ويكاد

يكون فريدا فى بابه بين كتب الآداب العربية .

فالفكرة لدى المؤلف موحدة محدودة ، وكتابه يجمع أطرافها ويصف تفاصيلها ويشرح الخفى من أمورها ، فى كل أفق وناحية . وممالك الإسلام كثيرة ممتدة من أواسط آسيا إلى الأطلنطى . وفى كل مملكة منها دول عدة متعاقبة . وفى كل دولة منها للكتابة حياة ونمط فى أساليبها ورسومها ومصطلحاتها لدى كتاب دواوينها بخاصة ، وأدبائها بعامة .

لكل هذه الأمور تعرض القلقشندى منقبا باحثا مسجلا واصفا ضاربا الأمثال ، فى دقة وترتيب ونظام وتبويب . وأهم ما عنى بوصفه : المراسلات الديوانية ودواوين الإنشاء ومصطلحاتها .

غير أن القلقشندى لم يكتف بأن وصف الكتابة وحدها ، بل امتد قلمه إلى كل شىء يلابسها ويتصل بها . والكاتب الواسع الأفق البعيد الاطلاع ، الطبع الطبع والقلم ، يستطيع أن يحشد إلى موضوعه ماشاء من موضوعات ، متكيسا فى الربط بينها وإيجاد المناسبة بين أحدها والآخر . وهذا هو ما صنعه القلقشندى ، حتى غدا كتابه معرضا حافلا لضروب من الأدب والتاريخ والتقويم واللغة والحكمة لا ساحل له .

وحسبك أن تعلم أنه فضلا عن حديثه عن نظم الدواوين الإنشائية وأنواع الرسائل فيها وما اصطلح عليه أهلها ، فى كل دولة ومملكة إسلامية ، تحدث عن جغرافيتها وتاريخها فأورد من ذلك نبذا جميلة مهذبة مرتبة .

وإلى جانب هذا تحدث عن الخط العربى وتاريخه وأنواعه من أول نشأته إلى عهده ، وحاله فى الممالك المختلفة واختصاص كل نوع منه بضرب من الرسائل ونحوها . مثبتا نماذج لكثير من هذه الأنواع .

وتحدث عن أدب الكاتب وما ينبغى له أن يتحلى به من آداب مختلفة وأخلاق قويمة ومعارف سامية .

وفى المجلد الرابع عشر وصف ألوانا من الرسائل والمكاتبات غير الديوانية مما يتبارى فيه الأدباء خارج الديوان داعما كل حديثه و وصفه بالشواهد والأمثلة . ومن هذا وذاك ترى الكتاب سجلا أدبيا حافلا يستعرض جملة من النماذج الإنشائية من عصور ودول مختلفة .

وللكتاب مقدمة رائعة تحدث فيها المؤلف عن الكتابة وفضلها ، وهى فى نظره أشرف الصناعات . وللقلقشندى مقامة بهذا المعنى ضمنها أسباب شرف صناعة الكتابة وما ينبغى للكاتب من آداب فى الخلق والعلم . وسجل هذه المقامة فى كتابه، وقد كانت هى دستوره أو فهرسه حينما أقدم على تأليف « صبح الأعشى » إذ الكتاب تفصيل لما أجمل فى المقامة ، وتوضيح للغامض فيها . وسنوه بها فى الباب الآتى :

و بالكتاب فصول استطرادية عظيمة القيمة . ومن موضوعاته الطريفة : موازنته بين كتابة الإنشاء وكتابة المال . ووصفه للخيل وأنواعها ، وألوان الحيوانات المختلفة والمعادن والجواهر . ووصفه للأفلاك والكواكب والريح والسحاب والأدوية والعقار والنبات والأزهار والفاكهة . . . الخ . وحديثه عن هذه الموضوعات لغوى أكثر منه شيئا آخر ، فهو بهذه المثابة معجم لغوى .

ومن فصوله فصل جليل عن موضوع السجع أورد فيه آراء المتقدمين إلى زمانه ، بنظام ودقة فى أداء المعنى والتمثيل له . فلم يترك بعده سؤالا لسائل . وهو بالجزء الثانى .

وهكذا ترى مقدار سعة هذا الإناء العلمى الفسيح ، وطعم ما يقدمه من ألوان الغذاء الأدبى والعلمى النافع ، فى عبارة لا كلفة فيها ولا ركاكة ولا سقوط إلا ما ندر . وقد أمدنا هذا الكتاب بكثير من الرأى ، وزودنا بالتوجيه والنماذج . وأثبتنا

فى صفحات كثيرة من بحثنا هذا فصولا أو سطورا منه ، من إنشاء المؤلف أو غيره فلنكتف بها فى هذا المقام عن التمثيل بغيرها .

---

٥ — المجموعات الأدبية :

نقصد بالمجموعات الأدبية ، تلك الكتب التى عنى فيها واضعوها ، بجمع الطريف المختار من جيد الشعر والنثر ، حسبما تتراءى لهم ، من أقوال من سبقهم أو عاصرهم من الأدباء . ويضمنونها أحيانا شيئا من نتاج أدبهم هم شعرا أو نثرا .

ولهذه المجموعات أهمية كبرى ، فهى فضلا عما تدل عليه من نوع الاتجاه العقلى نحو التأليف الأدبى ، ومن نوع الذوق فى جمع المختار ، تراها سجلا حافلا بضروب شتى من الآداب شعرها ونثرها والنادر منها ، وبخاصة ما يسجل فيها من نتاج المعاصرين . فهى من هذه الناحية ذات أهمية فى تاريخ الأدب وكثيرا ما يبدو فن الجامع فى حسن الاختيار ، والملاءمة بين المتباعد ، والوصل بين المشتت ، وإسباغ ثوب الألفة والانسجام على هذا المجموع ، وابتكار الأبواب أو العناوين الجامعة التى كأنها الراية تدعو إليها جنودها . هذا إلى أنها تعتبر من معارف الأدباء فى عصر جمعها .

وقد حظى عصر المماليك بعدة مجاميع أدبية جليلة القيمة . لهذا آثرنا أن نلحقها بهذا الباب فى كلمات وجيزة نستعرض فيها أمثلة منها حسب ، على سبيل التمثيل لا الاستقصاء . فمنها :

ا — التذكرة الصفدية :

هذه مجموعة ضخمة من مجاميع النثر والشعر على اختلاف أغراضهما ، قيل تقع فى

ثلاثين مجلدا . وأكثرها مفقود . والموجود منها فى دار الكتب المصرية خمسة مجلدات مخطوطة . وصاحب هذه التذكرة صلاح الدين الصفدى الأديب البارع المؤرخ .

وفيما يلى نعرض عليك وجازات عن هذه المجلدات ومحتوياتها :

١ — مجلد مكون من عدة أبواب ، ولكل باب خطبة فيها تحميد وصلاة ، مع الإيجاز ، ثم عرض ما اختير لهذا الباب من شعر أو نثر . ومن أبوابه : باب ذو فصول ، فمنها فصل فى مراثى الملوك والرؤساء قديما وحديثا — إلى عصر المؤلف — شعرا ونثرا ، وأكثره شعر . وفصل فى مراثى الأهل والإخوان . وفصل فى المراثى والتعازى فى الصغار والأطفال . وفصل فى مراثى النساء . وفصل فى شواذ المراثى . وفصل فى نوادر التعازى والمراثى . وفصل فى حسن التأسى .

وباب أورد فيه نصوصا جاءت فى العيادة والمرض .

وباب فى المودة والإحسان والمعاشرة والاستزارة .

وباب فى الهدايا . وباب فى الذم والهجاء وشكوى الزمان والإغراء والتحريض والوعد والوعيد الخ .

وأكثر مختاراته فى هذا المجلد شعر . وليس فيه ما يدل على ترتيبه بين أجزاء الكتاب .

٢ — ومجلد به باب فى الشجاعة والجبن . وباب فى الوفاء والمحافظة والأمانة والغدر والخيانة والملل . وباب فى الصدق والكذب . وباب فى التواضع والكذب والخيلاء والعجب . وباب فى القناعة والحرص والطمع . وباب فى صون السر ، وباب فى الجور والعدل . وباب فى العقل والحكمة والتجارب والحمق والجهل . وباب فى المشورة والرأى .

(ونلاحظ فى هذين المجلدين أن أكثر المختار فيهما شعر، وأنه لم يورد فيهما من أخبار معاصريه أو نثرهم وشعرهم إلا النادر القليل . وأغلبه من مختارات جاهلية وإسلامية وأموية وعباسية) .

٣ — مجلد يحتوى على الجزء الثالث عشر بتمامه ، وخطه جيد واضح ، ويبدو أنه كتب فى حياة مؤلفه ، إذ قيل فى صفحته الأولى : « تصنيف الشيخ ... متع الله ببقائه » ومن محتوياته :

(ا) رسالة بقلم محيى الدين بن عبد الظاهر إلى الصاحب بهاء الدين بن حنا يعلمه بواقعة السلطان الملك الظاهر مع التتار . وتقع فى نحو ٢٧٠ سطرا .

(ب) مقطعات شعرية ، كل مقطعة منها بيتان فى وصف مليح .

(ج) قصيدة رائية بديعة من نظم القاضى الفاضل عدة أبياتها ٩٦ بيتا وهى فى الغزل ، وتتخللها أبيات فى الحكمة والعتاب والشكوى .

وقد عارضها شيخ شيوخ حماة عبد العزيز الأنصارى بأبيات ارتجلها عدتها ١٦ بيتا سجلها الصفدى

(د) رسالة من إنشاء القاضى الفاضل على لسان صلاح الدين الأيوبى رداً على كتاب ورد إليه من خليفة بغداد الإمام الناصر ، من إنشاء ابن زيادة ، وهى منثورة مطولة جيدة تقع فى نحو ٢٤٠ سطرا .

(ه) رسالة كتبها محيى الدين بن عبد الظاهر رداً على رسالة قوام الدين أبى طالب يحيى بن زيادة ، المتقدمة الذكر ، ضمنها جملة من الفصول فى الإنكار عليه . وهى طويلة و بديعة وجيدة .

(افترض ابن عبد الظاهر نفسه كأنه كان مكان القاضى الفاضل حينما وصلت رسالة الخليفة إلى صلاح الدين وذلك لأن ابن عبد الظاهر لم تعجبه رسالة الفاضل ورده على ابن زيادة لما فيه من ملاينة ومحاسنة . أما هو فرأى أن يرد منكرا مسفها مبينا خطأ

ابن زيادة ، ومعظما أعمال صلاح الدين — ولكن بعد أن قضى الأمر ومات كل من المرسل والمرسل إليه . . . — وابن عبد الظاهر هنا يمرن قريحته فحسب .)

(و) مقطعات شعرية ونوادر فكاهية ورسائل أخرى لابن نباتة والوراق والنصير الحامى ، وابن عبد الظاهر وناصر الدين بن النقيب . وكلهم من أدباء عصر المماليك . ثم ابن قلاقس والبحترى والمتنبي .

٤ — مجلد يحتوى على الجزء الرابع عشر بتمامه ، وخطه جيد كسابقه وهما متشابهان فى الخط والحجم والنظام .

ومن محتوياته :

(ا) أخبار وأشعار لشرف الدين الأنصارى شيخ شيوخ حماة .

(ب) مقطعات ، كل منها بيتان فى وصف مليح ، على نمط ما فى الجزء الثالث . ويبدو أنها من مقطعاته فى كتابه « القول الصريح فى مائة مليح » .

(ج) مقتبسات منثورة مما كتبه المُزى والذهبي فى اللغة والفقه ونحوهما .

(د) قصيدة للصفدى إلى الأمير عماد الدين موسى . ويليها مقطعات شعرية لغيره .

(هـ) فصل منقول عن الشهاب القوصى ، قيل إن الخليل بن أحمد هو الذى كتبه . وهو فصل طريف فى معنى حروف الهجاء . أى معنى الألف فى اللغة ، ومعنى الباء وهلم جرا ، مع الاستشهاد على هذا التفسير اللغوى بأشعار العرب .

(و) قصيدة طويلة لبرهان الدين الجعبرى ضمنها أسماء الخلفاء بعد النبى عليه السلام إلى عهده — وهو عهد الناصر بن قلاوون والخليفة المستكفى بالله .

(ز) جدول بأسماء الصحابة الذى أكثروا من حفظ أحاديث الرسول ، وعدتهم خمسة وثلاثون ، مع بيان عدد ما يحفظه كل منهم . وذلك نقلا عن الذهبى .

(ح) جدول بأسماء من كان فردا فى زمانه ، بما أتقنه من علم أو نحوه . وقد نقله عن الذهبى وزاد عليه من عنده أشياء . وهو جدول طريف جداً .

(ط) ثبت نقله عن ابن الفوطى صاحب كتاب « معجم الألقاب » فى التاريخ ذكر فيه أسماء ما طالعه من كتب التاريخ فى سبيل تأليف كتابه . — وهو عظيم النفع فى معرفة كتب التاريخ وأسمائها ومؤلفيها .

(ى) لغز كتبه شرف الدين حسين بن المقرجمال الدين بن دياب فى « المثمنة » ورد الصفدى و بدر الدين بن مكى عليه .

(ك) رسالة للقاضى الفاضل منثورة ، يبدو أنه أرسلها إلى الخليفة فى الشكر ، وله رسائل أخرى وأشعار .

(ل) مختارات لبعض الشعراء ومنهم النصير الحمامى والنامغرى وابن دانيال الموصلى الكحال صاحب « طيف الخيال » الذى نتحدث عنه فى « باب القصص » من هذا البحث . وبهذه المناسبة ألفت النظر إلى أن المجموعة الشعرية التى سجلها الصفدى هنا لابن دانيال يندر أن توجد فى غير هذه التذكرة . وهى ضخمة تصلح ديوانا مستقلا فى أغراض متنوعة .

٥ — مجلد يحتوى على الجزء الثامن والأربعين (ويبدو أن التذكرة تقع فى نحو ٥٠ جزءا — وان قيل ٣٠ مجلدا)

ومن محتوياته :

(ا) رسالة كتبها الصفدى إلى القاضى شمس الدين محمد بن قاضى شهبة ، يهنئه حينما نقل من غزة إلى صفد عام ٧٦٢ هـ كاتبا للسر . وقدمها بأبيات لطيفة . وقد رد عليه ابن قاضى شهبة .

(ب) رسالة كتبها ابن أبى حجلة المغربى إلى الصفدى فى الشوق ، مقدمة بعدة أبيات . ورد عليها الصفدى .

(ج) أبيات ومنثورات كثيرة فى أغراض عدة ، منها أبلغ ما قيل فى السقام . وفصل فيما جاء خارجا عن قراءة السبعة ، نقله من كلام ابن الصيرفى كاتب الفاطميين .

(د) جملة من رسائل ومنشورات القاضى الفاضل ، وهى ضخمة تكون ديوانا بمفرده ، وقد لا توجد بغير هذه التذكرة .

(ه) ثبت لطيف فيمن قتل هو وأبوه أو ابنه . . . وآخر فى بعض الأسر الشهيرة وأفرادها مثل بنى حمدون وبنى العديم وبنى الأغلب .

(و) أرجوزة ورسالة من إنشاء الصفدى ونظمه ، كل منهما فى ذكر أسماء من تولى دمشق من خلفاء وملوك ونواب .

من هذا العرض السريع تبدو لك قيمة هذه المجموعة النفيسة وندرة ما تحتويه .

ب — ثمرات الأوراق :

هذا كتاب ألفه وجمعه تقى الدين بن حجة الحموى . طبع أكثر من مرة ، ويقع فى نحو ٢٦٨ صفحة . جمع إليه — كما قال — زبدة ما يحتاج إليه فى المجالس والمحافل من النوادر والحكايات .

فهو مجموعة من النكت والروايات والرسائل المنثورة التى قد يتخللها الشعر ، مما دار فى مجالس الملوك والعلماء ، ومما وقع بين الأدباء . فهو مختارات نثرية أو محاضرات أدبية فيها جد ومجون ، وتاريخ ولغة وعظات ونقدات ، وقصص عن الأطباء والأجواد والبخلاء والعلماء والحمقى ، إلى غير ذلك ، على نمط من الكامل والعقد والمستطرف والكشكول ، وغيرها من كتب المحاضرات الأدبية .

استعان مؤلفه بما يحفظه من كتب النوادر كدرة الغواص ، والفرج بعد الشدة . فنقل عنهما كما نقل شيئا عن ابن خلكان والصابى والحصرى وابن عبد ربه وابن الجوزى وابن نباتة الحصرى وغيرهم وضم إلى ذلك بعض حوادثه

ومنشآته وحوادث معاصريه ومنشآتهم ، ما بين رسائل أدبية ونوادر طريفة .

وقد عرض ذلك كله عرضا هينا لطيفا فيه نزعة القص والحديث ، طورا بأسلوب المنقول عنهم ، وطورا بأسلوبه الخاص ، معقبا بقليه بشيء من النقد والتعليق.

غير أنه لم يعن بتبويب الكتاب ، وجمع المتشابه تحت فصل موحد ، ولعل ضعف الصلة بين هذه الطرائف من ناحية مغزاها ، جعل الربط بينها عسيرا .

ومن محتوياته :

١ — جملة صالحة من القواعد التي ينبغي للناشيء أن يراعيها حتى يصبح منشئاً — وحديث عن السجع وأنواعه وأمثلة له ، وشروط الكتابة الإنشائية . — وهذا كله لا يخرج عما سجله في كتابه « خزانة الأدب » وبسطنا الحديث عنه في « باب النقد » من هذا البحث .

٢ — سؤال حامد بن العباس لعلي بن عيسى في ديوان الوزارة عن الخمار .

٣ — الأجوبة الهاشمية وبلاغتها .

٤ — غضب المأمون على العكوك بسبب مدحه أبا دلف ، وقتله إياه .

٥ — رسالة بقلم القاضي الفاضل في وصف وفاء النيل .

٦ — رسالة « حظيرة الأنس إلى حضرة القدس » من إنشاء ابن نباتة المصري يصف فيها رحلته من دمشق إلى بيت المقدس .

٧ — رسالة بقلم ابن حجة الحموي يصف فيها رحلة المؤيد شيخ إلى البلاد الرومية عام ٨١٦ هـ .

٨ — رسالة للقاضي الفاضل في وصف « حمائم الرسائل » .

٩ — رسالة بقلم ابن حجة يصف فيها رحلته من الديار المصرية إلى دمشق عام ٧٩١ هـ .

ولثمرات الأوراق ثلاثة تذييلات أحدها كله نثر من وضع ابن حجة ، وهو على نمط الثمرات . والثانى نثر أيضاً على نمطه كذلك، من وضع الشيخ ابراهيم الأحدب أحد أدباء العصر الحديث . والثالث ويسمى « تأهيل الغريب » كله شعر ، من مختارات ابن حجة .

وبهذه المناسبه أذكر أننى قرأت هذا التذييل الثالث فوجدته جزءا قليلا من من أصل مخطوط . والمخطوط ديوان شعرى ضخم أكبر فى حجمه وأهم فى موضوعه من « ثمرات الأوراق » . لهذا أستبعد أن يكون ذيلا له ، وإنما ألحق بعضه بثمرات الأوراق حين طبعه، وسمى تذييلا له ، من باب عبث الناشرين .

م — المستطرف فى كل فن مستظرف :

جامعه أبو الفتح محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهى . ويقع فى جزأين كبيرين يشتملان على ٤٨ بابا . انفرد كل باب منها بموضوع ، يسوق له ما ورد فيه من جيد الشعر والنثر .

ومن أبوابه : باب فى العقل . فى الذكاء . فى الحمق . فى القرآن وفضله . فى الحكم فى الأمثال السائرة . فى البلاغة والبلغاء . فى الأجوبة المسكتة . فى الأخلاق والآداب الاجتماعية . فى طاعة ولى الأمر . فى سياسة الملك . فيما ينبغى للسلطان . فى العدل والإحسان . فى حسن المعاشرة . فى المودة . فى الفخر والشرف فى الجود والبخل . فى الشجاعة والجبن . فى العمل والكسب . فى أخبار العرب . فى الدواب والحشرات فى عجائب البحار ، فى عجائب المخلوقات . . الخ .

وترى من هذا العرض السريع مبلغ ما اجتمع فيه من أدب نافع وعلم مفيد ومزايا تاريخية واجتماعية .

ر — علبة الكميت :

مؤلفه شمس الدين النواجى ، وموضوعه الحديث عن « الكميت » أى الخمر .

وقد قسمه إلى خمسة وعشرين بابا وخاتمة : تحدث فيها جميعا عن كل ما يتصل بالخمر من أسماء وأنواع وأوصاف ، ومنافع وخواص . وعن المغرمين بشربها والمنادمة والسقى والأغانى وآلات اللهو والطرب وعن ليالى الأنس والصفاء والخلاعة . . . إلى غير ذلك .

والكتاب مملوء بالاستطرادات الشائقة فى موضوعات مختلفة متنوعة كوصف الشمعة والأزهار والربيع والجداول والدواليب والنواعير والبرك والفوارات . . الخ .

وقد ساق فى كل أولئك شعرا ونثرا من أرق ما نظمه الناظمون وأنشأه الكاتبون . غير أن نصيب الشعر فيه أكثر من نصيب النثر .

ولم يقتصر جامعه على الاختيار من أدب عصر دون آخر . وامتد به الاختيار حتى عصره . ولهذا ترى بالكتاب خمريات من شعر ابن نباتة والبدر الدمامينى وابن أبى حجلة والقيراطى .

ومن لطيف حديثه فيه كلامه عن حقوق المنادمة وآداب النديم ، ويبدو أنه نقل ذلك عن ابن حجة الحموى فى كتابه « تأهيل الغريب » .

وأثبت فيه قصيدة لطيفة لفخر الدين بن مكانس تسمى « عمدة الحرفاء » وهى فى الاستدعاء . كما أن بالكتاب حكايات مسلية وقعت فى عصر المؤلف وهى تثبت لجاجة بعضهم حينذاك على الشراب .

هذا . وأحسب أن هذا الكتاب أوفى من غيره فى باب الخمريات وما يتصل بها .

٥ — الكنز المدفون و الفلك المشحون :

هذا كتاب منسوب إلى جلال الدين السيوطى . وهو ديوان ملىء بالأدب والعلم وشوارد الحكم والأمثال ، وعجائب النوادر والوقائع ، والمجون والفكاهة والطب واللغة وغير ذلك ، ولا يخلو من خرافات أيضا .

هو كما يدل عليه عنوانه ، ولعله أقرب إلى شقه الثانى « الفلك المشحون » منه بالأول كسفينة نوح فيها من كل زوجان اثنان . . . وقد رص غالبا ما لو ماته — وكثير منها موجز — رصا عاجلا متلاصقا ، وقد لا تكون بين المعنى وما يليه جامعة مغزى ، ولا فائدة مشتركة . وهو مسل نافع لمن لا يطلبون وحدة الموضوع وتسلسل الفكرة واستقصاءها . على أن به بعض موضوعات عنى بها وأسهب فى إيضاحها .

وحسبنا هنا أن نعرض عليك شيئا من محتوياته فمنها :

١ — ذكر عدد أزواج النبى عليه السلام وسراريه وأولاده ، وقد تحدث عنهم وعن أحوالهم بشىء من التفصيل .

٢ — فائدة فى بطلان شبهة دعوى أبليس خيرية نه على آدم . وقد تحدث فيها عن أضرار النار ومنافع التراب فى شىء كالموازنة — وأشرنا إلى ذلك عند حديثنا عن الموازنات .

٣ — نماذج نثرية مما يقال فى مفتتح الرسائل أو ختامها ، من أدعية ونحوها — على نمط مما نقرؤه فى كتاب « التعريف » لابن فضل الله .

٤ — أبيات من « طيف الخيال » لابن دانيال . وهى غزل فى شخصه الأحدب

٥ — حديث عن الأوزان الشعرية .

٦ — ذكر الفرق الاثنتين والسبعين التى انقسمت إليها الأمة الإسلامية .

٧ — ذكر عدد من المشاهير بالكنى والألقاب والنسب ونحوها . كأبى موسى

الأشعرى . وبيان اسم كل منهم .

٨ — محاورة أبى الأسود الدؤلى وزوجته أمام القاضى شريح فى ولد لهما .

٩ — بشارة بوفاء النيل من إنشاء صلاح الدين الصفدى

١٠ — جملة من أسماء أنهار العالم .

١١ — موشحة لصفى الدين الحلى .

١٢ — كنى بعض الحيوانات ونحوها . وهى طريفة جدا وفريدة فى بابها .

١٣ — لامية الطغرائى وشرح وجيز لها مع نبذة يسيره فى ترجمة الناظم .

١٤ — ذكر اللامات وما تفيده كل منها، مثل لام الأمر ولام التوكيد ولام القسم ولام الابتداء .

هذا ما عنّ لنا الحديث عنه فى خاتمة باب الوصف وهذه الكتب قل من كثر مما أنتجته أقلام الأدباء فى هذا العصر ، رأينا التنويه بها هنا لصلتها الواضحة بهذا الباب . وهى مما اعتمدنا عليها فى بحثنا جميعه ومن الكتب التى أمدتنا بالفكرة والنموذج ما

الباب الثالث

القصص

« تمهيد »

القصص فن من أهم فنون الأدب . وهو فى النثر أعظم أهمية منه فى الشعر . إذ فى النثر ينفسح المجال أمام القاص، لتشخيص فكرة أو تحديد مبدأ ، أو وصف ظاهرة أو تعليل حادثة ، أو تحليل شخصية ، أو نحو ذلك ، مما يعرو الفرد والجماعة فى حياتهما الشاقة .

والقصص فن فيه متعة ولذة ، وفيه تعليم ونصيحة ، وفيه نقد وتبصير بشئون هذه الحياة ، وتفسير لكثير من معقداتها ، وتبسيط لكثير من مركباتها .

والنتاج القصصى فى أمة ، من أهم سجلاتها التى يلجأ إليها المؤرخون فى الناحية العقلية أو النفسية . يستنبطون منها ما يلذ لهم ويروق ، من مختلف النبضات فيها . إذ قصص الأمة مستودع آمالها ومكمن آلامها ، ومهب ماضيها وذكرياتها ، ومراد مستقبلها ومرجوها ، والعدسة المصورة لخفى حاضرها ، يودع فيه القصاص ما استلهموه من أمتهم من نقد و إصلاح ، ومن مثل وحكمة .

وتتلون القصص وتختلف ألوانها باختلاف نزعات الأمة فى كل طور من أطوارها .

والأدب العربى — فى جملته — فقير فى قصصه ، بالقياس إلى طول عصوره ، و إلى ما كان ينبغى له ولأدبائه من إنتاج خلال أيامها ، وبالقياس إلى النتاج القصصى

فى الأمم التى عاصرت العرب فى شتى أطوارهم ، كاليونان والرومان وفارس والهند .

وقد يعلل ذلك بأنهم وجدوا فى سعة شعرهم وما امتد إليه من آفاق بعيدة ، غُنية . كما وجدوا — بعد الإسلام — فى القرآن وقصصه وسيرة النبى ومغازيه ، وفى أخبار الخلفاء والصالحين ، عوضا .

وقد كانت القصص فى قديم منشئها ذات صلة بالأديان الوثنية . ولم تكن وثنية العرب — فى الجاهلية — من التعقيد بمكان يسمح بأن تتولد عنه القصة . كما أنه ، لاشك فى أن جمهور العرب — كأى جمهور آخر — كان يسمر ويتلهى فى وقت فراغه بالحكايات والروايات المختلفة ، ولكن ذلك أيضاً لم ينضج نضجا كافيا ، ينضح على أدبائه فينطقهم بترجمته أدبا قويا ، وقصصا فنيا ، محبوك الأطراف ، كما نشاهد فى القصص العربى الحديث .

فقد نهض فن القصة فى عصرنا الحديث نهضة محمودة ، بفضل اليقظة الفكرية الجديدة المتماوجة فى مختلف أقطار العرب ، وبفضل الحرية الأدبية التى ظفر بها الأدباء نتيجة للحرية السياسية — ولو إلى حد ما — وبفضل الثقافات المتعددة الوافدة على أسواق الفكر العربى من بقاع الغرب ولا نزال نرجو لهذا الفن الجديد ، اليمن والمزيد .

ومع هذا كله ، لم يخل الأدب العربى قط من القصص ، فى أى عصر من عصوره وإن يكن ذلك بمقدار .

ففى الجاهلية تجلى فى أخبار الحروب والوقائع والأيام ، وأنباء البارزين فيها من الأبطال مثل كليب ومهلهل ، وفى كثير من الأساطير التاريخية كأنباء النعمان وجذيمة والزباء . وقد انخذ بعض ذلك مدداً للقصة فى العصور التالية .

ثم طفر القصص طفرته المعجزة ، فى القرآن الكريم : فامتلأت سوره الكريمة بأنباء الأنبياء ، والأمم الماضية . وقد صور ذلك تصويرا فنيا بليغا بالقلم القرآنى

المعجز . وفى القرآن سورة بأجمعها تدور حول قصة واحدة ، وهى قصة يوصف الصديق عليه السلام . وقصص القرآن مسوق أولا لتسجيل الحق و بيان العبرة ، لا للذة الفنية والإمتاع النفسى ، و إن كانت اللذة والإمتاع من أهم آثاره ، بدليل التحدى بنظمها المعجز ، فى جملة آى القرآن .

كذلك ، لم يخل الحديث النبوى الشريف من القصص القويم ، الذى يضرب به النبى الأمثال للناس ، و يسوق لهم الحق والحكمة والتشريع فى ثوب قصصى بارع ، وتصوير فنى رائع . ومن ذلك حديث أم زرع ، وحديث الأبرص والأقرع والأعمى ، وحديث من تكلم فى المهد ، وقصة الإسراء والمعراج . وغاية الحديث منه هى غاية القرآن باستثناء التحدى .

وشغل العرب فى صدر الإسلام — فضلا عن شغلهم بالقرآن وقصصه ، وكلام النبوة وأمثاله ، بالفتح والغزو والجهاد فى سبيل الله ونشر دينه و بث تعاليمه ، على أنهم فى عصر بنى أمية قد ثارت بينهم ثائرة حقودهم القديمة ، وهاجت هائجة عصبياتهم الجاهلية . فكان ذلك سببا باعثا للعناية برواية القصص الجاهلى الذى هو مزيج من الحقيقة والخيال ، ونسيج من التاريخ والمبالغة هذا إلى جانب السيرة النبوية ، ووقائعهم الحديثة ورواية أخبار على ومعاوية والخلاف بينهما .

وعنى خلفاء بنى أمية ورجالهم ، بالتاريخ وألوانه ، وأجلس معاوية غلمانا له يقصون عليه فى هدأة من الليل أخبار الملوك الغابرين . وهذا كله مما يشعر بعناية العرب إذ ذاك بالقصص والحكايات . كما كان الحب العذرى مصدرا جديداً من مصادر قصصهم وحكاياتهم . واشتهر بينهم عدد من الشعراء العشاق اتخذوا الحب والشعر مشغلة لهم أو ملهاة ، منهم عمر بن أبى ربيعة ، وكثير عزة ، وجميل بثينة ، وقيس ليلى ، وتوبة وغيرهم ، وعاونتهم على ذلك حياتهم الاجتماعية فى عصر بنى أمية

وصاروا بذلك مصدرا من مصادر القصص العربى المدون فيما بعد . وأخذ الناس يقصون أنباءهم ويروون أشعارهم ويتلهون بسيرهم وأخبارهم ، ويضيفون اليها ما شاء لهم الخيال .

هذا إلى أن إثارة العصبيات ، وتعدد الفرق الدينية ، دعا بعض الزهاد إلى وعظ الناس ، فاتخذوا القص وسيلة من وسائلهم ينشرون به عليهم أخبار الصالحين وسير الأوائل المجاهدين بعبارات خلابة ، وتصويرات جذابة . هذا إلى أن الأدب والرواية كانا بعض وسائل التكسب لما وجد الأدباء نفاق سوقهما فانتابهم أن يتخذوهما وسيلة إلى الرزق بالسعى بهما فى المجامع بين الناس ، وصاغوا لهم ذلك فى قالب قصصى يزينه السجع وبعض البديع ، فكان ذلك منهم بدءا صالحا لفن المقامات الذى أينع وازدهر فيما بعد .

وإنما سقنا ذلك كله ، لندلك على أن الشعب العربى لها بالقصة ونحوها فى إحدى مراحل حياته ، وهى عصر الأمويين . ولسنا نزعم أن قصصه حينئذ ، قد استوى وذاع ، وأعجب وراع ، ولكن كانت له حياة على كل حال .

وفى العصر العباسى ، اتخذت هذه المحاولات الأموية مددا للقص والحكاية ، فدونت أخبار عمر وأنباء كثير وجميل ومن إليهم . وكان للثقافات الوافدة من الشرق والشمال ، على بغداد ، أثر — لاشك فيه — فى نضج العقل وقوته ، وسمو الخيال ودقته . وترجمت إلى العربية قصص كثيرة فارسية وغير فارسية . واتجهت عناية المترجمين بعد المأمون إلى نقل كتب الأسمار والخرافات ليتلهى بها الخلفاء . وقد كتب ابن النديم فى كتابه « الفهرست » فصلا عن تلك القصص قال فيه مانصه :

« إن مما ترجم عن الفارسية أو الهندية : كتاب رستم واسفنديار ، وكتاب بهرام شوس ، ترجمهما جبلة بن سالم . وكليلة ودمنة فسره عبد الله بن المقفع . وهزار أفسان ومعناه ألف خرافة ، نُقل عن الفارسية . ومن قصص الفرس . كتاب الكارنامج

فى سيرة أنوشروان . وكتاب التاج وما تفاءلت به ملوكهم . وكتاب دارا والصنم الذهب وغير ذلك . ومن أسمار الهند : كتاب سندباذ الكبير . وسندباذ الصغير . وكتاب يوناسف وبلوهر . وغير ذلك » . وقال بالنص :

« وكان — قبل ذلك — ممن يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم ، جماعة منهم عبد الله بن المقفع وسهل بن هرون ، وعلى بن داود كاتب زبيدة وغيرهم »[1]

وهذه المترجمات كانت بلاريب ذات أثر فى شحذهم القصاص إلى وضع القصص.

ولا ريب فى أن « رسالة الغفران » التى وضعها أبو العلاء المعرى ابتكار محض ، وتحتوى على عناصر القصة الأصيلة من حوار وخيال وتهذيب ، وإن كان نفعها فى مجال التثقيف الذهنى أربى منه فى المجال النفسى ، وذلك لما تحتوى عليه من اللغة والأدب والنقد . وكذلك قصة عنترة التى وضعت فى العصر الفاطمى ، عملى تأليفى جديد ، أما كتاب « ألف ليلة وليلة » وإن قيل إنه نقل عن الفارسية وأصله « هزار أفسان » فمما لا ريب فيه أنه قد زيد فيه تباعا ، قصص وضعها كتاب من العرب . — ولا نفس بعد هذا كله أن العصر العباسى عصر نشوء المقامات وزهوها ، وهى إحدى ألوان القصص .

ولما أهل عصر المماليك ، وجد رصيدا محمودا من القصص ، من كل أولئك . فعمل على نموه والإضافة إليه ، بقدر ما وسع أدباءه من حيلة ، وبقدر ما واتتهم ظروفهم الاجتماعية والثقافية ، وبذلك قيض لفن القصص حياة امتدت ، وعمر طال .

ورأينا فيه — أو سنرى هنا — عددا من الأدباء يعنون بالمقامة فيدبجون أسجاعها ويجددون أنواعها ، وبالحكايات يبتكرون فيها ، وبسير الأبطال

---

١ — اقرأ الفهرست لابن النديم ، المقالة الثامنة ص ٤٢٢ وما بعدها .

يسبغون عليها قبسا من الخيال .

وفى الفصول التالية نعرض بعض جهود هؤلاء الأدباء فى شىء من التفصيل والتحليل والاستنباط، لعلنا نقنع القارىء الكريم بأنهم كانوا خير خلف لخير سلف، بالرغم مما كانوا فيه من حرج وضيق، ووعثاء طريق .

وقد قسمنا الكلام هنا عدة فصول :

الأول فى المقامات : تحدثنا فيه عن مقامة للشاب الظريف ، وعن مقامات ابن الوردى ، ومقامتين للصفى الحلى ، ومقامتين للصلاح الصفدى ، ومقامة للقشلقندى ، ومقامة لابن حجة الحموى ، وعن مقامات للسيوطى .

الثانى فى الحكايات : تحدثنا فيه عن « طيف الخيال » لابن دنيال الموصلى ، وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه .

الثالث فى السير : تحدثنا فيه عن « عجائب المقدور فى أخبار تيمور » لابن عربشاه .

الفصل الأول

المقامات (١)

المقامة قصة يغلب أن تكون وجيزة . وتصب المقامة فى أسلوب لغوى بديعى أساسه السجع والمحسنات المختلفة ويكون لها — غالبا — مغزى . شأنها فى ذلك شأن بقية القصص . وإن كان من أهم مراميها — على ما يبدو — إحياء مفردات اللغة .

وقد نشأت المقامات فى العصر العباسى ، تأثرا بأسلوب أولئك المستجدين الذين كانوا يطوفون على الناس ، يتكسبون بالقص ويصوغونه فى قالب بديعى مسجوع ليكون له تأثيره فى السامعين . ويقال إن هؤلاء انتشروا فى أواخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسى .

ويقال إن أحاديث أبى بكر بن دريد المسجلة فى أمالى القالى ، كانت هى البداية الحسنة لفن المقامات (٢) . ثم كتب بديع الزمان الهمذانى مقاماته ، وقفى على أثره أبو القاسم الحريرى فبلغت المقامات على يديه ذروتها البديعية . ثم تبعه الزمخشرى وابن الجوزى وانتهى العصر العباسى ، وقد نضج هذا الفن نضجا لا مزيد عليه .

---

(١) مقامات جمع مقامة بفتح الميم . وهى فى أصل اللغة اسم للمجلس والجماعة من الناس . وسميت الأحدوثة من الكلام مقامة . لأنها تذكر فى مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة من الناس . أما المقامة بالضم فبمعنى الاقامة ، ومنه قوله تعالى حكاية عن أهل الجنة : ﴿ الذى أحلنا دار المقامة من فضله ﴾ عن صبح الأعشى ج ١٤ ص ١١٠ .

(٢) راجع النثر الفنى لزكى مبارك ج ١ ص ١٩٧ ومابعدها والأدب العربى وتاريخه لمحمود مصطفى ج ٢ ص ٩٧ .

ملحوظة يقال إن أبا المطهر الأزدى مؤلف حكاية أبو القاسم البغدادى فى نحو سنه ٣٠٦ هـ — وهو معاصر لابن دريد — أول من ألف فى المقامات . وأن بديع الزمان متأثر به أكثر من غيره وحكاية أبى القاسم البغدادى وصف لحياة البغداديين وعاداتهم .

وأهل عصر المماليك فلم ينِ أدباؤه عن تتبع أسلافهم ، ولم يقصروا عن بلوغ شأوهم . وتلمح أنهم منحوا أنفسهم حرية واسعة فى الخروج على تقاليد أهل المقامات ، وخاصة فيما يتعلق بلغتها وبمغازيها . فخرجوا بها على الأقل ، عن ميدان الاستجداء ، ولم يقصروها على رجلين يروى أحدهما قصة الآخر ، وهذا الآخر شحاذ لبيب ، ومستجدأ ريب ، كان يتحيل على الناس بأدبه ، لينال من عطائهم . لم يقتصروا على ذلك ، بل كتبوها فى الوصف والغزل والعظة وألوان من العلم ، وضروب من الفكاهة والتسلية ، إلى غير ذلك مما سنراه بعد قليل . ثم إنهم لم يتقيدوا بسوق عدد ضخم من مفردات اللغة ولو لغاية تعليمية ، كما كان كتاب المقامات الأولون يقيدون أنفسهم .

ويبدو من تتبعنا لحركة الأدب والإنشاء فى هذا العصر ، أن كثيرا من أدبائه أنشئوا المقامات ، ومنهم : الشاب الظريف وابن الوردى ، والصفى الحلى ، والصلاح الصفدى ، والشهاب القلقشندى ، والتقى بن حجة الحموى ، وجلال الدين السيوطى . ونتحدث فيما يلى عن بعض مقاماتهم .

١ — مقامة للشباب الظريف [1] « ٦٨٨ هـ »

الشباب الظريف ، واسمه شمس الدين محمد بن سليمان بن على ، أحد شعراء مصر النابهين من طلائع شعراء العصر . عاش بين سنتى ٦٦١ هـ ، ٦٨٨ هـ . وتوفى فى هذه السنة بدمشق ، بعد ما عاش فى القاهرة — التى ولد فيها — زمنا . عاش فى مثل عمر الزهر ، سرعان ما جف عوده ، وذبل ورقه ، ولم يذع من عطر أدبه إلا القليل ، ولكنه قليل خالد .

وقد ترجم له صاحب الفوات ناقلا كلمة شهاب الدين بن فضل الله العمرى عنه فى « المسالك » حيث قال فيها : « نسيم سرى . ونعيم جرى . وطيف لا بل أخف موقعا منه فى الكرى » . الخ وهو وصف أدبى لا يجزىء فى الناحية التاريخية .

---

(١) ترجمته فى فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٦٣ — وترجمة أبيه ح ١ ص ٢٢٨ .

والقليل الذى تركه من أخباره وأشعاره ، يدل على أصالة الأدب فى نفسه ، وعراقة الشعر فى حسه . فشعره ديباجة جمعت بين الجزالة والرقة ، وبين القوة والوضوح . وهو شعر مرقص جميل صدقت فيه العاطفة وقوى الشعور ، وماجت هاجسة الحب . فأصبح حبيباً إلى النفوس ، قريبا إلى الألسنة ، فصلح للغناء والإنشاد . ويزيده تكراره حلاوة ، وترديده عذوبة . ولهذا كان صاحبه جديرا بلقبه الذى عرف به بين معاصريه . وهو صاحب الأبيات التى يتغنى بها فى عصرنا ، ومطلعها :

لا تخف ما فعلت بك الأشواق واشرح هواك فكلنا عشاق

وقد دار حول الغزل ، بل قل إنه شاعر الغزل . فشعره إما غزل صراح تتنزى فيه عاطفة الحب تنزيا سافرا بما يتصل به من إظهار لوعة وشكوى هجر ، وأمل وصال ، ونحو ذلك ، وإما أغراض أخرى كالمدح النبوى ، والحماسة والحكمة والشكوى والتهنئة والفخر والوصف والاستدعاء ، وترى فيها أخيلة الغزل وروح العشق تتمشى فى أبياتها وتتواثب بين سطورها .

وقد اتصل الشاب الظريف بكثير من رجالات عصره ومدح بعضهم ومنهم القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، والقاضى محيى الدين بن النحاس .

وإليك أبياتا من شعره ، على سبيل المثال ، مما يفيض غزلا ويترقرق عاطفة :

أخجلت بالثغر ثنايا الإقاح يا طرة البدر ووجه الصباح

وأعجمت أعنيك السحر مذ أعربت منهن صفاحا فصاح

فيالها سودا مراضا غدت تسل للعشاق بيضا صحاح

يا للهوى من مسعد مغرما رأى حمام الأيك غنى فناح

يا بانة مالت بأعطافه ها قد عرفنا منك هز الرماح

وأنت يا أسهم ألحاظه أثخنت — والله — فؤادى جراح

مقامة :

ويبدو أنه كان مجيداً فى الإنشاء إجادته فى الشعر . ولذلك خصوصية نادرة بين الأدباء . وليس بين أيدينا من نثره إلا مقامته التى نتحدث عنها . وهى وحدها كافية لأن تشهد لإنشائه بالجودة . وقد طبعت أكثر من مرة . واستغرقت نحو ثمانى صفحات من القطع الصغير .

هذه مقامة شاعرة . أو هى قصيدة منثورة ، تماوجت فيها العاطفة ، واستطارت الوجدانات . ومع غزلها الصارخ ، عف لفظها وطهر أسلوبها ، فلم يسف إلى مجون ، ولم يسفل إلى مبتذل . . .

وهى قصة قليلة الحوادث ، وأقرب إلى المقالة الواصفة منها إلى القصة ذات العقدة ، والحوار الذى يتخللها هادىء ، ولا عنف فيه ، ولكنها — كما قلنا — مقامة شاعرة إذ تلمس فى ألفاظها وأساليبها ومعانيها الجزئية حرارة لا تحسها إلا فى الشعر .

وهى تدور حول شاعر أحب أن يتفرج برؤية الرياض . فوجد بينها جماعة يتذاكرون الأدب ، ويروون الشعر والخطب . وبينهم شاب بدت عليه أمارات الغرام . وكست جسمه حلل السقام يبكى بكاء مراً مما أصابه . فيمم الشاعر نحوهم سائلا عن خبر هذا الشاب الباكى . فيعلنونه بجهلهم به وبحاله . فينظر الشاب إليهم شزراً ، ثم ينشد شعراً ويأخذ فى وصف حاله بين أبيات تسيل فيها كئوس الحب ، وتفيض اللوعة . فهو شاب عاشق ، صدّ عنه معشوقه وجفاه . فآده الود وهده الصد . وقد أخذ يصف لهم معشوقه ويبين كيف لقيه ، وما امتاز به من محاسن ومفاتن ، جعلته له عبداً وأسيراً . فطفق يتوسل إليه بشتى الوسائل ، ولكنه صد عنه .

وقد أعجب الحاضرون بحديث الشاب ، وطربوا له أيما طرب ، حتى دبت حماسة الحب فى شاب آخر منهم . فقام على الأثر يبكى على غراره ، وينتحب ، ويبث حديث

حبه وهيامه ، ويذث قديم عشقه وغرامه . حتى زاد وعم وفاق وسبق . وطغى حديثه على حديث الأول . وما زال سادراً فى كلامه ، مستمرا فى شكواه ، واصفا ما يعانى من هجران ، وما يلاقى من جفاء ، وما بذل من وسيلة ، وما قدم من حيلة ، فلم تنجع وسائله ولم تنفع حيلة . وما كان من معشوقه أخيراً ، إلا أنه أعلن بذهابه إلى بيت الله حاجا . فودعه عاشقه بدموع غزار وقلب هائم قتله اليأس ، ونفس ولهى هدها الجفاء . . . وهكذا ، فأعجب به الحاضرون . وفى ذلك يقول الكاتب :

« فلم يبق من الجماعة إلا من أثنى عليه وشكر . وطرب من حميا بلاغته وسكر . وقالوا قد عرفنا بدقيق غرامك وجليله . فأنشدنا ما قلته بعد رحيله . فأنشد :

هل عائد والأمانى ربما صدقت دهر مضى ومغانى حسنكم أمم

يا غائبين ووجدى حاضر بهم وعاتبين وذنبى فى الغرام همُ » الخ

ونعتقد أن الأبيات الشعرية التى تخللت سطور هذه المقامة من نظم الكاتب . ويعزز هذا ، أن منها ما هو مثبت فى ديوانه .

وإليك سطورا من هذه المقامة . قال فى أولها على لسان الشاعر :

« لم أزل مذ بلغت سن التمييز . أولع بنظم الأراجيز . ومذ شب عمرى عن الطوق مغرى بالغرام والشوق [1] أعتمد خلع العذار . فى حب السالف والعذار . وأهيم بالشمول والشمائل . وأشرب فى زجاجة صفراء كالأصائل . وأقدم على رشف ثغور البيض . ولا أقدم حذرا من ضرب المرهفات البيض . وأتوجه لضم أعطاف السمر . ولا أتوجع لضيم انعطاف السمر . وأتنزه فى كل ناد وواد . وأتنزه عن كل معاند ومعـاد .

فخرجت بعض الأيام إلى الغياض . وولجت بين حياض ورياض . قد ضاع نشرها وضاء بشرها . وقبل خد الشقيق بها ثغر الإقاح . وملأت قماريها تلك النواحى بالنواح .

---

١ — فى الأصل : النوق بالنون ، ورجحنا أنها شين .

من جدول يميل كالأيم . شطآه بالزهر كقزح فى الغيم . فهو من صور الحباب كالحباب . ومن طرب الاضطراب فى عباب . تصفق غدرانها . وترقص أغصانها . وتفخر أزهارها ويشدو هزارها . وتبكى عيون نرجسها . بينبوع منبجسها . ويميل طربا وسميها . إذا أتاه نسيمها . ويحمر شقيقها خجلا . ويصفر بهارها وجلا .

ويبدو حسنها خضرا ... ويبدى زهرها خضلا
إذا ما الصب شاهده ... صبا واستأنف الغزلا
وتحسب جنة الفردو ... س عنه حسنها نقلا »

ومن كلام الشاب العاشق يفصح عن حبه ومكنون قلبه ، وسببه ، قوله :

« وأما سبب تعلق بحبه . ووقوع قلبى فى شرك عينيه وهدبه . أنه تراءى لى بعض الأيام بالجامع المعمور . وهو من وجهه وشعره كالقمر فى الديجور . يميس كالقضيب . ويرنو كالرشأ الربيب ، قد حمى ورد خده و إقاح ثغره ، بعقارب أصداغه وحيات شعره :

قمر رأيت الكون ضاء ببشره ... لما سرى حسنا وضاع بنشره
ظبى وما للظبى لفتة جيده ... غصن وما للغصن دقة خصره
يبدو اعتدال قوامه فى ميله ... وتبين صحة جفنه فى كسره

قد استمد بليغ الشعر منه نقسه . فعرض بديع الحسن عليه نفسه . فللجمال بوجهه تقسيم وللسحر بناظره تسهيم » . الخ

ويصف محبوبه فيقول :

« وجه كالبدر فى سناه وسنه . وعطف لا يشفع العطف عنده إلا بإذنه . ومبسم كالبرق ضياء ولمعاً . وأعين يخيل لى من سحرها أنها تسعى . قد نادت محاسن وجهه

بكل من هام بحبها . لتأتينكم بجنود لاقبل لكم بها . وقد أحدق به كل ناظر . وحدق إلى جماله المناظر . فراقتنى هيئته . وراعتنى هيبته . وجعلت أستحلى محياه . وأستجلى من حديث حياه . فما أرسلت له رائد نظرة . إلا أرسل إلى حسرة . فعدت إلى منزلى بأسى وأسف . وشعف وشغف . أكفكف الدموع . وأطوى على الحرق الضلوع . وبت لا أعرف المنام بجفنى قرارا . ولا أجد عن الغرام لقلبى فرارا . »

ومما قاله الشاب الثانى مراسلا محبوبه مستعطفا :

« أما بعد . فقد علمت حال محبتك . وما يشكوه من الجوى فى حبك . فبالله ياغصن النقا لا تمل عنه عطفك . ويانسيم الصبا لا تحرمه عرفك :

يشكو إليك متيم صب جفاه هجوعه
يعصى العذول على هوى بك لايزال يطيعه
يفديك من ألم الجوى ما ضمنته ضلوعه
إن لم ترق له فقد رقت عليك دموعه » الخ

وبعد فيبدولنا أن هذه المقامة قطعة من نفس الشاب الظريف ، قبسها من قلبه وضمنها أسرار حبه . فإنما هى فيض من نفس وطاقة زائدة من مرهف حسن . و يبدولنا أن هذا الشاب الذى شاعت فى شعره رقة الحب وحرارة الغزل ، إنما يعبر فيه عن آلامه وعواطفه . وما مقامقه تلك إلا صورة جديدة من صفحته الشعرية .

ب — مقامات ابن الوردى [1] ٧٤٩ هـ

التعريف بابن الوردى :

هو زين الدين عمر بن مظفر بن الوردى المعرى الكندى . أحد أدباء الشام البارزين ، وأحد علمائه النابهين .

وقد نشأ بحلب ، ودرس فقه الشافعية . وبرع فى النظم والنثر . وناب فى الحكم عن قاضى قضاة الشافعية بالشام كمال الدين بن الزملكانى [2] واشتغل بالتاريخ . وألف فيه كتابه « تتمة المختصر » ذيل به لكتاب أبى الفداء « المختصر فى أخبار البشر » . كما برز فى النحو والفقه وغيرهما .

ويبدو من رسائله ومكاتباته أنه اشتغل بالتدريس زمنا . وتخرج به فى الفقه والنحو طلاب عدة ، وقد أجازهم . ولما ناب فى الحكم عن ابن الزملكانى كانت نيابته فى حلب ، ثم منها إلى قضاء منبج ، ويبدو أنه لم يسترح لهذا النقل ، وحاول مع ابن الزملكانى أن يرجعه إلى مكانه الأول واختصاصاته الأولى ، فلم يأبه له ابن الزملكانى فكان ذلك سببا فى نفرة شديدة بين الرجلين . وقد عاتبه ابن الوردى عتابا شعريا مرا ، وحمل عليه حملة شعواء ، ومن ثم سخط على القضاء وعلى الوظيفة ، وطلق المناصب ، وآثر حياة الحرية بما يكتنفها من خمول وخمود صيت ، وفضل حياة الخمول على النباهة والشهرة .

وابن الوردى من الأدباء الذين حنقوا على الأدب حنقا لا مزيد عليه ، فى عصره الذى قبضت فيه عن الأدباء كف التشجيع ، وصوح فيه روض العطاء ، فشح نبته ، ورغاض ماؤه ، حتى كادت تنفر منه بلابله الأليفة ، وعنادله الشادية .

---

١ — ترجمة فى طبقات السبكى ج ٦ ص ٢٤٣ — والدرر الكامنة ج ٣ رقم ٤٧٢

٢ — ترجمته فى الدرر الكامنة ج ٤ رقم ٢١٠ — وفوات الوفيات ج ٣١٢ — وكان محدثا فقيها مصنفا أديبا توفى سنة ٧٢٣ هـ فى مدينة بلبيس ودفن بقرافة الشافعى .

وأصاب ابن الوردى شئ مما أصاب جمال الدين بن نباتة ، فشكا كل منهما بؤسه وشقاءه وبكى آلامه . ونكن ابن نباته ظل على حسن ظنه بالأدب وقيمته فقال :

لاعار فى أدبى إن لم ينل رتبا ... وإنما العار فى دهرى وفى بلدى

هذا كلامى وذا حظى فيا عجبا ... منى لثروة لفظ وافتقار يد

وأما ابن الوردى فقد نعى على الأدب ومحترفيه فى زمنه الضن الشحيح . وحمل على الشعر الذى يحوج صاحبه أو يسخره صاحبه فى سبيل الكسب والسعى إلى الأبواب. وفضل عيش الفاقة على الغنى الآتى عن طريق هذا التكسب ورضى بالشعر والأدب إذا عف صاحبهما عن التكسب بهما . وفى هذه المعانى يقول :

قد كسد الشعر فيا أهله ... بشراكم إذ ذاك بالعافية

زال لباس الذل منكم وقد ... صرتم إلى مرتبة عاليه

حق ركوب الشعراء الضحا ... فى زمر الأحزاب بالغاشية

ويقول :

قالوا لقد كسد القريض فقلت بل ... عاشت ضراغمه ومات ضباعه

الآن طاب سماعه وتقطعت ... أطماعه وتعززت صناعه

وقد خلص ابن الوردى من هذه النزعات بما يصح أن يسمى مبادىء ومذاهب وفلسفة خاصة . وهى تدور حول الزهد فى المناصب الرسمية، وفى حياة النباهة والصيت، وبخاصة الآتية عن طريق المناصب فهى زائفة وفضل حياة الخمول ووجد فيها لذة كان غافلا عنها ، فلما تذوقها لم يعدل بها شيئا .

نقول إنها فلسفة أو مذهب ، إذ أن هذه المعانى والأفكار رسخت فى نفس ابن الوردى رسوخا قوياً ، وتركزت فى دمائه تركز العقيدة . حتى رددها فى شعره مرارا لا تحصى وكرر ذكرها مؤيدة ببراهينه وحججه القوية . ويعتقد تمام الاعتقاد أن سعادة المرء موقوفة على حظه المقسوم له ، لا على شىء آخر من ذكاء عقل أو سعة علم ،

أو حنق أدب ، وبخاصة إذا أوتى المرء نفسا أبية وخلقا صلبا ، يتأبى على الحوادث . وهو يقول :

لا تحرصن على فضل ولا أدب ... فقد يضر الفتى علم وتحقيق
ولا تعد من العقال بينهم ... فإن كل قليل العقل مرزوق
والحظ أنفع من خط تزوقه ... فما يفيد قليل الحظ تزويق
والعلم يحسب من رزق الفتى وله ... بكل مقسم فى الفضل تضييق
أهل الفضائل والآداب قد كسدوا ... والجاهلون فقد قامت لهم سوق
والناس أعداء من سارت فضائله ... وإن تعمق قالوا عنه زنديق

وقد توفى ابن الوردى عام ٧٤٩ هـ ، بعد أن ترك شعرا عليه طلاوة ، وفيه جدة ، وبه متعة ولذة ، تتمشى فيه روح شاعرة قوية وثابة ، وتدفق دون تزويق أو تعثر أو اضطراب . ونظمه فى الغزل والوصف والاخوانيات والحكم والأمثال ، وهو صاحب اللامية المشهورة باسمه .

وله نثر رائق فى جملته ، غير أنه أقل جدة وإشراقا من شعره ، ففيه تكلف وقلق ونزول أحيانا وفى معانيه ضآلة وتفاهة ، بالقياس إلى أساليب شعره ومعانيه .

وقد كتب ابن الوردى الرسائل الاخوانية والإجازات العلمية ، والرسائل الوصفية والخطب والمقامات . وترى فى مواضع مختلفة من بحثنا هذا ، نماذج لذلك مختلفة ، كل بمناسبته .

ونتحدث هنا فيما يلى ، عن بعض مقاماته .

١ — صفو الرحيق فى وصف الحريق [1] :

فى عام ٧٤٠ هـ شب فى دمشق حريق رائع اندلع لهيبه فى أرجائها ، واستطار شرره واشتد خطره وضرره ، وباءت منه المدينة العامرة وأهلها بالخراب والبوار .

(١) هذه المقامة فى ديوان ابن الوردى ، وكذلك مقاماته التاليه — وهو طبع الجوائب سنه ١٢٠٠ هـ

ويبدو أنه قد قام بتسجيل هذا الحريق أكثر من أديب ، ومنهم ابن الوردى والصلاح الصفدى ، وقد سجله كل منهما فى مقامة لطيفة .

أما مقامة ابن الوردى فقد سماها « صفو الرحيق فى وصف الحريق » وقد بدأها بقوله : « حدث غياث بن سحاب عن ندى بن بحر » . وهذا استهلال موفق للمناسبة البارزة بين هذه الأسماء وموضوع المقامة .

وأسلوبها بديعى فيه الكثير من الطباق والتضمين والاقتباس والتوجيه ، ونثر الأبيات الشعرية . واقتباساتها طريفة ومنسجمة مع المناسبة ، وسجعاتها هينة لطيفة ، وإن كانت لم تسلم — جملة — من التكلف .

فمن اقتباساته قوله : « وأصبح أهل دمشق حيارى ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى » .

ومنه مع التوجيه قوله : « فكم أحزاب زمر جائية لغاشية ذلك الدخان وكم صاحب دار إذا زلزلت عبس وتولى »

ومن طباقه قوله : « فتبادر إليها فتية ، قالوا النار ولا العار . ورزقهم الله الجنة فما أصبرهم على النار وقوله : « ورحموا عزيز قوم ذل ، وغنى قوم افتقر »

ومن تكلفه فى السجع ، وهو مثير للطرب ، لتكلفه ، قوله ، يصف مماليك نائب دمشق :

« وجاءت مماليكه الحسان خلالها ، وأصداغهم كالعقارب ، وشعورهم كالأفاعى . وتمت لهم الكرامة الأحمدية باقتحامها ، فسلام الله على ابن الرفاعى . . . »

وقد وصف ابن الوردى هذا الحريق . وضح بعض وقائعه ، وبين أنه امتد إلى بعض الأبنية كالمدرسة الأمينية ، وأنه انتشر فى الأسواق كسوق الدهشة والوراقين والسكة والخيمية . وأشار إلى هلع الناس وفزعهم وإلى أقدام شبان دمشق على إطفاء

الحريق ، واهتمام نائبها الأمير « تنكز » بالقضاء عليه . إلى غير ذلك .

وإليك شيئا من هذه المقامة ، قال فى أولها :

« حدث غيث بن سحاب عن ندى بن بحر ، قال : بينما أنا ذات ليلة من سنة أربعين ، وقد أويت من دمشق إلى ربوة ذات قرار ومعين . وإذا بضجيج أهلها قد ملأ الآفاق . والنيران فى أسافلها وأعاليها قد بلغت التخوم والطباق . فبادرت إلى الجامع الأموى لأمنه ويمنه . فوجدت العالم كأنهم قطعة لحم فى صحنه . وقد أرسل على أحاسن دمشق شواظ من نار ونحاس . وقربت النار من جامعها الخضر حتى كاد يحصل منه اليأس . وثارت النار لأخذ الثار مسرعة فى كلبها . وجاءت حمالة الحطب فتبت يدا أبى لهبها .

حمراء ساطعة الذوائب فى الدجى ترمى بكل شرارة كطراف ، الخ

وقال يصف بعض أسواق المدينة ، مما امتدت إليه النار وأتلفته ، مستخدما أحيانا فى عبارته ألفاظا تناسب المعانى الملابسة لهذه الأسواق ، فى بعضها جناس أو تورية ، ويذكر نائب دمشق « تنكز » :

« فيالسوق الكفت ، ما كفت النار عنه لسانا . ولاثنت عنه سوابقها عنانا . ونعوذ بالله من نار علكت عليهم اللجم . وسبكت مهجته حتى أفصح التأسف له الألسن العجم . ووثبت إليه من بعيد ، وقالت : آتونى زبر الحديد .

ويالسوق الخيم كيف خيمت عليه . وتجلد لها والنار بين جنبيه . إنها عليهم مؤصدة . فى عمد ممددة . فلولا اللطف مامد له طنب — ولاسلم لعروضه وتد ولاسبب . ولكن تداركه من الماء والتراب ، برد وسلام . وشكت خيامه الظمأ فقيل لها : سقيت الغيث أيتها الخيام .

ويا لسوق القسى ، كيف تبرأ منه قوس السحاب . وسويت قسيه ، كل فنون تسبيح فى ماء الذهب فآلت إلى الذهاب . ورمى بها من النيران . وقالت له النار قد دخلت

فى باب أن من الأنين ، وستدخل فى باب كان . فقد قمت على قسيك نارى . وطلبتها بأوتارى . وجعلت كل نون ألفا . وقرأت لها فى ملحمة ابن عقب : من مصارع القرون ما كفى .

هذا وقد أضاء الليل بالنار ، حتى صدق القائل . وقال الدجى : ياصبح لونك حائل . فبينا الحنايا فى المرقب من اللهب . وقلوب أصحابها فى المعرة وأعينهم فى حلب . وإذا بالنائب قد أقبل . وصبره مقلص ودمعه مسبل . وقال : وا أسفا لمدينة عمرتها . ووا لهفا لأوقات ثمرتها . كيف تصل النار إلى محاسنها . وتتمكن من أماكنها . . . ؟ فقال له لسان القدر الصانع : هذه أول عقوبتك بإخراج الكلاب والضفادع . فالعجب أخبث سجية . وللكلاب — كما قيل — خطية . وقيل :

تنكر تنكز[1] بدمشق تيها ... فقاسوا منه أنواع العذاب

وقالوا للضفادع ألف بشرى ... بميتته فقلت وللكلاب » الخ

---

٢ — المقامة الصوفية :

تدور حول وصف الصوفية ، وبيان أحوالهم وتفسير إشاراتهم . وتتضمن حواراً بين إنسان من معرة النعمان ، سافر إلى القدس الشريف ، وبين من لقى فيه من الصوفية عشرة رجال ، فيهم شيخ وقور .

قال ابن الوردى فى مطلعها :

« حكى إنسان من معرة النعمان ، قال : سافرت إلى القدس الشريف ، سفر منكر بعد التعريف . فاجتزت فى الطريق بواد وقانا لفحة الرمضا . وقال : حكمت على الوادى

---

١ — تنكز الحسامى أحد أمراء مصر فى عصر المماليك . وقد ولاه الناصر بن قلاوون نيابة الشام وجعلها أرفع نيابات السلطنة فلبث فيها تنكز زمنا طويلا حتى أثرى ثراء فاحشا . ثم وقعت بينه وبين الناصر فقبض عليه وخنق فى سجنه بدمشق عام ٧٤٠ هـ « فوات الوفيات ح ١ — الدرر ح ١ رقم ١٤٢٤ »

الذى تروع حصاه حالية العذارى . فقلنا : دائم الحكم والإمضاء . وإذا عين كعين الخنساء تجرى على صخر . ويقول ماؤها أنا سيد مياه هذا الوادى ولا فخر . فرويت كبد صاد من تلك العين . ولكن نغص منظرها الحسن بذكر ظمأ الحسين . هذا وماؤها يجرى على رأسه خدمة للوراد . ويطوف بنفسه سواء العاكف فيه والباد . » الخ

ثم لقى هذا الوافد عشرة من الرجال بينهم رجل كبير السن والقدر ، وجميعهم من الصوفية . جعلوا يتهامسون فيما بينهم . ويتبادلون أحاديث رمزية ، لم يدر زائرهم من معانيها شيئاً ، حتى دعاهم شيخهم الكبير أن يشركوا هذا الزائر معهم فى تلك الأحاديث . فأخذ يسألهم عن أحوال الصوفية و إشاراتهم ، وعن مرامى رموزهم المختلفة التى استعصى عليه فهمها لاكتنافها بغموضة و إبهام زائدين . وكلما سأل سؤالا تعرض شيخهم للاجابة عنه ، وتفسير ما غمض من الرموز و الإشارات .

ومن ذلك قوله :

« وأما شرط الصوفى باستحقاق . فأن يتخلق بأخلاق الرسول . ويفوز من سؤل رياضاته بالشمول . ويتنكب عما عنه تكب . ويأخذ بما إليه ندب . لا يتخذ محرمه ربيعه . ولا يجرى كالعاصى الذى يزيد إعراضه عن الشريعة . فقد صفا من الكدر . ونحى عن الفكر . ونجى من الغير . ومن عدل عن سمته ونهجه . وعول على حكم نفسه وهرجه . وسعى لبطنه وفرجه . كان من التصوف خاليا . وفى التجاهل ساعيا . ومن داخله فى ذلك مرية . فقد عطل عما ذكره الحافظ فى الحلية .

قال الحاكى : فلما سمعت ما قاله هذا الشيخ الجليل أكبرته و بالغت فى التبجيل . وقلت له : ياسيدى ! لى زمان أحرص على مثلك ، فما ظفرت به من قبلك . فتمم العطاء واكشف لى الغطاء . عن أشياء . تعانيها متصوفة الوقت . وميز لى منها ما يستحق المقة من المقت . قال : سل عما تريد . قلت أول : بيت فى القصيد ، لم حلقوا الرءوس وقصروا الثياب ؟ قال : موافقة لما فى الكتاب » الخ .

هكذا أخذ الحاكي يسأل والشيخ يرد. فسأله عن نحتم الصوفية بالعقيق وجلوس وردهم على باب الرباط، ودخوله بهيئة المسافر، ووضع ساقيهم إبهام رجله اليمنى على إبهام اليسرى، إلى غير ذلك.

ويتخلل حديثه نقدات لمتصوفة زمانه، حيث يقول:

« إن متصوفة اليوم. أصحاب أكل وشرب ونوم. يروون الأقوال. ولا يتبعون الأفعال. وافقوهم ملبسا. وخالفوهم أنفسا. يدعون ما ليسوا من رجاله. يخيرون الشخص بين عرضه وماله. يحبون الجاه والشهرة. ويؤملون برد النعيم على فترة.

اعتزل الناس وملـ ... عنهم بنفس صادقة
صار الرباط كاسمه ... والخانقاه خانقة
والناس وقد تصنعوا ... وليس فيهم بارقة
إلا قليلا قال عن ... دنياه أنت طالقة

قلت: إلى رؤية هذا القليل أميل. فبهم تبرد النار ويشفى القليل. فليت طرفى قبل الموت المحتوم. أكتحل بنجومهم الزاهرة، فنظر نظرة فى النجوم.

قال الشيخ: كم ندفعك فلا تندفع. ونقطعك فلا تنقطع. الآن أعجبنى صدقك. ووجب علينا حقك وأنشد:

هكذا كن محبة واحتفالا ... واعص فينا الوشاة والعذالا
لك منا تكرم واستتار ... ولنا منك أن تطيل السؤالا
إن لله فى الوجود وجوها ... تركت حسنها له والجمالا
فاعلموا أن فى الزوايا خبايا ... وافهموا أن فى السويدا رجالا الخ»

وأسلوب ابن الوردى فى مقامته تلك — وسائر مقاماته — فيه ضعف ونزول عن مستوى الجزالة. واتضاع عن أسلوبه الشعرى. ومع هذا نلحظ فيه النهج البديعى واضحا، مع التزام السجع وقصر فقراته غالبا، وتضمين شىء من أبيات الشعر، وحل

أبيات أخرى كقوله « بواد وقانا لفحة الرمضا . وقال: حكمت على الوادي الذى تروع حصاه حالية العذارى» . وذلك حل لأبيات حمدونة الأندلسية من قولها .

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم

تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

وقد اقتبس أو ضمن شيئا من القرآن الكريم كقوله «سواء العاكف فيه والباد»

ومن توريته قوله : « وإذا عين كعين الخنساء تجرى عن صخر » وقوله « ولا يجرى كالعاصى الذى يزيد إعراضه عن الشريعة » . وفيهما تلميح أيضا ، فالخنساء الشاعرة المخضرمة المشهورة ، وصخر أخوها ، والعاصى والشريعة نهران .

ومن مطابقته قوله : « بحاضرة جلالتهم بادية » و « وافقوهم ملبسا ، وخالفهم أنفسا » وفى هذه العبارة ازدواج وسجع أيضا .

ومن عكسه قوله : « سلوك الحسن يحسن السلوك » . إلى غير ذلك .

ويهمنا من تلك المقامة أنها ترسم لنا طرفا من حياة الصوفية ومن حياتهم فى عصر ابن الوردى — ولو إلى حد — وتبين لنا مبلغ ما أكثروا من الرموز والإشارات ليحيطوا أنفسهم بهالة من الغموض تنبعث منها جلالة .

ولقد لتصوفى زمانه دلالة على مبلغ نظرة المثقفين إليها ، وأنها نظرة شزراء . إذ كان الصوفية حينذاك قد استشرى خطرهم وزاد نفوذهم ، حتى وصلت أصابعهم إلى سياسة الدولة ، وأصبحوا ذوى سلطان على الخاصة والعامة على السواء . مع أن وجودهم الزائف دليل على تفشى ضعف الإيمان فى النفوس ، إذ أصبحوا — وهم الذين يزعمون الزهادة والعبادة — لاهم لهم إلا الطعام والشراب وما جرى مجراه . . . وتلك حياة بطالة فاعمة ينفر منها المؤمنون بالله حق الإيمان ، والعارفون بدينه حق المعرفة .

المقامة الأنطاكية :

سار ابن الوردى فى هذه المقامة على نهجه فى سابقتها ، واتبع نفس الأسلوب البديعى المسجوع ، وفى نفس المستوى — وبدأها بقوله : « حدث إنسان من معرة النعمان » .

والمقامة تدور حول وصف جمال أنطاكية ، وبيان مافيها محاسن غدران وأطيار ، ومفاتن رياض وأزهار . وقد خللها بأبيات فى المعنى ، بين كل طائفة من السطور ، ومنها مقطوعة فى نحو ثمانية عشر بيتا فى وصف المدينة ، ومجاليها الجميلة .

وتتضمن المقامة الإشارة إلى أن فى المدينة كثيرا من العجم ، وقليلا من العرب ، وبين الفريقين شحناء وعداوة . وقد صاغ المحدث كلامه هذا فى حوار بينه وبين والى المدينة ، الذى أمضه وآله مابين عجمها وعربها من شقاق ، وأضناه سوء العيش بها ، حتى أصبح يرجو فراقها — فلامه « المحدث » لملله منها ونفوره عنها ، وطفق يصف له محاسنها .

وقد قال فى مستهلها .

« حدث إنسان من معرة النعمان . قال : كثيرا ما كنت أسمع بين البرية الثناء على نزه أنطاكية . وأنها قطع لمن لم يصلها . وخروج لمن لم يدخلها . ولقوط ثمائهم عليها . تجهزت للمسير إليها . فلما دخلتها . وشاهدتها وتأملتها . أكبرت طولها . وطولها . وعجبت لحصانتها والعاصى دائر حولها . ودهشت لاستخراج الظاهر من باطنها . وانتعشت لاستدراج الكافر عن مواطنها . حتى قسا قلب القسيان على برج الخرس . وما بكت عين بولص على ما اندرس . وأشهر فى التواريخ حديثها . وبدل بالتوحيد تثليثها . وفتح باب جنانها . لمن أصبح من سكانها — فحمدت الله الذى جعلها دار إسلام . وشكرته على هذا الفتح الذى خص أحزاب المؤمنين بالإنعام . فانتهيت من بدايتها . إلى دار ولايتها . فوجدت والى المدينة . شابا ذا سكينة . فلما سلمت عليه —

وأجلسنى إليه . أخذ فى مؤانستى . وأظهر الابتهاج بمجالستى . فغبطته بحسن زينته . وطيب مدينته . فتنفس الصعداء وترنم منشدا :

كم من صديق صدوق الود تحسبه ... فى راحة ولديه الهم والكمد

لاتغبطن بنى الدنيا بنعمتهم ... فراحة القلب لم يظفر بها أحد

قلت : لله در فصاحتك . ما السبب فى عدم راحتك . قال : لقد جمعت هذه المدينة بين عرب وروم . وأنا معهم فى الحى القيوم . لا أطيق فيهم قرارا . لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا . ومن يطيق الجمع بين الضدين . أم من يقدر على موالاة ندين . وكيف يظفر ساكن أنطاكية بنيل أرب . وقد حنيت أضلع العجم على بغض العرب . كم أجد ويلعبون . وهم من بعد غلبهم سيغلبون .

من كل فظ أعجمى غث الكلام مذمم

إن نبهته مروءة فتقول عجمته نم

قلت : قصر عن خطاك خطاك . واشكر من أنطاك أنطاك . فسورها منيع . وعاصيها مطيع . وأطيارها تحن إلى نغماتها الجوارح . وأنهارها مطررة وعيونها سوارح . ونسيمها يبطل رائحة المسك السحيق . وساكنها يزهى على الغصن الوريق . يصدأ بهوائها السلاح . وتجلى به القلوب والأرواح . برية بحرية . سهلية جبلية . منثورها منثورها .

متكامل فيها السرور لمن بها ... يوما أقام كما تكامل سورها

وخلت قلوب قصورها فاستضحكت ... إذ عاش شاكرها ومات كفورها » الخ

ومن طباقه فيها قوله : « إنها قطع لمن لم يصلها . وخروج لمن لم يدخلها » ، « ودهشت لاستخراج الظاهر من باطنها » .

ومن اقتباساته قوله : « لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً » و « وهم من بعد غلبهم سيغلبون » .

ومن توریاته قوله : « وعجبت لحصانتها والقاضی دائر حولها » و « وأنا معهم فی الحی القیوم » .

ومن جناسه قوله : « أكبرت طُولها وطَولها » و « قصر عن خَطَاك خُطاك . وأنطاك أنطاك . و « منثورها منثورها » .

المقامة المنبجية :

هذه مقامة طريفة يحسب قارىء عنوانها أنها فی وصف مدينة « منبج » وهی — فی الحق — فی النقد . وقد بدأها ابن الوردی بعبارته التقليدية ، وهی قوله « حكی إنسان من معرة النعمان » . وقد دخل هذا الإنسان مدينة « منبج » ورأی لطموس معالم من معالمها ، ودثور بعض آثارها ، وذكر ما كان بها من مساجد وقصور . ونوه ببعض أوليائها الصالحين ، وهو الشيخ « عقيل » الطيار فی الهواء ، الغواص فی الماء . . الخ .

ثم قصد المدرسة النورية ، فوجد بها مدرسها القاضی ، وكان حدث السن ، يبدو — لحداثة سنه — أنه غير كفء لمنصبه . فقعد الحاكی فی حلقته يسمع درسه ، حتی انتهی منه . فأخذ يسأله أسئلة وهو يجيب .

ومحور أسئلته أنه ادعی أن له عشرة أصدقاء . كل منهم ذو علم وأدب . وقال كل فرد منهم بيتين من الشعر فی أغراض متعددة بين مدح وغزل ووصف فهو يعرض هذه الأبيات عليه بيتين بيتين ، طالبا رأيه فيهما . وكلما أسمعه « الحاكی » بيتين ، أخذ القاضی المدرس ينقدهما ويبين معايبهما ، ويفصح له عن وجه الصواب ، وما ينبغی أن يقال . حتی انتهی من بيتی العاشر من أصدقائه ، وقد عرف مبلغ علم القاضی وأدبه وحسن بصره بالشعر ، وقدرته علی نقده . فاستغفر الله لسوء ظنه به ، وسأله الصفح عنه والمغفرة ، عاقدا النية علی ألا يعود إلی ازدراء شاب ، قائلا : « فسبحان من

يؤتى من إشاء الحكم صبيا».

هذا ملخص المقامة المنهجية. ومن هنا ترى أنها فى نقد الشعر، أكثر مما هى فى غرض آخر وهى تدلنا على لون آخر من ألوان الثقافة، وضرب من ضروب التفكير فى عصر ابن الوردى.

والنقد — كما سنرى فى بابه من هذا البحث — كانت له حينذاك جولة أو دولة وصولة، لا كما يعتقد كثير من أدبائنا المعاصرين، ممن يصمون العصر بالجمود والقعود. والنقد من أقوى المظاهر الدالة على اليقظة الفكرية والانبعاث الذهنى، وعلى المعرفة بوجوه الحسن والجمال فى الأدب. ولقد انبث النقد وسرت روحه فى نواحى كثيرة من النتاج الأدبى، حتى فى هذه المقامات.

والنقدات الواردة فى خلال هذه المقامة متنوعة. وأكثرها منصب على نقد المعنى وفحص الفكرة، وبيان صوابها أو خطئها، وما فيها من حسن أو قبح. ومنها ماينصب على نقد التعبير، لفظه ولغته ونحوه، مع بيان صلة ذلك بالمعنى أيضا.

ونعرض قطعة منها نموذجا لها. قال ابن الوردى على لسان حاكيه، يقص قصته مع مدرس المدرسة النورية:

«فأخلصت النية. وقصدت المدرسة النورية. فإذا مدرسها القاضى، وقد استقبل أمر الدرس بفعل ماضى. فاحتقرته لحداثة سنه. وعزمت على تخجيله بفن لعله غير فنه. قلت: المتصدر قبل أوانه سفيه. ورب فقيه لا أدب فيه. فلما أتم درسه، بسط إلىّ أنسه. وسألنى عن حاجتى. فقلت فى لجاجتى: نحن عشرة ذوو نسب. وأولو علم وأدب. وقد أنشد كل منهم بيتى شعر. سلمهما فضل سعر. وأقام وزنهما. وقال: إنهما وإنهما. وأنا رسول أصحابى إليك. لتنصف بيننا، وقد دللت عليك..

قال : قل ما أردت أن تقول . وأبدأ بنفسك ثم بمن تعول . ثم أصاخ إلىّ . وأنشدته بيتىّ :

زائرة زارت بلاموعد أفدى بما أملكه سيرها
فقلت ماذا وقته فارجعى وعاودينى ليلة غيرها

فقال : هذا سوء الأدب بالأدب . والدليل على ضعف الطلب . أتزورك متفضلة . وترجع خجلة ؟ سأنشد بيتين لا مطعن عليهما . ولم أسبق إليهما :

جبرت يا عائدتى بالصلة فتممى الإحسان تنفى الوله
وهذه قد حسبت زورة لم أنت يا لعبة مستعجلة

ثم قال : هكذا بيان المبانى . فأنشدته قول الثانى :

يا من أعار الليث حسن اللقا كما أعار السحبَ الهطلا
بعضك فى الجود ككل الورى فاعجب لبعض يعدل الكلا

قال : لقد أشبهك فى بيتيك لا بل أربى فى سوء الأدب عليك . فمن أعار الليث لقاه . فبماذا يلقى عداه ؟ ومن أعار السحب الهطل ، فقد خلت عن الهطل يداه . ولو أبدل أعار بعلم . واحترز من عموم البيت الثانى ، كان أسلم . إذ يلزم أن يكون بعض هذا الممدوح ، مساويا فى الجود ، الورى ، حتى الكليم والروح . لقد أخطأ وأحال ، وياليته قال :

علمت ليث الشرى وثوبا والسحب علمتهن هطلا
حاشاك ذم وكل ضد فصح قولى : حاشا وكلا

ثم قال : قد أريتك الباعث . فأنشدته قول الثالث :

لو كنت محتاجا إلى درهم لكان بالمداح لى أسوه
وكان من لا يعطنى أهجه فالحمد لله على الثروه

فقال : هذا نظم على الفتوح . فهو كجسد بلا روح . وتقدير ضمير الشان . بعد

قوله « وكان » . يحيا به الميت . وإلا خرب البيت . وشاهد هذه النفيسة أن من يدخل الكنيسة . . . فتنبه إلىّ . وانظر كيف أخذت هذا المعنى بكلتا يدى . فقلت :

أنا لو كنت مقلا ما اصطلى الناس بنارى
خلص العالم جمعا من يمينى بيسارى

ثم قال : قد جئتك ببدائع . فأنشدته قول الرابع :

له قباء خلت تطريزه لحسنه تطريز خديه
ملتفت نحوى كظبى النقا لا . مالظبى غنج عينيه

فقال : لامعنى بديع . ولالفظ صنيع . قنع قائله بالوزن والقافية . وجمع بين ثقل لا وما النافية . فلو رآه سقراط ، أعرض عن حبه بغضا ولم يعرج . وقال إن لم يكن معلما فدحرج[1] . فاسمع فى المعنى تضمينى الثمين . الذى أردفت جيش حبه بكمين . فقلت :

طرز قباه محنتى كخده ورقمه
ما أعوزت منه الظبا إلا طرازكه » الخ

أطلنا فى عرض هذه القطعة لنبين للقارئ الكريم ناحية من نواحى النقد الأدبى ، وطريقة من طرق تذوق الأدب .

المقامة المشهدية :

تدور هذه المقامة حول إنسان مل المقام . وشمر للطواف والسفر ساعده : وبينما هو يجد فى رحيله إذ لقى أميرا كبيرا ، بدا فى عجاجة على رأس جبل . وما إن لقيه حتى سأله الأمير عن قصده . فأخبر خبره ، وأنه يجوب الأرض ، فقد حنت نفسه إلى معاودة العوائد ، وحثته على مشاهدة المشاهد .

---

١ — فى العبارة غموض

وأخذ هذا الأمير الكبير يقرعه على ذلك ، ويوبخه على سفره لمثل تلك الزيارات ، ويبين له أن فيها كثيرا من المآثم . وأخذ يثبط همته عن المسير ، ويخذله عن الرحيل .

ويبدو أنه كان يقصد زيارة المشهد ، أى المساجد العامرة بأضرحة الصالحين . بدليل أن هذا الأمير لما نهاه عن سفره إليها ، بين له أن قصد السفر إليها بدعة . وكل بدعة ضلالة . وأنه ينبغى أن لاتشد الرحال ، إلا لثلاث . — كما هو نص حديث الرسول عليه الصلاة والسلام — وطفق يورد له ألوانا من المآثم التى يرتكبها المسافر إلى غير المساجد الثلاثة

وبعد نقاش بينهما طويل ، سأله عمن حرم هذه الزيارة ، فأخبره أن من حرمها هو قاضى قضاة الشافعية بدمشق ، كمال الدين بن الزملكانى . فأخذ « الحاكى » يمدحه ويغدق عليه الثناء بكلام منثور ، أعقبه بقصيدة مدح تقع فى نحو أربعة وأربعين بيتا . وشكاه فيها آلامه من منصبه فى القضاء — وقد كان ابن الوردى نائبا فى الحكم عن الكمال بن الزملكانى — وطلب إليه فى إلحاح أن يعفيه ويبعده عنه ، منوها بما يلقاه القاضى النزيه العادل العف من عنت وإرهاق ونكران للجميل ، بسبب منصبه . وأن مثل هذا المنصب لايجدى معه النزاهة والعدالة والعفة ، وخير للفقيه العالم النزيه أن يركن إلى حياة الخمول ، ويربأ بنفسه عن المناصب ففى ذلك ذلك راحة له وإرضاء لضميره .

وهذه معان كررها ابن الوردى فى شعره مرارا ، حتى صبغته بصبغتها ، وبدت فيه مبدأ من أهم ما ينادى به ، كما سبق لنا التنويه بذلك فى مطلع الحديث عنه .

وترسم لنا هذه المقامة ناحية من أهم نواحى العصر وهى على الأقل تشير إلى إحدى الظاهرات الاجتماعية المنكرة . — فضلا عما نبهت إليه من انتشار بدعة زيارة الأضرحة ، والسعى إليها قصدا ، وما فى ذلك من شرور وآثام ومخالفة للتعاليم الدينية الصحيحة — نبهت ضمنا إلى ما كان يكتنف المناصب عامة ، ومنصب القضاء خاصة ،

من آثام وشرور. فقد كان طلاب الوظائف، ومنها القضاء، يسعون إليها بالرشوة، حتى كادت الرشوة تكون تقليدا متبعا. وهى تقدم إلى السلطان والوسطاء من الأمراء وغير الأمراء. وقد استفاضت الأحاديث فى كتب التاريخ وتراجم القضاة عن وقائع الرشوة، ولم تنج من حملات النقد والمؤاخذة والتندر.

وبدهى أن الساعى إلى منصبه بالرشوة، لا يؤمن جانبه، ولا يطمئن إليه، وهو فى حاجة إلى نبذ العفة والنزاهة لكى يعوض نفسه — باستغلال منصبه — عما دفعه فى سبيله من مال. ويشتد الخطب حينما يكون الموظف قاضيا فإنه فى ذلك الوقت لا يؤمن على العدالة، ولا يوثق به فى أداء الأمانة. — هذا فضلا عن اضطراره إلى إرضاء ذوى السلطان ورعاية أهوائهم، حتى يبقوا عليه فى منصبه.

لهذا عف كثير من فقهاء هذا العصر عن مناصب القضاء، وربئوا بأنفسهم عن مزالقها والتلوث بلوثتها — ولهذا الموضوع حديث طويل، ليس هنا مجال الإفاضة فيه...

ولا ريب أن ابن الوردى كان قلق النفس فى منصبه «نيابة الحكم» غير راض بالانتظام فى سلكه لما يكابده شاغله من مشقات وآلام إذا كان نزيها عفيف النفس حر الضمير. ولهذا سرعان ما كان يظفر بضجته ويرتفع بشكاته، عندما يصاب بأى شىء من جراء منصبه، كنقله بعيدا عن بلده ومستقر إقامته، حتى ليفضل العزل منه على البقاء فيه.

وقد نهج ابن الوردى فى مقامته المشهدية النهج البديعى، كعادته فى جميع مقاماته مع سجعات قصيرة أحيانا مقبولة. غير أننا نلاحظ أنه أثقل مقامته هذه بألوان عدة من الجناس، ومنها الجناس الخطى كقوله «ولوت عنقها عمن عنفها. وظهر لأئمة الأمة. وزهدت نفوسهن فى نقوشهن»...

وإليك بعضا من أحاديثها ، جاء فى مطلعها :

« حدث إنسان من معرة النعمان . قال : لما أنست النفس شهرة شهر نيسان . الذى هو لمنطق الطير فصل ، ولعين كل حيوان إنسان . وقد جلت البسيطة من السندس بسطا . وكللت الأغصان من زهر الزهر سمطا . ورضيت الرياض عن سحب أذيال السحاب عليها . ونظرت العيون بنظرها إليها . حنت النفوس إلى معاودة الموائد . وجنت على مشاهدة المشاهد . »

وقال :

« فغلبت النفس اللوامة . ولبست للسفر لامة . وحصلت على المسرة ورجعت . وشرعت فى الرحلة وأسرعت . فبينا أنا أفلى الفلا . وإذا غبار قد علا . فأعجزنى لونه فرقبته . على رأس جبل رقيته . وحسبته أمرا خشيته . فانقشعت سحب حجبه . عن أمير كبير فى طلبه . فحين دنا منى . سألنى عنى . وقال من أين وردت . وأى مكان أردت . فأنبأته بصدق عن قصدى . وأطلعته على ما عندى . »

وقال مبينا أسباب تحريم السفر إلى المشاهد :

« فقلت : أيها الأمير الجليل : هل أبدى لهذا التحريم دليل . فقال : لقد ذكر لذلك أدلة تدع أعزة حاضريها أذلة . منها شد رحالهم إلى غير المساجد الثلاثة . ومشاركتهم أهل الكتاب فى الأعياد والخبائة . وتشبههم بالمجوس فى إضرام النار . وإضاعة المال المنهى عنها فى الأخبار . واختلاط النساء بالرجال . وركوب الأخطار والأوجال . ولهوهم عن العبادة والجماعات . وإقبالهم على اللعب والسماعات ، ومحاكاتهم الجاهلية فى أسواقها . وإحداث أحداث العشيرة فى الشريعة ، مما ليس من قياسها ولا سياقها . وزيادة عيد ماوردت به الرسالة . وارتكابهم أمرا أمر مبتدع ، وكل بدعة ضلالة » .

وقال مادحا لابن الزملكانى ، وفى عباراته توجيهات علمية :

« فلما علمت أن مولانا قاضى القضاة كمال الدين . شيخ الإسلام والمسلمين . لا زال نداه مثل حرف النداء . كفيلا بضم الأقربين والبعداء . من وصل به نال عرفا واكتسب تابعه على اللفظ والمحل عطفا . حتى يكون علما منصوبا . وعواطفه للمعارف خبرا مبتدأ به منسوبا . ولا برح مرفوعا بفعل الحسنى . وسيوف بحوثه ماضية فهى على الفتح تبنى . هو الذى بدع أهل هذه البدعة . وأطفأ شمعة السمعة . وأمر بالمعروف المعروف . وقبح العكوف على هذا المألوف . وسد فرج الفرج . وداوى جرح الحرج . ونبه على لغط الغلط . وكسر سفط السقط . فحينئذ رجعت عن قصدى ، واطرحت كلفتى . وأقسمت بفرحتى . قبل حلول حفرتى . لأتركن حرقتى . ومن للقاضى المسكين من الذبح بغير سكين » .

وفى الفقرة الأخيرة إشارة إلى أحاديث الرسول التى مؤداها ، « من ولى القضاء فقد ذبح بغير سكين » .

حـ ـ مقامتان لصفى الدين الحلى[1] « ٧٥٠ هـ »

صفى الدين الحلى ، أو عبد العزيز بن سرايا الطائى ، أحد البارزين من شعراء جيله ، لا يكاد يدانيه منهم ، جودة أسلوب وبراعة منزع وسعة تصرف فى الفن الشعرى ، سوى معاصره وشاعر عصره جمال الدين بن نباتة المصرى .

ويعتبر فى عداد شعراء العصر كله ، بل ومن شعراء مصر . ولو بدا فى ذلك الاعتبار الأخير مبالغة ما — ذلك لأن صفى الدين أقام بمصر زهاء ثلاث سنين ، ولكنه — وإن كان قد ولد بالحلة قرب الموصل عام ٦٧٧ هـ — قد تجول زمنا طويلا فى ربوع الشام . فتأثر — ولا ريب — بالثقافة المصرية الشامية . وكان لها الأثر البعيد فى تقويم شعره . وقد اتصل صفى الدين بأدباء مصر والشام ، وكانت بينه

(١) ترجمته فى فوات الوفيات ج ١ ص ٥٠٦ بـ — والدرر الكامنة ج ٥ رقم ٢١٣٠

و بينهم حوادث ومقارضات ثناء ، ومنافسات. وفى مقدمتهم جمال الدين بن نباتة أيضا.

ولا تتسع هذه الوجازة لدراسة حياة صفى الدين وشعره ونثره ومؤلفاته و بدائعه. غير أننا نقول إنه — وهو بالحلة — اصطلى بعداوة بعض أهلها. وكان بينهم و بين قومه وأخواله ترات ووقائع ، خب فيها صفى الدين ووضع. ونظم فيها قصائد فخرية رائعة، منها تلك التى مطلعها :

سل الرماح العوالى عن معالينا واستشهد البيض هل خاب الرجا فينا

وقد آل أمره إلى الفرار من الحلة ، فيمم شطر المنصور الأرتقى ملك ماردين. فحظى عنده ثم عند ابنه الملك الصالح ، لما أنسوا فيه من مودة ووفاء ، وعقل وذكاء. فخاض مع بنى أرتق غمار السياسة فى دولتهم و بدا أثر ذلك واضحا فى شعره. ومدحهم بقصائد خالدة ، منها « الأرتقيات » وهى فى مدح الملك المنصور.

وقيل إن صفى الدين ارتزق حينا بتجارة القماش. وأنه لبث يتردد على بلاد الشام. وذهب إلى الحج ، فعرج على القاهرة فى أيام سلطانها العظيم الناصر محمد بن قلاوون ، ووزيره علاء الدين بن الأثير. فمدحه بقصائد رائعة ، وما زال ، حتى يمم شطر بغداد ، فتوفى بها عام ٧٥٠ هـ.

وقد افتن صفى الدين فى ضروب الشعر ، ينظم كيف شاء ، متى شاء. و يندر أن تجد بابا شعريا لم ينظم فيه. غير أنه أجاد وأكثر من المدح والمديح النبوى ، والوصف والغزل والفخر والحماسة والسياسة.

وينسب إليه اختراع البديعيات ، وهو نفسه يزعم هذا فى مقدمة بديعيته ، التى شرحها شرحا وجيزا ليبين فيه أنواع البديع فيها

وأسلوبه الشعرى بديعى النزعة. بل مغرق فى البديع إلى حد التلاعب ، والتزام مالا يلزم بحال. وذلك ليظهر مقدرته على هذه الصناعة. ويبين تمكنه من اللغة وحفظه

لمفرداتها وتمكنه التام من الأساليب الشعرية المختلفة ، مع رغبته حينا فى إظهار قدرته على صناعة البديع ، لم يبد لأسلوبه الشعرى لون واحدٌ ولا مستوى واحدٌ ، بل تنوعت مستوياته ، وتعددت ألوانه . فهو مرة يجنح إلى الجزالة والقوة . وآنا يميل إلى السهولة والرقة ويبنى على غريب اللفظ وحوشيه . وطورا ينطلق مع طبعه فينظم ويجيد ، وآنا يقيد نفسه بقيود من الصناعة لا قبل لغيره بها ، كالتزام تصغير كل اسم فى القصيدة ، أو المجانسة بين عروض كل بيت وضربه ، أو بدء البيت بحرف ، وإنهائه به ، كما فى «الأرتقيات» ، أو تضمين كل بيت نوعا بديعا كما فى البديعية ، — إلى غير ذلك.

وكما نظم صفى الدين ، القصائد الطوال ، نظم الموشحات والمقطعات . فهو — فى الحق — فريد بين الشعراء .

وهو إلى جانب براعته فى نظم الشعر ، بارع فى تدبيج النثر . غير أنه بالأول أشهر ، وذكره به أسير . ونثره فى أسلوبه ، نموذج من شعره . وقد كتب عدة رسائل أو مقامات تطلبتها منه مناسبات حياته منها : الرسالة المهملة . والرسالة التوءمية ، ورسالة الدار فى محادثات الفار[1] .

والرسالتان الأخيرتان هما بالمقامات أشبه ، لما فى التوءمية من الزخرف المتعمد ورغبة المعارضة لإحدى مقامات الحريرى . ولما فى الثانية من القص الطريف . وهما اللتان نتحدث عنهما فيما يلى :

الرسالة التوءمية :

من المستطاع أن نسلك هذه الرسالة فى سلك الرسائل بدلا من المقامات . غير

---

١ — هذه الرسائل فى ديوان صفى الدين الحلى ، المطبوع فى بيروت

أنها بلغت من التكلف فى الصناعة حدا ، جعلها إلى المقامات أقرب شبها منها إلى الرسائل . وعلى كل فالخطب هين .

وقد أنشأها صفى الدين عام ٧٠٠ هـ معارضة للحريرى . وسبب ذلك أنه جرى ذكر أبيات للحريرى فى مجلس المنصور الأرتقى ، وأولها : « زينت زينب بقد بقد » فقيل إن المتأخرين عجزوا عن هذه الصناعة نظما ونثرا .

هذه الأبيات قالها الحريرى ، فى خلال إحدى مقاماته ، وهى المقامة السادسة والأربعون الحلبية . إذ ورد على لسان شيخ دعا أحد فتيانه أن يكتب له الأبيات المتائيم [1] ، أى المتماثلة لأن كل لفظين فيها مجنسان تجنيسا خطيا . فكأن كل لفظين توأمان .

وكان صفى الدين قد وفد — إذ ذاك — حديثا إلى ماردين . جلس لأول مرة إلى مجلس المنصور الأرتقى . وكان يريد أن يطلب لنفسه منه وظيفة ، يجعلها قوام حياته ومورد رزقه مدة مقامه فى ماردين . فوجد فى هذه المناسبة فرصة فريدة ليعرض على أنظار المنصور فنه الإنشائى ، ويريه مقدار براعته فى الصناعة ، ومبلغ بضاعته من البيان ، والاحتيال على اللغة وألفاظها ، مما يلحقه بالمتفوقين من حذاق المنشئين الأوائل إن لم يسم عليهم ويفقهم

وقد قال صفى الدين عنها — فيما قال — إنه صاغها من أربعمائة فقرة نثرا ، وثمانين نظما فى عشرة أبيات على وزن واحد وروى واحد .

وسبب تسميتها « التوءمية » واضح ، وذلك لأن كل لفظين متتالين فيها متجانسان تجانسا خطيا ، فهما توءمان .

وأسلوب هذه الرسالة أو المقامة ، احتذى فيه حذو الحريرى ، فى أبياته المتائيم ،

---

١ — المتائيم جمع متئام وهى المرأة التى تلد فى كل مرة توأمين .

فتجانس كل لفظين متجاورين تجانسا خطيا ، لا يفرق بينهما فى الرسم شىء سوى الإعجام أو الإهمال أى التصحيف وتغاير الحركات . وهو تكلف شديد لا تسوغه حيلة بلاغية . ولقد بدت المقامة فى أسلوب غريب يعانى نوعا من القلادة عسيراً تحجبت خلفه معانيه ، وضاعت من ورائه معالم تصوراته ، و يعانى المرء فى قراءتها صعوبة وتوقفا. على أن المقامة — بعد فهم مراميها — لا تحتوى على رائع من المعنى ، ولا بديع من الفكر ، وهى وصف لحال الكاتب وقدومه على مليكه قدوم رجاء وأمل .

على أننا لابد من أن نعترف للكاتب ببراعة الصناعة التى تصدى لها ، وأنه أظهر اللغة ثرية سخية ، بين ألفاظها ضروب من الشبه والأخوة كثيرة .

وإليك فقرة منها على سبيل المثال ، قال فى المطلع :

« قبل قبل يراك ثراك . عبد عند رخاك رجاك . أبىّ أبى سؤال سواك . أمل أمك رجاء رخاء . فألفى فألقى جدة جده . بأعتابك باغيا بك شرفا سرفا لاذ بك لأدبك مقدما مقدما أمل آمل . يزجيه ترجيه يبشره بيسره ، وجودك وجودك . فاشتاق فاشتاق عُرف عرفٍ منك مثل عبير عنبر وقدم قدم صدقه صدقه ، متجملا متحملا بصاعة بضاعة تبر نثر صناعته صياغته علم علم تكفيه يكفيه فلم فلم يخل بخل ولاه ولا تدرّع بدرع وكلٍ ، وكل يوم يؤم و يستمد و يستمر . . » الخ

رسالة الدار فى محاورات الفار :

هذا عنوان طريف حقا ، يثير الطرب ، و يدفع السامع إلى تلمس الخبر واستطلاع الأثر فكم للفأر بين الدار من آثار . وكم للدار عند الفأر من أخبار . وما ينبئك مثل خبير . فهو ربيب فتوقها ودعى شقوقها . اتخذ من أجحارها مأمنه ، و بين جدارها

مسكنه . فحفظ أخبارها ، وكتم أسرارها : والدور تتقلب بها الأيام كما تتقلب بالرجال . فتشقى مرة وتسعد أخرى ، وتفيض تارة بالخير ، وتبوء تارة بالفراغ منه ، وعليها من خارجها طلاء ، يغشى جدرها ، ويبهر العين ويخدعها عما وراءها .

أما الفأر فهو بها الضيف المقيم . والزائر الذى لا يريم ، يشاركها فى سرائها وضرائها . يسعد إذا هبت عليها أنسام السعادة ، ويشقى إذا عصفت بها ريح الشقاء . . .

وكثيرا ما تضم دور الكرماء طوائف الفئران وجماهير الجرذان . ولها مما فضل نصيب ، تمد منه الموائد وتتنادى إليها ضيافن ، لم يوجه لها نداء ، ولم يرسل إليها استدعاء . فحسبها أنها فى دور الكرماء . فتملأ البطون وتمتلىء الحصون ، وتسهد إلى وقت سامرة ، وتنقلب إلى مخادعها شاكرة ذاكرة .

أما دور البخلاء — جنبت جنابها ووقيت أعتابها — فإنها لا فضل فيها لجائع ، ولا نمالة لظامىء ، ولا ستر لمحروم . طالما نصب أهلها للفأر المصائد . ودبروا المكايد . فانقلب عنهم سابا شاتما ، يذكرهم بكل قبيحة ، ويرميهم بكل مذمة . ونفسه فياضة منهم بالعجب ، لأنهم يختزنون — فضلا عن المال — ألوانا من الطعام والشراب . فإذا لم يكن للفأر فيها نصيب ، فلمن يختزنونها ، ولأى شىء يقتنونها ؟

والعجب كل العجب أن يلتئم الغنى والبخل ، وينسجم الفقر والبذل ! أما الأغنياء فبخلاء ، لا ينون باسم الأناقة والنظافة والخوف من الداء وانتشار الوباء ، يرأبون الصدوع ، ويسدون الفروج ، ويغلظون الدهان ، ويبنون الفخاخ . وإذا طعموا فبالقسطاس ، وإذا شربوا لا يبقون فى الكاس . وإذا أنضلوا فأيسر من الفتات الذى لا يصلح للأقوات . فلا يقوى الضعيف ، ولا يسمن منه النحيف .

أما الفقراء ، فكثير منهم كرماء . ينضحون بالبر على بنى الحيوان من الإنسان وغير الإنسان ، يتهاونون فى الحرص على أطعمتهم وأشربتهم ، ويهملون الجدار حتى يمتلىء

بالأحجار ، فتمج بالزائرين من كل أمة . والفأر بينهم من الأعيان يجد فى الدار مسرحه ، وفى الجدار مطرحه . وله بين هذا وتلك ماشاء من طعام وشراب .

وتنعقد بينه وبين الدار صحبة ، يمتنها المقام ، ويمكنها الإلف . فلا يبنى كلما بان عنها يذكرها . وهى لا تفتأ كلما غاب عنها تفتقده . ولو على رضا منه وكره منها . .

وكثيرا ماتنتقل الصحبة بينهما من الدار إلى أصحابها ، ومن الجدر إلى أربابها . فتزول الوحشة ، ويقوى الأنس ، وتستأنس العين ، حتى ترى وفود الفأر تترى زرافات لا تهاب ولا توجل . وتدير أعينها فى الحاضرين كأنما تتقاضاهم أجر الحراس وثمن الإيناس . .

وهذه الدار التى ننشر رسالتها ونقص قصتها ، ونحب أن نتحدث عن وفود الفأر إليها ، ونبسط لهم ما دار فيها من الحوار ، عن رخائها وبؤسها ، وأيام عزها وليالى تعسها ، هى دار شاعر . وهو صفى الدين . . . الذى عاش فى عصر حرم فيه الشعراء ، بينما سال سيل خيره إلى غير مجاريهم ، وفاض ثربره دون وديانهم .

وقد كتب صفى الدين هذه الرسالة أو المقامة على لسان داره . وكان من المستطاع أن نسلكها فى سلك الرسائل دون المقامات . ولكنها — كسابقتها — بالمقامات أشبه . على أن عنصر القص والتمثيل بارز فيها بما يتطلبه من خيال وحوار . فأضفى ذلك عليها ، مع التزام السجع والأسلوب البديعى سمة المقامات .

على أن نثرها خفيف الحمل هين المئونة ، وفقراتها قصار ، قلت فيها الكلفة . ولم يؤدها ثقل الصناعة — ولو إلى حد — وبرزت فيها بعض لوازم الرسائل نحو « المملوكة » و « ينهى » و « يقبل الأرض » .

وقد برهنت لنا هذه المقامة ، على أن فن التمثيل طاف بذهن أكثر من أديب من أدباء العصر . فضلا عن أنها تدل — ولو إلى حد ما — على ما كان يعانيه كثير من الشعراء — إذ ذاك — من شظف العيش وقلق الحياة وضياع الحق . وما كانوا

يبذلونه فى سبيل الرزق من حيل . إذ لم يكن يأتيهم رزقهم رغدا .

وقد أفصح صفى الدين عن سبب كتابة هذه المقامة أو القصة الفكهة الدعابية المازحة الجادة ، بقوله :

« أنشأتها عن لسان الدار التى أسكنها بماردين . وتعرف بدار ابن الدكناس ، إلى القلعة الشهباء . وأرسلتها إلى الملك الصالح أبى المكارم شمس الدين . أشكو بفحواها مماطلة نائب له بدين . كان بعضه لى وبعضه على يدى ، بمبلغ طائل كتبه على نفسه وأخرجه على مصالح الدولة وتعذر عليه وفاؤه . ولم أوثر محادثته لسابق صحبة بيننا . فأنشأتها على سبيل الخلاعة والمزاح . فلما وقف السلطان عليها أطلق المال من خزانته العالية » الخ .

والقلعة الشهباء مقر الملك الصالح ، وبدل أن يخاطبه خاطبها وبدل أن يخاطبها بنفسه قدم داره لخطابها . فهى أنسب إليها منه وأقرب . ولعل الدار تسعد الدار . . .

على أننا لا نستطيع أن نجزم بأن صفى الدين كان جادا فى ادعاء الدين . فهل بلغ صفى الدين حدا من الثروة يخول له أن يستدين منه أحد نواب الدولة ؟ وينفق ما يستدينه على مصالحها ؟ مع أن قصة صفى الدين هذه على لسان داره ناطقة ببؤسه وفاقته . . . فكيف يتفق الأمران ويستقيم الضدان ؟ . قد تكون القصة من صنع الخيال ، ومن نسج النزعة الشعرية فى نفس هذا الأديب . وقد يكون للصدق فيها نصيب . ونعنى بالصدق صدق الوقائع ، لا الخيال الرائع .

وقد بدأت الرسالة بأن تكلمت الدار ، فسمت . وتقدمت وتسمت . وأخذت تخاطب القلعة الشهباء . فمدحتها وأثنت عليها . ثم انتقلت إلى الشكوى مما أصابها من هجر مالكها الأول . بعد أن رأت منه ضروبا من العز والنعيم والتمتع . ثم ما كابدت

من بعده من هم و بؤس ، حتى هال فيرانها بؤسها ! فتحدثت عنه فيما بينها ، وتناقشت فى أمره ، واتخذته موضوعا لجدال جاد .

فقام من بين الفيران خطيب سرد قصة الدار على سامعيه ثم أوصاهم بالساكن الجديد خيرا والساكن الجديد هو صفى الدين ! ثم تحدث عما كان من أمر صفى الدين ، وكيف أنه أعاد إلى رحاب الدار عهد الأنس والسرور . ومد فيها مدائد البهجة والحبور . حتى ضاقت ذات يده ، وتغيرت به الأحوال وتقلبت عليه الأيام والليالى . حتى جأرت الدار بالشكاية له ، ورثى لحاله فيرانها . وصار أمره بينها مثارا لجدل جديد .

ثم بينت الدار أن سبب نكبته ، ذلك الدين الذى أقرضه لنائب السلطان . وتضرعت فى الخاتمة إلى القلعة الشهباء أن ترثى لحالها ، وتقبل شفاعتها فى ساكنها ، حتى يرد إليه دينه فتسعد به حاله .

هذا ملخص وجيز لما جاء فى المقامة . وفى مفتتحها تقول الدار :

« بسم الله الرحمن الرحيم . المملوكة والمحرومة المرحومة ، الموحشة بعد الإيناس ، دار ابن الدكناس . تقبل الأرض بين يدى القلعة الشريفة . والذروة المنيفة . الغزيرة الثناء سيدة القلاع . وواسطة عقد البقاع . وإنسان عين اليفاع . التى قلائدها النجوم ، ومطارفها الغيوم . وقرطاها الفرقدان . وقلباها السماكان . ونطاقها الجوزاء ومحولها العواء ، وفرقها المجرة . ونثر إكليلها الإكليل والنثرة . حصن النجباء وكهف الغرباء وكعبة الأدباء . القلعة الشهباء . » . الخ

ومن شكوى الدار قولها :

« وتنهى أن المملوكة . والمظلومة المضنوكة ، يسكنها الحياء والأدب . وينطقها الإعياء والنصب . وشكوى الجماد إلى الجماد ، كشكوى العباد إلى العباد . وأن المعهود من تقادم المعهود . أن الله إذا خص مخلوقا بنعمة ، عم بها أبناء جنسه ، وأشركهم فيها مع نفسه » الخ

وقالت تصف حالها بعد ساكنها الأول :

« فلما طوحت بساكنها الأيام إلى أقصى الشام . جفاها الإخوان حينا طويلا . وهجرها الرفاق هجرا طويلا . فكابدت بعده ها وبؤسا . وأقامت فارغة كفؤاد أم موسى . لاتجد أنيسا فى عراصها القفار ولاتسمع حسيسا غير صهيل الفار . حتى رثت لها أكثر البيوت ، وخيم على وجهها أسرة العنكبوت » الخ .

وقام المجرد الخطيب فى إخوانه ، يرسم لهم آداب استقبال الساكن الجديد « صفى الدين » فقال بعد حمد الله والصلاة على النبى بتطويل وتنويع ، موصيا ، إخوانه بحسن لقاء هذا الساكن راسما لهم سياسة هذا اللقاء . قال :

« هذه الدار المباركة ، أول تربة بركم أترابها . وأول أرض مس بجسمكم ترابها . فلا يكن على أيديكم خرابها . ألا وإنها منذ خلا مسكنها من ساكنها ، وتمكن العفاء من أماكنها . جعلتموها ندوة نهاركم وليلكم . وحلبة رجلكم وخيلكم . والآن فقد انجابت عنها أيام البئوس . وأفلت طوالع النحوس . ولحظها الدهر بعين الرضا . وقضى بسعدها فصل القضا . وتولاها نعم المولى . وابتدر لسكناها الصفى الحلى . وفى يومكم هذا يرسل إليكم من يلم شعثها ، ويظهر خثبها ، ومتى رآكم بها ساربين . وفى ترارتها راسبين . كره مغناها . واتخذ لنفسه سواها . فعاد ربعها كالرمس [1] . ومتى تقبلها إذا قابلها ، أخصب ربعها . وتعدى إلينا نفعها . ألا وإن من استرشد بحكمتى واتبع كلمتى . أثبته فى أمنى . وأتممت عليه نعمتى . » الخ

ومن تفكه المقامة ما تحدثت به الدار تصف دخول صفى الدين إليها لأول مرة ، قالت :

« وإذا قد فتح الباب ، وولج به أمردان ، كأنهما الفرقدان . وهو يتهادى فى مشيته . ويميس بين حاشيته وهو يكاد أن تقطر من أعطافه الخلاعة . وتلمع من أسرة وجهه الرقاعة . فطاف الدار وهش لحسن الآثار . ثم مشى ورفقته حتى جلس بالشباك الحديد . المشرف على الباب الجديد . فلما استقر به المكان وأسرح طرفه فى محاسن البستان . أبدى لغلامه سغبا ولغبا ، وتلا : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . فبادرت الولائد

---

١ — هنا سجعة ساقطه من الأصل

بالموائد وسلكوا من الأدب أجمل العوائد . حتى إذا رفع الطعام من بين أيديهم . وردت أيديهم إليهم . حمدوا الله وشكروا وطعموا ولم ينتشروا . بل قالوا : أولى ما هضم به الطعام شيء من أرطال المدام :

ما يهضم الزاد سوى قهوة ... فقربوها نحونا واقربوا

ولاتخافوا الإثم فى شربها ... فالله قد قال : كلوا واشربوا » الخ

وبعد . فهذه المقامة تقع فى سبع صفحات من القطع المتوسط . وهى قطعة نثرية طريفة من بدائع ما كتب أدباء عصر المماليك . وهى وإن كانت ذات غرض رئيسى ، تناولت أغراضا كتابية عدة . هى بأغراض الشعر أشبه . ومنها : الدعاء والشكوى والمدح والوصف والمجون والحكمة .

د — مقامتان لصلاح الدين الصفدى[1] « ٧٦٤ هـ »

صلاح الدين الصفدى ، المولود عام ٦٩٦هـ فى صفد ، والمتوفى عام ٧٦٤هـ بدمشق . أحد أئمة الأدب والبيان فى هذا العصر . وأحد هواة التاليف الذين ابتدعوا موضوعاته ابتداعا ، وكتبوا فى غريب البحوث وعجيبها .

وقد عكف على طلب العلم والأدب فى زمانه وقرض الشعر حتى نضج فى سن العشرين . ثم أتم دراساته بعدة رحلات إلى مدن العلم والأدب فى زمانه ، وبخاصة القاهرة ودمشق وحلب . وعقدت المودة أواصرها بينه وبين كثير من الأدباء والعلماء ، كابن نباته المصرى والفتح بن سيد الناس ، وأثير الدين أبى حيان ، وتاج الدين السبكى .

وبرع فى الحديث وفقه الشافعية ، وأجاد فى الكتابة والشعر ، وخاض بحر

---

١ — ترجمته فى طبقات السبكى ج ٦ ص ٩٤ — والدرر الكامنة ج ٢ رقم ١٦٥٤ .

التأليف واستخرج منه دررا وغررا . ووضع عشرات من الكتب فى الأدب والتاريخ، ومنها كتابه القيم « الوافى بالوفيات » فى تاريخ الأعلام ويقع فى نحو خمسين مجلدا . و « نكت الهميان فى نكت العميان » و « الشعور بالعور » و « ألحان السواجع » و « التذكرة الصفدية » .

ووظف منشئا فى بعض دواوين الرسائل، وكتب بها عشرات الرسائل . كما كتب الرسائل الإخوانية والمقامات وشرح القصائد ، وجمع فنون الأدب فى مجاميع نثرية وشعرية ، فضلا عما كتبه فى النقد ، وله « نصرة الثائر على المثل السائر » وهو كتاب عارض به عز الدين بن أبى الحديد[1] فى كتابه الذى ألفه نقدا لابن الأثير فى كتابه « المثل السائر » ، وكتاب ابن أبى الحديد اسمه « الفلك الدائر » واستدرك عليه الصفدى عدة استدراكات .

ويبدو لنا من سيرة الصفدى أنه أديب مناضل مجاهد ذو رأى . ولا يعنينا إن كان مصيبا فيه أم مخطئا ، أو كان رأيه نافعا أوضاراً . وإنما يعنينا إصراره عليه وتردده له ، واستشهاده فى سبيله . . حتى إنه لولوعه بالجناس ألف فيه كتابا هو « جنان الجناس » شرح فيه أنواعه ودعمها بأمثلة عدة من شعره .

وقد استطاع الصفدى أن يحدث ضجة فى المحيط الأدبى فى عصره . وأن يثير ثائرة الأدباء . وهذا دليل الحيوية فيه وفى أدبه هذا عدا منافساته ومناظراته ومساجلاته .

وللصفدى نزعتان أدبيتان جديرتان بأن نسجلهما هنا . بعد أن نذكر أنه فى مقدمة أهل البديع ، بل والمتعصبين له، والتابعين فى الأسلوب الشعرى والنثرى لطريقة القاضى الفاضل وابن نباتة . غير أنه فارقهما فى ولوعه بالجناس ، ولوعا ملك عليه نفسه وحبس قلمه . وهذه هى الناحية الأولى . وقد ترتب على ذلك أنه أصبح صاحب مذهب فى البديع مؤداه تقديس الجناس . وملأ كثيراً من أبياته وسطوره بألوان منه ـ والجناس

٢ — عز الدين بن أبي الحديد توفى عام ٦٥٥ هـ وهو شارح نهج البلاغة — انظر جورجى زيدان ج ٣ ص ٤٢ .

ألوان ـ وقد كان الصفدى متكلفا فى ذلك تكلفا شديدا ـ فى نظرنا ـ وكذلك فى نظر كثير من النقاد فى ذلك العصر ، وفى مقدمتهم تقى الدين بن حجة الحموى الذى حمل على الصفدى حملة شعواء فى خزانته . أما الناحية الثانية فهى كثرة سرقاته الشعرية من معاصريه ، وخاصة جمال الدين بن نباتة ، حتى اضطر ابن نباتة إلى أن يؤلف فى ذلك كتابه « خبز الشعير » ويجمع فيه سرقات الصفدى من أبياته . ومهما يكن من شىء فإنه يبدو لنا ـ كما ذكرنا ـ أن الصفدى كان حركة دائبة وشعلة أدب ملتهبة ، ومؤثراً من مؤثرات الأدب فى زمانه .

وفى جملة ما كتبه نثرا ، هاتان المقامتان اللتان نتكلم عنهما : الأولى « رشف الرحيق فى وصف الحريق » . والثانية « دمعة الباكى ولوعة الشاكى » .

رشف الرحيق فى وصف الحريق[1] :

هذه المقامة فى وصف حريق دمشق الذى شب عام ٧٤٠ هـ ، وأتلف كثيرا من الأبنية والأسواق ، وألحق الضرر بكثير من أهلها . وكان نائب دمشق إذ ذاك الأمير تنكز الذى لبث فى نيابتها سنين طويلة . وهذا الحريق — كما يبدو — هو الذى كتب فيه ابن الوردى مقامته « صفو الرحيق » وقد سبق لنا الحديث عنها فى موضوع آخر .

وقد أشار الصفدى فى مقامته إلى ما نال دمشق من الأذى بهذا الحريق ، وشبه به وانتشاره فى أحيائها وامتلائها بدخانه . وامتداده إلى أسواقها وعمائرها ، إلى غير ذلك فهى مقامة وصفية .

و إليك فقرات منها ، قال :

« فسألت عن الخبر ممن غبر . فقال : إن الحريق وقع قريباً من الجامع . وانظر إلى شبح الجو كيف انتشرت فيه عقائق اللهب اللامع . فبادرت إلى صحنه ، والناس فيه

---

١ — هذه المقامة فى كتاب « مسالك الأبصار » لابن فضل الله العمرى ج ١ ص ٢٠١ طبع دار الكتب .

قطعة لحم . والقلوب ذئبة بتلك النار كما يذوب الشحم . ورأيت النار وقد نشرت فى حداد الظلام معصفرات ذوائبها ، وصعدت إلى السماء عذبات ذوائبها

ذوائب لجت فى علو كأنما تحاول ثأراً عند بعض الكواكب

وعلت فى الجو كأنها أعلام ملائكة النصر ، وكان الواقف فى الميدان يراها وهى « ترمى بشرر كالقصر » فكم زمر أضحت لذلك الدخان جاثية ، وكم نفس كانت فى النازعات وهى تتلو « هل أتاك حديث الغاشية » . ولم تزل النار تأكل ما يليها ، وتفنى ما يسفلها ويعتليها . إلى أن ارتفعت إلى المنارة الشرقية . ولعبت ألسنتها المسودة فى أعراض أخشابها النقية . وثارت إليها من الأرض لأخذ الثار . وأصبح صخرها كما قالت الخنساء ، كأنه علم فى رأسه نار . فنكست وكانت للتوحيد سبابة . ولمعبدها المطرب شبابة . وابتلى رأسها من الهدم والنار بشقيقة . وأدار الحريق على دائرها رحيقه .

وبالأرض من حُبِّها صفرة فما تنبت الأرض إلا بهارا

وأصبح « باب الساعات » وهو من آيات الساعة . وخلت مصاطب الشهود من السنة والجماعة . وعادت الدهشة وقد آل أمرها إلى الوحشة . وحسنها البديع وقد ثلمت النار عرشه . كأن لم أر بها سميرا . ولا شاهدت من بنائها وقماشها جنة وحريرا » الخ

فى هذه الفقرات المسجوعة بدت ألوان من البديع . منها :

التشبيهات مثل : عقائق اللهب . والناس قطعة لحم . وحداد الظلام .

والتوريات مثل : جاثية . والغاشية . وسبابة . وشقيقة . وآيات الساعة . والجماعة .

وفى الكلمتين : جاثية وغاشية ودخان توجيه .

والجناس مثل : أدار الحريق رحيقه . وباب الساعات من آيات الساعة .

والاقتباس مثل : ترمى بشرر كالقصر . وهل أتاك حديث الغاشية . وجنة وحريراً . إلى غير ذلك .

رسمة الباكى ولوعة الشاكى :

هذا عنوان كتاب للصفدى فى نحو ٤٨ صفحة من القطع الصغير ، مطبوع .

وهو — فى الواقع — مقامة قصصية تصف رحلة الكاتب ومعه أحد أصدقائه إلى رياض آهلة . وقد أثبتناها هنا لما توافر فيها من عناصر المقامات ، من تصوير وحوار وخيال . وليست من باب الرسائل الوصفية . وإن كانت حوادثها تبدو لأول نظرة ، شخصية ، تتصل بالكاتب نفسه . ولكن سياقها يدل على تخيل هذه الحوادث ، مما يبعدها عن أن تكون رسالة شخصية كرسالة « حظيرة الأنس » لابن نباتة ، مثلا .

وقد حدث الصفدى فى مقامته تلك ، بأنه كان يصف نفسه بخلوها من العشق واهيام ، إلى أن صادق جماعة من الغلمان الأتراك . فأصابه بهم مس من الهوى ، وخاصة من أحدهم . ثم أتيحت له فرصة خلوة به . . فعنفه غلامه هذا على حبه ، بعد أن كان يزجر المحبين من قبله . . . فادعى له أن الحب قدر محتوم وقضاء مقسوم . ثم طفقا يتناجيان الغرام واللوعة ، ويتبادلان اللثمة والدمعة ، كل ذلك فى ألطف عبارة ، وأجمل إشارة . .

ثم افترقا بعد أن تشاكيا . وتواعدا فتراسلا ثم تلاقيا . وهكذا . . . فى أسلوب جذاب ومنطق خلاب ، ولفظ وثاب . ودعابة وظرف ، وغزل ووصف .

ثم اجتمعا مرة بين طعام وشراب ، ثم زايله محبوبه بعد ليلة مشرقة بأنواع السرور حافلة بدواعى الأنس والرضا . وتركه يبكى هناء زال ، ويرقب أيام وصال .

والمقامة قصصية وصفية ، بين غزل عريق ، ومجون رفيق رقيق . وهكذا استطاع الصفدى أن يسلك الغزل بين أغراض النثر فى أسلوب بديعى أخاذ تتخلله الأبيات الشعرية المناسبة من نظمه . غير مكتف بالإشارة دون العبارة ، ولا بالتلميح بدل التصريح . .

والغزل بالمذكر ليس بحادث جديد فى عصر الصفدى ، وإنما هو ظاهرة موروثة ، زادتها الظروف الاجتماعية فى العصر المذكور ، ثباتا ورسوخا . لكثرة ما عجت به الأسواق والدور من غلمان الأتراك ، وما اتسموا به من حسن وجمال ، ورقة وملاحة ، ورضا واستسلام . . .

وإليك منها أبياتا طريفة فى وصف الأتراك :

لم تترك الأتراك بعد جمالها ... حسنا لمخلوق سواها يخلق

جذبوا القسى إلى قسى حواجب ... من تحتها نبل اللواحظ ترشق

نشروا الشعور فكل قد منهم ... لدن عليه من الذوائب سنجق[1]

لى منهم رشأ إذا قابلته ... كادت لواحظه بسحر تنطق

إن شاء يلقانى بخلق واسع ... عند اللقاء نهاه طرف ضيق

وقال يصف الروضة وطيرها وزهرها :

« ولم يزل الطير يسعى بين النهر والغصن فى الاتفاق ، ويكرر ألحانه ويراسل فى الأوراق . ويجتهد فى الصلح ويدعو إليه . ويحرص على الوفاء ويحرض عليه . وقام الشحرور بينهما واعظا وخطيبا . فأجدت مواعظه . وكان قلب النهر صافيا وقريبا . وقام النسرين من السرور على ساق . وجذب كل صدوح للغناء بالأطواق . وتبسمت من الأفحوان الثغور . وتنسمت نفحاته المسك والكافور . واعتل النسيم غيرة وتغير . فتولى ، وهو بذيله يتعثر . وجعل يجر من الحياء ذيولا على الأغصان . فتعتنق اعتناق المواصل الغضبان :

---

١ — السنجق لفظ تركى يطلق فى الأصل على الرمح ، والمراد به الراية التى تربط به . (هامش السلوك ج ١ ص ١٢٤) عن القلقشندى .

فى روضة علم أغصانها أهل الهوى العذرى كيف العناق
هبت بها ريح الصبا سحرة فالتفت الأغصان ساقا بساق » الخ

وقال يصف مقامهم فى الروضة :

« فسرحنا الناظر فى تلك الربا والرياض . وشرحنا الخاطر فى تلك الخمائل والغياض . وأصغينا إلى نغمات طيورها الصوادح . واشتنشقنا أرج نسيمها الفائق الفتح . والأطيار قد أخذت فى الأفنان بفنون ألحانها وخلعت القلوب بشدوها على دفها وعيدانها . وناحت فناجت كل مشوق بأنواع الأشواق . وفرحت وقرحت فأخذت الأحزان عن يعقوب ، والألحان عن إسحق . وصدحت فصدعت قلب كل متيم مشتاق . وشدت فشدت فى حسين الرمل فهيجت بلابل العشاق . وناحت فى النواحى تشكو ألم الفراق . ولها ألف إلف . ولم تسكن كالعاشق المسكين ينوح على غصن القوام ، ويبكى على خصر وردف :

وهاتفة فى البان تملى غرامها علينا وتتلو من صبابتها صحفا
عجبت لها تشكو الفراق جهالة وقد جاوبت من كل ناحية إلفا
ولو صدقت فيما تقول من الأسى لما لبست طوقا وما خضبت كفا

وقال يصف أحد الغلمان :

« فبادرنى منهم ذلك البدر الزاهر . والغصن الناضر . والرشأ الشادن . والظبى الفاتن . ذو العيون المراض الصحاح . والجفون الدقاق الوقاح . والخد المورد الأسيل . والجيد الجيد الطويل . والخصر النحيف النحيل . والردف الخارج الثقيل . والثغر الأشنب الرائق . والطرف الأدعج الراشق والمرشف الشهى الزلال . والرضاب الفرقفى الحلال . سيد القوم وواسطة عقدهم . وفتنة الخلق ووجه وجدهم . ظبى الكناس

ووحش الفلا . محرق القلب ومذيب الكلى . جاذب العاشق إلى الردى بزمام مبهت الرائق فى اعتدال ذلك القوام . — وقال : أنت حيك الله ورقاك . وسلمك من دواعى الهوى ووقاك . ولا أسهر لك جفنا من جفاء الحبائب . ولا أوقعك من هجر المحبوب فى مصايد المصائب » الخ .

هـ — مقامة لشهاب الدين القلقشندى[1] ٨٢١ هـ

القلقشندى كاتب منشىء أديب . وهو إلى جانب هذا ، فقيه ، ولذا ناب فى الحكم . وهو مؤرخ أدب واجتماع ، ولذا ألف كتابه الشهير «صبح الأعشى» فتحدث فيه عن النظم الديوانية واختصاصات وظائف الدواوين فى الدول الإسلامية ، من قديم الزمان حتى عصره . كما تحدث عن الكتابة فى هذه الدواوين وأحوالها وأنواعها وتقلباتها ورسومها ولوازمها وأدواتها وخطوطها ومدادها وأقلامها وأوراقها إلى غير ذلك مما يتصل بصناعتها . هذا فضلا عما يحتوى عليه من تاريخ وتقويم .

ويخيل إلينا أن شهرة القلقشندى بكتابه القيم « صبح الأعشى » قد طغت على شهرته بأى شىء آخر ، من مظاهر نبوغه وامتيازه ، ولا سيما نبوغه فى الكتابة ، وامتيازه فى الإنشاء . فلقد كان كاتبا من كتاب الدرج الشريف فى ديوان الإنشاء بالقاهرة ، وظف فيه عام ٧٩١ هـ على يد صاحب الديوان حينذاك ، بدر الدين بن فضل الله العمرى[2] .

---

١ — ترجمة القلقشندى فى الضوء اللامع ج ٢ رقم ٢٥ — وشذرات الذهب ج ٧ ص ١٤٩ — ومقدمة الجزء ١٤ من صبح الأعشى ص ١٤ .

٢ — بدر الدين محمد بن فضل الله العمرى ، هو أبو علاء الدين على بن فضل الله وجده محيى الدين يحيى بن فضل الله . وكلاهما من أسرة مشهورة خدمت صناعة الانشاء ودواوينها زمنا طويلا فى دولة المماليك . وتوفى بدر الدين هذا فى عام ٧٩٦ هـ . وترجمته فى حسن المحاضرة ج ٢ باب كتاب السر — وفى الدرر الكامنة ج ٤ رقم ٢٥٩ .

والقلقشندى — فى الواقع — من أبرز كتاب عصره . وحسبك شاهدا على نبوغه فى فن الإنشاء ، تأليفه كتابه « صبح الأعشى » إذا راعينا أنه الكتاب الوحيد فى الأدب العربى ، الذى تعرض بتفصيل لتاريخ الإنشاء وصناعته فى دواوين الدول الإسلامية ، وهو مقصور على هذا الموضوع ، برغم أنه موسوعة كبرى ، هذا إذا استثنينا كتابا أو اثنين تعرضا لوصف هذه الصناعة [1] — أضف إلى ذلك ماخطه قلمه ، ودبجته يراعته فى الديوان من رسائل ، وما كتب من إخوانيات . وأخيرا هذه المقامة الطويلة القيمة التى نتعرض لوصفها فيما يلى .

ومقامته تلك ، واسمها « الكواكب الدرية فى المناقب البدرية » عظيمة القيمة ، لا لأسلوبها وما به من طرف الفن البديعى فحسب ، ولكن أيضا لما تضمنته من معان متجددة وأفكار جيدة . ولأنه أرخ بها لأصول صناعة الكتابة ، وما ينبغى لكاتب الإنشاء أن يتحلى به من ضروب المعرفة ، إلى غير ذلك . فهى مقامة تعليمية تهذيبية .

ومع أن الموضوع الرئيسى للمقامة ، هو مدح صاحب ديوان الإنشاء حينذاك ، أى حين انتهى إليه القلقشندى وحين يسر له دخول الديوان بعناية منه ، وهو بدر الدين محمد بن على بن يحيى بن فضل الله ، أحد أبناء أسرة مجيدة خدمت الأدب وديوان الإنشاء زمنا طويلا بمصر والشام ، حتى لقد اشتق القلقشندى اسم مقامته من اسمه . وأسبغ عليه فيها ألوان الحمد والثناء ، ورفع منزلته فوق منازل غيره من الكتاب . نقول إنه مع أن موضوعها هو المدح ، يخيل إلينا أن القلقشندى — وقد انتهزها فرصة ليتحدث فيها عن صناعة الكتابة ، ويعلى من قدرها ويجعلها أشرف الصناعات . لأنه هو نفسه منشىء ، ولأنه يمدح صاحب ديوان الإنشاء ، وهو كبير المنشئين — يخيل إلينا

---

١ — مثل كتاب (الشريف بالمصطلح الشريف) لابن فضل الله — وكتاب ناظر الجيش وهما اللذان اعتمد عليهما القلقشندى فى تأليف « صبح الأعشى »

أنه أراد فى هذه الفرصة السانحة أن يبرز للناس ولصاحب الديوان مقدار علمه هو ، وإحاطته بما ينبغى لصاحب هذه الصناعة من ضروب المعرفة الشاملة الكاملة والنتيجة المنطقية لهذا أنه هو يتحلى بكل هذه الضروب . وأن له فيها القدم الراسخة الثابتة . وتكون هذه المقامة بمثابة «عرض حال» يثبت فيه لصاحب الديوان كفايته ومؤهلاته التى تخول له الولوج من باب الديوان ، والعقود بين جلة كتابه .

فإذا صح ما تخيلناه ، لم يكن القلقشندى مبالغا فى ادعاءاته ومزاعمه . وإذا كان مبالغا فليس مغاليا ولا مهولا . وإذا كان مغاليا أو مهولا فليس ببعيد أن يكون متصفا بكثير من الصفات التى سجلها ، وأن يكون مؤهلا بعدد منها وافر . ويشهد لذلك موسوعته الكبرى وما حوته من علوم وفنون ، وأعنى بها « صبح الأعشى » الذى يعتبر مذكرة تفصيلية لبعض ما أجمل فى هذه المقامة من قواعد وأصول ، وكذلك كتبه الأخرى مثل « نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب » ، و « ضوء الصبح المسفر » وهو مختصر « صبح الأعشى » . ثم انظر إلى ما قاله عنه شمس الدين السخاوى ، وهو يترجم له فى كتابه « الضوء اللامع » ، قال بالنص : « وعمل صبح الأعشى فى قوانين الإنشا فى أربع مجلدات ، جمع فيه فأوعى ، وكان يستحضر أكثر من ذلك ، مع جامع المختصرات والحاوى ، وكتابا فى أنساب العرب ، وهو ممن قرض سيرة المؤيد لابن ناهض » الخ .

وقد وصفه ابن العماد الحنبلى فى كتابه « شذرات الذهب » بما يقرب من ذلك .

والمقامة طويلة وتقع فى نحو ٣٥٠ سطرا ، وهى قصة كسائر المقامات قوامها الحكاية والحوار ، ولكن حوارها هين يسير ، وحكايتها قريبة الخيال أو هى عديمته أو ساذجته ، ولا يعدو رجلا يسأل آخر عن شىء فيحدثه عنه .

ولقد بدأها بقوله : « حكى الناثر بن نظام » والناثر والنظام لفظان من ملاءمات

موضوع المقامة ، فهو بدء مناسب ومقتبس لطيف . وعلى نمط من هذا البدء ، سار جلال الدين السيوطى فى مقاماته أو فى بعضها على الأقل — كما سنرى عند الكلام عنها .

وخلاصة القصة أن الناثر بن نظام حكى عن نفسه أنه أخذها منذ صغره وحداثة سنه بطلب العلم والتأدب وذلك بالاطلاع على أفضل الكتب ، ولقاء خير الشيوخ ، ومصاحبة ألطف الزملاء . ومازال جادا حتى فتح الله عليه من العلم والمعرفة أبوابا واسعة . غير أنه فاجأه سن التكليف ومسئولية السعى لطلب الرزق ، فرأى أن ذلك يعوقه عن طلب العلم ، والطواف فى الآفاق جهاداً فى سبيله . واحتار بين أن يترك العلم فى سبيل الكسب أو أن يترك الكسب فى سبيل العلم ، هذان شيئان أحلاهما مر ، وكلاهما عليه عسير وشاق . ثم رأى أن يجمع بين الاثنين : العلم والكسب وذلك بأن يلتمس حرفة للكسب يكون من شأنها تشجيعه على طلب العلم ، ومن طبيعتها أن تهيىء له الاستمرار فيه . وما زال يتساءل حتى لقى رجلا خبيرا ، فأشار عليه باحتراف الكتابة ومدحها له مبينا أنها أشرف المهن ، ودعم بيانه بآيات من القرآن الكريم ، منها قول الله تعالى « اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . فإن الله أخبر فى هذه الآيات الكريمة أنه علم بالقلم . ومنها قوله تعالى : « ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون » فإنه تعالى أقسم هنا بالقلم وما سطر أرباب الأقلام ، إلى غير ذلك . وقد كان النبى عليه السلام راغبا فى الكتاب عاملا على كثرتهم ، وقد اتخذ لوحيه أكثر من ثلاثين كاتبا . ثم بين له أن الكتابة قانون السياسة ، ورتبتها غاية رتب الرياسة ، وأن الدول والملوك فى أشد الحاجة إلى الكتاب .

وهكذا ظل الرجل يحبب إليه الاحتراف بالكتابة ، حتى صمم « الناثر بن نظام » على الاندماج فى صفوف الكتاب ، وهو بذلك يستطيع الجمع بين العلم والكسب . لأن عمل الكتابة وثيق الصلة بالعلم . والكاتب أول أدواته العلم . ولكنه حار بين ضروب الكتابة ، وإلى أيها ينتسب ، وبأيها يحترف . أبكتابة المال ، أم بكتابة

الإنشاء والخطابة أو غيرها ؟ فتعجب منه الرجل الخبير . وفضل له صناعة الإنشاء ومدح له كتاب الإنشاء وقال :

قوم إذا أخذوا الأقلام من غضب ... ثم استمدوا بها ماء المنيات

نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا ... مالم ينالوا بحد المشرفيات

ومازال يمدح له كتابة الإنشاء وكتابها ، ويجيب عليه مفضلا لها على كتابة المال وصناعة الحساب . وذلك بعد أن اعترض عليه الناثر بن نظام بأن كتاب الأموال وصناع الحساب يزعمون أن لهم المقام الأعلى ، مستشهدا بما قاله أبو القاسم الحريرى فى إحدى مقاماته ، وهو قوله : « إن صناعة الحساب مبنية على التحقيق . وصناعة الإنشاء مبنية على التلفيق » . . الخ . فأجابه الرجل بما قاله الحريرى نفسه فى مدح صناعة الإنشاء حيث قال : « واعلموا أن صناعة الإنشاء أرفع . وصناعة الحساب أنفع وقلم المكاتبة خاطب . وقلم المحاسبة حاطب . » الخ .

وما زال الرجل به ، حتى اقتنع بأفضلية الإنشاء . ثم سأله الناثر بن نظام عما يحتاج صاحب هذه الصناعة إلى ممارسته ، فيخبره الرجل بذلك ، وهو جملة علوم منها : حفظ القرآن الكريم وتدبر معانيه ، وكلام النبى عليه السلام ، والإحاطة بالأحكام وقواعد الإسلام ، وأشعار العرب وكلام بلغائهم من قدماء ومحدثين ، وما فى ذلك من محاورات ومناقضات وخطب وأمثال وسير وأخبار وأيام العرب وحروبهم ، وتواريخ الدول والملوك وأحوال الممالك ومكايد الحروب . هذا إلى إحاطة باللغة وفنونها كالنحو والتصريف وعلوم البلاغة . وإلى معرفة بالخط وقوانينه وآلاته ، وإلى خبرة تامة بمصطلحات الديوان وإحاطة شاملة برسومه . — هذه كلها أمور ضرورية للكاتب ولعمله . وقال مبينا مزايا هذه المعرفة :

« هذه أصوله التى يبنى عليها . وقواعده التى يرجع إليها . فاذا أحاط بهذه الفنون علما وإتقانها فهما . غزرت عنده المواد . واتضحت له الجواد . فأخذ فى الاستعداد

وسهل عليه الاستشهاد . فقال عن علم ، وتصرف عن معرفة . واستحسن ببرهان . وانتقد بحجة . وتخير بدليل . وصاغ بترتيب . وبنى على أركان . واتسع فى العبارة مجاله . وفتح له من باب الأوصاف أقفاله . وتلقى كل واقعة بما يماثلها . وقابل كل قضية بما يشاكلها . وعلم المجيد فنسج على منواله . وظهر له القاصر فأعرض عن أقواله . وحصل له القوة على فهم الخطاب . وأنشأ الجواب بحسب الواقع والأعراض . على طبق المقاصد والأغراض » الخ . —

وهذا الفصل من أبلغ فصول المقامة ، متانة نسج ، ودقة تركيب ، وجمع معنى ، ووضوح فكرة ، وقوة تعبير .

ثم بين له الرجل الخبير أن هناك أمورا ثانوية كالنافلة إن تجمل بها الكاتب كان أجمل . ومنها معرفته بعلم الكلام وأصول الفقه والمنطق والجدل ، وأحوال الفرق ، والعروض والقوافى وضروب من الحساب والفلاحة والتقويم والأخلاق . . . الخ

فسأله الناثر بن نظام ، وقد بانت له علوم الكتابة ، عن رسومها . فطفق الرجل يبين له هذه الرسوم ، ويوضح له ألوان الرسائل الديوانية من ولايات ومبايعات وعهود وتقاليد وتفاويض ومراسيم وتواقيع . . . الخ — وفى هذا الفصل يجمل القلقشندى أسماء كثير من المراسلات الديوانية ، وما يلزم كلا منها من رسوم الكتابة ، مع الإشارة إلى ما يلزم من أساليب ، وخطوط وأقلام وأوراق . . . الخ

وأخيرا ، يصل القلقشندى إلى آخر فصول مقامته القيمة ، وذلك بأن يسأل الناثر ابن نظام رجله الخبير ، عمن يلم شتات هذه الصناعة ؟ فيتعجب الرجل من سؤاله ، ويخبره توا ، بأنه المقر البدرى . . . ومن ثم يكيل له المديح كيلا ويسبغ عليه آيات الثناء ، ويفضله على كثير من المنشئين قبله ، كالقاضى الفاضل ، وعبد الحميد ، والصابى . . . الخ .

وفى الخاتمة يتوجه الناثر بن نظام — وهو القلقشندى — إلى باب المقر البدرى

صاحب ديوان الإنشاء ويطلب منه أن يسلكه فى كتاب الدرج ليكون منشئا فى ديوانه وتابعا من أتباعه ، فيستجيب له .

هذه خلاصة وجيزة لهذه المقامة . وقد تبين منها جملة أمور ، منها أن القلقشندى يعتبر الكتابة أشرف الصناعات وأنها دعامة الدول . ومنها أنها تحتاج إلى جملة من العلوم والفنون ، هى فى الواقع جميع العلوم والفنون . ويبدو لأول وهلة أنه مبالغ فى تقدير هذه الحاجة . ولكننا بالنظر السليم والمنطق المستقيم ، واختبارنا لأشهر المنشئين الذين خلدهم التاريخ ، نرى أنهم لم يخلدوا إلا لما نضحت به علومهم وفنونهم الكثيرة الوفيرة على كتاباتهم من نضرة وجدة وكيس ولباقة ونفع ، جعلها أبدا زاهية زاهرة وجديدة ناضرة . وكلما اتسع أفق الكاتب قويت كتابته وجاد إنشاؤه وجد نتاجه وملك بذلك القلوب والأفئدة — هذا ، وقد كانت الكتابة أشرف الصناعات ، وذلك فى أيام القلقشندى وفى الدول الإسلامية من قبله ولكنها أخذت فى الاتضاع من بعده ويبدو لنا أن سبب شرفها اتصال أهلها بأرباب الدولة والسلطان ، ومغامرتهم بأقلامهم فى سياسة أممهم ، فانضم بذلك عنصر آخر إلى الكتابة ، وهو السياسة ومزاولة الحكم ، وهذا هو السبب الأول الذى جعل الكتابة حينذاك أشرف الصناعات . ولا يزال بين الكتاب حتى العصر الحديث ، من يغامر بقلمه فى ميدان السياسة ، ويكافح فى صفوف الحكام ينتزع لنفسه طريقا يصل به إلى الصفوف الأولى . وكثير من كرام الكتاب تعاف نفسه هذه المغامرات لما فيها من نفاق أو مشاق ، ويربأ بنفسه عن مزالق السياسة ، فيظل كما هو يحبو وئيدا وئيدا يمشى نحو مجده مشى السلحفاة ، وغيره يقفز ويثب . . .

هذا . ومن الأمور التى تبيناها أيضا أن القلقشندى جمع فى مقامته هذه ، فأوعى ، كثيرا من تعليمات من تقدم من كرام الأدباء . ومنهم ضياء الدين بن الأثير المتوفى عام ٦٣٧هـ فى كتابه « المثل السائر » ، فقد أوصى طالب صناعة الكتابة بكثير مما أوصى به

القلقشندى . وكذلك صنع شهاب الدين محمود الحلبى المتوفى عام ٧٢٥ هـ فقد أوصى بمثل ذلك فى كتابه « حسن التوسل » كما نبينه فى باب النقد . وللقلقشندى فضل الجمع والإجمال معا ، ثم فضل البسط والتفصيل فى كتابه « صبح الأعشى » .

هذا . ومنها أيضا أن القلقشندى أخرج مقامته هذه ، أو على الأصح جزء منها ، مخرج المدح . فكان ممن استخدم نثر المقامة فى أحد أغراض الشعر وهو المدح .

وبعد . فلسنا فى حاجة إلى الإشارة إلى أنه نهج فى أسلوبها النهج البديعى . والقلقشندى كما نرى من كتابه « صبح الأعشى » ناثر منطلق ، شأنه فى ذلك شأن كثير غيره من المؤلفين والعلماء . يتأبى عليهم الأسلوب البديعى حين يتصدون للتأليف العلمى . ولكن القلقشندى كان يرجع إليه بين الفينة والفينة — وأسلوبه فى مقامته مسجوع . وقد قال عن السجع ، بهذه المناسبة : « إن خير الخط ماقرىء وأحسن السجع ماسلم من التكلف و برىء » . وتتراوح فقراته بين الطول والقصر . وأغلب عباراته على هذا النسق . غير أنه قد يعدل عن السجع . وقد أثبتنا بعض سطور بدا فيها هذا العدول . وإليك سطورا أخرى مسجوعة . قال فى المطلع يصف طلبه للعلم :

« حكى الناثر بن نظام ، قال : لم أزل من قبل أن يبلغ بريد عمرى مركز التكليف . ويتفرق جمع خاطرى بالكُلَف بعد التأليف . أنصب لاقتناص العلم أشراك التحصيل . وأنزه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل . مشمرا عن ساق الجد ذيل الاجتهاد . مستمرا على الوحدة وملازمة الانفراد . أنتهز فرصة الشباب قبل توليها . وأغتنم حالة الصحة قبل تجافيها . قد حالف جفنى السهاد . وخالف طيب الرقاد . أمرن النفس على الاشتغال كى لا تمل فتنفر عن الطلب وتجمح . مميلا جانب قصدها عن ركوب الأهواء والميل إليها » الخ .

وقد ثقلت بعض مجازاته ، لحرصه على مراعاة النظير . ومن ذلك قوله : « يبلغ

يريد عمرى مركز التكليف » ، « وأنزه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل » .

ومن جناسه : « حائف جفنى السهاد . وخالف طيب الرقاد » ومن عكسه قوله : « صفات الملوك بل ملوك الصفات » و « أكرم الفضائل ، بل أفضل المكرمات » .

والمقامة — على كل حال — ملأى بضروب البديع . وإليك فقرات أخرى منها :

قال الرجل يخاطب الناثر ، ويبين له مرتبة الكتابة والكتاب ، قال :

« فالكتابة قانون السياسة . ورتبتها غاية رتب الرياسة . عندها تقف الإنافة . وإليها تنتهى مناصب الدنيا بعد الخلافة . والكتاب عيون الملوك المبصرة وآذانهم الواعية . وألسنتهم الناطقة وعقولهم الحاوية . بل محض الحق الذى لا تدخله الشكوك . وإن الملوك إلى الكتاب أحوج من الكتاب إلى الملوك . وناهيك بالكتابة شرفا وأعل بذلك رتبة وكفى . أن صاحب السيف والقلم يزاحم الكاتب فى قلمه . ولا يزاحم الكاتب صاحب السيف والعلم فى سيفه وعلمه » .

وقال فيها يمدح بدر الدين بن فضل الله العمرى محدثا عن الكتابة :

« فهو قطبها الذى تدور عليه . وابن بجدتها التى ترجع فى علومها ورسومها وسائر أمورها إليه . فلو رآه الفاضل عبد الرحيم ، لم ير لنفسه فضلا ، ولا رضى لغيه مقالا . أو عاينه عبد الحميد الكاتب ، لقال : هكذا هكذا وإلا فلا لا . أو عاصر قدامة ، لجلس قدامه . أو أدرك ابن قتيبة لاتخذه فى أدب الكاتب شيخه وإمامه . أو بصر به الصابى ، لصبا إليه ومال أو قارن زمانه الحسن بن سهل ، بل الفضل أخوه ، لأقام جنابه وما زال . أو جنح ابن العديم إلى مناواته لأدركه العدم . أو جرى الصاحب ابن عباد ، فى مضمار فضله لكبا وزلت به القدم . أو اطلع ابن مقلة على حسن خطه لقال : هذا هو الجوهر الثمين . أو نظر أبو هلال إلى بهجة رونقه لقال : إن هذا لهو الفضل المبين . إن تكلم نفث سحرا . أو كتب خلت زهرا أو تخيلت درا .

يؤلف اللؤلؤ المنثور منطقه وينظم الدر بالأقلام فى الكتب » الخ

وبعد فحسبنا هذا فى عرض مقامة القلقشندى ، وإننا لنشعر بوجازة وصفنا وقصوره .

و ــ مقامة لتقى الدين بن حجة الحموى [1] ٨٣٧ هـ

قد نوه ابن حجة الحموى بمقامته تلك ، فى كتابه « خزانة الأدب » . قدمها . على عادته، حين يعرض شيئا من إنتاجه — بفخره بها ، وبما يشعر أنها معارضة للمقامة الزورائية ، وهى الثالثة عشرة من مقامات الحريرى ، التى عجز القاضى الفاضل — وهو يعارض مقامات الحريرى — عن معارضتها . وفى ذلك يقول ابن حجة فى باب « حسن الختام » فى كتابه المذكور :

« وقد عنّ لى أن أورد هنا مقامة كاملة . فإذا نظر المتأمل إلى براعة استهلالها . وفهم القصد الذى جنح إليه الحريرى ، عرف مقدار حسن الختام الذى تمت به الفائدة ، وحسن السكوت عليه .

وقد اخترت المقامة الثالثة عشرة ، وهى الزورائية . لأنه ثبت عن القاضى الفاضل أنه شرع فى معارضة المقامات . وعارض منها كل فصل بفصل أحسن منه . إلى أن وصل إلى فصل هذه المقامة ، الذى سيأتى ، وأنبه عليه فى موضعه .

والمقامة الموعود بإيرادها هى قوله : « حكى الحرث بن هشام ، قال ندوت بضواحى الزوراء . مع مشيخة من الشعراء . لا يعلق لهم مبار بغبار . ولا يجرى معهم ممار فى مضمار فأفضنا فى حديث يفضح الأزهار . حتى نصفنا النهار . فلما غاض در الأفكار . وصبت

---

(١) ترجمنا لتقى الدين بن حجة الحموى فى باب النقد بعد ، وعرفنا به بافاضة وتفصيل .

النفوس إلى الأوكار. لحنا عجوزا تقبل من البعد · وتحضر إحضار الجرد . وقد استتلت صبية أنحف من المغازل · وأضعف من الجوازل . فما كذبت إذ رأتنا أن عرتنا . حتى إذا ما حضرتنا . قالت : حيا الله المعارف. وإن لم يكن معارف . اعلموا يا مآل الآمل. وثمال الأرامل . أنى من سروات القبائل وسريات العقائل . . . »

والفصل الذى عجز الفاضل عنه هو : « لم يزل أهلى و بعلى يحلون الصدر · ويسيرون القلب ، و يمطون الظهر ، و يولون اليد ، فلما أردى الدهر الأعضاد ، وفجع بالجوارح الأكباد . وانقلب ظهرا لبطن · نبا الناظر · وجفا الحاجب · وذهبت العين · ونفدت الراحة . وصلد الزند · ووهت اليمين . و بانت المرافق · ولم يبق لنا ثنية ولا ناب . »

قال ابن حجة : « وهذا الفصل الذى أحجم القاضى عن معارضته، قلت فى معناه ، وكتبت إلى سيدنا قاضى القضاة صدر الدين بن الآدمى — نور الله ضريحه — رسالة مجسدة ، مشتملة على ذلك ، جيدة · راعيت فيها النظير لأجل الصدر من الرأس إلى القدم . ولم أخرج فيها عن حسن الختام الذى ما ختمت رسالة بنظيره . والتزمت السجع الذى فر الحريرى منه فى فصله »

وقد بدا جليا فى كلمة ابن حجة ، جملة أمور منها : أن القاضى الفاضل عارض مقامات الحريرى · وعجز عن معارضة فصله المذكور فى مقامته الزورائية · وأن ابن حجة شمر لمعارضة الحريرى فى فصله المذكور ليبين قدرته الإنشائية ، و بلوغه ما عجز عنه القاضى الفاضل ، وهو من هو فى عالم الترسل والإنشاء والنهج البديعى . وأن ابن حجة التزم ، مع مراعاة النظير — على نمط الحريرى — السجع ، الذى فر منه الحريرى .. ، وفى ذلك ما يشعر بمقدرة ابن حجة . . . وأنه راعى النظير من الرأس إلى القدم ، مجاراة للحريرى · ولمناسبة كتابته هذه المقامة إلى « صدر » الدين بن الآدمى .

نعود بعد ذلك إلى المقامة نفسها ، بعد أن عرفنا الدافع إلى كتابتها ، فنقول :

الواقع أن هذه المقامة ، رسالة ، فليس فيها قص ولا حديث ، ولا خيال روائى ولا تحديث فلان عن فلان . وموضوعها مدح خالص للمرسل إليه ، وهو الأديب العالم صدر الدين بن الآدمى .

وقد أجهد ابن حجة نفسه فى كتابتها ومعارضة الحريرى بها . فالحريرى على الرغم من تكلفه الشديد ، ودقة رعايته لقوانين بديعه ، بما يوقعه كثيرا فى حمأة من العسر والعقادة والغموض ، قد أفلت منه الزمام ، حين كتب فصله السابق . واعتقادنا أنه لم يفر من السجع فيه ، فما كان أيسره عليه ، لو أراده ولكنه شعر أن السجع هنا لا يجزىء فى رعاية النظير وأداء المعنى معا ، فعدل عنه وترسل ، فأمتع وبرزت عبارته جزلة حصيفة قوية تجملها توريانها مع ائتلاف لفظها ومعناها ، وتسبغ عليها رونقا وحسنا . على الرغم من كثرة كناياتها وترادفها .

أما ابن حجة فاعتقادنا أنه و إن أجزل فى رعاية النظير ، وأكثر من توريانه وائتلاف لفظه ومعناه ، والتزام السجع فلم يند عنه ، زايله الرونق ، وفترت عنه العذوبة ، وضعفت فى أسلوبه السماحة .

ومهما يكن من شىء ، فالمقامة — أو على الأصح الرسالة — قصيرة . امتلأت بعناصر المديح . وهو يمدح رجلا فاضلا وعالما أديبا ، فطبعى أن يكون رأس العلوم ، وأوتى من الذكاء والألمعية ما فاق به سواه ، ووهب للناس من الأيادى ما هو مشهور ، وأصبحت مناقبه وعوارفه حديثا للورى . . إلى آخر ما هناك من صفات كريمة تتصل بالعلم والأدب أو هى مشتقة منهما .

و إلى القارىء الكريم شيئا من هذه المقامة ، قال فى مطلعها :

يقبل أوضا بالعلا قد تجسدت بأرواح أهل العلم روضة مشتهى
وهبت بأنفاس العلوم قبولها ولا زال صدر الدين منشرحا بها

وينهى أن الصدر رأس العلوم ، وكم له من فرق دق على الأفهام . وهو كالغرة فى جباه الأيام . لازال المجد له حاجبا مقرونا بسعده الشامل . ولا برح بعلمه عينا لوجوه المسائل . فله أهداب معانيه التى هى أسحر من عيون الغزلان . وأمضى من السيوف إذا برزت من الأجفان . وأصداغ فضائله التى هى عاطفة على وجنات الوجود . لأنها كالعوارض الماطرة ، وكم أنست عند ذكره من سالفة وكم لها فى قلوب الأعداء من خدود . وندى جوده الذى إذا جاءه الشارب وجد عنده شفاء . وحلاوة نظمه الذى أنسانا ذكر العذيب وثناياه . وعنق مكارمه التى ألفت من البديع الالتفات . وأوصافه التى غدت على خد الدهر شامات . حتى تبدلت سيآته حسنات . كف عنا تعب الفقر بكرم راحته المتزايد . من غير أن يقال له ساعد . وشهدنا بأن أياديه بحر فيض بصنائعه . فأشار النيل إلى قبول هذه الشهادة بأصابعه . » . . الخ [1]

ويتضح من هذا الفصل الوجيز جملة أمور :

منها افتتاحه الرسالة بأبيات شعرية . والتزامه السجع ، وطول فقراته . واستعمال الألفاظ الدالة على أعضاء الجسم أولها بها صلة ، : الصدر والرأس والفرق والغرة والجباه والحاجب والأجفان والوجنات والعوارض والأصداغ والسالفة والخدود والشارب والشفاه . . . الخ .

ومنها إكثاره من التوريات ، وهى فى الحق دقيقة ، ورقيقة أحيانا مثل : عاطفه وسالفة وخدود وشارب وشفاه . . الخ

---

(١) هذه المقامة مثبتة فى « خزانة الأدب » لابن حجة ، ص ٤٦١ فى باب « حسن الختام » وهو آخر أبوابها .

غير أنه لم يوفق فى بعض مجازاته وتشبيهاته وذلك كقوله : أصداغ فضائله . ووجنات الوجود ، وأهداب المعانى وعنق المكارم . . .

ومهما يكن من شىء فهذا الفصل نمط من كتابة ابن حجة . ولكن له فى ميدان الكتابة باعا أرحب وفضلا أوسع .

ز — مقامات جلال الدين السيوطى ٩١١ هـ

جلال الدين السيوطى أحد رجالات عصر المماليك . زهابه عصره ، ونضر جيله . ونخر دهره ، حمل راية العلم فأعلاها ، وعَلَمَ التأليف فسما به ، وضرب فى كل علم وفن بسهم صائب ونصيب وافر ، وترك من المؤلفات ما يعد بالمئات ، فى الفقه والحديث والتاريخ وعلوم اللغة . وحسبه فخرا كتابه « الإتقان » فى علوم القرآن ، و « المزهر » فى اللغة ، و « حسن المحاضرة » فى تاريخ مصر والقاهرة ، والخصائص الكبرى » فى السيرة . وجمع الجوامع وهمع الهوامع فى النحو إلى غير ذلك . ومن حسن الحظ أن كثيرا من مؤلفاته موجود ، بين مطبوع ومخطوط .

واسمه عبد الرحمن بن الكمال أبى بكر بن محمد ، الخضيرى الأسيوطى . ولد عام ٨٤٩ هـ . وقد تثقف فى القاهرة ثقافة إسلامية عربية . وأتيح له عدد من الشيوخ الأجلاء جذبوا بضبعه ، ووقحوا منطقه ، وجرءوا جنانه ، ونبهوا خاطره ، ووجهوا ذكاءه ، وأجازوه بالتدريس والفتوى . ومنهم : علم الدين البلقينى شيخه فى الفقه ، وتقى الدين الشبلى الحنفى شيخه فى الحديث والعربية . ومحيى الدين الكافيجى شيخه فى التفسير والأصول والمعانى والعربية ، وغيرهم .

وقد أولع السيوطى بالرحلة والطواف بالبلاد الإسلامية ، فكسبه ذلك خبرة فوق

خبرته ، فزار الحجاز والشام ، واليمن والهند والمغرب والتكرور . وظل مجدا فى طلب العلم ، ثم فى إفادته ، والتأليف فيه ، حتى عد نفسه مجتهد عصره .

ولم يبلغ منصب القضاء ، على الرغم من صلاحيته له ، ولعل ذلك بسبب اشتغاله بالتدريس والتأليف . ولقد كان كثير من العلماء — إذ ذاك — يترفعون عن القضاء لما قد يجره عليهم من إثم أو حرج ، عادلين عنه إلى التدريس ، زلفى إلى الله وتقربا ، ونشرا للدين بين المسلمين .

ولقد كتب السيوطى ترجمة نفسه بيده فى كتابه « حسن المحاضرة » ، ويفهم من اعترافه فيها ، أنه لم يكن يحسن الإنشاء والترسل ، كما كان يحسن الفقه والحديث والتفسير وعلوم العربية . ولكننا وقد قرأنا كثيرا من مؤلفاته ومقاماته نشهد له بطول الباع فى الكتابة الأدبية بجوار كتابته العلمية التى تتسم بالسهولة واليسر والوضوح ، وقلة التكلف وبروز المعنى إلا فيما ندر إذا احتاج الموضوع إلى تعبير منطقى أو مصطلح علمى أو نحو ذلك .

وإن رجلا كتب هذه المقامات التى سنتحدث عنها ، ولهذه المؤلفات فى التاريخ وغيره ، لجدير بأن يعد بين الأدباء والمنشئين . ولعل السيوطى يقصد أنه لم يكن من كتاب الدواوين العارفين برسومها . ولعله نكص عنها ولم تحدثه نفسه بها ، لما فى الدواوين من قيود ، وما تتطلبه من اتصال بالسياسة والحاكمين ، وهو ما جعل نفسه عنه بنجوة .

ووقع بين السيوطى وبين بعض معاصريه ، وخاصة شمس الدين السخاوى ، ما يقع بين الأنداد المتعاصرين . فقد عابه السخاوى فى كتابه « الضوء اللامع » ونسب إليه سرقة بعض المؤلفات ، ونسبتها لنفسه ، وزيف الكثير من علمه ومزاعمه . وقد سفهه السيوطى ، ورد عليه ردودا قاسية ، فى رسالته « الكاوى فى الرد على السخاوى » . وهكذا ترى أن السيوطى كان أحد قادة العصر علما وأدبا ومصاولة فيهما ، وأحد الذين

شُغل بهم معاصروهم وأحد الذين يمثلون مجتمعهم فى ميدان الفكر. وهكذا شأن النابغين وكما كان للسيوطى باع كبير فى الكتابة علميه وأدبية، كان له باع يذكر فى نظم القريض. وقد توفى عام ٩١١ هـ ودفن بالقاهرة.

مقاماته:

ولم لا يكون للسيوطى مقامات؟ شأنه فى ذلك شأن كثير من الأدباء؟. وهو — فضلا عن ذلك — مكثار فى مقاماته، كعادته فى كل آثاره وتآليفه. وكأنما أقسم ليتركن فى كل علم وفن أثرا خالدا ينتفع الناس به من بعده، ويذكرهم بصنيعه. فإن كان — حقا — قد أقسم، فقد بر وأكثر.

ومقاماته طريفة الموضوع. نعتقد أنه لم يكتبها إلا بعد تفكير وروية، وبعد رغبة مبيتة فى ابتداع موضوعاتها بما لم يحم حوله سابق. فاختار لها البساتين وأزهارها، والحدائق وفاكهتها. والحقول وخضراواتها، والعطور وأريجها والجواهر ونفاستها وبريقها، وأنواع النقل والتنقل بها. وبذلك أدخل طعما جديدا شهيا على مائدة المقامات.

فكتب مقامته « الوردية » مناظرة بين الأزهار، ومقامته « التفاحية » حوارا بين ألوان الفاكهة، ومقامته « الزمردية » فى وصف الخضراوات. و « الفستقية » فى وصف ألوان النقل، وهلم جرا . . .

على أنه قد حمل نفسه فى إحدى مقاماته إلى مواقف من الحرج والدقة بحيث تتطلب لباقة خاصة وكياسة ممتازة، وعلما وإحاطة، فكتب مقامته « رشف الزلال من السحر الحلال » أو مقامة « النساء » . . .

ولم تقف جهود السيوطى عند هذا الحد فى كتابة مقاماته، واختيار موضوعاتها. بل تناول بعض مسائل التاريخ والنحو والفقه. واستطاع بحنكة لطيفة أن يصوغ ذلك فى أسلوب المقامات. وها هى ذى مقاماته « السندسية » و « المكية » و « الجيزية » شاهدة بذلك على الترتيب.

بهذا كله ، وبغيره ، نستطيع الوقوف على مدى علمه وسعة معرفته وطرافة أدبه ، وكيس خبرته . وقد اتبع فى أسلوبه فى المقامات ، النهج البديعى ، فحرص على السجع ولكن المشاهد أن فقراته قصيرة يندر الطول فيها . وإن كثيرا منها متوافقة فى عدد ألفاظها ، فضلا عن جناس مفرداتها أحيانا . هذا إلى أن عربيتها فصيحة لا عامى فيها ، واضحة المعانى يزينها الجناس أو الطباق أو الاقتباس ، وتجملها أبيات من الشعر عدة ، وتتناثر بين سطورها أحيانا ، التوريات والإبهامات والألغاز ، مما يزيدها طرافة ولطفا ، وإن آدت معانيها أحيانا ودارتها بالحجاب ، وخاصة إذا عرض للغز نحوى أو أحجية فقهية أو نحو ذلك .

ولا بد لنا من الإشارة إلى ظاهرة واضحة ، تراءت فى مقامات السيوطى ، أضفت عليها شيئا آخر من الجدة بين مثيلاتها وهى ميله إلى القص التمثيلى .

وقد سبق ابن دانيال الموصلى بابراز مثل هذه الظاهرة فى كتاب «طيف الخيال» كما سنبنيه بعد قليل ، وكذلك صفى الدين الحلى . وهذا دليل على أن نزعة القص التمثيلى طافت بأذواق أدباء العربية فى عصر المماليك . ولو اقتدى بها الأدباء من بعد ، ولحبوا طريقها ، وساروا على نهجها ، وتوسعوا فى تصويرها ، لترقى فن الحوار والتمثيل ترقيا محمودا ، ولكان للعربية منه كسب مجيد .

وقد بلغت مقامات السيوطى نحو أربعين ، منها المطبوع ، ومنها المخطوط . وبدار الكتب المصرية مجموعة خطية «رقم ٣٢ مجاميع» بها عشرات الرسائل والبحوث والمقامات ، التى كتبها السيوطى ، ومن مقاماته فيها : المكية والأسيوطية والجيزية .

وبالدار أيضا مجموعة بعنوان « مقامات السيوطى » قيل إن بها تسعا وعشرين مقامة . ولم نجد بها إلا ستا ، هى : الوردية . والمكية . والتفاحية . والزمردية . والفستقية . والياقوتية .

و بالدار أيضا مقامته «رشف الزلازل من السحر الحلال» مطبوعة . وله غير ذلك.

وقد نوهنا بأسلوب السيوطى فى مقاماته . ونزيد هنا أنه نهج منهج أصحاب المقامات فى طريقة القص ، وخاصة فى البدء حيث يقول « حدث فلان عن فلان » . ولكنه يأبى ألا أن يكون حرا من ربقة منهجهم — مع اتباعه له — فيكثر من رواة قصته ، إذ يقول : « حدث فلان عن فلان عن فلان عن فلان . . » . — هذا أحيانا . وكذلك لم تدر مقاماته حول رجل يستجدى بأدبه وحيله ، كما هو الشأن فى مقامات البديع والحريرى ، بل حرر نفسه كذلك من الطواف فى هذا الفلك . وساق القصة بين حوار ومناظرة لها الوصف و إبراز الخصائص مدعومة أحيانا بحكمة أو مثل أو حديث أو آية قرآنية :

على أن له لوازم طريفة لا بأس من التنويه ببعضها هنا . فإنه لم يلزم فى قوله « حدث فلان عن فلان » اسمين أو أسماء معينة ثابتة ، يرددها فى بدء كل مقامة . بل نوع فى هذه الأسماء بتنويعه مقاماته وموضوعاتها . واختار للبدء بكل مقامة اسمين أو أسماء مبتكرة تناسب فى معناها ما هو بصدده من الحديث فى مقامته . أو قل إنها منتزعة من موضوع المقامة ومن المتحاورين فيها . فترى فيها توريات طريفة تشعر القارىء لأول وهلة بموضوع المقامة ، ولعل هذا ضرب من براعة الاستهلال . .

وإليك مثلا : قال فى مستهل المقامة الوردية :

« حدثنا الريان . عن أبى الورد إبان . عن بلبل الأغصان . عن ناظر الإنسان . عن كوكب البستان . عن وابل الهتان . »

وفى مستهل مقاماته « رشف الزلازل من السحر الحلال » قال : « حكى أبو الدر نفيس بن أبى إدريس » . على أنه — مع هذا — ردد قوله « حدث هاشم ابن القاسم » فى أكثر من مقامة . فقد افتتح بها المقامة المكية والأسيوطية والجيزية .

على أنه ، أيضا، لم يتقيد بكل أولئك، بل نوع كذلك فى مفتتح بعض المقامات . ففى مفتتح « المكية » قال : « حضر أمراء الطيب. بين يدى إمام فى البلاغة خطيب. فقالوا . أيد الله مولانا وتولاه . وأمده بالمكارم وولاه » .

وفى مفتتح « التفاحية » قال : « سألت طائفة فاقهة . عن مناقب الفاكهة . وصفاتها المشاكهة . وما ضرب لها من الأمثال والمشابهة » .

على أن للسيوطى بعض لوازم أخرى — إذا اعتبرناها لوازم — ومنها أنه التزم فى المقامة المكية عند الحديث عن أحد العطور ، أن يخاطب العطر فى مفتتح الحديث عنه . فيقول مثلا : « وأما أنت أيها الزعفران » ، « وأما أنت أيها الزباد . وهكذا .

وفى مقامته التفاحية ، التزم فى مفتتح كلام كل نوع من الفاكهة قوله : « وما أدراك » فيقول مثلا : « الرمان وأما أدراك ما الرمان » . و « الأترج وما أدراك ما الأترج » وهكذا .

ولا نستطيع أن نستعرض كل مقاماته هنا واحدة واحدة . وإنما حسبنا أن نتحدث عن بعضها نموذجا لغيرها . وقد اخترناها متنوعة المشارب ، لنلقى ضوءا على سعة جعبة هذا الأديب . ، وما فى كنانته من علم وأدب . وماله من خبرة وإحاطة بأوصاف الزهر والفواكه والثمار والخضراوات والعطور وما قيل فيها . وما لها من محاسن ومساوىء ذات مثات بالناحية الطبية أحيانا ، مما لا يدخل للعلماء فى بضاعة ولا للادباء فى صناعة . وكذلك إحاطته بعلوم وفنون شتى ، منها التاريخ وحديث الرسول والفقه والنحو . فبعض مقاماته — كما سنرى — معرض ناطق بماله من فضل جليل وباع طويل ، فى كل أولئك .

المقامات الوردية :

هى مناظرة طريفة ، ومناقشة حامية الوطيس ، نشبت بين ألوان مختلفة من

الأزهار هى : الورد والنرجس ، والياسمين والبان والنسرين والبنفسج والنيلوفر والآس والريحان .

وقد بدأ الورد المناظرة فتكلم عن مزايا نفسه ومحاسنها ، وما يقدمه من النفع للناس . وقد أفاض وأطنب ، وأجاد وأعجب . وادعى أنه ملك الرياحين . وبعده قام النرجس ، فسفه رأى الورد ، ونعى عليه إعجابه بنفسه وكشف الستار عن كثير من مساوئه ، وأبان ما فى كلامه من مبالغة وافتراء . ثم طفق يعد مزايا نفسه ، ومحاسن أوصافه ، ويفصح عن اكتمال مزاياه . ثم قام بعد النرجس ، الياسمين فنهج نهجه ، وحمل عليه ثم عدد محاسن نفسه ومفاتن ذاته ، وهلم جرا . .

كل هذا على مسمع ومرأى من عامة المتناظرين . وكان فى خاتمتهم الريحان . فخطب فيهم خطبة حاذقة طويلة مشوقة . فتأثروا لها ، وأجمعوا من أجلها على أنه ملك الأزهار والرياحين ، وسلموا له ، وبايعوه بامارته عليهم .

وقد نهج الكاتب ، النهج البديعى — كما أشرنا — فى فقرات مسجوعة قصيرة غالبا — وأفصح هنا عن كثير من المنافع الطبيه التى تستفاد من هذه الأزهار . مما يدل على خبرة واسعة بأسرار استعمالها . كما أبدع أحيانا فى التصوير الأدبى ، والاستفادة من أوصاف الأزهار ، ومالها من أجزاء ، فى إخراج التوريات وما إليها . وذلك كشوكة الورد وهدب النرجس ، يتخلل نثره أبيات شعرية مناسبة للسياق . وهذا دليل على سعة اطلاع الكاتب على ذخائر الشعراء ، وعلى لباقته فى استعماله مختارها فى مناسبته .

وإليك قبسا من هذه المقامة ، قال فى مطلعها :

« بسم الله المعين . وبه نستعين . أنا الورد ملك الرياحين . والورد منعش للأرواح ومتاع إلى حين . ونديم الخلفاء والسلاطين والمرفوع أبدا على الأسرة ، لا

أجلس على ترب ولا طين . والظاهر لونى الأحمر على أزاهر البساتين — وأشرف من كل ريحان فخرا . بأنى خلقت من المصطفى وجبريل والبراق ليلة الإسرا . والظفر بقوة الشوكة والصولة . والمنصور على من ناوأنى لأنى صاحب الدولة والعزيز عند الناس والمودود بين الجلاس للإيناس . والعادل فى المزاج . والصالح فى العلاج . أسكن حرارة الصفراء . وأقوى الباطن من الأعضاء . وأطيب رائحة البدن . ومن شم مائى وبه غشى أو صداع حار ، سكن . وأقوى المعد . وأفتح من الكبد السدد . وأنفع الأحشاء . وأقوى الأعضاء . وأنا ومائى ودهنى كيف أشاء . وأبرد اللهب الكائن فى الراس . وربما استخرجتها منه بالعطاس . وأنبت اللحم فى العروق العميقة . وأقطع الثآليل كلها إذا استعملت أذرارى السحيقة . » الخ .

ومن كلام النرجس ، قال يرد على الورد ويذكر محاسن نفسه :

« لقد تجاوزت الحد ياورد . وزعمت أنك جمع فى فرد . إن اعتقدت أن لك بحمرتك فخر . فإنها منك فجر . قال النبى صلى الله عليه وسلم : الشيطان يحب الحمرة ، فإياكم والحمرة . « وكل ثوب ذى شهرة . » المعطش لحرور الدماغ عند الشموم المضعف للباه . النائم بلا انتباه . أتعتز ببردك الغشيب . وأنت الجالب للمشيب . فاحفظ بالصمت حرمتك . وإلا كسرت بقائم سيفى شوكتك . ويكفيك قول ابن الرومى فيك :

يامادح الورد لا ينفك من غلطه ... ألست تنظره فى كف ملتقطه

كأنه سرم بغل حين سكرجه ... عند البراز وباقى الروث فى وسطه

ولكن ، أنا القائم لله فى الدياجى على ساق . الساهر طول الليل فى عبادة ربى ، فلا تطرف أحداقى . وأنا مع ذلك المدعو للحروب . المعد عند تزاحم الكروب . ألا ترى وسطى لا يزال مشدودا . وسيفى لا يزال مجرودا . وأنا فريد الزمان فى المحاسن والإحسان . ولهذا قال فى كسرى أنو شروان : « النرجس يا قوت أصفر . بين در

أبيض على زمرد أخضر » . وأنا المشبه بى عيون الملاح . والمقرون فى مهمات الأدواء بالصلاح . أنفع غاية النفع . من داء الثعلب والصرع . وقد روى فى حديث راوية غير مقل ولا مفلس . : شموا النرجس فإن فى القلب حبة من الجنون والجذام والبرص لا يقطعها إلا شم النرجس . » الخ .

مقاماته المسكية ، والتفاحية ، والزمردية ، والفستقية والياقوتية :

هذه مقامات وصفية . وصف فيها السيوطى ، مفرداتها التى هى موضوع حديثه ، وصفاهو نمط من أوصافه لألوان الورود والأزاهير فى مقامته « الوردية » . ولم يعقد فيها مناظرات حامية كالتى عقدها فى مقامته المذكورة .

فى « المسكية » وصف المسك والعنبر والزعفران والزباد .

وفى « التفاحية » وصف الرمان والأترج والسفرجل والتفاح والنبق والخوخ .

وفى « الزمردية » وصف القرع والهندبا والخس والرجلة ، والبامية ، والملوخية والخبازى .

وفى « الفستقية » وصف اللوز والجوز والبندق والزلم والصنوبر .

وفى « الياقوتية » وصف الياقوت واللؤلؤ والزمرد والمرجان والزبرجد والعقيق والفيروزج .

وقد اكتفينا بالحديث المفصل فى مقامته « الوردية » عن مقامته هذه ، إذ أنها جميعا من طرازها وعلى غرارها .

مقامته المسكية :

هذه مقامة من طراز آخر . وقصة وجيزة قصها « هاشم بن القاسم » الذى حدث عن نفسه . أنه جشم نفسه مشاق السفر ، وتحمل وعثاء المسير . حتى حط رحاله فى مكة المكرمة . ودلف إلى جماعة بينهم شاب مهيب يدعى أنه حلال المعضلات . فجلس

إليه وسأله عشرات من الأسئلة ، ليستدل باجابته على نجابته . فكان الشاب موفقا كل التوفيق فى الرد . مع ملاحظة أن الأسئلة متنوعة وفى فنون شتى ، منها الفقه والأدب واللغة . وقد استخدم فى كل سؤال ، كلمة أو أكثر ، فيها تورية أو لغز لغوى يعمى به السؤال ويبهمه على المسئول ، فكان الشاب يفطن بذكائه الخارق إلى المراد ، ويجيد فى الرد بالصواب . حتى أعجب به الجميع ، وطرب له فيهم « هاشم بن القاسم » . فتقدم بين يدى الشاب يسأله عن اسمه ، فعرفه الشاب بنفسه فى أبيات شعرية لطيفة .

ومن لم يوقف على تورية الأسئلة وألغازها ، ويحلها ، تظل معماة عليه غامضة عصية الحل ، أبية الإجابة .. ولم يترك السيوطى هذا الغموض ماثلا . بل خلل سطور مقامته هذه بتفسير الغامض و إيضاح المبهم وحل اللغز ، فى عبارات معترضة . وبذلك كشف فى كل سؤال عن وجه الصواب ، ومن ثم وضح الجواب .

وإليك جزءا من هذه المقامة ، قال فى مطلعها :[1]

« حدثنا هاشم بن القاسم ، قال : ما زلت أقتحم المهامه المخيفة . وأدخل فى المسالك العنيفة . إلى أن نزلت بمكة الشريفة . فحططت الرحال بعنابها . وأرحت النفس من عنابها . وظللت أجوب فى مشاهدها . وأجول فى معاهدها . وأسهر فى تأمل محياها العين . وأشهد من تجمل رباها ما يهون فيه الحين . وأتردد فى الغدو والرواح . وأتزود من تلك الآثار فى المساء والصباح . وأتمنى أديبا يسلى بمسامرته الغربة . وأريبا يذيل بمحاضرته الإربة . فبينا أنا ذات ليلة فى المطاف . وقد سمرت سحائب الألطاف . إذا أنا بشعبة مؤتلفين ، وعصبة محتفين . وهم بين سلام وترحيب . وبكاء وتحيب .

---

(١) يبدو أن السيوطى اقتدى فى هذه المقامة بمقامة الحريرى « الطيبية » التى فيها يجلس أبو زيد السروجى فى مجلس بطيبة مدعيا العلم والفقه ، فيتصدى له شاب فتيق اللسان جرىء الجنان يسأله أسئلة فى كل منها كلمة مبهمة تحتمل معنيين فيفهم أبو زيد المعنى الذى يقصده الشاب ويجيبه عن سؤاله

وفى صدر الحلقة شاب مخيف الخلقة . قد تدرع بثياب الهبا . وتقنع جلباب الحياء الخ .

وبعد أن وصف هذا الفتى وماله من مهابة ، وما به من ادعاء فى العلم والفكر ، والنظم والنثر وحل المعضلات وتوضيح المشكلات ، قال :

« قال هاشم بن القاسم : فتسامیت إلى لقائه ، وتقدمت إلى تلقائه . لأستنور بباطنه على ظاهره . وأستظهر من كامنه على باهره . وأتخذه معاضدا ونصيرا ، ومحاضرا وسميرا . فقلت : وعيت ما منك رأيت . وشممت فيما عنك فهمت . فأيت على ما ادعيت ببرهان من الدلائل . وأجب إلى ما أقترحه عليك من المسائل .

فقال : على الخبير سقطت . ومن البحر لقطت . فأوضح عن مسالك . وأفصح عن مقالك . فقلت : ما تقول فيمن توضأ ولم يمسح أمه ؟ فقال لم تصح يا أمة » . والمراد بالأم الرأس .

وطفق النقاش بينهما دائرا بين سؤال وجواب . وإليك ألوانا من الأسئلة :

سأله عن ١ — صلاة الحرة وعنقها بارزة . ٢ — وجواز السجود على الجبهة .

٣ — وصحة الصلاة على الفحل ٤ — ووجوب الزكاة فى البهار

٥ — وجواز بيع الحر ٦ — وجواز بيع النبيلة

٧ — وجواز غصب الكميت ٨ — وجواز قرض لحم اليتيم .

إلى غير ذلك .

وهذا . والمراد بالعنق — كما فسر الكاتب — جمع عناق وهى أنثى المعز . والجبهة الخيل ، ومنه الحديث : « ليس فى الجبهة صدقة » . والفحل الحصير المتخذ من خشاش النخل . والبهار سمكة . والحر الفرس العتيق . والنبيلة الجيفة . والكميت الخمر . وقرض لحم اليتيم ، الإسلاف من ماله .

وقد أعجب السائل باجابات المسئول . فسأله عن اسمه ، فأجابه بأبيات منها .

يا راغبا فى أربى وهائما فى أدبى

وعالمـا برتبـتى ورفعنى فى الرتب

إلى أن قال : إنى أبو بشر العلا فى تاج أهل الأدب

قد طوحت يد النوى بى فى بلاد العرب . . . الخ .

مقامته الأسيوطية :

وتسمى أيضا « الأحاجى النحوية » . وهى قريبة الشبه بمقامته « المكية » وتدل كما دلت ، على مبلغ علمه ، ومقدار فضله . غير أن « الأسيوطية » فى النحو والأدب . وموضوعها — كما يفهم من عنوانها — سوق عدد من الألغاز النحوية على شكل سؤال ثم حلها على صورة جواب .

وقد نهج فى أسلوبها نهجا قريبا من نهجه فى المقامة المكية . مع تعديل قليل فى خط سيرها . فقد بدأها بهاشم بن القاسم يقص قصته ، وأنه رحل إلى أسيوط ، فوجد جماعة بينهم شاب وسيم عليم له فى العلوم باع طويل وذراع ، واسع الأدعاء . فنقده رجل بين الجماعة ، فأثاره وأهاجه ، وتقدم إليه يطلب مناظرته . فأخذ يلقى على الرجل أسئلة نحوية ، فى منطوقها توريات وألغاز غامضة . فبهت الرجل ولم يجب ، وتشهد الجماعة للشاب بالفضل فى النحو والأدب .

وفى نهاية المقامة ، وبعد انتهاء حديث الجماعة ، يأخذ الكاتب فى الإجابة عن أسئلة الشاب .

وإليك جزءا منها قال فى أولها — وهو استهلال وصفى لطيف : —

« حدثنا هاشم بن القاسم قال : لما انمحق الشتا انمحاق العدو . وأذن زهر الربيع بالبدو . أسفرت نقاب المقام . وشمرت أكمام الاهتمام . وركبت النيل المبسوط . وركبت مطيتى بمدينة أسيوط . وعكفت أدور سبلها وأرود أهلها فرأيت بها أنهارا

كالفضة . وأزهارا طرية غضة . وتغريد أطيار ، وغديرا مهدار . وجنات وبساتين . محفوفة بأنواع الرياحين . والورق تكلل من الطل بالجمان . ورماح الأغصان عليها أعلام من المرجان . فتأرجت بعرفها وتبلجت برشفها . وأنشدت قول الربيع فى وصفها :

لله يوم فى سيوط وليلة صرف الزمان بأختها لا يغلط
بتنابها والليل فى علواته وله بنور البدر فرع أشمط
والطل فى تلك الغصون كلؤلؤ رطب يصافحه النسيم فيسقط
والطير يقرأ والغدير صحيفة والريح تكتب والغمام ينقط

قال : فلما مضت الأيام السبعة . دخلت المسجد لقضاء الجمعة . فحين قضيت من الصلاة وطرا . وحل البيع والشرا . وإذا أنا بشاب فى وجهه ترجمانه . وفى لسانه جمانه . ينطق بغرر الحكم . وينسق درر الكلام » .

ثم يصف الشاب ويذكر الرجل الذى ينقده ، ثم أسئلة الشاب . ثم يجيب عليها بالإجابة ، وهى فى النحو والأدب كما ذكرنا .

المقامة الجيزية :

هذه مقامة قصيرة تدور حول لغز شعرى ، فى كلمة يبدو أنها « طيب » أراد الكاتب أن يسجله بأبيات . وقد افتتح مقامته بسطور بثرية لا بأس من إيرادها ، قال :

« حدثنا هاشم بن القاسم ، قال تجاوزت النيل إلى الجيزة . وقد أبرز الزهر إبريزه . فرضت فى رياضها وخضت فى حياضها . فبينما أنا فى محاسنها أمرح . وإنسان عينى فيها يسرح . إذا أنا بفئة قليلة . وعصبة نبيلة . فقلت فى خلدى ، لا تاس . فما فى وقوفك ساعة من باس . فلما نقلت إليهم ، وإذا شيخنا أبو بشر فيهم . فهلمت . ثم سلمت . وإذا كل منهم سأله الافتراح . وأقسم عليه ألا براح . فقال إن عندى للغزا عجبا . وإنله

لأعظم نبأ . فمن حله فهو من الجلة . فقال : اذكر ذلك اللغز ، لأحليه من الجواب بطرز . فقال :

يا ذا الذى قد فاق كل الورى ما قد حوى من حسن تأديبه
ما طيب إن أنت صحفته لم يتغير قط عن طيبه . . الخ

هذا وإنما ألمعنا إلى هذه المقامة ، لأنها لون من ألوان المقامات السيوطية .

مقامته السندسية :

هى — فى الواقع — رسالة ، لا مقامة بالمعنى المفهوم من المقامات . مطبوعة فى نحو عشرين صفحة من القطع المتوسط ، واسمها الكامل « المقامة السندسية فى النسبة المصطفوية » . وموضوعها التدليل على نجاة والدى النبى عليه السلام من النار . مع إيراد أقوال العلماء فى إثبات ذلك ، وتزييف من خالفهم .

وقد ألف السيوطى نحو ست رسائل فى هذا الموضوع ، ومنها رسالته المسماة « السبل الجلية فى الآباء العلية » . غير أنها مكتوبة بأسلوب علمى مدعوم بالأحاديث ونحوها . أما « المقامة السندسية » فمكتوبة بأسلوب أدبى بديعى مسجوع .

وإليك قطعة منها ، قال فى أولها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . نبى مرئى . وبرهانه جلى . خير الخليقة أما وأبا . وأزكاهم حسبا ونسبا . خلق الله لأجله الكونين . وأقر به من كل مؤمن العينين . وجعله نبى الأنبياء ، وآدم منجدل فى طينته . وكتب اسمه على العرش إعلاما بمرتبته عنده وفضيلته . وتوسل به آدم فتاب عليه . وأخبره أنه لولاه ما خلقه ، وناهيك بها مزية لديه :

نبى خص بالتقديم قدما وآدم بعد فى طين وماء
كريم بالحيا من راحتيه بجود وفى المحيا يا لحياء

ومن خصائصه فيما ذكره الغزالى وغيره ، أن الله ملكه الجنة ، وأذن له أن يتطع منها من يشاء ما شاء ، وأعظم بذلك منة . وخصه بطهارة النسب تعظيما لشأنه . وحفظ آباءه من الدنس تتميما لبرهانه . وجعل كل أصل من أصوله خير أهل زمانه . كما قال فى حديث البخارى الذى نقطع بصدوره من فيه : « بعثت من خير قرون بنى آدم ، قرنا فقرنا ، حتى كنت من القرن الذى كنت فيه » . وقال عليه السلام : « أنا أنفسكم نسبا وصهرا وحسبا . ثم لم يزل ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا . لا تتشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما . فأنا خيركم نفسا ، وأنا خيركم أبا » الخ

ولا حاجة بنا إلى أن نذكر مبلغ غيرة السيوطى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى آل بيته ، ومبلغ شغفه بأن يكون أبواه الكريمان ناجيين من النار ، تكريما له عليه السلام . وهو فى سبيل البرهنة على ذلك ، يقرأ التاريخ وأحاديث الرسول ، ويستوعب الكتب حتى يجتمع له شمل النصوص التى تعلن فى قوة بنجاتهما فيحشدها فى مقامته غزوا للقلوب بها وتثبيتا للعقيدة فيها . وإن السيوطى لمولع بإثبات هذه النجاة للناس حبا فى المصطفى عليه السلام ، ولم يكتب فى ذلك رسالة واحدة وإنما جملة رسائل ، طورا بالقلم الأدبى وآنا بالأسلوب العلمى ، ليملك على القلوب أقطارها وعلى العقول أوطارها .

وإذا كان السيوطى قد جد فى تلك المقامات أو الرسائل التى تبرزه لنا فى ثوبه الإسلامى الأصيل ، فان له المقامة الطريفة المرحة التى حرر بها نفسه ، لمحة ، من ربقة الجد ، وروح بها عن أنفس قرائه بعض الوقت ، وهى مقامة الفساء التى عرضناها عليك فى باب الوصف .

الفصل الثانى

الحكايات

الحكايات أو الروايات ، نقصد بها ضربا آخر غير المقامات ، يختلف عنها بعض الاختلاف ، وخاصة فى طريق العرض ، بما يسبغ عليه من خيال ، وما يتخلله من حوار أو تمثيل ، وما يتركز فيه من القص الذى يبدو أنه عنصره الأصيل ، لا عنصره العارض ، كما هو الشأن فى المقامات . وليس لهذه الحكايات التى نعرض لها هنا غرض تعليمى لغوى ، كما كان للمقامات ، وخاصة فى العصر العباسى . وإنما غرضها التسلى والتلهى وسوق العظة وإسداء النصيحة ، مع مناظر لاتخلو من تحليل لأخلاق المجتمع وتفصيل لعاداته وتقاليده .

وسنقف فى حديثنا هنا عند : « طيف الخيال » لابن دانيال الموصلى ، و« فاكهة الخلفاء » لابن عربشاه . وحسبنا من الحديث عنهما أن يتبين لنا أن أدب الرواية كان يعيش فى عصر المماليك ولو بصورة ما .

١ — ابن دانيال الموصلى [1] « ٧١٠هـ »

وكتابه « طيف الخيال »

شمس الدين بن دانيال الموصلى « محمد بن دانيال بن يوسف » شخصية طريفة ،

---

١ — ترجمة ابن دانيال ، فى فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ج ٢ ص ٢٣٧ — وفى الدرر الكامنة ج ٣ رقم ١١٦٦ .

امتزج فيها الأدب بالظرف . والذكاء باللطف ، والنقدة المرة بالنكتة الجديدة اللاذعة ، واللفتة الحرة بالفكاهة المبتكرة البارعة . وهو ممن واتتهم البديهة بالرد المفحم والجواب المسكت . وربما لا يعجب به محبو الجد ورواده ، ولكن يطرب له عشاق المزاح وعباده . وكثيرا ما قتل الجد أهله ووجد مكلوم الفؤاد فى المزاح متنفسا ، وفى الهزل تفرجا ، فضلا عما يجنونه منه من أدب لباب ، قد يعجز الجد عن بلوغ مداه وإدراك غايته .

عاش هذا الأديب فى القاهرة ، واكتمل له الذوق القاهرى الصميم ، وعالج صناعة الأدب بجانب صناعة الكحل . — وكانت هذه الصناعة حينذاك بمثابة طب العيون — وكان يتعاطاها فى حانوت له داخل باب الفتوح .

طفق ابن دانيال يقرض الشعر فى فنون مختلفة ، ممتزجة بالفكاهة والدعابة والنكتة ، حتى قال عنه صلاح الدين الصفدى : « هو ابن حجاج عصره ، وابن سكرة مصره . »[1] . وعاونته صناعة الكحل على صناعة الأدب ، فأمدته بشىء من ألفاظها ومعانيها فمزج ذلك بصناعة الأدب وأخرجها مخرج الهزل والمزاح والمجون ، فكانت رحيقا مقتولا ، لا يكتفى منه المرء بالنهلة دون العلة ، ولا بالجرعة دون إروام الغلة . قال :

يا سائلى عن حرقتى فى الورى وضيعتى فيهم وإفلاسى
ما حال من درهم إنفاقه يأخذه من أعين الناس

وابن دانيال — بهذه المناسبة — ممن أدركتهم حرفة الأدب فى ذلك العصر ، وممن لم تمتعهم أيامهم بيسار ، ولم ترفه عنهم ببلوغ أمل . ولذلك ضج بالشكاية من دهره ومن صناعته ومن شظف عيشه ، شكاية هينة ساخرة ، لا جادة سافره ، كما كان — مثلا — شأن ابن نباتة وابن الوردى فى شكايتهما .

---

١ — ابن حجاج وابن سكرة من شعراء العراق المتاجنين ، توفى الأول عام ٣٩١ هـ ، وتوفى الثانى عام ٣٨٥ هـ .

وقد قال ابن دنيال :

قد عقلنا والعقل أى وثاق وصبرنا والصبر مر المذاق
كل من كان فاضلا كان مثلى فاضلا عند قسمة الأرزاق

وقد نظم ابن دانيال الشعر فى جملة أغراض ، منها : الوصف واللغز والنقد والمجون والشكوى والهجاء وغير ذلك . كما نظم القصائد والمقطعات والتواشيح ، وغلب عليه إخراج شعره مخرج الفكاهة والتورية والسخرية والمجون ، — كما أشرنا — غير مبال بأسفاف فى عبارة ، أو تبذل فى إشارة ، بما ينبو عنه الذوق السليم والخلق القويم .

ومساق حياته ينبىء عن نفسية امتزجت فيها عناصر الأدب والنكتة والنقد والمجون والسخرية ، مع حضور بديهة وسرعة إجابة . واشتهر هذا المزاج عنه وعرف به .

وقد حدث الفتح بن سيد الناس قال : « كان الحكيم شمس الدين بن دانيال له دكان كحل داخل باب الفتوح فاجتزت عليه أنا وجماعة من أصحابه ، فرأينا عليه زحمة ممن يكحله . فقالوا : « تعالوا نخايل على الحكيم » . فقلت لهم : « لا تشاكلوه تخزوا معه » فلم يسمعوا . وقالوا : » يا حكيم ! تحتاج إلى عصيات » . — يعنون أن هؤلاء الذين يكحلهم يعمون ويحتاجون إلى العصا — فقال بسرعة : « إلا إن كان فيكم من يقود لله تعالى » . فمروا خجلين » . . .

وقال ابن سيد الناس : « وله من هذا النوع غرائب تنقلها المصريون عنه » .

وأدب ابن دانيال تبدو عليه مسحة الصدق وسلامة التعبير عن الضمير ، والرغبة فى تسجيل الحوادث ، شخصية أم عامة . وقد أبطلت المنكرات فى عهد السلطان حسام الدين لاجين ، فأنشأ ابن دانيال يقول متفكها ناصحا :

احذر نديمى أن تذوق المسكرا أو أن تحاول قط أمرا منكرا
أو تشرب الصهباء صرفا قرقفا وتزور من تهواه إلا فى الكرى

أنا ناصح لك إن قبلت نصيحتى اشرب - إذا ما رمت سكرا - سكرا . . الخ

الحديث عن شعره يطول ، فلنتحدث عن كتابه « طيف الخيال » :

طيف الخيال :

هو كتاب ألفه ابن دانيال ، يحتوى على ثلاث روايات تمثيلية ، تصلح للتمثيل المسرحى ، على طريقة « خيال الظل » ، التى كانت إحدى وسائل التسلى واللهى فى عصر ابن دانيال وقبله .

ولعل اللعبة المشهورة فى عصرنا الحاضر بخيال الظل ، والتى كادظلهايتوارى أو توارى فعلا ، بقية مما ترك أهل عصر ابن دنيال فى ميدان التسلية واللهو . ولعلها أيضا فى جملة العوامل التى وجهت أنظار المخترعين إلى ابتداع « الخيالة » ، لأن أساس الفكرة فيهما واحد ، وهو عرض صور متحركة على قماش مثلا تسلية للجماهير ولعبة « خيال الظل » أقرب شبها بالخيالة الناطقة منها بالصامتة — التى بدأت بها الخيالة حياتها — وذلك لأن أبطالها كانوا يتحركون ويتكلمون .

وتمثيليات ابن دانيال فى لعبة الخيال ، تدل دلالة بارزة ناطقة على أن فن التمثيليات — نثرية أو شعرية — قد طاف طائفه بأذهان بعض أدباء العربية منذ قرون . فهى مبنية — كما سنرى — على التشخيص والحوار والحركة ، وللعاطفة فيها نصيب كبير ، هذا فضلا عن تعرضها لوصف الأحوال الاجتماعية ونقدها والسخرية منها . وهذه أمور تعتبر من أهم دعائم التمثيليات الحديثة .

وإذا أضفنا إلى نتاج ابن دانيال فى هذا المجال نتاج الصفى الحلى فى « رسالة الدار فى محاورات الفار » ، ونتاج الجلال السيوطى فى كثير من مقاماته — وقد سبقت لنا الإشارة إلى كل أولئك — أحسسنا أن أكثر من أديب من أدباء مصر فى عصر

المماليك ، فطنوا إلى فن التمثيل وألفوا فيه .

وطيف الخيال وما به من تمثيليات ، له شبه بالمقامات ، وذلك لاحتوائه - أو لبنائه - على بعض دعائمها الأصلية . فهى قصص مكتوبة بعبارات مسجوعة روعيت فيها ألوان بديعية من جناس وطباق وتورية وفقارها فى الغالب قصيرة مقبولة . وتدور حول الاستجداء الذى هو هدف المقامات الأخير .

غير أنها فارقت المقامات مفارقة واضحة ، بعنصر التمثيل والحوار وتعدد المناظر واختلاف الشخصيات وتنوع الأبطال فى كل تمثيلية منها ، وبإسناد دور معين ذى اتجاه خاص إلى كل بطل أو شخصية .

وتتخلل سطور كل تمثيلية ، أبيات شعرية كثيرة وأزجال عامية . وكثيرا ما تبدو الأبيات قصيدة رائعة مشوقة فى المعانى التى تناسب السطور .

وتمثيليات طيف الخيال ممتعة ، لا بأسلوبها وعباراتها فحسب ، ولكن أيضا بمواقفها الفنية واتجاهاتها المتعددة ومناظرها الكثيرة المتجددة . ولا نجا فى الحقيقة إذا سجلنا أنها فريدة فى بابها بين ألوان القصص العربى .

وعيبها ما التاثت به من عامية ومجون وتبذل . فان منشئها لم يتورع عن أن يسف إلى العامية أحيانا ويكثر من الضرورات ، وقد ترك نفسه على سجيتها تتفكه وتمجن وتصل فى فكاهتها ومجانتها إلى حد يتقزز منه الذوق السليم والخلق الكريم ، سواء أكان ذلك فى شعره أم نثره .

ويعانى شعره ألوانا من الضعف والكسر ، ولعل سوء النسخ له أثر فى ذلك .

وليس معنى ما قدمنا أن « طيف الخيال » خلو من النفع ، فهو فضلا عن أنه أداة للتسلية ، فيه حكم وأمثال ومواعظ ونقد وتسجيلات اجتماعية وخلقية لها أهميتها .

وبالخزانة التيمورية نسخة خطية كاملة لطيف الخيال ، برقم ١٦ آلعاب — وبدار الكتب المصرية نسخة أخرى منه مطبوعة فى ألمانيا . وبمقارنتهما رأينا أن النسخة المطبوعة تعانى نقصا شديداً وخلطا فادحا بين أجزاء التمثيليات الثلاث .

وإليك مثلا لذلك : فالتمثيلية الأولى توجد بالنسخة المخطوطة كاملة وهى متعددة المناظر والمواقف . ولكنها فى النسخة المطبوعة لا يوجد منها إلا منظر واحد وموقف واحد . وهو الذى يبدو فيه « الريس » وينشد نشيدا . ويبدو على أثره « طيف الخيال » — وهو أول أبطال اللعبة — ويدور بينهما حوار قصير ينشد طيف الخيال على أثره نشيدا آخر . ثم يختفيان . ولكننا سنرى أن التمثيلية المشار إليها أوسع نطاقا من هذا وأبعد أفقا .

ومثلا آخر : ، التمثيلية الثانية — أو البابة الثانية كما يسميها مؤلفها — تعانى نقصا شديداً فى مفتتحها ، فهى فى النسخة المطبوعة تبدأ بحديث « حويش الحاوى » ولكنها فى النسخة المخطوطة تبدأ بظهور رجل غريب يتحدث عن نفسه وأسفاره وغربته — ولعل ابن دانيال يعنى به نفسه — ثم يخرج « عجيب الدين والواعظ » يؤدى دوره . ثم يبدو من بعده « حويش الحاوى » — وينقص هذه التمثيلية أيضا جزء كبير فى وسطها يتضمن عدة مواقف وأدوارا . وكذلك ينقصها جملة أدوار فى نهايتها

وقد ذكر ابن دانيال فى مطلع مؤلفه الفريد ، أنه كتب قصصه إجابة لطلب أحد أصدقائه الماجنين . وكان هذا الصديق قد خاطبه فى موضوع « خيال الظل » وذكر له أنه قد مجته الأسماع . ونبت عنه لتكراره الطباع » وسأله أن يصنف فيه شيئاً جديدا

ومن هنا نستنبط أن لعبة « خيال الظل » كانت ملهاة متداولة قبيل جيل ابن دانيال على الأقل ، وأن الناس كانوا يتلهون بها فى جيله ، وكثر تكرار رواياتها ، ولم تحط

بشيء من التجديد والابتكار يجذب الناس إليها ويدفع عنهم ملهم منها .[1]

فاستجاب ابن دانيال لصديقه وألف هذه التمثيليات الثلاث . وأغلب الظن أنها كانت جديدة مبتكرة ، وأن ابن دنيال أدخل بها على هذه اللعبة روحا جديدة ، وأن الناس أقبلوا على سماعها والتفرج بها دون أن تمجها أسماعهم أو تنبو عنها طباعهم .

— قال ابن دنيال فى خطاب صديقه — ولعله صديق منتحل : —

« كتبت إلىّ أيها الأستاذ البديع . والماجن الخليع . لا زال ستزك رفيعا . وحجابك منيعا . تذكر أن خيال الظل قد مجته الأسماع . ونبت عنه لتكراره الطباع . وسألتنى أن أصنف لك من هذا النمط ، ما يكون بديعا فى أشخاص السمط . فصدنى الحياء فيما رمت منى . لكن رأيت تمنعى من هذا المرام . يوهمك أنى قاصر الاهتمام . واهن الفكرة . عاجز النظرة . على غزارة الينبوع . وإجابة الخاطر المطبوع . فجعلت فى ميدان خلاعتى . وأجبت سؤالك لساعتى . وصنفت لك من بابات المجون . والأدب العالى لا الدون . ما إذا رسمت أشخوصه . وبوبت مقصوصه . وخلوت بالجمع . وجلوت الستارة بالشمع . رأيت بديع المثال ، يفوق بالحقيقة ذلك الخيال . »

وكل تمثيلية من الثلاث محبوكة الأطراف ، سليمة الجوانب ، على وجه التقريب فى بابها . ولا سيما التمثيلية الأولى ، فهى أبرعها جميعا ، وأجمعها وأروعها .

---

[1] — نبه الأستاذ عمر الدسوقى إلى أن لعبة خيال الظل كانت معروفة قبل ابن دانيال ، فقد ذكر المرادى فى « سلك الدرر » للسيد احمد البيروتي من رجال القرن السادس الهجرى قوله :

أرى هـذا الوجود خيال ظل ... محركه هو الرب الغفور
فصندوق اليمين بطون حوا ... وصندوق الشمال هو القبور

وهو أقدم نص — كما يرى — يدل على وجود خيال الظل .

ونبه أيضا إلى أن ابن حجة روى فى ثمرات الأوراق ، وعلاء الدين البهائي روى فى مطالع البدور أن صلاح الدين الأيوبي ووزيره القاضى الفاضل كانا يشاهدان « خيال الظل » .

وتتلاقى جميعا فى معنى واحد أو جملة معان ، وهى أنها ماجنة ، وفيها إسفاف ، وفيها استجداء ، وفيها أيضا تسلية وعظ وحكمة ونقد ، كما سبقت الإشارة .

ولكنها تختلف فى موضوع قصها وحوارها ومناظرها ومواقفها ومغازيها . والتمثيلية الأولى هى أحكمها جميعا فى كل أولئك . كما سنبينه .

وإليك عرضا وتحليلا موجزين لكل منها :

التمثيلية الأولى :

يقوم بالتمثيل والحوار فيها تسعة أبطال — عدا « الريس » الذى يقدم البطل الأول . أما الأبطال التسعة فهم : — طيف الخيال . والأمير وصال . والشيخ بابوج . والشاعر صربعر . والخاطبة أم رشيد . والعاقد . وابن بنت أم رشيد . والشيخ عفاق . والحكم يقطيتوس .

ولكل منهم شخصية مستقلة ذات لون خاص يبدو منه حين أداء دوره . وتحبك من أدوارهم هذه الملهاة الهازلة الطريفة التى تصور بعض الحالات والعادات الاجتماعية المرعية بين الطبقة الشعبية فى مصر ، منذ ذلك العصر حتى اليوم . وفى بقائها حتى الآن دلالة على تأصلها فى مجتمعاتنا وعلى جمود هذه المجتمعات على عاداتها وبطء تحولها .

ومن الطريف أن ابن دانيال لم يغفل بين الحين والحين أن يمهد لكل بطل فى بدء ظهوره بكلمات تعين على حسن تصوره كما يريده . وهذا ما يفعله كثير من المؤلفين المسرحيين المحدثين ليعينوا بذلك على حسن إخراج الرواية وأبطالها كما أرادوهم .

وإليك شخصيات هذه الملهاة حسب ظهورهم :—

طيف الخيال : هو أول أبطال الرواية وهو شخص أحدب قصير يثير الضحك . يرقص ويضحك الحاضرين ويخطب فيهم خطبة المجون . ويدعوهم إلى التبذل ومقارفة

الآثام . ويشكو إليهم سطو الزمان الذى فرق بينه وبين أخيه « وصال » ويخبرهم أنه غريب أتى إلى هذه الديار طلبا لهذا الأخ . ثم يبدو « الأمير وصال » فيتبادلان الأحاديث ويدور بينهما الحوار . ويستقدمان من آن إلى آخر بطلا جديدا من أبطال الرواية . يقع بينه وبينهما حوار جديد .

الأمير وصال : وهو الشخصية الثانية فى الرواية . والرواية — فى الواقع — تدور حوله هو . وهو على حد تعبير ابن دانيال « جندى[1] بشر بوش وسباله منبوش » وقد اجتمعت فيه الموبقات وأصناف الخيل وألوان النقائص . وقد أفصح عن نفسه فى خطبته حيث قال « أنا عيبة عيوب . وذنوب ذنوب » .

وأصله رجل غريب عن الديار . طوحت به الليالى . وأصابته ظروف الزمان . ففرقت بينه وبين أحبابه وأصحابه . وباعدت بينه وبين الصفو والهناء بعد أن تزود من الآثام على مختلفاتها . . . ثم هو يرجو لنفسه أن يتأهل ويتروح ويستريح من أعباء الذنوب .

وتدور بقية الرواية حول إتمام هذا الزواج . وما أصاب هذا الأمير من جرائه وما دخل عليه فيه من الحيلة والمكر . كما سترى .

واختيار اسم « وصال » لهذا الأمير من طرائف خاطر ابن دانيال .

الشيخ بابوج . — وهو كهل مسيحى العقيدة ولكن به صبوة ومجانة . وأهم ما أداه فى دوره أنه أجاب ما طلبه منه « طيف الخيال » وهو قراءة تقليد « الأمير وصال » الذى عين بمقتضاه فى وظيفته .

والتقليد — كما عرفنا فى باب الرسائل — مكاتبة ديوانية تصدر على لسان السلطان يعين فيها أحد الموظفين فى وظيفته ويثنى على همته وكفايته ويبين له وجوه اختصاصه ويوصيه .

---

١ — نرجح أنه يعنى بكلمة (جندى) فارسا عليه سلاحه ويلبس لبس الأتراك . وكنا نسمع بعض أهل الريف يلقبون (الأفندية) وهم الذين يلبسون الزى الفرنجى (بالجنادى) جمع جندى فى لفتهم .

الشاعر صربعر . — ذو شخصية فكاهية تتردد فكاهتها بين الرضا والسخط والوعد والوعيد والمدح والقدح . ينشد شعره فى هذه الأغراض ويوجهه إلى « الأمير وصال » . ثم إنه قصاص ماهر يحفظ جملة من فكاهات التاريخ ونوادر الزمان يقصها على « الأمير وصال » بطريقة تثير الشوق .

أم رشيد . — هى امرأة عجوز شمطاء متصابية . كان لها جمال فزال إلا بقية . وكانت لها صبوات لاتزال جامحة، وهى تحتال لبلوغ مداها على الرغم من شيبها، وقد عركها الدهر فعركته ، وعرفها الزمان فعرفته . فهى مجرِّبة ومجرَّبة . ذات خبرة واسعة فى الجمع بين العشاق ، والراغبين فى الوفاق . وصناعتها أنها « خاطبة » . يصطنعها الرجال فى البحث عن الزوجات ذوات الجمال . وهى مملوءة بالمكر والخداع ، ترتجل الحيل . وتزيف الباطل ، وتورط الرجال . . .

وقد طلب إليها « الأمير وصال » أن تبحث له عن رود حسناء ، وخرعبة بيضاء . فخطبت له عجوزا على مثالها ، زعمت له أنها ذات حسن باهر ، وطلعة بدرية، فرضيها منها زوجة . ولكنه بعد العقد عليها وبدء الدخول بها، تكشفت له الخدعة ، وسفرت لعينيه الحقيقة ، فسعى للانتقام من أم رشيد . .

ولعل فى تسمية هذه الخاطبة «أم رشيد» ما يشعر بتهكم كاتب الرواية بصناعتها .

العاقد . — وهو « المأذون » وصناعته إتمام العقد . وعند حضوره خطب الخطبة التقليدية فى هذه المناسبة . وهى منتزعة من نفس المجرى الذى تجرى فيه الرواية مجانة وهزلا .

وقد أورد فى خطبته اسم الزوجة وهو « ضبة بنت مفتاح » وهو اختيار لبق وقع عليه خاطر المؤلف .

ابن بنت أم رشيد . — هو غلام حدث به رعونة ونزق ، كهذه الرعونة وهذا النزق اللذين نلحظهما من غلمان العرس فى ليالى الزفاف ، ممن تطغيهم النشوة والقرابة . وقد

أدى هذا الغلام دوره الوجيز وكانت له أهميته على كل حال .

الشيخ عفاق [١] . — هذا شيخ هرم هم ، حطمته الشيخوخة كما حطمته التجارب ، وهو زوج أم رشيد ومعينها على صناعتها الرفيعة وأداء رسالتها الشاذة . . .

وقد استقدمه الأمير وصال لينتقم منه جزاء ما اقترفته زوجته الملعونة من إثم عظيم ، ولكى برغمه على أن يدله على مكانها الذى اختبأت فيه ليعاقبها على سوء فعلتها . . فيخبره أنها هلكت وماتت بين يدى طبيبها .

الحكيم يقطينوس [٢] . — طبيب مجرب يتعاطى علاج المرضى . . وكان يعالج أم رشيد . فلم يجد معها علاجه وطبه . وهلكت بين يديه بعد أن أوصته وصية طريفة تدعوه فيها إلى التأليف بين القلوب . والجمع بين المحب والمحبوب . . وكأنى بها هلكت وفى نفسها جزع شديد على مصير صناعتها . .

هذا . ولعل فى اسم « يقطينوس » ما يتسق وهذه الصناعة . . .

هذه شخصيات التمثيلية الأولى . وإليك وجازة عن فصولها ومقتضيات من سطورها وتعليقات مناسبة عليها : —

يبدو الريس — وهو الذى يقدم « طيف الخيال » — على الشاشة أو المسرح ويلقى نشيدا افتتاحيا وهو . —

« خيالنا هذا لأهل الرتب ... والفضل والبذل وأهل الأدب

حوى فنون الهزل والجد فى ... أحسن شكل وأتى بالعجب

فانظره يامن فهمه ثاقب ... ففيه للعرفان أدنى سبب

إن قام فيه ناطق واحد ... عن كل شخص ظاهر واحتجب

---

(١) عفق بعفق بكسر عينه : غاب وضرط ونام قليلا ثم استيقظ ، ولم يحكم العمل وحبس ومنع .

(٢) اليقطين — القرع الرطب .

ترجمته « طيف الخيال » الذى حكى هلالا طالعا بالحدب

مذاهب الفضل به جمة فنقطوه سادتى بالذهب »

هذا النشيد الافتتاحى واضح فى أداء الفكرة المرتقبة من هذه اللعبة . وفى الدلالة على الطريقة التى تدار بها .

أما الفكرة فهى تسلية أهل الفضل والبذل بما فيها من فنون الجد والهزل . وكل منهم يجد فيها طلبته من لهو ومجون ، أو حكمة وعظة . ومن حق عارضها إذن أن ينقطوه بالذهب . وهكذا يستخدم العارض أدبه ولطائفه لاسترقاق القلوب واستدرار الأكف .

أما الطريقة فهى تمثيل الأشخاص « بشخوص » يؤدى كل منها دوره ثم يختفى .

قال ابن دنيال :

فإذا فرغ الريس من هذا الإنشاد . يشرع فيما بنى وشاد . ثم ينادى : « ياطيف الخيال يا كامل الاعتدال » ! فيخرج شخص أحدب . وينقض كالبازى الأشهب . فيسلم سلام القادم . ويقف مطرقا كالواجم . فيرد « الريس » عليه السلام ويتلقاه بهذا المديح قبل الكلام » .

وهنا ينشد « الريس » نشيد استقبال لطيف يستقبل به « طيف الخيال » ويمدحه بكل صفات الجمال . ويدور مدحه حول قصره وحديقه ، فيصفها « الريس » بكل وصف يخرجها من حيز القبح إلى حيز الحسن . وهو احتيال طريف قوامه التشبيهات والتعليلات . ومن هذا النشيد قوله : —

قسما بحسن قوامك الفتان يا أوحد الأمراء فى الحدبان

أنت الحسام زها ببرشق حدبة فاقت على الخطية المران

يامخجل الغصن الرطيب بقده حاشاك أن تعزى إلى نقصان

ما عاب قامتك الحسود جهالة إلا أجبت مقاله ببيان

ومنه . — لولاك ما اشتقنا قباب المنحنى من حاجر والتل من عسفان
والعود أحدب وهو ألهى مطرب ولقد سمعت بنغمة العيدان
وكذا سفين البحر لولا حدبة فى ظهره لم يقو للطوفان . الخ

يطرب « طيف الخيال » من هذا المديح . ويرد على « الريس » قائلا : «لافض الله فاك . وصان من سيف الحسبة قفاك » !

ثم يأخذ « طيف الخيال » فى الرقص والغناء ويحيى الحاضرين بنشيد لطيف داعيا لهم وللسلطان بالنصر والتأييد، وذلك بعد حمد الله والصلاة على نبيه الكريم . وهذا هو مفتتح نشيده — قال :

سلام على السادة الحاضرين سلام المشوق الكئيب الحزين
سلام على من حوى ذا المقام من السادة الأتقياء البكرام
فهم خير من خوطبوا بالسلام وأكرم من صوفحوا باليمين . الخ

وبعد أن يتم نشيده يلقى على أسماع الحاضرين قصته . ومؤداها أنه وفد على مصر من الموصل فى عهد الدولة الظاهرية ، فوجد أن أمر السلطان قد قضى على أتباع الشيطان بتحريم الخمور والحشيش وما إليهما من المسكرات، مع الضرب على أيدى الفساق والزناة . . وهذا مما حز فى نفسه ودعاه إلى الأسى والأسف . واستحق منه أن يرثى شيخه أبليس وأتباعه بقصيدة مطلعها :

مات يا قوم شيخنا إبليس وخلا منه ربعه المأنوس الخ

وقصة « طيف الخيال » منثورة مسجوعة بديعية الأسلوب ، ضمنها ألفاظا ماجنة مكشوفة ودعوة سافرة إلى الفساد . وإن كان فى تضاعيفها حكم وأمثال من المجرى ، إنها توريات دقيقة وعبارات تترجح بين الجد والهزل ، وإن كان هزلها هو المقصود . . قال فى مفتتحها . —

« السلام عليكم أيها السادة ! ودمتم فى نعمة وسعادة . واعلموا أن لكل شخص

مثال [١] وقد قيل فى الأمثال : — إنه يوجد فى الأسقاط . ما يوجد فى الأسفاط . على أن لكل أسلوب طريقة . وتحت كل خيال حقيقة . وفى الهزل راحة من كلال الجد . والنحس يظهر السعد . وقد يمل المليح . ويستحسن القبيح . والمصنوع حليم . وباذل نفسه كريم . والمؤاجر مصاف . والمبادل مواف [٢] » .

ومنها وفيه دعوة إلى الفسوق وتزيين للفجور . —

« وما عليك أن يقال : هذا قبيح . وكل شىء على وجهه مليح . وفى القيادة سر الانقياد . والتيمن بطلعة القواد . لأنه جامع الشمل . والمرتاض بالمشى فى الرمل . وهو الطحان الذى يجمع الحجرين على الحبة . والدقيق والجليل على المحبة . مع جمعه الصحاح والقطع . والتمتع بليالى الجمع . وفى القهوة سلوة الأحزان . لولا خفة الميزان . وطاعة الشيطان . وعصيان السلطان . » . . الخ

ثم يعقب طيف الخيال على حديثه بقصيدته التى أشرنا اليها فى رثاء شيخه إبليس وأعوانه . ثم يقول وكأنه يخاطب « الريس » : —

« والله لقد سطا علينا الزمان وصال . وفرق بينى وبين أخى وصال . وما قصدت هذه الديار إلا فى طلبه . ولا تغربت عن أوطانى إلا بسببه . فلعلك تجمع شملى به » .

فيقول رسيل الخيال : « يا أمير وصال ياكامل الخصال »! فيخرج جندى بشر بوش وسباله منبوش

وإذا بدا الأمير وصال يخطب فى الحاضرين خطبة جامعة يعرفهم فيها نفسه ويعلمهم بصفاته الممتازة وحبله الرفيعة . . . وكأنى به لم يترك موبقة ولا صفة خسيسة إلا ألصقها بنفسه وانتحلها ! وكأنى بهذه الصفات والموبقات مثار فخره ومناط زهوه ! ولكنه — والحق يقال — لبق العبارة ، كيس الإشارة . وكأنى بابن دانيال واضع الرواية قد نظم

---

(١) هكذا لضرورة السجع .

(٢) فى الاصل . مصاف ومواف بيائين مثبتين

هذه الخطبة أهجية لفاسق وذما لفاجر، فجمع له فيها كل صفات النقص من موضع الهوان .

يقول الأمير وصال فى مطلع هذه الخطبة :

« سلام على من حضر مقامى . وسمع كلامى . من عرفنى فقد قنع ببأسى . ومن جهلنى فأنا أعرفه بنفسى . أنا أبو الخصال . المعروف بأمير وصال » الخ . . .

وأخذ يذكر نعوته ومميزاته ، فقال :

« أنا ملاكم الحيطان أنا محيط الشيطان . أنا أنهش من ثعبان ، وأحمل من قبان . وأنا أنطح من كبش . وأنتن من حش . أنا أسرف من نعاس . وألوط من أبى نواس » الخ . .

ومنه قوله :

« أنا عيبة عيوب . وذنوب ذنوب . أنا قبضة من كف وقاد . وغمزة من عين قواد . أنا أصفع من كف خباز . وأرفس من رجل بزاز . أنا أبرم من حبل . وأثقب من نبل . وآكل من نار وأشرب من زبل » . . الخ

فيقول له طيف الخيال : « أنت جمال المقامات . ومن خلف مثلك ما مات » .

فيقول له الأمير وصال شاكيا باكيا ذاكرا مامر ليالى الصفاء :

« أين تلك الأيام التى كانت مواهب . وكانت بإسعاف الأحبة حبائب . وأين أوقات المعشوق . والاجتماعات بباب اللوق . وأين قصفنا فى بستان الخشاب . وشربنا فى عرصه أم شهاب . » الخ .

ثم ينشد قصيدة ماجنة خليعة فى معنى ما قال . ويظل يتردد بين الشعر والنثر على هذا النسق ، حتى شرف على خاتمة خطبته ، فيدعو فيها إلى التوبة والإقلاع عن المعاصى قبل وقوع القدر المحتوم . . .

وهنا ينادى « طيف الخيال » الشيخ بابوح . ويسأله عن حاله . ثم يطلب إليه قراءة تقليد الأمير وصال . فيقرؤه وملؤه الفكاهة والمجون فى كل خطواته ومراحله ، وحشوه السخرية والتهكم . . .

وقد كتب بأسلوب ديوانى على نسق تقاليد ديوان الإنشاء ففيه الخطبة وتحتوى على الحمد والصلاة . وفيه ثناء على همة الأمير وكفايته . وبيان لوظيفته واختصاصه وتوصيته .

وكأنى بابن دانيال يسخر من كتاب الدواوين وتقاليدهم باختياره شخصية « بابوج » المسيحى الهازل . ويتهكم بأمراء الدولة وأعيان موظفيها . —

قال « بابوج » فى مستهل التقليد :

« الحمد لله الواحد القهار العزيز الغفار . الذى يجزى بالإحسان إحسانا . وبالسيئات عفوا وغفرانا » .

وبعد الحمد والصلاة قال : —

« وبعد فان أولى من يستندب لاستجلاب الفرح . ويستحضر لاستماع النوادر والملح . من يقوم فى دفع الغموم . مقام ابنة الكروم . ولما كان الأمير الأجل الأوحد عنين الدين . ذخر البله والمجانين . شفة صرم غلام أمير المؤمنين . وصال المحبة — أطال الله قفاه . وبارك فى خصاه . وأعطاه من الصفع أوفره وأوفاه — ممن تتجمل بطلعته المجالس . ويحن إلى صفع قذاله كل قاعد وجالس . كان جديرا بأن تمد إليه الأكف والسواعد . ويكون كالبحر الذى ساحله المصادر والموارد : » الخ . .

وينشد الكاتب فى أعقاب هذا التقليد شعرا فى مدحه . منه هذان البيتان :

إن البلاد التى أصبحت واليها ... أضحت ولاجنة المأوى ضواحيها

وعمرت منك بالعدل العميم إلى ... أن طاب حاضر سكناها وباديها

ثم ينادى « طيف الخيال » على الشاعر صربعر بعد أن يتوارى قارىء التقليد .

فيبدو الشاعر ، فيبدأ بتوجيه قصيدة ضاحكة متهكمة إلى الأمير وصل مطلعها :

أتوعدنى الهوان فليت شعرى أهذا منك جائزة لشعرى . . الخ

ثم أخذ الشاعر فى السخرية بالأمير وتسليته معا، فيقص عليه قصة « دلوكة الملكة » وما كانت تعمله من ضروب السحر . وعندما قارب الانتهاء منها ذكر فى الخاتمة اسم شخص آخر شوقه إلى معرفة قصته . فسأله الأمير وصال عنه . فقص قصته عليه . وفى نهايتها أنشد بيتين من الشعر ذكر فيها اسما آخر، وشوقه إلى سماع حكايته . فسأله عنه فقص قصته ، وهكذا دواليك ، حتى قص عليه جملة من القصص فيها لهو وتسلية ، وفيها إسفاف ولجاج فى الإسفاف . وأكثر الأسماء المشار إليها منتزع من بعض أجزاء الجسد . . ثم ينصرف الشاعر .

هنا يخاطب « الأمير وصال » أخاه « طيف الخيال » ويعلمه بأنه عزم على التوبة وهجر الخلاعة والإقلاع عن المعصية ، وأنه اعتزم أن يتزوج ليضع حدا لهذه الآثام ، ويرجوه أن يطلب له « أم رشيد » الخاطبة .

ويصف ابن دانيال هذه العجوز قبل ظهورها بقوله :

« وإنها تعرف كل حرة وعاهرة . وكل مليحة بمصر والقاهرة . فانهن يخرجن من الحمامات . متنكرات فى ملاحف الخدامات . » الخ . .

وفى ذلك تسجيل لبعض العادات المنتشرة والتقاليد المتبعة حينذاك .

ينادى « طيف الخيال » : — « يا أم رشيد . ياست العبيد ! » . فتخرج العجوز وتقول محيية متسائلة ، وفى ألفاظها توريات :

« مسيتم بسعادة ، ولا زلتم فى نعمة وسيادة . وفى خير والخير عادة . يا أولادى ولا بليتم بالكبر . وثقل الجسم والسمع والبصر . من هذا الذى طلبنى فى الليل الدامس . والدروب مغلقة والطرف ناعس ؟ وأزعجنى من رقدتى والنجوم راكدة . وكل صبية مع عشيقها راقدة » .

فيقول « طيف الخيال » : — إن الأمير وصالا هو الذى طلبها . فيتقدم وصال ويعرض عليها رغبته ، ويصف لها العروس التى يرجوها لنفسه فيقول :

« ملفوفة البدن . لا رقيقة ولا مفرطة فى السمن . أسيلة الخد . قائمة النهد » إلخ وينشد أبياتا فى المعنى .

فتعرض عليه أم رشيد ما عندها من بضاعة وتقول :

« يا ولدى ! عندى صبية . كأنها الشمس المضية » . وتصفها وصفا رقيقا ماجنا وتخبره أنها تركت زوجها الأول . وأنها مثال الحسن والجمال . . . الخ . وتعرّض بنفسها فى سياق الحديث وبأنها فى طاعة الأمير وصال . كيفما أراد الحال وتصف له صناعتها .

يرضى الأمير بهذه الصبية وهى « ضبة بنت مفتاح » ويحضر العاقد والشهود ويكتب العقد .

وقبل كتابة العقد يستهل العاقد بخطبة الزواج وهى مضحكة فكاهية استخدم فيها ألفاظا مناسبة لمعانى الرواية ومجونها . وكأنى بابن دانيال يتهكم بهؤلاء العاقدين الذين يلونون حديثهم ويديرون خطبهم حسبما تقتضيه الأحوال . . وفى ذلك بلاغة على كل حال . .

قال العاقد فى خطبته مستهلا ببراعة ملحوظة :

« الحمد لله ستار العيوب . وعالم الغيوب . والمؤلف بين القلوب . » . . الخ . ثم قال ، يبين مزايا الزواج والنسل : « وبعد . فإن التناكح والوصل . سن لبقاء الذكر ببقاء النسل . وهو العاصم من الأوزار . والدخول إلى النار . نتاجه الأولاد . والسادة الأنجاد . يعمرون الديار . وينصرون بالإكثار . ويدرك بهم الثار . ويقال بهم العثار » . الخ

ويقول مثنيا على الأمير وصال . ويذكر العروس :

« وهذا الأمير وصال . مشكور الخصال . قد عزم على الاتصال . بالبنت المصونة . والدرة المكنونة . ضبة بنت مفتاح . على ما أصدقها فى هذا النكاح . وهو مائة معجلة . وأربعة وأربعون مؤجلة » . . الخ .

ولعل هذه المعجلة والمؤجلة دنانير لا دراهم . . ويبدو أن المغالاة فى المهور تقليد مزمن فى هذه الديار . . .

وعند تمام العقد « تطلق أم رشيد البخور . وترش ماء الورد على الحضور » . . وهذه بعض عاداتهم . ثم يقول الأمير وصال معلنا بفاقته وحاجته إلى المال ليقيم معالم الأفراح ويتم على نفسه هذه النعمة . . . ويأخذ فى الشكوى واستدرار الأكف واستر قاق القلوب . . . وهذه إحدى الوصائل لجمع المال . . . قال : —

« لابد من تدبير الحال . وتجهيز المال . على أنى الليلة أعوز من زنبور . وأفلس من طنبور . » ! ثم ينشد قصيدة فى المعنى : مطلعها :

أمسيت أفقر من يروح ويغتدى ما فى يدى من فاقتى إلا يدى

فيقول له طيف الخيال :

« يا أمير وصال . عهدتك ذا مال وجمال وخيل و بغال . » ! !

فيرد عليه الأمير وصال ويفيض فى الشكاية قائلا :

« مال المال . وحال الحال . وذهب الذهب . وسلب السلب . وفضت الفضة . وقعدت النهضة . وفرغت الكاس ، بطون الأكياس . وبعت العقار . برشف العُقار . وأما فرسى فقد افترسته يد الأسقام . وأخلق جدته مرور الليالى والأيام . حتى بكيته بكاء عروة بن حزام . » الخ

ويظل فى بكائه على حصانه بين شعر ونثر . ومن أبياته قوله :

قد كمل الله برذونى بمنقصة وشانه بعد ما أبلاه بالعرج
أسير مثل أسير وهو يعرج بى كأنه — ماشيا — ينحط من درج
فإن رمانى على ما فيه من عرج فما عليه إذا ما مت من حرج

ثم يثنى على أحد أصدقائه وهو « المقر الصاحبى الفخرى » ، لأنه لما علم بمصيبته فى فرسه أهدى إليه فرسا خيرا منه ويمدح المقر الصاحبى المذكور بقصيدة ينوه فيها بأريحيته ويشكره على هديته ، ويعود إلى رثاء حاله وحال حصانه . ثم يذكر الصاحب وهديته فيقول :

« فلما وصلت إليه قصتى ورآها وقصها وقراها . حبانى بطرف يسابق الطرف . حسن الوصف . كامل الطرف . يكاد أن يفوت بطامح بصره . وألا يوقف لا حقيه على أثره . فأذهلنى بحسنه وإحسان مهديه . وأنشأت أقول فيه :

هل فى الكرام لنيل كل طلاب غير الوزير الصاحب الوهاب » الخ . . .

والقصيدة تقع فى واحد وعشرين بيتا أكثرها فى وصف الحصان وتفضيله على مشاهير خيل العرب . وفيسأله « طيف الخيال » عن أثاثه ورياشه فيقتهد ويقول :

« لم يبق عندى ما يباع ويشترى إلا حصيرا قد تساوى بالثرى »

ويستمر فى إنشاد قصيدة فكاهية فى وصف حاله . ثم يخاطب « طيف الخيال » بقوله :

« حفظ الله كل من حوى هذا المقام من هؤلاء السادة الكرام . إلا أننى ما أقدمت على زواجى . بعد ضرورتى واحتياجى . إلا هربا من القحاب . ووثوقا بكرم الأصحاب . فاستمع شرح حالى واعجب لارتجالى :

قد تجاسرت إذ كتبت كتابى طمعا فى مكارم الأصحاب » الخ . .

ويستمر فى قصيدته الفكاهية الماجنة الشاكية التى فى نهايتها يستجدى الحاضرين ليعينوه على زواجه وينقذوه من آثامه .

فيقول « طيف الخيال » للحاضرين : « هـأنا قد مـددت إليكم يدى . وعرفتم مقصدى » .

ويبدو أن الحاضرين قد تقدموا إليه بالمعونة المطلوبة ونفحوه من العطاء بما يعينه على بلوغ أمله ، لأنه على أثر ذلك تبدو « أم رشيد » الخاطبة . فيعطيها جانبا من المال « لتشترى الشمع وتنفخ الماشطة أجرها وتتم الجلاء وتعد المغانى » . — وهذه هى معالم الأفراح ووسائل الزفاف . كانت — ولا تزال — مرعية بيننا حتى اليوم

يركب « الأمير وصال » ويذهب إلى مكان عروسه حيث يقوم المغنون ومن إليهم . . ثم يكشف عن وجهها الخمار . فيرتاع من منظرها ويخر مغشيا عليه وذلك إذ يراها :

« ولها مشافر كمشافر الجمل : وأجفان مكحولة بالعمش . وخدود مضرجة بالنمش . وأسنان كأسنان التمساح . ونكهة تفوح من المستراح . . . » إلى غير هذه الأوصاف .

حينئذ يبدو الغلام الحدث ابن بنت أم رشيد ويأخذ فى السخرية والتندر على الأمير وصال . الذى تتساءل عنه العروس وعما أصيب به .

وتكون سخرية هذا الغلام مثيرة لغضب «وصال» واحتدامه فيهشم رأسه بدبوسه ويضرب المواشط والعروس حتى يتفرق الجمع خائفين مذعورين .

يشكو الأمير وصال إلى أخيه « طيف الخيال » ما اقترفته « أم رشيد » ويطلب إليه إحضارها هى وزوجها الشيخ عفاق «ليضربهما جزاء ما قدما من السوء إليه» .

فيتوسط له «طيف الخيال» ويطلب إلى «وصال» أن يعفى الشيخ من العقاب قائلا :

« ارجع إلى الله من قريب . فإنه رجل غريب » . فيأبى « وصال » ويغضب ويقسم أن يعاقبه .

يبدو الشيخ « عفاق » وقد خضب مشيبه وينشد قصيدة شاكية فى وصف الشيب والزمان مطلعها : —

لى الله من شيخ جفانى أحبتى وقد نظرت من لحيتى قبح حليتى

أحمل شيبى صبغة بعد صبغة وصبغة رب العرش أحسن صبغة

فإذا أتم إنشادها — وكأنه فيها يتوجع ويتبرأ مما جنته امرأته محتالا بذلك على الفرار من العقاب — يقول له الأمير « وصال » : —

« لا بد من ضربك بالسياط . ومن إشهار عجوز السوء بمدينة الفسطاط . ليتعظ إبليس . وتتوب كل عجوز من النصب على الرجال والتدليس » . وكان إشهار المذنبين ضربا من العقوبة المتبعة فى ذلك العصر .

فيعود « طيف الخيال » إلى طلب الصفح عنه بحجة ضعفه ومرضه وشيخوخته ، ويقول « ما هذا من أهل الملام . وما لجرح بميت إيلام » . ثم يأخذ « طيف الخيال » فى وصف هذا الشيخ الهرم وصفا فكاهيا مضحكا . منه قوله :

« لوحظ شمس النهار مشرقة لأذنت بالأفول . أولس حب الفهم لأكسبه خاصية الفول . قد درس كتاب تأخير المعرفة وفصول الفضول ، وتفقه فيهما حتى ساوى بين المجهول والمعلول . » الخ » .

ثم أنشد فيه قصيدة قيل إن الشاعر « صربعر » هو الذى نظمها وعدتها سبعة وثلاثون بيتا كلها مجون وغزل ومطلعها :

قل لوالى الفسوق والإدبار عضد البله عمدة الفجار . . الخ

ثم ينادى « طيف الخيال » ويقول « يا شيخ عفاق! قد ظهرت عليك دلائل الكبر ، ورأيت مافيه للعين معتبر » . فيرد عليه الشيخ قائلا : « أجل ! وقد قرب الأجل » .

ويدور بينهما الحوار فى مسائل ماجنة . ثم ينشد عفاق قصيدة يتأوه فيها . ثم يذكر أن « أم رشيد » قد ماتت على يد الحكم « يقطينوس » بن المعين بن السديد . .

حينئذاك يطلب « الأمير وصال » حضور هذا الطبيب ليسأله عن « أم رشيد ». فيبدو يقطينوس قائلا متسائلا :

« من هذا الطارق . فى الليل الغاسق . ومنذا الذى أزعجنى فى فراشى . فى جنح الليل الغاشى . وأقامنى من رقدتى . وما انهضم الطعام فى معدتى » . . إلى آخر ما قال وسأل . .

فيخبره « الأمير وصال » أنه طلبه ليسأله عن العجوز « أم رشيد » . فيعلنه الطبيب بمصرعها فى أحد بيوت الفساد ، بعدما أوصته بكفالة هذا البيت ورعايته ، و « التأليف بين القلوب . والجمع بين المحب والمحبوب » . . وبعدما أوصت زوار البيت وأهله وصاتها « بصدق المواعيد . والسعى إلى الحرفاء ولو فى ليلة العيد » . . الخ.

ثم أنشد هذا الطبيب — ويبدو أنه طبيب من نوع أم رشيد — قائلا يرثيها :

ساعدونى بالنوح والتعديد بعد فقد العجوز أم رشيد الخ . .

وقصيدته فى نحو ثلاثين بيتا عامرا بأوصاف « أم رشيد » المجيدة وأياديها البيضاء على معارفها الكرام . .

الخاتمة : عندما يسمع « طيف الخيال » هذه الأوصاف والمآثر يقول :

« أستغفر الله العظيم من هذه الخصال . وأعوذ بعفو الغفار ذى الجلال . من تحمل الأوزار . والعمل بعمل أهل النار . فالإنابة أجمل . ونحن نقول مالا نفعل . » .

وينشد شعرا فى هذا المعنى .

فيقول له « الأمير وصال » :

« يا أخى « طيف الخيال » ! ما بقى إلا الارتحال . وقد عزمت على الحجاز . وخرجت بالحقيقة عن المجاز . وقصدت غسل هذه الآثام . بماء زمزم والمقام . ونويت زيارة سيد الأنام . صلى الله على آله الكرام . اجعلنى نصب عينك . وهذا فراق بينى وبينك » .

يفترق الأخوان بذلك وتنتهى هذه الملهاة .

هذا . وإذا جاز لنا أن نقيس الماضى بالحاضر وأن نعتمد على ما نفهمه عن غرائز الجماهير وميلها إلى الفكاهات فى أكثر مجتمعاتها . بل وإسفافها فى مجونها فى كثير من أحوالها ، يبدو لنا أن « مسرحية طيف الخيال » أو « خيال الظل » التى كتبها ابن دانيال صدى صادق ومرآة واضحة قليلة الزيف لعقلية الجمهور المصرى ونفسيته وبعض عاداته وتقاليده فى إحدى نواحيه فى ذلك العصر الماضى ، وفيها تصوير لضرب أو لضروب من مباذله ومجاناته .

على أن الذى يلفت النظر أن هذا الجمهور جامد على هذه العادات والتقاليد والمجانات ، بطىء التحول عنها وعن طريقة تناولها ، بدليل اطرادها من ذلك اليوم البعيد إلى يومنا .

ولنا أن نتساءل الآن عن ابن دانيال . — هل كان فيلسوفا ذا مذهب يدعو إليه ؟ وكان مذهبه هذا يدور حول اللهو والاستمتاع بالحياة كيفما كان طريق الاستمتاع بها ؟ . . نقول : لعله كان كذلك هذا إلى أن كثيرا من مواقف تمثيلياته هو مرآة لحوادثه وصفاته .

ولم ينسج الأدباء من بعده على منواله ولم ينهجوا نهجا فى تأليفه الفريد وطريقته المسرحية التى نعتقد أنه بهما — على الرغم من إسفافه ومجونه فى عباراته — أدخل إلى الأدب العربى فنا جديدا هو فن المسرحية .

وهذه ظاهرة لا ندرى كيف نعللها . ولم نقتنع بأن مجونه وهزله وإسفافه قد منع الأدباء من الاقتداء به . وذلك لأن الأدب فى القديم والحديث لم يبرأ من المجانة والهزل والإسفاف . كما أنك تقرأ شعر معاصرى ابن دانيال ومن بعده من شعراء عصر المماليك فترى الهزل والمجون باديين فى هذا الشعر وعلى نمط قريب مما كتبه ابن دانيال . فهل جهلت مسرحيات ابن دانيال وأخفاها الزمان والنسيان عن أعين الأدباء ؟ . . قد يكون ذلك[1] . على أن أمامنا كلمة لصلاح الدين الصفدى الذى توفى عام ٧٦٤ هـ أى بعد ابن دانيال بنحو نصف قرن ، يقول فيها عنه : « وضع كتاب طيف الخيال فأبدع طريقه . وأغرب فيه فكان المطرب والمرقص على الحقيقة » . وقال عنه ابن حجر العسقلانى فى كتابه « الدرر » : « سلك طريق ابن حجاج ومزجها بطريقة متأخرى المصريين ويأتى بأشياء مخترعة ، وصنف طيف الخيال « الشاهد له بالمهارة فى الفن » . — هذا وقد توفى ابن حجر عام ٨٥٢ هـ فهل كتب كل من هذين المؤرخين كلمته اعتمادا على السماع دون الاطلاع ؟ ويروى أن طيف الخيال عرف بعد

---

(١) علق الأستاذ عمر الدسوقى على هذا الموضوع بما ملخصه : أن المرادى ذكر فى سلك الدرر للسيد أحمد البيروتى من رجال القرن السادس الهجرى قال :

أرى هذا الوجود خيال ظل ... محركه هو الرب الغفور
فصندوق اليمين بطون حوا ... وصندوق الشمال هو القبور

وهذا أقدم نص وصلنا على ما نعلم.

وذكر ابن حجة فى ثمرات الأوراق ، وعلاء الدين البهائى فى مطالع البدور « أن صلاح الدين الأيوبى ووزيره القاضى الفاضل كانا يشهدان خيال الظل ».

وقد ازداد خيال الظل إسفافا بعد ابن دانيال واشتد ولع الناس به حتى صرفهم عن أعمالهم فاضطر بعض الملوك إلى منعه . وذكر السخاوى فى « التبر المسبوك » أن السلطان جقمق أمر سنة ٨٥٥ هـ ، بابطال اللعب به وإحراق شخوصه وكتبت العهود على اللاعبين بعدم العودة إليه. وذكر ابن اياس فى بدائع الزهور أن السلطان محمدا أبا السعادات كان يطرب كثيرا لفكاهات خيال الظل لمثلها أبى الخير فى حفلات المولد النبوى عام ٩٠٤ هـ . وروى زين الدين عبد القادر الجزيرى فى «درر الفوائد المنظمة » أن السلطان شعبان لما حج سنة ٧٧٨ هـ حمل معه عدة من أرباب الملاهى والمخايلين ، فأنكر الناس عليه ذلك.

ذلك وكان بعض السلاطين يتفرجون به . ولكن لم ينسج أحد على منواله .

ولعل انصراف الكتاب فى عصر المماليك إلى السعى نحو وظائف ديوان الإنشاء وأمثالها ، صرفهم إلى العناية بكتابة الرسائل ونحوها عن الاقتداء بمثل بمسرحيات ابن دانيال .

وبعد ، فقد جمعت هذه الرواية فنونا شتى من فنون النثر ، ما بين رسالة ديوانية إلى خطبة زواج إلى وصية إلى وصف إلى هجو ومدح إلى شكوى واعتذار ، إلى غير ذلك من الفنون . وإليك التمثيلية الثانية .

التمثيلية الثانية :

الحق أن التمثيلية الأولى استأثرت بكثير من دعائم المسرحية . أما هذه التمثيلية الثانية — أو البابة الثانية على حد تعبير ابن دانيال — فهى « استعراض مسرحى » حسب ، ينقصه كثير من هذه الدعائم . وإن كان داثرا فى فلك من المجون والفكاهة أيضا . وهذه صبغة لم تزايل ابن دنيال فى كل سطوره شعرا أو نثرا .

والاستعراض المذكور يدور حول بيان أحوال الغرباء المحتالين ، من الأدباء الآخذين بهذا الشأن ، المتكلمين بلغة الشيخ ساسان . ولعل ابن دانيال فى كلمته هذه يخبرنا بأنه كان هناك عدد من الأدباء « من بنى ساسان . » — لعلهم من العجم — يتجولون بين الأقطار والأمصار عارضين أدبهم وألعابهم ومحتالين بذلك على كسب العيش .[1]

والاستعراض يتضمن خمسة وعشرين منظرا يتعاقب بعضها إثر البعض . ويتقدم فى كل منظر منها رجل واحد يعرض على الحاضرين ألعابه وحيله وآدابه . ثم يستجديهم

---

(١) يبدو أن ابن دانيال متأثر هنا بالحريرى فى مقامته الساسانية بل ومتأثر بنزعة أصحاب المقامات .

فى النهاية وينصرف ويبدو غيره .

وقد جمعت هذه المناظر فأوعت من ضروب المحتالين بصناعاتهم وألاعيبهم وألاعيبهم — كما يبدو لنا حين الحديث عنهم واحدا واحدا .

وهذه المناظر، فضلا عما فيها من تسلية بالغة تلقى ضوءا على ما كان هناك من ضروب الألعاب ووسائل اللهو وصناعات المحتالين المنجولين . ومن بينهم : الحاوى الذى يلعب بالثعابين والحيات. والمشعوذ الذى يفتح الكتاب ويقرأ الغيب ومثله المنجم. وصاحب السباع . ومدرب الأفيال . وعارض القطط والكلاب . ومرقص الوحش. والقرّاد وغير ذلك .

ونحن — فى عصرنا الحديث — قد شهدنا ونشاهد كثيرا من هؤلاء المحترفين المحتالين المتكسبين بهذه الألعاب ، الطوافين بين الجماهير . وبهذا نرى أن عصرنا وعاداته وألعابه ليس بغريب عن ذلك العصر البعيد فى عاداته وألعابه . ونرى أيضا أن هذه التمثيلية الثانية تعين الباحث المنقب ، إذا عنّ له أن يضع كتابا فى تاريخ الألعاب وأنواعها !.

والآن نعرض هذه المناظر فى إيجاز :

(١)

١ — الغريب المحتال :

يبدو فى المنظر الأول رجل غريب عن الديار ذو حنين إلى وطنه يبث الحاضرين أشواقه إليه ، ويتلهف على زمانه الغابر الذى كان ممتلئا بليالى الأنس والصفاء . ويذكر لهم أنه من بنى ساسان وأنه اضطر إلى الاحتيال على بنى الإنسان الارتزاق بمختلف الحيل والألاعيب نظرا إلى أن الزمان قد تحول عنه ولم يعد يواتيه بما يرضيه .

(١) من أول هذه الباية إلى جويش الحاوى ساقط فى النسخ المطبوعة .

ويفصح للحاضرين — فى خطبته — بمختلف حيله ، كادعاء الكيمياء وكتابة العزائم والظهور بمظهر الجنون . . . الخ . ومن كلامه بخاطبهم :

« عبدكم الغريب . المشوق الكئيب . الذى أذابه الحنين ، وغادره البين حتى لا يبين . فتقاذفت به الأقطار . ودار مع الفلك الدوار . بعد أوطان وأوطار . » .

وينشد شعرا ، منه :

أرث صرف الزمان حالى فما للدهرى ترى ومالى
حتى كأنى له عدو يرشقنى منه بالنبال . . . الخ

والقصيدة فى شكوى الزمان . ثم يقول :

« فأين تلك الأيام وطيبها . وحسن هاتيك الأوقات وأعاجيبها . فرحم الله شيخنا ساسان . فلقد كان إنسان عين كل إنسان . قدوة الأدباء . وأنس الغرباء . وجامع شمل كل محب بسكنه . وراد كل غريب إلى وطنه . » وينشد فى المعنى :

عجبت وشأن الحب غير عجيب إذا مات بالأشواق كل غريب . الخ

ثم يقول :

« وحيا الله السادة الحاضرين . عيون الأعيان ونواظر الأنظار . اعلموا يا سادة الأعيان . أننى من بنى ساسان . الذين قعدت بهم زمانة الزمان . » . . إلى أن يقول :

« ولما لم يبق من لم يستمطر وابله . ولا من يرجى نائله . رأيتا الحيلة عليهم ولا الحاجة إليهم . وتركنا العمل . ومللنا إلى الراحة والكسل . وانفردنا بتدبير الحيل . وتفرقنا فى تلك الفرق . ولم يصدنا رعب ولا فرق . » الخ .

ثم يفصح لهم عن ألوان حيله فى سطور من نثر ، وأبيات من شعر ماجن خليع ، ثم ينصرف .

٢ — عجيب الدين الواعظ :

يبدو على أثره « عجيب الدين الواعظ » وهو كما يدل عليه اسمه، واعظ يقدم إلى الناس النصيحة ويدعوهم إلى ما أصاب الغابرين، ويدعوهم إلى الاستقامة والاكتفاء بالأفراح والمزاح، عن شرب الراح . ثم يبسط نصيحته لبنى ساسان المحتالين بأن يجدوا فى طلب المال وجمعه وأن يقنعوا من الطعام بالقليل، ومن اللباس بالأسمال، إلى غير ذلك مما يعينهم على ادخار المال . . . ثم يستجدي الحاضرين . . .

وقد قدم ابن دانيال هذا الواعظ بقوله « يخرج عجيب الدين الواعظ ويقول :

« يا عنبر ! . اطلب المقرئين والمنبر . فيحضر المنبر ويرقاه . ويستفتح بعد البسملة بما يقراه . ويقول : » الحمد لله الذى جعل المزاح ، سلوة للهم فهو راح الأرواح . ومفتاح الأفراح . أحمده على حسن الأخلاق . والتحبب إلى الخلطاء والرفق . وصلواته على الناطق صدقا . الذى كان — ﷺ — يمزح ولا يقول إلى حقا » الخ . .

وأنت ترى روح هذه الخطبة متفقا مع الغرض العام من التمثيلية .

واسمع إلى هذا الواعظ عجيب يعظ فيقول :

« إخوانى . . ! استعيذوا من شرة اللسن . واعلموا أن أول ما يوضع فى الميزان الخلق الحسن . والدنيا دار أسف . ووجود وتلف . وصحة وسقم . ولذة وألم .

لا تحملوا الهم فما يظلم حكم القلم
فالهم فيه ثقل ومنه أصل السقم
وهل يطيق ناحل يحمل نصف الهرم

أين الذين بنوا الهرم . وأين عاد وإرم . مزقتهم أيدى النوى والبين . ومضوا إلى حيث لا أين . فرحم الله من داوى أحزانه . وبحسن الخلق زانه . وصرف أتراحه . بما أراحه . » الخ

ثم أخذ يوصى بنى ساسان بالحيلة والمسألة، والإلحاح فيهما فيقول :

«وأنتم معشر الغرباء ، وسائر بنى ساسان الأدباء ، أجملوا فى الطلب ، واستدروا الحلب ، واغتنموا الاجتماع فإن الفرقة واقعة ، وتزودوا بالأنس قبل وقوع الواقعة ، وروحوا الخواطر ، واستمطروا الديم المواطر ، وخذوا من المزاح ، بمقدار ما يعطى الطعام من الأملاح . وسيروا فى البلاد ، وانصبوا الشباك على العباد ، فالغريب مرحوم ، والمرء يسعى والرزق مقسوم .

واعلموا — رحمكم الله تعالى — أن من الفلس يجتمع الدينار ، والصدقة بالجبهة هينة على ذوى الإيثار ، وكسرة التقتيف [1] بنت الرغيف ، والمرقع شعار الصالحين ، والتقريب من عادة السائحين ، فاركبوا غوارب الإلحاح ، والبسوا دروع الوجوه الوقاح ، وتعاموا مبصرين ، وتطارشوا سامعين ، وتعارجوا فالسبق لذى العرج ، وتخارسوا فإن الخرس لسان الفرج » . . إلى آخر هذه الوصية النافعة . . .

ويختتم حديثه بقوله للحاضرين :

« من كفانى برد الشتاء بجبة ، أسكنه الله جنته الرحبة ، ومن طرحنى بطيلسان ، حشر مع الحور الحسان ، ومن حبانى بمرطه ، استكمل الزخرفة بشرطه » . . ثم ينصرف بعد أن يعطى . . .

---

٣ — هو به هو الحاوى :

يخرج « حويش » وهو حاو يعرض أفاعيه ، ويقدم للحاضرين ضربا من المعجون المركب من جملة أصناف من الأفاويه « العطارة » ، يزعم أنه ركبه منها ليشفى من لدغ الأفاعى .

ويفتتح حديثه بأبيات شعرية يحذر فيها منها ، ثم يقول مشيرا بيده إلى سلاله :

---

(١) التقتيف : هكذا بالاصل .

« إن فى هذه السلال سلال الآجال . وهلاك النساء والرجال . وهذا الناشر . بل الأسد الكاشر . الهجام الحجام . بلية مصر والشام . وهو الصل . والموت المطل . ويل لمن رآه على التلاع . وفرش له عرفه كالشراع . ونهشه لغضبه على عصبه .

بل يا سادة ! ! هذه الحية البلية . والرقطاء الرملية . تضرب خف الجمل فيموت الجمال . وتتوارى مدفنة فى الرمال . سمها رسيل الموت . ونابها نائب الفوت . إلا أن هذه الحية الكبيرة المحصلة . وهى والله من بنسات الأصلة . طائرها واقع . وسمها فاقع . وهذه الأخرى هى المهلكة . التى يقال لها الملكة » . . . إلى آخر هذه الأوصاف .

وما يزال حويش يعرض ألوان حياته على المشاهدين ، ولكل منها صفاته ولدغاته . حتى يتلهفوا على معاجينه ليشتروها فهى شافية واقية . فيرفع حويش أمامهم حق الدرياق ويقول :

« هذا هو المخلص من النهوش واللسوب والعضاض . الشافى بعون الله من الأمراض . وكبته من هذه الدواهى : من قرص الإشقيل . وقرص العنصل . وقرص الأفاعى . وأضفت إليه من الفلفل الأبيض والإيرسا ، وزر الورد والفارقون » . . . إلى آخر هذه الأصناف .

ثم يسأل الحاضرين مستجديا ثم يقول :

« اللهم لا تجعله ذخيرة للئيم . ولا تحلل عليه إلا عقدة كل كريم . هاكم . وهاتوا لهاكم . نفعكم الله بهذه الإفادة . ومساكم بالنعمة والسعادة » . ثم ينصرف ويخرج بعده :

---

٤ — عملة المعاجين :

وهو صانع معاجين . يعرض جملة منها ، كل واحد يشفى من داء كحموضة المعدة ، وحصى الكلية ، واحتباس البول ، واليرقان والربو والسعال والارتخاء وألم الطحال . . إلى غير ذلك .

يعرض عسيلة معاجينه هذه مبينا مزاياها ثم يقول :

« فاغتنموا — رحمكم الله — هذه المنافع بثمن ثمرة . أو خيارة مرة . واقبلوها مني بهنا . قبل أن تقولوا : كان هنا » . ثم ينصرف ويخرج بعده :

---

٥ — نباتة العشاب :

يقدم نباتة نفسه للحاضرين قائلا :

« قدم نباتة العشاب . السحار العطار . خليفة ديسقورس وسيط ابن البيطار . العارف بالأصول والفروع ، والأوراق والأزهار . لأني سافرت إلى الساحل . وسلكت في اقتناء هذه الأعشاب مسالك الرى والماحل . حتى حصل لى فى هذه الأكياس والأجربة . ما شهد بصحته القياس والتجربة » . الخ .

ونباتة — جامع أعشاب نافعة تصلح الجسد وتشفيه من أمراضه بل — على حد زعمه — تشفى من الأمراض النفسية . ويقول :

« هذه منها حبة . تقلب البغضاء محبة . وقيمة الذرة . منها درة . أين الذى جفاه معشوقه . أوغضب عليه مولاه أو صديقه . دلوا على من غضب عليه السلطان . أو تخبطه الشيطان . أرشدوا إلى من ضعفت قواه . من الوطء والباه » . . الخ

ويأخذ فى ترغيب الحاضرين فى شراء أعشابه قائلا :

« فلله من ملك الصحة . بأيسر منحة . وغلب عقله هواه . واقتنى لأدوائه دواه . وادخر الجليل بالقليل . وحسبنا الله ونعم الوكيل » . . ثم ينصرف ويبدو بعده :

---

٦ — مقدم الآسى :

وهو طبيب يعرض أدواته وأعماله على الحاضرين ومن أدواته : المكاوى وصفافير

الاستسقاء لعملية البزال . والمقارض . والفتاحات . والمحاقن . ومناشير العظام . والمسالخ . . . .

ولعل هذه وثيقة تاريخية تثبت ما كان لصناعة الطب من أهمية ، وما استعمل لها من أدوات .

وبعد أن يعرض الطبيب أدواته يقول داعيا إلى الانتفاع من علمه :

« يا قوم أما تعرفونى . وما أظنكم تجهلونى . أنا جراح القداح . أنا الذى يشد الأدواح . ويذبل الجراح » الخ . . ثم ينصرف ويبدو بعده :

---

٧ — مشهد الموزون :

وهو غلام يافع ذو جسد لدن ووجه صبوح . وهو « بهلوان » يأتى بجملة ألعاب رياضية شاقة ، ويصعد على قطع خشبية مصفوفة ، ويقف بقدميه على حد السيف .

وله « معلم » يدير حركة لعبه ثم يقول للناس :

« هذا الطفل قد أقدم على الحتوف . ووقف على حد هذه السيوف . وأنا أقسم بغصن قده ، وجلنار خده . ورمان نهده ، لا أنزله إلا بدرهمين . ولو أقام على هذه السيوف يومين » !

فينادى الموزون مستغيثا : يالمروءة ! ياللفتوة ! بحياتى عليكم . خذونى إليكم » .

وينشد شعرا فى المعنى . فينقده بعضهم مما معه . وينصرفان . . ثم يبدو :

---

٨ — مشهد المشعوذ :

وهو رجل يقوم بألعاب خارقة يبهر بها الناظرين . وقد قدمه ابن دانيال بقوله :

« يخرج شمعون المشعوذ وصندوقه . وطبله وأحقاقه ورفيقه . ويمد الصفير . ويحرك الجرذان الخشب والعصافير . ويدق الطبل . ويدلى الحبل . ويبدل الحبة

مكان الحية . ويزرع البستان . ويضرب بالمضرب والكستبان . ويجعل التراب حنطة . والأترجة بطة . ويثقب خد رفيقه . ويخرج الحبال من ريقه . ثم ينزل من فمه المصران . ويذر منه على وجه رفيقه أنواع الألوان . »

ويقوم شمعون بجملة من الألعاب ويتفوه بجملة عبارات وأبيات ثم يقول لرفيقه : « يا معلم ! . اطعمنى من نقل الكرام . وفواكه الشام » . ثم ينصرفان ويخرج بعدهما :

---

٩ — دخول المنجم :

ومعه كتابه ، وتخت الرمل وكرسيه واصطرلابه . ويخطب خطبة يحمد فيها خالق الأفلاك والكواكب . ثم يخاطب الحاضرين منبئا بأخبار العام الجديد ، ويدعوهم إلى خزن الذهب والفضة ويقرأ « الطالع » لبعضهم ثم ينصرف .[1]

---

١٠ — عواد القراطى :

وهو مشعوذ أو منجم من نوع آخر . يعرض على الناس رقاه ، ويزعم أن الله سبحانه وتعالى أطلعه على خواص الحروف والأرقام ومنافع الكتاب العزيز ، ويزعم أيضا أن تعاويذه ورقاه تشفى من الحسد والمرض وتبرىء من الرمد وتمنع النزف وتجلب المحبة وتحل العقد وتزوج الأرامل ، إلى غير ذلك . . .

وقد ضمن هذه الرقى كتابا يبيع النسخة منه بدينار . ولكنه يرضى أن يبيعها للحاضرين بأقل من دينار ! ! وقد سماه « الحصن الحصين » .

---

(١) من أول ظهور «مقدام الآسى» إلى نهاية ظهور «دخول المنجم» ساقط فى النسخة المطبوعة.

وقد قدمه ابن دانيال بقوله :

« ينقض كالأجدل . ويضرب المرآة وينظر فى المندل . ويشير إلى الكف النحاسى وإلى الصورة . ويحرك فى المرآة البلورة »

ويقول عواد وهو يعرض كتابه :

« أول ما كتب اليمين . وعرف الجنين . هذا الاسم الأعظم . وخاتم سليمان عليه السلام وكف مريم . وأتبعته بالحصن الحصين . وحرز أبى دجانة لأمير المؤمنين . وهذا باب للعين والنظرة . وباب للحمى والحمرة . وهذا باب عقد لسان الأضداد . وهذا باب التعويذ فى التوابع للأولاد . وهذا باب لإخراج المسجون . وإبراء المجنون » الخ .

وينشد شعرا فى هذه المعانى

ومن لطيف حوادث « عواد » أنه يجرى تجربة من تجاربه أمام المشاهدين ، وخلاصتها ما يأتى :

يخرج إليه صبى ويخر صريعا بين يديه وقد أرغى وأزبد وامتلأت عيناه بالدموع . فيتجاهل « عواد » أمره ويتغاضى عنه . ولكن « الريس » ينبهه إليه قائلا :

« هذا وقت تمائمك . ورقاك وعزائمك » . فيقول : أجل ! ويدنو من حروزه بيمينه ويضعه فوق جبينه . ويتلو تعزيمته عليه قائلا :

« أقسمت عليكم معاشر الجن والشياطين . والأبالسة المتمردين . من جنود الشيخ أبى مرة اللعين . إن كنتم من اليهود . الناقضين للعهود . فباهيا شراهيا . . . وإن كنتم من النصارى فباراشين أو لوغوص كراهيا [٢] وإن كنتم مجوسا فبالنار والنور . والظل والحرور . وإن كنتم مسلمين فبحق الكتاب المبين . وبفضل طه ويس . أجيبوا عزائمى . واخضعوا لتمائمى . لا سماء تظلكم . ولا أرض تقلكم .

---

(١) ١٣٨ فى النسخة المطبوعة « عواد السرماط » ولعله تحريف عن الأصل .

(٢) يبدو أن هذه الكلمات سريانية أو عبرانية ، وهى أسماء مقدسة أقسم بها عليهم .

بالذى أمر البرق لمع . والنجم سطع . أى هذا الجان . اللابس هذا الإنسان . اخرج من الأغلة وادخل هذه المكحلة » .

فيعطس الصبى ويفيق وينشد شعرا يشيد فيه بحسنه حتى عشقه الأنس والجن . . ثم ينصرفان ويبدو بعدهما :

---

١١ — شيل السباع :

وهو مروض وحوش منها الأسد والفهد ، ويبدو ومعه أسده . فيخاطب الحاضرين بين شعر ونثر ، طالبا إليهم أن يمنحوه طعاما حتى لا يؤذيه ، فيلبون طلبه وينصرف سريعا ، ويبدو على أثره :

---

١٢ — مبارك الفيال :

يبدو ومعه فيله . ويلعبه ألعابا طريفة تسر الحاضرين . ويخاطبه بالهندية — على زعمه — وتارة بالعربية . ثم ينشد أبياتا فى وصفه . . ثم ينصرف ويبدو بعده :

---

١٣ — أبو العجب :

وهو صاحب جدى يداعبه ويلعبه ألعابا طريفة فوق كرسى وقطع خشبية ثم ينصرف وتبدو بعده :

---

١٤ — الصانعة :

ويبدو أنها ذات صناعة خاصة بالبنات . ولم يفصح عنها المؤلف إفصاحا كافيا .

وحينما تبدو على المسرح، تبدو وقد تأبطت مخلاة، وتجملت بحلى فى جيدها وأذنيها، ولبست أغزل ملبس من عصائب وأمراط وحبر من خز. فتحرك الساكن وتقلق الآمن... وتلقى على الأسماع زجلية لطيفه تفصح فيها عن بعض طرائفها وصفاتها المغربية ويبدو أنها كالخاطبة. ثم تنصرف.

---

١٥ — أبو القطط :

وهو رجل معه هر وفأر قد ألف بنهما، فيرى الحاضرين ألوانا من ألعابهما وحركاتهما على صوت شعره ونثره. ثم ينصرف.

---

١٦ — زعبر الكلبى :

وهو رجل معه عدة كلاب وجراء مدربة. يلعبها على نمط أبى القطط وينادبها بأسماء غريبة. ثم يستجدى الحاضرين قائلا :

« اغتنموا دعاء الكلاب. واعتبروا يا أولى الألباب. وأسعفونا ولو بالكسر والعظام. فضيف مثلكم لا يضام ». وتنصرف. ويبدو بعده :

---

١٧ — أبو الوحش :

وهو ملاعب دببة. يخرج ومعه دبه وعصاه. ويعرض ألعابه مستجديا قائلا :

« هكذا مشى السمان. وهكذا عاد الصبى الكسلان. من يصلى على النبى المنتخب. والرسول المنتخب. لا تول. إن لم تكن لى. فمن لى ؟ هايم بحياته. أطال الله أعماركم. وعمر داركم. ». وينصرف ويبدو بعده :

---

١٨ — ناتو :

لاعب ذو شخصية طريفة . وهو من أظرف شخصيات هذا الخيال . وقريب الشبه بشخصية « طيف الخيال » فى المسرحية الأولى وشخصيته ضاحكة مهرجة راقصة مغنية ذات حركات مسلية . قال عنه ابن دانيال .

« فيخرج ناتو ودبادبه . وطرطوره وذوائبه . ويهز المزاريق . ويكر مقبلا ومدبرا فى الطريق . ويبلق عينيه . ويفتح بأصابعه شدقيه . ويهملج كالبغل . ويرقص ويغنى على إيقاع طبل » .

يرقص ناتو ويكثر من حركاته . ويغنى موشحة زجلية عامية لطيفة ، ومطلعها .

ناتو ناتو ناتو يا ناتو ناتو

غزلان السودان إنسان الإنسان لولا الصبيان غيره ماماتو

ناتو يا ناتو يا ناتو ناتو

ثم ينصرف بعد أن يستجدى الحاضرين ويبدو بعده :

---

١٩ — شدقم البلاع (١) :

وهو لاعب يلعب بالسيف والرمح والسناز ، ويبدو أنه يبتلع الأسنة والرمال . يقوم بألعابه وينشد . .

بلعى لأطراف العوالى والتبن أو خشن الرمال

أهنا وأحلى ما كلا تالله من منن الرجال

---

(١) من أول ظهور شدقم البلاع إلى آخر التمثيلية ساقط فى النسخة المطبوعة .

٢٠ — ميمون القرّاد :

ويبدو بعد انصراف « شدقم » ، « ميمون القراد » ومعه نسانيسه وقردته . والغريب أن اسم « ميمون » نسمعه فى أيامنا هذه بطقه ملعبو القرود على أحد قرودهم ، وهو أشهر أسمائها .

يأخذ « ميمون » فى الوصف والإنشاد ويمدح قرده بعدة أبيات منها : -

قرد يكاد من التفهم ينطق وتراه من حسن الرشاقة يعشق

ثم : « رقصه بالمنجنيق والطرطور . ويدوره على الحبل يدور » ثم يأخذ فى إظهار ألعاب قرده وهو يغنى له زجلا لطيفا مطلعه : -

بالله عليك يا ميمون رقص السمينة كيف يكون ... الخ

ثم يقول « يا سراة الناس . ارحموا من رزقة على يد هذا القرد وهذا النسناس » ثم ينصرف .

---

٢١ — وثاب البختيارى :

يبدو على أثر ميمون . وهو بهلوان آخر ينصب حباله وصواريه . ويمشى على الحبال بالقبقاب ، والناس شاخصة إليه مشفقة عليه . وهو ينشد أبياتا فى صناعته . ثم يقوم بحركة بهلوانية تفزع لها قلوب الناظرين ، وهى هبوطه كالشهاب من أعلى . فيظنه الناس هاويا إلى الأرض مدقوق العنق . غير أنه كان قد علق إبهام رجله فى أحد الأطناب . فتكون حركته مثارا للدهشة والعجب . ويقول للناس : -

« يا سادة . ما أقدمت على هذا الخطر . إلا لأفوز منكم ببعض الوطر . ولو مت مكانى . لما قصرتم فى تجهيزى بأكفانى . فرحم الله من رأى توعر طرقى . ورشح ولو بقطرة فى حلقى » .

يقول ابن دانيال : « فإذا فتح الجيب . وانهل السيب . قبل الأرض . وقال

أديت الفرض » . وينصرف ويبدو بعده : -

---

٢٢ — جرح المسفل :

وهو ممثل يمثل دور المجنون الذى خرم أنفه وحز بالموسى كتفه ويلقى كلمات وينصرف ويبدو بعده . -

---

٢٣ — جمال المشاعل :

يلقى قصيدة فى صناعته . وهى لاهية طويلة تقع فى نحو مائة بيت مطلعها : -

لا ودخان المشعل ... وجمره المشتعل
وعرفه الذى سرى ... يزرى بعرف المندل
فى صعدة من أسل ... ما مثلها فى الأسل
تزهى بنار رفعت ... مثل اللواء المسبل
ليس لنا مماثل ... فى عقلنا والعمل
نحن الكرام فى الورى ... بمالنا لم نبخل
نيراننا مرفوعة ... فى سهلنا والجبل ... الخ

---

٢٤ — عساف الحاوى :

يبدو ومعه راحلته يحدو لها . وينشد شعرا مطلعه : -

يا ربنا بالبيت والمقام ... بلغ سلامى للنبى التهامى ... الخ

ثم يقول . -

ويادليل الحائرين . وأمان الخائفين . ويادليل من ليس له دليل . ياحامل المقل بالزاد القليل . رزقنا وإياكم فى هذا العام . الحج إلى بيت الله الحرام . والزيارة

لقبر سيد الأنام . محمد عليه أفضل الصلاة والسلام . ، ثم ينشد ستة أبيات فى مدح الرسول عليه السلام ملطعها . .

حيث اتجهت فلى إليك تطلع وانسم حسنك فى ضميرى مطلع،

ثم يقول مستجديا . .

« من مد يده إلى بمعروف . ولو بخيط صوف . أو بكف من شعير . فى علف هذا البعير . رزقه الله فى هذا العام . الحج إلى بيت الله الحرام . وزيارة قبر النبى عليه أفضل الصلاة والسلام » . ثم ينصرف .

---

٢٥ — غريب :

يبدو غريب هذا فى خاتمة هذه المناظر الاستعراضية . ولعل « غريبا » هذا هو الذى افتتح هذه البابة . فينشد شعرا ويعتذر فيه إلى الحاضرين عن الرغبة فى إنهاء هذا المقال خشية الملال . ويستغفر الله له ولابن دانيال . ويقول . .

« ولولا أن الإطالة . داعية إلى الملالة . لأطنب عبدكم وقال . ولا استعفى ولا استقال . فلذلك أختصر من الاعتذار . واعتذر من الاختصار » . ثم ينشد شعرا معلنا فيه بالإنابة إلى الله والتوبة . وتنتهى بذلك هذه الملهاة .

التمثيلية الثالثة :

اهتممنا هنا بعرض التمثيليتين السابقتين عرضا مختصرا مع التعليق الذى عن لنا . وذلك لما رأيناه فيهما من طرافة وجدة وتسجيلات لم نجد لها شبيها بين المقامات أو القصص الأخرى ، ولما رأيناه فى كل منهما على حدة من تنوع الموضوع وطريقة العرض .

أما التمثيلية الثالثة فلم تعد أن تكون قصة على نمط المقامات . نستطيع أن نجد لها مثيلا فيما سبق عرضه منها ، كمقامة الشاب الظريف ومقامة الصفدى

« لوعة الشاكى » . لهذا رأينا أن نضرب الذكر صفحا عن عرضها ، مع إيراد خلاصة مما تحتوى عليه اكتفاء بأن نقول فيها السطور التالية . .

هذه التمثيلية ماجنة مسفة وقعت حوادثها بين عاشق ومعشوقه وجملة من الغلمان . يدور بينهم حوار ساقط مكشوف يتخلله السكر والعربدة والصبوة والجفاء . وتترجح بين سطور منثورة وأبيات شعرية .

ومناظرها — وإن كانت متجددة وكثيرة — متحدة الموضوع . فكأنها لم تتكرر ولم تتجدد . وقصارى كل منظر منها أن يبدو شخص أو غلام يخاطب « العاشق » ويدور بينهما حوار وجيز عن العشق والحب والوله والشكوى وما إلى ذلك . ثم يختفى الغلام ويبدو غلام غيره وهكذا . .

والطريف فى هذه التمثيلية أن آخر من خاطبوا العاشق هو « ملك الموت » الذى يبدو فيخاطب « المتيم الولهان » ويقول :

« أنا ملك الموت . الذى يقرب فى الفوت . ويقصر الآمال والآجال . ويكثر المخاوف والأهوال . . . . . » وكأنه بذلك يهدده ويتوعده ويفزعه حتى يرعوى عن غيه .

فيسأله المتيم عن التوبة وهل يستطاع قبولها . فيقول له : « باب التوبة مفتوح فدونك والتوبة مادام فيك روح » .

هنا يتجه العاشق إلى الله سبحانه وتعالى ويتوب عن معاصيه وآثامه ويقول :

« اللهم يا كثير الجود . وملك الوجود . والحوض المورود . ياذا الرحمة الواسعة . والمغفرة الشاملة الشاسعة . ظلمت نفسى . وظللت فى ظلمات حسى . فاغفر لى إنك علام الغيوب . وغفار الذنوب » .

ويستمر فى دعائه . ثم يتجه إلى القبلة فيقضى نحبه . . .

وإلى هنا ننزل الستار على تمثيليات طيف الخيال . لنرى لونا آخر من ألوان الرواية .

شهاب الدين بن عربشاه [١] ٨٥٤ هـ

وكتابه « فاكهة الخلفاء »

شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الله الدمشقي الحنفي المشهور بابن عربشاه هو المؤرخ الأديب الطبيب ويعرف بالعجمي أيضا . كان مولده في دمشق سنة ٧٩١ هـ . وقد هاجر مع أسرته من دمشق إلى بلاد الأتراك العثمانيين حينما طغى « تيمورلنك » التتري ببلاد الشام واستبد بها . ثم رحل معها كذلك من بعد إلى التركستان حيث استقرت في مدينة « سمرقند » واستوطنتها . وكانت « سمرقند » إذ ذاك عاصمة التتار .

لبث شهاب الدين بسمرقند زمنا ، ثم أخذ يتجول في الأقطار مارا ببلاد ماوراء النهر وغيرها . ولقي في طريقه كثيرا من العلماء والفضلاء فتتلمذ لبعضهم ومنهم السيد الجرجاني وابن الجزري .

وعاد أخيرا إلى بلاد العثمانيين ثانيا ، بعد أن استفاد من تجواله علما وأدبا وخبرة بأمور الناس وأحوال الأمم . كما تعلم اللغة الفارسية والتركية والمغولية فضلا عن العربية .

واشتغل بكتابة الإنشاء في دواوين العثمانيين ودبج الرسائل إلى الملوك على لسان السلطان « محمد الأول » ، وكان يخاطب كل ملك بلسانه . ثم اعتزل العمل بعد وفاة سلطانه المذكور . وعاد إلى حلب منقطعا إلى العلم والتأليف زمنا . وقد زار مصر بعد عام ٨٥٠ هـ أيام سلطانها الظاهر چقمق العلائي . واتصل برجال

---

(١) ترجمته في الضوء اللامع ج ٢ رقم ٣٢٩ . وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ج ٣ ص ١٥٥ . ومصر الإسلامية لمحمد عبد الله عنان ص ١١٦ .

دولتها وعلمائها ، وتوفى بها عام ٨٥٤ هـ فى الخانقاه الصالحية ودفن بتربتها .

وقد كان ابن عربشاه محبا للعلم دءوبا على الدرس والبحث والتأمل مستفيدا من أسفاره واتصالاته وتجاربه ، مولعا بالتاريخ ناظرا فى عظاته البالغة . كما كان محبا للفقه وعلوم البيان والطب والأدب . ينشىء الرسائل وينظم القريض .

وقد خلف جملة مؤلفات عظيمة القيمة لا نكاد نجد بين المؤلفات ما يقوم مقامها ويسد مسدها . وفى مقدمتها كتابه فى تاريخ تيمورلنك التترى — ونشير إليه بعد — وكتابه « فاكهة الخلفاء » ، وهو الذى نتحدث عنه هنا .

والشاعرية عند ابن عربشاه تكون جزءا هاما من شخصيته البارزة . فهو شاعر سيال القريحة موالى القلم ندى اللسان . ساجل ومدح ووصف وهجا وألغز ، وأبدع وتلاعب بالألفاظ ، ونظم المعجم والمهمل . واستخدم قدرته الشعرية فى نظم العلوم والفنون ، وأخرج بعض مسائل النحو والبلاغة مخرج الغزل فى شعره ، إلى غير ذلك .

ومن شعره :

السيل يقلع ما يلقاه من شجر ... بين الجبال ومنه الأرض تنفطر
حتى يوافى عباب البحر تنظره ... قد اضمحل فلا يبقى له أثر

ومن حكمه :

وما الدهر إلا سلم فبقدر ما ... يكون صعود المرء فيه هبوطه

وجمع حروف الهجاء فى بيت من قصيدة مدح بها شهاب الدين بن حجر العسقلانى وهو

خض بحر لفظ حديثه تغش العلا ... واجزم بصدقك ناطقا إذ تسند

فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء :

هذا كتاب أدبي طريف لا نظير له في موضوعه في عصره على الأقل ، لأنه مجتمع أمثال وحكم صورتها يد المؤلف وخياله تصويرا بارعا مشوقا في أسلوب قصصي حواري بديع على مثال كليلة ودمنة . وتتجلى فيه ضروب من الأخلاق الإنسانية، وألوان من السياسة الدنيوية ففيه الفكاهة ودعابتها ، والحيلة وتخلصاتها، والمكر وائتماره والعدل وجلاله. والصدق وجماله، وما إلى ذلك وهو مثل حي على نضج القصة المنثورة نضجا ما في عصر المماليك . وصورة ملموسة دالة على اطلاع المؤلف وسعة تجاربه وعظيم خبرته . وهو بلا ريب قد تأثر فيه بمن تقدمه من الأدباء في هذا الميدان من كتاب القصص على لسان الحيوان كابن المقفع، ومن كتاب المقامات كالهمذاني والحريري . وأسلوبه فيه ينطق بذلك كما سنبينه . وأغلب الظن أنه استفاد فيه من اطلاعه على الآداب الفارسية وغيرها . ولعل مما يعزز هذا الظن أنه ألف كتابه « مرزبان نامه » الذي قيل إنه نمط من فاكهة الخلفاء وإنه أصل له .

وقد توخى فيه المؤلف أن يفاكه به الناس على اختلاف درجاتهم وتباين مشاربهم، إذ يجدون فيه الحديث الحسن والمجاذبة إلى السماع الصادق والإرشاد إلى سبيل الخير ، بكلام مشوق مقبول .

ولعل مما يهون أمره ويحبب تناوله قصه على ألسنة العجماوات التي لا تفقه قولا ولا تبين حديثا ، والتي من طباع بعضها الشراسة والعرام والقسوة . فإذا نسب إليها قول الحكمة وأسند إليها عمل الخير واتصفت بصفات الفضل والعلم والعدل، كان ذلك كله مثار دهشة وعجب وإعجاب ، ووسيلة محببة إلى قراءة الكتاب والانتفاع بما يقدمه من دروس هي إنتاج التجربة وعصارة العقل الحكيم ، النفس الكيسة، وأقبل عليه الملوك والسوقة على حد سواء ، إذ يجد كل منهما فيه طلبته من عظة بالغة وتوجيه حكيم . ولا ريب أن لكل من الملوك والسوقة مستوى خاصا من

الفهم واتجاها خاصا فى معرفة الحياة ومصاحبتها. ويناسب كلا منهما — لذلك — ألوان من التوجيهات يجدانها فى هذا الكتاب.

وقد نسج المؤلف — كما قال — على منوال من سبقه من الأدباء أمثال صاحب كليلة ودمنة وسلوان المطاع والصادح والباغم وقد بين ذلك كله فى فاتحة كتابه حيث قال:

«وأرباب العدل والرؤساء. والسادة الكبراء. وأبناء الترفه والنعم. وذوو المكارم والكرم. إذا قرع سمعهم قول القائل: صار البغل قاضيا. والنمر طائعا لا عاصيا. والقرد رئيس الممالك. والثعلب وزيرا لذلك. والدب مؤرخا أديبا. والحمار منجما طبيبا. والكلب كريما. والجمل نديما. والغراب دليلا. والعقاب خليلا. والحدأة صاحبة الأمنة. والفأرة كاتبة الخزانة. والحية راقية. والبومة ساقية. وضحك النمر متواضعا. وغدا الأسد لإرشاد الذئب سامعا. ورقص الغزال فى عرس القنفد. وغنى الجدى فطرب الجدجد. وتصادق القط والجرذان. وصار السرحان راعى الضان. وعانق الليث الجمل. والذئب الحمل. ورفع الباشق الحمامة على رقبته وحمل. ارتاحت لذلك نفوسهم. وزال عبوسهم وانشرحت خواطرهم. وسرت سرائرهم. وأصغت إليه أسماعهم. ومالت إليه طباعهم. وأدى طيشهم. إلى أن طاب عيشهم» الخ ...

وقد انقسم الكتاب عشرة أبواب يحتوى كل باب على قصة. وفى ثنايا كل قصة قصص أخرى يستطرد إليها. أما الأبواب العشرة فهى:

الأول — فى ذكر ملك العرب. الذى كان لوضع هذا الكتاب السبب.

الثانى — فى وصايا ملك العجم. المتميز عن أقرانه بالفضل والحكم.

الثالث — فى حكم ملك الأتراك. مع ختنه الزاهد شيخ النساك.

الرابع — فى مباحث عالم الإنسان. مع العفريت جان الجان.

الخامس — فى نوادر ملك السباع. ونديميه ملك الثعالب وكبير الضباع.

السادس — فى نوادر التيس المشرقى. والطلب الأفرقى.

السابع ـ فى ذكر القتال . بين أبى الأبطال الرئبال وأبى دغفل سلطان الأفيال .
الثامن ـ فى حكم الأسد الزاهد . وأمثال الجمل الشارد .
التاسع ـ فى ذكر ملك الطير العقاب . والحجلتين الناجيتين من العقاب .
العاشر ـ فى معاملة الأعداء والأصحاب . وسياسة الرعايا والأحباب . ونكت وأخبار وتواريخ أخيار وأشرار .

وقد اتبع المؤلف فى كتابته أسلوبا جمع بين طريقتى القص والمقامة معا . فقد سار فى قص حكاياته على نهج قريب من نهج ابن المقفع فى كتاب كليلة ودمنة . فإن ابن المقفع قد ساق الحكم على لسان « بيدبا الفيلسوف » وكذلك الأمثال والحكايات . و « بيدبا » يرويها ويسوقها إجابة لطلب « دبشليم الملك » . وقد التزم ابن المقفع تعبيرا تقليديا فى مفتتح كل قصة وهو قوله : « قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : حدثنى عن كذا » فينطلق بيدبا يقص رواياته على ألسنة الطيور والحيوانات ويضمنها ماشاء من مغاز وحيل وأمثال ونصائح ، ويبرز فيها مايريد إبرازه من الخلق الإنسانى والسر النفسانى .

وهكذا فعل ابن عربشاه . فقد افترض ملكا عظيما يحدثه رجل من الحكماء بأحاديثه وأقاصيصه . غير أنه تصرف فى هذا التقليد بعض التصرف . فافترض أن هناك خمسة من الأخوة كانوا أبناء ملك واحد عظيم . فلما مات أبوهم تولى أحدهم مكانه فاعتلى عرشه . وعاش الأربعة الباقون له طائعين . حتى عبثت بمودتهم ريح الخلاف والشقاق ، فتنافرت قلوبهم وكان من بينهم « حسيب » وهو أصغرهم سنا . ولكنه أوتى عقلا وحكمة وفطنة ومعرفة . ولهذا سموه « حسيبا الحكيم » . وقد هاله ماشجر بين إخوته من خلاف وما استمر بينهم من شر . فهمّ أن يعتزلهم جميعا . فأشار عليه أحد خلصائه أن يستأذن فى ذلك أخاه الملك ويدعى عنده أنه ينوى تصنيف كتاب . . . فلما تقدم « حسيب الحكيم » إلى أخيه يستأذنه فى الاعتزال وبين له سببه كان هناك أحد الوزراء يحقد عليه .

فسفهه لدى الملك ووسوس إليه أن أخاه يريد به شرا ويدبر له أمرا . وسول له أن يجمعه به فى حشد حافل ليطلع على ما عنده من علم ومعرفة مزيفة ليفتضح بين الناس أمره ، ويكون فى ذلك نكاله ودماره .

فجمع الملك أعيان دولته وعلماءها وفضلاءها . وقعد « الحكيم حسيب » بينهم يرسل حكمه وعظاته فى أسلوب قصصى شائق تتخلله مناظرات ومحاورات بينه وبين الوزير الحاقد . وكلما انتهى من قصة استطرد إلى سواها أو طلب إليه الملك أن يقص غيرها ، وهكذا حتى ينتهى الكتاب وأبوابه السالفة الذكر ، وقد انتهى « حسيب الحكيم » بين ضجيج الحاضرين بالإعجاب به والدهشة له . ويقول المؤلف فى خاتمة قصصه . —

« فلما انتهى الحكيم فى مقترحه وما قصده بين بيان محاسنه وملحه إلى هذا المحل . وفصل من فضله ما أجمل من جمل . نهض الوزير وقبل قدميه . واعترف له بالفضل المنعم به عليه . وأنه مالك أزمة الإنشاء . وملك الكلام يصرفه كيف شاء . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

أما نشابه أسلوبه بأسلوب المقامة وكتابها كالهمذانى والحريرى ، فلأنه افترض رجلا يحدث عن رجل . وبيان ذلك أن ابن عريشاه نفسه افترض أن هناك رجلا يحدثه هو ، عن « حسيب الحكيم » وسماه « أبا المحاسن حسانا » . فيقول مثلا فى مفتتح القصة . —

« قال الراوى حسان . معدن الظرافة والإحسان . فتوجه الحكيم حسيب . الأديب الأريب إلى إيراد الأخبار عن الهداة الأخيار . فحكى أن ملكا من الأمصار . وسلاطين العجم يدعى « شهريار » . . . الخ . . .

وهكذا ترى أن أبا المحاسن حسانا يقص عن حسيب الحكيم ويروى أقواله وحكاياته ، كما كان الحارث بن همام يروى عن أبى زيد السروجى فى مقامات

الحريرى ، وعيسى بن هشام يروى عن أبى الفتح الإسكندرى فى مقامات بديع الزمان الهمذانى .

غير أن حسيبا لم يكن مستجديا بأدبه شأن أبى الفتح وأبى زيد . .

هذا إلى أن المؤلف نهج منهج أصحاب المقامات فى التزام السجع وألوان البديع ، كالتضمين والاقتباس والجناس والاستطراد والتلميح إلى غير ذلك . وهـــذا الالتزام فى القصص مما يدعونا إلى اعتبار قصص ابن عربشاه ضربا من المقامات .

غير أنه من الحق علينا للمؤلف أن نذكر أنه فى مقاماته أو قصصه تلك . كان أكثر حكمة وأوفى بيانا وأجمل مثلا وأدق تعبيرا وأكثر تحليلا لخفيات النفوس وإبرازا لها وأبلغ استخراجا للعظة . ولم يقتصر على الأوصاف الحسية . ولم تكن البراعة الأدبية وحب الظهور بها أهم دوافعه إلى إخراج كتابه . وكان لفكره وتجاربه الشخصية أثر بعيد المدى فى إبراز هذه القصص وما فيها من وصف وعبرة . وقد قال —

ففلذت من دهرى فلذة . وحملت بموجب لكل جديد لذة . وسيرت قارس الأفكار فى ميدان هذا المضمار . وقصدت من الفائدة ماقصدوه . ومن العائدة فى الدارين ما رصدوه . وجمعت ما بلغنى من نقلة الأخبار ، وحملة الآثار ، ورواة الأسفار على لسان شيخ اللطائف ومنبع المعارف وإمام الطوائف ومجمع العوارف ، ذى الفضل والإحسان أبى المحاسن حسان . ووضعت هذا الكتاب نزهة لبنى الآداب » . الخ . . . .

ومن عيوب هذا الكتاب الفريد ، الانحراف أحيانا إلى المجونيات المكشوفة والتعبيرات الفاسقة السافرة الفاجرة . غير أننا لا نرى مناصا من أن نسجل أن هذا الكتاب لا تفى بحسن عرضه هذه العجالة العارضة فى نطاق بحثنا . وهو حرى ببحث مستقل ودراسة خاصة يبحث فيها عن أصله ومراجعه وتأثره بغيره ، وعن فلسفته واجتماعياته ، ومدى دلالته على مجتمعات عصر المؤلف وعقلياته المفكرة ،

إلى غير ذلك . ولعلنا نستطيع العودة بالإشارة إلى شيء من ذلك فى باب « خصائص النثر الفنى » .

وإليك مقتطفات متنوعة من هذا الكتاب .

١ — قال فى مطلع الباب الرابع، وهو فى « مباحث عالم الإنسان . مع العفريت جان الجان » . —

« قال الشيخ أبو المحاسن . من ماء ينابيع علمه فى مجارى بدن الفضل غير آسن : فلما أنهى الحكيم حسيب ذو الفضل النسيب . حكاية ما طرزه مما نسجه وحاك . وفصله خياط تقديره على قامة المجد من خلع حكم العرب والعجم والأتراك . شكره أخوه القيل على هذا القيل . وأفاض عليه من نيل نواله ماجهل النيل . وأدرك من ذلك الأنموذج علو علمه . وحمو حلمه . وجميل حكمه . وجليل حكمه . ثم قال . —

يا أستاذ ! . بلغنى أن بغداذ . خرج منها خارج . من نار من مارج . وهبط إلى مـــدارك الحزى عن المعارج . وأصل ذلك المشئوم . عفريت خلق من نار السموم . وأن شخص ذلك الشيطان . جبل من سخام الدخان . فبهذا ركب وجهه السواد . وتركب سائر جسده من الرماد فهو جنى ذميم ، وشيطان رجيم . وقد شرع ذلك الخناس فى الإفساد والوسواس . وتعاطى إيذاء أكابر الناس . وأنه فى هذه الأيام . نفى إلى بلاد الشام . فلم يوافقه ذلك المقام . لأنه مهاجر الأنبياء الكرام . وهذا مجبول على سجايا اللئام . وطباع أهل الفساد والإجرام . فأقام فيها بالاضطرار والاضطرام . مدة أشهر وعدة أعوام . وأخذ فى الإضلال والتضليل . فأضل خلقا كثيرا عن سواء السبيل » .

وظل يصف الجنى وعبثه ثم قال :

« قال الحكيم :

نعم أيها الملك العظيم . أنا جهينة الأخبار . ومزينة الإخبار . وحكم الحكم .

ومن فى البيان أعلى علم . أما هذا الشخص المذكور . فإنه بالفسق والفساد مشهور . ورق شره فى البلاد منشور . وكتاب عناده بين العباد مسطور . وبيت حسده لنعم الله تعالى على خلص أولياء، بالفجور معمور . وله صفات تعيسة . وأخلاق خسيسة . تأنف مودة الشياطين منها . وتستكف العفاريت عنها . وكم له من دواهى . شرها غير متناهى . لا بنى بذكرها هذا الخطاب . ولا يسع سوادها هذا الكتاب » .

---

٢ — ومن حكاياته الاستطرادية فى سياق الباب الرابع أيضا : قضية التاجر مع عبده الكذاب الفاجر » ، قال :

« فسأل شيخ الجن . عن بلية ذلك الفن ، فقال : وردنى الخبر . عن شخص معتبر ، قال : كان بمكان، تاجر ذو مال . وزوجة ذات جمال . كل يهوى صاحبه ويرعى جانبه . ويفديه بروحه . ويترشف رضا به فى غبوقه وصبوحه . كأنهما زوج حمام . وفى بذمام . فنى بعض الأيام، قال أحدهما لرفيقه . وهو يترشف من كأس عقيقه . وشهد رضا به بخمرة ريقه : لو كان لنا عبيد . يتعاطى مالنا من حاجة ويخلصنا من جميلة عمرو وزيد ؟ — فذهب التاجر إلى سوق الرقيق . فوجد مع النخاس عبدا ذا قد رشيق . ينادى عليه . — أبيعه بكذا . على ما فيه من أذى . فقال : وما عيبه ؟ قال كذبه ، لا على الدوام . وإنما هو مرة كل عام . فقال : عيب هين . وشين لين . فاشتراه . وأتى به إلى داره وارتضاه . فاستمر فى خدمة حسنة . حتى أتى عليه سنة . ونسى سيده عيبه . وأمن ريبه . وجرب بالأمانة وبالطهارة يده . فلما مضى عليه عام كان سيده فى الحمام ، فأتى البيت فى بعض الحوائج . فى صورة الجمل الهائج . شاهقا ناشرا . صائحا ثائرا . صارخا واويلاه . واسيداه وامولاه ! فسئل . — مالك ؟ لا أحسن الله حالك . ولا أنعش بالك . فقال : رمح البغل بسيدى فما تمالك أن تهالك . وسلم الروح لخالقها وقال لوارثه تسلم مالك . . . فأقيم العزاء والسخام . وتركهم وأتى للحمام .

وهو يبكى وينوح . ويصرخ ويصيح . فسأله مولاه : ما دهاه ؟ فقال . — وقع البيت على كل من آويت . ولم يبق فى الدار نافخ نار . فهلك الكبير والصغير . ونهب ما فيها من جليل وحقير ! فخرج وهو يستغيث من حديث ذلك الخبيث . فوجد أهل البيت سالمين . ورأوه من الناجين . فعزم على خباطه . فذكر له ما سلف من اشتراطه . ثم أنه استقام . ونسى هذا الكلام . ومضى عليه عام . فاستأنف ذلك الخبيث . أمره العبيث ، الخ . . . وأخـــذ يذكر كذبات هذا الخادم الرقيق . .

الفصل الثالث

كتب السير

حظى العصر بعشرات من المؤلفات الثمينة التى تصدت للكتابة عن أعلامه. وهى تنقسم إلى نوعين «١» كتب الأعلام «٢» كتب السير.

أما كتب الأعلام فنعنى بها تلك المؤلفات الجامعة التى لم تقتصر على علم واحد دون سواه. بل تناولت عشرات أو مئات من أفذاذ العصر وهى نوعان.

ا ـ جامع واسع الأفق لم يقتصر فيه على لون واحد من الرجال. بل ترجم للملوك والسلاطين والأمراء والعلماء والقضاة والشعراء والكتاب وما إلى ذلك. وإن لم يخل كل مؤلف منه من خصوصية.

ومن كتبه: ـ الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد لكمال الدين الأدفوى «٧٤٨ هـ». والدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى «٨٥٢ هـ» والضوء اللامع لأهل القرن التاسع لشمس الدين السخاوى «٩٠٢ هـ». ووفيات الأعيان لابن خلكان «٦٨١ هـ». وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى «٧٦٤ هـ». وغير ذلك كثير.

ب ـ ونوع عنى بطبقات الرجال الذين هم من لون واحد وذوو خصوصية واحدة. فقهاء أو نحويون أو نحو ذلك. ومن كتبه. ـ طبقات الحفاظ لشمس الدين الذهبى «٧٤٨ هـ». وطبقات الشافعية للأسنوى «٧٧٢ هـ». وطبقات الشافعية لتاج الدين السبكى «٧٧١ هـ». ونظم الجمان فى طبقات الحنفية لصارم الدين بن دقماق «٨٠٩ هـ». وطبقات المفسرين وتاريخ الخلفاء وكلاهما لجلال الدين السيوطى «٩١١ هـ». وغير ذلك كثير أيضا.

وأما كتب السير فنعنى بها تلك المؤلفات التى يعنى كل منها بترجمة رجل واحد فحسب من رجال التاريخ، ملكا أو أميرا أو فقيها أو نحو ذلك من ألوان الرجال.

وقد زخر العصر بعدة من كتب السير لا بأس به. ولعل سبب ذلك يرجع إلى كثرة ممالك المسلمين ودولاتهم وتعدد الأسر الحاكمة وكثرة الرجال البارزين فى كل مصر على حدة فى ميدان السياسة أو العلم. وحرص بعض الطلاب على ترجمة شيوخهم الكبار ذوى الأثر البارز فى ثقافتهم.

ومن هذه الكتب: «عجائب المقدور فى أخبار تيمور» لابن عربشاه «٨٥٤ هـ». والألطاف الخفية فى تاريخ الأشرف خليل لمحيى الدين بن عبد الظاهر «٦٩٢ هـ». والدر الثمين فى سيرة نور الدين زنكى لبدر الدين محمد بن الشهيد الدمشقى كتبه عام «٨٧٤ هـ». وترجمة السيد البدرى لابن حجر العسقلانى «٨٥٢ هـ». والجواهر والدرر فى ترجمة ابن حجر ألفه تلميذه شمس الدين السخاوى «٩٠٢ هـ» وسيرة الملك المؤيد شيخ لشمس الدين محمد بن ناهض المقاعى «٨١٨ هـ» وغير ذلك كثير.

على أن هذه الألوان من المؤلفات هى إلى التاريخ أقرب وبه ألصق، وقد نوهنا بها فى جملة ما نوهنا به عند حديثنا عن النثر الفنى والعلمى ومبلغ الصلة بينهما

غير أنه استوقفنا هنا فى هذا الباب الخاص بالقصص أن بعض كتب السير من النوع الثانى، وهو الذى اقتصر فيه المؤلف على الحديث عن شخصية واحدة فحسب، يبزع نزعات فنية فى عباراته وتصوراته. وهذه النزعة جديرة بأن تجعله أشبه بالقصص وجديرة بإلحاقه بهذا الباب، وجديرة بتسجيله فيه باعتبار نزعته إحدى ظواهر النثر الفنى القصصى برزت فيه خاصة من بين كتب التاريخ.

ونحن لا ندعى أن جميع كتاب السير نزعت هذه النزعة أو اتجهت هذا الاتجاه، ولكن بعضها هو الذى تلون بهذا اللون الفنى التصويرى، وهو الذى أشرنا إليه هنا فى هذا الباب.

ونتخذ مثلا لذلك كتاب « عجائب المقدور فى أخبار تيمور » لشهاب الدين ابن عربشاه المتوفى عام ٨٥٤ هـ .

عجائب المقدور فى أخبار تيمور

لشهاب الدين بن عربشاه (١)

قيل إن هذا الكتاب نقل إلى اللاتينية ، وقد طبع أكثر من مرة وفى بلاد مختلفة منها : مصر والهند وليدن (٢) .

وموضوع الكتاب - كما يبدو من عنوانه - وصف حياة طاغية التتار تيمور لنك - الذى اجتاح البلاد من أواسط آسيا إلى غربها فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى .

وبعضهم يسمى هذا الكتاب « عجائب المقدور فى نوائب تيمور » وربما تشعر كلمة « نوائب » بأن الكتاب لم يتعرض إلا لنواحى النقص فى تيمور وأنه لم يصف منه إلا شره وفتكه بالناس والدول وسفكه للدماء وما يتصل بذلك من معايب وآثام . ولكن الحق أن الكتاب كما تعرض لمساوىء تيمور كما تعرض لمحاسنه ، وتحدث عن أخباره خيرها وشرها ، وعن أفعاله نافعها وضارها .

ويكاد هذا الكتاب يكون سجلا يوميا لحوادث هذا الطاغية المغولى ، ويعد من أصدق الكتب التى أرخت له . وذلك لملابسة مؤلفه للبيئات التى عاش فيها « تيمور » وحسن اتصاله بها ، ولأنه سمع من أصدقاء تيمور وتابعيه ، كما سمع من أعدائه وكارهيه . والأولون ببلاد التركستان ومدينة سمرقند والآخرون بالأناضول وبلاد العثمانيين . وقد كان ابن عربشاه كثير الطواف فى البلاد مفيدا مما يتصل

---

(١) عرفنا به عند كلامنا عن فاكهة الخلفاء .

(٢) راجع تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٣ وفهرس دار الكتب المصرية ج ٥ والنسخة التى تصفحتها طبع المطبعة العثمانية بباب الشعرية بالقاهرة عام ١٣٠٥ هـ .

إليه بما فيها من أخبار فأتيحت له ظروف طيبة هيئت له إخراج كتابه معبرا تعبيرا أقرب إلى الصدق، عن حياة « تيمور » وحوادثه.

وقد نحا المؤلف فى كتابه الأسلوب البديعى الأدبى، والتزم فيه السجع التزاما لم يحد عنه قط. وتترجح فقراته بين القصر والطول. وقد أوقعته التزاماته هذه، فى أحيان كثيرة، فى حرج التكلف والعقادة، والتاث فى بعض سطوره بالتعمية، وهو يستطرد كثيرا فى الاستشهاد بالأبيات الشعرية والعبارات المأثورة. ولم يمنعه ما هو بصدده من حقائق العلم والتاريخ، ورعاية وصف وقائعه وحوادثه وصفا لا يخرجها عن طبيعتها وواقعها، عن أن يتبع هذا الأسلوب. وتمشى ذلك فى معظم الكتاب وفى خطبته وعنوانه وعناوين فصوله. فهو من هذه الناحية تحفة أدبية رائعة ومظهر أخاذ لتأثر الكتابة العلمية بأساليب الأدباء المعاصرين.

ومن سجعه فى عناوين فصوله قوله « ذكر نسبه. وتدريج استيلائه على الممالك وسببه »، وقوله: « ذكر عبور جيحون على فترة وما جرى من العبرات بهذه العبرة ». إلى غير ذلك.

وليس ابن عربشاه أول مؤرخ اتبع هذه الطريقة الكتابية، بل سبقه غيره. ومنهم عماد الدين الأصفهانى المتوفى عام ٥٩٧ هـ فى كتابه « الفتح القدسى » الذى وصف فيه فتح صلاح الدين الأيوبى لبيت المقدس، وهو مسجوع كله وأكثر تكلفا وغموضا من « عجائب المقدور ».

ولم يخلص ابن عربشاه من قيود هذا الأسلوب. ولقد تظن أنه كان يكون أضبط تاريخا وأروع تفصيلا وأجمل حديثا وأصدق وصفا وأوضح معنى وأقل شغلا للقارىء عن تتبع حوادثه، إذا هو استرسل ولم يقيد نفسه هذا التقييد. على أنه لم يخرج فى حكمه إلى الجور والتزم غالبا السير على الجادة وعدم

الإخلال بالحق والحيد عنه. إلا إذا خلا له الجو من ذكر وقائع تاريخية معينة. وإذا استطرد إلى وصف تيمور وصفا حرا — أى حرا من تحرى الحوادث الواقعة — هنا يسبح به الخيال وتمتلكه النزعة الأدبية الخصيبة. فهو آنا يكيل له الذم، وذلك حين تغلب عليه النعرة الإسلامية ويهوله ما صنع تيمور بالمسلمين وما اجترحت يداه الآثمتان من فتك وسفك دماء. وبهذا ونحـــوه يخرج الحديث عن نطاق التاريخ الصميم إلى آفاق القص.

انظر إليه يقول فى خطبة الكتاب واصفا «تيمورا»..:

«رأس الفساق الأعرج الدجال الذى أقام الفتنة شرقا وغربا على ساق. أقبلت الدنيا الدنية عليه، فتولى وسعى فى الأرض فأفسد فيها وأهلك الحرث والنسل. وتيمم حين عمته النجاسة الحكمية، صعيد الأرض فغسل بسيف الطغيان كل أغر محجل. فتحققت نجاسته بهذا الغسل» الخ.. وقال. —

«أردت أن أذكر منها ما رأيته، وأقص فى ذلك ما رويته. إذ كانت إحدى الكبر وأم العبر. والداهيـة التى لا يرضى القضاء فى وصفها بذا والقدر. والله أسأل إلهام الصدق، وسلوك طريق الحق. إنه ولى الإجابة. ومسدد سهم المرام إلى غرض الإصابة. وهو حسبى ونعم الوكيل.

وقد بدأ ابن عربشاه بذكر نسب «تيمور»، وضبط اسمه ثم تحدث عن استيلائه على الممالك وسببه، ثم أخذ فى وصف الوقائع التى جرت من «تيمور» والتى حدثت له وذكر من قابله من الناس ووصف كره وفره وزحفه وتوقفه وحروبه مع العثمانيين ثم دماره فى النهاية.

وضبط اسم تيمور بكسر التاء. وذكر أن العرب نطقت به أحيانا بما يخالف هذا الضبط، ومنهم من قال «تيمورلنك»، ومعناه بالتركية «الحديد».

وتكلم عن نسبه وأنه ابن ترغاى بن أبغاى، وأنه ينتسب إلى «جنكيزخان»،

بصلة نسوية . وأنه ولد فى قرية تسمى « خواجه ايلغار » . من أعمال « الكش » التى هى إحدى مدن ماوراء النهر وتبعد مسافة عن سمرقند .

ومما هو أدخل فى باب القص بل الأساطير مارواه من الحوادث حول مولده وعرجه وطريقة وصوله إلى الملك . وهذه الحوادث إن لم تكن من نسج الخيال والأوهام الشعرية والابتداع القصصى فهى بذلك أشبه وإليه أدنى .

وإليك نماذج متعددة من مواضع مختلفة يتبين لك منها منهاجه الأسلوبى ونزعه القصصية :

١ — مما قيل ليلة ميلاد تيمور :

« قيل رؤى ليلة ولد . كأن شيئا شبيه الخوذة تراءى طائرا فى عنان الجو . ثم سقط إلى الفضاء الدو . ثم انبث على الأرض وانتشر . وتطاير منه مثل الجمر والشرر . وتراكم حتى ملأ البدو والحضر . وقيل لما سقط إلى الأرض ذلك السقيط . كان كفاه مملوءتين من الدم العبيط . فسألوا عن أحواله الزواجر والقافة . وتفحص عن تأويل ذلك الكهنة وأهل القيافة . فقال بعضهم : يكون شرطيا . وقال بعض : ينشأ لصا حراميا . وقال قوم : بل لصا سفاكا . وقال آخرون بل يصير جلادا سباكا . وتظافرت هذه الأقوال . إلى أن آل أمره إلى ما آل » .

---

٢ — آمال تيمور قبل أن يصير ملكا :

« وكان مع ضيق يده . وقلة عدده وعدده . وضعف بدنه وحاله . وعدم ماله ورجاله . يذكر لهم أنه طالب الملك . ومورد ملوك الدنيا موارد الهلك . وهم فى ذلك يتناقلون عنه هذا النقل . وينسبونه إلى كثرة الحماقة وقلة العقل . ويدنونه منهم ويقبلون إليه . ليسخروا منه ويضحكوا عليه . إن المقادير إذا ساعدت

ألحقت العاجز بالحازم . فشرع فيما يقصده . والقضاء يرشده . والقدر ينشده .

لا يوئسنك من مجد تباعده ... فإن للمجد تدريجا وترتيبا

إن الفتاة التى شاهدت رفعتها ... تنمو فتنبت أنبوبا فأنبوبا

---

٣ — وصف اهل مصر حينما سمعوا عن آثام تيمور فى بلاد الشام :

« فأما مصر فما دونها من البلاد فإنها تخبطت . وانحلت قواها وأيديها تربطت . وعدمت القرار واستعدت للفرار . فلو رأيت الناس وهم حيارى سكارى ومدهم بسكارى . أبدانهم راجفة . وقلوبهم واجفة . وأصواتهم خافتة . وأبصارهم باهتة . وشفاههم يابسة . وصورهم بائسة . ووجوههم باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة . وقد استوفز كل من أهل الأمصار . وسكاد الأنجاد والأغوار . وقد أصاخ لما يرد عليه من جلى الأخبار . فبنى على ذلك ما يكون من متعلقات الحركة والسكون . فأخذ تيمور على طريقته العوجا . ورجع على سبيل بغيه التى اتخذها شرعة ومنهاجا . وقد سدت عساكره الآفاق والأكناف . وعمت هيبته الأرجاء والأطراف . » .

---

٤ — من وصف حفل تيمور الذى أقامه فى عرس حفيده . وهى قطعة أدبية طريفة :

« ولما استتب الأمر على مراد تسويل قرينته . وأخذت الأرض زخرفها وازينت من جنده وأهل مدينته . توجه إلى ذلك المرج على وقاره وسكينته . وخرج على قومه فى زينته . ثم أمر أن يجرى يواقيت الصهباء على زبرجد ذلك الأحوى وسيلها لكل ناظر وعام . فسبح فى تيارها كل خاص وعام . فدارت فى سماء تلك الأرض للسرور أفلاك . وهبطت فى أفقها بوحى اللذات من أفلاك الملاحة أملاك . وأصبحت تلك الأسود الخوادر وهى ظباء جوادر . وتنزلوا من جحيم المنازلة إلى نعيم المغازلة ، وتبدلت تلك الغلاظة والكثافة

باللطافة والظرافة . وأصبحوا بعد جوارهم يتجاورون . وبمعنى ماقلته يتحاورون .

محا الظلم من بين الورى اسم عدلنا فلم يتشبث مستغيث بمعتد
سوى قلب صب صاده طرف أحور وخصر نحيل آده ردف أغيد

فما صار يصول سيف إلا أن كان صارم لحظ وهو مع ذلك مكسور . ولا يجول ذابل إلا أن كان رمح قد وهو مع ذلك بالعناق مهصور . وصرت لاترى إلا عودا يحرك أو يحرق . أو قدحا يروب أو يروق . أو شاديا يغرد أو شاربا يعربد . أو جارية تسقى أو ساقية تجرى . أو خد ورد ينشق . أو ورد خد يعشق . أو كأس ثغر يرشف . أو غصن خصر للعناق يقصف . أو فرص عيش تغتنم . أو لسان حال ينشد ويترنم : —

فى ربيع الوصل لما أن وفى ظبى الشرود
وسرت بشرى الصبا للـ روض تنبى بالورود
خرت الأنهار والأغـ صان مالت للسجود ، الخ

والقصيدة خمسة وعشرون بيتا .

وفى هذا القدر كفاية .

خاتمة

وقبل أن نترك هذا الباب نشير إلى كتابين : —

أولهما : —

« سيرة الظاهر بيبرس » وهى سيرة الملك المذكور تقع فى خمسين جزءا صغيرة . وهى متداولة معروفة بين عشاق القصص وقارئيها . ولكننا لم نستطع معرفة كتابها حتى نضيفهم إلى عصرهم . سوى أنه فى المقدمة ذكرت أسماء « الدويدارى »

و « الدينارى » و « ناظر الجيش » باعتبارهم من مؤلفى هذه السيرة . ولكننا لم نعرف من هم ولا من أى عصر كانوا . هذا إلى أن عبارات السيرة لاجة فى العامية غارقة فيها من أخمصها إلى ناصيتها . ولهذا وذاك ضربنا الذكر صفحا عنها .

ثانيهما :

« بدائع الزهور فى وقائع الدهور » وهو كتاب مطبوع متداول أيضا يقع فى نحو ١٨٥ صفحة وهو غير « بدائع الزهور » المشهور بتاريخ مصر لمؤلفه ابن إياس الحنفى .

وبدائع الزهور الأول منسوب أيضا إلى بن اياس المذكور ، وهذا ما نستبعده كل الاستبعاد ، إذ أنه ليس من المعقول أن يؤلف الرجل كتابين متباينين فى موضوعهما ومنهجهما وفى الغاية منهما ثم يسمى كلا منهما باسم الثانى .

وقد قيل إن البدائع المذكورة من تأليف جلال الدين السيوطى . ونحن نرجح هذه الشائعة لتشابه أسلوبه بأسلوب السيوطى . إذ أنه اعتمد فيه على النقل والرواية ، دأبه فى كثير من مؤلفاته .

والبدائع المذكور فى موضوعات قصصية مختلفة منها ما يتصل بخلق آدم وقصص بنى إسرائيل وبناء بيت المقدس ، وقصص الأنبياء وذكر قصة قارون وذى القرنين وما شابه ذلك .

والكتاب من هذه الناحية قصصى فيه خيال كثير وسطور أشبه بالأساطير . ولا يعتمد عليه من الناحية التاريخية . وأسلوبه غالبا ممدود لا كلفة فيه ولا تأنق وحسبنا منه التنويه فى هذا المقام .

والله أعلم

تم بحمد الله طبع

المجلد الخامس

من كتاب عصر سلاطين المماليك

وهو القسم الأول من الجزء الثالث

فى رجب سنة ١٣٧٥ هـ — فبراير سنة ١٩٥٦ م

ويليه

المجلد السادس

وهو القسم الثانى من الجزء الثالث

وأوله : البـــاب الرابع فى الحطب وما يتصل بها

فهرس الأعلام

المجلد الخامس من كتاب عصر سلاطين المماليك

ا

الآمدى : ٢٦٥

الآمر الفاطمى : ٩٦

ابراهيم بن سيابة : ٥٣

ابراهيم بن لقمان (القاضى فخر الدين الإسعردى) : ٧٧ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٢٩ ، ١٣١

ابراهيم الصولى : ٤٨

الابشيهى أبو الفتح محمد بن احمد بن منصور : ٣٦٠

ابن الآدمى : ١٤٢

ابن أبى حجلة المغربى : ٢٢٣ ، ٢٩٨ ، ٣٢٩ ، ٣٢٤ ، ٣٥٧ ، ٣٦١

ابن أبى الدم اليهودى : ٧٣ ، ٩٦

ابن أبى طاهر طيفور : ٥١

ابن الأحدب : ٣

ابن الأثير : انظر ضياء الدين .

ابن إياس الحنفى : ٣١٧ ، ٥٠

ابن بسام ، ١٩٦ ، ٢٦٥ ، ٢٩٦

ابن بلكا : ٥٧

ابن الجوزى : ٣٥٨

ابن حجاج : ٤٤١

ابن حجر العسقلانى : فى أحمد

ابن حجة الحموى (تقى الدين) انظر تقى الدين

ابن الخطيب (لسان الدين) : ٩٥

ابن خلدون : ٢٩ ، ٤٩ ، ٥١

ابن خلكان : ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٥٨

ابن خيران : ٧٣

ابن دانيال الموصلى (شمس الدين) : ٣٥٧ ، ٣٦٩ ، ٤٢٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٥ ، ٤٥٣ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥

ابن الداية : ٧١

ابن دريهم : ٣٠٤

ابن لدلاء : ٧١

ابن الرومى : ٢٩٦

ابن زولاق : ٧٣

ابن الزيات : ٤٨ ، ٥٣

ابن زيدون : ٩٥ ، ٣٣٨

ابن سكرة : ٢٩١ ، ٤٤١

ابن سنان الخفاجى . ٣٠ ، ٣٢

ابن سيد الناس (فتح الدين) : ٤٠٥ ، ٤٤٢

ابن الشحباء : ٧٣

ابن الصيرفى : انظر على بن سليمان

ابن طباطبا : ٧١

ابن طولون : انظر أحمد

ابن عبد الحكم : ٦٨
ابن عبد ربه : ١٨ ، ٣٥٨
ابن عبد الظاهر (محيي الدين) : انظر محيي الدين
ابن عبد كان : انظر أحمد
ابن عبدوس : ٣٣٨
ابن العديم : ٤٢٠
ابن العماد الحنبلي : ٤١٤
ابن العميد : ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ١٧٣
ابن فضل الله (شهاب الدين) : في أحمد
ابن قاذوس : ٧٣
ابن قتيبة : ١٤ ، ٥٣ ، ٤٢٠
ابن قلاقس : ٣٥٦
ابن لقمان (فخر الدين) : في إبراهيم
ابن مالك النحوي : ١٨٢
ابن المقفع : في عبد الله
ابن مقلة : انظر أبو علي
ابن مكانس : انظر فخر الدين
ابن نباتة (جمال الدين) : في محمد
ابن النديم : ٣٦٧
ابن النقيب (ناصر الدين) : في حسن
ابن الوردي (زين الدين) : في عمر
ابن هشام المصري : في جمال الدين
أبو إسحق الصابي : انظر الصابي
أبو الأسود الدؤلي : ٣٦٣
أبو أيوب المرزباني : ٤٨ ، ٩٥
أبو بحر صفوان بن إدريس : ٢٦٥
أبو بكر بن حجة : في تقي الدين
أبو بكر الحنفي : ١٤٢
أبو بكر الخوارزمي : ٥٥
أبو تمام : ٢٦٥
أبو جعفر محمد بن جعفر بن المغربي : ٩٦
أبو جعفر المنصور : ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨
أبو الحسن الجرجاني : ٥٥
أبو الحسن علي بن أسامة الحلبي : انظر علي
أبو الحسن علي بن الفرات : ٤٨
أبو حمزة الخارجي : ٤١
أبو حيان التوحيدي : ٥٥
أبو طاهر النهركي : ٧٣
أبو الطيب المتنبي : انظر المتنبي
أبو العباس بن ثوابة : ٤٨ ، ٥٤
أبو العباس الضبي : ٥٥
أبو عبد الله الموصلي : ٩٦
أبو عبد الله الواسطي : ٧٠
أبو عبيد الله معاوية : ٤٨
أبو العلاء المعري : ٢٦٥ ، ٣٦٨
أبو علي بن مقلة : ١٦٠ ، ٢٩٦ ، ٤٢٠
أبو عيسى بن محمد بن أبي المهاجر : ٧٠
أبو العيناء : ٥٤
أبو الفتح البستي : ٥٥
أبو الفضل الميكالي : ٥٥ ، ١٧٣
أبو القاسم الحريري : ٦٠ ، ٣٧٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣
أبو القاسم الصيرفي : في علي بن سليمان

فهرس الأعلام

المجلد الخامس من كتاب عصر سلاطين المماليك

ا

الآمدى : ٢٦٥

الآمر الفاطمى : ٩٦

ابراهيم بن سيابة : ٥٣

ابراهيم بن لقمان (القاضى فخر الدين الإسعردى) : ٧٧ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٢٩ ، ١٣١

ابراهيم الصولى : ٤٨

الابشيهى أبو الفتح محمد بن احمد بن منصور : ٣٦٠

ابن الآدمى : ١٤٢

ابن أبى حجلة المغربى : ٢٢٣ ، ٢٩٨ ، ٣٢٩ ، ٣٢٤ ، ٣٥٧ ، ٣٦١

ابن أبى الدم اليهودى : ٧٣ ، ٩٦

ابن أبى طاهر طيفور : ٥١

ابن الأحدب : ٣

ابن الأثير : انظر ضياء الدين .

ابن إياس الحنفى : ٣١٧ ، ٥٠

ابن بسام ، ١٩٦ ، ٢٦٥ ، ٢٩٦

ابن بلكا : ٥٧

ابن الجوزى : ٣٥٨

ابن حجاج : ٤٤١

ابن حجر العسقلانى : فى أحمد

ابن حجة الحموى (تقى الدين) انظر تقى الدين

ابن الخطيب (لسان الدين) : ٩٥

ابن خلدون : ٢٩ ، ٤٩ ، ٥١

ابن خلكان : ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٥٨

ابن خيران : ٧٣

ابن دانيال الموصلى (شمسى الدين) : ٣٥٧ ، ٣٦٩ ، ٤٢٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٥ ، ٤٥٣ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥

ابن الداية : ٧١

ابن دريهم : ٣٠٤

ابن الدلاء : ٧١

ابن الرومى : ٢٩٦

ابن زولاق : ٧٣

ابن الزيات : ٤٨ ، ٥٣

ابن زيدون : ٩٥ ، ٣٣٨

ابن سكرة : ٢٩١ ، ٤٤١

ابن سنان الخفاجى . ٣٠ ، ٣٢

ابن سيد الناس (فتح الدين) : ٤٠٥ ، ٤٤٢

ابن الشحباء : ٧٣

ابن الصيرفى : انظر على بن سليمان

ابن طباطبا : ٧١

ابن طولون : انظر أحمد

ابن عبد الحكم : ٦٨
ابن عبد ربه : ١٨ ، ٣٥٨
ابن عبد الظاهر (محيي الدين) : انظر محيي الدين
ابن عبد كان : انظر أحمد
ابن عبدوس : ٢٣٨
ابن العديم : ٤٢٠
ابن العماد الحنبلي : ٤١٤
ابن العميد : ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ١٧٣
ابن فضل الله (شهاب الدين) : في أحمد
ابن قاذوس : ٧٣
ابن قتيبة : ١٤ ، ٥٣ ، ٤٢٠
ابن قلاقس : ٣٥٦
ابن لقمان (فخر الدين) : في إبراهيم
ابن مالك النحوي : ١٨٢
ابن المقفع : في عبد الله
ابن مقلة : انظر أبو علي
ابن مكانس : انظر فخر الدين
ابن نباتة (جمال الدين) : في محمد
ابن النديم : ٣٦٧
ابن النقيب (ناصر الدين) : في حسن
ابن الوردي (زين الدين) : في عمر
ابن هشام المصري : في جمال الدين
أبو إسحق الصابي : انظر الصابي
أبو الأسود الدؤلي : ٣٦٣
أبو أيوب المرزباني : ٤٨ ، ٩٥
أبو بحر صفوان بن إدريس : ٢٦٥
أبو بكر بن حجة : في تقي الدين
أبو بكر الحنفي : ١٤٢
أبو بكر الخوارزمي : ٥٥
أبو تمام : ٢٦٥
أبو جعفر محمد بن جعفر بن المغربي : ٩٦
أبو جعفر المنصور : ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨
أبو الحسن الجرجاني : ٥٥
أبو الحسن علي بن أسامة الحلبي : انظر علي
أبو الحسن علي بن الفرات : ٤٨
أبو حمزة الخارجي : ٤١
أبو حيان التوحيدي : ٥٥
أبو طاهر النهركي : ٧٣
أبو الطيب المتنبي : انظر المتنبي
أبو العباس بن ثوابة : ٤٨ ، ٥٤
أبو العباس الضبي : ٥٥
أبو عبد الله الموصلي : ٩٦
أبو عبد الله الواسطي : ٧٠
أبو عبيد الله معاوية : ٤٨
أبو العلاء المعري : ٢٦٥ ، ٣٦٨
أبو علي بن مقلة : ١٦٠ ، ٢٩٦ ، ٤٢٠
أبو عيسى بن محمد بن أبي المهاجر : ٧٠
أبو العيناء : ٥٤
أبو الفتح البستي : ٥٥
أبو الفضل الميكالي : ٥٥ ، ١٧٣
أبو القاسم الحريري : ٦٠ ، ٣٧٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣
أبو القاسم الصيرفي : في علي بن سليمان

أبو مسلم الخراسانى . ٤٣
أبو المطهر الأزدى : ٢٧٠
أبو المغيرة بن حزم : ١٧٣
أبو منصور بن حورس : ٩٦
أبو منصور الثعالبى : ٥٥
أبو هلال العسكرى : ٣٠، ٥٥، ٩٠، ٤٢٠
أبو النجم الرجاز : ٢٠٥
أبى بن كعب : ٦٣
أثير الدين أبوحيان : ٤٠٥
أحمد بن أبى خالد الأحول : ٤٨
أحمد بن أيمن : ٧٠
أحمد بن حجر العسقلانى (شهاب الدين) ٢٠٧، ٢٠٩، ٣١٧، ٤٦٤
أحمد بن طولون : ٦٦، ٧٠، ٩٥
أحمد بن عبد المودود (ابن عبدكان) : ٧٠
أحمد بن فضل الله العمرى (شهاب الدين) : ١٤، ١٣٩، ١٥٢، ١٥٤، ١٨٢، ٢٢٤، ٢٤٠، ٢٥٠، ٢٥٥، ٣٠٤، ٣٤٣، ٣٥٠، ٢٧٢، ٣٦٩، ٤١٣
أحمد بن يوسف : ٤٨، ٩٥
أحمد الإسكندرى : ٤٩، ٥٩
أحمد الشايب : ١٠
أحمد شوقى (أمير الشعراء) : ٢٥٤
الأحف بن قيس : ٤٠
أرسطو : ٣٤٢
اسحق بن نصير العبادى : ٧٠، ٩٦
اسماعيل بن الخلبى الصائغ : ٣٠٤
اسماعيل بن صبيح : ٤٨
الأمين (الخليفة العباسى) : ٤٨
أمين الدين النحاس : ٢٩٢
أمين الدين سليمان : ٧٧
أمين الدين الحلبى : انظر عبد المحسن
أكثم بن صيفى : ١٨
أنوك بن الناصر بن قلاوون : ١٥٢
ايلخان غازى : ٢٢٨
أيوب (الصالح نجم الدين) : ٩٧، ١٠٢

ب

الباقلانى : ٢٩
البحترى : ٢٦٥
بدر الدين بن جماعة الكنانى : ٣٣٠، ٢٣٣، ٣٥٦
بدر الدين بن حبيب الحلبى : ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٧٥، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٩، ٣٠٤
بدر الدين بن الدماميني : ٢٥٢، ٢٩٤، ٢٦٥، ٢٩٧، ٣٦١
بدر الدين بن الصاحب : ١٧٤
بدر الدين بن فضل الله العمرى : ٤١٢،

٤١٣ ، ٤١٧ ، ٤٢٠
بدر الدين بن محمد بن الضعيف: ٢٨٨
بدر الدين بن مكى : ٣٥٧
بدر الدين البشتكى : ٢١٩
بدر الدين العينى : ٢١٧
بدر الدين محمد بن أبى بكر المخزومى : ١٩٢
بديع الزمان الهمذانى : ٣٧٠
برهان الدين الجعبرى : ٣٥٦
برهان الدين القيراطى: ١٦٢، ٢٠٧، ٢٥٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٨
بشير بن سعيد : ٤٠
بكتمر الساقى (الامير) : ١٥٢
بهاء الدين أبو حامد السبكى : ١٧٠ ، ٢٥٦
بهاء الدين بن حنا (الصاحب) بن على
بهاء الدين بن غانم : ٢٩٢
بهاء الدين زهير : ٧٧ ، ٩٧
بهاء الدين الموصلى : ٣١١
بهى الدين زيان : ٦٢ ، ٦٥ ٦٦ ، ٦٩
البويطى : ٦٨
بيدمر العمرى (الامير) : ١٥٢
بيبرس (الملك الظاهر) : ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١١٧ ، ١٢٥ ، ١٣٦ ، ١٨٢ ، ٢٨٤ ، ٣٥٥

ت

تاج الدين بن الاثير : ١٠٦
تاج الدين بن غنوم : ١٨٥
تاج الدين البارنبارى : ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢٣٥ ، ٢٥٢
تاج الدين السبكى : ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٤٠٥
تاج الرياسة : انظر على بن سيمان
تقى الدين بن حجة الحموى : ١٥ ، ٣٦ ، ٨٤ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٧٥ ، ١٨١ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٩ ، ٢٧٨ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣٠٤ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٥٨ إلى ٣٦١ ، ٤٠٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ،
تقى الدين الشبلى الحنفى : ٤٢٥
تقى الدين المقريزى : انظر المقريزى
التلعفرى : ٣٥٧
توبة الخفاجى : ٣٦٦
تيمور لنك التترى : ٣١٩ ، ٣٦٩

ج

الجاحظ : ١٤ ، ٢٨ ٣٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ١٦٨ ، ٢٦٥
جبلة بن سالم : ٣٦٧
جعفر البرمكى : ٤٦ ، ٤٨
جلال الدين البلقينى : ١٣٣ ، ١٣٨
جلال الدين السيوطى : انظر السيوطى
جلال الدين القزوينى : ٢٩٠ ، ٢٩٣
جلال الدين المحلى : ٣٣٧

جلال الدين محمود الأنصارى : ٩٦
جمال الدين بن هشام المصرى : ١٩٢ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠
جمال الدين بن نباتة : فى محمد
جمال الدين أبو اسحق ابراهيم بن محمود : ١٦٤
جمال الدين عبد الله بن سيف الله بن أبى سعيد : ١٥٢
جميل بثينة : ٢٦٦ ، ٢٦٧
جورجى زيدان : ٥٣ ، ٥٨

ح

حاجب بن زرارة : ١٨
الحارث بن ذبيان : ١٨ ، ١٩ ، ٢٠
الحارث بن ظالم المرى : ١٨ ، ٢١
الحارث بن عباد البكرى : ١٨
الحافظ الفاطمى : ٩٦
حامد بن العباس : ٣٥٩
الحباب بن المنذر : ٤٠
الحجاج بن يوسف الثقفى : ٤١
الحسن بن سهل : ٤٨ ، ١٦٠ ، ٤٢٠
حسن بن شاور الكنانى (ناصر الدين ابن القيب) : ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٥٦
الحسن بن محمد بن أبى المهاجر : ٧٠
الحسن بن مخلد : ٤٨
الحسن بن وهب : ٤٨
الحصرى : ١٩٦ ، ٢٠٩ ، ٣٥٨
حمزة الأصفهانى : ٥٣
حنظلة بن صفوان : ٦٦٠
حويطب بن أبى بلتعة : ٩٣

خ

خالد الأزهرى : ٣٣٧ ، ٣٤٠
خالد بن جعفر الكلابى : ١٨
خالط بن صفوان : ٤٦
خالد القسرى : ٤١
خليل بن أيبك (صلاح الدين الصفدى) : ١٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٣٠٤ ، ٣٤٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٣ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤٦٤
الخليل بن أحمد : ٣٤٢ ، ٣٥٦
خليل بن قلادون : ٢٥٢
خمارويه : ٦٥ ، ٧٠
خويلد بن عمرو الغطفانى : ١٩
خير بن نعيم : ٦٦

د

داود بن على : ٤٦
داود بن الكوبز : ١٥٢
دحية الكلبى : ٩٣
ديك الجن : ٢٩٧

ذ

ذو النون المصرى : ٩٦

الذهبي (شمس الدين) ٣١٧ ، ٣٥٦
ذهين بن زيرا : ١٩

ر

الراجح الحاى : ٢٩٦
الرباحى المالكى (القاضى) : ٢٩٨
الربيع بن يونس : ٩٥
ركن الدين بن القومع : ٢٠٠

ز

زكى مبارك : ٥٥ ، ٢٦٥ ، ٣٧٠
الزمخشرى : ٣٧٠
زياد بن أبيه : ٤١
زيد بن ثابت : ٩٣ ، ٩٩
زين الدين بن أبي بكر العجى : ١٧٩ ، ٣١١
زين الدين بن الخراط : ١٤١
زين الدين الصفدى : ٢٢٣
زين الدين بن الوردى : ١٥٦ ، ١٦٥ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٧٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٩ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٧ إلى ٣٨٦ ، ٤٤١

س

سالم مولى هشام بن عبد الملك ٤٢ ، ٩٣
سبيع بن الحارث : ١٨
سحبان وائل : ١٦٢
سراج الدين بن الملقن ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨
سراج الدين البلقينى : ١٨٤
سراج الدين الورق : ٣٥٦
سعد بن عبادة : ٤٠
سعيد بن حميد : ٤٨
سعيد بن الوليد الأبرش : ٦٣
السفاح « الخليفة العباسى » : ٤٦
سلمة بن مخلد : ٦٦
سليمان بن وهب : ٤٨
سهل بن هرون : ٣٦٨
سيف الدين بلبان الدوادار : ٩٧ ، ٩٩
سيف الدين كمشبغا (الأمير) : ١٥٢
السيوطى (جلال الدين) : ٢٦٦ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٣٦٢ ، ٣٧١ ، ٤٢٦ ، إلى ٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٣٩ إلى ٥٠٠

ش

الشاب الظريف : ٣٧١ ٣٧٢
الشافعى (الإمام) : ٦٨
شبيب بن شيبة الخارجى : ٤٦
شرف الدين بن البارزى : ١٨١
شرف الدين حجاج فى عيسى
شرف الدين البوصيرى : ٣٣٧
شرف الدين حسن بن المقر الجمال ابن ديان : ٣١١ ، ٣٥٧

شرف الدين القدسى : ١٤٩
الشريف الرضى : ٤٠
شمس الدين أبو عبدالله محمد الجزرى : ٢٠٩
شمس الدين بن دانيال الموصلى : انظر ابن دانيال
شمس الدين بن الدايم : ٢٠٠
شمس الدين بن الصايغ : ٢٠٠
شمس الدين بن ناهض الفقاعى : فى محمد
شمس الدين البساطى : ٢٧٥
شمس الدين الذهبى : فى الذهبى
شمس الدين السخاوى : ١٩٢ ، ٢١٧
شمس الدين محمد الأنصارى : ٣٤٢
شمس الدين النواجى : انظر الواجى
شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى : فى ابن أبى حجلة
شهاب الدين بن حجر العسقلانى : فى أحمد
شهاب الدين احمد النويرى : ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦
شهاب الدين الأقفهسى : ٣٣٧
شهاب الدين الحجازى : ٢٩٦ ، ٣١١
شهاب الدين الحنبلى : ٢٠٠
شهاب الدين الخوبى : ١٤٧ ، ١٤٩
شهاب الدين القلقشندى : انظر القلقشندى
شهاب الدين القوصى : ٣٥٦
شهاب الدين محمود الحلبى : فى محمود
شوقى ضيف : ٥١ ، ٥٩ ، ٧٠ ، ٧٤
شيخ (الملك المؤيد) : ١٨٤ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣٥٩

ص

الصابى (أبو اسحق) ٥٥ ، ٥٦ ، ٣٥٨ ، ٤٢٠
الصاحب أمين الدين : ٢٤٣ ، ٢٤٤
الصاحب بن عباد : ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٢٤٠
صدر الدين بن الآدمى : ٤٢٢ ، ٤٢٣
الصالح نجم الدين : أنظر أيوب
صفى الدين الحلى : فى عبد العزيز
صلاح الدين الأيوبى : ١٧٢ ، ٣٣٥ ، ٣٥٦
صلاح الدين الصفدى : فى خليل

ض

ضياء الدين بن الأثير : ١٥ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ١١١ ، ٢٩٦ ، ٤٠٦ ، ٤١٨

ط

طاهر بن الحسين : ٤٦ ، ٥٣
طبطب المحرر : ٩٦
طريف بن العاص : ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١
الطغرائى : ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٣٦٣

ظ

الظاهر (الملك بيبرس) : انظر بيبرس
الظاهر (الملك جقمق) : ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤

ع

عامر بن الطفيل العامرى : ١٨
عبد الحميد حسن : ١ ، ١٠ : ٧١
عبدالحميد بن يحيى بن سعيد (الكاتب) :
٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٧٠ ، ٨٤ ، ٩٣ ، ٩٤
٤٢٠
عبد الرحيم البيسانى (القاضى العاضل) :
١٠ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٥ : ٩٧
١١٧ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٧٢ : ١٩٦ ، ٢٢٣
٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٤٠٦ ، ٤٢ ، ٤٢٢
عبد العزيز بن سرايا (الصفى الحلى) :
١٨٢ ، ٢٩٦ ، ٣٢٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٩٦ ،
٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٢٨ ، ٤٤٣
عبد العزيز مروان : ٦٦
عبد العزيز البشرى : ٢٥٤
عبد الغنى بن عبد الواحد المقدسى
الحنبلى : ١٩٢
عبد الله بن أوس الغسانى : ٤٢ ، ٩٣
عبد الله بن حذافة : ٩٣
عبد الله بن رافع : ٩٣
عبد الله بن الزبير : ٤١
عبد الله بن سعد بن أبى سرح : ٦٦
عبد الله بن سليمان بن وهب : ٤٨
عبد الله بن طاهر : ٤٦
عبد المطلب بن هاشم : ١٨
عبد الله بن المقفع : ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،
٦٨ ، ٩٥ ، ١٦٢ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨
عبد المحسن بن محمود الحلبى (أين الدين) :
٧٧
عبد الملك بن مروان : ٤١ ، ٦٧
عتبة بن أبى سفيان : ٦٦ ، ٦٧
عز الدين بن جماعة : ٢٠٠ ، ٣٢٧
عز الدين بن عبد السلام المقدسى :
٢٦١
عز الدين الموصلى : ٣٣٧
علاء الدين بن عبد الظاهر : فى على .
علاء الدين بن النفيس : ٢٧٨
علقمة بن علاثة العامرى : ١٨
على بن أسامة الحلبى (أبو الحسن) :
٧٣ ، ٩٦
على بن الجراح : ٤٨
على بن خلف : ٧٣
على بن داود : ٣٦٨
على بن سليمان (تاج الرياسة ابن
الصيرفى) : ٣ ، ٩٦ ، ٣٥٧
على بن الطاهر (علاء الدين) : ٢٢٧
على بن عيسى : ٣٥٩
على بن محمد بن أبى المهاجر : ٧٠
على بن محمد الإسكاف : ٥٥
على بن محمد : (بهاء الدين بن حنا) :
١٣٦ ، ١١٧ ، ٢٥٢ ، ٣٥٥
على الجندى : ١
عمارة بن حمزة : ٤٨
عماد الدين الأصفهانى : ٧٧ ، ٧٨

عمر بن أبي ربيعة : ٣٦٦ ، ٣٣٧
عمر بن عبد العزيز : ٤١
عمر بن الوردى (زين الدين) :
١٥٦ ، ١٦٥ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٩ ،
١٩٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠
عمر الدسوقى : ١٠٢ ، ٤٤٦ ، ٤٦٤
عمرو بن أمية : ٩٣
عمرو بن الأهتم : ١٦٢
عمرو بن الشريد السلمى : ١٨
عمرو بن العاص : ٦٤ ، ٦٩ ، ٩٧
عمرو بن مسعدة : ٤٨ ، ٥٣
عمرو بن معد يكرب الزبيدى : ١٨
العميدى : ٧٣
عنقش بن مهيرة : ١٩
عيسى بن حجاج (شرف الدين) : ٣٠٤

ف

فتح الدين بن محيى الدين عبد الظاهر :
٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١
فتح الدين بن مستعصم التبريزى : ١٦٠
فخر الدين بن لقمان (القاضى) :
انظر ابراهيم
فخر الدين بن مكانس : ١٧٤ ، ١٧٩
٢١٨ إلى ٢٢٤ ، ٢٥٢ ، ٢٨٥ ، ٣٦١
فخر الدين عبد الوهاب كاتب الدرج :
١٨١
الفضل بن سهل : ٤٦ ، ٤٨ ، ١٦٠ ، ٤٢
الفضل بن يحيى : ٤٨
الفيروزابادى : ٣٣٧

ق

القاضى الفاضل : انظر عبد الرحيم
قدامة : ٤٢٠
قرة بن شريك : ٦٦
قس بن ساعدة الإيادى : ١٩ ، ١٦٢
القشاعى : ٨٣
قطرى بن الفجاءة : ٤١
قلاوون (الملك المنصور) : ١٤٦ ،
١٥٠ ، ١٥٥
القلقشندى (شهاب الدين) : ٨٣ ،
٨٤ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٩ ،
١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ٢٧٥ ، ٣٠١ ،
٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٧١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ،
٣١٤ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢١
قوام الدين بن زيادة . ٧٨ ، ٣٥٥
القيراطى . فى برهان الدين
قيس ليلى : ٣٦٧
قيس بن مسعود الشيبانى : ١٨

ك

كثير عزة : ٣٦٦ ، ٣٣٧
كعب بن لؤى : ١٩
كمال الدين الزملكانى بن : ٢٠٧ ، ٢٥٨ ،
٢٩٢ ، ٢٩٢ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥
كمال الدين بن العطار . ٢٩٢
كمال الدين البارزى : ١٣٨
كمال الدين الشاشى . ١٨٦

الكندى : ٦٦

ل

الليث بن سعد : ٦٨

م

المأمون : ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٣٥٩
المؤيد شيخ : فى شيخ
المتنبي أبو الطيب : ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٣٥٦
المتوكل : ٩٨
مجد الدين فضل الله بن مكانس : ٢٩٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠
محمد بن أحمد بن مودود : ٩٥
محمد بن عبد الله بن حارثة الأنصارى : ٩٣
محمد بن قلاوون (الملك الناصر) : ٩٨ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٤٤ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٣٣٢
محمد بن محمد : (جمال الدين بن نباتة) : ١٤١ ، ١٧٣ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٨٢ ، ٢٠٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٨ ، ٣٣٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٤٠٥ ، إلى ٤٠٩ ، ٤١١
محمد بن الموفق (كافى الكفاة) : ٩٨ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٤ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٣٣٢
محمود الحلبي (أبو الثناء شهاب الدين) : ١٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٩١ ، ١٢٤ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٤٨ ، ١٥٧ ، ١٦٧ ، ١٨٢ ، ٢ ، ٢ ، ٢٢٥ ، ٢٣٢ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٤١٩
محي الدين بن عبد الظاهر : ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٣٦ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٧٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٥٢ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ ، ٣٤٣ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٧٢
محي الدين بن النحاس : ٣٧٢
محي الدين الكافيجى : ٤٢٥
المختار الثقفى : ٤١
مرثد الخير بن ينكف : ٥٠
مروان بن الحكم : ٩٣
مروان بن محمد : ٤٢ ، ٦٣
المزى : ٣٥٦
المستعين العباسى : ٤٨
المستكفى العباسى : ٣٥٦
المستنصر بالله الفاطمى : ٩٦
مصطفى صادق الرافعى : ٢٥٤
مصعب بن الزبير : ٤١
معاوية بن أبى سفيان : ٤١ : ٤٢ : ٩٣
المعتز : ٤٨
المعتصم : ٤٨
المعتضد : ٤٩
المعتمد : ٤٨ : ٤٩
المغيرة بن شعبة : ٤٠
المقتدر : ٤٩

المقريزى : (تقى الدين) : ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١١٠
المكتفى : ٤٩
الملحى : ٢٩١ ، ٢٩٦
المنتصر العباسى : ٤٨
موسى بن سيار : ٤٦
موفق الدين أبو الحجاج : انظر يوسف
المهتدى : ٤٨
المهدى : ٤٨
ميثم بن مثوب : ١٨

ن

الناصر بن قلاوون (الملك) : انظر محمد
الناصر حسن بن الناصر محمد : ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤
الناصر العباسى : ٧٨
ناصر الدين بن النقيب : فى حسن
الناصرى بن البارزى : ١٤٤ ، ١٥٢ ، ٢٨٨
ناظر الجيوش : ٤١٣
النجاشى : ٩٣
نجم الدين (الصالح) : فى أيوب
نصير الدين الحمامى : ٣٥٦
النعمان بن المنذر : ١٨
النمر بن عثمان : ١٩
النواجى (شمس الدين) : ٢٧٦ ، ٣٦١

و

الواثق : ٤٨
الوراق : فى سراج الدين

ه

هرون الرشيد : ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨
هشام بن عبد الملك : ٩٣

ى

يحيى بن برمك : ٤٨ ، ٥٣
يحيى بن جعفر البرمكى ٩٤ ، ٩٦
يحى بن خالد بن برمك : ٩٥
يحى بن زياد : ٤٨
يزيد بن عبد الملك : ٩٣
يعقوب بن اسحق : ٧٠
يعقوب بن داود : ٤٨
يعقوب بن كلس : ٩٦
يوسف بن الخلال (موفق الدين أبو الحجاج) : ٧٣ ، ٩٦
يوسف بن القاسم بن صبيح : ٤٨ ، ٩٥

فهرس الموضوعات

للمجلد الخامس من عصر سلاطين المماليك

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة
٧	فصل فى بيان معنى النثر الفنى
١٨	فصل فى النثر الفنى قبل عصر المماليك فى الحجاز والشام والعراق
١٨	نثر الجاهلية
١٩	مفاخرة بين طريف بن العاصى والحرث بن ذبيان
٢١	خطبة الحرث بن ظالم المرى بين يدى كسرى
٢٦	نثر القرآن الكريم . قضية السجع فيه .
٣٧	نثر النبوة وصدر الإسلام
٤١	النثر فى عصر بنى أمية
٤٢	منهج عبد الحميد الكاتب
٤٣	ومما كتبه عبد الحميد
٤٥	النثر فى صدر عصر بنى العباس
٥٠	منهج ابن المقفع
٥١	منهج الجاحظ
٥٤	النثر فى القرن الرابع
٥٦	ابن العميد ومنهجه
٥٨	النثر بعد القرن الرابع إلى نهاية الدولة العباسية
٥٩	الحريرى ومنهجه
٦٢	فصل فى النثر الفنى فى مصر الإسلامية إلى عصر المماليك
٦٣	إقليمية النثر الفنى ومعوقاتها
٦٦	بداية النثر الفنى فى مصر الإسلامية ونموه وأمثلة منه .
٧٠	ديوان الرسائل فى عهد ابن طولون وبعده .
٧٣	النثر الفاطمى
٧٦	النثر الأيوبى
٧٧	القاضى الفاضل وطريقته الكتابية .
٨٠	النثر الفنى فى عصر المماليك : تعريف
٨٢	الباب الأول : باب الرسائل
٨٢	تمهيد فى بيان نشأة الرسائل وأهميتها .
٨٩	الفصل الأول : ديوان الإنشاء وكتابة السر

الصفحة	الموضوع
٩٥	ديوان الإنشاء فى مصر الإسلامية
٩٨	كاتب السر
١٠١	اختصاصه
١٠٣	كتاب الدست
١٠٥	كتاب الدرج
١١٢	الفصل الثانى : الرسائل الديوانية
١١٣	الرسائل الملوكية
١١٤	رسالة هولاكو إلى المظفر قطز
١١٧	رسالة الظاهر بيبرس إلى بيموند
١١٩	رسالة محمود غازان ملك التتار إلى الناصر بن قلاوون ورد الناصر عليه .
١٢٣	أنواع من الرسائل الخارجية
١٢٤	نماذج أخرى من الرسائل الملوكية
١٢٥	العهود والمبايعات
١٢٧	عهد الحاكم بأمر الله إلى ولده
١٢٨	مبايعة السلطان المنصور ابن الناصر بن قلاوون، لأحمد ابن المستكفى بالله .

الصفحة	الموضوع
١٢٩	مبايعة الخليفة المستنصر بالله للظاهر بيبرس
١٣١	عهود ومبايعات أخرى
١٣١	العهد بالكفالة
١٣٢	التقاليد
١٣٤	تقليد للشهاب الحلبى إلى متملك سيس
١٣٦	تقليد لابن عبد الظاهر إلى بهاء الدين بن حنا بالوزارة .
١٣٨	تقاليد أخرى .
١٣٨	التواقيع والمناشير والمراسيم
١٤١	توقيع لتقى الدين بن حجة الحموى إلى زين الدين بن الخراط بكتابة السر بطرابلس
١٤٢	تواقيع أخرى
١٤٣	البشارات
١٤٣	بشارة لابن حجة الحموى بوفاء النيل
١٤٦	بشارة لتاج الدين بن الأثير إلى صاحب اليمن بفتح طرابلس
١٤٦	بشارة لمحيى الدين بن عبد الظاهر بوفاء النيل

الصفحة	الموضوع
١٤٧	بشارة إلى شهاب الدين الحوى بفتح قلعة الروم
١٤٨	بشارات أخرى
١٤٩	الصداق
١٥٠	نص صداق لمحي الدين بن عبد الظاهر عند زواج الملك السعيد
١٥٢	مكاتبات أخرى للصداق
١٥٣	الوصايا
١٥٥	من وصية لابن عبد الظاهر فى تقليد المنصور قلاوون
١٥٦	الفصل الثالث : الرسائل الإخوانية
١٥٩	رسائل المديح والشكر والتهنئة
١٦٠	رسالة للقلقشندى فى مدح المقر الفتحى
١٦٢	رسالة للقيراطى فى مدح الجمال ابن نباتة
١٦٤	رسالة تهنئة للصفدى إلى القاضى جمال الدين بن محمود بكتابة سر حلب
١٦٤	رد القاضى جمال الدين على الصفدى يشكره
١٦٥	رسالة شكر لزين الدين بن الوردى إلى من أهدى إليه صقرين
١٦٦	رسائل الشوق والشكوى والعتاب
١٦٧	رسالة للشهاب الحلبى فى الشوق
١٦٨	رسالة لابن نباتة إلى الصفدى فى العتاب
١٦٩	رد الصفدى على ابن نباتة فى عتابه
١٧٠	رسالة للصفدى إلى بهاء الدين السبكى فى الشوق والشكر والولاء والمدح ، ردا على رسالة منه إليه
١٧١	رسالة لتاج الدين البارنبارى إلى الصفدى ردا على مكاتبة له فى الشوق
١٧٣	رسائل الاستدعاء وما يتصل به
١٧٤	رسالة لبدر الدين بن الصاحب إلى فخر الدين بن مكانس فى استدعاء إلى مجلس أنس
١٧٥	استدعاء لتقى الدين بن حجة الحموى إلى مجلس شرب

الصفحة	الموضوع
١٧٧	استدعاء لمحيي الدين بن عبد الظاهر إلى حمام
١٧٩	رسائل إخوانية متنوعة
١٧٩	رسالة لابن مكانس إلى زين الدين العجمى فى التبرىء والاعتذار
١٨١	رسالة لابن الوردى يعزى بوفاة شرف الدين بن البارزى
١٨١	رسائل إخوانية أخرى
١٨٣	الفصل الرابع : الإجازة والاستجازة
١٨٣	الإجازات العلمية :
١٨٦	إجازة لابن الملقن إلى القلقشندى
١٨٩	إجازة لابن الوردى إلى أحد تلاميذه
١٩٠	إجازات العراضة :
١٩٢	إجازة لبدر الدين المخزومى كتبها للشهاب العمرى
٩٣	إجازة لابن الوردى كتبها لابن العطار
١٩٤	الإجازات بالرواية الأدبية :
١٩٥	استدعاء الصفدى مستجيزا ابن نباتة، وإجازة ابن نباتة له
١٩٩	إجازات بالرواية أخرى
٢٠١	الفصل الخامس : الأسئلة والأجوبة
٢٠٢	رسالة لابن نباتة إلى الشهاب الحلبى يسأل فيها منشئ الديوان أسئلة عدة
٢٠٧	رسالة لابن حجة إلى ابن حجر يحكمه فى التائيات الثلاث
٢١٠	خاتمة
٢١٢	التقاليد الحكمية . إسجالات. العدالة
٢١٢	الكتب إلى النواب ومن فى حكمهم
٢١٢	كتب الوقف ونحوه
٢١٣	العمرات،
٢١٤	الباب الثانى : باب الوصف
٢١٤	تمهيد
٢١٦	الفصل الأول : الرسائل الوصفية
٢١٧	وصف النيل وزيادته وأثره
٢١٧	رسالة لابن نباتة فى وصف

الصفحة	الموضوع
	زيادة النيل
٢١٩	رسالة للفخر بن مكانس فى وصف زيادة النيل عام ٧٨٤ هـ، إلى البدر البشتكى
٢٢٤	وصف الطبيعية ومظاهرها
٢٢٤	رسالة للشهاب بن فضل العمرى فى الشتويات، كتبها إلى ابن الوردى
٢٢٥	رسالة للشهاب الحلبى يصف شمس الأصيل
٢٢٧	وصف الغزوات وما يتصل بها
٢٢٧	رسالة لعلاء الدين بن عبد الظاهر يصف فيها وقعة « مرج الصفر »
٢٣٢	رسالة للشهاب الحلبى إلى قائد سريه كاشفة
٢٣٣	وصف الصيد وما يتصل به
٢٣٥	رسالة لتاج الدين البارنبارى فى وصف خروج الناصر ابن قلاوون للصيد
٢٣٧	وصف الخيل
٢٣٨	مجرى السوابق لابن حجة الحموى
٢٤١	وصف الحمائم
٢٤٢	رسالة لمحيى الدين بن عبد الظاهر فى وصف الحمائم
٢٤٢	وصف الرحلات
٢٤٣	رسالة حظيرة الأنس لابن نباتة
٢٤٦	وصف الحوادث العامة
٢٤٧	رسالة النبأ عن الوبأ لابن الوردى
٢٤٩	وصف الأدوات :
	رسالة فى وصف السكين لابن حجة الحموى
٢٥٠	رسالة للشهاب بن فضل الله وصف السيف
١٥١	رسائل أخرى متنوعة
١٥٣	الفصل الثانى : المقالات الوصفية
٢٥٥	وصف الشعر والنثر ونحوهما
٢٥٧	وصف الكتابة
٢٥٧	وصف الكتاب
٢٥٨	كتاب نسيم الصبا
٢٦١	كتاب كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار
٢٦٣	الفصل الثالث : الموازنات والمفاخرات

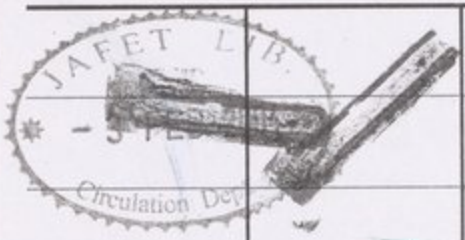
الصفحة	الموضوع
٢٦٦	الموازنة بين النار والتراب للسيوطى
٢٦٨	الموازنة بين السيف والقلم لابن نباتة
٢٧٥	موازنات أخرى
٢٧٦	الفصل الرابع بالمجونيات
٢٧٧	أدب المنادمة والنديم
٢٧٨	تدبير استعمال الشراب لابن النفيس
٢٧٩	وصف غلام لبدر الدين الحلبى
٢٨٠	وصف جارية لبدر الدين الحلبى
٢٨١	وصف معشوق وساعة وصال للصفدى
٢٨٣	رسالة رشف الزلال من السحر الحلال للجلال السيوطى
٢٨٥	رسالة ماجنة لفخر الدين بن مكانس
٢٨٧	الفصل الخامس : التقاريظ والأهاجى .
٢٨٨	تقريظ لابن حجة الحموى على رسالة فى الحكم والمواعظ
٢٨٩	رسالة لابن الوردى يقرظ قطعة شعرية لابن حبيب الحلبى
٢٩٠	البرهان القيراطى يقرظ الجمال بن نباتة
٢٩١	كتاب سجع المطوق لابن نباتة
٢٩٢	تقريظ الجلال القزوينى لابن نباتة
٢٩٤	تقاريظ مبهمة
٢٩٥	تقريظ ابن حجة الحموى لابن ناهض
٢٩٥	تقريظ البدر الدمامينى لابن ناهض
٢٩٧	التقريظ الثالث للمجد بن مكانس لابن ناهض أيضا
٢٩٨	أهجيتان :
٢٩٨	الأولى لابن الوردى فى القاضى الرباحى
٣٠٠	الثانية لمحى الدين بن عبد الظاهر إلى ناصر الدين بن النقيب يهجو إليه رجلا عابه
٣٠٤	تقاريظ أخرى
٣٠٥	الفصل السادس : الألغاز

الصفحة	الموضوع
٣٠٨	لغز فى « قدح » كتبه البدر الدمامينى إلى المجدبن مكانس
٣٠٨	ردابن مكانس على الدمامينى، ولغزه « فى « ورد »
٣٠٩	رد الدمامينى عليه
٣١١	ألغاز أخرى
٣١٢	الفصل السابع :خطب الكتب
٣١٣	خطبة للسيوطى فى كتابه « الخصائص الكبرى »
٣١٦	كلمة ختامية
٣١٦	كتب التاريخ
٣١٨	سطور لتاج الدين السبكى فى ترجمة أبيه
٣١٩	رسائل وفصول فى موضوعات متنوعة
٣١٩	التأليف الطاهر فى شيم الملك الظاهر
٣٢٥	تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم للبدر ابن جماعة
٣٢٩	سكردان السلطان لابن أبى حجلة المغربى

الصفحة	الموضوع
٣٣٤	ديوان الصبابة لابن أبى حجلة المغربى
٣٣٧	شروح الرسائل والقصائد :
٣٣٨	سرح العيون لابن نباتة
٣٠٩	تمام المتون للصفدى
٣٤٠	شرح البردة لخالد الأزهرى
٣٤٠	شرح بانت سعاد لابن هشام المصرى
٢٤٠	الغيث المسجم للصلاح الصفدى
٣٤٣	الموسوعات الجامعة :
٢٤٣	نهاية الأدب للنويرى
٣٤٧	مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى
٢٥٠	صبح الأعشى للقلقشندى
٢٥٣	المجموعات الأدبية :
٢٥٣	التذكرة الصفدية للصفدى
٢٥٨	ثمرات الأوراق لابن حجة الحموى
٢٦٠	المستطرف فى كل فن مستظرف للأبشيهى
٢٦١	حلبة الكميت للنواجى
٢٦٢	الكنز المدفون والفلك المشحون للسيوطى

الصفحة	الموضوع
٣٦٤	الباب الثالث : القصص
٣٦٤	تمهيد :
٣٧٠	الفصل الأول : المقامات
٣٧١	مقامة للشاب الظريف
٣٧٧	مقامات ابن الوردى
٣٧٧	التعريف بابن الوردى
٣٧٩	مقامة صفو الرحيق فى وصف الحريق
٣٨٢	المقامة الصوفية
٣٨٦	المقامة الأنطاكية
٣٨٨	المقامة المنبجية
٣٩١	المقامة المشهدية
٣٩٥	مقامتان لصفى الدين الحلى
٣٩٥	التعريف به
٣٩٧	الرسالة التوءمية
٣٩٩	رسالة الدار فى محاورات الفار
٤٠٥	مقامتان لصلاح الدين الصفدى
٤٠٥	التعريف به
٤٠٧	مقامة رشف الرحيق فى وصف الحريق
٤٠٩	كتابه دمعة الباكى ولوعة الشاكى
٤١٢	مقامة لشهاب الدين القلقشندى
٤١٢	التعريف به
٤١٣	مقامة « الكواكب الدرية »
٤٢١	مقامة لتقى الدين بن حجه الحموى
٤٢٥	مقامات جلال الدين السيوطى
٤٢٥	التعريف به
٤٢٧	مقاماته
٤٣٠	المقامة الوردية
٤٣٣	مقامات أخرى
٤٣٣	المقامة المكية
٤٣٦	المقامة الأسيوطية
٤٣٧	المقامة الجيزية
٤٣٨	المقامة السندسية
٤٤٠	الفصل الثانى : الحكايات
٤٤٠	ابن دانيال الموصلى وكتابه طيف لخيال
٤٤٠	التعريف بابن دانيال
٤٤٣	طيف الخيال
٤٤٧	تمثيليته الأولى
٤٦٥	تمثيليته الثانية
٤٨٠	تمثيليته الثالثة
٤٨٣	شهاب الدين بن عربشاه وكتابه « فاكهة الخلفاء »
٤٩٢	الفصل الثالث : كتب السير
٤٩٤	« عجائب المقدور فى أخبار تيمور » لابن عربشاه
٤٩٩	خاتمة
٤٩٩	سيرة الظاهر بيبرس
٥٠٠	بدائع الزهور

DATE DUE


JAFET LIB.
Circulation Dept.


JAFET LIB.
- 1 FEB 2005
Circulation Dept.

[redacted]
سليم ،محمود رزق،
عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01034431